

محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية

الدولة العباسية



الشيخ محمد الخضرى بك

راجعه واعتق به

الأستاذة / نجوى عيسى



مؤسسة

المختار

للنشر والتوزيع

أبو علي الكردي منتدى سور الأزيكية

الدولة العباسية
محمد الخضرى بك

الطبعة الأولى
(طبعة مؤسسة المختار الأولى)
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

رقم الإيداع : ٢٠٠٣/١٧٥٦٤
الترقيم الدولي : 3 - 97 - 5283 - 977 ISBN

مؤسسة المختار
للنشر والتوزيع

القاهرة : ٦٥ شارع النهضة - مصر الجديدة
تليفون : ٢٩٠١ ٥٨٣

محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية

الدولة العباسية

الشيخ محمد الخضرى بك

رأى به وعتق به

الأستاذة / نجوى عيسى

المختار مؤسسة

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمد الله، فإنني أقدم للمشتغلين بالتاريخ محاضراتي الثانية في تاريخ الأمم الإسلامية، وهي تنتظم تاريخ الدولة العباسية السياسي في المشرق. والتاريخ العباسي جزء عظيم من تاريخ المسلمين يبتدئ من (سنة ١٣٢) إلى (سنة ٦٥٦) أي (سنة ٥٢٤م)، وقد بقي يتهم بعد ذلك له اسم الخلافة بمصر إلى (سنة ٩٢٣)، ولكنني لم أسر معهم من العراق إلى مصر، وأبقيت تصارييف أحوالهم هناك إلى تاريخ مصر لما بين التاريخيين من الارتباط. وقد بذلت جهدي في تصوير حالهم السياسي من مبتدأ خلافتهم على أيدي دعائهم بخراسان والعراق إلى منتهائها على يد هولاءكو خان المغولي حفيد جنكيز خان، بينت تلك الحال في أدوار الدولة المختلفة من قوة وضعف مع توضيح الأسباب التي رفعت هذه الدولة إلى الذروة العليا من سعة الملك ونفوذ الكلمة، والأسباب التي نزلت بها إلى الحضيض من ضيق رقعة الملك وسقوط الهيبة وضعف النفوذ، وقد ختمت الحديث عنها بفصل إجمالي تلك الأسباب.

وتركت تاريخها العلمي لما رأيت من جعل ذلك في محاضرات خاصة تنتظم تاريخ الإسلام العلمي كله لارتباط بعضه ببعض ولعدم اتباع الحركة العلمية لقوة بنى العباس السياسية، فقد كانت الدولة العباسية في عهد آل سلجوق في حال ضعف سياسي شديد، لأن الخلفاء لم يكن لهم إذ ذاك إلا الاسم، ومع ذلك فقد كانت الحركة العلمية قوية. وإنني أعدُّ قُرْءاً كتابي هذا بمجموعة محاضرات الحركة العلمية في البلاد الإسلامية وأرجو من الله التوفيق.

وقد كانت الأقاليم الإسلامية في عهد الدولة العباسية ميداناً عظيماً للأفراد الذين ينتمون إلى بيوت قديمة المجد والأفراد العصامين، يتسابقون إلى التغلب عليها من بلاد الأندلس غرباً إلى بلاد الترك والهند شرقاً. فكم من دول قامت وعظمت مدنيتهما ثم انتهت بغلبة غيرها عليها، ومن هذه الدول من كان يقوم باسم الملك تاركاً اسم الخلافة لبنى العباس ومنهم من كان يقوم باسم الملك والخلافة جميعاً كالدولة الأموية بالأندلس، والإدرسية

بالمغرب الأقصى، والفاطمية بأفريقية ومصر، والزيدية بطبرستان، فرأيت من الواجب أن أذكر مع كل خليفة عباسي من كان في عصره متغلباً على أى إقليم من الأقاليم الإسلامية، وإذا ابتدأت دولة فى عهد خليفة ذكرت عنها جملة مختصرة تبين كيف نشأت والمدة التى قامت فيها وثبت ملوكها، وقصدت بذلك أن تكون الرقعة الإسلامية كلها واضحة الصورة فى جميع العصور. وقد أملت فى أكثر الأحيان بذكر الملوك المعاصرين فى أوروبا. ولا سيما الذين كانت لهم صلات بالدول المشرقية فى عهد الدولة العباسية كملوك الروم بالقسطنطينية وملوك فرنسا. وما عنت به أحوال البيت العلوى الذى ظل ينافس العباسيين من بدء دولتهم إلى سقوطها، وقد كانوا من أكبر الأسباب فى ضعف العباسيين وجرأة المخالفين لهم على خلافهم. فذكرت أحوال طوائفهم الكبرى الثلاث، وهى: الزيدية، والإمامية الاثنا عشرية، والإمامية الإسماعيلية - وما قامت به كل طائفة من الرجة فى أنحاء العالم الإسلامى.

وإنى أظن أن هذه المجموعة على صغر حجمها قد سدت حاجة كان المشتغلون بالتاريخ الإسلامى يشعرون بها. وأرجو من الله التوفيق لإتمام سلسلة هذا التاريخ إنه نعم المعين.

الدولة العباسية

البيت العباسي:

عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بقي عقبه من كثير من أولاده، ولكن العدد الأكبر والجمهور العظيم كان من ولديه العباس وأبى طالب، فقد ملأ بنوهما السهول والخزون من الأقاليم الإسلامية من أقصى حجر في بلاد المغرب إلى بلاد ما وراء النهر في أواسط آسيا. ولكل من البيتين تاريخ جليل بين تاريخ الأمم الإسلامية. ونحن الآن شارعون في تاريخ البيت الأول.

العباس بن عبد المطلب:

أمه نائلة بنت جناب بن كليب من النمر بن قاسط إحدى قبائل ربيعة بن نزار، ولد قبل حادث الفيل بثلاث سنين، فهو أسن من رسول الله ﷺ بثلاث سنين.

كان العباس من سادات بني هاشم وعقلائهم وكان صديقاً وفيّاً لأبى سفيان صخر بن حرب. ولما جاء الإسلام كان من المخلصين لرسول الله ﷺ وإن لم يظهر متابعتة. وكان هو الذي تولى إحكام الأمر لرسول الله مع الأنصار حين الهجرة، فقد قال لهم في ليلة البيعة: يا معشر الخزرج إنكم قد دعوتهم محمداً إلى ما دعوتوه إليه ومحمد من أعز الناس في عشيرته يمنعهم والله من كان منا على قوله ومن لم يكن منا على قوله منعة للحسب والشرف وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم، فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة فإنها سترميكم عن قوس واحدة فارتأوا رأيكم واثمروا أمركم ولا تفترقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع فإن أحسن الحديث أصدقه. وأخرى صفوا لى الحرب كيف تقاتلون عدوكم؟ قال فأسكت القوم وتكلم عبد الله بن عمرو بن جذام فقال: نحن والله أهل حرب غدينا بها ومرنا عليها وورثناها عن آبائنا كابراً عن كابر نرمي بالنبل حتى تنفي ثم نطاحن بالرماح حتى تكسر ثم نمشي بالسيوف فنضارب بها حتى يموت الأعجل منا أو من عدونا فقال العباس: أنتم أصحاب حرب فهل فيكم دروع؟ قالوا: نعم شاملة. وقال البراء بن معرور: سمعنا ما قلت، إننا والله لو كان في أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه ولكننا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ. وتلا رسول الله

ﷺ القرآن ثم دعاهم إلى الله ورغبهم في الإسلام وذكر الذي اجتمعوا له . فأجاب البراء بن معرور بالإيمان والتصديق فبايعهم رسول الله ﷺ على ذلك والعباس عبد المطلب آخذ بيد رسول الله ﷺ يؤكد له البيعة تلك الليلة على الأنصار .

ولما خرجت قريش إلى بدر أخرج العباس وبنو أخيه إليها كرهاً، ولذلك قال النبي ﷺ لأصحابه يوم بدر: من لقي منكم العباس وطالباً وعقيلاً ونوفلاً وأبا سفيان فلا تقتلوهم فإنهم أخرجوا مكرهين . وكان العباس في جملة أسرى بدر ففدى نفسه وفدى عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحرث بن عبد المطلب ثم رجع وأقام بمكة، وكان مقامه بها أنه كان لا يغيب على رسول الله ﷺ خبراً يكون إلا كتب به إليه، وكان من هناك من المؤمنين يتقون به ويصيرون إليه، وكان لهم عوناً على إسلامهم . ولقد كان يطلب أن يقدم على النبي ﷺ ، فكتب إليه عليه والسلام إن مقامكم مجاهد حسن . فأقام بأمر رسول الله ﷺ . وهاجر إلى المدينة قبل الفتح وحضر معه فتح مكة، وكان سبباً في نجاة أبي سفيان وفي تشريفه بقول رسول الله ﷺ : «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» . وحضر غزوة حنين وكان له فيها أحسن بلاء ثم خرج إلى المدينة فأقام بها .

وكان رسول الله ﷺ يحبه ويكرمه وعلى ذلك جرى الخلفاء من بعده وكانت وفاته في خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من رجب (سنة ٣٢) وهو ابن ثمان وثمانين سنة ودفن بالبقيع .

وأعقب من الولد الفضل وهو أكبر أولاده، وبه كان يكنى وعبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن وقثم ومعبد وأم حبيبة، وأهمهم جميعاً لبابه بنت الحارث بن حزن من بنى هلال بن عامر من قيس عيلان، وفي ولد أم الفضل هؤلاء من العباس يقول عبد الله بن يزيد الهلالي:

ما ولدت نجيبة من فحلٍ بجبل نعلمه أو سهل
كسنة من بطن أم الفضل أكرم بها من كهلة وكهل

وكان للعباس من غيرها كثير بن العباس وتمام وصفيه وأميمة وأهمهم أم ولد، والحارث وأمه جميلة بنت جندب من هزبل . وليس للفضل وعبد الرحمن وقثم وكثير وتمام عقب . عقب العباس من سواهم، ولا سيما من عبد الله فإنه هو الذي انتشر منه عقب العباس؛ وهو جد الخلفاء العباسيين .

عبد الله بن العباس:

هو ثانى ولد العباس بن عبد المطلب . ولد قبل الهجرة بستين، فكانت سنه حين توفي رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة . وكان عليه السلام يحبه ودعا له فقال: «اللهم علمه التأويل». فكان رضى الله عنه أعلم الناس بآيات القرآن وتأويلها والفقه فى الدين على ما أوتيته من لسان طلق، ذلق، غواص على موضع الحجة . وكان عمر رضى الله عنه يحبه ويدخله مع كبار الصحابة فى مجلس شوره الخاص ويستفتيه فى كثير من المسائل على صغر سنه . وولاه عثمان الموسم (سنة ٥٣) من الهجرة وهو محصور فأقام الموسم . ولما بويغ على رضى الله عنه بالخلافة كان له عضداً ونصيراً فى حروبه كلها وولاه البصرة وأعمالها ويقال إنه انحرف عنه أواخر أيامه وترك البصرة ورحل إلى مكة فأقام بالطائف، وقيل: إن ذلك كان بعد مقتل علىّ.

ظل ابن عباس مقيماً فى الطائف حياة معاوية كلها وكان معاوية يجله ويتودد إليه كثيراً كما كان يفعل مع سائر بنى هاشم، وكانت وفاته (سنة ٦٨) وعبدالله هو الذى غما من نسله البيت العباسى، لأن أخوته لم يكن لهم نسل باقى وعقب عبدالله الذى غما إنما هو من ولده علىّ بن عبدالله بن العباس.

على بن عبد الله بن العباس:

أمه زرعة بنت مشرح بن معد يكرب من كنده . ولد ليلة قتل على بن أبى طالب (سنة ٤٠) من الهجرة، فسمى باسمه وكنى بكنته أبى الحسن، وهو أصغر أولاد أبيه وكان سيداً شريفاً بليفاً ويقال كان أجمل قرشى على وجه الأرض وأوسمهم وأكثرهم صلاة، وكان مفرطاً فى الطول إذا طاف فكأنما الناس حوله مشاة وهو راكب من طرله . وقد أقطعه بنو أمية قرية اسمها الحميمة بالشراة (وهى صقع بالشام فى طريق المدينة من دمشق بالقرب من الشوبك وهو من إقليم البلقاء) فأقام بها وفيها ولد أكثر أولاده، وكانت وفاته (سنة ١١٧).

وأعقب علىّ اثنين وعشرين ولداً ذكراً وإحدى عشرة أنثى . وذكور أولاده هم محمد وداود وعيسى وسليمان وصالح وأحمد وبشر ومبشر وإسماعيل وعبد الصمد وعبد الله الأكبر وعبيد الله وعثمان وعبد الرحمن وعبد الله الأصغر ويحيى وإسحاق ويعقوب وعبد العزيز وإسماعيل الأصغر وعبد الله الأوسط . ستة منهم لا عقب لهم والباقيون أعقبوا كثيراً . ومنهم انتشر البيت العباسى وكثر جداً وبيت الخلافة فى محمد أكبر أولاده .

محمد بن على،

هو والد إبراهيم الإمام وأبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور الذين هم مبدأ الخلافة العباسية. وهو الذى ابتدأت الدعوة على يديه، وكان ذلك فى حياة أبيه على، ولكن لم يكن لأبيه ذكر فى هذه الدعوة.

وحيث قد ذكرنا هذا البيت الرفيع العماد. فلنشرع فى بيان كيف وجدت فكرة الخلافة عند العباسيين وكيف كانت الدعوة إليهم وكيف تمكنوا من قلب الدولة الأموية والحلول محلها.

كيف نشأت فكرة الخلافة في بنى العباس

توفى رسول الله ﷺ وليس يؤثر عنه خبر مكشوف فيمن يتولى خلافة المسلمين بعده، وكان العباس بن عبد المطلب قد أشار على بنى العباس أن يدخل على رسول الله ﷺ وهو مريض فيسأله عن الخلافة بعده فإن كانت فيهم وإلا أوصى بهم من سيكون خليفة. فامتنع من ذلك على قائلًا: إنه إن منعنا إياها لا ننالها أبدًا.

توفى رسول الله ﷺ والحال ما ذكرنا. فمال الجمهور الإسلامى إلى مبايعة أبى بكر الصديق رضى الله عنه بعد المناظرات التى جرت بين المهاجرين والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة. وكانت هناك فئة قليلة تميل إلى أن تكون الخلافة فى بنى هاشم رهط النبى الأدين. ولم يكن فيهم من أعمامه إلا العباس بن عبد المطلب وكان من بنى أعمامه جماعة رأسهم وذو الفضل والسابقة فيهم على بن أبى طالب. ومع أن العباس كان فى ذلك الوقت أسن بنى هاشم لم يكن من هذه الفئة القليلة من يقدمه على بنى أبى طالب لما لعل من المزايا الكثيرة التى بينها فيما سبق. وكان على نفسه يرى أنه أحق الناس أن يكون خليفة بعد الرسول الله ﷺ وكذلك كانت ترى فاطمة زوجه. ومن أجل ذلك امتنع عن مبايعة أبى بكر مدة حياة فاطمة رضى الله عنها. فلما ماتت دخل فيما دخل فيه الجمهور، وبايع أبى بكر على ملا من الناس.

عاش على والعباس فى عهد أبى بكر، ثم بايعا عمر لما عهد إليه أبو بكر بالخلافة وظلا مدة حياته محترمين مطيعين. إلى أن استخلف ثالث الخلفاء عثمان بن عفان بعد مناظرات طويلة بين رجال الشورى الذين عهد إليهم عمر اختيار الخليفة من بعده، وكان يرى أن رجال الشورى اتبع كثير منهم هواه فى العدول عنه.

وفى أواخر خلافة عثمان توفى العباس بن عبد المطلب تاركاً عقباً كثيراً أشهرهم عبد الله بن عباس وهو ثانى أولاده ولم يعلم أن أحداً منهم كان يتطلع إلى الخلافة أو يأمل أن تكون له أو لأحد من أولاده.

بعد مضى ست سنوات من خلافة عثمان، وجدت حركة فى بعض النفوس تتجه إلى

نقل الخلافة من عثمان بن عفان إلى عليّ بن أبي طالب، وقام بأمر ذلك دعاة انتشروا في الأمصار الإسلامية الكبرى وهي الكوفة والبصرة والفسطاط، وتذرعوا إلى ذلك بالغيب في ولاية عثمان والظعن فيهم بأعمال زعموهم ارتكبوها. وكان من في مصر يكتب إلى من في مصر الآخر بما عندهم من ذلك فيشيعونه بين الناس، فيقول الناس: أما نحن ففى عافية مما ابتلى به هؤلاء وجميعهم يكتبون إلى ناس في المدينة بمثل ذلك حتى ملأوا البلاد طعناً. ولما وجدوا لذلك ارتياحاً من بعض النفوس انتقلوا من ذلك إلى الظعن في عثمان نفسه، فنسبوا إليه أموراً منها ما هو غير صحيح، ومنها ما هو صحيح وقد فعل أسلافه مثله فلم يقدر أن يطعن فيهم طاعن، وساعدهم لين عثمان وخوفه من فتح أبواب الفتنة على ما قصدوا إليه.

ألفت وفود غوغاء من الأمصار الثلاثة، ممن تأثر بهذه الفتنة فذهبت إلى المدينة وهي حرم رسول الله ﷺ وحضارة الإسلام الكبرى ومقر الخلافة الإسلامية متظاهرين ببث شكواهم من عمال عثمان، فأشكاهم عثمان من جميع ما شكوا منه، ولأن لهم جداً حتى لا يوجد لهم سبيلاً إلى الفتنة، فأظهروا الاقتناع وأزمعوا الرحيل إلى أوطانهم، وصار كل وفد في الطريق التي توصله إلى مصره. وبعد أيام عادت هذه الغوغاء متمسكة بكتاب مزور زعموه صادراً من عثمان إلى عامله بمصر يأمره فيه بقتل رجال الوفد من المصريين عقاباً لهم وتنكيلاً، والكتاب مختوم بخاتم عثمان. فلما أروه إياه حلف لهم أنه ما كتبه ولا أمر بكتابه، وهو صادق في يمينه، فاتهموا بذلك كاتبه مروان بن الحكم وطلبوا منه أن يسلمهم إياه فأبى فأعلنوا العداء وصرحوا بما في أنفسهم من الشر، وحاصروا عثمان في داره مدة ثم اقتحموا عليه داره وقتلوه ظلماً وعدواناً ففتحوا على المسلمين باب فتنة وانقسام لا يغلقه مرور الزمان ولا كر الأيام.

بعد أن تم لهم ما أرادوا عرضوا الخلافة عليّ بن أبي طالب فقبلها بعد تردد. أمضى رحمه الله حياته في حرب مخالفيه في البصرة والنهروان وصفين، ولم تصف له الخلافة يوماً واحداً إلى أن اغتاله أحد الخوارج في رمضان (سنة ٤٠) من الهجرة من حاضرة خلافته وهي الكوفة.

كان الجمهور الإسلامي في ذلك الوقت قد انضم إلى خصمه معاوية بن أبي سفيان حيث كان في بيعته أهل الشام الذين هم أنصاره وأهل الحجاز واليمن ومصر. أما الكوفة فكانت مقرأً لشيعته عليّ ومحبيه الذين كان منهم من يرى تفضيله لا على خصمه معاوية فقط بل على من سبقه من الخلفاء أيضاً. ومع هذا فإنه لم ينل منهم ما يناسب تلك العقيدة من الطاعة والإخلاص. بل كثيراً ما أهملوا أوامره التي كان يصدرها إليهم من جهة الاستعداد لحرب أهل الشام. ولذلك أسباب لئسنا بصدد بيانها الآن.

لما قتل رحمه الله رأت الشيعة أن يقوم في الخلافة مقامه ابنه الحسن وهو السيد العظيم الشأن: أبوه عليّ بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت محمد ﷺ. وقد رأى رضى الله عنه بثاقب فكره أن الذين لم ينل منهم أبوه ما يرجوه لا يحسن الاعتماد عليهم، ففضل الصلح مع معاوية على شروط واشترطها لنفسه ولأتباعه وتنازل عن الخلافة مفضلاً جمع كلمة المسلمين والسكنى بطيبة مدينة رسول الله ﷺ، وأقام على ذلك حتى توفي بها (سنة ٥٠) من الهجرة.

وظل معاوية يسوس الناس بما عرف عنه من لين العريكة وسخاوة اليد، فاجتمعت الأمة على طاعته والرضا به، وسكنت الدعوة إلى أهل البيت، وخبث نار التشيع إلا أنها كانت مستكنة في أنفس ذويها ينتظرون الوقت الملائم للهبوب.

أدلى معاوية بالخلافة لابنه يزيد، فلما تولاها هبت أعاصير الفتنة في المدينة ومكة والكوفة. فأما المدينة فثارت تطلب عزل يزيد وتولى كبر الثورة بعض أبناء الأنصار ولكن هذه الثورة قمعت بشدة مسلم بن عقبة المرى الذى أوقع بأهلها وقعة الحرة المشهورة، وأما مكة فعاذ بها عبد الله بن الزبير طالباً الخلافة لنفسه.

وأما الكوفة فإن من بها من الشيعة أرسلوا يطلبون إليهم الحسين بن على شقيق الحسن لييايعوه بالخلافة وينزعوا من أعناقهم بيعة يزيد، فلم يكن من الحسين إلا أن لى دعوتهم مع علمه بتاريخهم مع أخيه وأبيه، وسار إليهم من غير جند يركن إليه ولا مال يستعين به. فقابلته ببعض الطريق جنود عبد الله بن زياد عامل يزيد بالعراق وكلها جنود عراقية ليس بها أحد من أهل الشام، فلم يكن له قبل بمدافعتهم وقتل رحمه الله بكرىلاء. ولم تقم شيعة أبيه بشيء من المساعدة بل ظلوا فى مساكنهم آمنين مطمئنين ولسان حال الحسين يقول:

لا ألفينك بعد الموت تندبنى وفى حياتى ما زودتنى زادى

انتهت هذه الحوادث ومات يزيد، وعظم أمر ابن الزبير ودخل فى دعوته أهل الحجاز ومصر والعراق، وأبى أن ييايعه رجال بنى هاشم الذين كانوا بمكة كمحمد بن على المشهور بابن الحنفية وعبد الله بن عباس وغيرهما فاضطهدهم وجسهم.

ظهر فى تلك الأوقات رجل أراد أن يتفجع من وراء هذه الفتن ويجعل لنفسه مركزاً فى البلاد العراقية، مستعيناً بما تضرمه قلوب أهل الكوفة من التشيع لأهل البيت، وهو المختار بن أبى عبيد الشقفى. فذهب إلى الكوفة لابساً ثوب التشيع ناعياً على من قتل الحسين بن

على وداعياً إلى الإمام المهدي وهو محمد بن علي الذي صار بعد أخويه أكبر أبناء عليّ رضي الله عنه، وتوسل إلى غايته بكل ما يمكن من عبارات التأثير حقاً كانت أم كذباً، وكان عقلاء أهل الكوفة يسمونه الكذاب لكثرة ما كان يصدر عنه من الأكاذيب التي تؤثر عادة في أنفس الغوغاء. وقد أمكنه أن يجتذب إلى نفسه رؤساء الشيعة في الكوفة، وأرسل إلى محمد بن عليّ وهو مضطهد محبوس بمكة جنداً يخلصونه من شدته فنجحوا. واجتمع في حج هذه السنة بمكة أربعة ألوية: لواء لابن الزبير، ولواء لبنى أمية، ولواء للخوارج، ولواء لأصحاب محمد بن عليّ، إلا أن الله حفظ الحاج فلم يقع قتال بين هذه الجنود المختلفة الأهواء التي يكره بعضها بعضاً.

لم يطل حبل المختار بالكوفة فإن عبد الله بن الزبير جهز له جيشاً يقوده أخوه مصعب فسار إليه، ومالاه أكثر أشراف أهل العراق لما ظهر لهم من أكاذيب المختار وسوء طويته، وبذلك كانت الغلبة لمصعب. إلا أن ذلك لم يقضى على التشيع في بلاد العراق بل ظل كامناً ينتظر من يثيره لينتفع منه.

أما محمد بن عليّ فإنه بايع عبد الملك بن مروان بعد أن استقر الأمر له وقضى على فتنة ابن الزبير ودانت له الأقاليم الإسلامية كلها، ومع قيامه بهذه البيعة لم تزل له شيعة تراه أحق بالخلافة إلا أنه مغلوب على أمره، حتى إنه لما مات غلا فيه بعضهم فأنكر موته، وقال: إنه تغيب وسيرجع، وقال في ذلك شاعرهم السيد الحميري:

ولا الحق أربعة سواء	ألا إن الأئمة من قريش
هم الأسباط ليس بها خفاء	على والأئمة من بنيـه
وسبط غيبته كربلاء	فسبط سبط إيمان وبر
يقود الخيل يقدمها اللواء	وسبط لا يذوق الموت حتى

اضطربت أفكار الشيعة بعد موت محمد بن عليّ، فمنهم من استمر على ولائه وقال بغيبته ورجعته كما قلنا. ومنهم من تولى بعده ابنه أبا هاشم، ويقال لهذا الفريق والذي قبله الكيسانية؛ ينسبون إلى كيسان وهو لقب للمختار بن أبي عبيد.

ومنهم من تولى بعد الحسين ابنه علياً المعروف بزين العابدين وهو ممن بايع يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان ولم يعرف عنه أنه طلب الخلافة لنفسه، قال هؤلاء إن الخلافة محصورة في أولاد عليّ من فاطمة رضي الله عنها، ولما كان الحسين هو الذي قتل دون الخلافة فهي في عقبه؛ وعليّ هو الذي بقى من أولاد الحسين بعد وقعة كربلاء. وقد يقولون: إن علياً هو الوصي أوصى إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخلافة، ثم

الإمام من بعده الحسن، ثم الحسين، ثم على، وهكذا لا بد للأمة من إمام منصوب عليه، ويقال لهؤلاء الشيعة الإمامية.

كان أكبر ولد العباس في ذلك الوقت على بن عبد الله بن عباس وهو الذي انتشر منه العباسيون. وكان قد فارق الحجاز وأقام بالحميمة التي أقامه بها بنو أمية والتي أنزل به الوليد بن عبد الملك. وقد ظهرت فكرة انتقال الخلافة إلى ولد العباس منذ على هذا، ويقال إن السبب في ذلك أن أبا هاشم بن محمد بن على بن أبي طالب لما حانت منيته كان مقيماً بالحميمة عند بنى عمه فأدلى بنصيبه من الخلافة إلى على هذا وأولاده وأوصى أوليائه به فصارت الشيعة الكيسانية في جانب على بن عبد الله بن عباس.

أما بقية الشيعة فإنهم بعد وفاة على زين العابدين افترقت بهم الطرق: فمنهم من تولى بعده ابنه محمداً الباقر زاعمين أنه الإمام بعد أبيه. ومنهم من قال إن الخلافة حق لكل فاطمي اتصف بصفات العلم والشجاعة والسخاء، ومن هؤلاء من قام بمساعدة زيد بن على بن الحسين، وهم المعروفون بالشيعة الزيدية.

والذين حاولوا الوصول إلى الخلافة وانتزاعها من بنى أمية هم الشيعة الكيسانية الذين ساعدوا على بن عبد الله، والشيعة الزيدية الذين ساعدوا زيدا وابنه يحيى.

وكانت وفاة على بن عبد الله ومحمد الباقر في زمن متقارب بالحميمة، فانتقل ولاء الكيسانية إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس لأن أباه أوصى إليه وانتقل ولاء الإمامية إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر، ولم يفعل أنصار الأئمة شيئاً ليرجعوا الخلافة إلى ذوى الحق فيها حسب رأيهم.

أما محمد بن على بن عبد الله بن عباس فهو يعسوب القوم وذو العقل الراجح فيهم. فلإنه رأى أن نقل السلطان من بيت إلى بيت لا بد أن يسبق بإعداد أفكار الأمة إلى هذا النقل وأن كل محاولة فجائية، لا بد أن تكون عاقبتها الفشل، فرأى أن يسير في المسألة بالأناسة المصحوبة بالحزم، فعهد إلى شيعته أن يؤلفوا منهم دعاة يدعون الناس إلى ولاية أهل البيت بدون أن يسموا أحداً خوفاً من بنى أمية أن يقضوا على المدعو إليه إذا عرف، ورأوا أن أحسن منطقة ييثون فيها الدعوة هي الكوفة وبلاد خراسان. أما الكوفة فهي مهد التشيع لأهل البيت من قديم يمكنهم أن يأووا إليها ويجعلوها نقطة مواصلاتهم. وأما خراسان فسهولة الدعوة فيها مبنية على أمرين:

الأول: أن فكرة التشيع يفهمها الخراساني من المسلمين بسهولة لأنه مؤداها نقل الخلافة

إلى بيت النبي ﷺ صاحب الرسالة وسيد الأمة، وذلك قريب مما كان عندهم من الملك الذى يتوارثه أهل بيته، ولا يجوز نقله إلى غير بيت الملك إلا إن كان ذلك عن اختلاس.

الثانى: أن البلاد الفارسية كانت ذات تاريخ وملك قديمين ولذلك فائدة كبيرة فى حياة النفوس وقد عاملهم بنو أمية معاملة السادة للعبيد، فكان العنصر العربى بينهم هو صاحب الكلمة العليا والنفوذ السائد ولا يتولى من ليس منهم شيئاً من الولايات العامة، فكان أهل فارس مستعدين لأن يقوموا بتغيير الدولة الحاضرة وإخراج الخلافة إلى الدولة المستقبلية كى يكون لهم فيها حظ أحسن من حظهم فى دولة بنى أمية. قال أبو بكر بن أحمد بن محمد الهمدانى المعروف بابن الفقيه فى كتاب البلدان:

وقد قال محمد بن على بن عبد الله لدعاته حين أراد توجيههم إلى الأمصار: أما الكوفة وسوادها فشيعة على وولده. وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف، تقول: كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل. وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون فى أخلاق النصارى. وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة بنى مروان وعداوة راسخة وجهل متراكم. وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر. ولكن عليكم بخراسان، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة. وبعد فإنى أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق.

تأليف الجمعية السرية للدعوة

ابتدأ تأليف هذه الجمعية وعلى بن عبد الله بن عباس حتى لم يمّت بعد، لأنها ابتدأت في أول القرن الثاني وعلى لم يمّت إلا (سنة ١١٧) على قول و(سنة ١١٤) على قول. وكان الخليفة من بنى أمية إذ ذاك عمر بن عبد العزيز بن مروان، وكانت تتألف من كثير من الدعاة والرؤساء.

وجعل للدعوة مركزان: أحدهما: بالكوفة التي اعتبرت نقطة المواصلات وأقيم فيها مسيرة مولى على بن عبد الله. والثاني بخراسان التي هي محل الدعوة الحقيقي، ووجه إليه محمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج، واختير من الدعاة اثنا عشر نقيباً وهم:

- ١ - سليمان بن كثير الخزاعي.
- ٢ - مالك بن الهيثم الخزاعي.
- ٣ - صلحة بن زريق الخزاعي.
- ٤ - عمرو بن أعين الخزاعي.
- ٥ - عيسى بن أعين الخزاعي.
- ٦ - قحطبة بن شبيب الطائي.
- ٧ - لاهز بن قريظ التميمي.
- ٨ - موسى بن كعب التميمي.
- ٩ - القاسم بن مجاشع التميمي.
- ١٠ - أبو داود خالد بن إبراهيم الشيباني.
- ١١ - أبو على الهروي شبل بن طهمان الخنفي.
- ١٢ - عمران بن إسماعيل المعيطي.

واختار سبعين رجلاً ليكونوا مؤتمرين بأمر هؤلاء، وكتب إليهم محمد بن عليّ كتاباً ليكون لهم مثلاً وميرة يسرون بها.

وقد ظل رجال الدعوة يشتغلون بها من مفتح القرن الثاني إلى (سنة ١٣٢)، وهي السنة التي تم فيها النجاح وبويع فيها لأبي العباس السفاح.

وهذه المدة تنقسم إلى قسمين متميزين: الأول عصر الدعوة المحضّة الخالية عن استعمال القوة وذلك قبل أن ينظم إلى القوة أبو مسلم الخراساني، وذلك في الوقت الذي كانت الدولة الأموية فيه متماسكة القوى لم ينقسم فيها البيت المالك على نفسه ولم تحصل العصبيّة القوميّة بين جند هذه الدولة بخراسان وذلك نحو (٢٧ سنة). والعصر الثاني عصر استعمال القوة مع الدعوة حينما تهيأت الأسباب الداعية إلى ذلك.

العصر الأول

(من سنة ١٠٠ إلى سنة ١٢٧)

كان الدعاة فيه يجوبون البلاد الخراسانية. ظاهر أمرهم التجارة وباطنه الدعوة، يتجهزون الفرص ثم يبلغون أمرهم إلى القائم بالكوفة وهو يوصله إلى الحميمة أو إلى مكة حيث يجتمع المسلمون لأداء فريضة الحج. وكان ذلك المجتمع أعظم سائر لأمر الدعاة لأنهم كانوا إذا قفلوا من خراسان سافروا حجاجاً. وكانت إقامة محمد بن على بالحميمة سبباً آخر فى انتظام المواصلات وكنتم سرها.

وكان أول ما ظهر من أمرهم بخراسان (سنة ١٠٢) حيث جاء رجل من تميم إلى أمير خراسان سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص الذى يقال له سعيد خذينة وقال له: إن ههنا قوماً قد ظهر منهم كلام قبيح، فبعث إليهم سعيد فأتى بهم فسألهم: من أنتم؟ قالوا: أناس من التجار؟ قال: فما هذا الذى يحكى عنكم؟ قالوا: لا ندري؟ قال: جئتم دعاة؟ فقالوا: إن لنا فى أنفسنا وتجارنا شغلاً عن هذا. فسأل من يعرف هؤلاء، فجاء أناس من أهل خراسان جلهم من ربيعة واليمن، فقالوا: نحن نعرفهم وهم علينا إن أذاك منهم شئ تكرهه. فخلى سبيلهم.

وفى (سنة ١٠٥) انضم إلى هذه الجمعية بكير بن ماهان وهو شيخ عظيم من شيوخ هذه الدولة وكبار دعائها وكان موسراً فساعد القوم بماله، وصادف أن توفى فى ذلك الوقت ميسرة القائم بالكوفة، فأقامه محمد بن على مقامه فكان هو ربان هذه الدعوة يأتمر الدعاة بأمره ويسرون فى الطريق التى يشرعها لهم.

كان من أول النكبات التى لحقت بهم أنه وشى بجمع من دعائهم إلى أسد بن عبد الله القسرى أمير خراسان وهو وال شديد قاس فأتى بهم وفيهم أبو عكرمة وأبو محمد الصادق ومحمد بن خنيس وعمار العبادى فقطع أيدي من ظفر به منهم وأرجلهم وصلبهم، وأفلت عمار العبادى حتى أتى الكوفة فأخبر بكير بن ماهان بذلك الخبر المشؤوم، فكتب به إلى

محمد بن على فأجابه: «الحمد لله الذى صدق مقاتلكم ودعوتكم وقد بقيت منكم قتلى ستقتل» وقد وقع بعد ذلك عمار العبادى فى يد أسد فألحقه بإخوانه.

وكان أسد بن عبد الله أشد ولاية خراسان على الشيعة فكان لا يرحم أحداً منهم وقع فى يده بل شرد بهم ونكل ونفى من نفى وقتل من قتل ولذلك لم يكن للدعوة فى أيامه كبير أثر حتى عزل عن خراسان (سنة ١٠٩) وتلك ولايته الأولى ثم ولى خراسان مرة ثانية فأعاد معهم سيرته الأولى. ففى (سنة ١١٧) أخذ جماعة منهم فقتل بعضهم ومثل ببعضهم وحبس بعضهم وكان فيمن أخذ سليمان بن كثير شيخ الدعوة ومالك بن الهيثم وموسى بن كعب ولاهز بن قريظ وخالج بن إبراهيم وطلحة بن زريق وغيرهم من النقباء فأتى بهم فقال: يافسقة ألم يقل الله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (المائدة: ٩٥) فقال سليمان بن كثير: أتكلم أم أسكت؟ قال: بل تكلم قال: نحن والله كما قال الشاعر:

لو بغير الماء خلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى

تدرى ما قصتنا صيدت والله العقارب بيدك أيها الأمير إنا أناس من قومك (اليمن) وإن هذه المضربة إنما رفعوا إليك هذا لأننا كنا أشد الناس على قتيبة بن مسلم وإنما طلبوا بثأرهم. فانظر كيف كان القوم يستعملون العصبيات القومية فى أخرج مواقفهم للخلاص مما يقعون فيه أحياناً وقد كان ذلك الجواب سبباً فى خلاص هؤلاء النقباء مما وقعوا فيه حيث وجدوا من قومهم من يدبر مع الأمير أمر خلاصهم وقد خلصوا وكانت وفاة أسد (سنة ١٢٠) فتنفست الشيعة بخراسان بعد وفاته.

حصل بعد ذلك فى العالم الإسلامى ما كان له أعظم الفضل فى نجاح «الشيعة وقصور أعدائهم عن فل حدهم وذلك:

أولاً: انشقاق البيت الأموى حتى تزعزع بنيانه وتصدعت أركانه وأول ذلك كان بخروج يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان على ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك واستعان على ذلك بالقدح فى الوليد ونسبته إلى العظام من الفسوق والكفر وإحلال ما حرم الله فكان معه قوم ساعدوه على ذلك وكان بعض بنى أمية يتمثل بقول الشاعر:

إنى أعيذكُم بالله من فتن	مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إن البرية قد ملت سياستكم	فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذناب الناس أنفسكم	إن الذناب إذا ما ألحمت رتعوا

لا تبقرن بأيديكم بطونكم فثم لا حسرة تغنى ولا جزع

ولما تم ليزيد أمره ولم يعبأ بقول ناصح انتهز بعض أهل بيته هذه الفرصة لينال الخلافة وهو مروان بن محمد بن مروان فإنه كتب إلى الغمر بن يزيد أخى الوليد يهيجهُ للمطالبة بدم أخيه وقال فى ذلك الكتاب: «أما بعد فإن هذه الخلافة من الله على مناهج رسله وإقامة شرائع دينه أكرمهم الله بما قلدهم يعزهم ويعز من يعزهم والحين على من ناوَاهم فابتغى غير سبيلهم فلم يزالوا أهل رعاية لما استودعهم الله منها يقوم بحققها ناهض بأنصار لها من المسلمين، وكان أهل الشام أحسن خلقه فيه طاعة وأذبه عن حرمه وأوفاه بعهده وأشدّه نكاية فى مارق مخالف ناكث ناكب عن الحق، فاستدرت نعمة الله عليهم وقد عمر بهم الإسلام وكبت بهم الشرك وأهله وقد نكثوا أمر الله وحاولوا نكث العهد وقام بذلك من أشعل ضرامها وإن كانت القلوب عنه نافرة. والمطلوبون بدم الخليفة ولاته من بنى أمية، فإن دمه غير ضائع وإن سكنت بهم الفتنة والتأمت الأمور فأمر الله لا مرد له وقد كتبت بحلك فيما أبرموا وما ترى فلانى مطرق إلى أن أرى غيراً فأسطوا بانتقام وأنتقم لدين الله المبتول وفرائضه المتروكة مجاناً ومعى قوم أسكن الله طاعتى قلوبهم أهل إقدام إلا ما قدمت به عليهم ولهم نظراء صدورهم مترعة ممتلئة لو يجدون متزعاً وللنقمة دولة تأتى من الله ووقت موكل ولم أشبه محمداً ولا مروان غير أن رأيت غيراً إن لم أشمر للقدرية إزارى وأضربهم بسيفى جارحاً وطاعناً يرمى قضاء الله فى ذلك حيث أخذ أو يرمى فى عقوبة الله حيث بلغ منهم فيها رضاه وما إطراقى إلا لما أنتظر مما يأتينى عنك فلا تدعن ثارك بأخيك فإن الله جارك وكافيك وكفى بالله طالباً ونصيراً».

وكان مروان فى ذلك الوقت أميراً للجزيرة وأرمينية ومعه جيش كبير يآتمر بأمره ولم يزل حتى أقدم على طلب الخلافة مستمسكاً بهذا الحبل حتى نالها ولم يكن نيله لها بمزِيل أسباب الخلاف والانشقاق فى هذا البيت ولا شبهة أن انشقاق البيت المالك يحدث بطبيعة الحال انشقاقاً فى قوة الدولة فلا تقوى على مصادمة عدوها.

ثانياً: ظهور العصبيّة القومية فى خراسان وانشقاق القبائل العربية وذلك أن العرب يرجعون إلى شعيبين عظيمين قحطان ونزار، وملك العرب القديم كان فى اليمن، فلما جاء الإسلام تحول إلى نزار لمكان رسول الله ﷺ وكان أمر النبوة والوحى قد باعد بين الناس وحمية الجاهلية فتآخى اليمانيون والنزاريون ووجهوا قوتهم المتحدة إلى أعدائهم فنالوا فى زمن قليل ما لم تتله أمة قبلهم فى مثل الزمن الذى ارتفع فيه قدرهم.

ولما طال الزمن تراجع الناس إلى شئ مما كانوا عليه فى الجاهلية بسبب أمراء السوء

الذين كانوا يحيون لهم تلك الجاهلية من غير أن ينظروا إلى سوء مغبتها وظهر ذلك فى أقوال شعرائهم التى لها أثر شديد فى أنفسهم وقد أدرك بعض شعرائهم النتائج السيئة من ذلك فقال الحارث بن عبد الله بن الحشر الجعدى:

أبيت أرعى النجوم مرتفقاً	إذا استقلت تجرى أوائلها
من فتنة أصبحت مجللة	قد عم أهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن	بالشام كل شجاء شاغلها
فالناس منها فى لون مظلمة	دهماء ملتجة غياطلها
يمسى السفية الذى يعنف بالجهـ	ل سواء فيها وعاكلها
والناس فى كربة يكاد لها	تنبذ أولادها حواملها
يعدون منها فى كل مبهمة	عمياء تمنى لها غوائلها
لا ينظر الناس فى عواقبها	إلا التى لا يبين قائلها
كرغوة البكر أو كصيحة حبـ	لى طرقت حولها قوابلها
فجاء فينا أزرى بوجهته	فيها خطوب حمر زلازلها

وهذا أحسن وصف سمعته وصف الفتن وغمرها الناس كافة من سفية وحليم. كان بخراسان واليان مختلفان جاء أحدهما بعد الآخر، فأما أولهما فهو أسد بن عبد الله القسرى وهو من اليمن فكان ضلعه مع قومه من أهل اليمن يتعصب لهم وكان شيعة بخراسان قوية إلى قوة الدولة نفسها فلم يكن هناك ما يهيجه. وثانيهما نصر بن سيار وهو من كنانة ثم من مضر فكان ضلعه من قومه إلا أن شيعة بخراسان لم تكون بذلك وقد كان هشام بن عبد الملك بن مروان الذى ولاه يعلم ذلك فإنه لما استشار فيمن يولى خراسان بعد أسد كان مستشاره يسمى له أشخاصاً بما لهم من محامد ومذام، فلما جاء ذكر نصر بن سيار قال: إن اغتفرت له واحدة فإنه عفيف مجرب عاقل قال هشام: وما هى؟ فقال المشير: عشيرته بها قليلة، فقال هشام: أتريد عشيرة أكثر منى أنا عشيرته. وهذه جملة صحيحة فى زمن قوة الدولة الناشئة عن اتحاد الفاتحين فأما بعد الانصداع فليست بصحيحة.

ظهر الانشقاق فى عهد نصر بن سيار هذا بين النزارية واليمانية وكان رئيس النزارية وكبيرهم نصر بن سيار الأمير وكبير اليمانية جديع بن شبيب المعنى المعروف بالكرمانى،

وإنما عرف بذلك لأنه وُلِدَ بكرمان، وكان نصر والكرمانى قبل ذلك متصافين إلا أن الفتنة الناشئة عن حمية الجاهلية فرقت بينهما، وكانت النزارية أيضاً منشقة فريسة في جانب ومضر في جانب. وكان أكثر ربيعة مع شيان بن سلمة الحرورى الخارج على الدولة يطلب العمل بكتاب الله وسنة رسوله فكانت هذه الفرق الثلاثة متعادلة.

حصلت حروب بين نصر والكرمانى وكانت القوة للكرمانى فأجلى نصرأ عن مرو حاضرة خراسان فهدم اليمينيون دور المضرية فقالت امرأة من ضبة وهى أم كثير الضبية:

لا بارك الله فى أنثى وعذبها	تزوجت مضرباً آخر الدهر
أبلغ رجال تميم قول موجعة	أحللتموها بدار الذل والفقر
إن أنتم لم تكروا بعد جولتكم	حتى تعبدوا رجال الأزد والظهر
إنى استحييت لكم من بذل طاعتكم	هذا المزونى يجيبكم على قهر

وقال شاعر آخر:

ألا يا نصر قد برح الخفاء	وقد طال التمنى والرجاء
وأصبحت المزون بأرض مرو	تقضى فى الحكومة ما تشاء
يجوز قضاؤها فى كل حكم	على مضر وإن جار القضاء
وحمير فى مجالسها قعود	ترقرق فى رقابهم الدماء
فإن مضر بذأ رضيت وذلت	فطال لها المذلة والشقاء
وإن هى أعتبت فيها وإلا	فحل على عساكرها العفاء

وفى أثناء وقوع هذه الحوادث توفى محمد بن على إمام الشيعة الذى يدعون إليه وأدلى بالأمر من بعده إلى ابنه إبراهيم وأعلم الشيعة بذلك، فقاموا بالدعوة إليه مكان أبيه. ثم توفى بكير بن ماهان شيخ الشيعة بالكوفة فأقام إبراهيم بن محمد مكانه حفص بن سليمان المعروف بأبى سلمة الخلال وأصله مولى لبني الحارث بن كعب وكان صهرأ لبكير بن ماهان فأوصى إبراهيم أن يقيمه مكانه.

واتصل بإبراهيم فى تلك الأوقات شاب من نوابع الشبان وذوى المقدرة والعزيمة وهو أبو مسلم الخراسانى وأصله مولى لعيسى بن معقل العجلى اشتراه منه بكير بن ماهان وعنه تلقى أصول التشيع، ثم اتصل بمحمد بن على (سنة ١٢٥) ثم بابنه إبراهيم وكانت تظهر

عليه مخايل النجابة وقوة العزم، وكانت الشيعة بخراسان فى حاجة إلى مثله ليشروعوا فى العمل بعد أن أمكتهم الفرصة بما وقعت فيه الدولة الأموية من الخلاف وما يقع فيه عرب خراسان من الانشقاق فاختار إبراهيم أبا مسلم لتلك المهمة وكتب إلى أصحابه إنى قد أمرته بأمرى فاسمعوا منه واقبلوا قوله، فإنى قد أمرته على خراسان وما غلب عليه بعد ذلك وكان مما أوصى به أبا مسلم قوله:

«يا عبد الرحمن إنك رجل منا أهل البيت فاحتفظ وصيتى. وانظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، وانظر هذا الحى من ربيعة فاتهمهم فى أمرهم وانظر هذا الحى من مضر فإنهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه ومن كان فى أمره شبهة ومن وقع فى نفسك منه شئ وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل فأما غلام بلغ خمسة أشبار تهمه فاقتله ولا تخالف هذا الشيخ (يعنى سليمان بن كثير) ولا تعصه وإن أشكل عليك أمر فاكتف به منى».

وإنما أمره بتقريب أهل اليمن لأنهم أعداء الدولة الحاضرة للعصية التى كانت نارها مشتدة بين أهل خراسان إذ ذاك ولهذا السبب أوصاه بالشدة على مضر، فإنهم كانوا أصحاب الدولة. وما يدل على اعتماد بنى العباس على أهل خراسان دون العرب قول الإمام: (وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل). سار أبو مسلم مزوداً بهذه الوصية حتى حل بخراسان وذلك (سنة ١٢٨) وكانت الحال قد بلغت أشدها بين العرب بخراسان فأقام يدبر الأمور. وبعد سنة تهيأ لزيارة الإمام ومعه عدد كبير من الدعاة، ولما بلغ قومس أنه كتاب من الإمام يقول فيه: (إنى قد بعثت إليك براية النصر فارجع من حيث ألقاك كتابى ووجه إلى قحطبة بما معك يوافنى به فى الموسم) فعاد أبو مسلم إلى مرو مستعداً للعمل.

دور العمل:

نزل أبو مسلم بقرية من قرى مرو يقال لها سفيننج وهناك بث دعائه فى الناس ليجتمعوا إليه فأنشال إليه الناس وكان ذلك فى رمضان (سنة ١٢) ولخمس بقين منه عقد اللواء الذى بعث به الإمام ويدعى الظل على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً وعقد الراية التى تدعى السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً وهو يتلو قوله تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩) ولبسوا السواد الذى جعل شعاراً للدولة العباسية وقدم على أبى مسلم الدعاة من أهل مرو لمن أجاب الدعوة.

كان أول ما فعله أبو مسلم أن أمر برم حصن سفيننج وأقام به هو ومن معه ولما حضر

عيد الفطر (سنة ١٢٩) أمر سليمان بن كثير أن يصلى به وبالشيعة ونصب له منبراً فى العسكر وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة وكانت بنو أمية تبدأ بالخطبة والأذان ثم بالصلاة بالإقامة كصلاة يوم الجمعة فيخطبون على المنابر جلوساً فى الجمعة والأعياد. وأمره أن يكبر ست تكبيرات تباعاً ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويفتح الخطبة بالتكبير ويختتمها بالقرآن وكانت بنو أمية تكبر فى الركعة الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفى الثانية ثلاث تكبيرات ولما تمت الصلاة انصرف هو ومن معه إلى طعام أعد لهم مستبشرين.

كتب أبو مسلم إلى نصر بن سيار يقول له: (أما بعد) فإن الله تباركت أسماؤه وتعالى ذكره غير أقواماً فى القرآن فقال ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢)﴾ استكباراً فى الأرض ومكر السيئ ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الأولين قلن تجد لست الله تبديلاً ولن تجد لست الله تحويلاً﴾ (فاطر: ٤٢، ٤٣) فتعاطم نصر الكتاب ولا سيما أنه رأى أبا مسلم بدأ فيه بنفسه.

وكان جوابه أن وجه إلى أبى مسلم مولى له اسمه يزيد فى خيل عظيمة فوجه إليه أبو مسلم مالك بن الهيثم الخزاعى فالتقوا بقرية تدعى أكين وكانت بين الفريقين موقعة انتهت بانتصار الشيعة وأسر يزيد رئيس جند نصر بعد أن جرح فأمر أبو مسلم بمداواته حتى برأ ثم خيره بين أن يقيم معه ويدخل فى دعوته وأن يرجع إلى مولاه سالماً ويعطى عهد الله وميثاقه ألا يحاربهم ولا يكذب عليهم وأن يقول فيهم ما رأى فاخترار الرجوع إلى مولاه وقال أبو مسلم لمن معه إن هذا سيرد عنكم أهل الورع والصلاح فإنما ما نحن عندهم على الإسلام.

قدم يزيد على نصر فقال له نصر: لا مرحباً بك والله ما ظننت استبقاء القوم إلا ليتخذوك حجة علينا فقال يزيد: هو والله ما ظننت وقد استحلقتنى ألا أكذب عليهم، وأنا أقول: إنهم يصلون الصلاة لمواقبتها بأذان وإقامة ويتلون كتاب الله ويذكرون الله كثيراً ويدعون إلى ولاية رسول الله ﷺ وما أحسب أمرهم إلا سيعلو، ولولا أنك مولى أعقتنى من الرق ما رجعت إليك ولأقمت معهم. كثرت بعد ذلك وفود الناس على أبى مسلم ووجدت الدعوة فى قلوبهم مكاناً صالحاً فضاقت عليه سفلينج فرحل إلى الماخوان وهى قرية كبيرة من قرى مرو كانت للعلاء بن حريث ولأبى خالد بن عثمان فحاصنها وخندق حولها وكانت عدة من معه فى الخندق سبعة آلاف رجل.

رأى عرب خراسان أن ما بينهم من هذه الفرقة والحروب تشد أزر عدوهم وكانوا ثلاث فرق كما قدمنا وكان الكرمانى قد قتل فى إحدى وقائعه مع نصر وأجلى قومه عن مرو وخلفه فى قيادة اليمانيين ابنه على. فكتب نصر إلى شيان الحرورى يقول له: إن شئت

فكف عني حتى أقاتله وإن شئت فاتفق معي على حربه حتى أقتله أو أنفيه ثم نعود إلى أمرنا الذي كنا عليه، فهم شييان أن يفعل، ولكن أبا مسلم كانت له عين لا تنام فأرسل إلى علي بن الكرمانى يقول له: إنك موتور قتل أبوك ونحن نعلم أنك لست على رأى شييان، وإنما تقاتل لثأرك فامنع شييان من صلح نصر فدخل ابن الكرمانى على شييان ولم يزل به حتى ثناه عن رأيه فأرسل نصر إلى شييان إنك لمغرور وأيم الله ليتفاقم هذا الأمر حتى تستصغرنى بجانبه.

وفى أثناء ذلك كان أبو مسلم يرسل قواده فيستولون على البلاد من عمال نصر ولا يجدون مقاومة تذكر. ولما رأت ذلك ربيعة وعلمت شدة أمر أبى مسلم أرسلت إلى نصر تطلب منه المودة فاجاب إلى ذلك وتوادعوا سنة. بلغ ذلك أبا مسلم فأرسل إلى ابن الكرمانى يهيجه بأخذ الثأر فقال: إني ما صالحت نصراً وإنما صالحت شييان وأنا لذلك كاره وأنا موتور ولا أدع قتاله فعاود القتال وأبى شييان أن يعينه وقال: لا يحل الغدر فأرسل ابن الكرمانى إلى أبى مسلم يستنصره. وهذا كل ما يريده فأرسل إليه إني معك على نصر، فاشتد ذلك على نصر وكتب إلى أبى مسلم يلتمس منه أن يدخل مع نصر وبعثت إليه ربيعة بمثل ذلك كلهم طلب معونة هذا القتال الذى ليست له غاية إلا الفتك بهم جميعاً، فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد كل منهم حتى يختار ففعلوا وأمر أبو مسلم متكلمى الشيعة أن يختاروا وفد ربيعة وقحطان، فإن السلطان فى مضر وهم عمال مروان وهم قتلة يحيى بن زيد، ولما قدمت عليه الوفود فعل الشيعة ما أمروا به فنهض وفد مضر تعلوهم المذلة والكآبة ورجع وفد ربيعة وقحطان مسرورين ظافرين ولم يدروا ما خبأ لهم الغيب.

وبذلك ظفر أبو مسلم ظفراً عظيماً فإنه فرق كلمة العرب بعد أن كادت تجتمع عليه فقام من الماخوان فى جمادى الأولى (سنة ١٣٠) يريد مرو وأرسل إليه ابن الكرمانى أن ادخل حائط مرو من قبلك وأدخل أنا وعشيرتى من قبلى، فأرسل إليه أبو مسلم أن لست آمن أن تجتمع يدك ويد نصر على حربى، ولكن ادخل أنت فأنشب الحرب، فدخل ابن الكرمانى وأنشب الحرب وأمر أبو مسلم أحد قواده بدخول مرو فدخلها وأعقبه أبو مسلم. دخل والقتال دائر بين الكرمانى ونصر فأمر الفريقين أن يكفأ وهو يتلو: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ (القصص: ١٥). ومضى أبو مسلم حتى دخل دار الإمارة وهرب نصر مستخفياً.

صَفَّتْ مرو لأبى مسلم، وأمر أحد النقباء بأخذ البيعة على أهلها ونص البيعة: (أبايعكم على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعناق والمشى

إلى بيت الله الحرام وعلى ألا تسألوا رزقاً ولا طمعاً حتى يبدأكم به ولا تكلم وإن كان عدو تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولا تكلم). وأخذ أبو مسلم ثقات أصحاب نصر وصنديدهم فكتفهم وحبسهم ثم قتلهم.

أرسل بعد ذلك إلى شيبان الحرورى يدعو إلى بيعته فأبى وسار عن مرو إلى سرخس فوجه إليه مسلم جنداً، فكانت هناك موقعة قتل فيها شيبان وعدد عظيم من معه. وبعد نيل هذا الانتصار عمد إلى ابني الكرمانى على وعثمان اللذين ائتمناه على حياتهما فقتلتهما وأكثر أصحابهما.

صفت خراسان كلها لأبى مسلم فبعث العمال إلى جميع الولايات وأمر أحد قواده قحطبة بن شبيب أن يتبع نصرأً ومعه لواء عقده له إبراهيم الإمام فسار وراءه من بلد إلى بلد حتى مرض نصر بالرى ومات بساوة فأقبل قحطبة بجنوده واستولى على الرى فتم للشيعه خراسان وبلاد الجبل ثم سير قحطبه ابنه الحسن فاستولى على همذان ومنها سار إلى نهاوند فحصرها ولحقه بها أبوه فاجتمعا عليها ثلاثة أشهر ثم فتحت وتلاها شهر زور الموصل. سار قحطبة بعد ذلك واغلاً فى بلاد العراق فقصده ابن هبيرة أمير العراق من قبل مروان بن محمد وكان اجتماعهما غربى الفرات على نحو (٢٣ فرسخاً) من الكوفة وقبل أن تقع بينهما الموقعة الكبرى مات قحطبة فولى إمرة الجيش ابنه الحسن وكان قحطبة قبل موته قد قال: إذا قدمتم الكوفة فوزير آل محمد أبو سلمة الخلال فسلموا الأمر إليه.

جرت أثناء ذلك وقائع انهزم فيها ابن هبيرة فسار منها حتى أتى واسطاً. وقبل أن يدخل الحسن بن قحطبة الكوفة خرج منها محمد بن خالد القسرى مسوداً فاستولى على قصرها ولم يكن قد علم بهلاك قحطبة فكتب إليه يعلمه فوصل الكتاب إلى ابنه الحسن فارتحل إلى الكوفة فدخلها فى المحرم (سنة ١٣٢) وسلم الأمر لأبى سلمة الخلال فوجه الحسن إلى قتال ابن هبيرة بواسط وضم إليه قواداً. ووجه حميد بن قحطبة إلى المدائن. ووجه المسيب بن زهير وخالد بن برمك إلى دير قنى. وبعث المهلبى وشرحبيل إلى عين التمر. وبسام بن إبراهيم إلى الأهواز وخرج هو من الكوفة فعسكر عند حمام أعين على نحو ثلاثة فراسخ من الكوفة.

جرت هذه الوقائع بخراسان والعراق ونار الفتنة مشتتة بالشام والحجاز.

اقتضاح الأمر:

مضت هذه المدة كلها وليس عند بنى أمية علم بمن تدعو إليه الشيعة، فإنهم كانوا يدعون إلى الرضا من آل محمد عليه السلام ولا يعلم السر إلا النقباء والدعاة. أما العامة فمبلغم علمها

أنها تدعى لرجل من آل البيت حتى وقع فى يد مروان بن محمد كتاب لإبراهيم إلى أبى مسلم جواب كتاب لأبى مسلم يأمره فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية بخراسان فأرسل مروان فى الحال إلى عامله بدمشق يأمره بالكتاب إلى صاحبه بالبقاء أن يسير الحميمة ويأخذ إبراهيم بن محمد يوجه به إليه ففعل العامل ما أمر به وقبض على إبراهيم، ولما أحس إبراهيم بما يراد به نعى نفسه إلى أهل بيته وأوصى إلى أخيه أبى العباس وأمر أهله بالسير إلى الكوفة والسمع والطاعة لأبى العباس. أما إبراهيم فحبس فى سجن حران مع جماعة من أعداء مروان من بنى أمية، ولم يزل فى سجنه حتى مات. وكيفية موته مبهمه اختلف فيها المؤرخون فمنهم من قال: إنه سقى سمًا، ومنهم من قال: هدم عليه بيت فمات، ومما قيل فى رثائه:

قد كنت أحسبني جلدًا فضعضنى	قبر بحران فيه عصمة الدين
فيه الإمام وخير الناس كلهم	بين الصفائح والأحجار والطين
فيه الإمام الذى عمت مصيبته	وعيلت كل ذى مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمة	لكن عفا الله عن قال أمين

وأما أهل بيته فتجهزوا يريدون الكوفة حتى قدموها فى صفر (سنة ١٣٢) ورئيس القوم وقائدهم أبو سلمة الخلال الذى كان يعرف فى ذلك الوقت بوزير آل محمد فأنزلوهم فى إحدى دور الكوفة وكنتم أمرهم عن سائر القواد أربعين ليلة وكان لا يزال فى معسكره بحمام أعين خارج الكوفة.

ويقال إنه لما سبر أحوالهم عزم على العدول عنهم إلى بنى على، فكتب ثلاثة من أعيانهم: جعفر الصادق بن محمد الباقر وعبد الله المحض بن حسن بن حسن وعمر الأشرف زين العابدين، وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم، وقال له: اقصد أولاً جعفر بن محمد، فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين، فإن لم يجب فالق عبد الله المحض فإن أجاب فأبطل كتاب عمر وإن لم يجب فالق عمر فذهب الرسول إلى جعفر بن محمد أولاً ودفع إليه كتاب أبى سلمة فقال: مالى ولأبى سلمة وهو صنعة لغيرى؟ فقال له الرسول: اقرأ الكتاب، فقال جعفر لخادمه: أدن السراج منى، فأدناه فوضع الكتاب على النار حتى احترق فقال الرسول: ألا تحببه فقال: قد رأيت الجواب. ثم مضى الرسول إلى عبد الله المحض ودفع إليه الكتاب فقرأه وقبله وركب فى الحال إلى جعفر وقال: هذا كتاب أبى سلمة يدعونى فيه إلى الخلافة قد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان فقال له

جعفر: ومتى صار أهل خراسان شيعتك. أنت وجهت إليهم أبا مسلم هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك؟ فقال عبد الله: كان هذا الكلام منك لشيء، فقال جعفر: قد علم الله أني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم فكيف أدخره عنك فلا تمن نفسك الأباطيل، فإن هذه الدولة ستم لهؤلاء وقد جاءني مثل الكتاب الذي جاءك، فانصرف عبد الله من عنده غير راض، وأما عمر بن زين العابدين فإنه رد الكتاب وقال: أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه. أحس بعض القواد بأمر أبي سلمة فأحبطوا ما أراده وذهبوا إلى الكوفة فقابلوا أبا العباس وسلموا عليه بالخلافة ودخل بعدهم أبو سلمة ففعل كما فعلوا وقد أبقى هذا العمل في نفس أبي العباس ما أبقى فترتب عليه ما يأتي ذكره.

خرج أبو العباس يوم الجمعة (١٣ ربيع الأول) فصلى بالناس وكان في خطبته بعد حمد الله والثناء عليه أن افتخر بقرابته من رسول الله ﷺ ثم ذكر الخلفاء الراشدين وأثنى عليهم ونعى على بني حرب وبني مروان أثرتهم وظلمهم. ثم قال: «واني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أناكم الخير ولا الفساد من حيث جاءهم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله. يا أهل الكوفة أنتم محل مجبتنا ومنزل مودتنا أنتم الذين لم تتغيروا عن عليّ ذلك ولم يثكنم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زمننا وأناكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدتمكم في أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فانا نسفاح المبيح والثائر المتيج» وبهذه الجملة الأخيرة لُقِبَ السفاح.

كان السفاح إذ ذاك موعوكاً فاشتد به الوعك فجلس على المنبر وصعد داود بن عليّ عمه وكان من أفصح بني العباس فخطب خطبة جاء فيها: «إنا والله ما خرجنا في هذا الأمر نكثر لجناً ولا عقياناً ولا نحفر نهراً ولا نبني قصراً، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا ونغضب لبني عمنا وما كرثنا من أموركم وبهظنا من شؤونكم، ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحزن على فرشنا ويشد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم واستدلالهم لكم واستشارهم بفيثكم وصدقاتكم ومغانمكم، لكم ذمة الله وذمة رسول الله ﷺ وذمة نعباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزله الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسير رسول الله ﷺ» ثم منى الكوفة بما يحلو في أسماعهم ومدح أهل خراسان بما قاموا به من نصر أهل بيت النبي ﷺ وإعادة حقوقهم. وقال في آخر خطبته: «ولا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد وأشار بيده إلى أبي العباس فاعلموا أن هذا الأمر فينا حتى سلمه إليه عيسى ابن مريم صلوات الله عليه».

بعد أن تمت الخطبتان والصلاة خرج السفاح إلى القصر وأجلس أخاه أبا جعفر ليأخذ البيعة على الناس في المسجد، فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر، ثم صلى بهم المغرب وجنهم الليل فدخل. ثم خرج أبو العباس إلى المعسكر بحمام أعين واستخلف على الكوفة عمه داود بن علي.

بعد أن بلغوا هذا المبلغ بقي عليهم أن يقضوا على مروان بن محمد والقوة العظمى التي بالجزيرة وعلى ابن هبيرة والقوة التي معه بواسط.

كان مروان بحران معه قوة عظيمة ومنها سار حتى أتى الموصل فاخترأ أبو العباس من أهل بيته عمه عبد الله بن علي ليكون قائداً للجنود التي اختيرت لحرب مروان. وكان ملتقى هذين الجيشين على نهر الزاب الأعلى وهو أحد روافد دجلة يأتيها من الشرق، وكانت الواقعة شديدة جداً انتهت بانتصار عبد الله وجنده فهرب مروان واحتوى عبد الله معسكره كله وذلك لإحدى عشرة خلون من جمادى الآخرة (سنة ١٣٢) وكان مع مروان من الجنود (١٢٠ ألفاً) من نخبة أهل الشام وخيرة جنودها. انهزم مروان حتى أتى حران وعاملها ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد فأقام بها نيفاً وعشرين عاماً، ولما دنا منه عبد الله رحل عنها بأهله وولده وقدم عبد الله فلقبه أبان مسوداً له ودخل في طاعته فأمنه ومن كان بحران والجزيرة.

مضى مروان حتى أتى قنسرين وعبد الله يتبعه ثم مضى منه إلى حمص، ثم أتى دمشق وعليها الوليد بن معاوية بن مروان، فلما أحس باقتراب عبد الله رحل عنها فجاءها عبد الله ودخلها عنوة معترضاً أهلها وقتل الوليد بن معاوية أميرها فيمن قتل.

مر مروان بالأردن وفلسطين ومضى حتى أتى الفسطاط ومنه خرج إلى بوسير وهي قرية من مركز الواسطي ببني سويف.

أما عبد الله بن علي فجاءه كتاب من أبي العباس يأمره أن يوجه صالح بن علي في ملاحقة مروان فصار صالح في ذي القعدة (سنة ١٣٢) وكان يسير على ساحل البحر والسفن حذاء حتى وصل إلى مصر. ومن هناك سار حتى أتى بوسير وهناك قتل مروان بن محمد لثلاث بقين من ذي الحجة (سنة ١٣٢) وبقتله انتهت دولة بني أمية من المشرق وتوطدت دعائم الدولة.

وأما يزيد بن عمير بن هبيرة فإنه لما انهزم من جيش خراسان أتى واسطاً وتحصن بها، وكان مشيروه قد أشاروا عليه بأن يذهب إلى الكوفة فيقاتل حتى يقتل أو يظفر وحذروه

واسطاً كيلا يصير في حصار وليس بعد الحصار إلا القتل، فخالف تلك الشورى فسير أبو سلمة الجيوش تحت قيادة الحسن بن قحطبة فكانت بينهم وقائع ثم احتفى ابن هبيرة ومن معه بحصونهم. ولما طال الأمر أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر على الجيش فاحتدم القتال بين الفريقين وظلوا هكذا أحد عشر شهراً. ولما أتى ابن هبيرة قتل مروان بن محمد طلب من معه الصلح وجرت السفراء بينه وبين أبي جعفر حتى جعل له أماناً وكتب به كتاباً مكث يشاور العلماء فيه أربعين ليلة حتى رضى ابن هبيرة ثم أنفذه إلى أبي جعفر فأنفذه أبو جعفر إلى السفاح فأمر بإمضائه وكان رأى أبي جعفر الوفاء له بما أعطاه، وكان السفاح لا يقطع أمراً دون أبي مسلم فكتب أبو مسلم إلى السفاح يقول له: إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة.

ولما تم الكتاب خرج ابن هبيرة إلى أبي جعفر فدخل عليه وحادثه ساعة وبعد أيام أمر أبو جعفر بقتل ابن هبيرة ومداد الأمان لم يجف وقتل معه عدة من وجوه أصحابه ورثاه منقذ بن عبد الرحمن الهلالي بقوله:

منع العزاء حرارة الصدر	والحزن عقد عزيمة الصبر
لما سمعت بوقعة شملت	بالشيب لون مفارق الشعر
أفنى الحماة الغر أن عرضت	دون الوفاء حبال الغدر
مالت حبال أمرهم بفتى	مثل النجوم حففن بالبدر
على نعيمهم فقلت له	هلا أتيت بصيحة الحشر
لله درك من زعمت لنا	أن قد حوته حوادث الدهر
من للمنابر بعد مهلكهم	أو من يسد مكارم الفخر
فإذا ذكررتهم شكاً ألما	قلبي لفقد فوارس زهر
قتلى بدجلة ما ينهنهم	إلا عباب زواجر البحر
فلتبك نسوتنا فوارسهم	خير الحماة ليالى الذعر

وبقتل ابن هبيرة انطفأ مصباح للدولة الأموية.

قامت الدولة العباسية ودخل في حوزتها هذا الملك الطويل العريض الذى وضع أساسه خارج جزيرة العرب أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ وشاد بنيانه أمير المؤمنين عمر بن

الخطاب ومكن قواعده وزان جوانبه بنو أمية بن عبد شمس وسنأتى على وصفه بعد أن نبدى ملاحظة بشأن قيام هذه الدولة.

قامت هذه الدولة باسم الدين . والسلاح الذى استعمل فيها للتأثير فى العقول هو إعادة الأمر لآل محمد ﷺ ونزعه من آل مروان الذين وصفهم الداعون بما شأوا من صفات النقص والبعد عن الدين ووضعوا فى ذمهم أحاديث أسندوها إلى رسول الله ﷺ لا يعرفها رجال النقد من المحدثين .

كان ذلك السلاح يصل إلى شغاف القلوب فيثيرها من مكنها .

اختار القوم لفرس دعوتهم بلاداً كانت قبل مهدياً للتشيع وحب آل البيت وهى الكوفة وخراسان فقديماً قامت بلاد العراق بنصر على بن أبى طالب وقامت لتأثر بالحسين بن على وجاهدت فى نصرة زيد بن الحسين وابنه يحيى ، فلم تترك فرصة لذلك إلا انتهزتها ثم احتاروا بلاد خراسان لتكون مشرقاً لقوتهم وأذاعوا فى ذلك أحاديث كثيرة فأعدوا قلوب أهلها لذلك . وكان الذين دخلوا فى الإسلام من الفرس أقرب من غيرهم إلى التأثير بآراء الشيعة لأنهم لا يفرقون بين خلافة وملك وكان الملك عندهم ينال بالإرث وهو منحة يمنحها الله للأسرة المالكة فمن عارضها فيه فهو خارج عليها يستحق المقت واللعة فإذا ألقى إليهم فى التعاليم أن بنى أمية غصبوا أهل بيت النبى حقهم سهلت إلى ذلك إجابتهم واعتقدوا أن بنى أمية يجب قتالهم وتخليص هذا الحق المقدس منهم ، ولهذا كان من الوصايا التى بنيت عليها سياسة الدعوة العباسية : (إن قدرت ألا تبقى بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل) . وهى وصية لم تلاحظ فيها العواقب البعيدة وإنما لو حظت فيها الفوائد العاجلة .

وفوق ما تقدم كانت أمة الفرس ذات تاريخ عظيم قديم وكانت لها السيادة على أكثر الأمم العربية بالعراق واليمن ثم رأوا دولتهم قد دالت وصاروا موالى للعرب يتحكم العرب فى رقابهم وفى أموالهم فوجدوا هذه فرصة يستردون بها شيئاً مما كان لهم من العظمة التاريخية ويذلون هؤلاء العرب الذين سطوا عليهم ، فرأوا أنهم بمساعدتهم لهذه الدولة الجديدة يكونون أصحاب الكلمة المسموعة فيها والسلطان النافذ . وتأثير هذا السبب فى الخاصة أكثر منه فى العامة : فهذا النزاع كان فى الحقيقة بين العرب والفرس لا بين بنى أمية وبنى العباس وحدهم .

استعان القوم بامر هذه الدعوة على عرب خراسان بما كان بينهم من الخلاف الذى أحيته العصبية الجاهلية ، وهذه العصبية عند العرب لا يمكن إخمادها إلا من طريق الدين . وكان تأثيره قد ضعف إذ ذاك . على أن الأمراء كانوا يزيدون من سورته حدة كأنهم رأوا أن

سلطانهم لا يتم إلا إذا اجتمعت الأمة وقد أثبت التاريخ أن جميع الأغبياء من الملوك والأمراء متى رأوا مصلحتهم فى إيقاع الخلاف والنفرة بنى أمهم وعملوا بذلك يزول بسرعة ملكهم.

استعمل فى الوصول إلى إحياء الدولة العباسية عسف شديد جداً، فقد كان من الوصايا التى أُلقيت إلى أبى مسلم: (واقتل من شككت فيه) ولا يخفى أن حزم أبى مسلم كان يسوقه إلى كثرة الشك فيمن دخل تحت لوائه من عرب وعجم فلم يكن يتأخر لحظة فى قتل من دخله أقل ريب فيه حتى وصل إلى غرضه. وسنين أن هذه القاعدة أتت على أكبر رجال هذه الدولة وعلى أبى مسلم أيضاً. وقد أحصى من قتله أبو مسلم صبراً فكان ستمانة ألف.

ولم يكن القوم يأنفون من الغدر بمن اتهمهم وهذا على خلاف ما كانت عليه العرب فى جاهليتهم وفى بدء إسلامهم وفى فتوحهم، فقد كان الوفاء عندهم من ألزم ما يجب عليهم ووصايا أمرائهم فى ذلك معروفة مشهورة، فلما دخل بينهم هؤلاء الأغنام سهلوا طريق الغدر بمن اتهمهم على حياته واستحقوا بذلك ما حلاهم به محمد بن على بن طباطبا فى كتابه المعروف بالفخرى فى الآداب السلطانية قال: اعلم أن الدولة العباسية كانت دولة ذات خدع ودهاء وغدر وكان قسم التحيل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة.

وصف المملكة الإسلامية حين استيلاء بنى العباس:

كانت المملكة الإسلامية تمتد من أقصى المشرق عند كاشغر إلى السوس الأقصى على شاطئ بحر الظلمات وطولها على ما ذكره أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى المعروف بالبشارى فى كتابه الموسوم «بأحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» (٢٦٠٠ فرسخ) وتمتد عرضاً من شاطئ بح قزوين إلى أواخر بلاد النوبة وهى منقسمة إلى أقسام كبرى وكل قسم يشتمل على ولايات: وها نحن أولاء نذكر هذه الأقسام وما فيها من الولايات:

١ - جزيرة العرب وتشتمل على أربع كور جليلة:

الأولى: الحجاز وقصبتها مكة ومن مدنه، طيبة وينبع والجار وجدة والطائف وغيرها.

الثانية: اليمن وما كان نحو البحر فهو غور واسمه تهامة وقصبتها زبيد وما كان من ناحية الجبل فهو نجد وقصبتها صنعاء.

الثالثة: عمان وقصبتها صحار على شاطئ بحر الهند.

الرابعة: هجر وقصبتها الأحساء.

ويتبع اليمن من النواحي: الأحقاف وبها من المدن حضرموت. ومهرة وبها من المدن الشحر. ويتبع هجر اليمامة وقصبتها حجر. ويتبع الحجاز وادي القرى وبهذه الخزيرة مكة وبها بيت الله الحرام والكعبة المقدسة التي جعلها الله قياماً للناس وهي قبلة المسلمين كافة في صلاتهم - وبها طيبة وهي مهاجر رسول الله ﷺ ومبعث النور الإسلامي.

أمة هذا القسم عربية محضة تتكلم اللسان العربي إلا بصحار فإن نداءهم وكلامهم بالفارسية وأكثر أهل عدن وجدة فرس إلا أن لغتهم لغة عربية، ومذاهبهم السياسية التشيع ببلاد اليمن والخوارج بعمان وهجر والسنة فيما عداهما. وبشمال هذا القسم بادية العرب وهي بادية ذات مياه وغدران وآبار وتلال ورمال وقرى ونخيل قليلة الجبال كثيرة العرب مخيفة السبل خفيفة الطرق طيبة الهواء ردية الماء ليس بها بحيرة ولا نهر إلا الأزرق ولا مدينة إلا تيماء وفيها اثنا عشر طريقاً توصل إلى مكة منها تسع طولاً يؤدين إلى مكة وثلاث عرضاً يؤدين إلى الشام وبها طريق آخر لوادي القرى يؤدي إليها من البصرة ثم إلى مصر وهذه الطرق هي:

- ١ - طريق مصر.
- ٢ - طريق الرمة.
- ٣ - طريق الشراة.
- ٤ - طريق تبوك.
- ٥ - طريق وبير.
- ٦ - طريق بطن السر.
- ٧ - طريق الرحبة.
- ٨ - طريق هيت.
- ٩ - طريق الكوفة.
- ١٠ - طريق القادسية.
- ١١ - طريق واسط.

١٢ - طريق وادى القرى.

١٣ - طريق البصرة.

وقد أجاد وصف هذه الطرق البشارى فى كتابه «أحسن التقاسيم» (ص ٢٤٩) وما بعدها فراجع.

٢- إقليم العراق وبه ست كور:

الأولى: الكوفة وقصبتها الكوفة وهى من المدن الإسلامية وبها من المدن: القادسية وعين التمر.

الثانية: البصرة وقصبتها البصرة، وهى من المدن الإسلامية، وبها من المدن: الأبله وعبادان.

الثالثة: واسط وقصبتها واسط، وهى من المدن الإسلامية، وبها من المدن: فم الصلح.

الرابعة: المدائن وقصبتها المدائن، وهى مدينة كسروية، وبها النهروان والدسكرة وجلولاء.

الخامسة: حلوان، وقصبتها حلوان وبها من المدن خانقين والسيروان.

السادسة: سامراء، وقصبتها سامراء وبها من المدن الكرخ وكعبرا والأنبار وهيت وتكريت.

وهذا الإقليم كان يسمى فى القديم إقليم بابل، وهكذا كان اسمه فى التقويم الأول عهد العباسيين، ولقد كان زهرة ملك العباسيين وأجمل بلدان الدنيا وأثرها وروافده الدجلة والفرات من أحسن أنهار الدنيا.

وأمة هذا الإقليم نبطية دخل عليها العرب فى بلادها فزاحموها وصارت كأنها لهم، ولذلك صارت لغة هذا الإقليم عربية وأصح لغاتهم الكوفية لقربها من البادية وبعدهم عن النبط. وأما البطائح فنبط والذين نزلوا بهذا الإقليم من العرب أكثر من الذين نزلوا منهم بأى إقليم آخر ما عدا الشام والجزيرة وقد كانوا بهذه الأقاليم الثلاثة قبل الإسلام، وكان بها منهم ملوك المناذرة بالعراق والغساسنة بالشام إلا أنهم لم يكونوا مستقلين بالملك بل كانوا تحت رعاية الفرس والروم. فلما جاء الإسلام اتسق لهم الملك بالإقليمين وكان الشام مهد الدولة الأموية كما كان العراق مهد الدولة العباسية.

ومساحة العراق طولاً من البحر إلى السن (١٢٥ فرسخاً) وعرضه من العذيب إلى عقبة حلوان (٨٠ فرسخاً) فإذا كسرتة كان (١٠٠٠ فرسخ).

٣- إقليم الجزيرة :

جزيرة أقور أو أثور أو آشور، وهي ما بين دجلة والفرات وبها ثلاث كور:

الأولى: ديار ربيعة وقصبتها الموصل، ومن مدنها: الحديثة وسنجان ونصيبين ودارا ورأس العين وثمانين وبها ناحية جزيرة ابن عمر.

الثانية: ديار مضر وقصبتها الرقة، وبها من المدن: باجروان وحصن مسلمة وحران والرها.

الثالثة: ديار بكر وقصبتها آمد، وبها من المدن: ميفارقين وحصن كيفا.

وقد نزل العرب قبل الإسلام بهذا الإقليم وكانت به قبائل شتى من جميع العدنانيين حتى سميت كوره بأسمائهم، ولذلك يعتبر إقليماً عربياً محضاً، لأن من كان به من الآشوريين وغيرهم درست آثارهم. وينتهي هذا الإقليم إلى حدود الروم وأرمينية.

٤ - إقليم الشام وبه ست كور:

الأولى: قنسرين وقصبتها حلب ومن مدنها أنطاكية وبالس وسميساط ومنبج وقنسرين ومرعش وإسكندرونة ومعرة النعمان.

الثانية: حمص، وقصبتها حمص ومن مدنها سلمية وتدمر واللاذقية والطرسوس.

الثالثة: دمشق، وقصبتها دمشق ومن مدنها بانياس وصيدا وبيروت وطرابلس.

الرابعة: الأردن وقصبتها طبرية، ومن مدنها صور وعكا وبيسان وأذرعات.

الخامسة: فلسطين وقصبتها الرملة، وبها بيت المقدس وعسقلان ويافا وأرسوف وقيسارية وأريحا وعمان.

السادسة: الشراة وقصبتها صفد ومن مدنها مآب وعمان وتبوك وأذرح. وهذا الإقليم دخله العرب قبل الإسلام وملكوا به وزاحموا من كان به من الأمم القديمة.

ولما جاء الإسلام كان مهذاً عظيماً من مهاده الحضارة العربية الإسلامية ولغة أهله عربية.

وحُدود هذا الإقليم من الشمال بلاد الروم وكانت المدن التي على حدوده وحدود الجزيرة

يَقْدِرُ لَهَا الثَّغُورُ، وَعِنْدَهَا يَكُونُ الْجِهَادُ لِرَدِّ غَارَةِ الرُّومِ وَحِفْظِ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَفَتْحِ مَا يُمْكِنُ حِصْنِهِ مِنَ الْبُلْدَانِ.

وَبِهَذَا الْإِقْلِيمِ بَيْتُ الْمُقَدَّسِ وَهُوَ ثَالِثُ الْمَسَاجِدِ الْمُقَدَّسَةِ بَنَاهُ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ حِينَما كَانَ مُلْكاً عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَاحْتَفَلَ فِي بَنَائِهِ كَثِيراً وَيُعَظِّمُهُ جَمِيعُ الْأَدْيَانِ مِنْ مُوسَى وَعِيسَى وَإِسْلَامِي.

٥ - إقْلِيمُ مِصْرَ وَبِهِ سَبْعُ كُورٍ عَلَى حَسَبِ التَّقْوِيمِ الْقَدِيمِ:

الأولى: الجُفَارُ وَقَصَبَتُهَا الْفَرْمَا، وَبِهَا مِنَ الْمَدَنِ الْبَقَارَةُ الْوَارِدَةُ وَالْعَرِيشُ.

الثانية: الْحُوفُ وَقَصَبَتُهَا بَلْبِيسُ، وَبِهَا مِنَ الْمَدَنِ مَشْتُولُ وَفَاقُوسُ وَغَيْرُهُمَا.

الثالثة: الرِّيفُ وَقَصَبَتُهَا الْعَبَّاسِيَّةُ، وَبِهَا مِنَ الْمَدَنِ دَمَنْهَوْرُ وَسَنْهَوْرُ وَبِنُهَا الْعَسَلُ وَشَطْنُوفُ وَمَلِيجُ وَالْمَحَلَّةُ الْكَبِيرَةُ وَدَقْهَلَةُ.

الرابعة: اسْكَنْدَرِيَّةُ وَقَصَبَتُهَا اسْكَنْدَرِيَّةُ، وَبِهَا مِنَ الْمَدَنِ رَشِيدُ وَمَرْيُوطُ وَالْبَرْلسُ وَذَاتُ الْخَمَامِ.

الخامسة: مَقْدُونِيَا وَقَصَبَتُهَا الْفُسْطَاطُ، وَمِنْ مَدَنِهَا الْعَزِيزِيَّةُ وَالْجِيزَةُ وَعَيْنُ شَمْسٍ.

السادسة: الصَّعِيدُ وَقَصَبَتُهَا أَسْوَانُ، وَبِهِ مِنَ الْمَدَنِ قَوْصُ وَإِخْمِيمُ وَالْبَلْبِيْنَا وَالْفَيُومُ وَغَيْرُهَا.

السابعة: الرِّوَا حَاتُ.

وَأَمَّةُ هَذَا الْإِقْلِيمِ كَانَتْ فِي الْقَدِيمِ مِصْرِيَّةً قِبْطِيَّةً سَاكِنُهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي مُلْكَتُهَا كَالْيُونَانُ وَالرُّومَانُ وَغَيْرُهُمْ، وَكَانَ بِالْحُوفِ بَعْضُ قَبَائِلِ عَرَبِيَّةٍ تَقِيمُ فِيهَا. وَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ جَاءَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْعَرَبِ الْفَاتِحِينَ فَأَقَامُوا فِي مَدَنِهَا الْكُبْرَى ثُمَّ جَاءَتْ قَبَائِلُ كَثِيرَةٌ مِنْ قَيْسٍ فِي عَهْدِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَأَقَامَتْ بِالْحُوفِ (الشَّرْقِيَّةِ) ثُمَّ اخْتَلَطَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ الْفَاتِحَةُ بِالْمِصْرِيِّينَ تَمَامَ الْإِخْتِلَاطِ فَتَزَاوَجُوا حَتَّى غَلَبَ عَلَى الْجُمْهُورِ اللَّسَانُ الْعَرَبِيُّ وَالْدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ وَذَلِكَ بَعْدَ تَمَلُّكِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ.

أَمَّا أَوَّلُ عَهْدِهَا فَكَانَ أَكْثَرُ الْفَلَاحِينَ بِالْقُرَى أَقْبَاطاً لَا يَزَالُونَ عَلَى دِينِهِمْ.

٦ - إقْلِيمُ الْمَغْرِبِ وَهُوَ ثَمَانِي كُورٍ:

الأولى: بَرْقَةُ وَقَصَبَتُهَا بَرْقَةُ، وَبِهَا مِنَ الْمَدَنِ رَمَادَةُ وَطَرَابْلُسُ.

الثانية: إفريقية وقصبتها القيروان، وبها من المدن أسفاقس وسوسة وتونس وبونة وجزيرة بنى زغنايه ومفستير.

الثالثة: تاهرت، وقصبتها تاهرت وبها من المدن مطماطة ووهران وغيرهما.

الرابعة: سجلماسة، وقصبتها سجلماسة وبها من المدن درعة وأمصلى وتازروت.

الخامسة: فاس وقصبتها فاس وتسمى هذه الكورة السوس الأدنى. وأما فاس فمحدثة بعد عهد العباسيين. ومن مدنها البصرة وورغة وصنهاجة وهوارة وسلا.

السادسة: السوس الأقصى وقصبتها طرفانة ومن مدنها إغمات وماسة وغيرهما.

السابعة: الأندلس وقصبتها قرطبة وكانت لعهد بنى أمية تتبع أمير إفريقية وعليها وال من قبله. وهذا الإقليم كان يسكنه قبل الإسلام البربر وساكنهم فيه كثير من الرومان والوزيرغوط الذين ملكوا المغرب قبل الإسلام. فلما جاء الإسلام دخله العرب الفاتحون وزاحموا البربر. إلا أنهم لم يكثرهم لقلتهم ولم يكثر العنصر العربى بها إلا بعد ذلك فى منتصف القرن الخامس. فامة هذا الإقليم الغالبة عليه لهذا العهد بربرية واللسان الغالب هو اللسان البربرى.

٧- إقليم المشرق:

وهو إقليم ذو جانبين: الأول فى الشرق وهو ما كان شرقى جيحون أو أموداريا، ويسمى بما وراء النهر أو هبطل، والثانى فى الغرب وهو ما كان غربى جيحون ويسمى خراسان.

١- ما وراء النهر قال البشارى: هذا الجانب أخصب بلاد الله تعالى وأكثرها خيراً وفقها وعمارة ورغبة فى العلم واستقامة فى الدين وأشد بأساً وأغلظ رقاباً وأدوم جهاداً وأسلم صدوراً وأرغب فى الجماعات مع يسار وعفة ومعروف وضيافة وتعظيم لمن يفهم.

(أ) وبهذا القسم ست كور:

الأولى: فرغانة وقصبتها أخسيكت، ومن مدنها: نصراباذ وأوزكند ومرغينان وغيرها.

الثانية: أسبيجاب وقصبتها أسبيجاب، ومن مدنها فاراب وترار وطراز وبلاسكون وغيرها.

الثالثة: الشاش وقصبتها بنكث، ومن مدنها بنكث وغيرها.

الرابعة: أشر وسنة وقصبتها بنجكت.

الخامسة: الصغد وقصبتها سمرقند وهى مصر الإقليم.

السادسة: بخارى وقصبتها بخارى، ومن مدنها بيكند.

وهذا الإقليم يمر به نهر جيحون العظيم ويتشعب منه أنهار كثيرة، ويقلب فيه أنهار ستة وعليه كور ومدن. فالكور هى الختل وقصبتها هلبك. ثم قواديان ومدينتها نير. ثم خوارزم وهى على حافى جيحون، قصبتها العظمى شرقى النهر وهى كاث، ولها قصبة أخرى غربية وهى الجرجانية وعلى النهر من المدن ترمذ وكالف ونويذة زم وفربر وآمل.

(ب) خراسان وبها تسع كور:

الأولى: بلخ قصبتها بلخ، وبها ناحية صخارستان، ومن مدنها ولوالج والطاقان.

الثانية: غزني وقصبتها غزني، وبها من المدن كابل.

الثالثة: بست وقصبتها بست. وبعض الناس يجمع غزني إلى بست وجعلهما كورة واحدة يسميها كابلستان.

الرابعة: سجستان وقصبتها زرتج.

الخامسة: هراة وقصبتها هراة ومن مدنها باذغيس.

السادسة: جوزجانان وقصبتها اليهودية.

السابعة: مرو الشاهجان وهى القصبة وبها ناحية مرو الروز.

الثامنة: نيسابور والقصبة إيرانشهر، وبها من المدن نهق وطوس ونسا وأبيورد.

التاسعة: قهستان وقصبتها قابن.

وهذا الإقليم من أعمر الإقاليم الإسلامية وأهل خراسان منه هم الذين أقاموا الدولة العباسية وشيدوا صرحها ومعظمهم كان شيعة لهم. أما أهل ما وراء النهر فجلهم من التركمان ولم يكن الإسلام قد شملهم لأول عهد العاسيين. وقد دخل العرب هذا الإقليم ولم يتجاوزوا النهر إلا فى عهد الدولة الأموية وقد كثرت فتوحهم فيما وراء النهر فى عهد قتيبة بن مسلم الباهلى العامل من قبل الحجاج. ولم تتغلب اللغة العربية على هذا الإقليم وما يأتى بعد من الاقاليم الفارسية، ولكن الدين الإسلامى شملهم فصار منهم أمة إسلامية

قادرة عمها العلم ولا سيما الدينى ووجد منهم أفاضل الفقهاء من الشافعية والحنفية والمحدثين والعلماء فى العلوم كافة.

قال البشارى فى أحسن التقاسيم: وألستهم مختلفة. أما لسان نيسابور ففصيح مفهوم غير أنهم يكسرون أوائل الكلم ويزيدون الياء وفيه رخاوة ولجاج، وأهل طوس ونسا أحسن لساناً، وفى كلام سجستان تحامل وخصومة يخرجونه من صدورهم يجهرن فيه. ولسان بست أحسن ولا بأس بلسان المروين غير أن فيه تحاملاً وطولاً ومدأ فى أواخر الكلم. ولسان بلخ أحسن الألسن إلا أن لهم فيه كلمات تستقبح. ولسان هراة وحش تراهم يتقنون ويتكلفون ويتحاملون ثم يخرجون الكلام آخر ذلك ملوثاً بالقوة إلى آخر ما قال.

٨ - إقليم الديلم به خمس كور:

الأولى: قومس وقصبتها الدامغان، ومن مدنها سمنان وبسطام.

الثانية: جرجان وقصبتها شهرستان، ومن مدنها استراباذ وآبسكون.

الثالثة: طبرستان وقصبتها آمل، ومن مدنها سالوس وسارية.

الرابعة: الديلمان وقصبتها بروان.

الخامسة: الخزر وقصبتها إتل، ومن مدنها بلغار وسمدر وبهذه الكورة نهر إتل وهذا الإقليم لم يفش الإسلام به إلا فى عهد الدولة العباسية ولم يتأثر كثيراً باللغة العربية.

٩ - إقليم الرحاب وهو ثلاث كور:

الأولى: أران وقصبتها برذعة، ومن مدنها تفليس وشروان وباب الأبواب وملازكرد.

الثانية: أرمينية وقصبتها أردبيل، ومن مدنها مدليس وخلات وخوى وسلماس وأرمية ومراغة ومرند وقاليقلا.

الثالثة: أذربيجان وقصبتها أردبيل، ومن مدنها تبريز.

وهذا الإقليم به كثير من الأجناس والألسنة فيه الكرد والأرمن والفرس وغيرهم ويخترقه نهر الكر وهو يتخلل مدينة برذعة ومدينة تفليس وبه نهر الرس ونهر الملك ولم يفش الإسلام بهذه البلاد إلا فى عهد الدولة العباسية واللغة العربية به قليلة.

١٠ - إقليم الجبال وبه ثلاث كور:

الأولى: الرى وقصبتها الرى وبها من المدن آوة وساوة وقزوين وأبهر.

الثانية: همذان وهى القصبة ومصر الإقليم.

الثالثة: أصفهان وقصبتها اليهودية.

١١- إقليم خوزستان ويعرف بالأهواز وبه سبع كور وهى:

الأولى: السوس وهى تتاخم العراق والجبال.

الثانية: جنديسابور وهى القصبة وكانت مصر الإقليم.

الثالثة: تستر وهى القصبة وليس بالإقليم أجل منها.

الرابعة: عسكر مكرم وهى القصبة وبها من المدن جوبك وزيدان وسوق الثلاثاء.

الخامسة: الأهواز وبها من المدن تيرى ومناذر الكبرى ومناذر الصغرى.

السادسة: الدورق كورة تتاخم العراق من مدنها آزر وأجم وغيرهما. قصبتها الدورق.

السابعة: رامهرمز كورة تتاخم فارس وهى القصبة.

ولهذا الإقليم لسان خاص به يعرف باللسان الخوزى.

١٢- إقليم فارس وبه ست كور:

الأولى: أرجان وهى القصبة.

الثانية: أردشير خرة وقصبتها سيراى، وهى ممتدة على البحر.

الثالثة: دارابجرد وهى القصبة، وكانت فى القديم مصر الإقليم.

الرابعة: شيراز قصبتها على اسمها، وهى مصر الإقليم وبها من المدن البيضاء وفسا.

الخامسة: سابور وقصبتها شهرستان، ومن مدنها كازرون والنوبندجان وتوز.

السادسة: اصطخر وهى أوسع الكور، وقصبتها على اسمها.

وبهذا الإقليم عدد عظيم من الأكراد وباسمه سميت البلاد الفارسية كلها.

١٣- إقليم كرمان وبه خمس كور:

الأولى: بردسير وقصبتها على اسمها، ومن مدنها ماهان وكوغون وزرند.

الثانية: نرماسير وهى القصبة.

الثالثة: السرجان وقصبتها على اسمها. وهى مصر الإقليم.

الرابعة: بم وهى تتاخم فارس.

الخامسة: جيرفت وهى على البحر.

١٤- إقليم السند وبه خمس كور:

الأولى: مكران وقصبتها بنجبور.

الثانية: طوران وقصبتها قصدار.

الثالثة: السند وقصبتها المنصورة ومن مدنها ديبيل.

الرابعة: ويهند والقصبة باسمها.

الخامسة: قنوج وهى القصبة.

وبهذا الإقليم نهر مهران وهو يشبه النيل فى الحلاوة والزيادة ووجود التماسيح. فهذه أربعة عشر إقليماً منها ستة عربية وثمانية أعجمية والمراد بكونها عربية، تغلب اللسان العربى على أهلها وإلا فافصل إقليم العرب هو جزيرتهم فحسب.

وتشتمل هذه الأقاليم على ثلاث وثمانين كورة يجبى منه جميعها الخراج إلى حاضرة الدولة حيث يحمل منها ما بقى عن مصروفها وذلك شئ عظيم.

هذا هو الملك الطويل العريض الذى ورثه العباسيون بهمة شيعتهم من أهل خراسان. وليس عدد ولاة هذه الدولة بعدد الأقاليم التى بينها بل كان بعض الأقاليم فيه الولايان والثلاثة وبعضها قد يضم إلى إقليم آخر حسب الأحوال.

ففى بعض أيام بنى أمية قد جمع العراق وفارس كلها لوال واحد كما كان الحجاج بن يوسف. فقد كان أمير المشرق كله من نهر الفرات إلى نهر جيحون، وله ولاة من قبله على الأقاليم أو الكور التى تحت يده وفى بعض الأحيان كانت تضم أفريقية كلها إلى والى مصر ويرسل من قبله والياً على أفريقية.

والجزيرة العربية لم تجتمع كلها لوال واحد بل كان للمحجاز وال ولليمن وال. أما اليمامة وعمان فرمما أضيفتا إلى والى العراق، كما كان الحجاج بن يوسف. ونحن الآن شارعون فى تفصيل أحوال بنى العباس وتبيين ما فعلوه فى هذا الميراث مقارنين ذلك عند اللزوم بما كان عليه الحال فى الدولة الأموية.

فصل فى ولاية العهد والبيعة:

الأصل فى انتخاب الخليفة رضا الأمة فمن ذلك يستمد قوته . هكذا رأى المسلمون عند وفاة رسول الله ﷺ فقد انتخبوا أبا بكر الصديق اختياراً منهم . لا استناداً إلى نص أو أمر من صاحب الشريعة ﷺ . وبعد أن انتخبوه بايعوه ومعنى ذلك عاهدوه على السمع والطاعة فيما فيه رضا الله سبحانه كما أنه عاهدهم على العمل فيهم بأحكام الدين من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ . وهذا التعاقد المتبادل بين الخليفة والأمة هو معنى البيع تشبيهاً به بفعل البائع والمشتري فإنهما كانا يتصافحان بالأيدى عند إجراء عقد البيع .

فمن هذه البيعة تكون قوة الخليفة الحقيقية وكانوا يرون الوفاء بها من أُلزم ما يوجبه ندين وتحتمة الشريعة .

وقد سن أبو بكر رضى الله عنه طريقة أخرى فى انتخاب الخليفة ، وهى أن يختار هو من يخلفه ويعاهده الجمهور على السمع والطاعة ، وقد وافق الجمهور الإسلامى على هذه الطريقة ورأى أن هذا مما تجب الطاعة فيه وذلك العمل هو ولاية العهد .

وأول من اختار الخليفة بعده من عشيرته الأدين معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه حيث اختار للخلافة ابنه يزيد وأخذ بيعة الجمهور له وصار الخلفاء من بعده يعهدون على هذا النمط . وقد بينا فى تاريخ الدولة الأموية الأغلاط التى ارتكبها الأمويون فى ولاية نعهد وأنها كانت من الأسباب التى قضت عليهم .

اتبع بنو العباس فى ولاية العهد الأسلوب الذى سار عليه الأمويون وهو عقد الولاية لأكثر من واحد من الأبناء والإخوة ولم يعتبروا بمن مضى قبلهم فقد كان ذلك مبعث شرور . وفق شديدة ولما سار هؤلاء سيرة أسلافهم جلبوا على أنفسهم تلك الشرور بعينها ولم يعتبر خلف بما أصاب السلف كما يتضح مما يأتى :

ولى السفاح عهده رجلين يلى أحدهما الآخر أبا جعفر المنصور فابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على . فلما تولى أبو جعفر وشب ابنه محمد المهدي عز عليه أن يلى عنه ابن أخيه ويحرم ابنه فساوم عيسى أن يخلع نفسه من ولاية العهد على أن تكون رتبته تو رتبة المهدي فأظهر عيسى إباء فساموه خطة لا يرضى بها إلا الدليل حتى أظهرت ذات عه فى شعر قاله وهو :

خبرت أمرين ضاع الحزم بينهما	إما صغار وإما فتنة عمم
وقد هممت مراراً أن أساجلهم	كأس المنية لولا الله والرحم

ويقال إن أبا جعفر سقاه شرباً يتلفه فكاد يموت منه، ولكنه أبل من علته، فقال في ذلك شعراء الدولة:

أقلت من شربة الطبيب كما	أقلت ظبي الصريم من فتره
من قانص ينفذ الفريص إذا	ركب سهم الختوف في وتره
دفع عنك المليك صولة لب	ث يريد الأسد في ذرى خمرة
حتى أتاناً وفيه داخله	تعرف في سمعه وفي بصره
أزعر قد طار عن مفارقه	وحف أثيث النبات من شعره

ثم أجاب عيسى إلى ما طلب منه هذا مع ما كان من حسن أثر عيسى بن موسى في الدولة واستهدافه للنواب وقوده الكتائب لشد دولة المنصور.

لما ولي المهدي وشب ابنه موسى وهارون أعاد هذه السيرة بعينها مع عيسى بن موسى وطلب منه أن يخلع نفسه من الخلافة ليولى المهدي العهد ولده، فكان ما أراد بعد أن قاسى عيسى ما قاسى من صنوف الأذى ومع ما رآه المهدي من نتائج تولية اثنين للعهد لم يتعظ بل ولي ولديه موسى الهادي وهارون الرشيد.

جاء الهادي فحاول أن يخلع أخاه هارون مع أن ابنه لم يبلغ الحلم فلم يفلح لأن الدفاع عن الرشيد كان قوياً وقربت منية الهادي، فأخرت النتائج السيئة ويقال إنه مات مسموماً.

ولى الرشيد ففكر فى ولاية العهد وكان أكبر ولده محمد المأمون فعدل عنه إلى أخيه محمد الأمين، لأنه ابن زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور والمأمون أمه أمة جلية من بلاد فارس، وكان ذلك العقد (سنة ١٧٣) وسن الأمين لا تتجاوز ثلاث سنوات وبعد عشر سنين رأى أن يضم المأمون ليكون ولي العهد بعد الأمين وذلك برأى جعفر بن يحيى البرمكى وسعيه فعقد له (سنة ١٨٣). ثم طلب عبد الملك بن صالح بن على من الرشيد أن يبايع لثالث أولاده القاسم بن الرشيد ففعل وسماه المؤتمن وقسم البلاد بين أولاده الثلاثة فجعل الشرق للمأمون وهو خراسان والرى إلى همدان وجعل الغرب للأمين وهو المغرب ومصر والشام وجعل للمؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم، فألقى بذلك بأسهم بينهم ووضع بيده بذور الفتنة والشر حتى قال بعض شعراء العصر:

أقول لغمة فى النفس منى	ودمع العين يطرد اطرادا
خذى للهول عدته بحزم	ستلقى ما سيمنعك الرقادا

فإنك إن بقيت رأيت أمراً	يطيل لك الكآبة والسهادا
رأى الملك المهذب شر رأى	لقسمته الخلافة والبلادا
رأى ما لو تعقبه بعلم	لبيض من مفارقه السوادا
أراد به ليقطع عن بنييه	خلافهم ويبتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل	وأورث شمل ألفتهم بدادا
وألحق بينهم حرباً عواناً	وسلس لا جتنا بهم القيادا
فويل للرعية عن قليل	لقد أهدى لها الكرب الشدادا
وألبسها بلاء غير فان	وألزمها التضعضع والفسادا
ستجرى من دمائهم بحور	زواخر لا يرون لها نفادا
فوزر بلائهم أبداً عليهم	أغيا كان ذلك أم رشادا

وحج الرشيد بعقب ذلك وهناك كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين أجهد الفقهاء والقضاة أنفسهم فيهما أحدهما على محمد الأمين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم وجعل الكتابين في البيت الحرام بعد أخذ البيعة على محمد وإشهاده عليها بها الله وملائكته ومن كان في الكعبة من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب في البيت الحرام وتقدم إلى الحجة في حفظهما ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما وقرئ الكتابان في داخل البيت الحرام بحضور من الأخوين وشهد عليهما الحاضرون.

وقد أكد الأمر في العهدين تأكيداً بلغ الغاية من التشديد، ولكن طبيعة الملك غلبة. ما عثم الأمين أن استخلف حتى حاك في صدره ما حاك في صدر أسلافه وهو تقديم ابنه في ولاية العهد على أخيه وعرض ذلك على المأمون وهو بين جنده وقواده بخراسان فأباه طبعاً لأن من ورائه قوة تدفع عنه، وكان من جراء ذلك الخلاف الهائل والوقائع المفظعة التي كانت بين جند الأمين والمأمون وتعطلت المسالك والدروب وحصرت بغداد حصراً شنيعاً وانتهى الأمر بخلع الأمين ثم قتله. وحدث بعقب ذلك ثورات شديدة في أكثر البلدان لإسلامية ولو كانت لخصومهم من آل على قوة منظمة لنجحوا وثلوا عرش ملك عباسيين.

لم يعهد المأمون إلا لأخيه المعتصم وكذلك المعتصم لم يعهد إلا لابنه الواثق ومات الواثق عن غير عهد فاختر للخلافة أخوه المتوكل اختاره لها كبار الدولة بعد موت الواثق .

جاء المتوكل وغلط غلطة جده الرشيد فبايع بولاية العهد لأولاده الثلاثة وهم محمد المنتصر بالله ومحمد المعتز بالله وإبراهيم المؤيد بالله، وعند لكل منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهود والآخر أبيض وهو لواء العمل، فأقطع أكبرهم المنتصر أفريقية والمغرب كله والعواصم والثغور جميعها الشامية والجزرية وبلاد الجزيرة والعراق والحجاز واليمن والأهواز والسند ومكران . وأقطع ثانيهما خراسان وما يضاف إليها وصبرستان والرى وأرمينية وأذربيجان وكور فارس، وأقطع ثالثهم جند حمص وجند دمشق وجند فلسطين . حذا هذا الرجل حذو جده مع ما رأى من سوء العاقبة ونقض العهود والمواثيق ثم زاد الطين بلة فعزم فى أخريات أيامه أن يخلع المنتصر أكبر الإخوة من ولاية العهد فتمالا المنتصر وجماعة من الأتراك على قتله فقتلوه، وتولى المنتصر وبإيعه أخواه ولم يلبث أن خلعهما بعد أربعين ليلة من ولايته . فأما المؤيد فقابل ذلك بالسمع والطاعة، وأما المعتز فأبى وقال: إن أردتم القتل فشانكم . ثم أجاب بعد تهديد ووعد وأشهد كلا الأخوين على نفسه بالخلع القضاة وبنى هاشم والقواد ووجوه الناس ؛ هذا مع أن المنتصر لم يكن له ابن كبير يصح أن يلى العهد . وأعقب ذلك موت المنتصر فلم يتمتع بما استعجل به فمات من غير عهد .

اختير للخلافة بعده أحمد المستعين بالله بن محمد بن المعتصم أخرجها الموالى عن أولاد المتوكل خوفاً أن يفتكوا بهم لقتلهم أباهم .

اختلف نظام الخلافة ببغداد فى ذلك الوقت إذ صار كبار الأتراك الذين هم من بقايا المعتصم ومن معهم من رجال الدولة يولون من شاءوا وبعد زمن يخلعونهم ثم يولون غيره حتى أتى المعتمد بالله وهو الخامس عشر منهم فعهد إلى ابن أخيه أحمد المعتضد بن طلحة بن المتوكل وعهد المعتضد إلى ابنه المكتفى ثم عادت الاضطرابات والخلع والقتل فى الخلفاء حتى جاءت دولة بنى بويه . وفى عهدهم لم يكن للخلفاء إلا الاسم، والتولية والعزل لبنى بويه وجميع الخلفاء الذين ولوا فى عهدهم خلعوا إلا أحمد القادر بالله فإنه طال حكمه وعهد من بعده إلى ابنه القائم .

بعد ذلك تسلسلت الخلافة من الخليفة إلى ابنه حتى انتهت الدولة بظهور التتار حيث أغار هولاكو خان حفيد جنكيزخان موحد التتر وقتل المستعصم (سنة ٦٥٦). وخلاصة القول أن ولاية العهد فى النصف الأول من خلافة بنى العباس كانت جارية على السنن المعيب وهو تولية أكثر من واحد، فترتب على ذلك شرور كثيرة وكوارث عظيمة ولم يلتفت

تحد منهم لوضع نظام، لذلك مع ما كانوا عليه من العلم والعرفان. أما البيعة فكانت فى انصدر الأول عبارة عن المصافحة وقول المبايع أبايعك على السمع والطاعة على العمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ثم زيدت عليه أيمان فى أواخر الدولة الأموية وزادت الأيمان كثيراً فى أوائل عهد الدولة العباسية، ويظهر لكم ذلك من ختام العهدين واللذين كتبهما الأمين والمأمون وحفظا فى البيت الحرام. وقد أثارت تلك الأيمان مسألتين شرعيتين بمكان عظيم من الأهمية.

أولاهما: طلاق المكره لأنه لا يخفى أن من ضمن تلك الأيمان يمين الطلاق. من رأى فقهاء الحجاز أن ليس للمكره يمين وقد أفتى مالك بعدم وقوع طلاق المكره وكان ذلك سبباً لإهانات شديدة أصابته فى عهد المنصور ثانى خلفاء العباسيين، وقد تغلب بسبب ذلك رأى فقهاء العراق أن طلاق المكره واقع.

الثانية: إضافة الطلاق إلى الزوجة التى لم تكن وقت اليمين، فإن البيعة لم تكن لتكتفى بطلاق الزوجات الموجودات بل تعدت ذلك إلى من يتزوجهن الخالف إلى خمسين سنة أو ثلاثين سنة وكذلك إضافة العتق إلى المملوكين الذين يحدثون بعد البيعة إلى أجل معين أو غير معين. قال فقهاء العراق: إن ذلك صحيح ويلحق الطلاق من يتزوجها الخالف. وخالف ذلك بعض فقهاء الحجاز كالشافعى محمد بن إدريس، وقد تغلب طبعاً رأى فقهاء العراق.

١

السفاح

هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس. وأمه ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان الحارثي. ولد (سنة ١٠٤) بالحميمة وهي القرية التي كان أبوه وجده نازلين بها، وكان أبوه قد عهد بأمر الدعوة لابنه إبراهيم ولما أحس إبراهيم باقتراب منيته عهد لأخيه أبي العباس وأمره أن يسير بأعمامه وأهل بيته إلى الكوفة، فسار إليها وبويع بالخلافة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول (سنة ١٣٢) (٣٠ أكتوبر سنة ٧٤٩) وكان مروان لا يزال حياً، ثم قتل مروان لثلاث بقين من ذى الحجة (سنة ١٣٢) (٥ أغسطس ٧٥٠). ومن هذا اليوم يتبدئ التاريخ خلافة أبي العباس ولم يزل خليفة إلى أن توفي بمدينة الأنبار يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة (سنة ١٣٦) (٩ يونية سنة ٧٥٤) فتكون خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر من لدن بويع إلى أن مات وأربع سنوات وأربعة عشر يوماً من لدن قُتل مروان.

وكان يعاصره في مملكة الروم الشرقية بالقسطنطينية قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥) وكان يملك فرنسا في عهده بابن بيراف من العائلة الثانية الكارولونجيانية، ابتداءً ملك أبي العباس بالكوفة ومنها انتقل إلى الحيرة ثم إلى الأنبار ولم يكن بنو العباس يشقون بأهل الكوفة، لأنهم كانوا يتشيعون لآل أبي طالب.

الأحوال الداخلية،

لم تكن هزيمة مروان وقتله منتهى متاعب العباسيين فإنه كان لا يزال في الأمة العربية قواد ضلعمهم مع بنى أمية، ولا يزال عندهم شيء من القوة فكانوا يشعرون إما خوفاً على أنفسهم من بنى العباس الذين أظهروا قسوة شديدة في معاملة مغلوبهم وإما طمعاً في إعادة تلك الدولة العربية التي كان لهم منها نصيب وافر. ففضى أبو العباس أكثر حياته في إخماد تلك الثورات التي كانت كثيرة ولا سيما بالشام والجزيرة والتغلب على يزيد بن هبيرة الذي

كان أمير العراق لمروان بن محمد وتحصن بمدينة واسط بعد غلبة العباسيين على الكوفة وما معها.

وقد كانت حياته مفعمة بحوادث القسوة التي لم يشهد التاريخ مثلها مع بقايا بني أمية ومع غيرهم من أولياء الدولة الذين كان لهم الأثر المحمود في إحيائها.

من الناس من إذا ظفر بخصومه قابلهم بالعفو عن ماضيهم واستصلح بذلك قلوبهم، ولعمري إن ذلك لمن عزم الأمور، وليس يكون إلا بمن استشعر من نفسه تمام القدرة ورأى أن سلطانه إنما يتم إذا ائتلفت القلوب المتنافرة. فأما من خاف عود القوة إلى عدوه المغلوب، أو كان يرى سلطانه لا يكون إلا على فرقة رعيته فإنه يقسو على من ظفر به قسوة تختلف بحسب الأحوال والاستعداد.

انظروا إلى ما فعله رسول الله ﷺ حينما ظفر بخصومه أهل مكة وهم الذين تحالفوا على قتله وأخرجوه من بلده ثم جردوا السيوف لحربه وهيجوا الأحزاب من قبائل العرب ليكونوا عليه في دار هجرته إنهم فعلوا ذلك. لكنه لما ظفر بهم في السنة الثامنة من الهجرة قال لهم: ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم! فقال لهم كما قال يوسف الصديق: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين». أما بنو العباس فقد قسوا في معاملة بني أمية قسوة ربما لم نجد لها مثلاً في الدول التي قامت على أثر دولة أخرى. فعل ذلك السفاح بالعراق وعبد الله بن علي بالشام ونهر أبي فطرس وسليمان بن علي بالبصرة وداود بن علي بالحجاز.

فأما السفاح فقد روى أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني بسنده قال: كان أبو العباس جالساً في مجلسه على سريرته وبنو هاشم دونه على الكراسي وبنو أمية على النوسائد قد ثنيت لهم، وكانوا في أيام دولتهم يجلسون هم والخلفاء منهم على السرير ويجلس بنو هاشم على الكراسي فدخل الحاجب فقال: يا أمير المؤمنين بالبواب رجل حجازي أسود راكب على نجييب مثلث يستأذن ولا يخبر باسمه ويحلف ألا يحسر اللثام عن وجهه حتى يراك، قال: هذا مولاي سديف يدخل فدخل، فلما نظر إلى أبي العباس وبنو أمية حوله حسر اللثام عن وجهه وأنشأ يقول:

أصبح الملك ثابت الأساس	بالبهاليل من بني العباس
بالصدور المقدمين قديماً	والرؤوس القماما قداماً
يا أمير المطهرين من الذم ويا	رأس منتهى كل رأس

كم أناس رجوك بعد إياس	أنت مهدي هاشم وهذاها
واقطعن كل رقلة وغراس	لا تقيلن عبد شمس عشاراً
بدار الهوان والأتماس	أنزلوها بحيث أنزلها الله
وبهم منكم كحز المواسي	خوفهم أظهر التودد منهم
عنك بالسيف شافة الأرجاس	أقصهم أيها الخليفة واحسم
وقتيلاً بجانب المهراس	واذكرن مصرع الحسين وزيداً
رهن قبر ذي غربة وتناسي	والإمام الذي بحران أمسى

فتغير لون أبي العباس وأصابه زرع ورعدة فالتفت بعض ولد سليمان بن عبد الملك إلى رجل منهم فقال: قتلنا والله العبد، ثم أقبل أبو العباس عليهم وقال: يا بني الفواعل أرى قتلاك من أهلى قد سلفوا وأنتم أحياء تلتذذون بالدنيا خذوهم فأخذتهم الخراسانية بالكافر كوبات فأهمدوا، إلا ما كان من أمر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فإنه استجار بدادود بن على فأجاره واستوهبه من السفاح.

وهذا عمل شنيع جداً ولولا تضافر الروايات بالحادثة لما تحمّلنا عناء تسطيرها، وقد بلغ الضعف الإنساني حده بالرجل ولا يستغرب هذا الفعل من جماعة كان أصولهم قتل أوليائهم لأقل ريبة أو شبهة. وهؤلاء أعداؤهم بالأمس يخافون أن يكون لهم أنصار فيعيدون الحرب جذعة.

ودخل سديف هذا على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك فأنشدة:	
لا يفرنك ما ترى من أناس	إن تحت الضلوع داء دويسا
فضع السيف وارفع السوط حتى	لا ترى فوق ظهرها أمويا

فأمر السفاح بسليمان فقتل. ومما قاله سديف هذا يهيج السفاح:

كيف بالعفو عنهم وقديماً	قتلوهم وهتكوا الحرمات
أين زيد وأين يحيى بن زيد	يا لها من مصيبة وتراات
والإمام الذي أصيب بحرا	ن إمام الهدى ورأس الشقات
قتلوا آل أحمد لا عفا الذنب	لمروان غافر السيئات

وأما عبد الله بن علي فكان للأمويين منه يوم عصيب بنهر أبي فطرس بالشام تتبع من كان بالشام من أولاد الخلفاء وغيرهم، فأخذوهم ولم يفلت منهم أحد إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس فقتلهم، ولما فرغ من قتلهم قال:

بنى أمية قد أفنيت جمعكم	فكيف لى منكم بالاول الماضي
يطيب النفس أن النار تجمعكم	عوضتم من لظاها شر معاض
منيتم لا أقال الله عثرتكم	بليث غاب إلى الأعداء نهاض
إن كان غيظي لقوت منكم فلقد	منيت منكم بما ربي به راضى

ولم يكفه ذلك بل عمد إلى قبور بنى أمية فنبشها حتى يحو آثارهم، فنبش قبر معاوية بن أبي سفيان فلم يجدوا فيه إلا خيطاً مثل الهباء، ونبش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد. ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته وكان لا يوجد في القبر إلا العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك فإنه وجد صحيحاً لم تبل منه إلا أرنبة نفعه فضره بالسياط وصلبه وحرقه وذراه بالريح.

وأما سليمان بن علي فإنه قتل بالبصرة جماعة منهم أحضرهم وعليهم الثياب الموشية فأمر بهم فقتلوا وجروا بأرجلهم فقتلوا على الطريق.

وأما دواد بن علي فقتل منهم بمكة والمدينة عدداً وافراً، وكان قد حضر إلى مكة ومعه عدد من بنى هاشم وعدد من بنى أمية فأنشده إبراهيم بن هرمة قصيدة يقول فيها:

فلا عفا الله عن مروان مظلمة	ولا أمية بشس المجلس البادى
كانوا كعاد فأمسى الله أهلكهم	بمثل ما أهلك الغاوين من عاد
فلن يكذبني من هاشم أحد	فيما أقول ولو أكثر تعدادى

فتشمر عن ساعده فى قتل الأمويين حتى لم يبق أحداً إرضاء لشهوة الانتقام التى تمكنت من قلوب بنى العباس ولم تخجلهم تلك الوحشية القاسية.

ومما قيل من الكلام الجيد فى رثاء هؤلاء التعساء ما قاله مولاهم عبد الله بن عمر نغلي:

تقول أمامة لما رأت	نشوزى عن المضجع الأنفس
وقلة نومي على مضجعى	لدى هجمة الأعين النعس

م عـروـن أبـاك فـلا تـبـلـسـي	أبـى ما عـراك؟ فـقـلت الـهـمـو
سـهـام مـن الـحـدـث المـبـئـس	لـفـقـد الـأـحـبـة إذ نـالـهـا
وـلا طـائـشـات وـلا نـكـس	رـمـتـهـا المـنـون بـكـل نـكـل
سـ مـتى ما تـصـب مـهـجـة تـخـلـس	بـأسـهـمـهـا المـتـلـفـات النـفـو
د مـلـقـى بـأرـض وـلـم يـرـمـس	فـصـر عـاهـم فـى نـواحـى البـلا
مـن العـيـب والعـار لـم تـدـنـس	تـقـى أصـبـب وأثـوابـه
وآخر قـد طـار لـم يـحـسـس	وآخر قـد دس فـى حـفـرة
أبـوك وأوحـش فـى المـجـلـس	إذ عـن ذكـرهم لـم يـنـم
وـلا تـسـألـى بـامـرئ مـتـعـس	فـذـلك الـذـى غـالـنى فـاعـلـمـى
وـقـد ألـصـقـوا الرـغـم بـالمـعـطـس	أذـلـو قـنـاتـى لـمـن رـامـهـا

وكانت هذه المعاملة الشنيعة سبباً لهروب يعسوبهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك إلى المغرب وتأسيسه بها مملكة واسعة الأطراف أعاد فيها مجد بيته وكانت تناصى فى العلو والاحترام خلافة بنى العباس فى المشرق على صغر رقعتها.

لم يزل بنو العباس يسومون بقايا بنى أمية سوء العذاب فاختنفى بعضهم وهرب بعضهم وكان ممن اختفى عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبى سفيان، فلما رأى أنه لا يكون فى قبيلة ولا ناحية إلا شهر أمره بها اعتزم أن يفدى حرمه بنفسه وصار إلى سليمان بن على بالبصرة فقال له: أصلح الله الأمير لفظتنى البلاد إليك ودلنى فضلك عليك فإما قبلتنى غانماً وإما رددتنى سالماً فقال: ومن أنت؟ ما أعرفك فانتسب له فقال سليمان: مرحباً بك أقعد نتكلم آمناً غانماً ما حاجتك؟ فقال: إن الحرم اللواتى أنت أقرب الناس إليهن معنا وأولى الناس بهن بعدنا قد خفن لخوفنا ومن خاف خيف عليه، فدمعت عينا سليمان ثم قال: يا ابن أخى يحقن الله دمك ويحفظك فى حرمك ويوفر عليك مالك والله لو أمكنتنى ذلك فى جميع أهلك لفعلت فكن متوارياً كظاهر وآمناً كخائف ولتأتنى رقاعك فكان عمرو يكتب إليه كما يكتب الرجل إلى أبيه وعمه. ثم كتب سليمان إلى السفاح: (يا أمير المؤمنين إنه قد وفد وافد من بنى أمية علينا وإنا إنما قتلناهم على عقوقهم لا على أرحامهم إنا نجمعنا وإياهم عبد مناف والرحم تبل ولا تقطع وترفع ولا توضع فإن رأى أمير المؤمنين أن يهبهم لى فليفعل وإن فعل فيجعل كتاباً عاماً إلى البلدان نشكر الله تعالى على نعمه عندنا

وإحسانه إلينا) فأجابه إلى ما سأل، فكان هذا أول أمان بنى أمية بعد أن بدد شمل سرواتهم قتلاً وتشريداً واطمأن من جهتهم بال سفاح، ولكن بعد أن فتح على نفسه وعلى من يخلفه بعده من آل بيته فتحاً لا يمكنه رتقه، وهو وجود خلافة أخرى إسلامية بالجنوب الغربي من قارة أوروبا.

ولم تكن الشدة في المعاملة قاصرة على أعدائهم بل نال أولياءهم منها شيء عظيم لا نسي أن من أعظم الرجال أثراً في قيام هذه الدولة أبا سلمة حفص بن سليمان الذي كان يقال له وزير آل محمد: لما تم الأمر لبنى العباس اتهموه بأنه كان يريد تحويل الخلافة عنهم إلى آل على بن أبي طالب وكانوا يريدون قتله لكنهم أحبوا مشاورة أبي مسلم في ذلك، فبعث السفاح أخاه أبا جعفر إلى خراسان لمقابلة أبي مسلم واستشارته في ذلك فسار أبو جعفر حتى جاء مرو، وهناك أخبر أبا مسلم خبر أبي سلمة فقال: أكفيكموه ثم انتدب رجلاً وأمره أن ينطلق إلى الكوفة فيقتل أبا سلمة حيث لقيه فقدم الرجل الكوفة وترىص لأبي سلمة حتى خرج من عند السفاح وقتله غيلة في طريقه وأشاعوا أن الخوارج قتلوه ثم قتل بعد ذلك أبو مسلم جميع عماله بفارس هكذا ذهبت حياة هذا الرجل ذي الأثر الصالح في دولتهم من غير تحقيق أمره ولا استماع لحجته بل فعلوا به فعل من لا نظام لهم ولا دولة.

وفي هذا الوقت اتهم أبو مسلم بتلك التهمة رجلاً آخر لا يقل أثراً عن أبي سلمة وهو سليمان بن كثير الذي قال في حقه إبراهيم الإمام (ولا تخالف هذا الشيخ ولا تعصه وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني) فأحضره وقال له: أتخفظ قول الإمام لي من اتهمته فاقتله؟ قال: نعم قال: فإنني قد اتهمتك فقال: أنشدك الله قال: لا تناشدني الله وأنت منطو على غش الإمام فأمر به فضرب عنقه. قتل الرجل بعد استقرار الأمر بمجرد تهمة لم تظهر للناس صحتها ولم تنفعه سابقته ولا حسن أثره.

وعلى الجملة فإن حياة أبي العباس انقضت كلها في الخلاص من بنى أمية والاطمئنان من جهة كل من يرتابون في إخلاصه فسفكت دماء كثيرة وأحدثت قدوة سيئة في نكث العهود واغتيال المخالفين.

وكان أكبر الرجال في عهده الذين لهم سلطان ونفوذ وشدة عزيمة ثلاثة رجال:

١ - أبو مسلم الخراساني بالمشرق.

٢ - أبو جعفر المنصور بالجزيرة وأرمينية والعراق.

٣ - عبد الله بن عليّ بالشام ومصر، فهؤلاء الثلاثة كانوا أساطين دولته وعلى أيديهم كان كل ما يجرى فيها من خير وشر إلا أن هؤلاء الثلاثة لم يكن عندهم إخلاص بعضهم لبعض فإن أبا جعفر كان يحسد أبا مسلم على سلطانه النافذ وكلمته المطاعة حتى طلب من السفاح أن يغتاله وأكثر في ذلك، وكان السفاح يوافقه لولا خوفه من الخراسانية أن يعيدوا الحرب جذعة. وعبد الله بن عليّ كان يطمع أن تكون الخلافة له بعد السفاح لما له من سابق الخدمة في تأسيس الدولة وأنه الذي قام بهزيمة مروان وقطع دابر بني أمية وكان يخاف أن يفوز بها أبو جعفر. فكانت هذه الأفكار سبباً في حوادث جسام سيمر بكم ذكرها.

أراد أبو مسلم القدوم من مرو على السفاح فكتب إليه يستأذنه في الحج وأذن له، ولما كان السفاح لا يميل إلى تولية أبي مسلم موسم الحج أرسل إلى أخيه أبي جعفر يأمره أن يستأذنه في الحج ففعل وأذن له وبطبيعة الحال ولاه الموسم، ولم يكن لأبي مسلم أن يظهر اشمئزاه من تقدم أبي جعفر عليه وإن كان قد قال شيئاً من ذلك لبعض خاصته حيث قال: أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا.

ولما وصل أبو مسلم الأنبار قال له السفاح: لولا أن أبا جعفر أرسل إلىّ يستأذنني في الحج هذا العام لوليتك الموسم. وقد حج في هذا العام وهو (سنة ١٣٦) فحلان ومرا من طريق واحدة يقدم أحدهما الآخر، وكان أبو مسلم يظهر من قوته وكرمه في الطريق ما يزيد في حسد أبي جعفر له وكان ذلك من متممات عزمه على الفتك به.

وكان معظم الولاة للسفاح من أعمامه وبنى أعمامه. وكان في عهده من الإصلاح الداخلي ضرب النار والاميال من الكوفة إلى مكة وكانوا يمسخون الأرض بالذراع الهاشمية وعند تمام الميل يكتبون عليه كلمة واحد ثم اثنين وهكذا وقد جعلوا في الطريق مناراً به يأمن السارون الضلال في تلك الفيافي وهو عمل عظيم.

وكانت قاعدة الخلافة في عهد السفاح الكوفة أولاً ثم انتقل منها إلى الحيرة ثم انتقل أخيراً إلى الأنبار ونقل إليها دواوينه وهي التي بات فيا.

ولاية العهد:

في (سنة ١٣٦) عقد السفاح لأخيه أبي جعفر الخلافة من بعده وجعله ولي عهد المسلمين ومن بعد أبي جعفر عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ وكتب العهد بذلك وصيره في ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه إلى عيسى بن موسى، وقد

ابتدأ السفاح بفعله هذا الغلطة الشنيعة التي سبق بها في عهد بنى أمية وهي تولية اثنين العهد وكانت من أسباب ما أصاب بنى أمية من الخلاف والفرقة.

وفاة السفاح،

أصيب السفاح بالجدرى وهو بالأنبار وتوفى بها في (١٣ ذى الحجة ١٣٦) ودفن بالأنبار في قصره وبلغت وفاته أبا جعفر وهو عائد من حجته.

٢

المنصور

هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي، وأمه أم ولد اسمها سلامة ولد بالحميمة (سنة ١٠١) ولما انتقل أبو العباس من الحيمية إلى الكوفة كان فيمن معه. ولما أفضت الخلافة. إلى أبي العباس كان عضده الأقوى وساعده الأشد في تدبير الخلافة وفي السنة التي توفي فيها أبو العباس عقد العهد لأخيه أبي جعفر وكان إذ ذاك أميراً على الحج ثم توفي السفاح وأبو جعفر بالحجاز فأخذ البيعة له بالأنبار ابن أخيه عيسى بن موسى وكتب إليه يعلمه وفاة السفاح والبيعة له فلقبه الرسول بأحد المنازل عائداً بعد انتهاء الحج. وقد تمت البيعة له في اليوم الذي توفي فيه أخوه (٨ يونيو سنة ٧٥٤) استمر خليفة إلى أن توفي يوم الأحد سابع ذي الحجة (سنة ١٥٨) (٨ أكتوبر سنة ٧٧٥) فكانت خلافته (٢٢ سنة) هلالية إلا ستة أيام.

وكان يعاصره في الأندلس عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (١٣٨-١٧٢).

ويعاصره في فرنسا بابن يبراق ثم شرلمان (٧٦٨ - ٨١٤) ويعاصره في مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين الخامس.

الأحوال عهد المنصور:

تولى المنصور الخلافة ولم تكن قد توطدت دعائمها ولم يكن يخاف عليها من الدولة البائدة دولة الأمويين، لأنه لم تبق لهم بقية يخاف منها وإنما كان الخوف ينتاب المنصور من ثلاث جهات:

الأولى: منافسة عمه عبد الله بن علي له في الأمر لما كان له من نباهة الذكر في بني العباس ولأنه كان يدبر أمر جيوش الدولة من أهل خراسان وأهل الشام والجزيرة والموصل

الذى أمره عليهم السفاح قبل وفاته ليغزو بهم الروم وقد أظهر المنصور خوفه هذا لأبى مسلم حينما جاءه الخبر بوفاة أخيه والبيعة له .

الثانية: من عظمة أبى مسلم الخراسانى مؤسس الدولة فإنه كان يرى له من الصولة وشدة التمكن فى حياة أخيه ما لم يكن يرى معه أمراً ولا حكماً ومثل المنصور فى علو نفسه لا يرضيه أن يكون له فى الأمر شريك ذو سطوة وسلطان مثل أبى مسلم بأمر خراسان ويخلف المنصور ثم يختار للخلافة رجلاً آخر يكون تحت تصرفه وسلطانه فيعود الأمر لأهل فارس .

الثالثة: وهى أقوى هذه الجهات الثلاث خوفه من بنى عمه آل على بن أبى طالب الذين لا يزال لهم فى قلوب الناس مكان مكين وأخصهم محمد بن عبد الله بن حسن بن زيد بن حسن بن على بن أبى طالب لما سيأتى بيانه فكان المنصور يتخوف أن يخرج عليه طالباً بالخلافة والذى كان يزيد هواجسه أنه عام حج فى حياة أخيه لم يحضره محمد ولا أخوه إبراهيم ابنا عبد الله مع من شهدته من سائر بنى هاشم .

كان المنصور يجمع إلى الجرأة وبعد الهمة: المكر والدهاء فعزم أن يضرب أعداءه بعضهم ببعض حتى يستريح منهم جميعاً .

عبد الله بن على:

أرسل عيسى بن موسى إلى عبد الله بن على ببيعة المنصور وعبد الله غاز فانصرف بمن معه من الجيوش قد بايع لنفسه حتى بلغ حران وقد علم بذلك المنصور وقد نزل الأنبار وجمع بها خزائنه ودواوينه فاستحضر أبا مسلم وسيره لحرب عبد الله فسار أبو مسلم نحو عبد الله بحران وقد جمع إليه الجنود والسلاح والطعام والعلوفة وما يصلحه وخندق حول معسكره وكان جنده مؤلفاً من أهل الشام والجزيرة وأهل خراسان فخاف ألا يناصحه أهل خراسان إذا رأوا أبا مسلم مطلقاً فقتل منهم نحو سبعة عشر ألفاً أمر صاحب شرطته فقتلهم وربما كان هذا العدد مبالغاً فيه ولكنه على كل حال قتل منهم عدداً كبيراً فضضع من قوته وجلل نفسه من العار ما لا يمحوه الزمان باعتدائه الفظيع على جزء عظيم من جنده لم يظهر لهم جرم . وما دل على قلة حزمه أنه كان من ضمن القواد الذين معه حميد بن قحطبة وهو من كبار القواد فى الدولة العباسية فأراد أن يستريح منه، ولكنه لم يجزؤ أن يقتله فى المعسكر خوفاً من تغير الجند فكتب له كتاباً ووجهه إلى حلب وعليها زفر بن عاصم . وفى الكتاب إذا قدم عليك حميد فاضرب عنقه، ولما كان حميد ممن لا تغرم هذه الخدعة فك الكتاب فى الطريق وقرأه ولما علم ما فيه دعا أناساً من خاصته فأخبرهم الخبر وأفشى إليهم

أمره وشاورهم وقال: من أراد منكم أن ينجو ويهرب فليسر معي فأني أريد أن آخذ طريق العراق ومن يرد منكم أن يحمل نفسه على السير، فلا يفشين سرى وليذهب حيث أحب فاتبعه على ذلك ناس من أصحابه وبذلك فقد عبد الله قائداً محنكاً مثل حميد:

ترك عبد الله مدينة حران وأقبل على نصيبين فاتخذها معسكراً وحصنها فأقبل إليه أبو مسلم وكان داهية قد مارس الحروب ومعه جند مدرب لا يفسد عليه بالعصيان تدبيره، فأراد أن يحتل موقع عبد الله لخصائمه فكتب إليه: لم أؤمر بقتالك ولم أوجه له ولكن أمير المؤمنين ولاني الشام وإنما أريدها ولم تكن هذه الحيلة لتنتطلي على عبد الله، لأنه يعرف مكاييد خصمه ولكن جند الشام الذين معه قالوا له: كيف نقيم معك وهذا يأتي بلادنا وفيها حرمانا فيقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبى ذرارينا ولكننا نخرج إلى بلادنا فنمنع حرمانا وذرارينا ونقاتله إن قاتلنا، فقال لهم عبد الله: والله ما يريد الشام. فارتحل عبد الله متوجهاً إلى الشام وحيثن تحول أبو مسلم حتى نزل معسكر عبد الله بن علي ولما بلغ ذلك عبد الله علم أن الحيلة قد تمت عليه وعاد فتزل معسكر أبي مسلم.

كان أهل الشام أكثر فرساناً وأكمل عدة، ولكن المركز الحصين الذي احتله أبو مسلم عوض عليه كثرة عدوه وبذلك استمر القتال بين الفريقين نحو ستة أشهر والحرب بينهما سجال إلا أن القوة راجحة في معسكر أهل الشام حتى إذا كان يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الآخرة (سنة ١٣٧) كانت بينهما الموقعة الفاصلة، وقد استعمل فيها أبو مسلم دهاءه الحربي فاكتسب الظفر وذلك أنه أرسل إلى الحسن بن قحطبة وكان على الميمنة أن أعر الميمنة وضم أكثرها إلى الميسرة وليكن في الميمنة حماة أصحابك، فلما رأى ذلك عبد الله أعرى ميسرته لمقاتلة ميمنة أبي مسلم وضم أكثر جنودها إلى الميمنة بإزاء ميسرة أبي مسلم ثم أرسل أبو مسلم إلى الحسن أن مر أهل القلب فليحملوا مع من يبقى في الميمنة على ميسرة أهل الشام فحملوا عليها فحطموها وجاء أهل القلب والميمنة وركبهم أهل خراسان فكانت الهزيمة.

وهنا فعل عبد الله بن علي فعلاً لا يليق بشرف بني هاشم وعلو اسمهم في ميادين القتال، فإنهم كانوا يرون الفرار عاراً لا تحتمله أنفسهم الآية، فإما ظفر أو قتل، ولكن عبد الله قال لأحد قواده: ما ترى؟ فقال: أرى أن تصبر وتقاتل حتى تموت فإن الفرار قبيح بمثلك، وقبل عبت على مروان، فقلت: قبح الله مروان جزع من الموت ففر فلم يعجبه هذا الرأي وفر إلى العراق تاركاً معسكره فاحتواه أبو مسلم فأمن الناس ولم يقتل أحداً وأمر بالكف عنهم.

أما عبد الله فإنه سار إلى البصرة وكان أميرها أخاه سليمان بن عليّ فأواه وأقام عنده مدة متواريًا، ولما علم المنصور بذلك أرسل إلى سليمان يأمره بإشخاص عبد الله بن عليّ إليه وأعطاه من الأمان لعبد الله ما رضىه ووثق به، فخرج به سليمان حتى قدم به إلى المنصور (سنة ١٣٩) فأمر بحبسه وحبس من كان معه ثم أمر بقتل بعضهم وأرسل آخرين منهم إلى خراسان فقتلوا هناك واستمر عبد الله في محبسه حتى مات (سنة ١٤٧).

هذه كانت خاتمة حياة ذلك البطل الذى كان على يده أكبر عمل فى تأسيس الدولة العباسية كما كان على يده أكبر الفظائع فى إهلاك البقايا من بنى أمية ولا نحجم عن إظهار نفورنا من هذه الطرق التى يلجأ إليها ذوو الخدع والمكر لتنفيذ أغراضهم وتأييد ملكهم غير ناظرين إلى النتائج الخبيثة التى تجلب الشر على أمنهم فإن المنصور لم يعبأ بتلك الموائيق التى أعطاها لعبد الله واستخف بها كما استخف بأمان ابن هبيرة قبل ذلك، كما أنا لا نحجم عن أن نقول: إن عبد الله ختم حياته شر ختام بهربه من ميدان القتال، فإن طلاب العظائم إذا حال القدر بينهم وبينها لا يرضون الدنيا لأنفسهم ويموتون دون العار الذى يلحقهم ويلحق أهل بيتهم بسببهم.

نبؤ مسلم:

استراح المنصور من عبد الله بن عليّ على يد أبى مسلم، فوجه الهمة إلى الراحة من هذا العدو الثانى الذى لا يطمئن على ملكه وهو حى، لأنه أصبح صاحب الشوكة والسلطان فى الدولة وليس المنصور ممن يمكنه الصبر على ذلك، والذى زاد الأمر عنده أنه قد ألقى إليه أن أبى مسلم لا يحترم كعبه ويستهزئ بها إذا وردت إليه فصمم على الفتك بأبى مسلم.

حصلت حادثة أوقعت الريبة فى قلب أبى مسلم وذلك أنه بعد تمام الهزيمة أرسل المنصور من قبله رسولا ليحصى المغانم التى غنمت من عبد الله، فلما ورد الرسول المعسكر غضب أبو مسلم وكاد يقتل الرسول لولا أن قيل له: ما ذنبه إنما هو رسول فخلى سبيله ولم يمكنه مما جاء له وقال: أأكون أمينا على الدماء غير أمين على الأموال فعاد الرسول وأخبر المنصور، لم يكن يحب أن تدخل أبى مسلم أقل ريبة منه لخوفه أن يمضى إلى خراسان، وبذلك لا يتمكن منه إلا بعد معاناة شدائد يريد اختصارها وليأمن من ذلك كتب بنى أبى مسلم: (إنى قد وليتكم مصر والشام فهى خير لك من خراسان فوجه إلى مصر من حيث وأقم بالشام حتى تكون بقرب أمير المؤمنين فإن أحب لقاءك أتيت من قريب) فلما جاء الكتاب أبى مسلم غضب وقال: هو يولبنى الشام ومصر وخراسان لى وصمم على

المضى إلى خراسان وأقبل من الجزيرة مجمعاً على الخلاف مريداً خراسان. رأى المنصور أنه لم يبق إلا استعمال الدهاء لإيقاع أبى مسلم فى فخ ينصبه له حتى لا يثير حرباً شعواء لا تعلم نتائجها فتوجه إلى المدائن وكتب إلى أبى مسلم بالمصير إليه فكتب إليه أبو مسلم: (إنه لم يبق لأمر المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه الله منه وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء فنحن نأفرون من قريك حريصون على الوفاء لك بعهدك ما وفيت حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة، فإن أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيد فإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسى) وهذا الكتاب مما زاد النار اشتعالاً فى قلب المنصور، لأنه كتاب رجل مدل بما له من القوة حتى وضع نفسه قرناً للخليفة إدلالاً بمركزه وسابقته فى إقامة دعائم الخلافة العباسية فكتب إليه المنصور: (قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب جبل الدولة لكثرة جرائمهم وإنما راحتهم فى انتشار نظام الجماعة فلم سويت نفسك بهم فأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به وليس مع الشريطة التى أوجبت منك سماع ولا طاعة، وحمل إليه أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالته لتسكن إليها إن أصغيت إليها، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد وأقرب من طبه من الباب الذى فتحه عليك).

أرسل هذا الكتاب مع عيسى بن موسى ووجه معه أبا حميد المروزى وأمره أن يكلم أبا مسلم بالين ما يكلم به أحداً وأن يمينه فإن أبى قال له: يقول لك أمير المؤمنين لست للعباس وأنا برئ من محمد إن مضيت مشاقاً ولم تأتني إن وكلت أمرك لأحد سوى، وإن لم أَل طلبك وقتالك بنفسى ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار اقتحمتها وراءك اقتلك أو أموت قبل ذلك.

سار أبو حميد حتى ورد على أبى مسلم فكلّمه كلاماً رقيقاً فيه نصيحة وتذكير بحقوق الإمام وتخويف من تفريق الكلمة فاستشار أبو مسلم مختصيه فأشاروا عليه بالألا يقدم على المنصور، لأنه لم يعد يأمنه بعد أن وقع فى نفسه ما وقع فقال لأبى حميد: ارجع إلى صاحبك فليس من رأى أن آتية وجيتئذ بلغه أبو حميد الرسالة الأخيرة فوجم لها أبو مسلم، لأن هؤلاء الجبابرة يعتريهم طائف من الجبن إذا هم وصلوا إلى قمة علوهم فمثل هذه الكلمات القاسية من المنصور جعلته يخنع ويلين والذى زاده حيرة وارتباكاً ما فعله المنصور من التدبير العظيم الذى يضعف آمال أبى مسلم من خراسان وجنودها ذلك أنه كتب إلى خليفة أبى مسلم علم، جند خراسان يعطيه إمارة خراسان ما عاش ولا شيء أكبر من

ذلك يقطع صلته بأبي مسلم فكتب إليه حين بلغته الأخبار بقرب مجيئه إلى خراسان (إننا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه ﷺ فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه) فوافاه هذا الكتاب حين مجيء رسالة المنصور فزاده ذلك رعباً ولم يجد بداً من أن يحول وجهه عن خراسان ويقصد المنصور. كان المنصور مصمماً على قتل أبي مسلم ولكن اجتهد أن يكون الرجل آمناً لا يحس بشيء من الجفاء، فما قارب أبو مسلم المدائن أمر الناس وبنى هاشم فتلقيه حتى إذا دخل على المنصور وسلم عليه سلاماً لا يشوبه شيء مخيف أمره أن ينصرف ويزيل وعشاء السفر ويستريح ليلة. ولما جاء الغد أمر عثمان بن نهيك رئيس الشرطة فجاء بأربعة رجال من الحرس وأمرهم أن يكونوا خلف الرواق فإذا هو صفق خرجوا فقتلوا أبا مسلم. ثم دعاه فدخل عليه فأقبل يحدثه. ومن تمام تديبره أنه شرع يسأله عن نصليين أصابهم في متاع عبد الله بن عليّ فقال: هذا أحدهما للذي هو معه، فقال المنصور: أرنيه فانتضاه وناولوه إياه فهزه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه: وإعما فعل ذلك ليأمن على نفسه أن يفتك به أبو مسلم إذا أحس بالشر ثم صار يسأله عن أشياء أخذها عليه وأخيراً سأله عن سبب قصده خراسان مراغماً، فقال دع هذا فما أصبحت أخاف أحداً إلا الله فصفق حينئذ لمنصور بيديه فخرج أولئك الحرس الأربعة فاعتوروه بسيوفهم حتى ذهب نفسه. ثم أراد أن يفرق الجمع الذي أقبل مع أبي مسلم فأعطاهم جوائز ألهمتهم عن التفكير في الخلاف ثم أرسل إلى القواد الذين في جيش أبي مسلم جوائز سنية وأرضى جميع الجند حتى رضوا.

وبقتل أبي مسلم عرف المنصور أنه ابتداء سلطانه الحقيقي الذي لا يشارك فيه ولم يأس على أبي مسلم، لأنه رأى أمام نظره كثيرين من القواد يقومون مقامه.

من الضروري أن ننبه الأفكار إلى أن نوابغ القواد الذين خدموا الخلفاء وأسسوا ملكهم انتهت حياتهم في الغالب بمثل ما انتهت به حياة أبي مسلم، وسبب ذلك أن هؤلاء القواد يكونون في بادئ الأمر ذوى الكلمة المسموعة والسلطان الواسع بين جنودهم لأنهم هم يباشرون للحروب والوقائع وهم الذين يقدمون للجند أعطياتهم فإذا ساعدهم الحظ وتمت عنى أيديهم الانتصارات الباهرة وقامت الدولة بآسهم وشدة حزمهم، لم يكن لنفوذهم في نمولة حد يقفون عنده، لأنهم يرون الأمر إنما جاء لصاحبهم بفضل مجهودهم الذي بذلوه فإذا كان الخليفة بعيد المهمة ذكى القواد لم يسعه أن يحمل كل هذا وإذا ألبسته الضرورة حمله على مضض وإذا أمكنته الفرصة لم يتأخر عن انتهازاها. وليس من طبيعة القائد لغفاح أن يضرب صفحاً عماله من الآثار ويتنازل عن اجتناء الثمرة وقت إدراكها.

ومع ما بدا من أبي مسلم من العسف الشديد لا نبخسه حقه وتأخر عن الاعتراف بأنه

كان من نوابغ الرجال الذين أسسوا الدول العظام ولو كانت الضحايا التي ذهبت في تأسيس الدولة أقل مما ضحى لعددناه من كبار السواس إلا أنه سفك دماء كثيرة وكانت التهمة في نظره كافية لإرهاب نفس المتهم فمثل هذا نصفه بالقوة والعزيمة والثبات والدهاء ولكن لا نصفه بحسن السياسة وما رأيت أجهل من أبي مسلم في قدومه على المنصور بعد ما احتج به على سليمان بن كثير شيخ الدعوة بقوله أتذكر قول الإمام لى من اتهمته فاقتله. فإذا كانت هذه قاعدة يرى العمل بها واجباً أفلا يكون فيما صنعه مع أبي جعفر ما يدعو إلى الريية فيه واستحقاقه القتل، فهو إذا كان قادماً على القتل بمقتضى أصل كثيراً ما نفذه ولذا لا يكون قتله محلاً للنظر والاستغراب: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٩).

محمد بن عبد الله وبنو الحسن بن علي

قدما أن التشيعين لآل البيت كانوا فرقاً ثلاثة: فرقة ترى أن إمام المسلمين معين بالنص من ولد فاطمة بنت محمد ﷺ وهؤلاء إمامية، وكانوا يتولون إلى وقت المنصور جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المعروف بالصادق. وفرقة ترى أن إمام المسلمين يكون من بنى فاطمة إلا أنه معين بالوصف لا بالاسم وهؤلاء إمامية زيدية يرون الخروج مع كل من دعا إلى نفسه من بنى فاطمة متى كانوا موصوفين بالصفات الواجب أن تكون في الإمام من العلم والشجاعة والورع وغير ذلك، وهم نصراء زيد بن علي وابنه يحيى. وفرقة ترى إمامة أهل البيت من غير تقييد ببني فاطمة وهم الذين نصروا بني العباس وكانت الفرقتان الأوليان منتشرتين في كثير من الأقاليم العربية والأعجمية وكانت الدعوة العباسية قبل ظهور أمرها مبهمة لأنها كانت أقرب إلى الرضا من أهل بيت النبي ﷺ، فلما ظفرت الدولة العباسية بظفر دعائتها نفس عليهم بنو عمهم من العلويين الخلافة وعدوهم غاصبين للأمر كما عدوا بنى أمية من قبلهم وأعظمهم في ذلك رجلاً، أحدهما جعفر الصادق إمام الإمامية. ولكنه رضى بما تم ولم يحرك ساكناً وكان يوصى أصحابه بالخلود إلى السكينة، لأنه لم ير فرصة معقولة. وثانيهما محمد بن عبد الله بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهذا كان أطمع في الأمر لما زعموه من أن بنى هاشم انتخبوه للخلافة وبايعوه لها في أواخر عهد بنى أمية، وكان ممن بايعه أبو جعفر المنصور، فلما جاءت الدولة العباسية لم يبايع لأبى العباس ولا لأبى جعفر ولما حج أبو جعفر في عهد أخيه حضره بالمدينة بنو هاشم جميعاً إلا محمد بن عبد الله وأخاه إبراهيم فسأل المنصور عنهما فقال له زياد بن عبد الله الحارثي أمير المدينة: ما يهكم من أمرهما أنا أتيتك بهما فضمنه إياهما وأبقاه عاملاً

على المدينة. ثم إنه دعا بنى هاشم رجلاً رجلاً كلهم يخليه فيسأله عن محمد فيقول: يا أمير المؤمنين قد علم أنك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل اليوم فهو يخافك على نفسه وهو لا يريد لك خلافاً ولا يحب لك معصية وما أشبه هذه المقالة إلا حسن بن زيد بن حسن بن علي، فإنه أخبره خبره وقال: والله ما آمن وثوبه عليك فر رأيك فأيقظ بقوله من لا ينالم.

صار المنصور يحتال بأنواع الحيل ليعرف الأخبار عن محمد واستخراج ما عند أبيه عبدالله بن حسن من أخباره، ولما علم أن عبدالله يعرف نية ابنه حجج (١٤٠) وسأل عبدالله عن ابنه فأنكر أن [يكون] عنده علم بهما فتيقن المنصور كذبه وحجسه وصادر أمواله.

لم ير المنصور بعد ذلك من ابن زياد صدقاً في الحصول على محمد وإبراهيم فعزله وولى بدله على المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القسرى وبسط يده في النفقة في طلبه فأنفق كثيراً من المال في هذه السبيل وبحث بحثاً كثيراً في المدينة وخارجها فلم يصل إلى نتيجة، فعزله المنصور وأشير عليه أن يولى المدينة رجلاً من آل الزبير ليكون ما بين آل الزبير وآل على من العداوة سائغاً له إلى البحث الشديد والجد في الأمر، فلم يرق هذا في عيني المنصور وقال: أعاهد الله ألا أثار من أهل بيتي بعدوى وعدوهم ولكن أبعث عليهم صعلوكاً من صعلاليك العرب فولى على المدينة رياح بن عثمان بن حيان المرى فورد المدينة في شهر رمضان (١٤٤) وهو عازم على عسف الأعراب الذين يستخفي محمد بن عبد الله عندهم، فكان أول شيء فعله أن استهان بمحمد بن خالد القسرى الذي كان قبله والياً وعذبه هو وكتبه ثم أرقه محمد بن عبد الله طلباً حتى لقي شذائد ما كان يراها في عهد أسلافه من ولادة المدينة فقال في ذلك:

منخرف السربال يشكو الوجي	تنكبه أطراف مر وحداد
شرده الخوف وأزرى به	كذلك من يكره حر الجلال
قد كان في الموت له راحة	والموت حتم في رقاب العباد

وزاد المنصور في إرهاب محمد فأمر بأخذ بنى الحسن كلهم نحو ثلاثة عشر رجلاً وحبسهم بالمدينة، ولما علم محمد بذلك جاء إلى أمه هند وقال لها: إني قد حملت أباي وعمومتى ما لا طاقة لهم به، ولقد هممت أن أضع يدي في أيديهم فعسى أن يخلي عنهم، فتكرت هند ولبست أظماراً ثم جاءت السجن كهيئة الرسول، فأذن لها، فلما رآها عبد الله أبو محمد أثبتتها فنهض إليها فأخبرته بما قال محمد فقال: كلا بل نصبر، فوالله إني لأرجو أن يفتح الله به خيراً قولي له فليدع إلى أمره وليجد فيه فإن فرجنا بيد الله فأنصرفت وتم محمد على اختفائه.

لم يزل بنو حسن محبوسين عند رياح بالمدينة حتى حج أبو جعفر (سنة ١٤٤)، فلما لم يجد عندهم ما يبرد غلته من جهة محمد وأخيه إبراهيم أمر بحملهم إلى العراق وأشخص معهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان وهو أخو بني حسن بن زيد بن حسن لأمهم وأمهم جميعاً فاطمة بنت حسين بن عليّ وكان إبراهيم بن عبد الله صهره على ابنته فحملوا مقيدين بالأغلال والأثقال وسير بهم على شر ما يكون حتى أتى بهم العراق فحبسوا بقصر ابن هبيرة وهو بلد شرقي الكوفة مما يلي بغداد على نهر الفرات. وقد استعمل معهم المنصور من الفظائع ما لا طاقة للإنسان على تسطيره وكان أعظم فظائعه مع محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وكانت نتيجة هذا الحبس الشديد أن مات أكثرهم في الحبس مع أن بني العباس ملأوا الدنيا تهويلاً ورياء بأنهم خرجوا انتقاماً من قتلة الحسين بن عليّ وزيد بن حسن ويحيى بن زيد وهؤلاء إنما قتلوا في ميادين القتال وهم خارجون ولم يقتل بنو أمية أحداً من آل عليّ بالشكل الفظيع الذي ذهب به بنو حسن في عهد بني عمهم من آل العباس.

كانت نتيجة هذا الإخراج وهذه الفظائع أن عزم محمد على الظهور بالمدينة وتحدث أهلها بذلك وعلم به رياح أمير المدينة فأحب أن يعد عدته لذلك فعوجل. دخل محمد المدينة ومعه (١٥٠ رجلاً) فأتى السجن ففتحه وأخرج من فيه ولم يقاومه أهل المدينة بل أعانوه وخذلوا رياحاً وكان خروجه في أول يوم من رجب (سنة ١٤٥) وبعد أن استولى على البلد صعد منبر الحرم وقال: (أيها الناس إنه كان أمرنا وأمر الطاغية عدو الله أبي جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التي بناها معانداً لله في ملكه وتصغيراً للكعبة الحرام، وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المؤمنين، اللهم إنهم أحلوا حرامك وحرّموا حلالك وأمنوا من أخفت وأخافوا من أمنت، اللهم فأحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً أيها الناس إني والله ما خرجت بين أظهركم وأنتم عندي أهل قوة ولا شدة ولكن اخترتكم لنفسى والله ما جئت هذه وفي الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذت لى فيه البيعة).

وكان الذى أوقع محمداً فى هذا الغلط وجعله يفهم أن دعوته عمت البقاع أن المنصور كان يكتب لمحمد على ألسن قواده، يدعونه إلى الظهور ويخبرونه أنهم معه فكان محمد يقول: لو القينا مال إلى القواد كلهم فهذا الذى جعله يظن هذا الظن. وما زاده خطأ فى قوة نفسه أنه كان متفقاً مع أخيه إبراهيم أن يخرج بالبصرة فى اليوم الذى يخرج فيه محمد بالمدينة حتى يهول أمرهما أبا جعفر فيفت ذلك فى عضده ولكن إبراهيم لم يخرج هذا اليوم لمرض أصابه أو أن محمداً سبق الميعاد والنتيجة أنهما لم يخرجاً معاً وأعظم خطر على

لإنسان ما يصيبه من قبل فهمه في نفسه فإنه إذا خاض العظام وهو يظن لنفسه من القوة ما ليس لها كان حرياً بالفشل والخيبة.

على أنه فضلاً عن ذلك كله جعل نفسه محصوراً بالمدينة وهي ليست بمركز حربي يمكن لقائده أن يبقى فيه على الدفاع طويلاً وحياتها من خارجها فلا تحتمل الحصار إلا قليلاً فلم يكن محمد موفقاً في تدبيره مع ما كان يتحلى به من الخصال التي كانت ترفعه في أعين أهل المدينة على أبي جعفر فإنهم كانوا لا يرون فيه غشم أبي جعفر ولا ميله للتعسف والظلم بل كان يكره سفك الدماء ويتجنبه ما وجد إلى ذلك سبيلاً ويحب الخير للناس، وكان لذلك يلقب عندهم بالنفس الزكية وبالمهد. ولما استفتى مالك إمام دار الهجرة في الخروج مع محمد وقيل له: إن في أعناقنا بيعة للمنصور قال: إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين، ولكن هذا كله لا يفيد مع ضعف المركز الطبيعي، ولذا قال له محمد بن خالد القسري لما ظهر إنك قد خرجت في هذا البلد والله لو وقف على نقب من أنقابه لمات أهله جوعاً وعطشاً فانهض معي فإنما هي عشر حتى أضربه بمائة ألف سيف فأبى عليه ذلك. ولما علم المنصور بخروجه قال للربيع بن عبيد الله بن عبد المدان خرج محمد. فقال: أين؟ قال: بالمدينة، فقال الربيع: هلك والله خرج في غير عدد ولا رجال.

كان المنصور حين بلوغه الخبر منشغلاً ببناء بغداد فسار إلى الكوفة ليرعى أحوالها بنفسه لأن أهلها شيعة لآل عليّ ويخاف منهم أن يخرجوا لمساعدة محمد، فأقفل أبوابها حتى لا يخرج منها أحد ولا يدخلها أحد، ثم أحب أن يرأسل محمداً قبل الحرب فكتب إليه كتاباً هذه نسخته: (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله، أما بعد ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يَقْتُلُوا أَوْ يَصلُّوا أَوْ يَقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يَنْفِرُوا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٣، ٣٤). ولك عهد الله وميثاقه وحق نبيه محمد ﷺ إن ثبت من قبل أن تقدر عليك أن تؤمنك على نفسك ولولدك وإحوتك ومن بايعك وتابعتك وجميع شيعتك وأن تعطيك ألف ألف درهم وأن أنزلك من البلاد حيث شئت وأقضى لك ما شئت من الحاجات وأن أطلق من في سجنك من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ثم لا أتبع أحداً منكم بمكروه فإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ما تحبب والسلام).

فكتب إليه محمد بن عبد الله: (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد. أما بعد: ﴿ طَسَمَ ﴾ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢)

نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿ (القصص: ١-٦). وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي أعطيتني وقد تعلم أن الحق حقنا وأنكم إنما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا وخطبتموه بفضلنا، وإن أبانا علياً عليه السلام كان الوصي والإمام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء وقد علمت أنه ليس أحد من بنى هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قدمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا وإنا بنو أم رسول الله ﷺ فاطمة بنت عمرو في الجاهلية دونكم وبنو ابنته فاطمة في الإسلام من بينكم فإنا أوسط بنى هاشم نسباً وخيرهم أما وأبا لم تلدني العجم ولم تعرف في أمهات الأولاد وإن الله تبارك وتعالى لم يزل يختار لنا، فولدني من النبيين أفضلهم محمد ﷺ، ومن أصحابه أقدمهم إسلاماً وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً على بن أبي طالب، ومن نسائهم أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى إلى القبلة، ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة ومن المولودين في الإسلام الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة ثم قد علمت أن هاشماً ولد علياً مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين وأن رسول الله ﷺ ولدني مرتين من قبل جدتي الحسن والحسين فما زال الله يختار لي حتى اختار لي في النار فولدني أرفع الناس درجة في الجنة وأهون أهل النار عذاباً أفانا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار ولك عهد الله إن دخلت بيعتي أن أؤمنك على نفسك وولدك وكل ما أصبته إلا حداً من حدود الله أو حقاً لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمك في ذلك، فإنا أوفى للعهد منك وأحرى لقبول الأمان، فأما أمانك الذي عرضت على فأي الأمانات هو؟ أأمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن علي أم أمان أبي مسلم؟ والسلام).

فكتب إليه أبو جعفر: (بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله. أما بعد، فقد أتاني كتابك وبلغني كلامك فإذا جل فخرك بالنساء لتضل به الجفأة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة والأولياء ولقد جعل العم أباً وبدأ به علي الولد الأدنى فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعَتْ مَلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ (يوسف: ٣٨). ولقد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمد ﷺ وعمومته أربعة فأجاباه اثنان أحدهما أبي وكفر به اثنان أحدهما أبوك فأما ما ذكرت من النساء وقراباتهن فلو أعطيتن على قرب الأنساب وحق الأحساب لكان الخير كله لأمنة بنت وهب، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه فأما ما ذكرت من فاطمة أم

نبي طالب فإن الله لم يهد من ولدها أحداً إلى الإسلام ولو فعل لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير في الآخرة والأولى وأسعدهم بدخول الجنة غداً، ولكن الله أبى ذلك فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (القصص: ٥٦). فأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب وفاطمة أم الحسن وأن هاشماً ولد علياً مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين فخير الأولين والآخرين محمد ﷺ لم يلبه هاشم إلا مرة واحدة ولم يلبه عبد المطلب إلا مرة واحدة وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله فإن الله عز وجل أبى ذلك فقال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الاحزاب: ٤٠) ولكنكم بنو ابنته، وإنها لقراة قريية غير أنها لا تجوز الميراث ولا يجوز أن تؤم فكيف تورث الإمامة من قبلها ولقد طالب بها أبوك بكل وجه فأخرجها تخاصم ومرضاها سراً ودفتها ليلاً فأبى الناس إلا تقديم الشيخين . ولقد حضر تبوك وفاة رسول الله ﷺ فأم بالصلاة غيره ثم أخذ الناس رجلاً رجلاً، فلم يأخذوا أباك فيهم ثم كان في أصحاب الشورى فكل دفعه عنه وبايع عبد الرحمن عثمان وقبلها عثمان وحارب أبوك طلحة والزبير ودعا سعداً إلى بيعته فأغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعده وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فسلمه إلى معاوية بخرق ودراهم وأسلم في يديه شيعة وخرج إلى المدينة فدفع الأمر إلى غير أهله وأخذ مالا من غير حله، فإن كان لكم شيء فقد بعتموه. فأما قولك: إن الله اختار لك في الكفر فجعل أباك أهون أهل النار عذاباً فليس في الشر خيار ولا من عذاب الله هين ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخر بالنار ويسترد فتعلم: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧). وأما قولك: أنك لم تلدك العجم ولم تعرف فيك أمهات الأولاد وأنك أوسط بنى هاشم باً وخيرهم أما وأبا فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طراً وقدمت نفسك على من هو خير منك أولاً وآخرأ وأصلاً وفضلاً فخرت على إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وعلى والد وبنه فانظر ويحك أين تكون من الله غداً وما ولد فيكم مولود بعد رسول الله ﷺ فضل من علي بن الحسين وهو لأم ولد، ولقد كان خيراً من جدك حسن بن حسن ثم ابنه محمد بن علي خير من أبيك وجدته أم ولد ثم ابنه جعفر خير منك، ولقد علمت أن جدك علياً حكم حكيمين واعطاهما عهد الله وميثاقه على الرضا بما حكما به فاجتمعا على خلعه. ثم خرج عمك الحسين بن عليّ علي ابن مرجانة فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه ثم اتوا بكم على القتاب بغير أوطية كالسيى المجلوب إلى الشام ثم خرج منكم غير واحد فقتلكم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا نثركم إذ لم تدركوهم ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك في أدبار الصلوات المكتوبة كما تلعن الكفرة فعنفناهم وكفروناهم وبيننا فضله وأشدنا ذكره

فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنا لما ذكرنا من فضل علىّ أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر كل أولئك مضوا سالمين مسلماً منهم وإبتلى أبوك بالدماء، ولقد علمت أن مآثرنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم وكانت للعباس دون إخوانه فنازعنا فيها أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر، وتوفى رسول الله ﷺ وليس من عمومته أحد حياً إلا العباس فكان وارثه دون بنى عبد المطلب. وطلب الخلافة غير واحد من بنى هاشم فلم ينلها إلا ولده فاجتمع للعباس أنه أب رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء وبنوه القادة الخلفاء فقد ذهب بفضل القديم والحديث ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرهاً لما مات عمك طالب وعقيل جوعاً أن يلحسان جفان عتبة وشيبة فآذ بهما العار والشنار. ولقد جاء الإسلام والعباس يمون أبا طالب للأزمة التي أصابته ثم فدى عقيلاً يوم بدر فقدمناكم في الكفر وفديناكم من الأسر وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وحزنا شرف الآباء وأدركنا من ثأركم ما عجزتم عنه ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام).

بعد هذه المكاتبة التي لم تجد إلا إظهار العيوب لم يكن إلا الجدل في الأمر وكان المنصور يتخوف أن يبلغ خروج محمد أهل خراسان فتفسد قلوبهم فكان يعمى الأخبار عليهم. واختار المناضلة محمد عيسى بن موسى الذي كان السفاح جعله ولي عهد بعد المنصور فقال عيسى للمنصور: شاور عمومك، فقال: امض أيها الرجل فوالله ما يراد غيري وغيرك وما هو إلا أن تشخص أو أشخص وزود عيسى بوصية يحمدها عليها إذ قال: يا عيسى إني بعثتك إلى ما بين هذين (وأشار إلى جنبه) فإن ظفرت بالرجل فشم سيفك وإن تغيب فضمنهم إياه حتى يأتوك به فإنهم يعرفون مذاهبه. وجهاز المنصور الجيش أحسن جهاز، فلما وصل إلى فيد بعث إلى رجال من أهل المدينة في خرق من الحرير، فلما وردت كتبه المدينة تفرق ناس عن محمد وخرج بعضهم إلى عيسى ومنهم ناس من آل على.

ولما شعر محمد بقرب عيسى بن موسى خندق حول المدينة، أما عيسى فإنه أهل بجنوده حتى وصل إلى المدينة وهناك أرسل فضيلة من جنوده تحرس طريق مكة حتى إذا أراد محمد الهرب إليها لم يجد طريقاً وكان نزول عيسى على المدينة في (١٢ رمضان سنة ١٤٥) وقبل اللقاء قدم دعوة محمد إلى الخضوع فلم يجبه ثم درات الموقعة بين الفريقين وقد ظهرت شجاعة محمد بن عبد الله ظهوراً عظيماً ولكن عدوه كان عظيماً فلم يلبث أن قتل وظهرت الأعلام السوداء على مرتفعات المدينة وعلى منارة المسجد النبوي فسلم المحاربون وكان قتل محمد لأربع عشرة ليلة خلت من رمضان.

وعند ذلك أرسل عيسى إلى أبي جعفر بشارة الفتح وبرأس محمد بن عبد الله وأمن المدينة وأهلها في (١٩ رمضان) وشخص يريد مكة بعد أن قبض أموال بنى حسن كلها وكان مكث محمد منذ قام إلى أن قتل شهرين. (١٧ يوماً).

إبراهيم بن عبد الله:

هو أخو محمد دخل البصرة ودعا الناس سرّاً إلى أخيه فبايعه كثير من أهلها وأجابه تيان من العرب، وكان أبو جعفر يظن أنه يخرج بها، فإنه لما بلغه خروج محمد بالمدينة شتار جعفر بن حنظلة البهراني وكان صاحب رأى فقال: حصن البصرة لأن محمداً ظهر -مدينة وليسوا أهل حرب بحسبهم أن يقيموا شأن أنفسهم وأهل الكوفة تحت قدمك وأهل لشام أعداء آل أبي طالب فلم يبق إلا البصرة فاهتم بإرسال الجنود وإقامة المسالحي بين لكوفة والبصرة لئلا يخرج أهل الكوفة لمساعدة إبراهيم.

ظهر إبراهيم بالبصرة، واستولى عليها وعلى ما قرب منها والأهواز وواسط ولم يزل عنى أمره ذلك حتى أتاه نعى أخيه محمد قبل فطر (سنة ١٤٥) بثلاثة أيام فصلى بالناس يوم الفطر وعليه أثر الانكسار.

أرسل أبو جعفر إلى عيسى بن موسى يستحثه للقدوم ليتولى حرب إبراهيم فجاء مسرعاً وصار نحو البصرة وخرج إبراهيم لملاقاته، فالتقيا عند باخمري وكانت العاقبة لعيسى فقتل إبراهيم لخمس ليال بقين من ذى القعدة (سنة ١٤٥).

وكان محمد وأخوه إبراهيم من أحسن الطالبين خلقاً وأنظفهم تاريخاً لم يعرف عنهما ما يشينهما فى معاملة الناس وفى صدق العزيمة إلا أن الحظ خانهما. وللمنصور خطبة نفية يبرر بها عمله مع بنى الحسن أمام شيعته من أهل خراسان وغيرهم قال فيها: (يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا وإن أهل بيتى هؤلاء من ولد على بن أبى طالب تركناهم والذى لا إله إلا هو والخلافة فلم عرض لهم فيها بقليل ولا كثير فقام على بن أبى طالب فتلطح وحكم عليه الحكمان فخرقت عنه الأمة واختلفت عليه الكلمة ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه. ثم قام من بعده ابنه الحسن فوالله ما كان فيها برجل قد عرضت عليه لأموال فقبلها فندس إليه معاوية إننى أجعلك ولى عهدى من بعدى فخذعه فانسلك له بما كذب فيه وسلمه إليه فأقبل على النساء يتزوج فى كل يوم واحدة، فيطلقها غداً فلم يزل على تنك حتى مات على فراشه ثم قام من بعده الحسين بن على فخذعه أهل العراق وأهل لكوفة وأهل الشقاق والنفاق والإغراق والفتن أهل هذه المدرة السوداء (وأشار إلى الكوفة) هو الله ما هى بحرب فأحاربها ولا سلم فأسلمها، فرق الله بينى وبينها فخذلوه وأسلموه. ثم قام من بعده زيد بن على فخذعه أهل الكوفة وعروه. فلما أخرجوه أظهروه وأسلموه وقد كان أتى محمد بن على فناشده فى الخروج وسأله أن لا يقبل أقاويل أهل الكوفة

وقال: إنا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة وأنا خائف أن تكون ذلك المصلوب وناشده عمى داود بن عليّ وحذوه أهل الكوفة فلم يقبل وأتم على خروجه فقتل وصلب بالكناسة ثم وثب علينا بنو أمية فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشرأة حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودمغ بحقكم أهل الباطل وأظهر حقنا وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا ﷺ فقر الحق مقره وأظهر مناره وأعز أنصاره فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله علينا وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظلماً وحسداً منهم لنا وبغياً لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه ﷺ.

جهلاً على وجبناً عن عدوهم لبئست الخلتان الجهل والجبن

إني والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهلة. بلغني عنهم بعض السقم والتعزم وقد دست لهم رجالاً فقلت: قم يا فلان قم يا فلان فخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثلاً يعملون عليه فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسوا إليهم تلك الأموال فوالله ما بقى منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحلت بها دماءهم وأموالهم وحلت لى عند ذلك بنقضهم بيعتى وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج على فلا ترون أني أتيت ذلك على غير يقين، ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مَُّرِيبٍ﴾ (سبا: ٥٤).

وقد بقيت بقايا بنى الحسن مشردين في عهد أبي جعفر بعد أن قتل منهم من قتل ومات من مات وحبس من حبس. ومن غريب ما رأيت من رواية محمد بن جرير الطبري أن المهدي ألت إليه خزائنه مما خلف والده فدخلها مع زوجته ربطة فإذا أزج كبير فيه جماعة من قتلى الطالبين وفي أذانهم رقاع فيها أنسابهم وإذا فيهم أطفال ورجال وشباب ومشايخ عدة كثيرة، فلما رأى ذلك المهدي ارتاع لما رأى وأمر فحفرت لهم حفيرة فدفنوا فيها وعمل عليهم دكان. اهـ. هذه كبرى الحوادث التي حصلت لعهد المنصور.

وكانت الطريقة التي تدار بها البلاد لا تختلف عن طريقة بنى أمية فكان في كل ولاية وال يعينه الخليفة وأعماله هي إقامة الصلاة للمسلمين وجهاد العدو وجباية الخراج وحفظ الأمن وفصل الخصومات بين الناس وقد كان الوالي تسند إليه أحياناً هذه الأمور الخمسة فيكون إمام القوم وقائد الجند ويتدد للخراج والشرطة والقضاء من يراه أهلاً للقيام بها

حياتاً يكون إليه الصلاة والشرطة والجهاد والخراج ويكون للحرب أمير آخر مستقل عن أمير الصلاة ويعين القاضي من قبل الخليفة رأساً.

ولم تكن الولاية متعينة العدد بل تارة تضم ولايتان إلى وال واحد وتارة يفصل بينهما حسب ما يراه الخليفة في مقدرة الوالى فكان أبو مسلم مثلاً والياً لخراسان كلها وبلاد نرى والجبل وعليها ولاية من قبله. وكان أكثر الولاة لعهد المنصور من أهل بيته ومن حطنتهم من العرب، والموالى ولم يكونوا يحبون أن تطول مدة الوالى فى ولاية ولا سيما فى الأطراف كمصر وخراسان خوفاً أن تحدثه نفسه بالاستقلال عن الخليفة وقد حصلت من نكث حوادث فى خراسان تلافاهها المنصور بحيلته وقوته.

وجميع أمور الولايات ترجع إلى الخليفة الذى هو صاحب الأمر المطاع ومعينوه هم:

أولاً: الوزير. والوزارة لم تكن معروفة بهذا الاسم فى عهد الدولة الأموية وأول من سعى بها لعهد أبى العباس السفاح أبو سلمة الخلال شيخ الدعوة بالكوفة فقد كان يعرف وزير آل محمد وأصله مولى لبني الحارث بن كعب وكان سمحاً كريماً مطعماً كثيراً البذل مشغولاً بالتنويف فى السلاح والدواب نصيحاً عالماً بالأخبار والأشعار والسير والجدل. لتضير حاضر الحجة ذا يسار ومروءة ظاهرة. وقدمنا خبر اتهامه بالميل لآل على ومقتله بسبب ذلك فقال الشاعر فى رثائه:

إن الوزير وزير آل محمد أودى فمن يشناك كان وزيراً

إن السلامة قد تبين وربما كان السرور بما كرهت جديراً

فاستوزر السفاح بعده أبا الجهم إلى أن مات السفاح وولى المنصور فكان فى نفسه منه شيء فيقال: إنه سمه والصحيح أن السفاح استوزر بعد أبى سلمة خالد بن برمك جد لرياسة الذين طهر مجدهم فى عهد هارون الرشيد، وكان خالد من رجال الدعوة العباسية لسين أقاموا دولتها وهو من أبناء رؤساء الفرس الذين كانت إليهم بيوت العبادة قبل شيوع الإسلام بالبلاد الفارسية وهو أول من اعتنق الإسلام من أهل بيته وكان خالد فاضلاً كريماً حزمياً يقظاً استوزره السفاح ويقال: إنه لم يكن يتسمى باسم الوزير تطهيراً مما جرى على نى سلمة فكان يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيراً.

لما تولى المنصور لم تكن للوزارة فى أيامه أبهة ولا كبير قدر لما كان موصوفاً به من استبداد بأموره أبقى فى وزارته خالداً مدة ليست بالطويلة ثم أعفاه وولى أبا أيوب حريانى.

أبو أيوب سليمان بن أبي سليمان مخلص المورياني الخوزي:

وموريان قرية من قرى الأهواز. كان في أواخر دولة بني أمية كاتباً لسليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة، وكان المنصور في ذلك الزمن ينوب عن سليمان هذا في بعض كور فارس فاتهمه بأنه احتجز مالا لنفسه فضربه بالسياط ضرباً شديداً وكان يريد الفتك به بعد ضربه فخلصه منه أبو أيوب فاعتدها المنصور يداً له فضلاً عما عرف به أبو أيوب من المقدرة والنباهة فاستوزره المنصور وخف على قلبه وتمكن منه وكان يخشى المنصور جداً وترعد فرائضه إذا دعاه إليه. روى ابن خلكان أن خالد بن يزيد الأرقط قال: بينما أبو أيوب جالس في أمره ونهيه أتاه رسول المنصور فتغير لونه، فلما رجع تعجبنا من حالته فضرب مثلاً لذلك وقال: زعموا أن البازي قال للديك: ما في الأرض حيوان أقل وفاء منك قال: وكيف ذلك؟ قال: أخذك أهلك بيضة فحضنوك ثم خرجت على أيديهم وأطعموك في أكفهم ونشأت بينهم حتى إذا كبرت صرت لا يدنو منك أحد إلا طرت ههنا وههنا وصوت وأخذت أنا مسنا من الجبال فعلموني وألفوني ثم يخلي عني فأخذ صيداً في الهواء وأجئ به إلى صاحبي فقال له الديك: إنك لو رأيت من البزاة في سفافيدهم المعدة للشئ مثل الذي رأيت من الديوك لكنت أنقر منى ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفي مع ما ترون من تمكن حالي.

وقد كان ما خافه أبو أيوب، فإن المنصور غضب عليه (سنة ١٥٢) وعذبه وأخذ أمواله وحبس أخاه وبني أخيه سعيداً ومسعوداً ومخلداً ومحمداً وطالبهم وكانت منازلهم المتأذر وقد قال في هذه النكبة أحد شعراء العصر:

قد وجدنا الملوك تحسد	من تعطيه طوعاً أزمة التدبير
فإذا ما رأوا له النهى والأمر	أتوه من بأسهم بتكبير
شرب الكأس بعد حفص	سليمان ودارت عليه كف المدير
ونجا خالد بن برمك منها	إذ دعوه من بعدها بالأمير
أسوأ العالمين حالاً لديهم	من تسمى بكاتب أو وزير

وهذه الأبيات القليلة تشرح لنا ما كان يدور على السنة القوم إذ ذاك في نكبات الوزراء التي لم تكن قليلة بل قلما نجد في وزراء بني العباس من سلم منها. ويقال إن سبب نكبة أبي أيوب سعى أبان بن صدقة كاتبه به عند المنصور وكان موته (سنة ١٥٤).

هريـع بن يونس؛

ستوزر المنصور بعد أبى أيوب الربيع بن يونس كان أحد جدوده أبو فروة كيسان مولى عثمان بن عفان من سبى جبل الحليل ونشأ أولاده فى الكتابة فى عهد بنى أمية، ولما حمت الدولة العباسية كان الربيع ممن يخدم المنصور وكان كثير الميل إليه حسن الاعتماد عليه فكانت إليه الحجابة وهى من الوظائف الكبرى فى الدولة وسيأتى شرحها.

ولما قبض المنصور على أبى أيوب استوزره بعد فظّل فى خدمته إلى أن مات المنصور. وكان الربيع عارفاً بخدمة الخلفاء محبوباً عندهم ولا سيما المنصور وكان جليلاً نبيلاً متفذاً للأمور مهيباً فصيحاً كافياً حازماً عاقلاً فظناً خبيراً بالحساب والأعمال حاذقاً بأمر الملك بصيراً بما يأتى ويذر محباً لفعل الخير.

ولما مات المنصور بمكة كان معه وهو الذى أخذ البيعة للمهدى بعده وكان ذلك مما جعل يهذى يبقيه على درجته التى كان عليها فى عهد أبيه إلا أنه كان حاجباً لا وزيراً وكانت وقته (سنة ١٧٠) فى عهد الهادى، ويقال إنه سمّه.

ثانياً: الحاجب وهو موظف كبير لا يمثل أحد بين يدى الخليفة إلا بإذنه وقد وجد الحاجب فى عهد بنى أمية وقد أحدثوه لما خشوا على أنفسهم من الفتاكين بعد حادثة الخوارج مع على وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان مع ما فى فتح أبوابهم من تودحام الناس عليهم وشغلهم به عن المهمات فاتخذوا من يقول لهم بذلك وسموه للحاجب. وقد روى أن عبد الملك قال للحاجب: قد وليتك حجابة بابى إلا عن ثلاثة: المؤذن تتلأ فإنه داعى الله وصاحب البريد فأمر ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد، وكان إلى الحاجب التقديم والتأخير فى الإذن حسبما يرى من مقامات الناس ودرجاتهم.

وقد ظلت الحجابة فى ارتقاء كلما ارتفعت الحضارة وقد سار خلفاء بنى العباس على خط بنى أمية فى ذلك، وكان للحاجب فى عصرهم مرتبة عالية وكثيراً ما كان يستشار فى الأمور التى تنزل بالخلافة.

ثالثاً: الكاتب هو الذى يتولى مخاطبة من بعد عن الحضرة من الملوك والأمراء وغيرهم وكثيراً ما كان يتولى الخليفة نفسه تلك الكتابة، كما ورد أن المنصور لما جاءته رسالة محمد بن عبد الله قال له كاتبه: دعنى أجبه عليها فقال أبو جعفر: لا بل أنا أجيبه عنها إذ تقارعنا على الأحساب فدعنى وإياه. وأحياناً كان يتولى الكتابة الوزير.

رابعاً: صاحب الشرط. وهو المحافظ على الأمن وكان المنصور يختار صاحب الشرط

آمن الرجال وأشدهم وكان له سلطان عظيم على المريين والجنّة إلا أن استبداد المنصور بالأمور ومباشرته لصغيرها وكبيرها كانا يقللان من أهمية كل عامل.

خامساً: القاضى وكان ينظر فى قضايا مدينة المنصور وحدها ولم يكن له سلطان على قضاة الأقاليم، لأن منصب قاضى القضاة لم يكن أنشئ بعد. ومن مشهورى قضاة المنصور محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى. ولد (سنة ٧٤ للهجرة) وتفقه بالشعبى أقام قاضياً بالكوفة ثلاثين سنة فى الدولتين الأموية والعباسية وهو معدود من فقهاء أهل الرأى، وكان بينه وبين أبى حنيفة الإمام وحشة يسيرة، وقد كان أبو حنيفة يعترض عليه فى بعض أحكامه وهو أصغر منه سناً فشكاه ابن أبى ليلى للأمير فمنعه الأمير من الفتيا وكانت وفاة ابن أبى ليلى (سنة ١٤٨).

هذه المناصب الخمسة هى أهم المناصب فى الدولة وجميع المناصب الأخرى ترجع إليها وكان فى كل ولاية صورة من ذلك.

الجيش،

أهم ما تظهر به الدولة جيشها الذى يزود عن حياضها ويحمى بيضتها وقد كان الجيش لعهد الدولة الأموية عربياً محضاً جنوده وقواده، فلما جاءت الدولة العباسية كان ظهور نجمها على يد أهل خراسان الذين يرجع إليهم أكبر الفضل فى ثل عرش الدولة الأموية وبالضرورة يكون لهم حظ وافر من الدولة وحمائتها، لذلك كان جيش الديوان فى أول عهد العباسيين مؤلفاً من فريقين.

الأول: الجيوش الخراسانية - الثانى: الجيوش العربية. وقوادهم من الفريقين بعضهم من العرب وبعضهم من الموالى وكان التنازع شديداً بين الفريقين بداعى العصبية كل يتعصب لأبناء جنسه. وكان أكبر القواد المعروفين فى أول عهد الدولة أبو مسلم الخراسانى لجيوش المشرق الخراسانية وعبد الله بن على لجيوش المغرب وأعظمها عربى من الجزيرة والشام، ولما خرج عبد الله بن على عن طاعة المنصور وأرسل أبو مسلم لحربه فانتصر عليه رجحت كفة الخراسانيين وصارت الثقة بهم أعظم ولكن ذلك لم يمنع المنصور من القضاء على أبى مسلم الذى نظر إليه نظرة الشريك المساوى فى القوة والسلطان ويظهر أن المنصور لم يكن يرى لمصلحته ومصلحة أهل بيته ألا تظل كفة أهل خراسان راجحة فاصطنع كثيراً من رجالات العرب وسلمهم قيادة الجيوش كما استعان بأهل بيته ومن أعظم قوادهم عيسى بن موسى الذى سيره المنصور لحرب محمد بن عبد الله وأخيه إبراهيم.

ومن مشهورى قواده العرب: معن بن زائدة الشيباني، وهو قائد شجاع، كان فى أيام بنى أمية متنقلاً فى الولايات ومنقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراقيين، فلما جاءت الدولة العباسية وحاصر يزيد بن عمر بواسط أبلى معه يومئذ بلاء حسناً، فلما سلم يزيد وقتل، خاف معن على نفسه من المنصور فاستتر مدة طويلة حصلت له فيها غرائب من أظرفها أنه تنكر وركب جملاً يقصد البادية فبينما هو خارج من باب المدينة تبعه عبد أسود متقلداً سيفاً فقبض على خطام جملة فأناخه وقبض على يدى معن وقال: أنت طلبة أمير المؤمنين أنت معن بن زائدة، فلما رأى الجلد منه أخرج عقد جوهر ثمنه أضعاف ما جعله المنصور لمن يأتى بمعن فقال للأسود: خذه ولا تكن سبياً لسفك دمي فتأمله الأسود وقال: لست أقبله حتى أسألك عن شيء فإن صدقتنى أطلتكتك إن الناس وصفوك بالجلود قهمل وهبت مالك كله؟ قال: لا قال: فنصفه قال: لا، ولم يزل حتى بلغ العشر، فقال معن: نعم فقال له الأسود: أنا رزفى من المنصور كل شهر عشرون درهماً وهذا الجواهر قيمته ألف دينار، وقد وهبت لك ووهبتك لنفسك والجلودك المأثور بين الناس ولتعلم أن فى الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل جود فعلته، ولا تتوقف عن مكرمة ثم رمى العقد فى حجره وترك خطام الحمل وولى منصرفاً، فقال له معن: قد والله فضحتنى ولسفك دمي أهون علىّ مما فعلت، فخذ ما دفعته لك فأبنى فى غنى عنه فضحك وقال: أردت أن تكذبنى فى مقالى والله لا أخذته ولا أخذت لمعروفى ثمناً ومضى ليله. وما زال معن مستتراً حتى كان يوم الهاشمية يوم أن ثار الراوندية بالمنصور وهم قوم من أهل خراسان منسوبون إلى بليدة قرب قاشان، وكانوا على رأى أبى مسلم صاحب دعوة بنى هاشم يقولون بتناسخ الأرواح ويظهر على رغم الروايات المتناقضة أنهم كانوا يريدون الأخذ بثأر أبى مسلم ويقتلون أبا جعفر فاجتمع منهم زهاء ستمائة وقصدوا نحو المنصور، فنادى الناس وغلقت أبواب المدينة فلم يدخل أحد، فخرج المنصور من قصره، وفى ذلك الوقت ظهر معن فاتتهى إلى أبى جعفر فرمى بنفسه وترجل وأدخل خرقة قبائه فى منطقتة وأخذ بلجام دابة المنصور وقال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين إلا رجعت فإنك تكفى فلم يرجع، وجاء الربيع ليأخذ بلجام الدابة فقال له معن: ليس هذا من أيامك ثم تكاثر عليهم الناس فقتلوهم جميعاً وشرفت تلك الفعلة معنا فى نظر أبى جعفر حتى سماه "سد الرجال" فقال معن: والله يا أمير المؤمنين لقد أتيتك وأنا وجل القلب، فلما رأيت ما عندك من الاستهانة بهم وشدة الإقدام عليهم رأيت أمراً لم أره من خلق فى حرب فشددت ذلك من قلبى وحملنى على ما رأيت منى. وكان ذلك سبباً لإعطائه الأمان ووصله بعشرة ألف درهم وتوليته اليمن فمكث فيها مدة أحسن فيها السيرة فى أهلها حتى ردهم إلى

الطاعة والجماعة. ثم ولى فى آخر أمره سجستان. ولما كان (سنة ١٥١) كان فى داره صناع يعملون له عملاً فاندس بينهم قوم من الخوارج فقتلوه بمدينة بست. وكان معن جواداً ممدحاً وشاعره الخفيف به مروان بن أبى حفصة له فيه المدح الرائقة كما له فيه المراثى المشجعة ومن طرف بدائنه أن معنا دخل على المنصور مرة فقال له: إيه يا معن تعطى مروان بن أبى حفصة مائة ألف درهم على قوله:

معن بن زائدة الذى زادت به شرفاً على شرف بنو شيبان

فقال: كلا يا أمير المؤمنين وإنما أعطيته على قوله:

ما زلت يوم الهاشمية معلناً بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهند وسان

ومنهم عمرو بن العلاء من أعظم قواد المنصور وهو الذى يقول فيه بشار بن برد الشاعر:

فقل للخليفة إن جنته نصيحاً ولاخير فى المتهم
إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمراً ثم نم
فتى لا ينام على دمنة ولا يشرب الماء إلا بدم

ويقول فيه أبو العتاهية:

إن المطايا تشتكك لأنها قطعت إليك سباسباً ورحالا
فإذا وردن بنا وردن مخفة وإذا رجعن بنا رجعن ثقالا

وجهه المنصور (سنة ١٤١) لحرب بلاد طبرستان وكانت مضطربة بشورة المصمغان ملك ديباوندو الأصبهذ وكان توجيهه إليها بمشورة أخى المصمغان، فإنه قال للمنصور يا أمير المؤمنين إن عمراً أعلم الناس ببلاد طبرستان فوجهه وضم إليه خازم بن خزيمه وهو من القواد الكبار فدخل الرويان ففتحها وأخذ قلعة الطاق وما فيها وطالت الحرب فألح خازم على القتال ففتح طبرستان وقتل من أهلها فأكثر وصار الأصبهذ إلى قلعته وطلب الأمان على أن يسلم القلعة بما فيها من ذخائره ثم بدأ للأصبهذ فدخل جيلان من الديلم فمات بها وأخذت ابنته فتسراها العباس بن محمد وهى أم ابنه إبراهيم. وصمدت الجنود للمصمغان فظفروا به.

ولم يزل عمرو بن العلاء فى رتبته إلى مدة المهدي محمد بن أبى جعفر.

حاضرة الخلافة:

لما ولي أبو جعفر انتقل من الأنبار إلى الهاشمية التي أسسها أخوه أبو العباس وأقام بها. لم يأن عزم على تأسيس مدينة بغداد حاضرة بني العباس الكبرى ومظهر فخرهم ومدنيتهم، وكان يريد أن يكون بعيداً عن الكوفة فخرج يرتاد مسكناً لنفسه وجنده وبيتني به منية حتى صار إلى موضع بغداد وقال: هذا موضع معسكر صالح هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا فيها كل ما في البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقعة وما حول ذلك فتزل وضرب عسكره على نصرة وهو نهر بين دجلة والفرات ثم أمر بخطط المدينة على مثال وضعه وهي مدورة الشكل تحريماً وجعل لها سورين أحدهما داخل سور المدينة وسمكه في السماء (٣٥ ذراعاً) وعليه نبرجة سمك كل برج منها فوق السور خمسة أذرع وعلى السور شرف وعرض السور من سفله نحو عشرين ذراعاً ويليهِ من الخارج فصيل بين السورين وعرضه (٦٠ ذراعاً) ثم السور لأول وهو سور الفصيل ودونه خندق. وللمدينة أربعة أبواب كل اثنين منها متقابلان ولكل منها باب دون باب بينهما دهليز ورحبة تدخل إلى الفصيل الدائر بين السورين، فالأول باب لفصيل والثاني باب المدينة، فإذا دخل من باب خراسان عطف على يساره في دهليز معقود بالآجر والجص عرضه عشرون ذراعاً وطوله ثلاثون المدخل إليه في عرضه والمخرج منه وطوله يخرج إلى رحبة مائة إلى الباب الثاني طولها (٦٠ ذراعاً وعرضها ٤٠) ولها في جنيبتها حائطان من الباب الأول إلى الباب الثاني طولها في صدر هذه الرحبة بابان إلى الفصيلين. لباب الثاني وهو باب المدينة وعن يمينه وشماله في جنبتي هذه الرحبة بابان إلى الفصيلين. والأبواب الأربعة على صورة واحدة في الأبواب والفصيلان والرحاب والطاقتان. ثم الباب الثاني وهو باب المدينة وعليه السور الكبير فيدخل من الباب الكبير إلى دهليز أزج معقود بالآجر والجص طوله (٢٠ ذراعاً وعرضه ١٢) وعلى كل أزج من آراج هذه الأبواب مجلس نه درجة على السور يرتقى إليه منها، على هذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة في السماء سمكها (٥٠ ذراعاً) مزخرفة وعلى رأس كل قبة منها تمثال تديره الريح لا يشبه نظائره.

وعلى كل باب من أبواب المدينة الأوائل والثواني باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب منها فردان.

وابتني قصره الذي يسمى الخلد على دجلة وكان موضعه وراء باب خراسان. ومد منصور قناة من نهر دجيل الآخذ من دجلة وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات وجرحهما إلى المدينة في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها فكانت كل

قناة منهما تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والأرباض وتجري صيفاً وشتاء لا ينقطع ماؤها في أى وقت وجر لأهل الكرخ أربعة أنهر يقال لأحدهم نهر الدجاج وللثاني نهر القلائين وللثالث نهر طابق والرابع نهر البزازين. والكرخ هو أسواق المدينة التي نقلها المنصور من مدينته في الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى بناها المنصور ورتب كل صنف منها في موضعه وبنى لأهل الأسواق مسجداً يجمعون فيه ولا يدخلون المدينة وسميت الشرقية لأنها شرقي الصراة. ولأبى عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة نفطويه في الكرخ:

سقى أربع الكرخ العوادي بديمة وكل ملث دائم الهطل مسبل
منازل فيها كل حسن وبهجة وتلك لها فضل على كل منزل

وفى (سنة ١٥١) بنى المنصور الرصافة للمهدى ابنه وعمل لها سوراً وخندقاً وميداناً وبستاناً وأجرى لها الماء. وربيع الرصافة يسمى عسكر المهدي، لأن المهدي عسكر به عند شخوصه من الرى.

وبنى المنصور قصره والجامع في وسط المدينة وكان في صدر قصر المنصور إيوان طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون، وفي صدر الإيوان مجلس عشرون ذراعاً في عشرين وسمكه عشرون وسقفه قبة وعليه مجلس فوقه القبة الخضراء وسمكه من أول حد عقد القبة عشرون ذراعاً فصار من الأرض إلى رأس القبة الخضراء ثمانين ذراعاً وعلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارس بيده رمح.

وقد أنفق المنصور على مدينته هذه ثمانية عشر ألف ألف دينار على ما حكاه ياقوت. وفى بعض الروايات أقل من ذلك. ولما تم بناؤها حشر إليها المنصور العلماء من كل بلد وإقليم فأماها الناس أفواجا ولم تزل تتعظم ويزداد عمرانها حتى صارت أم الدنيا وسيدة البلاد ومهد الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية وأربى سكانها على مليونين. قال الخطيب البغدادي: لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها وتميز خواصها وعوامها وعظم أقطارها وسعة أطرارها وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشوارعها ومحالها وأسواقها وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها وطرقها وخاناتها، وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها وأفيائها واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها، وزيادة ما حصر من عدد سكانها وأكثر ما كانت عمارة وأهلاً في أيام الرشيد إذ الدنيا قارة المضاجع دارة المراضع خصيبة المواقع مودة المشارع.

الأحوال الخارجية:

فى عهد المنصور هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان إلى بلاد الأندلس، وأسس بها الدولة الأموية الثانية وكان المنصور يعجب به وبقدرته وعزيمته حتى جعلته وهو شريد طريد يؤسس ملكاً فى هذه البلدان القاصية ولم يكن بين الرجلين بالضرورة علاقة حسنة ولم يتسم عبد الرحمن بأمر المؤمنين بل تسمى بالأمر فقط. وهذه نول بلاد اقتطعت من الخلافة الإسلامية الكبرى بالشرق. أما مملكة الروم التى كانت تحاد لخلافة الإسلامية من الشمال فكان يعاصر المنصور فيها قسطنطين الخامس، كما قدمنا وكانت العلاقة بين الأمتين منقطعة لا تترك إحداهما قتال الأخرى متى عنت الفرصة وكان من النظام المتبع فى الخلافة إرسال الجيوش تغزو الروم فى الصيف وتسمى بالصوائف ولم يكن ذلك يتقطع إلا للمانع.

أول ما حصل فى عهد المنصور أن الروم بقيادة ملكهم أغاروا (سنة ١٣٨) على ملطية وكانت إذ ذاك من الشغور الإسلامية فدخلوها عنوة وقهروا أهلها وهدموا سورها ولكن الملك عفا عمن فيها من المقاتلة والذرية.

ولما علم بذلك المنصور أغزى الصائفة عمه صالح بن على ومعه أخوه العباس بن محمد بن على فبنى ما كان صاحب الروم هدمه من ملطية وقد أقام فى استتمام ذلك إلى (سنة ١٣٩). ثم غزوا الصائفة من درب الحدث فوغلا فى أرض الروم وغزا مع صالح أخته أم عيسى ولبابة ابتتا على وكانتا نذرنا إن زال ملك بنى أمية أن تجاهدا فى سبيل الله - وغزا من درب ملطية جعفر بن حنظلة البهرانى.

وفى هذه السنة استقر الأمر بين المنصور وملك الروم على المفادة، فاستنقذ المنصور من الروم أسراء المسلمين.

وفى (سنة ١٤٠) غزا الصائفة الحسن بن قحطبة مع عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام وأقبل قسطنطين صاحب الروم فى جيش كثيف فتزل جيحان فبلغه كثرة المسلمين فأحجم عنهم ثم لم تكن صائفة بعد ذلك إلى (سنة ١٤٦) لاشتغال أبى جعفر بأمر محمد وإبراهيم بنى عبد الله.

ولم تزل الصوائف بعد ذلك تتوالى إلى (سنة ١٥٥) وفيها طلب صاحب الروم الصلح على أن يؤدى للمسلمين الجزية.

وكانت هذه الحروب بين الطرفين إغارات لم يقصد بها فتح بل كل واحد من الطرفين ينتهز الفرصة فيجتاز الحدود التي لصاحبه ثم يعود إلى مقره ثانية ولم تكن المصالحات يطول زمنها بل سرعان ما يعودون إلى ما كانوا عليه .

أما حدود المملكة من الجهات الأخرى فكانت في الغالب محلاً للاضطرابات ولكنها كانت تسكن حالاً بما يبذله المنصور من الهمّة في إرسال الجنود إليها ليقظته ومعرفته بالأمر على وجهها، وكان في كل ثغر جنود مرابطون من المرتزقة وهم المفروض لهم عطاء في الديوان ومن المتطوعة وهم الذين يتدبون للجهاد في سبيل الله لا يطلبون على ذلك أجراً إلا من الله، وكان الخليفة هو الذي يعين قائدهم وكان عددهم في ذلك الوقت كثيراً.

صفات المنصور وأخلاقه:

كان المنصور أعظم رجل قام من آل العباس شدة وبأساً ويقظة وثباتاً ونحن نسوق هنا جملة من أخلاقه لترسم صورة هذا الرجل العظيم في الأذهان.

كيف كان يقضى وقته:

كان شغله في صدر النهار بالأمر والنهي والولايات والعزل وشحن الشغور والأطراف وأمن السبل والنظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية لطرح عالتهم والتلطف لسكونهم وهدوئهم فإذا صلى العصر جلس لاهل بيته إلا من أحب أن يسامره. فإذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الشغور والأطراف والآفاق وشاور سماره من ذلك فيما أرب، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سماره، فإذا مضى الثلث الثاني قام من فراشه فأسبغ وضوءه وصف محرابه حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلي بالناس ثم يدخل فيجلس في إيوانه.

كيف كان خلقه في بيته وخارجة:

قال سلامة الأبرش: كان المنصور من أحسن الناس خلقاً ما لم يخرج إلى الناس وأشد احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان فإذا لبس ثيابه تغير لونه وتريد وجهه واحمرت عيناه فيخرج فيكون منه ما يكون فإذا قام من مجلسه رجع بمثل ذلك فنستقبله في عمشاه فرمى عاتبنا. وقال له يوماً: يا بني إذا رأيتني قد لبست ثيابي أو رجعت من مجلسي فلا تدنوني مني أحداً منكم مخافة أن أعره بشيء.

الجد فى بلاطه:

قال يحيى بن سليم كاتب الفضل بن الربيع: لم ير المنصور فى لهو قط ولا شىء يشبه اللهو واللعب والعبث إلا يوماً واحداً فإننا رأينا ابناً له يقال له عبد العزيز قد خرج على الناس متنكباً قوساً متعمماً بعمامة مرتدياً ببرد فى هيئة غلام أعرابى راكباً على قعود بين جوالقين فيهما مقل ومساويك ونعال وما يهديه الأعرابى فعجب الناس من ذلك، وأنكروه فمضى الغلام حتى عبر الجسر وأتى المهدي بالرصافة فأهدى إليه ذلك، فقبل المهدي الجوالقين وملاهما دراهم فانصرف بين الجوالقين فعلم أنه ضرب من عبث الملوك. وذكر عن حماد التركى قال: كنت واقفاً على رأس المنصور فسمع جلبة فى الدار فقال: ما هذا يا حماد؟ انظر فذهبت فإذا خادم له قد جلس بين الجوارى وهو يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن فجئت فأخبرته فقال: وأى شىء الطنبور فوصفه له فقال له: أصبت صفته فما يدريك أنت ما الطنبور فقال: رأيته بخراسان ثم قام حتى أشرف عليهم، فلما بصروا به تفرقوا فأخذ الخادم الضارب وكسر الطنبور على رأسه وأخرج من قصره.

كيف كان يهتم بعماله:

قال المنصور: ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم، قيل له: يا أمير المؤمنين من هم؟ قال: أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم إن نقصت واحدة تداعى وهى: أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم - والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى - والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فإنى عن ظلمها غنى - والرابع - ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة: آه. قيل له: ومن هو يا أمير المؤمنين قال: صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة.

وولى رجلاً من العرب حضرموت فكتب إليه والى البريد أنه يكسر الخروج فى طلب الصيد بيزة وكلاب قد أعدهما فعزله وكتب إليه: (تكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ما هذه العدة التى أعدتها للنكاية فى الوحش، إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش سلم ما كنت تبلى من عملنا إلى فلان ابن فلان والحق بأهلك ملوماً مدحوراً).

وظفر مرة برجل من كبراء بنى أمية فقال: إنى سائلك عن أشياء فاصدقنى ولك الأمان. قال: نعم. فقال المنصور: من أين أتى بنو أمية حتى انتشر أمرهم؟ قال: من تضييع الأخبار. قال: فأى الأموال وجدوا أنفع؟ قال: الجواهر. قال: فعند من وجدوا الوفاء. قال: عند مواليتهم - فأراد المنصور أن يستعين فى الأخبار بأهل بيته ثم قال أضع من أقدارهم فاستعان بمواليه.

وذكر إبراهيم بن موسى بن عيسى أن ولاية البريد في الآفاق كلها كانوا يكتبون إلى المنصور أيام خلافته كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل مأكول، وبكل ما يقضى به القاضى فى نواحيهم وبما يعمل به الوالى وبما يرد بيت المال وكل حدث، وكانوا يكتبون حوادث النهار إذا صلوا المغرب ويكتبون إليه بما كان فى كل ليلة إذا صلوا الغداة فإذا وردت كتبهم نظر فيها فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك وإن تغير شيء عن حاله كتب إلى الوالى والعامل هناك وسأل عن العلة التى نقلت ذلك عن سعره فإذا ورد الجواب بالعلة تلتف لذللك برفقه حتى يعود سعره ذلك إلى حاله. وإن شك فى شيء مما قضى به القاضى كتب إليه فى ذلك وسأل من حضرته عن عمله فإن أنكر شيئاً عمل به كتب إليه يوبخه ويلومه.

شباته عند الشدائد،

من الخلال التى ذلت للمنصور طريق النجاح أنه لم يكن من أولئك الرجال الذين يملأ لهم صدورهم قبل موقعه ويضيقون به ذرعاً إذا وقع بل كان رابط الجأش يقابل الكوارث بعزم صادق لا يبالي فيعد له ما يلزم من العدة: لما تابعت الأحداث على أبى جعفر فى عهد محمد وإبراهيم ابنى عبد الله تمثل:

تفرقت الظباء على خدائش فما يدرى خدائش ما يصيد

ثم أمر بإحضار القواد والموالى والصحابه وأهل بيته وأمر حماداً التركى بإسراح الخيل وسليمان بن مجالد بالتقدم والمسيب بن زهير بأخذ الأبواب ثم خرج فى يوم من أيامه حتى علا المنبر فأزم عليه طويلاً لا ينطق ثم قال:

مالى أكفكف عن سعد ويشتمنى ولو شتمت بنى سعد لقد سكتوا

جهلاً على وجبنا عن عدوهم لبئست الحلتان الجهل والجن

ثم جلس وقال:

فألقيت عن رأسى القناع ولم أكن لأكشفه إلا لإحدى العظام

والله لقد عجزوا عن أمن قمنا به فما شكروا الكافى ولقد مهدوا فاستوعروا وغمطوا الحق وغمصوا فماذا حاولوا أشرب رتقاً على غصص أم أقيم على ضيم ومضض، والله لا أكرم أحداً بإهانة نفسى والله لئن لم يقبلوا الحق ليطلبنه ثم لا يجدونه عندى والسعيد من وعظ بغيره. قدم يا غلام ثم ركب.

لما قصد الكوفة حين علم بمخرج محمد كان معه عثمان بن عمارة وإسحاق بن مسلم العقيلي وعبد الله بن الربيع المداني فقال عثمان: أظن محمدا خائبا ومن معه من أهل بيته إن حشو ثياب هذا العباسي لمكر ودهاء. إنه فيما نصب له محمد من الحروب لكما قال ابن جندل الطعان:

كم من غارة ورعيل خيل تداركها وقد حمى اللقواء
فرد مخيّلها حتى ثناها بأسمر ما يرى فيه التواء

فقال له إسحاق بن مسلم: قد والله سبرته ولمست عوده فوجدته خشناً، وغمرته فوجدته صلياً، وذقته فوجدته مرا، وإن من حوله من بنى أبيه لكما قال ربيعة بن مكرم:

سمالى فرسان كان وجوههم مصابيح تبدوا فى الظلام زواهر
يقودهم كبش أخو مصمثلة عبوس السرى قد لوحته الهواجر

وقال عبد الله بن الربيع: هو والله خيس ضيغم شמוש، للأقران مفترس وللأرواح مختلس وإنه فيما يهيج من الحروب كما قال أبو سفيان بن الحرث:

وإن لنا شيخنا إذا الحرب شمرت بديهته الإقدام قبل النوافل

ويكفيه فخراً أنه قام فى وجه معانديه ومخالفيه وهم كثيرون فى جهات شتى فقهرهم جميعاً ووطد دعائم الملك بعد أن كاد يذهب من آل العباس قبل أن يستقر إلا أنه يؤخذ عليه ويحط من شأنه غدراته الثلاث التى عرفت عنه فقد غدر بابن هبيرة بعد أن أعطاه الأمان ولم يبد من الرجل شىء يرتب وغدر بعمه عبد الله بن على بعد أن أعطاه الأمان وغدر بأبى مسلم وربما تكون له شبهة فى القضاء على عمه وعلى أبى مسلم، ولكن الذى لا يليق بخليفة المسلمين وإمامهم أن يستعمل الأيمان والعهود وسيلة لاستئزال أعدائه ثم يغدر بهم.

ومن غريب أمره أنه كان تزوج أروى بنت منصور الحميرى وهى أم ولديه محمد وجعفر الأكبر وكان شرط لها أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى وكتب عليه بذلك كتابا أكدته وأشهدت عليه شهودا فعزب بها عشر سنين فى سلطنة فكان يكتب إلى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز يستفتيه ويحمل إليه الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق فيعرض عليه الكتاب ليفتيه فيه برخصة فكانت أروى إذا علمت بمكانه بادرت فأرسلت إليه بمال جزيل فإذا عرض عليه أبو جعفر الكتاب لم يفته فيه برخصة حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد. فانظروا كيف كان يحاول الخلاص من عقد عقده على نفسه ويريد أن يلقي تبعته على غيره من الفقهاء ويعرضهم لمخالفة الضمائر والذمم، وإن كان هذا الحديث فى الجملة يدلنا على

أن الغدر لم يصّر طبعاً للمنصور وإنما كانت حوادث مرت وحمله عليها السبب الذى لم يمكنه تلافيه .

اقتصاده:

عرف المنصور بميله إلى الاقتصاد فى النفقات حتى امتلأت بالأموال خزائنه ولذلك ترك لابنه المهدي ثروة جعلته مدة حكمه هادئ البال ينفق عن سعة ولا يخشى نفاداً . ولم يكن المنصور يعطى الشعراء تلك العطايا البالغة حد السرف، وإنما كانت أعطياته إلى القلة أميل وكان يراقب أولاده حتى لا يدعهم يميلون إلى السرف .

وكانت أرزاق العمال أيام المنصور (٣٠٠ درهم) ولم يزل الأمر على ذلك إلى أيام المأمون فكان أول من سن زيادة الأرزاق: الفضل بن سهل .

وعلى الحملة فلم يقيم فى بنى العباس مثل المنصور فى ثباته وعلو همته وشدته على المريب واهتمامه بأمر العامة وجده فى بلاطه - وكان فوق ذلك كله فصيحاً يبلغ ما يريد من الكلام عند الحاجة .

وكانت القوة الإسلامية فى يده وطوع أمره إلا أنها لم تكن عربية خالصة كما كان الحال فى الدولة الأموية وكانت قوة العرب لعهد لا تزال راجحة .

وفاة المنصور:

فى (سنة ١٥٨) حج المنصور . شخص من مدينة السلام متوجهاً إلى مكة فى شوال فلما صار من منازل الكوفة عرض له وجعه الذى توفى به ولم يزل يزداد حتى وصل بستان ابن عامر فاشتد به وجعه، ثم صار إلى بئر ميمون وهو يسأل عن دخول الحرم ويوصى الربيع بما يريد . وتوفى فى سحر ليلة السبت (٦ ذى الحجة سنة ١٥٨) ولم يحضره عند وفاته إلا الربيع الحاجب فكنم موته ومنع النساء وغيرهن من البكاء عليه ثم أصبح فحضر أهل بيت الخلافة وجلسوا مجالسهم فأخذ الربيع بيعتهم لأمر المؤمنين المهدي ولعيسى بن موسى من بعده ثم دعا بالقواد فبايعوا وتوجه العباس بن محمد بن على ومحمد بن سليمان بن على إلى مكة ليبايعا الناس فبايعوا للمهدي بين الركن والمقام .

ثم أخذ فى جهاز المنصور وغسله وكفنه ففرغ من ذلك مع صلاة العصر وجعل رأسه مكشوفاً من أجل أنه مات محرماً، وصلى عليه عيسى بن موسى ودفن بشيئة المعلاة بعد خلافة مدتها (٢٢ سنة) إلا ستة أيام رحمه الله .

وكان له من الولد ثمان ذكور وبنت . فالذكور محمد المهدي وجعفر الأكبر وأمهما أروى بنت منصور الحميرية ، وسليمان وعيسى ويعقوب وأمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله - وجعفر الأصغر وأمهم أم ولد كردية . وصالح المسكين وأمهم أم ولد رومية . والقاسم وأمهم أم ولد وقد مات منهم جعفر الأكبر والقاسم قبل وفاة المنصور والبنت اسمها العالية وأمها امرأة من بني أمية وقد تزوج العالية إسحق بن سليمان بن عليّ .

٣

المهدى

هو محمد المهدى بن المنصور وأمه أروى بنت منصور الحميرية وكانت تكنى أم موسى . ولد (سنة ١٢٦) بالحميمة من أرض الشراة وكانت سنه إذ جاءتهم الخلافة ست سنوات . ولما استخلف أبوه كان فتى سنه عشر سنوات ، ولما بلغ مبلغ الرجال كان أبوه يرشحه لولاية العهد فولاه (سنة ١٤١) وسنه (١٥ سنة) قيادة الجنود المتوجهة إلى خراسان وأمره أن ينزل الرى حينما وقعت فتنة عبد الجبار بن عبد الرحمن عامل المنصور (سنة ١٤٤) فلقبه أبوه بقرماسين - وانصرفا جميعاً إلى الجزيرة لمراقبة ثغورها - وفى هذه السنة بنى المهدى بريطة بنت أبى العباس السفاح وفى (سنة ١٤٧) ولاه أبوه العهد وقدمه على عيسى بن موسى ثم عاد إلى الرى فأقام إلى (سنة ١٥١) وفيها قدم على أبيه فبنى له ولجندته الرصافة وهى الجانب الشرقى من بغداد وولاه الحج (سنة ١٥٣) وفى (سنة ١٥٥) أسس مدينة الرافقة على طراز مدينة بغداد ولم يزل يستعين به فى الأعمال حتى توفى فى التاريخ الذى تقدم ذكره (٦ من ذى الحجة ١٥٨) (٧ أكتوبر سنة ٧٧٥).

بيعة المهدى:

بعد أن أخذ الربيع بيعة المهدى على بنى هاشم والقواد الذين كانوا يرافقون المنصور فى حجه وجه رسولاً إلى مدينة السلام بخبر الوفاة وبعث معه بقضيب النبى ﷺ وبردته التى يتوارثها الخلفاء وبخاتم الخلافة فقدمت الرسل يوم الثلاثاء للنصف من ذى الحجة . وفى ذلك اليوم بايعه أهل مدينة السلام ومكث فى خلافته إلى أن توفى ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم (سنة ١٦٩ ٤ أغسطس سنة ٧٨٥) بما سبذان فتكون مدته عشر سنين وشهراً ونصفاً .

وكان يعاصره فى بلاد الأندلس عبد الرحمن الأول مجدد الدولة الأموية فى المغرب . ويعاصره فى فرنسا شارلمان . ويعاصره فى مملكة الروم الشرقية لاون الرابع (٧٧٥ - ٧٨٠) ثم قسطنطين السادس ولصغره كانت أمه إيرينى أمره .

الحال في عهد المهدي،

كانت خلافة المهدي مرفهة عن الناس ما كانوا يلقونه من بعض الشدة أيام المنصور، فقد كان المنصور، يؤسس ملكاً له خصوم فكان يكتفى بالرية والظنة فيعاقب بهما، وفي مثل ذلك كثيراً ما يؤخذ البرئ بالذنب والمطيع بالعاصي، فلما جاء المهدي كانت الخلافة العباسية قد توطدت وأنياب العلويين قد كسرت، وإن كانت قد بقيت لهم بقايا يتطلعون للخلافة فهم لا يحتاجون في الاحتراس منهم إلى مثل ما كان المنصور يحتاج إليه من الشدة فإن كبارهم قد وضعوا تحت نظر الخليفة ببغداد والذين كانوا بالمدينة اكتفى بمراقبة الأمير لهم، فكانوا يعرضون عليه كل يوم، ولذلك كانت حياة المهدي حياة سعيدة لنفسه ولأمته وهو بعد أبيه يشبه في كثير من الوجه الوليد بن عبد الملك بعد أبيه.

في أول ولايته أمر بإطلاق من كان في سجن المنصور إلا من كان قبله تباعة من دم أو قتل ومن كان معروفاً بالسعى في الأرض بالفساد أو كان لأحد قبله مظلمة أو حق فالذين أطلقهم من كان جرمهم سياسياً. أما أرباب الجنايات والمحبوسون لحقوق مدنية فإنهم ظلوا في حبسهم وكان ممن أطلق يعقوب بن داود الذي سيأتي ذكره في كبار الرجال في عهد المهدي.

ومما أجراه من الإصلاح أمره ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي كان السفاح بناها من القادسية إلى زباله وأمر بالزيادة في قصور السفاح وترك منازل المنصور التي بناها على حالها. وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل وهي حيطان تبني تملأ من مياه الآبار حتى يكون الاستقاء سهلاً على رجال القوافل الذين لا ينقطع مرورهم من تلك الجهات وأمر بتجديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع وجعل لذلك عاملاً خاصاً يقوم به وأمر أن يجرى على المجذومين وأهل السجون في جميع الآفاق حتى لا يحتاج المجذومين إلى المشي في الطرق وسؤال الناس فيكونون سبباً في انتشار المرض، وحتى يكون للمسجونين ما يقوم بأودهم فلا يموتوا جوعاً إلا من كان له أهل يسألون عنه.

وأقام البريد بين مدينة رسول الله ﷺ ومكة واليمن بغالاً وإبلأ ولم يبق هناك بريد قبل ذلك.

ومن آثاره زيادته في المسجد الحرام فأدخل فيه دوراً كثيرة مما يحيط به ومما يؤخذ عليه أنه أمر بمحو اسم الوليد بن عبد الملك من حائط المسجد النبوي وكتابة اسمه مكانه وقديماً شغل الملوك بهذه الإغارات التي تجعل ثقتنا ضعيفة بما نراه منقوشاً على الآثار فإن الخلف منهم كان إذا رأى للسلف أثراً باقياً يستحق به المدح والثناء، فسرعان ما يأمر بإزالة اسم

الباني ويضع اسمه كما حكى ذلك في الآثار المصرية وهذا غش وتدليس على المتأخرين لا يحسن بالسوق أن يفعلوه فضلاً عن الملوك ولكن هكذا كان.

وكان المهدي يجلس للمظالم وتدخل القصص إليه فارتشى بعض أصحابه بتقديم بعضها فاتخذ بيتاً له شبك حديد على الطريق تطرح فهي القصص، وكان يدخله وحده فيأخذ ما يقع بيده من القصص أولاً فاولاً فينظر فيه فلا يقدم بعضها على بعض.

وكان المهدي مغرى بالزنادقة الذين يرفع إليه أمرهم فكان دائماً يعاقبهم بالقتل، ولذلك كانت هذه التهمة في زمنه وسيلة إلى تشفى من يحب أن يتشفى من عدو أو خصم والذي أغراه بذلك ما كان من فتنة المقتنح الخراساني كان من إحدى قرى مرو، وكان يقول بتناسخ الأرواح فاستغوى بشراً كثيراً وصار إلى ما وراء النهر فوجه المهدي لقتاله عدة من القواد، فيهم معاذ بن مسلم وهو يومئذ على خراسان ثم أفرد المهدي لمحاربتة سعيداً الحبشي وضم إليه القواد، فاستعد المقتنح للحصار في قلعة كبش فحاصره سعيد بقلعته ولما اشتد عليه الحصار وأحس بالهلكة شرب سماً وأسقاه نساءه وأهله فمات وماتوا جميعاً ودخل المسلمون قلعته واحتزوا رأسه.

الوزارة،

كان مظهر الوزارة في عهد المهدي أوضح منه في عهد أبيه المنصور لما كان من ركون المهدي إلى وزرائه واعتماده عليهم أكثر مما كان يعتمد أبوه وكان أول وزرائه كبير الكفاءة فإنه جمع له حاصل مكة ورتب الديوان وقرر القواعد، وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقاً وعلماً وخبرة وهو أبو عبيد الله معاوية بن يسار مولى الأشعرين كان كاتب المهدي ونائبه قبل الخلافة ضمه المنصور إليه وكان قد عزم على أن يستوزره لكنه أثر به ابنه المهدي، فكان غالباً على أموره لا يعصى له قولاً، وكان المنصور لا يزال يوصيه به ويأمره بامتنال مشورته، فلما مات المنصور وولى المهدي فوض إليه تدبير المملكة وسلم إليه الدواوين وكان مقدماً في صناعته وله ترتيبات في الدولة منها أنه نقل الخراج إلى المقاسمة، وكان السلطان يأخذ على الغلات خراجاً مقررأ ولا يقاسم، فلما تولى أبو عبيد الله الوزارة قرر أمر المقاسمة وجعل الخراج على النخل والشجر وصنف كتاباً في الخراج ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائق وقواعده وهو أول من صنف كتاباً في الخراج وتبعه الناس بعد ذلك فصنفوا كتباً في الخراج سيأتى ذكرها.

وكان الربيع الحاجب يساعد أبا عبيد الله ويقوم بتأييده عند المنصور إذا شكاه أحد

بشكوى، فلما توفي المنصور وقام الربيع بأمر بيعة المهدى بمكة عاد إلى دار السلام فرأى أن يقابل أولاً أبا عبيد الله قبل أن يرى المهدى فحضر إليه واستأذن عليه فلم يأذن له إلا بعد صلاة العشاء ولما دخل عليه كان متكئاً فلم يقم له ولم يحفل به فقعد الربيع بين يديه على البساط وأبو عبيد الله متكئ فجعل يسأله عن مسيره وسفره وحاله ولم يسأله عما فعل فى أمر بيعة المهدى فذهب الربيع يتدبّر بذكره فقال له: قد بلغنا نبؤكم فقام الربيع متغير القلب على أبى عبيد الله وقال لابنه الفضل: والله الذى لا إله إلا هو لأخلعن جاهى ولأنفقن مالى حتى أبلغ من أبى عبيد الله. كان أبو عبيد الله من كبار الوزراء، فهو أحذق الناس بصناعة الكتابة التى كانت فى تلك الأزمنة سلباً للوزارة وكان مع ذلك من أعف الناس فلم يجد الربيع مع دهائه ونفوذ حياته مطعناً فى أبى عبيد الله، لأنه كان بعيداً عما يكرهه الخلفاء من وزرائهم.

كان لأبى عبيد الله ابنٌ متهمٌ فى دينه وقد أسلفنا ما كان المهدى يكره من الزندقة فرأى الربيع أن ذلك خير وسيلة للإفساد بين الخليفة ووزيره فما زال يحتل فى ذلك حتى اتهم المهدى ابن أبى عبيد الله فأمر بإحضاره وقال: يا محمد اقرأ فذهب ليقرا فاستعجم عليه القرآن فقال لأبى عبيد الله يا معاوية ألم تخبرنى أن ابنك جامع للقرآن فقال: بلى يا أمير المؤمنين ولكنه فارقنى منذ سنين، وفى هذه المدة نسى القرآن فقال: (قم فتقرب إلى الله بدمه) فذهب ليقوم فوق فقام العباس بن محمد يا أمير المؤمنين إن شئت أن تعفى الشيخ ففعل وأمر المهدى بابنه فضرب عنقه.

كان بعد ذلك من السهل أن يتخوف المهدى من أبى عبيد الله، لأنه قتل ابنه فاستوحش منه وبذلك بلغ الربيع ما أراد واشتفى وزاد. وتلك حال الأمراء المستبدين الذين جعلوا آذانهم صيداً لكل قول فلا يزال أهل الأهواء يلعبون بهم ويحرمونهم من خدمة الصادقين من أنهم يمثل تلك التهم التى من السهل على المفسدين توجيهها لأنهم لا ينتظرون تحقيقاً وكانت وفاة أبى عبيد الله معزولاً (سنة ١٧٠) وكان عزله (سنة ١٦١).

استوزر المهدى بعده أباه عبد الله يعقوب بن داود بن طهمان مولى بن سليم، كان أبوه قديماً كاتباً لنصر بن سيار عامل بنى أمية على خراسان خرج أولاده أهل علم وأدب وعلم بأيام الناس وسيرهم وأشعارهم ونظروا فإذا ليس لهم عند بنى العباس منزلة فلم يطمعوا فى خدمتهم لحال أبيهم من كتابة نصر فأظهروا مقالة الزيدية ودنوا من آل عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على وطمعوا أن يكون لهم دولة فيعيشوا فيها، فكان يعقوب يجول البلاد منفرداً بنفسه ومع إبراهيم بن عبد الله أحياناً فى طلب البيعة لمحمد بن عبد الله، فلما ظهر

محمد وإبراهيم كان عليّ بن داود كاتباً لإبراهيم وكان يعقوب من الخارجين مع إبراهيم، فلما قتل توارى عليّ ويعقوب وإخوتهما من المنصور فطلبهم وظفر بهم فأخذ عليّ ويعقوب وجسهما في المطبق أيام حياته، فلما مات المنصور وبويع المهدي من عليهما فيمن من عليه، وكان معهما في المطبق إسحاق بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فكانت بينهما صداقة كان المهدي يخشى الزيدية وتديرهم المكاييد للملك فكان يطلب رجلاً له معرفة بهم ليدخل بينهم وبينه فدل عليّ يقوب، فلما دخل عليه وفاتحه وجده رجلاً كاملاً فسأله عن عيسى بن زيد فوعده يعقوب أن يدخل بينه وبينه، وكان الناس في ذلك الزمن رموه بأن منزله عند المهدي بلأغا كانت للسعاية بآل عليّ وكان يعقوب يتبرأ من ذلك.

قرب المهدي يعقوب بن داود إليه وولاه وزارته بعد أبي عبد الله فأرسل للزيدية فأتى بهم من كل حذب وولاهم أمور الخلافة في المشرق والمغرب كل جليل وعمل نفيس والدنيا كلها في يديه.

ومن علو منزلته أنه أمره المهدي بتوجيه أمنائه في جميع الآفاق فكان لا ينفذ المهدي كتاباً إلى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب إلى أمينه وثقته بإنفاذ ذلك.

كان ذلك العلو داعياً لأن حسده موالى المهدي فسعوا عليه وأعانهم الشعراء فقال في ذلك بشار بن برد:

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين النأي والعود

كانت السعاية بيعقوب بسبب ميله لإسحاق بن الفضل وأنه يرضى له الأمور، وأفهموا المهدي أن إسحاق يروم الخلافة وأن يعقوب يساعده وأن المشرق والمغرب في يده وفي أيدي أصحابه وإنما يكفيه أن يكتب لهم فيثوروا جميعاً في يوم واحد على ميعاد فيأخذ الدنيا لإسحاق بن الفضل، فملأ ذلك قلب المهدي وصادف أن طلب يعقوب من المهدي عقب ذلك ولاية مصر لإسحاق بن الفضل فتغير وجه المهدي ثم دس إليه جارية من جواريه وهبها له تسمع ما يدير منه ثم سلم إليه علوياً أمره بقتله فمن عليه يعقوب وأخرجه خفية وأخبر المهدي أنه قتله، وكانت الجارية قد أرسلت بخبر العلوي إليه فأرسل من جاءه به من الطريق، ولما رآه يعقوب سقط في يده وأمر المهدي بإعادته إلى المطبق فحبس ولم يزل محبوساً حتى أخرجه الرشيد من سجنه. وأمر المهدي بعزل أصحاب يعقوب عن الولايات في المشرق والمغرب وأمر أن يؤخذ أهل بيته ويحبسوا ففعل ذلك بهم وكان ذلك (سنة ١٦٦) فكانت وزارته خمس سنوات.

وفى هذه الوزارة أحدث ديوان كانوا يسمونه ديوان الأزمة وأول من عمل ديوان الزمام عمر بن بزيع وذلك أنه لما جمعت له الدواوين فكر فإذا هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان فاتخذ دواوين الأزمة وولى كل ديوان رجلاً فكان واليه على زمام ديوان الخراج إسماعيل بن صبيح ولم يكن لبنى أمية ديوان أزمة وفى (سنة ١٦٨) ولى المهدي على بن يقطين ديوان زمام الأمة على عمر بن بزيع.

استوزر المهدي بعده الفيض بن أبى صالح وهو من أهل نيسابور وكان أهل بيته نصارى، فانتقلوا إلى بنى العباس وأسلموا وتربى الفيض فى الدولة العباسية وتادب وبرع وكان سخياً مفضلاً متخرفاً فى ماله جواداً عزيز النفس كبير الهمة كثير البر والديه واستمر الفيض وزيراً للمهدي حتى مات ولم يستوزره أحد من الخلفاء بعده ومات فى أول أيام الرشيد (سنة ١٧٣)

الأحوال الخارجية:

كان منظر الخلافة فى داخل المملكة باهراً، وكان كذلك مظهرها فى نظر الأمم الأخرى إلا أنه مما يؤسف سوء العلاقة بين الخلافة المشرقية ببغداد وبين أمير الأندلس عبد الرحمن الداخل فقد كان المنصور والمهدي يهتمان بأمره ويودان إزالة دولته، ولكن الشقة بين الرجلين بعيدة، فلم يمكن واحد منهما أن يجرد له جيشاً يخترق صحارى أفريقية ويغزوه فى بلاد الأندلس فاكتمى كل من الفريقين بمعادة الآخر وكان شارلمان فى ذلك الوقت مهتماً بإعادة الدولة الرومانية الغربية التى أمحت آثارها وقد فطن إلى ما بين الطرفين المسلمين من العداوة فأحب الاستفادة منها والتقرب بمحاربة أمير الأندلس إلى قلب خليفة بغداد ليكتسب بذلك نفوذاً فى الخلافة الإسلامية ويرتفع قدره على ملك الروم فى القسطنطينية وجد فى ذلك حتى تمكن من إتمام هذه المواصلات فى عهد الرشيد كما سيأتى.

أما العلاقات بين المهدي وبين ملك الروم فكانت سيئة فلم تكن الإغارات من الطرفين تبطل بل كانت الصوائف من طرف المسلمين كما كانت الإغارات من ملك الروم وكانت الحرب برأ وبحراً.

وفى (سنة ١٦٣) احتفل المهدي بأمر الصائفة وولى أمرها ابنه هارون وفرض البعوث على جميع الأجناس من أهل خراسان وغيرها وخرج هارون مع الجيش حتى أتى البردان فأقام به نحواً من شهرين يتعباً ويتهاً ويعطى الجنود وأخرج صلاة لأهل بيته الذين شخصوا معه وكانت هذه الغزوة من أهم الغزوات فى عهد المهدي فتح الله عليهم فيها فتحاً كثيراً

وأبلاهم فى ذلك الوجه بلاء جميلاً ففتحوا حصن سمالا بعد أن قاموا عليه ثمانية وثلاثين ليلة وقد نصب عليها المنجنيق حتى فتحت وكان فتحها على ثلاثة شروط ألا يقتل أهلها ولا يرحلوا ولا يفرق بينهم فأعطوا ذلك فترلوا ووفى لهم هارون. ثم قفل بالمسلمين سالمين إلا من كان أصيب منهم بسمالا.

وفى (سنة ١٦٥) غزا الصائفة هارون مرة أخرى فوغل فى بلاد الروم وكان عدد جيشه (٩٥٧٩٣ رجلاً) حمل لهم من العين (١٩٤٤٥٠ ديناراً) ومن الورق (١٤١٤٨٠٠ درهم)، ولم يزل الجيش سائراً حتى بلغ خليج البحر الذى على القسطنطينية، وكان الذى يقوم بأمر الروم «إيرينى» أم الملك نيابة عن ابنتها فجرت بينها وبين هارون مكاتبات فى طلب الصلح والمواعدة وإعطاء الفدية فقبل منها ذلك هارون واشترط عليها أن تقيم الأدلاء والأسواق فى طريقه، لأنه قد دخل مدخلاً صعباً مخوفاً على المسلمين فأجابته إلى ما سأل. والذى وقع عليه الصلح بينه وبينها (٩٠٠٠٠) دينار تؤديها فى نيسان من كل سنة وفى حزيران فقبل ذلك وأقامت له الأسواق فى منصرفه ووجهت معه رسولا إلى المهدي بما بدلت على أن تؤدى ما تيسر من الذهب والفضة والعروض وكتبوا كتاب هدنة إلى ثلاث سنوات وسلمت الأسارى. وقال مروان بن أبى حفصة فى هذه الغزوة لهارون.

أطفت بقسطنطينية الروم مسنداً إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها

وما رمتها حتى أتك ملوكها بجزيتها والحرب تغلى قدورها

وكان قفول هارون من وجهه هذا محرم (سنة ١٦٦)، وقدمت الروم بالجزية معه وتبلغ (٦٤٠٠٠ دينار) رومية و(٢٥٠٠ دينار) عربية و(٣٠٠٠٠ رطل) مرعى.

وفى رمضان (سنة ١٦٨) أى قبل انقضاء مدة الهدنة نقض الروم الصلح وغدروا فوجه إليهم على بن سليمان بن على وهو والى الجزيرة وقنشرين يزيد بن بدر البطال فى سرية فردوا الروم وغنموا وظفروا. والنتيجة أن مدة الهدنة كان أكثرها حرباً مع المسلمين والروم، وكان الفريقان فى موقف الدفاع أحياناً والهجوم أحياناً إلا أن الظفر كان فى الغالب للمسلمين.

غزو الهند،

كان المسلمون يملكون إلى نهر مهران الفاصل بين السند والهند، فأراد المهدي أن يغزى جنوده بلاد الهند ففى (سنة ١٥٩) وجه عبد الملك بن شهاب المسمى فى البحر إلى بلاد

الهند وفرض معه لألفين من أهل البصرة من جميع الأجناد وأشخص معه من المطوعة الذين كانوا يلزمون المراتبات (١٥٠٠) ووجه معه قائداً من أبناء الشام في (٧٠٠) من أهل الشام وخرج معه من مطوعة أهل البصرة (١٠٠٠) رجل ومن الأسواريين والسباحة (٤٠٠٠) فكان تمام عدتهم (٩٢٠٠) رجل مضوا حتى أتوا مدينة ياربند من بلاد الهند (سنة ١٦٠) فناهضوها بعد قدومهم بيوم وأقاموا عليها يومين، فنصبوا المنجنيق وباهضوها بجميع الآلة وتحاشد الناس وحصن بعضهم بعضاً حتى فتحوها عنوة ودخلت خيلهم من كل ناحية حتى ألبأوهم إلى بلدهم فأشعلوا فيها النيران والنقط وغلّبوا أهلها على أمرهم بعد أن قتل من المسلمين بضعة وعشرون رجلاً ثم أقاموا بالمدينة حتى يطيب لهم الريح فأصابتهم أمراض مات بسببها نحو ألف منهم ثم انصرفوا حين أمكنهم الانصراف حتى بلغوا ساحلاً من فارس يقال له بحر حرمان فعصفت عليهم فيه الريح فكسرت عامة مراكبهم فغرق منهم بعض ونجا بعض ويظهر أن هذه الغزوة ليست إلا إغارة لا عملاً يقصد به توسيع المملكة.

صفات المهدي:

كان المهدي لا يشرب النبيذ وإن كان سماره يشربونه في مجلسه وكان يسمع الغناء وكان من خلقه الحياء والعفو فكان إذا وقع أحد من خصومه في يده عفا عنه وكان يتأثر بالقرآن. كان في حبسه موسى بن جعفر العلوي، فقرأ مرة في صلاته: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (محمد: ٢٢) فأتت صلاته والتفت إلى الربيع وأمره بإحضار موسى، فلما جئ به قال له: يا موسى إني قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قطعت رحمتك فوثق لي أنك لا تخرج عليّ فقال: نعم فوثق له فخلاه.

وكان خليفة عادلاً يجلس للمظالم بنفسه وبين يديه القضاة فيزيل عن الناس مظالمهم ولو كانت قبله وكان إذا جلس للمظالم قال: أدخلوا على القضاة فلو لم يكن ردي للمظالم إلا للحياء منهم لكفى. قال المسور بن مساور: ظلمني وكيل المهدي وغصبني ضيعة لي فأتيت سلاًماً صاحب المظالم وأعطيته رقعة مكتوبة فأوصلها للمهدي وعنده عمه العباس بن محمد وابن علانة وعافية القاضي فأمر المهدي بإدخاله وسأله عن مظلمته فأخبره بها فقال له: ترضى بأحد هذين؟ فقال: نعم، فقال: تكلم فقال مساور أصلح الله القاضي إن هذا ظلمني في ضيعتي وأشار إلى المهدي، فقال القاضي: ما تقول يا أمير المؤمنين قال: ضيعتي في يدي فقال مساور: أصلح الله القاضي، سله متى صارت إليه الضيعة قبل الخلافة أو بعدها قال المهدي: بعد الخلافة، قال القاضي: أطلقها له، قال: قد فعلت. والعدل والحلم والعفو في الخلفاء من الصفات التي تدل على علو أقدارهم وعظيم سلطانهم وهكذا كان

المهدى مع ما امتاز به من الجود وفصاحة اللسان، وكان أبوه قد علمه تعليماً عربياً محضاً في صغره، وقد ألف له المفضل الضبي أمثال العرب وجمع له مختارات شعرهم، وكان يقول: ما تقرب إلى أحد بوسيلة ولا تذرع بذريعة هي أقرب من تذكيره إياي يداً سلفت منى إليه أتبعها أختها فأحسن ربها، لأن منع الأواخر يقطع شكر الأوائل.

وكان المهدي ميالاً إلى السنة يحب ألا يخالف سنة رسول الله ﷺ، فمن ذلك أنه أمر بتزع المقاصير من مساجد الجماعات وتصير منابرها إلى المقدار الذي عليه منبر رسول الله ﷺ وكتب بذلك إلى الآفاق فعمل به. وزار مرة مولاه أبا عون وهو مريض فقال له: أوصني بحاجتك فشكره أبو عون وقال: يا أمير المؤمنين حاجتي أن ترضى عن عبد الله بن أبي عون وتدعو به، فقد طالت موجدتك عليه، فقال: يا أبا عون إنه على غير الطريق وعلى خلاف رأينا ورأيك إنه يقع في الشيخين أبي بكر وعمر ويسىء القول فيهما فقال أبو عون: هو والله يا أمير المؤمنين على الأمر الذي خرجنا عليه ودعونا إليه، فإن كان قد بدا لكم فمرونا بما أحببتم حتى نطيعكم. ويظهر أن هذه الفكرة كانت موجودة حقيقة في مبدأ الدعوة العباسية ولكنهم رفضوها بعد أن كان ما كان من أمر الطالبين وثوراتهم المتتالية، فرأى العباسيون أن يقتصروا بعلی رضى الله عنه على الدرجة التي كان عليها من التأخر في الرتبة عن أسلافه من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين.

ولاية العهد،

قدمنا أن المهدي نزع من ولاية العهد عيسى بن موسى بن علی وجعل محله ابنه موسى الهادي ثم جعل بعده ابنه هارون الرشيد.

وفاة المهدي،

في (سنة ١٦٩) أراد المهدي الخروج إلى جرجان، فلما وصل إلى ماسبذان أدركته هناك منيته ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم في قرية يقال لها الروذ وصلى عليه ابنه هارون، لأنه كان في صحبته.

٤

الهادي

هو موسى الهادي بن محمد المهدي بن جعفر المنصور، وأمه أم ولد اسمها الخيزران كتبت ملكاً للمهدي. وفي (سنة ١٥٩) اعتقها وتزوجها أي بعد أن ولدت له الهادي ونرشيد. ولد الهادي (سنة ١٤٤) وولاه أبوه العهد وسنه (١٦ سنة) وكان يوليه قيادة الجنود في المشرق فقاده في نواحي بجرجان لمحاربة الخراجين والمخالفين. وفي اليوم الذي توفي فيه أبوه كان مقيماً بجرجان وكان مع المهدي ابنه هارون، فأخذ له البيعة على الجند وأرسل إليه بخاتم الخلافة وبالقضييب والبردة والتعزية والتهنئة وكان ذلك في (٢٢ محرم سنة ١٦٩) (٤ أغسطس سنة ٧٨٥) ولم يزل خليفة حتى توفي في (١٣ ربيع سنة ١٧٠) (١٣ سبتمبر سنة ٧٨٦) فكانت مدته سنة وشهراً و (٢٢ يوماً) وسنه حين مات (٢٦ سنة).
وكان يعاصره في الممالك الثلاث من كانوا يعاصرون أباه.

الحال في عهده:

كان الهادي على سنن أبيه في كراهة الزنادقة، فالتفت إليهم ونكل بهم تنكيلاً والزندقة على ما يظن عندهم عنواناً على ترك الدين والمجازفة في التعبير عن الدين. روى الطبري أن من قتل الهادي يزدان بن باذان الكاتب. ذكر عنه أنه حج فنظر إلى الناس في الطواف يهرولون فقال: ما أشبههم إلا ببقرة تدوس في البيدر وله يقول العلاء بن الحداد الأعمى:

أيا أمين الله في خلقه	ووارث الكعبة والمنبر
ماذا ترى في رجل كافر	يشبه الكعبة بالبيدر
ويجعل الناس إذا سمعوا	حمرا تدوس البر والدوسر

روى الطبري بسنده أن المهدي قال يوماً لموسى وقد قدم إليه زنديق فاستتابه فأبى أن يتوب فضرب عنقه وأمر بصلبه: يا بني إن صار لك هذا الأمر فتجود لهذه العصابة (يعني أصحاب ماني) فإنها تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتتاب الفواحش والزهد في الدنيا

والعمل للأخرة ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تخرجاً وتحوباً ثم تخرجها من هذه عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاعتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق تنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية نور فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له فإنني رأيت جدك العباس في المنام قلدني بسيفين وأمرني بقتل أصحاب الاثنين.

ومن غريب ما يروى أنه أتى للمهدي برجلين من بنى هاشم، أحدهما ابن لداود بن علي والثاني يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وقد اتهما بالزندقة وأقرا عنده بالزندقة، فأما يعقوب بن الفضل فقال له: أقر بها بيني وبينك، فأما أن أظهر ذلك عند الناس فلا أفعل ولو قرضتني بالمقاريض فقال له: ويلك لو كشف لك السموات وكان الأمر كما تقول كنت حقيقاً أن تعصب لمحمد: ولولا محمد ﷺ من كنت هل كنت إلا إنساناً من الناس.

أما والله لولا أنني كنت لله عليّ عهداً إذا ولاني هذا الأمر ألا أقتل هاشمياً لما ناظرتك ولقتلتك ثم التفت إلى موسى الهادي فقال: يا موسى أقسمت عليك بحقي إن وليت هذا الأمر بعدى ألا تناظرهما ساعة واحدة، فمات ابن داود بن عليّ في الحبس قبل وفاة المهدي، وأما يعقوب فبقي حتى مات المهدي وقدم موسى من جرجان فساعة أن دخل ذكر وصية المهدي إلى يعقوب من ألقى عليه فراشاً وأقعدت عليه الرجال حتى مات.

ثورة الحسين بن علي:

وفي عهد الهادي خرج بالمدينة الحسين بن عليّ بن الحسن المثلث (سنة ١٦٩)، وكان والي المدينة لوقته عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وسبب خروجه أن عمر بن عبد العزيز أحد الحسن بن محمد النفس الزكية وجماعة كانوا على شراب لهم فأمر بهم فضربوا جميعاً ثم أمر بهم فجعل في أعناقهم جبال وطيف بهم في المدينة، فصار إليه الحسين بن عليّ فكلّمه فيهم وقال له: ليس هذا عليهم وقد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لأن أهل العراق لا يرون به بأساً فلم تطوف بهم فبعث إليهم وقد بلغوا البلاط فردهم وأمر بهم إلى الحبس فحبسوا يوماً وليلة ثم كلم فيهم فأطلقهم جميعاً وكانوا يعرضون كما قدمنا (يراقبون) ففقد الحسن بن محمد وكان الحسين بن عليّ ويحيى بن عبد الله بن الحسن كفلاء، لأن العمرى كان كفّل بعضهم من بعض فغاب عن العرض ثلاثة أيام فأخذ الكفيلين وسألهم عنه، فحلفا أنهما لا يدریان موضوعه فكلّمهما بكلام أغلظ لهما فيه، فحلف يحيى بن عبد الله ألا ينام حتى يأتيه به أو يضرب عليه باب داره حتى يعلم أنه قد جاءه، فلما خرجا قال الحسين: سبحان الله ما دعاك إلى هذا وأين تجد حسناً حلفت له

شيء لا تقدر عليه قال: والله لا نمت حتى أضرب عليه باب داره بالسيف، فقال حسين: تكسر بهذا ما كان بيننا وبين أصحابنا من الصلة قال: قد كان الذي كان فلا بد منه وكانوا قد تواعدوا على أن يخرجوا بمنى أو بمكة أيام الموسم، وكان بالمدينة جماعة من أهل الكوفة من شيعتهم ومن كان بايع الحسين بن عليّ، ففي آخر الليل خرجوا وجاء يحيى بن عبد الله حتى ضرب باب دار مروان على العمري، فلم يجده فيها وتوارى منهم فجاؤوا حتى اقتحموا نسجد. ولما أذن الصبح جلس الحسين على المنبر وعليه عمامة بيضاء وجعل الناس يأتون نسجد فإذا رأوهم رجعوا ولا يصلون، فلما صلى الغداة جعل الناس يأتونه ويبايعونه على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ للمرتضى من آل محمد وقاومهم جماعة من نصراء الدولة فلم يغلحوا ولما تم للحسين بن عليّ ما أراد انتهت جماعته ما في بيت المال.

أقام الحسين بالمدينة بعد إعلان الخروج أحد عشر يوماً، ثم فارقها لست بقين من ذي قعدة قاصداً مكة.

انتهى خبر الحسين إلى الهادي، وقد كان حج في تلك السنة رجال من أهل بيته منهم محمد بن سليمان بن عليّ والعباس بن محمد وموسى بن عيسى سوى من حج من لأحداث، وكان على الموسم سليمان بن أبي جعفر المنصور، فأمر الهادي بالكتاب بتولية محمد بن سليمان على الحرب، فلقبهم الكتاب وقد انصرفوا عن الحج. وكان محمد بن سليمان قد خرج في عدة من السلاح فشمر للحرب وسار نحو الحسين بن عليّ فلقبه بفخ وكانت عاقبة الواقعة أن قتل الحسين بن عليّ الثائر وجماعة ممن معه وأفلت من الواقعة جلان لهما تاريخ جليل وهما إدريس بن عبد الله بن الحسن بن عليّ أخو محمد النفس الزكية وهو مؤسس دولة الأدراسية بالمغرب الأقصى والثاني أخوه يحيى بن عبد الله الذي ذهب إلى بلاد الديلم وسيأتي خبرهما في دولة الرشيد.

وما يحسن ذكره ما رواه الطبري قال: دخل عيسى بن داب على موسى بن عيسى عند منصرفه من فخ فوجده خائفاً يلتمس عذراً من قتل فقال: أصلح الله الأمير أنشدك شعراً كتب به يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة يعتذر فيه من قتل الحسين بن عليّ رضي عنه قال: نشدني فأنشده:

يا أيها الراكب الغادي لطيته	على عذافرة في سيرها قح
أبلغ قريشا على شحط المزار بها	بينى وبين حسين الله والرحم
وموقف بفناء البيت أنشده	عهد الإله وما ترعى به الدم
عتقتم قومكم فخرا بأمكم	أم حصان لعمري برة كرم
هي التي لا يداني فضلها أحد	بنت النبي وخير الناس قد علما

وفضلها لكم فضل وغيركم	من قومكم لهم من فضلها قسم
إني لأعلم أو ظناً كـعـالـه	والظن يصدق أحياناً فينتظم
أن سوف يترككم ما تطلبون بها	قتلى تهاداكم العقبان والرخم
يا قومنا لا تشبوا الحرب إذ خمدت	وأمسكوا بحبال السلم واعتصموا
لا تركبوا البغى إن البغى مصرعة	وإن شارب كأس البغى يتخم
قد جرب الحرب من قد كان قبلكم	من القرون وقد بادت بها الأمم
فأنصفوا قومكم لا تهلكوا بذخاً	فرب ذى بذخ زلت به القدم

قال: فسرى عن موسى بن عيسى بعض ما كان فيه .

صفات الهادى:

كان الهادى شديد الغيرة على حرمه وشبه في ذلك سليمان بن عبد الملك في بنى أمية، وقد نهى أمه الخيزران أن يدخل عليها أحد من القواد أو رؤساء حكومته بعد أن كان لها من نفوذ الأمر في عهد المهدي ما لم يكن لامرأة غيرها (قالوا) كانت الخيزران في أول خلافة موسى الهادى تفتتات عليه في أموره وتسلك به مسلك أبيه من قبله في الاستبداد بالأمر والنهي، فأرسل إليها ألا تخرجي من خفر الكفاية إلى بداءة التبذل فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك وعليك بصلاتك وتسيحك وتبتلك وكانت الخيزران في خلافة موسى كثيراً ما تكلمه في الحوائج فكان يجيبها إلى كل ما تسأله حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته وانهال الناس عليها وطمعوا فيها فكانت المواكب تغدو إلى بابها فكلمته يوماً في أمر لم يجد إلى إجابتها إليه سبيلاً فاعتل بعله فقالت: لا بد من إجابتي قال: لا أفعل قالت فإنني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك فغضب موسى وقال: ويلي على ابن الفاعلة قد علمت أنه صاحبها والله لا قضيتها لك قالت: إذا والله لا أسألك حاجة أبداً قال: إذا والله لا أبالي وحمى غضبه فقامت مغضبة فقال: مكانك تستوعبي كلامي والله وإلا فأنفى من قرابتي من رسول الله ﷺ لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو أحد من خاصتي أو خدمني لأضربن عنقه ولأقبضن ماله فمن شاء فليلزم ذلك ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم أما لك مغزل يشغلك

• مصحف يذكرك أو بيت يصونك إياك ثم إياك فتحك بابك على مسلم أو ذمي فانصرفت
• تعقل ما تطأ فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها.

وكان شجاعاً قويا روى عنه أنه كان يشب على الدابة وعليه درعان.

وكان يرى الناس لا يصلحون إذا حجب خليفتهم عنهم حتى أنه قال للفضل بن الربيع
لنى أقامه فى حجابته بعد أبيه لا تحجب عنى الناس فإن ذلك يزيل عنى البركة ولا تلق
لى أمرا إذا كشفته أصبته باطلا، فإن ذلك يوقع الملك ويضر بالرعية، وقال مرة لعلى بن
صالح: إئذن للناس على بالجللى لا النقرى ففتحت الأبواب فدخل الناس على بكرة أبيهم
ثم يزل ينظر فى المظالم إلى الليل.

وكان الهادى يشرب النبيذ ويسمع الغناء وهو أول من فعل ذلك من خلفاء بنى العباس
و أهل العراق يتوسعون فى أمر النبيذ فيجيزون منه ما لا يسكر.

وكان كريما يشبه أباه فى أعطيائه. ولم تطل مدته فى الخلافة حتى يكون له فى أحوال
لأمة أثر ظاهر.

ولاية العهد،

كان الرشيد ولى العهد بمقتضى عهد المهدي فخطر للهادي أن يخعله ويعهد إلى ابنه
جعفر وتابعه على ذلك القواد ودسوا إلى الشيعة فتكلموا فى أمر الرشيد وتنقصوه فى
مجد الجماعة وقالوا: لا نرضى به. وأمر الهادى ألا يسار بحربة أمام الرشيد ومر يوماً هو
وجعفر بن الهادى راكبين فبلغا قنطرة من قناطر عيساباذ فالتفت أبو عصمة الشرطى إلى
هارون فقال له: مكانك حتى يجوز ولى العهد فقال هارون: السمع والطاعة للأمير فوقف
حتى جاز جعفر. دعا ذلك إلى اجتناب الرشيد فلم يكن أحد يجترئ أن يسلم عليه ولا
يجريه وكان يحيى بن خالد يقوم بإنزال الرشيد ولا يفارقه فسعى إلى الهادى أن الذى يفسد
عنيك هارون هو يحيى وكان هارون قد طاب نفسا بالخلع فقال له يحيى: لا تفعل فدعا
لهادى بيحيى وكلمه فى ذلك فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث
لأيمان هانت عليهم أيمانهم وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان
نك أوكد لبيعتة فقال له الهادى: صدقت ونصحت ولى فى هذا تدبير. ومع ظهور اقتناع
لهادى بصحة رأى يحيى لم يتركه مشيروه بل ما زالوا يحرضونه على الرشيد حتى جد فيه
واشتد غضبه منه وضيق عليه فأشار يحيى على الرشيد أن يستأذنه فى الخروج إلى الصيد

فأذن له الهادى . فلما غاب أكثر مما استأذن جعل يكتب إليه ويصرفه فتعلل الرشيد حتى تفاقم الأمر وأظهر الهادى شتمه وبسط واليه وقواده ألسنتهم فيه .

قطع ذلك النزاع كله مرض الهادى الذى لم يمهلّه إلا ثلاثة أيام . وقد اتهم الناس أمه الخيزران بسمه لما كان منه من غل يدها عن المداخلة فى أمر الملك ونهى القواد والرؤساء عن الدخول إليها وانضم إلى ذلك ما أولع به الهادى من الإساءة إلى الرشيد وإرادة عزله أو قتله وكان الرشيد برأ بها وقد يؤكد ذلك أنه أرسلت إلى يحيى والهادى مريض تعلمه أن الرجل لمآبه وتأميره باستعداد لما ينبغى فاستعد يحيى للأمر أكمل استعداد وهياً الكتب للعمال من الرشيد بوفاة الهادى وأنه قد ولاهم الرشيد ما كانوا يولون . فلما مات الهادى نفذت الكتب على البرد وكانت وفاته بعيساباذ .

الرشيد

هو هارون الرشيد بن محمد المهدي وأمه أم الهادي ولد بالري (سنة ١٤٥) ولما شب كان أبوه يرشحه للخلافة فولاه مهام الأمور. جعله أمير الصائفة (سنة ١٦٣) و(سنة ١٦٥) وفي (سنة ١٦٦) جعله أبوه ولي عهد بعد الهادي وفي (سنة ١٦٩) وهي السنة التي توفي فيها المهدي أراد أن يقدمه على الهادي لما ظهر من شجاعته وعلو شأنه فحالت منية المهدي دون ذلك.

بويج الرشيد بالخلافة يوم أن مات أخوه الهادي في (١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠) (١٤ سبتمبر سنة ٧٨٦) وسنه (٢٥ سنة) ولم يزل خليفة إلى أن توفي في ثالث جمادى الآخرة (سنة ١٩٤) (٢٤ مارس سنة ٨٠٨) فكانت مدته (٢٣ سنة وشهرين و ١٨ يوماً) وكان سنه إذ توفي (٤٨ سنة).

وكان يعاصره في الأندلس الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨-١٧٢) ثم هشام بن عبد الرحمن (١٧٢-١٨٠) ثم الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦).

وفي المغرب الأقصى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (١٧٢-١٧٧) وهو أول المتغلين من البيت الإدريسي ثم ابنه إدريس (١٧٧-٢١٣).

ويعاصره في فرنسا شارل الكبير المعروف بشارلمان (٧٦٧-٨١٤).

ويعاصره في مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين السادس، وكانت تدبره لصغره أمه أريني (٧٨٠-٧٩٧) ثم استبدت بالملك من (سنة ٧٩٧) إلى (سنة ٨٠٢) ثم خلعت وخلعها نقفور (٨٠٢-٨١١).

الحال في عهده:

كان عهد الرشيد واسطة عقد المدة العباسية وصلت فيه الخلافة إلى أفخم درجاتها صولة

وسلطاناً وثروة وعلماً وأدباً ارتفعت فيه حضارة الدولة العلمية والأدبية والمادية إلى أرقى درجاتها مما سنفصله بعد، ووصل ترف الأمة في حاضرة الدولة وغيرها من الحواضر إلى حد يؤذن بقرب الهبوط، وكان في عهد الرشيد من كبار الرجال من تزددان بهم الممالك من رجال الإدارة والحرب، فعظمت الهيئة في الداخل والخارج وكانت أخلاق هارون مما يساعد على هذا الرقى كما سنبين ذلك كله مفصلاً، ونحن الآن ذاكرون الحوادث الكبرى التي كان لها أثر في مستقبل الأمة.

الطالبيون:

كان الطالبيون شغل بني العباس الشاغل فإنهم كانوا لا يزالون متطلعين إلى نيل الخلافة كما كانت شيعتهم تتحين الفرصة الملائمة لإقامة دولتهم وكان بنو العباس من أجل ذلك، لا يأمنون جانبهم لكن الرشيد في أول ولايته أراد أن يستميل قلوبهم بشيء من الإحسان إليهم وكان أول ما فعله معهم أن رفع الحجر عنهم ببيعتهم بغيرهم إلى المدينة ما خلا العباس بن الحسن بن عبد الله بن علي وكان أبوه الحسن فيمن أشخص. ومع هذا الذي بدا منه لم يتركه الطالبيون على سجيته فكان من أول الخارجين عليه يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وهو من الناجين من وقعة فخ التي كانت في عهد الهادي ذهب إلى بلاد الديلم، فاشتدت شوكته بها وقوى أمره ونزع إليه الناس من الأمصار والكور، فاغتم الرشيد لذلك وترك شرب النبيذ ثم ندب إلى قتاله الفضل بن يحيى بن خالد في خمسين ألفاً ومعه صناديد القواد فسار سمت يحيى فكاتبه ورفق به واستماله وحذره وأشار عليه وبسط أمله وكاتب صاحب الديلم وجعل له ألف ألف درهم على أن يسهل له خروج يحيى وحملت إليه فأجاب يحيى إلى الصلح والخروج على يديه على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد فسرعه وعظم موقعه عنده وكتب الأمان وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بني هاشم ومشايخهم ووجه به مع جوائز وكرامات وهدايا فوجه الفضل عليه بذلك إلى يحيى فقدم وورد به الفضل ببغداد فلقبه الرشيد بكل ما أحب وأمر له بمال كثير وأجرى عليه أرزاقاً سنوية وأنزله منزلاً سرياً بعد أن أقام بمنزل يحيى بن خالد أياماً وكان يتولى أمره بنفسه ولا يكل ذلك إلى غيره وأمر الناس بزيارته بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه وبلغ الرشيد الغاية من إكرام الفضل لذلك وسنين خاتمة أمره في حديث نكبة البرامكة ولم يترتب على خروج يحيى هذا انفصال شيء من جسم الخلافة الإسلامية.

إدريس بن عبد الله:

كان إدريس بن عبد الله بن الحسن ممن هرب من وقعة فخ، وهذا أخو يحيى سار إلى مصر ومنها اتجه إلى بلاد المغرب الأقصى فالتف عليه برابرة أوربة فكون هناك أول خلافة للعلويين وهي دولة الأدراسة، وكان نزوله بمدينة ويلي (سنة ١٧٢)، وكانت بيعته في تلك السنة، ولما بلغ هارون أن أمر إدريس قد استقام ببلاد المغرب وكثرت جنوده وفتح بلاد تلمسان وأنه عازم على غزو أفريقيا هم أن يرسل إليه جيشاً ولكن عدل عن ذلك لبعد الشقة واختار رجلاً ذاهية اسمه سليمان بن جرير ويعرف بالشماخ وطلب منه أن يحتال في قتل إدريس وزوده ملاً وطرفاً يستعين بها على أمره فسافر الرجل ووصل إلى إدريس مظهرًا النزوع إليه متبرئاً من الدعوة العباسية فقبله إدريس واختص به وأعجب بحديثه ولما انتهز الفرصة سمّه إما في طيب وإما في سنون وفر هارباً فمات إدريس (سنة ١٧٧) ولم يكن له ولد إلا أمة كانت حاملاً فانتظروا وضع حملها فوضعت ولداً ذكراً سمّى إدريس على اسم أبيه وبايعوه بالخلافة واستمرت دولة الأدراسة بالمغرب رغم أنف الرشيد.

وبذلك تم خروج إقليمين عظيمين عن الخلافة العباسية وهما بلاد الأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية الأموي وبلاد المغرب الأقصى مع تلمسان على يد إدريس بن عبد الله.

كان الرشيد بسبب هذه الحوادث يخاف الطالبين جداً ومن اتهم من الناس بالميل إليهم عاقبه أشد العقوبات وأخذ موسى بن جعفر المعروف بالكاظم إلى بغداد فأقام بها إلى أن مات وهو السادس من أئمة الشيعة الإمامية.

الخارجون عليه من غير العلويين:

لم يكن اضطراب الدولة وزعزعة الأمن ناشئاً من العلويين وحدهم، بل كان هناك فريق من الأمة ينعى على الخلفاء استبدادهم وخروجهم عما توجبه الأوامر الشرعية من كتاب الله وسنة نبيه وقد اتصل أمرهم من لدن أن خرجوا على علي بن أبي طالب إلى زمن الرشيد إلا أن خلفاء بني أمية أخفوا صوتهم بما كانوا يجردون لهم من الجيوش الجارية على يد أمهر القواد كالمهلب بن أبي صفرة وغيره ومع ذلك فإنهم لم يقدروا على إفناء روحهم الثورية من الأمة، فكان لا يزال يخرج منهم خارقة متى ظهر فيهم ذو مقدرة وكفاءة لخوض الحروب. وقد اشتهر زمن الرشيد بخوارج أولى بأسٍ شديدٍ أعادوا تاريخ أسلافهم في عهد بني أمية بعد أن كانت نيرانهم قد خبت مدة طويلة وأشهر هؤلاء الخوارج ذكراً وأعظمهم أثراً الوليد بن طريف الشاري الشيباني كان بطلاً شجاعاً يقيم بالجزيرة بنواحي

نصيبين خرج على الرشيد (سنة ١٧٨) ففتك بإبراهيم بن خازم بنصيبين ثم مضى منها على أرمينية ثم رجع إلى الجزيرة (سنة ١٨٩) واشتدت بها شوكته وكثرت أتباعه بعد أن هزم للرشيد جيوشاً عدة فاهتم الرشيد بأمره جد الاهتمام ورأى أن يوجه إليه من ربيعة من يمكنه القيام في وجهه فوقع اختياره على يزيد بن مزيد الشيباني وهو ابن أخى معن بن زائدة فذهب يزيد وصار يخاتل الوليد ويمكره متبعاً في ذلك طريقة المهلب بن أبي صفرة مع قطرى بن الفجاءة، وكانت البرامكة منحرفين على يزيد فقالوا له: إنه يراعيه لأجل الرحم وإلا فشوكة الوليد سيرة فوجه إليه الرشيد كتاباً مغضباً وقال: ولو وجهت أحداً من الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ولكنك مداهن متعصب وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن أخرت مناجزة الوليد لبيعن إليك من يحمل رأسك إلى أمير المؤمنين فلقى يزيد الوليد، ولما اصطف جيشاهما وشبت الحرب ناداه: يا وليد ما حاجتك إلى التستر بالرجال أبرز لى، فقال: نعم والله، فبرز الوليد وهو يرتجز:

أنا الوليد بن طريف الشارى قسورة لا يصطلى بنارى

جوركم أخرجنى من دارى

وبرز إليه يزيد ووقف العسكران فلم يتحرك منهما أحد فطاردا ساعة وكل واحد منهما لا يقدر على صاحبه حتى مضت ساعات من النهار فأمكنك يزيد فيه الفرصة فضرب رجله فسقط وصاح بخيله فسقطوا عليه واحتزوا رأسه وكانت هذه الواقعة بالحديثة على فراسخ من الأنبار (سنة ١٧٩) ثم وجه يزيد برأس الوليد وبكتاب الفتح إلى الرشيد. ومن أطف الرثاء ما قالته الفارعة أخت الوليد:

بتل نهاكى رسم قبر كأنه	على جبل فوق الجبال منيف
تضمن محدباً عد ملياً وسودداً	وهمة مقدام ورأس حصيف
فيا شجر الخابور مالك مورقاً	كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى	ولا المال إلا من قنا وسيوف
ولا الذخر إلا كل جرداء صلدم	معاودة للكر بين صفوف
كأنك لم تشهد هناك ولم تقم	مقاماً على الأعداء غير خفيف
ولم تستلم يوماً لورد كريهة	من السرد فى خضراء ذات رفيف
ولم تسع يوم الحرب والحرب لاقح	وسمر القنا ينكرانها بألوف
حليف الندى ما عاش يرضى به الندى	فإن مات لا يرضى الندى بحليف

فقدناك فقدان الشباب وليتنا	فدينناك من فتياننا بألوف
وما زال حتى أزهق الموت نفسه	شجاً لعدو أو نحا للضعيف
ألا يا لقوم للحمام واللبلى	وللأرض همت بعده برجوف
ألا يا لقومى للنوائب والردى	ودهر ملح بالكرام عنيف
وللبدر من بين الكواكب إذ هوى	وللشمس لما أزمعت لكسوف
ولليث كل الليث إذ يحملونه	إلى حفرة ملحودة وسقيف
ألا قاتل الله الحشا حيث أضمرت	فتى كان للمعروف غير عيوف
فإن يك أوداه يزيد بن مزيد	فرب زحوف لفها بزخوف
عليه سلام الله وقفاً فإنتى	أرى الموت وقاعاً بكل شريف

خطر المشرق:

وضح الخطر على الدولة من قبل المغرب فقد انتفضت أطرافها بخروج عبد الرحمن بن معاوية وإدريس بن عبد الله وليس الخطر على هذا الطرف بأقل أثراً من الخطر على الطرف الآخر وهو مشرق الدولة وراء نهر جيحون فقد حصل ما يؤذن بخطر مستقبل من جراء والى خراسان.

استشار الرشيد وزيره يحيى بن خالد فى تولية على بن عيسى بن ماهان خراسان فأشار إليه ألا يفعل، فخالفه الرشيد وولاه إياها، فلما شخص إليها ظلم الناس وجمع مالا جليلاً ووجه إلى الرشيد بهدايا لم ير مثلاً من الخيل والرقيق والثياب والأموال فقعد الرشيد بالشماسية على دكان مرتفع حين وصل إليه ما بعث به على بن عيسى وإلى جانبه يحيى بن خالد فقال له: هذا الذى أشرت ألا نوليّه هذا الثغر فقد خالفناك فيه فكان فى خلافك بركة وهو كالمزاج معه إذ ذاك فقال يحيى: يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداك أنا وإن كنت أحب أن أصيب فى رأى وأوفق فى مشورتى فأنا أحب إلى من ذلك أن يكون رأى أمير المؤمنين أعلى وفراسته أثقب وعلمه أكثر من علمى ومعرفته فوق معرفتى وما أحسن هذا وأكثره إن لم يكن فيه ما يكره أمير المؤمنين، وأسأل الله أن يعيذه ويعفيه من سوء عاقبته ونتائج مكروهة قال: وماذا ذاك قال: أحسب أن هذه الهدايا ما اجتمعت له حتى ظلم فيها الأشراف وأخذ أكثرها ظلماً وتعدياً ولو أمرنى أمير المؤمنين لأتيته بصفته الساعة من بعض

تجار الكرخ، قال: وكيف ذاك قال: قد ساومنا عوناً على السقط الذي جاءنا به من الجوهر وأعطيناه به سبعة آلاف ألف فأبى أن يبيعه فأبعث إليه الساعة بحاجتي يأمره أن يرده إلينا لنعيد فيه نظرنا فإذا جاءنا به جحدناه وربحنا سبعة آلاف ألف، ثم كنا نفعل بتاجرين من تجار الكرخ مثل ذلك وعلى أن هذا أسلم عاقبة وأستر أمراً من فعل عليّ بن عيسى في هذه الهدايا بأصحابها فأجمع لأمر المؤمنين في ثلاث ساعات أكثر من قيمة هذه الهدايا بأهون سعى وأيسر أمر وأجمل جباية مما جمعه عليّ في ثلاث سنين. فوقرت في نفس الرشيد وحفظهما وأمسك عن ذكر عليّ بن عيسى فلما عاث عليّ بن عيسى بخراسان ووتر أهلها وأخذ أموالهم واستخف برجالهم كتب رجال من كبرائها ووجهائها إلى الرشيد وكتب جماعة من كورها إلى قراباتهم وأصحابهم يشكون سوء مسيرته وخبث طعمته ورداءة مذهبه ونسأل أمير المؤمنين أن يبدلها به فدعا يحيى بن خالد فشاوره في أمر عليّ بن عيسى وفي صرفه، فأشار عليه بيزيد بن مزيد فلم يقبل مشورته. وكان قيل للرشيد: إن عليّ بن عيسى أجمع على خلافك فشخص إلى الرى من أجل ذلك فعسكر بالنهروان لثلاث عشرة بقية من جمادى الأولى (سنة ١٨٩)، ثم سار إلى الرى ثم إلى قرماسين، ثم عاد إلى الرى فأقام بها نحو أربعة أشهر حتى قدم عليه عليّ بن عيسى من خراسان بالأموال والهدايا والطرف، وأهدى بعد ذلك إلى جميع من كان معه من ولده وأهل بيته وكتابه وخدمه وقواده على قدر طبقاتهم ومراتبهم، فرأى الرشيد منه خلاف ما كان ظن به وغير ما كان يقال فيه فرضى عنه ورده إلى خراسان وخرج وهو مشيع له.

عاد عليّ بن عيسى إلى مرو ناقماً على كل من يظن أنه تكلم فيه بسوء فأذى الناس وأخذ منهم الأموال ظلماً. وحصل في تلك الظروف أن أعلن العصيان رافع بن ليث بن نصر بن سيار وجده نصر من قد عرفتم في التاريخ الأموي. أما رافع فيظهر أنه كان ممن يتخذ دين الله هزواً ولعباً ويتضح ذلك من السبب الذي من أجله ثار. كان يحيى بن الأشعث الطائي تزوج ابنة عمه وكانت ذات يسار ولسان فأقام بمدينة السلام وتركها بسمرقند، فلما طال مقامه بها وبلغها أنه اتخذ أمهات أولاد التمت سبياً للتخلص منه وبلغ رافعاً خبرها فطمع فيها وفي مالها ففدس إليها من قال لها إنه لا سبيل لها إلى التخلص من صاحبها إلا أن تشرك بالله وتحضر لذلك قوماً عدولاً وتكشف شعرها بين أيديهم ثم تنوب فتحل للأزواج ففعلت ذلك وتزوجها رافع وبلغ الخبر يحيى بن الأشعث فرفعه إلى الرشيد فكتب إلى عليّ بن عيسى يأمره أن يفرق بينهما وأن يعاقب رافعاً ويجلده الحد ويقيده ويطوف به في مدينة سمرقند مقيداً عليّ حمار حتى يكون عظة لغيره فدرأ عنه سليمان بن حميد الحد وفعل به العقوبات الأخرى وحجسه فهرب من الحبس ولحق بعليّ بن

عيسى طالباً أمانه فلم يجبه على إليه، وهم بضرب عنقه فكلمه فيه ابنه عيسى بن عليّ وجدد طلاق المرأة وأذن له في الانصراف إلى سمرقند فانصرف إليها فوثب بعاملها سليمان بن حميد فقتله فوجه إليه عليّ بن عيسى ابنه عيسى وكان أمره قد استفحل بسمرقند وبإيعه الناس وطابقه من وراء النهر فلقي رافع عيسى بن عليّ وهزمه فأخذ عليّ في فرض الرجل والتأهب للحرب. أما رافع فإنه غلظ أمره وكاتبه أهل نسف يعطونه الطاعة ويسألونه أن يوجه إليهم من يعينهم على قتل عيسى بن عليّ فوجه صاحب الشاش في أثره وقائداً من قواده فأتوا عيسى بن عليّ فأحدقوا به وقتلوه ولم يعرضوا لأصحابه، وكان عليّ بن عيسى في ذلك الوقت ببلخ، فلما سمع ما أصاب ابنه خرج عنها حتى أتى مرو مخافة أن يسير إليها رافع فيستولي عليها وكان عيسى ابنه قد دفن في بستان داره ببلخ أموالاً عظيمة قيل إنها كانت ثلاثين ألف ألف درهم، ولا يعلم بها عليّ بن عيسى ولا أطلع عليها إلا جارية كانت له، فلما شخّص عليّ إلى بلخ أطلعت الجارية عليّ ذلك بعض الخدم وتحدث به الناس فاجتمع قراء أهل بلخ ووجوهها فدخلوا البستان فانتهبوه وأباحوه للعامة بلغ الرشيد الخبر فقال: خرج من بلخ بغير إذن وخلف مثل هذا المال وهو يزعم أنه قد أفضى إلى حلى نسائه فيما أنفق عليّ محاربة رافع. في ذلك الوقت تبينت له خيانة الرجل وجبهه وسوء سياسته لأهل ولايته فعزم عليّ خلعه ومصادرته فأحضر هرثمة بن أعين وهو قائد شجاع بطل، فقال له: إنني لم أشاور فيك أحداً ولم أطلعك على سرى فيك وقد اضطربت عليّ ثغور المشرق وأنكر أهل خراسان أمر عليّ بن عيسى إذ خالف عهده ونبذه وراء ظهره وقد كتب يستمد ويستجيش وأنا كاتب إليه فأخبره أني أمدك بك وأوجه إليه معك من الأموال والسلاح والقوة والعدة وما يطمئن إليه قلبه وتتطلع إليه نفسه وأكتب معك كتاباً بخطي فلا تقضه ولا تطلعن فيه حتى تصل إلى مدينة نيسابور فإذا نزلتها فاعمل بما فيه وامثله ولا تجاوزه إن شاء الله وأنا موجه معك رجاء الخادم بكتاب أكتبه إلى عليّ بن عيسى بخطي ليتعرف ما يكون منك ومنه وهون عليه أمر عليّ فلا تظهره عليه ولا تعلمه ما عزمت عليه وتأهب للمسير وأظهر لخاصتك وعامتك أني أوجهك مدداً لعليّ بن عيسى وعوناً له. وكان كتابه لعليّ بن عيسى مبدوءاً بهجر وفيه توبيخ وتقريع له على مخالفته وإعلام له بما أمر هرثمة أن يفعله معه. أما عهده لهرثمة فهو:

(وهذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى هرثمة بن أعين حين ولاه ثغر خراسان وأعماله وخراجه أمره بتقوى الله وطاعته ورعاية أمر الله ومراقبته وأن يجعل كتاب الله إماماً له في كل ما هو بسبيله فيحل حلاله ويحرم حرامه، ويقف عند متشابهه ويسأل عنه أولى الفقه في دين الله وأولى العلم بكتاب الله أو يرده إلى إمامه ليريه الله عز وجل فيه

رأيه ويعزم له على رشده. وأمره أن يستوثق من الفاسق على بن عيسى وولده وعماله وكتابه وأن يشد عليهم وطأته ويحل بهم سطوته ويستخرج منهم كل مال يصلح عليهم من خراج أمير المؤمنين وفي المسلمين فإذا استنظف ما عندهم وقبلهم من ذلك نظر في حقوق المسلمين والمعاهدين وأخذهم بحق كل ذي حق حتى يرده إليه، فإن ثبتت قبلهم حقوق لأمر المؤمنين وحقوق المسلمين فدافعوا بها وجحدوها أن يصب عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته حتى يبلغ بهم الحال التي إن تخطاها بأدنى أدب تلفت نفوسهم وبطلت أرواحهم فإذا خرجوا من حق كل ذي حق أشخصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطاة وخشونة المطعم والمشرّب وغلظ الملبس مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين إن شاء الله فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت إليك فإني آثرت الله ودينى على هواى وإرادتى فكذلك فليكن عملك وعليه فليكن أمرك ودبر فى عمال الكور الذين تمر بهم فى صعودك ما لا يستوحشون معه إلى أمر يريهم وظن يربهم وأبسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ثم اعمل بما يرضى الله منك وخليفتك ومن ولاك الله أمره إن شاء الله. هذا عهدى وكتابى بخطى وأنا أشهد الله وملائكته وحمله عرشه وسكان سمواته وكفى بالله شهيداً) وكتب أمير المؤمنين بخط يده لم يحضره إلا الله وملائكته.

شخص هرثمة وقد اختار من ثقات رجاله ولاية على كور خراسان مع وصيتهم بكتمان أمرهم إلى اليوم الذى عينه لهم حتى إذا وصل مرو خرج على بن عيسى لمقابلته لأن هرثمة لم يدع مجالاً للريبة إلى قلبه فلما دخلا المنزل أطلعه على كتاب الرشيد إليه وأول كلمة منه تنبى عن يقينه فأسقط فى يده وبعد تلاوته الكتاب قبض عليه وقيده وكذلك قيد أولاده وكتابه وعماله ثم ذهب هرثمة إلى المسجد الجامع فخطب وبسط من آمال الناس وأخبرهم أن أمير المؤمنين ولاء ثغورهم لما انتهى إليه من سيرة الفاسق على بن عيسى وما أمره به فيه وفى عماله وأعوانهم وأنه بالغ من ذلك ومن إنصاف العامة والخاصة والأخذ لهم بحقوقهم أقصى مواضع الحق وأمر بقراءة عهده عليهم فأظهروا السرور بذلك وانفسحت آمالهم وعظم رجاؤهم وعلت بالتكبير والتهليل أصواتهم وكثر الدعاء لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء. ثم صادر جميع ما يملكه على بن عيسى هو وأولاده وكتابه وأرسل كل ذلك إلى الرشيد وقالوا أنه حمل على (١٥٠٠ بغير) وأرسل هرثمة إلى الرشيد يخبره بما صنع. ولما استوفى ما عند على بن عيسى أرسله هو وأولاده فى الأغلال إلى بغداد.

وقد اهتم هرثمة بأمر رافع ولكن استفحال أمره دعا الرشيد إلى الذهاب بنفسه لحربه فشخص يريد خراسان فى ربيع الآخر (سنة ١٩٣) وهى السفرة التى مات فيها بطوس فلم يصل إلى ما أراد وبقي رافع على حاله حتى أطاع المأمون من غير قتال.

وزراء الرشيد:

أول وزراء الرشيد يحيى بن خالد بن برمك. ولما كانت أسرة البرامكة من أعظم الأسر تـريخاً وأشهرها اسماً فى صدر الدولة العباسية أحببنا أن نشرح أوليتها.

أسرة البرامكة:

تنسب هذه الأسرة إلى جدها برمك وهو من مجوس بلخ، وكان يخدم النوبهار وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ توقد فيه النيران، فكان برمك وبنوه سدة له، وكان برمك عظيم المقدار عندهم ولم يُعلم هل أسلم أو لا؟ لما جاءت الدعوة العباسية خراسان، كان خالد بن برمك من أكبر دعائها وزعمائها وكان ذا صفات عالية أهله للسيادة ورفعة القدر فى صدر الدولة حتى استوزره أبو العباس السفاح بعد هلاك أبى سلمة حفص بن سليمان خلال، فكان مدبر أمره غير أنه لم يكن يسمى وزيراً واستمر على ذلك حياة أبى العباس، ثم ولى أبو جعفر أبى خالد فى منصبه مدة ثم ولاه فارس بتدبير أبى أيوب المورىانى الذى تولى الوزارة بعده فأقام فيها مدة، ثم انكسرت عليه جملة من المال فحمل إلى بغداد وطولب بالمال، ذكر الطبرى فى حوادث (١٥٨) أن أبا جعفر ألزمه ثلاثة آلاف ألف ونذر نعه وأجله ثلاثة أيام ولم يذكر سبب ذلك فاستعان فى ذلك أصدقاءه فأعانه كثير منهم حتى جمع فى يومين ألفى ألف وسبعمائة ألف درهم. وفى غد ذلك اليوم الذى أصيب فيه بهذه الحصية ولاه المنصور ولاية الموصل، وكان ممدوح الولاية حسن السيرة. قال أحمد بن محمد بن سوار الموصلى: ما هبنا قط أميراً هبتنا خالد بن برمك من غير أن تشد عقوبته ولا نرى منه جبرية، ولكن هبة كانت له فى صدورنا والياً على الموصل حتى مات أبو جعفر وكانت وفاة خالد (سنة ١٦٣) فى أوائل خلافة المهدي.

أما يحيى بن خالد فكان واحد الدنيا علماً وأدباً وفضلاً ونبلأً وجوداً رباه أبوه فأحسن تربيته، وكان مولده (سنة ١٢٠)، فكانت سنه حين جاءت الدولة العباسية اثنى عشرة سنة قترى فى كنف الدولة وكان عضد أبيه فى ملماته وشدائده وقد اختاره المنصور لولاية خريجان (سنة ١٥٨)، قال له: أردتك لأمر مهم من الأمور واخترتك لشغل من الشغور وكانوا لا يولون تغورهم إلا من كانت ثقتهم به عظيمة فسار فى ولايته سيرة أبيه فى نوصل واستمر بها حتى مات المنصور.

وفى (سنة ١٦٣) اختاره المهدي ليكون كاتباً ووزيراً لابنه هارون فكان يدبر أمره وهارون لا يتاديه إلا بيا أبى، وذلك لأن زوجة يحيى أم ابنه الفضل، أرضعت هارون بلبان ابنها

الفضل وأرضعت الخيزران أم هارون الفضل بلبان ابنها هارون وخرج معه فى غزوة الصائفة (سنة ١٦٣) وكان على أمر العسكر ونفقاته وكتابته والقيام بأمره، وكان فى تلك الغزوة الربيع بن يونس الحاجب غازياً عن المهدي فكان الذى بين الربيع ويحيى على حسب ذلك، وكان هارون يشاورهما ويعمل برأيهما ولما ندب المهدي يحيى لذلك المهم قال له: إني قد تصفحت أبناء شيعتى وأهل دولتى واخترت منهم رجلاً لهارون ابنى أضمه إليه ليقوم بأمر عسكره ويتولى كتابته فوقعت عليك خبرتى له ورأيتك أولى به إذ كنت مريبه وخاصته وقد وليتك كتابته وأمر عسكره.

ولما ولى المهدي ابنه هارون المغرب كله (سنة ١٦٤) من الأنبار إلى أفريقية أمر يحيى بن خالد أن يتولى ذلك، فكانت إليه أعماله ودواينه يقوم بها ويخلفه على ما يتولى منها واستمر على حاله تلك إلى أن مات المهدي ولما ولى الهادي أباه على حاله مع هارون حتى إذا خطر ببال الهادي أن يخلع أخاه من ولاية العهد ابتدأت محنة يحيى فإنه هو الذى جرأه على الاستمساك بحقه الذى منحه إياه أبوه المهدي، وكان هارون قد طاب نفساً بالخلع فقال له يحيى: لا تفعل فقال: أليس يترك لى الهنىء والمرء فهما يسعاني وأعيش مع ابنة عمى، وكان هارون يجد بأم جعفر وجداً شديداً فقال له يحيى: وأين هذا من الخلافة ولعلك ألا يترك هذا فى يدك حتى يخرج أجمع ومنعه من الإجابة فسُئى إلى الهادي بيحيى. وقيل له: إنه ليس عليك من هارون خلاف وإنما يفسده يحيى بن برمك فأرسل إليه الهادي، وقال له: لم تدخل بينى وبين أخى وتفسده على فقال: يا أمير المؤمنين، من أنا حتى أدخل بينكما؟ إنما صيرنى المهدي معه وأمرنى بالقيام بأمره فقممت بما أمرنى به ثم أمرتنى بذلك فأنتهيت إلى أمرك. ثم قال له: لما كلمه فى أمر الخلع يا أمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعتة فقال: صدقت ونصحت ولى فى هذا تدبير، وبما قاله فى هذا: يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان الأمر أسأل الله ألا نبليغه وأن يقدمنا قبله أنظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم. قال: والله ما أظن ذلك. قال: يا أمير المؤمنين أفتأ من أن يسمو إليها أهلك وجلتهم مثل فلان وفلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أهلك. فقال له: نبهتنى يا يحيى. قال: وكان يقول: ما كلمت أحداً من الخلفاء كان أعقل من موسى وقال له: لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك، أما كان ينبغى أن تعقد له فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدي له، ولكن أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله فإذا بلغ جعفر وبلغ الله به أتيته بالرشيد فخلع نفسه وكان أول من يبايعه ويعطيه صفقة يده فقبل الهادي قوله. ولكن يظهر أن الذى

كان يحرك الهادى إلى خلع الرشيد عما لا تمكن مقاومته فاشتد غضبه منه وضيق عليه فقال يحيى لهارون استأذن فى الخروج إلى الصيد، فإذا خرجت فاستبعد ودافع الأيام، ففعل ذلك هارون وخرج إلى قصر مقاتل فأقام به أربعين ليلة حتى أنكر الهادى أمره وغمه حنانه وجعل يكتب إليه ويصرفه فتعلل عليه حتى تفاقم الأمر وأظهر شتمه وبسط مواليه وقواده ألسنتهم فيه وكان الذى ينوب عن يحيى والرشيد بالباب الفضل بن يحيى فكان يكتب إلى أبيه بكل ما يحدث.

ولما لم يرى الهادى يحيى بن خالد يرجع عما كان عليه لهارون بما بذل من إكرام ولا قطاع ولا صلة بعث إليه يتهدده بالقتل إن لم يكف عنه ولم تزل الحال على ذلك من الخوف والخطر حتى اعتل موسى علة التى مات فيها فقام يحيى بأمر الرشيد خير قيام ودبره حسن تدبير فقلده الرشيد وزارته وزارة تفويض حيث قال له: قلدتك أمر الرعية وأخرجته من حقى إليك فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وامض الأمور على ما ترى، ودفع إليه خاتمه وفى ذلك يقول إبراهيم الموصلى:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة فلما ولي هارون أشرق نورها

بيمن أمين الله هارون ذى الندى فهارون واليها ويحيى وزيرها

وكانت الخيزران هى النازرة فى الأمور وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن رأيها وكان يحيى بما أوتيته من كريم الخلق وسماحة النفس وجودة الكتابة غرة فى دولة الرشيد وكان قبلة الآمال ومتجعج الرواد. وقد ضم إليه الرشيد فى (سنة ١٧١) خاتم الخلافة فاجتمعت له الوزارتان .

وكان ليحيى أربعة من الأولاد كلهم سادة نجب وهم الفضل وجعفر ومحمد وموسى بنو يحيى .

فأما الفضل فهو أكبر الإخوة ولد أواخر (سنة ١٤٨) قبل ولادة الرشيد بأيام وقد أرضعت كلاهما أم الآخر، ولما شب كان لأبيه يحيى كما كان يحيى لأبيه خالد، ولما ولي أبوه وزارة الرشيد كان الفضل ينوب عنه فى جلائل أعماله ولما ولد محمد الأمين جعله الرشيد فى حجر الفضل حتى يقوم بتربيته فكان له أباً.

وفى (سنة ١٧٦) كان خروج يحيى بن عبد الله بن الحسن بيلاد الديلم فأهم أمره الرشيد واختار له أوثق الناس عنده وهو الفضل بن يحيى فولاه كور الجبال والرى وجرجان وطبرستان وقومس ودنباوند والرويان ولم يزل يحتال فى أمر يحيى حتى استنزل من معقله بأمان من غير أن يريق فى ذلك نقطة دم إلا حسن السياسة، وقد عرف الرشيد ذلك للفضل فبلغ الغاية فى إكرامه ومدحه شعراء العصر بسبب ذلك فقال مروان بن أبى حفصة:

ظفرت فلا شلت يد برمكية
على حين أعياء الراتقين التثامه
فأصبحت قد فازت يدك بخطة
وما زال قدح الملك يخرج فائزا
وقال أبو ثمامة الخطيب:

للفضل يوم الطالقان وقبله
ما مثل يوميه اللذين تواليا
سد الثغور ورد ألفة هاشم
عصمت حكومته جماعة هاشم
تلك الحكومة لا التي عن لبسها
يوم أناخ به على خاقان
فى غزوتين توالىا يومان
بعد الشتات فشم لها متدان
من أن يجرد بينها سيفان
عظم النبا وتفرق الحكمان

وفى (سنة ١٧٨) ولاه الرشيد خراسان وثغورها فأحسن السيرة بها وبنى بها الرباطات والمساجد. وغزا ما وراء النهر فخرج إليه ملك أشروسنة وكان ممتنعاً، ويقال إنه اتخذ برخراسان جنداً من العجم سماهم العباسية، وجعل ولاءهم له وإن عدتهم بلغت (٥٠٠٠٠ رجل) وأنه قدم منهم بغداد عشرون ألف رجل فسموا ببغداد الكرنبية وخلف الباقي منهم بخراسان على أسمائهم ودفاترهم وفى ذلك يقول مروان بنى أبى حفصة.

ما الفضل إلا شهاب لا أقول له
حام على ملك قوم غر سهمهم
أمت يد لبنى ساقى الحجيج بها
كتائب لبنى العباس قد عرفت
أثبت خمس مئين فى عدادهم
يقارعون عن القوم الذين هم
إن الجواد ابن يحيى الفضل لا ورق
ما مر يوم له من شد مثزره
عند الحروب إذا ما تأفل الشهب
من الوراثه فى أيديهم سبب
كتائب مالها فى غيرهم أرب
ما ألف الفضل منها العجم والعرب
من الألوف التى أحصت لك الكتب
أولى بأحمد فى الفرقان إن نسبوا
يبقى على جود كفيه ولا ذهب
إلا تمول أقوام بما يهب

كم غاية في الندى والبأس أحرزها	للطالبيين مداها دونه تعب
يعطى الله حين لا يعطى الجواد ولا	ينبو إذا سلت الهندية القضب
ولا الرضا والرضا لله غايته	إلى سوى الحق يدعوه ولا الغضب
قد فاض عرفك حتى ما يعادله	غيث مغيث ولا بحر له حذب

ولما قدم من خراسان خرج الرشيد إلى بستان أبي جعفر يستقبله وتلقاه بنو هاشم والناس من القواد والكتاب والأشراف فوصلهم وأحسن جوائزهم وكان رجوعه بعد أن حسن أحوال خراسان وأذل العاصين بأطرافها وذلك (سنة ١٧٩)، وكان الفضل في جميع الأعمال التي أسندت إليه كفؤاً نزيهاً، وكان من أكثر البرامكة كرماءً، وكان أكرم من أخيه جعفر. وكان الناس يسمونه في بدء أعماله بالوزير الصغير واستمر محمود السيرة مرفوع الرأس في المهمات حتى كانت النكبة الآتية ذكرها.

وأما جعفر فهو ثاني أولاد يحيى وكان من علو القدر ونفاذ الأمر وبعد الهمة وعظم المحل وجلالة المنزلة عند الرشيد بحالة انفرد بها ولم يشارك فيها وكان سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر، وأما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فكان أشهر من أن يذكر وكان من ذوى الفصاحة المشهورين باللسن والبلاغة وكان أبوه قد ضمه إلى أبي يوسف يعقوب القاضى حتى علمه وفقهه وكان الرشيد يأنس به أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر وشراصة أخلاق الفضل. وقال الرشيد يوماً ليحيى: ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ولا يسمون جعفرأ بذلك فقال يحيى: لأن الفضل يخلفنى قال: فضم إلى جعفر أعمالاً كأعمال الفضل فقال يحيى: إن خدمتك ومنادمتك يشغلانه عن ذلك فجعل إليه أمر دار الرشيد، فسمى بالوزير الصغير، وقال له يوماً: قد أحببت أن انقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر وقد استحيت من مكاتبته فى هذا المعنى، فاكتب أنت إليه فكتب يحيى إلى الفضل قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن نحول الخاتم من يمينك إلى شمالك فأجابته الفضل قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين فى أخى وما انتقلت عنى نعمة صارت إليه ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه فقال جعفر: لله در أخى ما أكيس نفسه وأظهر دلائل الفضل عليه وأقوى منه العقل عنده وأوسع فى البلاغة ذرعه.

وفى (سنة ١٦٧) ولاه الرشيد مصر زيادة على ماله من الأعمال فى دار السلام فولاه من قبله عمر بن مهران.

وفى (سنة ١٨٠) هاجت العصبية بالشام بين أهلها وتفاقم أمرها فاغتم الرشيد لذلك فعقد لجعفر بن يحيى على الشام وقال له: إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا فقال له جعفر:

بل أقيك بنفسى فشخص فى جملة القواد والكراع والسلاح فأصلح بين الناس وقتل
زواقلهم والمتلصصة منهم ولم يدع بها رحماً ولا فرساً فعادوا إلى الأمن والطمأنينة وأطفأ
تلك الثائرة وقد مدحه شعراء العصر بسبب ذلك فقال منصور النميرى:

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة	فهذا أوان الشام تخمد نارها
إذا جاش موج البحر من آل برمك	عليها خبث شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر	وفيه تلافى صدعها وانجبارها
رماها بميمون النقيبة ماجد	تراضى به قحطانها ونزارها
تدلت عليه صخرة برمكية	دموع لهام الناكثين انحدارها
غدوت تزجى غاية فى رؤوسها	نجوم الثريا والمنايا ثمارها
إذا خفقت راياتها وتجرست	بها الريح هال السامعين انبهارها
فقولوا لأهل الشام لا يسلبنكم	حجاكم طويلات المنى وقصارها
فإن أمير المؤمنين بنفسه	أناكم وإلا نفسه فخيبارها
هو الملك المأمول للبر والتقوى	وصولاته لا يستطاع خطارها
وزير أمير المؤمنين وسيفه	وصعدته والحرب تدمى شفارها
ومن تطوى أسرار الخليفة دونه	فعمدك مأواها وأنت قرارها
وفيت فلم تغدر لقوم بذمة	ولم تدن من حال ينالك عارها
طبيب بإحياء الأمور إذا التوت	من الدهر أعناق فأنت جبارها
إذا ما ابن يحيى جعفر قصدت له	ملمات خطب لم ترعه كبارها
لقد نشأت بالشام منك غمامة	يؤمل جدواها ويخشى دمارها
فطوبى لأهل الشام يا ويل أمها	أناها حياها أو أناها بوارها
فإن سالموا كانت غمامة نائل	وغيث وإلا فالدماء قطارها
أبوك أبو الأملاك يحيى بن خالد	أخو الجود والنعمى الكبار صغارها
كأين ترى فى البرمكيين من ندى	ومن سابقات ما يشق غبارها

غدا من نجوم السعد من حل رحله
إليك وعزت عصابة أنت جارها
عذيري من الأقدار هل عزماتها
مخلفتني عن جعفر واقتسارها
فعين الأسى مطروقة لفراقه
ونفسي إليه ما ينام ادكارها
ولما شخص جعفر من هذه المهمة ازداد الرشيد له إكراماً وخطب جعفر أمامه خطبة
جميلة استشفع فيها لأهل الشام واستعطف قلب الرشيد عليهم.

وفي هذه السنة ولاه الرشيد خراسان ثم عزله منها بعد عشرين ليلة وولاه الحرس وكان
يخلفه في هذا العمل هرثمة بن أعين وهو من كبار قواد الدولة.

وفي (سنة ١٨٢) بايع الرشيد لا بنه عبد الله المأمون بولاية العهد بعد أخيه محمد
الأمين وضمه إلى جعفر بن يحيى ليكون المدير لأمره، كما كان الأمين مع الفضل بن
يحيى وقد جعل الرشيد الأمين والى المغرب كله والمأمون والى المشرق كله وكانت الولاة
التي ترسل إلى الأقاليم من قبل ولي العهد.

وأما موسى بن يحيى، فكان أشجع القوم وأشدّهم بأساً لم ينل من الشهرة ما ناله أخواه
الفضل وجعفر إلا أنه كان في تلك الدولة عاملاً سرياً وقائداً بأسلاً ولاه الرشيد الشام (سنة
١٨٦) لما هاجت بها الفتن والعصيان قبل الحادثة التي ذهب فيها أخوه جعفر وضم إليه من
القواد والأجناد ومشايخ الكتاب جماعة، فلما ورد الشام أقام بها حتى أصلح بين أهلها
وسكنت الفتنة واستقام أمرها فانتهى الخبر إلى الرشيد بمدينة السلام ورد الرشيد الحكم فيهم
نبي يحيى بن خالد فعفا عنهم وعما كان بينهم وأقدمهم بغداد. فقبل في موسى بن يحيى:

قد هاجت الشام هيجاً	يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها	بخيـله وجنوده
فدانت الشام لما	أتى بسنخ وحيده
هو الجـواد الذي بذ	كل جـود بجـوده
أعداه جـود أبيه	يحيى وجود جدوده
فجاء موسى بن يحيى	بطارف وتليده
ونال موسى ذرى المجد	وهو حشو مهوده
خصصته بمديحي	منشوره وقصيده
من البرامك عود	له فأكرم بعوده
حووا على الشعر طرا	خفيفه ومديده

وقد اتهمه على بن عيسى بن ماهان أمير خراسان من قبل الرشيد بأنه هو السبب في اضطراب خراسان عليه وأعلمه طاعة أهلها لموسى ومحبته إياه وأنه يكاتبهم ويعمل على الانسلاخ إليهم للوثوب به معهم فوقر ذلك في نفس الرشيد عليه وأوحشه منه، فلما قدح على بن عيسى فيه أسرع ذلك في الرشيد، وعمل فيه القليل منه ثم ركب موسى دين واختفى من غرمائه فتوهم الرشيد أنه صار إلى خراسان كما قيل له، فلما صار إلى الحيرة في حجه (سنة ١٨٧) وافاه موسى من بغداد فحبسه الرشيد بالكوفة عند العباس بين عيسى بن موسى فركبت أم الفضل بن يحيى في أمره ولم يكن الرشيد يردّها في شيء فقال: يضمّنه أبوه فقد رفع إلى فيه فضمنه يحيى ودفعه إليه ثم رضى عنه الرشيد وخلع عليه.

وأما محمد بن يحيى، فكان سرّياً بعيد الهمة ولم يكن له من الشهرة ما لإخوته كانت هذه الأسرة في عهد الرشيد غرة في جبين دولته جمعوا من الصفات المحمودة ما استحقوا به ثناء معاصريهم من الكتاب والشعراء والقصاص، وقد كانوا فرسان البلاغة وملوك الكلام، كما كانوا مبرزين في حلبة الجود والسخاء تهزم الأريحية عند سماع المديح فيجودون بما ضن به الكرام حتى أنسو الناس ذكر الأولين.

خدمت هذه الأسرة الدولة العباسية من أول نشأتها حيث كان خالد بن برمك من كبار دعائها وقوادها إلى هذه السنة (سنة ١٨٧) التي نسطر فيها أخبار نكبتها على يد الرشيد.

نكبة البرامكة:

أولع المؤرخون بذكر نكبة البرامكة وأجهدوا قرائحهم في تعرف أسباب إيقاع الرشيد بهم. لم يكن هذا العمل بدعاً في الدولة العباسية فإن للمنصور والمهدى سلفاً في ذلك، فقد أوقع المنصور بوزيره أبي أيوب المورياتي وقتله وأقاربه واستصفى أموالهم لخيانة مالية أطلع عليها منهم وأوقع المهدى بوزيره أبي عبد الله معاوية بن يسار ويعقوب بن داود لو شاية كانت بهما مع نزاهة الأول وحسن سيرته ومع ما كان للمهدى من الوقوع بالثاني حتى كتب للجمهور أنه اتخذ أخاه في الله. كل هذا قد سبق به الرشيد.

يرى المؤرخ أن طبيعة الملك الاستبداد أى يحب الملك فيه أن يكون ذا السلطان الذى لا يشارك والحول الذى لا يقاوم واليد الطولى التى لا تضارعها يد وكبار الرجال الذين يعينونهم ويقومون بتأييد سلطانهم كثير منهم لا يقف عند حد في الانتفاع بتلك السابقة لهم، فلا يزالون يترفعون حتى تتنبه إليهم أفكار الخلفاء بما يلقيه إليهم الحاسدون والواشون من تعظيم سلطانهم على سلطانه واشتداد وطأتهم وعلو أيديهم فتدخل الغيرة في قلوب أولئك الخلفاء والغيرة بدء الشعور بعيوب أولئك الرجال فلا تزال معائبهم تتجسم وهفواتهم

نصفيرة تعظم وحينئذ يرى هذا السلطان المستبد أن لا مناص من الإيقاع بمن كان سيفه الذى لا ينبو فى الخطوب إشفاقاً من هذا السيف أن ينقلب عليه فيتقص منه ملكه الذى دونه كل شئ وليس هذا خاصاً بالرشيد والبرامكة بل كل مستبد هذا شأنه مع وزرائه وأعوانه إلا صيلاً من الوزراء الذين يعلمون طباع الملك فيقفون عند حد لا يهيج الغيرة والحسد فى قلوب الناس وقلب السلطان وهؤلاء أندر من الكبريت الأحمر، لأنهم يتغلبون على ما فى ضمير الإنسان من عدم الوقوف عند حد فى العظمة والتكاثر فى الأموال على أن أباه عبد الله وزير المهدي مع نزاهته وبعده عما يوجب غيرة سلطانه جاءه أعداؤه من قبل ابنه فقالوا نعمه: إنه زنديق فقتله المهدي فكان ذلك سبباً للوحشة بين المهدي ووزيره.

كان يحيى بن خالد هو القائم بأمر الرشيد أيام المهدي وكان الرشيد يدعوه يا أباي، وكانت أم الفضل بن يحيى ظئراً للرشيد وأرضعت الخيزران أم الرشيد الفضل بن يحيى، فكان يحيى هو الذى يكلفه ويقوم بتربيته من لدن ولد إلى أن شب. وهو الذى كانت له ليد الطولى فى إخفاق المساعى التى بذلت لخلع الرشيد من ولاية العهد أيام الهادي، فلما تولى الرشيد قلده وزارته وزارة تفويض ثم ضم إليه وزارة الخاتم بعد وفاة الفضل بن سليمان الطوسي فاجتمعت له الوزارتان وأعانه فى العمل أبناؤه إلا أن الشهرة ونباهة الذكر كانت للفضل وجعفر مع ما كان لهم جميعاً من الكفاية حتى روى القاضي يحيى بن أكثم قت: سمعت المأمون يقول: لم يكن كـيحيى بن خالد ولده أحد فى الكفاية والبلاغة والنجود والشجاعة قال القاضي: فقلت: يا أمير المؤمنين أما الكفاية والبلاغة والسماحة فعرفها فيهم ففيم الشجاعة؟ فقال موسى بن يحيى: وقد رأيت أن أوليه ثغر السند.

ولم يكونوا فى الاتصال بالرشيد على درجة واحدة، فكان يحيى صاحب المقام الأرفع وهو المدير أمر المملكة وحاله فى سنه وجلالة قدره تبعده عما يدعو إليه الشباب من المنادمة وكان الفضل فى الأخلاق مثله فلم يكن يخف على قلب الرشيد لتشبهه بأبيه حتى كان لرشيد قد عتب عليه وثقل مكانه عليه لتكره الشراب معه، فكان الفضل يقول: لو علمت أن الماء ينقص من مروءتى ما شربته وكان مشغوباً بالسماع. أما جعفر فكان أخف الجميع على قلب الرشيد، فكان لذلك يدخل فى منادمته حتى كان أبوه ينهيه ويأمره بترك الأنس به فيترك أمر أبيه ويدخل معه فيما يدعوه إليه ويقال إنه كتب إليه حين أعيته الحيلة فيه. إني بما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمك وإن كنت لأخشى أن تكون التى لا سوى لها. وقد كان يحيى قال للرشيد: يا أمير المؤمنين أنا والله أكره مداخلة جعفر معك ولست من أن ترجع العاقبة فى ذلك على منك، فلو أعفيتة واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك كان ذلك واقعاً بموافقتى وأمن لك على. قال الرشيد: يا أبت ليس بك هذا

ولكنك إنما تريد أن تقدم عليه الفضل. ومن أجل ذلك كان سلطان جعفر أيام الرشيد عظيماً جداً حتى كان يقضى أعظم الأمور فلا يرد له الرشيد قضاء.

رأهم الناس بعد هذا العز المتين والرف الباذخ منكوبين على يد الرشيد، ابن يحيى وأخى الفضل وحبيب جعفر. فجعفر مقتول بالعمر من ناحية الأنبار في آخر ليلة من محرم (سنة ١٩٧) بعد أوبة الرشيد من حجه وكتابته عهدى ولديه الأمين والمأمون - ثم جسمه مصلوب ببغداد على ثلاثة جسور ثم أحرق. ويحيى بن خالد وأبناؤه الباقر ومحبوسون، ورأوا مصادرة لكل ما يملكون من عقار ومنقول ورقيق - ورأوا كتباً أرسلت إلى جميع العمال في نواحي البلدان والأعمال بقبض أموالهم وأخذ وكلائهم وأمرأاً بالنداء في جميع البرامكة أن لا أمان لمن أوامهم إلا محمد بن خالد بن برمك وولده وأهله وحشمه، فإن الرشيد استثناهم لما ظهر له من نصيحة محمد له وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة. رأوا ذلك كله فعرتهم الدهشة وظنوا الظنون وسادت عليهم الخيالات والأوهام ناسبين ذلك لحادث فجائي حدث فغير قلب الرشيد هذا التغيير، وأداه إلى هذا العمل شأن الناس في الأعصار كافة إذ عصفت بهم عاصفة من حادث شديد الوقع.

نسب ذلك بعضهم إلى مجرد الملل والغيرة. وسئل سعيد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبة لغضب الرشيد عليهم فقال: والله ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد بهم، ولكن طالت أيامهم وكل طويل مملول، والله لقد استطال الناس الذين هم خير الناس أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه وما رأوا مثلها عدلاً وأمناً وسعة أموال وفتوح وأيام عثمان رضى الله عنه حتى قتلوه، ورأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم وكثرة حمد الناس لهم ورميهم بأمالهم دونه والملوك تتنفس بأقل من ذلك فتعنت عليهم وتجنى وطلب مساوئهم ووقع منهم بعض الإدلال خاصة الفضل وجعفرأ دون يحيى فإنه كان أحكم خبرة وأكثر ممارسة للأمور ولاذ من أعدائهم بالرشيد كالفضل بن الربيع وغيره فستروا المحاسن وأظهروا القبايح حتى كان ما كان.

ونسب ذلك بعضهم إلى حادثة يحيى بن عبد الله بن الحسن الذي روينا حديث ذهابه إلى بلاد الديلم واستنزال الفضل بن يحيى إياه بأمان الرشيد - ذكر أبو محمد اليزيدى وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن الحسن فلا تصدقه، وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه ثم دعا به ليلة من الليالي فسأله عن شيء من أمره فأجابه إلى أن قال: اتق الله في أمري ولا تتعرض أن يكون خصمك غداً محمد ﷺ فوالله ما أحدثت حدثاً ولا آويت

محدثاً، فرق عليه وقال: اذهب حيث شئت من بلاد الله. قال: وكيف أذهب ولا آمن أن توجد بعد قليل فأرد إليك أو على غيرك فوجه معه من أداه إلى مأمنه وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له عليه من خاصة خدمه، فعلم الأمر فوجده حقاً وانكشف عنده فدخل على الرشيد فأخبره فأراه أنه لا يعبأ بخبره وقال: ما أنت وهذا لا أم لك، فلعل ذلك عن أمرى فانكسر الفضل وجاء جعفر فدعا بالغداء فأكلوا وجعل يلقمه ويحادثه إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال: ما فعل يحيى بن عبد الله قال: بحاله يا أمير المؤمنين في خبس الضيق والاكبال. قال: بحياتي. فأحجم جعفر وكان من أدق الخلق ذهنًا وأصحهم فكراً، فهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره، فقال: لا وحياتك يا سيدي ولكن تطلعتي وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده قال: نعماً فعلت، ما عدوت ما كان في نفسي فلما خرج اتبعه بصره حتى كاد يتوارى عن وجهه ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك فكان من أمره ما كان.

ونسب ذلك بعضهم إلى حديث العباسة بنت المهدي الذي رواه الطبري عن زاهر بن حرب. وتناقلها المؤرخون وزادوا عليه ونقصوا منها وهي حكاية مشهورة ونحن نريد أن نعين أن نكبة البرامكة ليست حادثة فجائية بل هي حادثة تقدمتها أسباب طويلة أنتج بعضها بعضاً.

كان من موالى العباسيين الفضل بن الربيع وقد قدمنا ذكر أبيه الربيع بن يونس في حياة منصور والمهدي، ولم يكن للفضل في أول خلافة الرشيد شيء من نباهة الذكر، لأن خيزران أم الرشيد كانت تمنعه أن يوليه شيئاً، ففي اليوم الذي توفيت فيه (سنة ١٧٤) دعا هارون، فقال له: وحق المهدي إنني لأهم لك بالليل بالشئ من التولية وغيرها فتمنعني ثمى فأطيع أمرها فخذ الخاتم من جعفر وكان بيده نيابة عن والده فقال الفضل بن الربيع لإسماعيل بن صبيح الكاتب: أنا أجل أبا الفضل عن ذلك بأن أكتب إليه وآخذه ولكن أرى أن يبعث به. وهذه مجاملة سببها أن الفضل يريد منافسة القوم وهم الذين بيدهم كل شيء فحب أن يتخذ عندهم يداً حتى لا يتخوفوه وولى الفضل بن الربيع الخاتم مع نفقات العامة والخاصة وولايات أخرى.

في (سنة ١٧٦) حصلت حادثة يحيى بن عبد الله فاستنزله الفضل من معقله بأمان لرشيد فحضر إلى بغداد وأكرمه الرشيد، لكن الزمان لم يطل على هذا الإكرام، فإن لساعة رفعوا عن يحيى ما يريب وكان الرشيد يرتاب بأقل شيء فرفع إليه أن يحيى لا يزال يدعو إلى نفسه وإنما ينتظر الفرص وكان أكثر الناس سعاية في ذلك بكار بن عبد الله

الزبيرى وكان شديد البغض لآل أبى طالب، ويبلغ عنهم هارون ويسىء بأخبارهم فكان من وراء تلك السعايات أن حبسه الرشيد وضيق عليه وحاول أن يقتله ولم يكن يمنعه إلا خيفة أن يقول الناس فيه شيئاً لما كتبه من كتاب الأمان الذى استنزل به يحيى فأراد أن يأخذ من العلماء قولاً فى أن ذلك الأمان لاغ فأحضر أبا البحترى القاضى ومحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبى يوسف، فأما محمد بن الحسن فإنه قال له: ما تصنع بالأمان لو كان محارباً ثم ولى كان آمناً وليس هذا الجواب موافقاً لغرض الرشيد ولذلك احتمل هذه الكلمة على محمد - وأما أبو البحترى فقال إن الأمان منتقص وأقبل يعدد وجوه نقصه، ولذلك قال له الرشيد: أنت قاضى القضاة وأنت أعلم بذلك فخرق الأمان.

ويظهر أن الفضل بن الربيع كان يحرك هؤلاء السعاة ليسعى يحيى بن عبد الله عند الرشيد، لأن فى قتله إذلالاً لمن كان السبب فى استنزاله وكان الربيع يحاول أن ينال مركز البرامكة أو يساميهما لما كان يرى من وفرة أموالهم وقوة سلطانهم والذى أوضح لنا أن الفضل بن الربيع هو الذى كان يحرك السعاة للسعى يحيى أن الرشيد لما كان يحتاج يحيى نظر يحيى إلى الفضل بن الربيع وقال له: هذا والله من آفاتك.

كان المفهوم بعد ذلك أن يجتهد البرامكة فى تخليص يحيى ففعل جعفر فعلته التى قدمنا ذكرها والرشيد وإن كان يحتمل لجعفر كثيراً من الإدلال لا يحتمل له هذا، لأنه متعلق بملكه - ومن الغريب ما ورد فى هذه الحادثة من أن الفضل بن الربيع علم بما فعله جعفر من عين كانت له عليه من خاصة خدمه وهذا يبين كيف كان الفضل بن الربيع يترقب أحوال جعفر حتى اختار من خاصة خدمه جاسوساً يعلم أخباره ويلقى بها إليه كانت هذه الحادثة سبباً للوشاية بالبرامكة فى أخص صفات الوزراء وهى الإخلاص للموكلهم وذلك طعن منفذ. وقر فى نفس الرشيد شىء من ذلك وأن البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته وهذه التهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهدي وهى التهمة التى استعملها الربيع بن يونس والد الفضل ضد أبى عبد الله وزير المهدي حتى جعله يقتل ابنه بتلك التهمة.

كان من الظاهر بعد ذلك أن تتجسم عيوبهم وتظهر للرشيد مثالهم وأثرهم وينفس عليهم ما صار إليهم من عظيم الأموال وجلال المدح وظهرت على الرشيد آثار النفرة منهم واستراب بهم وظن كل منهم فى الآخر الظنون. روى بخيشوع الطبيب عن أبيه جبريل قال: إني لقاعد فى مجلس الرشيد إذ طلع يحيى بن خالد وكان فيما مضى يدخل بلا إذن، فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم رد عليه رداً ضعيفاً فعلم يحيى أن أمرهم قد تغير ثم أقبل الرشيد على جبريل فقال: يا جبريل يدخل عليك وأنت فى منزلك أحد بلا إذنك؟ فقلت: لا، ولا يطمع فى ذلك، قال: فما بالناس يدخل علينا بلا إذن؟ فقام يحيى

قال: يا أمير المؤمنين قدمني الله قبلك والله ما ابتدأت ذلك الساعة وما هو إلا شيء كان خصني به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى حتى إن كنت لأدخل عليه وهو في فراشه مجرداً حيناً وحيناً في بعض إزاره وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب، وإذا قد علمت فإني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك، قال: فاستحيا الرشيد وكان من أرق الخلفاء وجهاً وعيناه في الأرض ما يرفع إليه طرفه ثم قال: ما أردت ما تكره، ولكن الناس يقولون. قال جبريل: فظننت أنه لم يسبح له جواب يرضيه فأجاب بهذا القول ثم أمسك عنه وخرج يحيى.

وحدث محمد بن الفضل مولى سليمان بن أبي جعفر قال: دخل يحيى بن خالد على رشيد فقام الغلمان إليه فقال الرشيد لمرور الخادم: مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل ندار قال: فدخل فلم يقم إليه أحد فأريد لونه قال: وكان الغلمان والحجاب إذا رأوه تعرضوا عنه قال: فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقونه وبالحري إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعوا بها مراراً.

وحدث يعقوب بن إسحاق عن إبراهيم بن المهدي قال: أتيت جعفر بن يحيى في داره حتى ابتناها فقال: أما تعجب من منصور بن زياد قال: قلت له: في ماذا؟ قال: سألته: هل ترى في داري عيباً؟ قال: نعم ليس فيها لبننة ولا صنوبرة، قال إبراهيم: فقلت له: لندي يعيها عندي أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف درهم وهو شيء لا آمنه عليك غداً بين يدي أمير المؤمنين. قال: هو يعلم أنه قد وصلني بأكثر من ذلك وضعف ذلك سوى ما عرضني له قال: قلت: إن العدو إنما يأتيه في هذا من جهة أن يقول له: يا أمير المؤمنين إذا أنفق على دار عشرين ألف درهم فأين نفقاته وأين صلاته وأين نوائب التي تنوبه وما ظنك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك وهذه جملة سريعة إلى القلب ولوقف على الحاصل منها صعب؟ قال: إن سمع مني قلت لأمر المؤمنين: نعماً على قوم قد كفروها بالستر أو بظاهر القليل من كثيرها وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندي فوضعتها في رأس جبل، ثم قلت للناس: تعالوا فانظروا. وحدث زيد بن علي عن إبراهيم بن المهدي أن جعفر بن يحيى قال له يوماً: (وكان جعفر صاحبه عند الرشيد وهو الذي قره منه) إني قد استربت بأمر هذا الرجل (يعني الرشيد) وقد ظننت أن ذلك لسابق سبقي منه فأردت أن اعتبر ذلك بغيري فكنت أنت فارمق ذلك في يومك هذا وأعلمني ما ترى منه قال إبراهيم: ففعلت ذلك في يومي.

فلما نهض الرشيد من مجلسه كنت أول أصحابه نهض عنه حتى صرت إلى شجرة في

طريقى فدخلتها ومن معى وأمرتهم بإطفاء الشمع وأقبل الندماء يملون بى وأحدأ بعد واحد فأراهم ولا يرونى حتى إذا لم يبق منهم أحد إذا أنا بجعفر قد طلع فلما جاوز الشجرة قال: اخرج يا حبیبى قال: فخرجت فقال: ما عندك ؟ فقلت: حتى تعلمنى كيف علمت أنى هنا ؟ قال: عرفت عنايتك بما أعنى به ، وأنتك لم تكن لتتصرف أو تعلمنى ما رأيت منه وعلمت أنك تكره أن ترى واقفاً فى مثل هذا الوقت وليس فى طريقك موضع أستر من هذا الموضع ففضيت بأنتك فيه ثم قال: فهات ما عندك قلت: رأيت الرجل يهزل إذا جدت ويجد إذا هزلت قال: كذا هو عندى فانصرف يا حبیبى.

من كل هذا يتبين أن النفور والريبة وقعت فى قلب كل من الطرفين للآخر وتبع ذلك معاملات من الرشيد لم يكن يبعثه عليها إلا ما ركز فى نفسه وأثبته عنده وشاة السوء وأعداء البرامكة وكان شديد يتحين الفرصة للإيقاع بهم ولا سيما جعفر لما كان منه من تخليص يحيى بن عبد الله. وهذا دليل عدم الإخلاص للرشيد وللبيت العباسى وقد قام الفضل بن الربيع بما انتدب إليه خير قيام وشايعة فى ذلك كثيرون وكانت زوجة الرشيد زبيدة منحرفة عن جعفر لقيامه فى أمر المأمون، فإنه هو الذى قام فى ولايته العهد وجعله مناظراً لا بنها الأمين وكانوا يتخوفون من جعفر أن يكون سبباً فى الإيقاع بين الأخوين إذا حانت منية الرشيد لذلك كانت زبيدة توغر قلب الرشيد على جعفر كلما حانت الفرصة.

فى (سنة ١٨٦) حج الرشيد، ولما انصرف من حجه أتى الأنبار ومعه يحيى والفضل وجعفر ومحمد بن خالد ودعا موسى بن يحيى فرضى عنه بعد غضبه عليه وفى غاية المحرم أمر فيهم أمره فقتل جعفرأ وحبس يحيى وابنيه وصادر أموالهم كلها ،وقد حبس يحيى مع الفضل ومحمد فى دير القائم وجعل عليهم حفظة ولم يفرق بينهم وبين عدة من خدمهم ولا ما يحتاجون إليه وصير معهم زبيدة بنت منير أم الفضل وعدة من خدمهم وجواربهم ولم تزل حالهم سهلة إلى أن سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح فعمهم العصف بسخطه وجدد لهم التهمة عند الرشيد فضيق عليهم.

حادثة عبد الملك بن صالح،

هو عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس وهو فى درجة السفاح والمنصور نسباً. رفع إلى الرشيد أنه يطلب الخلافة ويطمع فيها وأن البرامكة كانوا له عوناً والذى سعى به ابنه عبد الرحمن وخادمه قمامة فأحضر إلى الرشيد، فلما دخل عليه قال: «أكفرا بالنعمة وجحدواً لجليل المنة والتكرمة ؟ فقال: يا أمير المؤمنين» لقد بؤت إذا بالندم

تعرضت لاستحلال النقم وما ذاك إلا بغى حاسد نافسى فيك مودة القربة وتقديم الولاية
 بث يا أمير المؤمنين خليفة رسول الله ﷺ فى أمته وأمينه على عترته لك عليها فرض
 نضاعة وأداء النصيحة ولها عليك العدل فى حكمها والتثبت فى حادثها والغفران لذنوبها
 هذا له الرشيد: «أتضع لى من لسانك وترفع لى من جنابك هذا كاتبك قمامة يخبر بعلك
 يفساد نيتك فاسمع كلامه». فقال عبد الملك: «أعطاك ما ليس فى عقده ولعله لا يقدر أن
 يحضى ولا يبهتنى بما لم يعرفه منى» وأحضر قمامة فقال له الرشيد: تقدم غير هائب ولا
 حثف قال: إنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك، فقال عبد الملك: أهو كذلك يا
 قمامة؟ قال: نعم لقد أردت ختل أمير المؤمنين - فقال عبد الملك كيف لا يكذب على من
 حفى وهو يبهتنى فى وجهى - فقال له الرشيد وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرنى بعثوك
 يفساد نيتك ولو أردت أن أحتج عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين لك فبم تدفعهما
 عنك فقال عبد الملك: هو مأمور أو عاق مجبور فإن كان مأموراً فمعذور وإن كان عاقاً
 ضجر كفور أخبر الله عز وجل بعداوته وحذر منه بقوله ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا
 لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ (التغابن: ١٤) قال فنهض الرشيد وهو يقول: أما أمرك فقد وضح ولكنى
 لا أعجل حتى أعلم الذى يرضى الله فىك، فإنه الحكم بينى وبينك - فقال عبد الملك:
 صيت بالله حكماً وبأمر أمير المؤمنين حاكماً فإنى أعلم أنه يؤثر كتاب الله على هواه وأمر
 له على رضاه.

فلما كان بعد ذلك جلس مجلساً آخر فسلم عبد الملك لمادخل فلم يرد عليه الرشيد فقال
 عبد الملك: ليس هذا يوماً أحتج فيه ولا أجاذب منازعاً فقال: الرشيد له؟ قال: لأن أوله
 حرى على غير السنة فأنا أخاف آخره قال: وما ذاك؟ قال: لم ترد على السلام نصف
 هفة العوام فقال الرشيد: السلام عليكم اقتداء بالسنة وإيثاراً للعدل واستعمالاً للتحية. ثم
 نعت نحو سليمان بن أبى جعفر وقال:

أريد حياته ويريد قتلى - أما والله لكأنى أنظر إلى شؤبوبها قد همع وعارضها قد لمع
 يكتفى بالوعيد قد أورى ناراً تستطع فأقلع عن براجم بلا معاصم ورؤوس بلا غلاصم
 سهلاً بى والله سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدر وألقت إليكم الأمور أثناء أزمته فندار
 حكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل فقال عبد الملك: اتق الله يا أمير
 المؤمنين فيما ولاك وفى رعيتك التى استرعاك ولا تجعل الكفر مكان الشكر ولا العقاب
 موضع الثواب فقد نخلت لك النصيحة ومحضت لك الطاعة وشددت أواخى ملكك بأنقل
 من زكى يلملم وتركت عدوك مشتغلاً فالله الله فى ذى رحمك أن تقطعه بعد أن بللته
 من أفصح الكتاب لى بعضه أوبغى باغ ينهش ويلغ فى الدم، فقد والله سهلت لك

الوعور وذلك لك الأمور وجمعت على طاعتك القلوب فى الصدور فكم من ليل تمام فىك كابدته ومقام ضيق لك قمته كما قال أخو بنى جعفر بن كلاب:

ومقام ضيق فرجته ببنان ولسان وجدل
لو يقوم الفيل أو فياله زل عن مثل مقامى وزحل

فقال له الرشيد: أنا والله لولا الإبقاء على بنى هشام لضربت عنقك ثم أمر بحبسه فحبس عند الفضل بن الربيع وبعث إلى يحيى بن خالد وهو فى السجن إن عبد الملك بن صالح أراد الخروج علىّ ومنازعتى فى الملك وقد علمت ذلك فأعلمنى ما عندك فيه فإنك إن صدقتنى أعدتلك إلى حالك فقال: والله يا أمير المؤمنين ما اطلعت من عبد الملك على شىء من هذا ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك، لأن ملكك كان ملكى وسلطانك كان سلطانى والخير والشر كان فيه علىّ ولىّ. فكيف يجوز لعبد الملك أن يطمع فى ذلك منى وهل كنت إذا فعلت ذلك به يفعل بى أكثر من فعلك. أعيذك بالله أن تظن بى هذا الظن ولكن كان رجلاً محتملاً يسرنى أن يكون فى أهلك مثله فوليته لما أحمدت من مذهبه وملت إليه لأدبه واحتماله. فلما آتاه الرسول بهذا أعاد عليه فقال: إن أنت لم تقر عليه قتلت ابنك الفضل فقال له: أنت مسلط علينا فافعل ما شئت على أنه إن كان من هذا الأمر شىء فالذنب فيه لى فبم يدخل الفضل فى ذلك؟ فقال الرسول للفضل قم فإنه لا بد لى من إنفاذ أمر أمير المؤمنين فىك فلم يشك أنه قاتله فودع أباه وقال له: ألت راضياً عنى قال: بلى فرضى الله عنك ففرق بينهما ثلاثة أيام، فلما لم يجد عندهما من ذلك شيئاً جمعهما كما كانا وكان يأتيهم من أغلظ رسائل لما كان أعداؤهم يقرفونهم به عنده.

سقنا هذا لندل على أن التهم التى وجهت إلى البرامكة كافة ولا سيما جعفر سياسية محضة وفى القليل منها ما يكفى عند الرشيد لتغيير نعمتهم والغضب عليهم وإذا أضيف إلى ذلك غيرة السلطان ممن يساميه فى سلطانه ويشاركه فى نفوذ أمره كان ذلك أشد لغضبه ولا حاجة بعد ذلك لحيرة الجمهور حتى تخترع له تلك الحكاية التى يظهر عليها أثر التوليد والاختراع لمخالفتها لأخلاق الرشيد وللتقاليد التى سار عليها بنو العباس فقد كان مما عده المنصور على أبى مسلم من ذنوبه وهو من هو فى الدولة وتشديد بنيانها أنه كتب إليه وخطب أمينة بنت على بن عبد الله بن عباس ولم يتنازل بنو العباس عن تلك التقاليد فى أوقات ضعفهم وتسلط آل سلجوق عليهم فكيف يظن بمثل الرشيد أن يقدم على زواج سرى كهذا سببه خيس ؟ هذا بعيد جداً.

فيما تبعناه من أحوال الرشيد كفاية فقد كان وصل من خوفه على ملكه وعلى نفسه

بنى درجة الوسائوس حتى جعله ذلك أذنأ يسمع لكل واشٍ ويصدق كل حشود ففقد بذلك رهرة دولته وغرة جبينها بل زهرة الدولة العباسية كلها فقد وزراء إن كتبوا أجادوا وإن قادوا جيوش سدوا الثغور، وإن ولوا عملاً أصلحوا وهكذا الخليفة ذو السلطان المطلق لا يأمته خدمه بل تُراهم حذرين وجلين فما هي إلا وشاية تطرق حتى تراه قد أخذ بحلاقيهم فأوردتهم شر مورد لا يبالى بما سبق لهم من جليل الخدم ولا يؤثر فيه ما يرى لهم من تفضل بل ينسى ذلك كله ثم يتقدم عنده الوشاة وإن لم يكن لهم فى ميدان الصالحين أثر فقد بقى للرشيد الفضل بن الربيع وهو السبب الوحيد فيما وقع من الشقاق والعداوة بين لأمين والمأمون كما سيجىء، لأن الرجل مفسد معتاد على اختلاق الأخبار ويرى ذلك يحسن فى آذان الخلفاء فلم يكن يصطبر على ذلك فأفسد الدولة وأوقع بأس الأمة بينها وأنا عوذ بالله من الخذلان ومن وزراء السوء وبطانة السوء فهم آفة الأمم وسوس عظامها.

تولى وزارة الرشيد بعد البرامكة الفضل بن الربيع، فلم يسد المكان الذى سدوا.

العلاقات الخارجية:

كانت دول هذا العصر الكبيرة دولة الروم الشرقية بالقسطنطينية ودولة شرلمان الذى كان تيل إلى تجديد دولة الرومان الغربية ودولة الأمويين بالأندلس، وحدثت فى عهده دولة لأدارة بالمغرب الأقصى كما سبق.

مع الروم:

من أعمال الرشيد أنه عزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنشرين وجعلها حيزاً واحداً وسميت العواصم، وجعل قاعدتها منبجاً وأسكنها عبد الملك بن صالح (سنة ١٧٣) وسميت العواصم، لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم من العدو إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر. وكان من هذه العواصم دلوكة ورجبان وقورس وأنطاكية وتيزين وما بين ذلك من الحصون. ومن تلك المدن الشهيرة طرسوس وقد عمرت فى زمن الرشيد عنى يد أبى سليم فرج الخادم التركى، ونزلها الناس وكان يغزو الصائفة عبد الرحمن بن عبد نك بن صالح ووصل (سنة ١٧٥) إلى إقريطية. وفى (سنة ١٨١) غزا الرشيد الصائفة بنفسه فتح عنوة حصن الصفصاف وغزا عبد الملك بن صالح فبلغ أنقرة.

ولم يزل عبد الملك يرى الثغور وحربها وهو قائم بذلك خير قيام حتى عزله الرشيد وحجبه بعد نكبة البرامكة (سنة ١٨٧) فولى بعده القاسم بن الرشيد وسكن منبجاً فغزا

الروم وأناخ على حصن قره وحاصرها ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الشعث فأناء على حصن سنان حتى جهدوا فبعثت الروم تبذل (٣٢٠ رجلاً) من أسارى المسلمين على أن يرحل عنهم فأجابهم إلى ذلك ورحل عن حصنى قره وسنان. وكان يملك الروم فى ذلك الوقت إيرينى وكانت فى أوائل أمرها تنوب عن ابنها قسطنطين السادس منذ (سنة ٧٨٠)، ثم استبدت بالملك (سنة ٧٩٠) فاتفقت مع الرشيد على الصلح والمهادنة مقابل جزية تقو، بدفعها له وذلك لما رآته من إلحاح المسلمين عليها بالحرب وعدم قدرتها على الدفاع لوقوعه بين المسلمين من جهة وبين شارلمان من جهة أخرى وكلتا الدولتين تناوئها العداوة، لأر شارلمان كان يريد توسيع سلطانه وإعادة دولة الرومان إلى بهجتها التى كانت لها فى القدم. وفى (سنة ٨٠٢) نهضت عليها عصابة رومية فخلعتها عن الملك وملكت مكانها نقفور فعقد معاهدة مع شارلمان عينت فيها تخوم المملكتين ثم كتب إلى الرشيد: من نقفور ملك الروا إلى هارون ملك العرب، أما بعد: فإن الملكة التى كانت قبلى أقمكت مقام الرخ وأقامت نفسها مكان البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابى فاردد ما حصل قبلك من أموالها واقتد نفسك بم يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك - فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يمكن أحد أن ينظر إليه دون أن يخاطبه وتفرق جلساؤه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكور منهم واستعجم الرأى على الوزير من أن يشير عليه أو يستبد برأيه دونه فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب: (بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام). ثم شخص من يوما وسار حتى أناخ بباب هرقله ففتح وغنم واصطفى وأقاد وخرّب وحرق واصطلم فطلب نقفور المودة على خراج يؤديه كل سنة فأجابه إلى ذلك، فلما رجع من غزوته وصار بالركة نقض نقفور العهد وخان الميثاق وكان البرد شديداً فيشس نقفور من رجعتة إليها وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه فما تهيأ لأحد إخبار الرشيد بذلك إشفاقاً عليه وعلو أنفسهم من الكرة فى مثل تلك الأيام فاحتيل بشاعر يكنى أبا محمد بن عبد الله بن يوسف فقال:

نقص الذى أعطيته نقفور	وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه	فتح أذاك به الإله كبير
فلقد تباشرت الرعية أن أتى	بالنقض عنه وافد وبشير
ورجت يمينك أن تعجل غزوة	تشفى النفوس مكانها مذكور

أعطاك جزيته وطأاً خده	حذر الصوارم والردى محذور
فأجرته من وقعها وكأنها	بأكفنا شعل الضرام تطير
وصرفت بالطول العساكر قافلاً	عنه وجارك آمن مسرور
نقفور إنك حين تغدر إن نأى	عنك الإمام لجاهل مفرور
أظننت حين غدرت أنك مفلت	هبلتك أمك ما ظننت غرور
ألقاك حينك في زواجر بحره	فطمت عليك من الإمام بحور
إن الإمام على اقتسارك قادر	قريت ديارك أم نأت بك دور
ليس الإمام وإن غفلنا غافلاً	عما يسوس بحزمه ويدير
ملك تجرد للجهاد بنفسه	فعدوه أبداً به مقهور
يا من يريد رضا الإله بسعيه	والله لا يخفى عليه ضمير
لا نصح ينفع من يغش إمامه	والنصح من نصحاته مشكور
نصح الإمام على الأنام فريضة	ولأهلها كفارة وطهور

فلما فرغ الشاعر من إنشاده قال: أو قد فعل نقفور ذلك وعلم أن الوزراء قد احتالوا له
مى ذلك فكر راجعاً فى أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائه فلم يبرح حتى رضى وبلغ
ما أراد فقال ابو العتاهية:

ألا نادى هرقله بالخراد	من الملك الموفق بالصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا	ويرقب بالذاكرة القضاء
ورايات يحل النصر فيها	تمر كأنها قطع السحاب
أمير المؤمنين ظفرت فاسلم	وأبشر بالغنيمة والإياب

ولم تقف الحروب بين الطرفين بعد ذلك، وفى (سنة ١٨٩) حصل فداء بين المسلمين
والروم، فلم يبق بأرض الروم مسلم إلا فودى به وهذا أول فداء كان بين المسلمين والروم،
قال مروان بن أبى حفصة بمدح الرشيد:

وفكت بك الأسرى التى شيدت لها محابس ما فيها حميم يزورها
على حين أعياء المسلمين فكأكها وقالوا سجون المشركين قبورها

وفى (سنة ١٩٠) غزا الرشيد الصائفة بنفسه ففتح هرقله وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم وكان دخلها فى (١٣٥ ألف) مرتزق سوى الأتباع وسوى المطوعة وسوى من لا ديوار له، وكان فتح الرشيد هرقله فى شوال فأضر بها وسبى أهلها بعد مقام ثلاثين يوماً عليه وولى حميد بن معيوف سواحل الشام إلى مصر فبلغ حميد قبرص فانتصر على أهلها.

ثم سار الرشيد إلى الطوانة فعسكر بها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر وأمره بابتناء منزل هنالك وبعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولى عهد وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار منها عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ابنه استيراق ديناران وكتب مع بطريقين من عظماء بطارقته فى جارية من سبى هرقله كتاباً نسخته - لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم: سلام عليك، أما بعد، أيها الملك إن لى إليك حاجة لا تضرك فى دينك ولا دنياك هينة يسيرة أن تهب لابنى جارية مرن بنات أهل هرقله كنت قد خطبتها على ابنى فإن رأيت أن تسعبنى بحاجتى فعلت والسلا عليك ورحمة الله وبركاته - واستهدها أيضاً طيباً وسرادقاً من سرادقاته، فأمر الرشيد بطلب الجارية فأحضرت وزينت وأجلست على سرير فى مضره الذى كان نازلاً فيه وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول نقفور، وبعث إليه بما سأل من العط وبعث إليه التمر والأخبصة والزبيب والترياق فسلم ذلك كله رسول الرشيد، فأعطاه نقفور وقر دراهم إسلامية على برذون كميته كان مبلغه خمسين ألف درهم ومائة ثوب ديبا ومائتى ثوب بزيون وائتى عشر بازياء وأربعة أكلب من كلاب الصيد وثلاثة براذين - وكأ نقفور اشترط ألا يخرب الرشيد حصن ذى الكلاع ولا صملة ولا سنان واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقله وعلى أن يحمل ثلثمائة ألف دينار.

وفى (سنة ١٩١) غزا الصائفة هرثمة بن أعين أحد كبار القواد وضم إليه ثلاثين ألفاً مرن أهل خراسان ومعه مسرور الخادم واليه فى النفقات وجميع الأمور ما خلا الرئاسة ومضى الرشيد إلى درب الحدث فرتب هنالك عبد الله بن مالك ورتب سعيد بن سلم بن قتب بمرعش فأغار الروم عليها وأصابوا من المسلمين وانصرفوا وسعيد مقيم بها وبعث محم بن مزيد إلى طرسوس - فأقام الرشيد بدرب الحدث ثلاثة أيام من شهر رمضان ثم انصرف إلى الرقة.

وعلى الجملة فإن قوة المسلمين كانت فى عهد الرشيد ظاهرة ظهوراً بيناً على الروم

كان يقوم به الرشيد بنفسه من الغزو المتوالى ومعه عظماء القواد وكبار رجال الدولة من عرب وموال وخراسانية.

العلاقة مع أوروبا،

كان في عهد الرشيد شارلمان بن بابن، وكان ملكاً على فرنسا واستولى على لمبارديا وقاد ضوائف السكسون التي كانت في جرمانيا إلى الدين العيسوى بعد أن كانت وثنية واستولى على ألمانيا وإيطاليا وكان يرغب أن يكون له اسم كبير في الديار الشرقية لتكون درجته فوق درجة نقفور ملك القسطنطينية وكان يرغب أن يكون حامياً للعيسويين في البلاد الإسلامية وخصوصاً زائرى القدس، فأرسل إلى بغداد سفراء يستجلبون رضا هارون الرشيد وكان شارلمان غرض من مصافاة الرشيد فوق ما تقدم وهو إضعاف الدولة الأموية بالاندلس ففاز سفير شارلمان برضا الرشيد فسر بذلك، لأنه عده فوزاً على نقفور، ولهذا لما قدم سفير الرشيد على شارلمان قابله بمزيد الإكرام، واستفاد شارلمان من ذلك التودد فالتدتين الأولى تمكنه من حرب الدولة الأموية بالاندلس وتدخله في مساعدة الخارجين عليها والثانية نبهه رضا الرشيد. وقد أراد أيضاً أن يغتنم غنيمة علمية فإن أوروبا في ذلك الوقت كانت مهد جهالة، لأنه بانقراض الرومانيين وغلبة الأمم المتبريرة على أوروبا انطفأ مصباح العلم، أما خال في البلاد الإسلامية، فكانت على العكس من ذلك علماً وعملاً سواء في ذلك بغداد بقرطبة، فسعى شارلمان في إصلاح قوانين دولته مقلداً هارون الرشيد وذهب إلى أوروبا طباء تعلموا في البلاد الإسلامية، وكانوا من اليهود فانتخب منهم شارلمان رجلاً يقال له إسحاق وأرسله على الرشيد مصحوباً ببعض الهدايا وبعد أربع سنين عاد إسحاق مع ثلاثة من رجال الرشيد ومعهم هدايا وهي ساعة وراغنون وفيل وبعض أقمشة نفيسة. فلما نظرها رجال شارلمان ظنوها من الأمور السحرية وأوقعتهم في حيرة وهموا بكسر الساعة فمنعهم لإمبراطور. وفي ذلك التاريخ اتفقوا على أمور تتعلق بحماية المسيحيين الذين يتوجهون لزيارة القدس.

أما علاقة بغداد بقرطبة فكانت شر علاقة إذ أن الرشيد كان ينظر إلى بنى أمية نظر خارجين على دولته، فكان يود محوهم ولكن القوم كانوا أكبر من ذلك، وأقوى، فقاوموا شارلمان مقاومة عظيمة ولم يتمكن أن يفعل بهم شراً.

حضارة بغداد في عهد الرشيد،

وصلت بغداد في عهد الرشيد إلى قمة مجدها ومنتهى فخارها.

أما من حيث العمارة، فقد فاقت كل حاضرة عرفت لعهدا؛ بنيت فيها القصور الفخمة التى أنفق على بناء بعضها مئات الألوف من الدنانير وتأنق مهندسوها فى إحكام قواعدها وتنظيم أمكنتها وتشيد بانيانها وصارت قصور الجانب الشرقى بالرفافة تناوح قصور الجانب الغربى. كان فى الشرق قصور البرامكة وما أنشأوه هناك من الأسواق والجوامع والحمامات وبالجانب الغربى قصور الخلافة التى كانت تبهر الناظرين اتساعاً وجمالاً وامتدت الأبنية امتداداً عظيماً حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الأربعين على جانبي دجلة واستبحر العمران فيها لما جاورها من الثنايا وصار سكانها نحو ألفى نسمة حتى ازدحمت بساكنيها وكانت متاجر البلدان القاصية تصلها براً وبحراً تحيئها من خراسان وما وراءها ومن الهند والصين ومن الشام والجزيرة والطرق إذ ذاك آمنة والسبل مطمئنة وكان الرشيد هو ووزراؤه حريصين على ذلك كل حرص.

وأما من حيث ثروة الدولة فقد كان يرد على الخليفة ببغداد ما يبقى من خراج الأقاليم الإسلامية بعد أن تقضى جميع حاجاتها وقدر بعض المؤرخين ذلك بنحو أربعمئة ألف ألف درهم يدخل كله بيت مال الخليفة يصرف منه فى مرتبات الوزراء المساعدين له والباقي يتصرف فيه حسبما يرى وهو شئ جسيم، وكان الرشيد أسمع خلفاء بنى العباس بالمال يعطى منه عطاء من لا يخشى فقراً للقصاد والشعراء والكتّاب والمتجعين وقد جرى على سننه كبار وزرائه وشيوخ دولته ورؤساء قواده حتى امتلأت الأسفار بذكر عطاياهم التى قد يتردد الإنسان فى صحتها وتلك الثروة العظيمة تتداولها الأيدى فتروج التجارة وتقضى الحاجات وتكثر المدنية وعلى تلك السنة زادت ثروة الناس بتلك المدينة العظمى واشتد بهم الترف حتى يقال إن جعفر بن يحيى بنى قصرأ أنفق على بنائه عشرين ألف ألف درهم وتغالى الناس فى حاجاتهم وتأنقوا فى معيشتهم حتى صارت بغداد تبهر أعين زوارها لما يرونه من بعد الشبه بين ما عندهم وما يرون من ثرائها وبذخ أهلها وانغماسهم فى الملاذ وإعطائهم أنفسهم ما تصبو إليه من اللهو والخلاعة شأن كل أمة سالت عليها سيول الثروة.

وأما العلم فإن بغداد صارت قبلة لطلاب العلم من جميع الأمصار الإسلامية يرحلون إليها ليتمموا ما بدأوا فيه من العلوم والفنون فهى المدرسة العليا لطلاب العلوم الدينية والعربية على اختلافها فقد كان كبار المحدثين والقراء والفقهاء وحفاظ اللغة وآداب العرب والنحويون وكلهم قائمون بالدرس والإفادة لتلاميذهم فى المساجد الجامعة التى كانت تعتبر مدارس عليا لتلقى هذه العلوم وقلما كان يتم لإنسان وصف عالم أو فقيه أو محدث أو كاتب إلا إذا رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها.

وجميع هؤلاء العلماء كانوا يعيشون عيشاً رغداً مما كان يفيضه عليهم الرشيد والبرامكة ومن دونهم من الخير الواسع والبر العميم.

ولم تكن بغداد بالمقصرة في علوم الدنيا كالطب والحكمة وغيرهما من سائر الصناعات فقد حشد إليها الأطباء والمهندسون وسائر الصناعات من الأقاليم المختلفة فاستفادوا العلوم من سبقهم من الأمم في المدنية كالفرس وأهل الهند وأهل الروم والصابئة وغيرهم، وزادوا على تلك العلوم بما منحوا من المواهب العقلية وسرّجىء الكلام على النهضة العلمية في بغداد إلى زمن المأمون.

أخلاق الرشيد:

كان الرشيد خليفة ديناً محافظاً على التكاليف الشرعية أتم محافظة، فأما صلاته فكان يصلى في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلا أن تعرض له علة. وكان له سمير فكه هو ابن أبي مريم المدني كان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته سمعه مرة يقرأ في صلاته ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس: ٢٢) فقال ابن أبي مريم: لا أدري والله فما تملك الرشيد أن ضحك في صلاته ثم التفت إليه وهو كالمغضب فقال: لا أدري أبي مريم في الصلاة أيضاً ثم قال: إياك والقرآن والدين لك ما شئت بعدهما.

وأما صدقته فقد كان كل يوم يتصدق من صلب ماله بألف درهم سوى العطايا التي كانت تهطل على الناس منه ولم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال ثم المأمون بعده.

وأما حجه فإنه كان لا يتخلف عنه إلا إذا كان مشغولاً بالغزو فهو في كل عام بين غاز وحاج وقد أقام للناس حجهم تسع مرات في سنى حكمه وهى السنوات ٧٠ و ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ٧٧ و ٨٠ و ٨١ و ٨٦ و ٨٨ بعد المائة وكان إذا حج حج معه من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج يحج عنه ثلثمائة رجل بالنفقة السابعة والكسوة الباهرة.

وكان يسمع وعظ الواعظين وهو عند ذلك رقيق القلب سريع الدمعة. دخل عليه ابن السماك الواعظ فقال له الرشيد: عظمى فقال: يا أمير المؤمنين، اتق الله وحده لا شريك له واعلم أنك غداً بين يدي الله ربك ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما جنة أو نار فبكى هارون حتى اخضلت لحيته فأقبل الفضل بن الربيع على ابن السماك فقال: سبحان الله وهل يتخلج أحداً شك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله لقيامه بحق الله وعدله في عباده وفضله - فلم يحفل بذلك ابن اسمك من قوله ولم يلتفت إليه وأقبل على الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين إن هذا (يعنى الفضل بن الربيع) ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم فاتق الله وانظر لنفسك - فبكى هارون حتى أشفق عليه الحاضرون وأفحم الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرف - ودخل عليه مرة أخرى فبينما هو عنده إذ

استسقى ماء فأتى بقلعة من ماء، فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها قال له ابن السماك: على رسلك يا أمير المؤمنين بقربابتك من رسول الله ﷺ لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشربها؟ - قال بنصف ملكي - قال: اشرب هناك الله - فلما شربها قال له: أسألك بقربابتك من رسول الله ﷺ لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشربها قال: بجميع ملكي قال ابن السماك: إن ملكاً قيمته شربة ماء لجدير ألا ينافس فيه فبكي هارون - ولا يزال الملوك بخير ما سمعوا الوعظ وتأثروا به ولا تزال الأمة بخير ما كان فيها من يعظ الملوك ولا يخشى سطوتهم.

وأما جهاد الرشيد، فإنه كان لا يترك الخروج مع جنده بل كان غالباً في مقدمتهم حتى لا يعتاد الراحة ولا يعقده الترف عن القيام بهذا الواجب حتى كان من ضمن مآثره أنه كان يغزو سنة ويحج أخرى قال مروان بن أبي حفصة:

وسدت بهارون الثغور وأحكمت	به من أمور المسلمين الموائر
وما انفك معقوداً بنصر لوائه	له عسكر عنه تشظى العساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية	على الرغم قسراً عن يد وهو صاغر
وكان لهارون قلنسوة مكتوب عليه غاز حاج فكان يلبسها فقال أبو المعالي الكلابي:	
فمن يطلب لقاءك أو يردّه	فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففى أرض العدو على طمر	وفى أرض الترفه فوق طور
وما حاز الثغور سواك خلق	من المتخلفين على الأمور

لذلك كانت الخلافة لعهد في أعلى درجات مهابتها واحترامها في الداخل والخارج، كان الرشيد يقتفى آثار المنصور ويعمل بها إلا في بذل المال وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه وكان يحب الشعر والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه ويكره المراء في الدين ويقول: هو شيء لا نتيجة له بالحرى لا يكون فيه ثواب وكان يحب المديح ولا سيما من شاعر فصيح ويشتريه بالثمن الغالى. وعطاياه للشعراء والأدباء تكاد تخرج عما يعقل.

والخلال التي كانت واضحة في أعماله الشجاعة وشدة الغضب ومعاقبة المسيء بلا شفقة ولا رحمة فكان يقود الجيش بنفسه إلى المواضع المخوفة حتى استقامت له البلاد وهابه كل خارج واثار وكان إذا بلغه عن أحد من رعيته ما يريه اشتد غضبه وزاد انفعاله حتى لا يكاد

حدد يقدر أن يكلمه وإذا وقع عدوه في يده لم يتأخر عن أشد عقوبة له وقلما كان يعفو . بهذا فضله ابنه المأمون كما سيجيء في تاريخه .

واشتهر أن الرشيد كان يشرب النبيذ الذي يرخص أهل العراق في شربه وكان يسمع لغناء ويشيب عليه أعظم ثواب ، ولذلك اشتهر في زمنه أعظم الموسيقيين والمغنيين ببغداد ممن - يأت بعده مثلهم كما يرى ذلك من اطلع على الكتاب الموسوم بالأغاني لأبي الفرج لأصبهاني .

ولا مراء أن الرشيد يعد من كبار الخلفاء ونوابغهم لولا كثرة وسواسه بالكائدين له ، فإن تلك أكثر الجاسوسية في عهده وصار المتقربون يتقربون إليه بما يتلقونه من أخبار السوء حتى - قد أعظم وزرائه وأحسنهم أثراً وأعلامهم كعباً واستبقى الفضل بن الربيع لأن أخباره ما كانت تنقطع عنه يوماً .

وفاة الرشيد:

خرج الرشيد من بغداد في خامس شعبان (سنة ١٩٢) قاصداً خراسان عندما بلغه ستفحال أمر رافع بن الليث بما وراء النهر واستخلف ابنه محمداً الأمين بمدينة السلام . وخرج معه ابنه عبد الله المأمون ولم يزل الرشيد في مسيره حتى وافى مدينة طوس في صفر (سنة ١٩٣) وهناك اشتدت به علته ولحق بربه ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة (سنة ١٩٣) وصلى عليه ابنه صالح ، لأن المأمون كان قد سبقه إلى مرو حاضرة خراسان . ودفن الرشيد بهذه المدينة .

وكان للرشيد اثنا عشر ولداً ذكراً وأربع بنات ، فذكور أولاده محمد الأمين من زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر وعلى من زوجته أمة العزيز أم ولد موسى الهادي - وعبد الله المأمون . ونقاسم والمؤمن ومحمد المعتصم وصالح ومحمد أبو عيسى ومحمد أبو يعقوب ومحمد أبو عباس ومحمد أبو سليمان ومحمد أبو علي ومحمد أبو أحمد وهم لأمهات أولاد شتى .

وتزوج الرشيد بست زوجات . مات عن أربع منهن وهن زبيدة وأم محمد بنت صالح سكين والعباسة بنت سليمان بن المنصور والجرشية بنت عبد الله العثمانية .

أثر جليل من عهد الرشيد

الخراج:

بين يدنا أثر من أجل الآثار التاريخية الاقتصادية للدولة الإسلامية في النصف الثاني من

القرن الثانى وهو كتاب الخراج للفقهاء أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصارى صاحب الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت (١١٣-١٨٢).

كان خليفة المسلمين فى هذا التاريخ خامس بنى العباس هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبى جعفر المنصور وكان قاضى قضاياه أبى يوسف وكان الرشيد خليفة يحب أن يسود العدل بين أمته، كما كان أبوه المهدي من قبله ويحب من جهة أخرى أن تنتظم جباية الخراج وغيره من موارد بيت مال المسلمين وأن يكون ذلك على النمط المشروع الذى سنّه رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون المهديون من بعده حتى لا يقع حيف على الرعية فيثقل الجور كاهلهم ويخرب عمرانهم وحتى يكون بيت المال قائماً بما يجب عليه من مصالح الأمة وحفظ ثغورها وتأمين طرقها فكتب إلى قاضيه الأكبر رسالة ضمنها أسئلة وطلب منه أن يجيب عنها فقام أبو يوسف بما طلب منه خير قيام وكتب جوابه عن تلك الأسئلة فى رسالة عظيمة الشأن، سميت بكتاب الخراج وهى التى جعلناها موضوع محاضرتنا هذه الليلة.

لم يكن أبو يوسف فى رسالته ذلك الفقيه الجاف الذى هو فى خيال الكثير منا يكتب جوابه مبتوراً منقولاً من مسطر سبق به أو ذلك المفتى الضعيف ينظر على غرض المستفتى فيجتهد أن تكون فتواه طبق رغبته بل كان ذلك العالم الناصح الذى سبر حال الأمة فعرف ما يصلحها وأدرك سر الدين الذى أوحى الله به إلى رسول الله ﷺ لإصلاح حال الأمة فجال فى ميدانه جولة الفارس العالم بشتى الطرق وأحاط علماً بتاريخ المسائل التى يفتى فيها. فبينما نراه واعظاً لا يخاف فى الله لومة لائم يصوغ من كلمات النصيح أشدها وقها وأقواها تأثيراً يوجهها إلى إمامه مع رعاية الأدب واللياقة وإذا هو مؤرخ يسرد تاريخ الأمور المالية وغيرها مما يتكلم فيه وكيف وضعها السلف الصالح وكيف كان غرضهم من ذلك وبينما أنت تستخرج منه لطائف التاريخ إذا بك تراه يستنبط الأحكام من تلك الوقائع مستناً بسنة أسلافه الطيبين الطاهرين ثم تراه قد سبر ما يفعله ولالة الخراج والجبايات وحواشيمهم من المظالم التى يرهقون بها الرعية ويضرون بها العمارة فينبه الإمام إلى مخازيهم ويرفع صوته طالباً إجراء العدالة فيهم ويشير على إمامه بما يجب عليه من رعاية تنفيذ الحق وبيان له كيف يفعل فى ذلك ليكون ناجياً بين يدى الله سبحانه وتعالى الذى جعله كفيلاً لحقوق الرعية.

هذا هو الكتاب الجليل الذى يعطى من قرأه صورة فى غاية الجمال والكمال لذلك الفقيه المتقدم.

وغرضنا التعرف بما انتظمه هذا فى الكتاب حتى يكون عندنا صورة من الجباية ونظامها

فى هذا العصر وإذا كان عندنا كلمة نقولها لإيضاح شىء مما قد يحتاج إلى الإيضاح نبهنا عليها.

انتظمت هذه الرسالة ثلاثة أمور:

الأول: بيان موارد الدولة على اختلافها حسبما جاءت به الشريعة ومصارف تلك لأموال.

الثانى: بيان الطريقة المثلى لجباية تلك الأموال.

الثالث: بيان بعض الواجبات التى يلزم بيت المال القيام بها مما أغفل بعض الولاة القيام به.

ونحن نتكلم فى ذلك متبعين هذا الترتيب وقد يخالف طريق ترتيب الكتاب لأن القصد تقريه إلى النفوس من أسهل الطرق.

موارد بيت المال:

يتبين من كتاب الخراج أن موارد بيت المال تنقسم بحسب ما يجب أن تصرف فيه إلى ثلاثة أقسام:

الأول: خمس الغنائم.

الثانى: الخراج.

الثالث: الصدقات.

الغنائم:

الغنيمة كل ما أصاب المسلمون من عساكر أهل الشرك وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع. وجعل منها أبو يوسف ما أصيب من المعادن من قليل أو كثير والركاز وهو نهب والفضة الذى خلقه الله فى الأرض يوم خلقت. والكنوز العادية التى تصاب فى غير ملك أحد وما أخرج من البحر من الحلى والعنبر كل ذلك حكمه واحد وهو أن للإمام خمسة. أما أربعة أخماسه الباقية فتكون حقاً للغنائمين فيما أصيب مع المحاربين وتكون حقاً لتواجد فيما عداها.

وقسم الإمام أربعة الأخماس على القائمين سواء فى ذلك أهل الديوان والمتطوعون

يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه وللراجل سهم، وخالف في ذلك شيخه أبا حنيفة رحمه الله حيث قال: للفارس سهمان وللراجل سهم. قال للرشد: فخذ بأى القولين رأيت واعمل بما ترى أنه أفضل وأخير للمسلمين فإن ذلك موسع عليك إن شاء الله ولست أرى أن تقسم للرجل أكثر من فرسين.

مصرف الخمس:

بين الله في كتابه مصرف الخمس في الآية من سورة الأنفال حيث يقول: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأنفال: ٤١). قال أبو يوسف: فكان ذلك الخمس يقسم في عهد رسول الله ﷺ للرسول سهم ولذو القربى سهم ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم ثم قسّمه أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم على ثلاثة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوى القربى وروى عن ابن عباس أنه قال: عرض علينا عمر ابن الخطاب أن نزوج من الخمس أيمناً ونقضى عن غارمنا فأبينا إلا أن يسلمه لنا وأبى علينا سلفه ومع أن ذلك كان رأى على بن أبى طالب رضى الله عنه فإنه قسّم الخمس كما قسّمه.

وذكر أبو يوسف أن الصحابة اتفقوا أن يجعلوا هذين السهمين سهم الرسول وسهم ذوى القربى فى الكراع والسلاح. وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه بعث بسهم الرسول وسهم ذوى القربى إلى بنى هاشم. قال وكان أبو حنيفة وأكثر فقهاً يرون أن يقسمه الخليفة على ما قسّمه أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم. وأقول: رأى الشافعى محمد بن إدريس المطلبى رحمة الله أن سهم الرسول يصرف فى مصالح المسلمين وسهم ذوى القربى يصرف لمن يتسبب إلى هاشم والمطلب ابني عبد مناف دون بنى أخويهم عبد شمس ونوفل ويسوى فى العطاء بين الأغنياء والفقراء لأن سبب الاستحقاق القرابة ويشترط فيه الرجال والنساء بالتسوية بين الذكر والأنثى كما قال المزنى وأبو ثور من أصحاب الشافعى ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ (النساء: ١١) كما قال غيرهما - ويقول الشافعى: قال أحمد: إلا أنه قال: إن ردّه صرف فى السلاح والكراع كفعل أبى بكر وعمر وعثمان.

الخراج:

المورد الثانى من موارد الخلافة الخراج وهو كلمة تجمع ثلاثة أشياء.

(١) وظيفة الأرض الخراجية .

(٢) جزية أهل الذمة .

(٣) ما يأخذه العاشر ممن يمر عليه من تجار أهل الذمة والمستأمنين من أهل الحرب .

وظيفة الأرض الخراجية:

لما غلب المسلمون على سواد العراق وعلى بلاد الجزيرة والشام فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه طلب إليه بعض ذوى رأى من الصحابة أن يقسم الأرض على الغنائم كما قسم ما أصابوه من سلاح ومتاع وأكثروا عليه فى ذلك فأبى عليهم مستنداً بنى كتاب الله تعالى الذى جعل هذا الفىء حقاً للمسلمين كافة الموجودين منهم والآتين بعدهم . ذكر ذلك فى سورة الحشر حيث قال : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُمُورِهِمْ يَتَنَفَّسُونَ فَضَلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوَفِّ شَيْئًا نَفْسَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (الحشر : ٨ - ١٠) .

فجعل هذا الفىء حقاً للمهاجرين والأنصار ولمن جاء بعدهم ومن أجل ذلك لم يرض عمر بقسمة الأرض بين الغنائم ، لأنه لو قسمها بينهم لم يبق لمن يأتى بعدهم شىء بل ترك لأرضين والأنهار بعمالها ليكون ذلك فى أعطيات الجنود وغير ذلك ، ومن هنا رأى أبو يوسف رحمه الله أن هذه الأرضين المفتوحة عنوة يخير فيها الإمام فإن شاء قسمها بين لغائمين الذين افتتحوها وإن لم ير قسمها ورأى الصلاح فى إقرارها فى يد أهلها كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى السواد ، فله ذلك وهى أرض خراج وليس له أن يأخذها بعد ذلك منهم وهى ملك لهم يتوارثونها ويتبايعون ويضع عليهم الخراج ولا يكلفون من ذلك ما لا يطيقون .

وإذا يكون حد أرض الخراج - كل أرض من أرض الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة هم يقسمها الإمام وأبقاها بأيدي أهلها أو صالحهم عليها وصيرهم ذمة .

ويخرج من ذلك أنواع من الأراضي لا يوضع عليه الخراج وإنما تكون أرضاً عشرية وهى :

(١) كل أرض للعرب غير بنى تغلب.

(٢) كل أرض من أرض الأعاجم أسلم عليها طوعاً.

(٣) كل أرض من أرض الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فقسمها الإمام بين الغائبين. وسنين حكم كل نوع بعد الكلام على أرض الخراج.

ما فعله عمر في أرض الخراج:

لما اتضح لعمر رأيه في الأرض المغنومة أرسل من قبله من يمسح أرض السواد فبلغت (٠,٠٠٠, ٢٦ جريب) فوظف عليها الخراج مقادير معينة من الدراهم وأطعمه حسبما رأى المندوبان اللذان أرسلهما لذلك، وهذه الوظيفة تختلف من درهمين لعشرة دراهم على الجريب فأقلها وظيفة جريب الشعير عليه درهمان وأكثرها وظيفة جريب الكرم والنخل عليه عشرة دراهم في رواية وثمانية في أخرى، وبين ذلك جريب الخضر عليه ثلاثة دراهم وجريب الحنطة أربعة دراهم أو درهم وفقير وجريب الرطبة والسمسم والقطن خمسة دراهم وجريب القصب ستة دراهم. قال: إن جباية السواد بلغت قبل وفاة عمر بعام (٠,٠٠٠, ١٠٠ درهم).

أقول وإذا كانت المساحة كما قدمنا والجباية ما ذكرنا يكون متوسط جباية الجريب (٢,٧٥ درهم) وهذا بالضرورة غير قفزان القمح التي كانت تؤخذ على أجربة الحنطة، لأن هذا المتوسط بدونها لا يصلح إلا إذا كان معظم الأرض يزرع شعيراً وهو بعيد. وقال ابن خردادبه: إن عمر جبا العراق (٠,٠٠٠, ١٢٨ درهم) فيكون متوسط جباية الجريب (٣,٥٥ درهم) وهو أقرب من المفهوم، ولا بد أنه لم يعتبر في ذلك أجربة القمح والجريب اسم لستين ذراعاً في ستين بذراع الملك وهي (٥٧,٧٧) وبالتكسير تكون مساحة الجريب (١٢٠٠م) فكل ثلاثة أجربة ونصف فدان مصرى. ولا بد أن ننبه هنا على ما رأيناه في كتاب صاحب السعادة الفضال يعقوب أرتين باشا الموسوم بالأحكام المرعية في الأراضي المصرية، فإنه روى عن قدامة أن الجريب اسم لستين ذراعاً في ستين بذراع الملك وظن أن ذراع الملك هي الذراع السوداء فوق في الخطأ الحسابي الذي أنتج له أن كل أربعة أجربة و(٥/٤ جريب) تعادل فداناً مصرياً مع أن هناك اختلافاً بين الذراعين كما ذكره الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية حيث قال: إن ذراع الملك تزيد على الذراع السوداء بخمسة أصابع وثلاثي إصبع فتكون ذراعاً وثماناً وعشراً أى ذراعاً و(٩/٤٠)، وحقق العلامة المرحوم على مبارك باشا أن النسبة بين الذراعين هي (٥/٤) فتكون ذراع الملك ذراعاً وربعاً بالسواد. وقد

نح له هذا من تقدير المتقدمين لضلع قاعدة الهرم الأكبر بأربعمئة ذراع بذراع التجار (٥٠٠) بالذراع السواد وبقسمة أمتار قاعدة الهرم على (٤٠٠, ٥٠٠) يخرج هذان الرقمان (٧٥, ٧٥س) وهو طول ذراع الملك و (٤٦, ٢س) وهو طول الذراع السواد.

وإذا كان كل (٣, ٥) جريب فداناً تكون ضريبة الفدان المزروعة قمحاً (١٤ درهماً) هذا هو الخراج الموظف الذى رآه عمر.

لم ير أبو يوسف رحمه الله ما قرره عمر رضى الله عنه فى أمر الخراج حيث جعله وظيفة محدودة أمراً لازماً لمن يأتى بعده بل يجوز للخلفاء إذا رأوا مصلحة جمهور الزارعين فى المقاسمة أن يعدلوا إليها وقد ناظر أبو يوسف أهل العلم بالخراج فى هذا الأمر، فرأى أن تحديد الخراج بكيل مسمى أو دراهم مسماة فيه ضرر على بيت المال وعلى أهل الخراج. أما وظيفة الطعام فإن كان رخيصاً رخصاً فاحشاً لم يكف السلطان بالذى وظف عليهم ولم يجب نفساً بالخط عنهم ولم يقو بذلك الجنود ولم تشجن به الثغور - وإن كان غلاء فاحشاً لا يطيب السلطان نفساً بترك ما يستفضل أهل الخراج من ذلك والرخص والغلاء بيد الله لا يقومان على أمر واحد، وكذلك وظيفة الدراهم. ثم قال: وأما ما يدخل على أهل الخراج فيما بينهم فهو التظالم وغلبة القوى على الضعيف ثم قال - ولم أجد شيئاً أوفر على بيت مال ولا أعفى لأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض ولا أعفى لهم من عذاب ولاتهم وعمالهم من مقاسمة عادلة خفيفة فيها للسلطان رضا ولأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض راحة وفضل، وقد رأى أن يقاسم من عمل الخنطة والشعير من أهل السواد جميعاً على خمسين للشيخ منه، وأما الدوالى فعلى خمس ونصف، وأما النخل والرطب والكرم والبساتين فعلى الثلث، وأما غلال الصيف على الربع ولا يؤخذ بالحرص فى شيء من ذلك ولا يحرز عليهم شيء منه يباع من التجار ثم تكون المقاسمات فى أثمان ذلك أو يقوم ذلك قيمة عادلة لا يكون فيها حمل على أهل خراج ولا يكون على السلطان ضرر. ثم يؤخذ منهم ما يلزمهم من ذلك أى ذلك كان تخف على أهل الخراج فعل ذلك بهم. وإن كان البيع وقسمة الثمن بينهم وبين السلطان تخف فعل ذلك بهم. ومن رأى أبى يوسف إعفاء ما دون خمسة أوسق من الخراج وهى (٣٠٠ صاع) أو (١٦٠٠ رطل)، وخالف فى ذلك شيخه أبا حنيفة رحمه الله.

وقد أشار أبو يوسف بأن يكون حصاد الطعام ودياسه من الوسط ولا يحبس الطعام بعد حصاد إلا بقدر ما يمكن الدياس فإذا أمكن الدياس رفع على البيادر ولا يترك بعد إمكانه لندياس يوماً واحداً لئلا تذهب به الأكرة والمارة والطير والدواب فيضر ذلك بالخراج. وإذا

رفع إلى البيادر وصير أكداًساً أخذ في دياسه ولا يحبس الطعام إذ صار في البيادر الشهر والشهرين والثلاثة لا يداس فإن في حبسه في البيادر ضرراً على السلطان وعلى أهل الخراج، وبذلك تتأخر العمارة والحراث ولا يحرص عليهم ما في البيادر ولا يحزر عليهم حزرًا ثم يؤخذون بنقائص الحزر، فإن هذا هلاك لأهل الخراج وخراب للبلاد وإذا ديس الطعام وذرى قاسمهم.

ثم قال: ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل ولا أجر مدى ولا احتفان ولا نزلة ولا حمولة طعام السلطان ولا يؤخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس ولا أجور الفيوج ولا أجور الكياليين ولا مؤنة لأحد عليهم في شيء من ذلك ولا قسمة ولا نائبة سوى الذى وصفنا من المقاسمة ولا يأخذون بثمان الأتبان ويقاسمون الأتبان على مقاسمة الخنطة والشعير كيلاً أو تباع فيقسم ثمنها على ما وصفت من القطيعة في المقاسمة ولا يؤخذ منهم ما قد يسمونه رواجاً لدرهم يؤدونها في الخراج فإنه بلغنى أن الرجل منهم يأتى بالدرهم ليؤديها في الخراج فيقطع منها طائفة ويقال هذا رواجها وصرفها ولا يضرب رجل في درهم خراج ولا يقام على رجله فإنه بلغنى أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة وهذا عظيم عند الله وشنيع في الإسلام.

من أجل ذلك ترى أن أبا يوسف رحمه الله دقق كثيراً في أمر من يولى جباية الخراج فأشار على إمامه أن يكون والى ذلك فقيهاً عالماً مشاوراً لأهل الرأى عفيفاً لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخاف في الله لومة لائم ما حفظ من حق وأدى من أمانة احتسب به الجنة. وما عمل به من غير ذلك خاف عقوبة الله فيما بعد الموت تجوز شهادته إن شهد ولا يخاف منه جور في حكم إن حكم. ثم قال: إني قد أراهم لا يحتاطون فيمن يولون الخراج إذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياماً ولاه رقاب المسلمين وجباية خراجهم، ولعله لا يكون عارفاً بسلامة ناحية ولا عفاف ولا باستقامة طريقة ولا بغير ذلك ثم قال: وتقدم إلى من وليت أن لا يكون عسوفاً لأهل عمله ولا محتقراً لهم ولا مستخفاً بهم لكن يلبس لهم جلباباً من اللين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء من غير أن يظلموا ويحملوا ما لا يجب عليهم، واللين للمسلم والغلظة على الفاجر والعدل على أهل الذمة وإنصاف المظلوم والشدة على الظالم والعفو عن الناس: قال. وإنى لأرجو إن أمرت بذلك وعلم الله من قلبك إثباتك ذلك على غيره ثم بدل منه مبدل أو خالف منه مخالف أن يأخذه الله دونك وأن يكتب لك أجرك وما نويت إن شاء الله. لتصير مع الوالى الذى وليته قوماً من الجند من أهل الديوان في أعناقهم بيعة على النصح لك، فإن من نصحك أن لا تظلم رعييتك وتأمر بإجراء أرزاقهم عليهم من ديوانهم شهراً بشهر، ولا تجرى عليهم من الخراج درهماً فيما سواه.

ثم تكلم بعد ذلك فيما بلغه أنه يحصل من الولاة وحواشيهم من ظلم الناس وعسفهم وأخذهم فوق مالهم ونبه عليه وطلب منه أن يحسم ذلك كله سداً لضرر أهل الخراج ونقص الفىء.

ورأى مع هذا كله أن يبعث الإمام قوماً من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال، وما عملوا به الخراج وكيف جبهه على ما أمروا به وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقر فإذا ثبت ذلك عندك وصح أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤديه بعد العقوبة الموجهة والسنكال حتى لا يتعدوا ما أمروا به وما عهد إليهم فيه فإن كل ما عمل به والى الخراج من الظلم والعنف فإنما يحمل على أنه قد أمر بغيره وإن أحللت بواحد منهم العقوبة الموجهة انتهى غيره واتقى وخاف وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجترأوا على ظلمهم وتعسفهم وأخذهم بما لا يجب عليهم وإذا صح عندك من العامل والوالى تعدّ بظلم وعسف وخيانة لك فى رعيتك واحتجاز شىء من الفىء أو خبث طعمته أو سوء سيرته فحرام عليك استعماله والاستعانة به وأن تقلده شيئاً من أمور رعيتك أو تشركه فى شىء من أمرك.

تقبل الأرض؛

كان النظام المتبع فى جباية الخراج التقبل وهو جعل شخص من الأشخاص قبيلاً أى كقبلاً بتحصيل الخراج وأخذة لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه. وكان الناس يتزايدون فيما يتقبلون به الأرض فيستفيد السلطان تعجيل المال. ويستفيد المتقبل الفضل بين ما دفعه وما حصله وقد كره أبو يرسف هذا النظام، فقال للرشيد: ورأيت ألا تقبل شيئاً من السواد ولا غير السواد من البلاد، فإن المتقبل إذا كان فى قبالة فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم ما لا يجب عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما يدخل فيه وفى ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية و المتقبل لا يبالي بهلاكهم بصلاح أمره فى قبالة ولعله يستفضل بعدما يتقبل به فضلاً كثيراً وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد وإقامته لهم فى الشمس وتعليق الحجارة فى الأعناق وعذاب عظيم ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد الذى نهى الله عنه إنما أمر الله عز وجل أن يؤخذ منهم العفو وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقتهم. وإنما أكره القبالة لأننى لا آمن أن يحمل هذا المتقبل على أهل الخراج ما ليس يجب عليهم فيعاملهم بما وصفت لك فيضر ذلك بهم فيخربوا ما عمروا ويدعوه فينكسر الخراج وليس يبقى على الفساد شىء ولن يقع مع الصلاح شىء إن الله قد نهى عن الفساد فى الأرض فقال: ﴿وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ

إِصْلَاحَهَا ﴿ (الأعراف: ٥٦). وقال ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ (البقرة: ٢٠٥) وإنما هلك من هلك من الأمم بحبسهم الحق حتى يشتري منهم وأظهارهم الظلم حتى يفندى منهم. والحمل على أهل الخراج ما ليس بواجب عليهم من الظلم الظاهر الذى لا يحل ولا يصح - واختار أبو يوسف التقبل إذا طلبه أهل القرية أو المصر وقالوا: وهو أخف علينا بشرط أن يوظف على المتقبل رقيب أمين رزقه من بيت المال حتى يمنع من ظلم إن أراده والإعذار إلى المتقبل والوالى برفع الظلم عن الرعية والوعيد له إن حملهم ما لا طاقة لهم به أو بما ليس بواجب عليهم فإن فعل فأوفوا له بما أوعد به ليكون ذلك زاجراً له وناهياً لغيره أن شاء الله.

القطائع:

القطائع جمع قطيعة وهى ما يمنحه الإمام من الأرض لبعض المتأزنين بفعالهم من الرعية.

قال أبو يوسف رحمه الله: إن عمر رضى الله عنه بعد أن فتح العراق اصطفى من أرضه كل ما كان لكسرى ومرازبته وأهل بيته مما لم يكن فى يد أحد أو لرجل قتل فى الحرب. أو لحق بأرض الحرب وكانت مساحة ما اصطفاها من هذه الأرض (٠٠٠, ٠٠٠, ٤ جريب) فكان عمر يقطع هذه لمن أقطع، قال أبو يوسف: وذلك بمنزلة المال الذى لم يكن لأحد ولا فى يد وارث، فللإمام العادل أن يجيز منه ويعطى من كان له غناء فى الإسلام ويضع ذلك موضعه ولا يحابى به فكذلك هذه الأرض. ثم قال: فأما من أخذ واحداً وأقطع آخر فهذا بمنزلة المال غصبه واحد من واحد وأعطى واحداً.

والإمام مخير فى هذه الأرض بين أن يجعلها عشرية أو خراجية إن كانت تسقى من أنهار الخراج. قال أبو يوسف: وكل من أقطعه الولاة المهديون أرضاً من أرض السواد وأرض العرب والجبال من الأصناف التى ذكرنا أن الإمام يقطع منها فلا يحل لمن يأتى بعدهم من الخلفاء أن يرد ذلك ولا يخرج من يده من هو فى يده وارثاً أو مشترياً. فأما ما أخذ الولاة من يد واحد أرضاً وأقطعها آخر فهذا بمنزلة الغاصب غصب واحداً وأعطى آخر، فلا يحل للإمام ولا يسهه أن يقطع أحداً من الناس حق مسلم ولا معاهد ولا يخرج من يده من ذلك شيئاً إلا بحق يجب له عليه فيأخذه بذلك الذى وجب عليه فيقطعه من أحب من الناس فذلك جائز له والأرض عندى بمنزلة المال فللإمام أن يجيز من بيت المال من كان له غناء فى الإسلام ومن يقوى على العدو ويعمل فى ذلك بالذى يرى أنه خير للمسلمين، وأصلح لأمرهم وكذلك الأرضون يقطع منها الإمام من أحب من الأصناف التى سميت ولا أرى أن يترك أرضاً لا ملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الإمام، فإن

تلك أعمر للبلاد وأكثر للخراج. فهذا حد الإقطاع عندى على ما أخبرتك. ومن رأى أبى يوسف أن أرض الإقطاع تجعل عشيرة لما يلزم صاحب الإقطاع من المؤنة فى حفر الأنهار وبناء البيوت وعمل الأرض.

ومن أجل ذلك يكون وارده لبيت مال الصدقات الآتى ذكره.

موات الأرض،

قال أبو يوسف: لو أن بلاداً فتحت عنوة أو صلحاً وفى بعض قراها أرض كثيرة لا يرى عليها أثر زراعة ولا بناء لأحد وليست مرافق لقرية من القرى فهى موات، فمن أحياها فهى نه وللإمام أن يقطع ذلك من أحب وله أن يؤجره ويعمل بما فيه الصلاح، وقد خالف شيخه أبا حنيفة رحمه الله فى إحياء الموات فإن الإمام يقول: لا يملك المحيى ما أحيا إلا بإذن الإمام، قال أبو يوسف: وإنما قال ذلك أبو حنيفة كيلا يتنازع الناس.

وإذا كانت الأرض الموات فى أرض العشر أدى عنها العشر وإن كانت فى أرض الخراج أدى عنها الخراج، وإن احتفر لها بئراً أو استنبط لها قناة كانت أرض عشر، أما إن ساق إليها ماء الخراج فهى أرض خراج.

قال أبو يوسف: وأما قوم من أرض الحرب بادوا وبقيت أرضهم معطلة ولا يعرف لأحد عليها يد ولا دعوى فأخذها رجل وأحياها وأدى عنها العشر أو الخراج فهى له، وليس للإمام أن يخرجها من يده.

وجعل من الأرض الموات ما ينكشف من الجزر فى دجلة والفرات إذا كان لرجل جزيرة أو أرض تلاصقها فحصنها من الماء وزرع فيها، فهى له بشرط ألا يضر ذلك بأحد ولا بسير السفن، وكذلك ما عولج من البطائح بضرب المصبات عليها وقطع ما فيها من القصب، وكذلك ما عولج من الآجام - كل ذلك مشروط ألا يكون للأرض مالك أو ذو يد أو مرتفق، فإن المحافظة على حقوق انتفاع الجمهور مما أكد فيه أبو يوسف، حتى منع من إنشاء الغروب فى دجلة إذا كان ذلك بموضع يضر بسير السفن التى تمر فى دجلة ومن فعل من ذلك شيئاً فغطبت به سفينة فهو ضامن، قال أبو يوسف: ولا يترك الإمام شيئاً من ذلك إلا أمر به فهدم ونحى فإن فى هذا ضرراً عظيماً فالفرات ودجلة إنما هما بمنزلة طريق المسلمين ليس لأحد أن يحدث فيه شيئاً، فمن أحدث فيه شيئاً فغطب بذلك عاطب ضمن وقد أرى أن يوكل بذلك رجلاً ثقة أميناً حتى يتبع ذلك ولا يدع من هذه الغروب شيئاً فى دجلة والفرات فى موضع يضر بالسفن ويتخوف عليها منه إلا نحاها وتوعد أهله على إعادة شئ منه فإن فى ذلك أجراً عظيماً. وتكلم طويلاً فى المياه على اختلاف أنواعها وحقوق الجمهور فيها.

المورد الثانى من موارد الخراج جزية أهل الذمة،

وضع المسلمون بعد غلبتهم على غير البلاد العربية الجزية على الرؤوس وهذه الجزية يقابلها من المسلمين الحماية ودفع العدو عنهم. وذلك أنهم لم يكونوا يدخلون مع المسلمين فى حروبهم وقد رأيت من السنن العمريّة أن من استعين به من غير الملة لا يدفع جزية. روى الطبرى فى حوادث (سنة ٢٢) من الهجرة أن عبد الرحمن بن ربيعة أحد قواد عمر لما توجه من أذربيجان لفتح الباب أتاه ملكه شهريراز فقال له: إني بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة لا ينسبون إلى أحساب وليس ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الأحساب والأصول وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان ولست من القبيح فى شيء ولا من الأرمن وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم وصفوى معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا إليكم النصر لكم والقيام بما نحبون فلا تذللونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم. فقال عبد الرحمن فوقى رجل فسر إليه فجوزته فسار إلى سراقه بن عمرو فلقية بمثل ذلك فقال سراقه: قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء إلا أن يستغفروا فتوضع عنهم جزية تلك السنة وكتب سراقه إلى عمر بن الخطاب بذلك فأجازه وحسنه وكتب لهم سراقه بذلك كتاباً:

فهذا مما يستأنس به على فكرة المسلمين إذ ذاك فى أمر الجزية: قال أبو يوسف: إن الجزية واجبة على جميع أهل الذمة، ما خلا نصارى تغلب وأهل نجران خاصة والذي يجب عليه الجزية منهم الرجال دون النساء والصبيان ولا تؤخذ من مسكين ولا من أعجمى لا حرقة له ولا عمل ولا من مقعد لا مال له ولا من راهب ولا من شيخ كبير لا يستطيع العمل ولا مال له: وليس فى مواشى أهل الذمة من الإبل والبقر والغنم زكاة.

وقد قدر أبو يوسف الجزية ثلاث فئات (٥٨ درهماً) على الموسرين و (٢٤) على المتوسطين و (١٢) على العمال.

ثم قال أبو يوسف: وينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم.

أما نصارى بنى تغلب فتؤخذ منهم صدقة المسلمين مضاعفة. هكذا فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وقد تكلم أبو يوسف على ما منح لأهل الذمة من الامتيازات في دينهم وكنائسهم ويعهم فقال إنه كان قد جرى الصلح بين المسلمين وأهل الذمة في أداء الجزية على ألا تهدم يعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها وعلى أن يحقنوا لهم دماءهم وعلى أن يقاتلوا من ناوأهم من عدوهم وعلى أن يخرجوا بالصلبان في أعيادهم وعلى أن يذبوا عنهم فأدوا خزية على هذا الشرط وجرى الصلح بينهم على ألا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة فافتتحت الشام والحيرة إلا أقلها على هذا، فلهذا تركت البيع والكنائس ولم تهدم. ثم اقتصر تاريخ إعطاء القواد لأهل الذمة في الأقاليم المختلفة من هذه الشروط وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه) (أخرجه الطبري) وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند وفاته أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم.

ظهور الثالث من موارد الخراج العشور:

لم تكن العشور من الموارد التي ذكرها القرآن الكريم ولكنها حدثت في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسبب ذلك أن أبا موسى الأشعري كتب إليه: إن تجاراً من قبلنا من مسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب إليه عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل أربعين نرهماً وليس فيما دون المائتين شيء، فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم، وما زاد بحسابه. وروى أن أهل منبج قوم من أهل الحرب وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول الله ﷺ في ذلك فأشاروا عليه به فكانوا أول من عسر من أهل الحرب. وبعث زياد بن حدير الأسدي عن عشور العراق والشام. فصار ذلك سنة في المرور بأموال التجارة خاصة وما يرد منها من أهل الحرب وأهل الذمة سبيله سبيل الخراج، أما ما يرد من المسلمين فسبيل صدقات ولذلك فإذا قال المسلم قد أدبت زكاة هذا المال الذي في يدي صدق في يمينه.

قال أبو يوسف: رأيت أن تولى العشور قوماً من أهل الصلاح والدين وتأمرهم ألا يعدوا على الناس فيما يعاملونهم به فلا يظلمونهم ولا يأخذون منهم أكثر مما يجب عليهم وإن يمثلوا ما رسمناه لهم ثم تتفقد بعد أمرهم وما يعاملون به من يمر عليهم وهل يجاوزون ما قد أمروا به، فإن كانوا قد فعلوا ذلك عزلت وعاقبت وأخذتهم بما يصح عندك عليهم ظلوم أو مأخوذ منه أكثر مما يجب عليه وإن كانوا قد انتهوا إلى ما أمروا به وتجنبوا ظلم مسلم والمعاهد أثبتهم على ذلك وأحسن إليهم، فإنك متى أثبت على حسن السيرة

والأمانة وعاقبت على الظلم والتعدى بما تأمره به فى الرعية يزيد المحسن فى إحسانه ونصحه وارتدع الظالم عن معاودة الظلم والتعدى وأمرتهم أن يضيفوا الأموال بعضها إلى بعض بالقيمة.

مصاريف بيت مال الخراج:

الخراج الذى يتكون مما ذكرنا من هذه الموارد الثلاث هو دعامة مالية الدولة ومصرفه المصالح العامة، لأنه حق للجمهور كله وهذه المصالح بحسب ما يرى الإمام وقد ذكر أبو يوسف بعضها لورودها فى أسئلة الخليفة وهى:

أولاً - أرزاق القضاة والولاة والعمال:

قال أبو يوسف: فيجرى على والى كل مدينة وقاضيتها بقدر ما يحتمل وكل رجل تصيره فى عمل المسلمين فأجر عليه من بيت مالهم ولا تجر على الولاة والقضاة من مال الصدقة شيئاً إلا والى الصدقة فإنه يجرى عليه منها، فأما الزيادة فى أرزاق القضاة والعمال والولاة والنقصان مما يجرى عليهم فذلك إليك، ومن رأيت أن تزيد منهم فى رزقه زدت ومن رأيت أن تحط من رزقه حططت؛ أرجو أن يكون ذلك موسعاً عليك وكل ما رأيت أن الله تعالى يصلح به أمر الرعية فافعله ولا تؤخره فإنى أرجو لك بذلك أعظم الأجر وأفضل الثواب.

وقد سأل الرشيد عن رأيه فيما يجرى على القاضى إذا صارت إليه ميراث من موارث الخلفاء وبنى هاشم من الذى يصير إليه ويوكل من قبله من يقوم بضياعهم ومالهم فأجاب سلباً وقال: إنما يعطى القاضى رزقه من بيت المال ليكون قيماً للفقير والغنى والصغير والكبير ولا يأخذ من مال الشريف ولا الوضيع إذا صارت إليه موارثته رزقاً ولم تزل الخلفاء تجرى للقضاة الأرزاق من بيت مال المسلمين فأما من يوكل بالقيام بتلك الموارث فى حفظها والقيام بها فيجرى عليهم من الرزق بقدر ما يحتمل ما هم فيه فلا يجحف بمال الوارث فيذهب به ويأكله الوكلاء والأمناء ويبقى الوارث هالكاً وما أظن كثيراً من القضاة والله أعلم بيالى بما صنع وكيف عمل ولا يبالى أكثر من معهم أن يفقروا اليتيم ويهلكوا الوارث إلا من وفقه الله تعالى منهم.

ثانياً - أعطيات الجنود وهى مرتبات العسكر:

ولم يكن فى حياة النبى صلى الله عليه وآله وسلم مرتبات معينة للجنود الذين كانوا

يَتَقَوْنَ من جميع أفراد المسلمين، وإنما كانوا يأخذون مالهم في أربعة أخماس ما يغنمون
 ويحيا يرد من خراج الأراضى التى أبقيت فى أيدي أهلها كأرض خيبر، ولما ولى أبو بكر
 رضى الله عنه أعطى الناس وسوى بينهم فى العطاء قائلاً: هذا معاش فالأسوة فيه خير من
 لائمة، فلما ولى عمر رضى الله عنه رأى فى ذلك غير رأى أبى بكر وقسم العطاء مفضلاً
 لاسبق فالأسبق وهذا قوله بنصه: والله الذى لا إله إلا هو ما أحد إلا وله فى هذا المال
 حق أعطيه أو منعه وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك وما أنا فيه إلا كأحدهم ولكننا
 عسى منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل وتلاده فى
 الإسلام والرجل وقدمه فى الإسلام والرجل وغناؤه فى الإسلام والرجل وحاجته فى
 الإسلام. بناء على هذه القواعد فرض العطاء فكانت المرتبات كما يأتى:

١٢٠٠٠ درهم لأزواج النبى ﷺ ولعمه العباس.

٥٠٠٠ درهم لمن شهد بدرأ من المهاجرين والأنصار وألحق بهم الحسن والحسين.

٤٠٠٠ درهم لمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر ولم يشهد وألحق بهم أسامة بن زيد.

٣٠٠٠ لعبد الله بن عمر ولبعض أبناء المهاجرين والأنصار كعمر بن أبى سلمة.

٢٠٠٠ لأبناء المهاجرين والأنصار.

٨٠٠ لأهل مكة.

٤٠٠ و ٣٠٠ لسائر الناس.

٦٠٠ و ٤٠٠ و ٣٠٠ و ٢٠٠ لنساء المهاجرين والأنصار.

وكان يفرض لأمرأ الجيوش والقرى فى العطاء ما بين (٩٠٠٠) و (٨٠٠٠) و (٧٠٠٠)
 عسى قدر ما يصلحهم من الطعام وما يقومون به من الأمور وكان للمنقوس إذا طرحته أمه
 ١٠١ دراهم) فإذا ترعرع بلغ به (٢٠٠) فإذا بلغ زاده.

وكان للعطاء ديوان تسجل فيه أسماء المرتزقين ويقبضون عطاءهم على رأس السنة حسبما
 هو وارد فيه والذى أوجد هذا الديوان هو عمر بن الخطاب، رضى الله عنه.

ولما كثر الناس عن الحاجة واضطرتهم المدنية إلى أن يشتغل كثير من الأمة بغير الجهاد من
 نصائح اقتصر الديوان على ما تقوم به حاجة الأمة من الجيش، وكان بعض من ليس
 مرتزقاً فى الديوان يدعوه حبه للجهاد أن يذهب مع الجيش فلا يمنع ويسمون هذا متطوعاً،
 يكتنوا كثيرين يلزمون الثغور ويخرجون مع الجيوش.

ثالثاً - كرى الأنهار وإصلاح مجاريها:

وقال أبو يوسف رحمه الله: وإذا احتاج أهل السواد إلى كرى أنهارهم العظام التي تأخذ من دجلة والفرات كسريت لهم، وكانت النفقة من بيت المال، ومن أهل الخراج ولا يحمل ذلك كله على أهل الخراج.

وأما الأنهار التي يجرونها إلى أرضهم ومزارعهم وكرومهم ورطابهم وبساتينهم ومباقلهم، وما أشبه ذلك فكريها عليهم خاصة ليس على بيت المال من ذلك شيء.

وأما البثوق والمسنيات والبريدات التي تكون في دجلة والفرات وغيرها من الأنهار العظام، فإن النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحمل على أهل الخراج من ذلك شيء، لأن مصلحة هذا على الإمام خاصة لأنه أمر عام لجميع المسلمين فالنفقة عليه من بيت المال، لأن عطب الأرضين من هذا وشبهه وإنما يدخل الضرر من ذلك على الخراج ولا يولى النفقة على ذلك إلا رجل يخاف الله، يعمل في ذلك بما يجب عليه لله، قد عرفت أمانته وحمدت مذهبه ولا تول من يخونك ويعمل في ذلك بما لا يحل ولا يسعه أن يأخذ المال من بيت المال لنفسه ومن معه أو يضيع المواضع المخوفة ويهملها ولا يعمل عليها شيئاً يحكمها به حتى تنفجر فتغرق ما للناس من الغلات وتخرب منازلهم وقراهم، ثم وجه من يتعرف ما يعمل به واليك في هذه المواضع المخوفة منها وما يمسك من العمل عليها بما قد يحتاج إلى العمل وما تنفجر وما السبب في انفجاره ثم عامله حسبما يأتيك الخبر عنه من حمد لأمره أو ذم وإنكار وتأديب.

رابعاً - حفر الترع بعد التثبيت من نفعها بواسطة من لهم بصيرة ومعرفة. فإذا تبين الإمام ذلك أمر بحفر تلك الترع وجعل النفقة من بيت المال ولا يحمل النفقة على أهل البلد فإنهم إن يعمرُوا خير من أن يخربُوا وإن يعزُوا خير من أن يذهب مالهم ويعجزُوا.

خامساً - الإجراء على المسجونين.

قال جواباً لسؤال للرشد عنهم لابد لمن كان في مثل حالهم إذا لم يكن له شيء يأكل منه لا مال ولا وجه شيء يقيم به بدنه أن يجرى عليه من الصدقة أو من بيت المال، من أى الوجهين فعلت، فذلك موسع عليك وأحب إليّ أن تجرى من بيت المال على كل واحد منهم ما يقوته فإنه لا يحل ولا يسع إلا ذلك قال: والأسير من أسرى المشركين لابد أن يطعم ويحسن إليه حتى يحكم فيه فكيف برجل مسلم قد أخطأ وأذنب يترك يموت جوعاً. وإنما حملة على ما صار إليه القضاء أو الجهل ولم تزل الخلفاء تجرى على أهل السجون م

يقوتهم فى طعامهم وأدمهم وكسوتهم الشتاء والصيف وأول من فعل ذلك على بن أبى طالب كرم الله وجهه بالعراق ثم فعله معاوية بالشام ثم فعله الخلفاء من بعده .

قال أبو يوسف : فمر بالتقدير لهم ما يقوتهم فى طعامهم وأدمهم وصير ذلك دراهم تجرى عليهم فى كل شهر يدفع ذلك إليهم ، فإنك إن أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة نسجن والقوام والجلاوذة وولى ذلك رجلاً من أهل الخير والصلاح يثبت أسماء من فى نسجن ممن تجرى عليهم الصدقة وتكون الأسماء عنده ويدفع ذلك إليهم شهراً بشهر يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك إليه فى يده ، فمن كان منهم أطلق وخلق سبيله ، رد ما يجرى عليه ويكون للأجراء عشرة دراهم فى الشهر لكل واحد وليس كل من فى السجن يحتاج إلى أن يجرى عليهم وكسوتهم فى الشتاء قميص وكساء وفى الصيف قميص وإزار ويجرى على النساء مثل ذلك وكسوتهن فى الشتاء قميص ومقنعة وكساء ، وفى الصيف قميص وإزار ومقنعة وأغنتهم عن الخروج فى السلاسل يتصدق عليهم الناس فإن هذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبا وأخطأوا وقضى الله عليهم ما هو فيه فحبسوا يخرجون فى السلاسل يتصدقون وما أظن أهل الشرك يفعلون هذا بأسارى المسلمين الذين فى أيديهم فكيف ينبغي أن يفعل هذا بأهل الإسلام؟ وإنما صاروا إلى الخروج فى السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد الجوع وربما أصابوا ما يأكلون وربما لم يصيبوا وإن ابن آدم لم يعر من لذتوب ففقد أمرهم ومر بالإجراء عليهم مثل ما فسر لك ومن مات منهم ولم يكن له وئى ولا قرابة غسل وكفن من بيت المال وصلى عليه ودفن فإنه بلغنى وأخبرنى به الثقات أنه ربما مات منهم الميت الغريب فمكث فى السجن اليوم أو اليومين حتى يستأمر الوالى فى دفنه وحتى يجمع أهل السجن من عندهم ما يتصدقون ويكثرون من يحمله إلى المقابر فيدفن بلا غسل ولا كفن ، ولا صلاة فما أعظم هذا فى الإسلام وأهله .

(المورد الثالث من موارد بيت المال الصدقات وهى ما يؤخذ من المسلمين)

أولاً - من أنعامهم وهى الإبل والبقر والغنم على حساب معين فى الفقه الإسلامى .

ثانياً - من نقودهم التى هى الذهب والفضة باعتبار ٢,٥ من كل مائة .

ثالثاً - من أموال تجارتهم ومنها ما يمرون به على العاشر يؤخذ منهم كذلك باعتبار ٢,٥ من كل مائة .

رابعاً - ما يؤخذ من حاصلاتهم الزراعية وهى أعشار الأرض يؤخذ مما سقى بدون مؤنة تعشر ومما سقى بمؤنة نصف العشر .

قال أبو يوسف رحمه الله: ومر يا أمير المؤمنين باختيار رجل أمين ثقة عفيف ناصح مأمون عليك وعلى رعيته فوله جمع الصدقات في البلدان ومره فليوجه فيها أقواماً يرتضيهم ويسأل عن مذاهبهم وطرائقهم وأماناتهم يجمعون إليه صدقات البلدان فإذا جمعت إليه أمرته فيها بما أمر الله جل ثناؤه به فأنفذه، ولا تولها عمال الخراج فإن مال الصدقة لا ينبغي أن يدخل في مال الخراج وقد بلغني أن عمال الخراج يبعثون رجالاً من قبلهم في الصدقات فيظلمون ويعسفون ويأتون ما لا يحل ولا يسع وإنما ينبغي أن يتخير للصدقة أهل العفاف والصلاح فإذا وليتها رجلاً ووجه من قبله من يوثق بدينه وأمانته أجريت عليهم من الرزق بقدر ما ترى، ولا تجر عليهم ما يستغرق أكثر الصدقة.

مصارف الزكاة:

الزكاة تصرف بالنص إلى ثمانية أصناف من الناس قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٦٠).

قال أبو يوسف: فالمؤلفة قلوبهم قد ذهبوا (وخالف الحنفية في ذلك أكثر الأئمة)، والعاملون عليها يعطيهم الإمام ما يكفيهم من غير سرف ولا تقتير وقسمت بقية الصدقات بينهم للفقراء والمساكين سهم، والغارمون وهم الذين لا يقدرون على قضاء ديونهم سهم وفي السبيل المنقطع بهم سهم، يحملون به ويعانون. وفي الرقاب سهم، وسهم في إصلاح طرق المسلمين ويقسم سهم الفقراء والمساكين من صدقة ما حول كل مدينة في أهلها ولا يخرج منها فيتصدق به على أهل مدينة أخرى، وأما غيره فيصنع به الإمام ما أحب من هذه الوجوه التي سمي الله تعالى في كتابه، وإن صيرها في صنف واحد ممن سمي الله تعالى أجزأ.

الأمين

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور فهو هاشمي أباً وأماً ولم يتفق ذلك لغيره من الخلفاء إلا لعلی بن أبی طالب رضى الله عنه ولابنه الحسن .

ولد (سنة ١٧٠) من الهجرة وولاه أبوه العهد (سنة ١٧٥) وكان قائماً مقام أبيه ببغداد حينما سافر إلى خراسان، ولما مات الرشيد بطوس بويج له في عسكر الرشيد بالخلافة ووصل الخبر إلى بغداد فبايعه الخاصة والعامة واستمر في الخلافة إلى أن قتل في (٢٥ محرم سنة ١٩٨) (٥ سبتمبر سنة ٨١٣) فكانت مدته أربع سنوات إلا أربعة أشهر تقريباً.

الحال الداخلية لذلك العهد:

كانت هذه المدة التي وليها الأمين مملوءة بالمشاكل والاضطرابات بين الأخوين الأمين والمأمون. وكادت الأمة تذهب بينهما ضياعاً وسبب ذلك ما فعله الرشيد من ولاية العهد لأولاده الثلاثة أحدهم بعد الآخر وقسمته البلاد بينهم كما قدمنا ونحن نبين كيف ابتدأت مشاكل وكيف انتهت ونبين آثارها في الأمة:

لما كان الرشيد بطوس جدد البيعة لابنه المأمون على القواد الذين معه وأشهد من معه من القواد وسائر الناس أن جميع من معه من الجنود مضمومون إلى المأمون وأن جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك للمأمون. ولما علم الأمين وهو ببغداد مرض أبيه وأنه لما به أرسل من يفيد الأخبار كل يوم وأرسل كتباً للمأمون يعزیه فيه عن أبيه ويأمره أن يأخذ البيعة على: من قبله للأمين، بالخلافة وللمأمون بولاية العهد والقاسم المؤتمن بعده. ومنها كتاب لصالح بن الرشيد وقد كان أكبر ولد الرشيد الذين معه وهو الذي صلى عليه حين مات. وقد أمره فيه بالاجتهاد والتشمير وأن يأخذ البيعة على من معه للأمين، ثم المأمون ثم المؤتمن على الشريطة التي اشترطها الرشيد وأمره بالمسير إليه مع جميع الجنود والذخائر

والسلاح، وقال له فى الكتاب وإياك أن تنفذ رأياً أو تبرم أمراً إلا برأى شيخك وبقية آبائك الفضل بن الربيع وفيه: وإن أمرت لأهل العسكر بعطاء أو أرزاق فليكن الفضل بن الربيع المتولى لإعطائهم على دواوين يتخذها لنفسه بمحضر من أصحاب الدين فإن الفضل بن الربيع لم يزل مثل ذلك لمهمات الأمور.

لما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد الأمين بطوس من القواد والجند وأولاد هارون تشاوروا فى اللحاق بمحمد فقال الفضل بن الربيع لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يدري ما يكون من أمره، وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك محبة منهم للحق بأهلهم ومنازلهم ببغداد وتركوا العهود التى كانت أخذت عليهم للمأمون.

انتهى خبر ذلك إلى المأمون وهو بمرو فجمع من معه من قواد أبيه، واستشارهم فأشاروا عليه أن يلحقهم فى ألفى فارس تجريدة فيردهم فدخل عليه الفضل بن سهل وهو عنده من أعظم الناس قدراً وأخصهم به فقال له إن فعلت ما أشاروا به عليك جعلت هؤلاء هدية إلى محمد ولكن الرأى أن تكتب إليهم كتاباً وتوجه إليهم رسولاً فتذكرهم البيعة وتسألهم الوفاء وتحذرهم الخنث، وما يلزمهم فى ذلك فى الدين والدنيا فعل ذلك المأمون ووصل الكتاب والقوم بنيسابور قد رحلوا ثلاث مراحل فلم يقد هذا الجواب فائدة وتم الفضل بن الربيع على سيره.

ولما جاء المأمون خبر ذلك كان الفضل بن سهل حاضراً فأزال عنه الانزعاج وأمله فى الخلافة فجعل أمره إليه وأمره أن يقوم به بعد أن رفضه كبار القواد الذين معه فكان من أول تدبيره أن يبعث إلى من بالحضرة من الفقهاء فيدعوهم إلى الحق والعمل به وإحياء السنة وأن يقعد على اللبود ويرد المظالم ليكون بذلك قريباً من نفوس الجمهور ففعل.

ولم يبدأ المأمون أخاه بشئ يريه بل تواترت كتبه إليه بالتعظيم والهدايا إليه من طرف خراسان من المتاع والآنية والمسك والدواب والسر.

أما الأمر فى بغداد فقد كان يدل على شر مستطير فإن الفضل بن الربيع إليه بعد مقدمه العراق ناكشاً للعهد التى كان الرشيد أخذها عليه للمأمون رأى أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوماً وهو حى لم يبق عليه فحث محمداً على خلعه وأن يولى العهد من بعده ابنه موسى ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عزمه بل كان عزمه الوفاء لأخويه بما أخذ عليه الرشيد لهما من العهود فلم يزل به الفضل حتى أزاله عن رأيه فأول ما بدأ به أن كتب إلى جميع العمال فى الأمصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالإمرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم. فلما بلغ ذلك المأمون وبلغه أن الأمين عزل أخاه القاسم عما كان

لرشيد ولاء من الأعمال وأقدمه بغداد علم أنه يدبر في خلعه فقطع البريد عنه وأسقط
سمه من الطرار.

كرر الأمين تجربته فكتب إلى العباس بن عبد الله بن مالك وهو عامل المأمون على الرى
وئمره أن يبعث إليه بغرائب غروس الرى مريداً بذلك امتحانه فبعث إليه بما طلب فبلغ ذلك
مأمون فعزل العباس عن ولايته.

ثم بعث الأمين إلى المأمون ثلاثة نفر أحدهم العباس بن موسى بن عيسى والغرض من
هذا الوفد أن يطلبوا من المأمون، رضاه بتقديم موسى بن الأمين على نفسه فى ولاية العهد
فما اطلع المأمون على مرادهم، رد ذلك وأباه، وعرض الفضل بن سهل على العباس بن
موسى أن يكون عوناً لهم ومنوه الأمانى إن هو أجاب إلى ذلك فرضى، وكان بعد ذلك
يكتب إليهم بالأخبار ويشير عليهم بالرأى عاد الوفد على الأمين وأخبروه بامتناع المأمون.

لم يخفض ذلك من غلواء الفضل بن الربيع بل ما زال يلح على الأمين حتى رضى أن
يخلع المأمون، ويباع لابنه موسى بولاية العهد. ونهى الفضل عن ذكر المأمون والقاسم
واندعاء لهما على شىء من المنابر ووجه إلى مكة كتاباً مع رسول من حجة البيت فى أخذ
لكتابين اللذين كتبهما هارون وجعلهما بالكعبة فأحضرهما إلى بغداد فمزقا.

وكان الأمين قبل أن يكشف أخاه بذات نفسه أرسل إليه يسأله أن يتجافى له عن كور
من كور خراسان سماها، وأن يوجه العمال إليها من قبل محمد وأن يحتمل توجيه رجل
من قبله يوليه البريد عليه ليكتب إليه بخبره فكتب إليه جواب ذلك:

بلغنى كتاب أمير المؤمنين يسأل التجافى عن مواضع سماها مما أثبتته الرشيد فى العقد
وجعل أمره إلىّ وما أمره رآه أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثره غير أن الذى جعل إلى الطرف
لذى أنا به لا ظنين فى النظر لعامته ولا جاهل بما أسند إلىّ من أمره ولو لم يكن ذلك مثبتاً
لنعهد والمواثيق المأخوذة ثم كنت على الحال التى أنا عليها من إشراف عدو مخوف الشوكة
وعامة لا تتألف عن هضمها وأجناد لا يستتيع طاعتها إلا بالأموال، وطرف من الأفضال،
كان فى نظر أمير المؤمنين لعامته وما يحب من أطرافه من يوجب عليه أن يقسم له كثيراً
من عنايته وأن يستصلحه ببذل كثير من ماله فكيف بمسألة ما أوجبه الحق ووكدته مأخوذة
لعهده؟ وإنى لأعلم أن أمير المؤمنين، لو علم من الحال ما علمت لم يطلع ما كتب بمسألته
بئى ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان إن شاء الله.

وكان المأمون قد وجه حارسه إلى الحد فلا يجوز رسول من العراق حتى يوجهوه مع

ثقات من الأمناء ولا يدعه يستعلم خبراً، ولا يؤثر أثراً ولا يستتبع بالرغبة ولا بالرهبة أحداً ولا يبلغ أحداً قولاً ولا كتاباً - فحصر أهل خراسان من أن يستمالوا برغبة أو أن نودع صدورهم رهبة، ويحملوا على منوال خلاف أو مفارقة - ثم وضع على مرصاد الطرق ثقات من الحراس لا يجوز عليهم إلا من لا يدخل الظنة في أمره ممن أتى بجواز مخرجه إلى دار مأبه أو تاجر معروف مأمون في نفسه ودينه ومنع الامتانات من جواز السبل والقطع بالمتاجر والوغول في البلدان في هيئة الطارئة والنسابة وفتنت الكتب. هكذا دير الفضل بن سهل أمر صاحبه فلم يدع للفضل بن الربيع مجازاً لرسله ورواده أن يثوا شيئاً في عامة أهل خراسان ولما أنت رسل الأمين بجواب كتب الأمين وجدوا جميع ما كانوا يؤملونه ممنوعاً عنهم موصداً بابه دونهم. وكان كتاب الأمين للمأمون.

(أما بعد فإن أمير المؤمنين الرشيد وإن كان أفردك بالطرف وضم ما ضم إليك من كور الجبل تأييداً لأمرك وتحصيناً لطرفك فإن ذلك لا يوجب لك فضلة المال عن كفايتك وقد كان هذا الطرف وخراجه كافياً لحدته تتجاوز بعد الكفاية إلى ما يفضل من رده وقد ضم لك إلى الطرف كوراً من أمهات كور الأموال لا حاجة لك فيها فالحق فيها أن تكون مردودة في أهلها ومواضع حقها فكتبت إليك أسألك برد تلك الكور إلى ما كانت عليه من حالها ليكون فضول ردها مصروفاً إلى مواضعها وأن تأذن لقائهم بالخير بحضرتك يؤدي إينا علم ما نعننى به من خبر طرفك فكتبت تطلب دون ذلك بما تم أمرك عليه صيرنا الحق إلى مطالبتك فائن عن همك أئن عن مطالبتك إن شاء الله) فلما قرأ المأمون كتابه كتب إليه :

(أما بعد. فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين ولم يكتب فيما جهل فاكشف له عن وجهه ولم يسأل ما لا يوجه حق فيلزمى الحجة بترك إجابته وإنما يتجاوز الناظران أن مترلة النصفة ما ضاقت النصفة عن أهلها فمتى تجاوز متجاوزها وهو موجود الوسع ولم يكن تجاوزها إلا عن نقضها واحتمال ما فى تركها فلا تبغثنى يا ابن أبى على مخالفتك وأنا مذعن بضاعتك ولا على قطيعتك وأنا على إيثار ما تحب من صلتك وارض بما حكم به الحق فى أمرك أكن بالمكان الذى أنزلنى به الحق فيما بينى وبينك والسلام).

فلما وصل الكتاب إلى الأمين اشتد غيظه وعند ذلك أمر بعدم الدعاء له على المنابر وكتب إليه :

(أما بعد فقد بلغنى كتابك غامطاً لنعمة الله عليك فيما سكر لك من ظلمها متعرضاً لحراق نار لا قبل لك بها ولخصك عن الطاعة كان أودع وإن كان قد تقدم منى متقام فليس بخارج من مواضع نفعك إذ كان راجعاً على العامة من رعيته وأكثر من ذلك ما يمكن لك من منزلة السلامة ويثبت لك من حال الهدنة فأعلن رأيك اعلى عليه إن شاء الله).

لم يكن لهذه المكاتبات بين الأخوين نتيجة لأنه كان لكل منهما سائق يسوقه فللأمين الفضل بن الربيع الذى لم يكن يحب المأمون ولا ولايته، وللمأمون الفضل بن سهل الذى كن يأمل الخلافة لصاحبه وأن تكون مرو حاضرة الخلافة العظمى وتعود لخراسان عظمها.

بلغ المأمون ما أقدم عليه أخوه من خلعه عن ولاية العهد وترك الدعاء له فكان أول ما فعله الفضل بن سهل من التدبير أن جمع الأجناد التى كان أعدها بجنيات الرى مع أجناد قد كان مكنها فيها وأجناد للقيام بأمرهم وأقامهم بالحد لا يتجاوزونه ولا يطلقون يداً بسوء فى عامة ولا مجتاز ثم اختار لقيادة الجند طاهر بن عيسى الخزاعى مولاهم فسار طاهر مغذاً لا يلوى على شىء حتى ورد الرى فنزلها ووكّل بأطرافها ووضع مسالحه وبث عيونهُ وطلّانهُ.

أما الفضل بن الربيع فإنه اختار لجند العراق علىّ بن عيسى بن ماهان وولاه الأمين كور جبل كلها نهاوند وهمدان وقم وأصبهان وأعطى جنده من الأرزاق شيئاً كثيراً وأمدّمهم بمسلاح والعدة فشخص من بغداد فى منتصف جمادى الآخرة (سنة ١٩٥) وكان معه زهاء أربعين ألفاً وحمل معه قيد فضة ليقيد به المأمون كما شاءت زبيدة أم الأمين وقد خدم الأمين نحاه بهذا التعيين خدمة عظيمة فإن أهل خراسان لم ينسوا ما عاملهم به علىّ بن عيسى من لفظائع مدة ولايته فى عهد الرشيد فكان تعيينه لحربهم مما أثار فى قلوبهم الحمية لرد هذا لعدو بعد أن أبدلهم الله خيراً منه عدلاً ورفقاً وحسن سياسة وهو عبد الله المأمون وبما كان ينذر بالشّر جند الأمين عدم احتفال قائده بلقاء عدوه فإنه لما بلغه أن طاهر بن الحسين مقيم -نرى كان يضحك ثم يقول وما طاهر فوالله ما هو إلا شوكة من أغصانى أو شرارة من -خرى وما مثل طاهر يتولى على الجيوش ويلقى الحروب ثم التفت إلى أصحابه فقال والله ماينكم وبين أن ينقص انقصاص الشجر من الريح العاصف إلا أن يبلغه عبورنا عقبه همدان فإن السخال لا تقوى على النطاح والثعالب لا صبر لها على لقاء الأسد فإن يقم طاهر بموضعه يكن أول معرض لظلمات السيوف وأسنة الرماح. ولما صار فى أول بلاد الرى تاه صاحب مقدمته وقال لو كنت أبقى الله الأمير أذكيت العيون وبعثت الطلائع وارتدت موضعاً تعسكر فيه وتتخذ خندقاً لأصحابك يأمنون به كان ذلك أبلغ فى الرأى وأنس للجند - فقال لا، ليس مثل طاهر يستعد له بالمكايد والتحفّظ إن حال طاهر تؤول إلى أحد أمرين بما أن يتحصن بالرى فيبيته أهلها فيكفونا مؤنته أو يخيلها ويدبر راجعاً لو قربت خيولنا وعسكرنا منه - وأناه يحيى بن علىّ فقال: أجمع متفرق العسكر واحذر على جندك البيات ولا تسرح الخيل إلا ومعها كنف من القوم فإن العساكر لا تسام بالتوانى والحروب لا تدبر بالاغترار، والثقة أن تحتز ولا تقل المحارب لى طاهر، فالشرارة الخفية ربما صارت ضراماً

والثلثة من السيل ربما اغتر بها فتهون فصارت بحراً عظيماً وقد قربت عساكرنا من طاهر فلو كان رأي الهرب لم يتأخر إلى يومه هذا. فقال اسكت فإن طاهراً ليس في هذا الموضع الذي ترى وإنما يتحفظ الرجال إذا لقيت أقرانها وتستعد إذا كان المناوئ لها أكفأها ونظراءها.

وبينما كان هذا القائد يسير مدلاً بنفسه وبمن معه مستخفاً بعدوه كان طاهر يدبر أمره مع قواده ويسير سير من يريد مواجهة عدو أكثر منه عدداً وعدة وقد استقر رأيهم على أن يجعل مدينة الري وراء ظهره ويقاوم بعيداً عنها فعسكر على خمسة فراسخ منها وأقبل إليه على بن الحسين وقد عبأ جنده وهم في أكمل عدة وأحسن زى فكتب طاهر كتابه وكرّس كراديسه وسوى صفوفه وجعل يمر بقائد قائد وجماعة جماعة يعظّم ويشبّه ثم تلاحم الفريقان واقتتلوا قتالاً شديداً فعلت ميمنة علىّ على ميسرة طاهر ففضتها فضاً منكراً وميسرته على ميمنته فأزالته عن موضعها فقال طاهر اجعلوا بأسكم وجدكم على كراديس القلب فإنكم لو قد فضضتم منهم راية واحدة رجعت أوائلها على أواخرها فصبر أصحابه صبراً صادقاً ثم حملوا على أولى رايات القلب فهزموهم وأكثروا فيهم القتل ورجعت الرايات بعضها على بعض ورأى أصحاب ميمنة طاهر وميسرته ما عمل أصحابه فرجعوا على من كان في وجوههم فهزموهم وانتهت الهزيمة إلى على ورماء رجل من أصحاب طاهر بسهم فقتله ووضعوا فيهم السيوف حتى حال الليل بينهم وبين الطلب وغنموا غنيمة كثيرة ونادى طاهر في أصحاب على من وضع سلاحه فهو آمن فطرحوا أسلحتهم ونزلوا عن دوابهم وعاد طاهر إلى الري وكتب إلى الفضل بن سهل - أطال الله بقاءك وكتب أعداءك وجعل من يشنك فدواءك كتبت إليك ورأس علىّ بن عيسى في حجرى وخاتمه في يدى والحمد لله رب العالمين - فلما وصل الكتاب إلى الفضل نهض فسلم على المأمون أمير المؤمنين - وأمد طاهراً بالرجال والقواد وسماه ذا اليمينين وصاحب جبل الدين.

وصل هذا الخبر بغداد على غير ما ينتظر القوم فانتخب الأمين جيشاً ثانياً جعله تحت قيادة عبد الرحمن بن خبلة الأنبارى وعدة هذا الجيش عشرون ألف رجل من الأبناء وحمل معه الأموال وقواه بالسلاح والخيول وأجازه بجوائز وندب معه فرسان الأبناء وأهل البأس والنجدة والغناء منهم وأوصى قائده بالتحفظ والاحتراص وترك ما عمل به على بن عيسى من الاغترار والتبضع فسار عبد الرحمن حتى نزل همدان فحبط طرقها وحصن سورها وأبوابها وسد ثلمتها وحشر إليها الأسواق والصناعات وجمع فيها الآلات والمير واستعد للقاء طاهر ومحاربته. ولما بلغ طاهراً خبره توجه إليه حتى أشرف على همدان فخرج إليه عبد الرحمن فيمن معه على تعبئة فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً إلى أن انهزم عبد الرحمن ودخل

همذان فلبث فيها حتى قوى أصحابه واندملت جراحهم ثم خرج ثانية إلى اللقاء فلقى فيه صهره وفعل به ما فعل في المرة الأولى فعاد إلى همذان فحصره فيها طاهر حتى جهد من قوة المادة فطلب الأمان له ولمن معه فأمنه طاهر.

ولما تمّ لطاهر هذا النصر طرد عمال محمد من قزوين.

كان ذلك سبباً لارتباك الفضل بن الربيع وشعوره بزوال الدولة فدعا أسد بن يزيد بن ميه وهو من قواد الدولة المعدودين وقال له أنت فارس العرب وابن فارسها فزع إليك لأمين في لقاء هذا الرجل وأطمعه فيما قبلك أمران - أما أحدهما فصدق طاعتك وفضل هيئتك والثاني يمن نقيتتك وشدة بأسك وقد أمرني بإزاحة علتك وبسط يدك فيما أحببت عير أن الاقتصاد رأس النصيحة ومفتاح اليمن والبركة فانجز حوائجك وعجل المبادرة إلى عسوك فإنني أرجو أن يولييك الله شرف هذا الفتح ويلم بك شعث هذه الخلافة والدولة - هذه يتمتع أسد وإنما طلب لجنده مطالب هي أن يؤمر لأصحابه برزق سنة ويخص من لا حصة له منهم من أهل الغناء والبلاء وأبدل من فيهم من ألزمني والضعفاء وأحمل ألف حجر ممن معي على الخيل ولا أسأل عن محاسبة ما افتتحت من المدين والكور - فقال له تفصل قد اشتططت ولا بد من مناظره أمير المؤمنين ثم ركبا إليه فدخل عليه الفضل أولاً ثم بحر أسد فما كان بينهما إلا كلمتان حتى غضب الأمين وأمر بحبس أسد - ثم قال هل في أمر بيت هذا من يقوم مقامه فإنني أكره أن أستفسدهم مع سابقتهم وما تقدم من طاعتهم بهيئتهم فقالوا نعم فيهم أحمد بن مزيد وهو أحسنهم طريقة وأصلحهم نية في الطاعة به مع هذا بأس ونجدة وبصر بسياسة الجنود ولقاء الحروب فاستدعاه محمد وقال له إنه قد بحر على تخليط ابن أخيك وتنكره وطال خلافه على حتى أوحشني ذلك منه وولد في قلبي لتهمة له وصيرني بسوء المذهب وحنث الطاعة إلى أن تناولته من الأدب والحبس بما لم أحب أن أكون أتناوله به وقد وصفت لي بخير ونسبت إلى جميل فأحببت أن أرفع قدرك - نعم منزلك وأقدمك على أهل بيتك وأن أوليك جهاد هذه الفئة الباغية الناكثة وأعرضك لأجر والثواب في قتالهم ولقائهم فانظر كيف تكون؟ وصحح نيتك وأعز أمير المؤمنين على اصطناعك وسره في عدوه ينعم سرورك وتشريفك. ثم أمر الفضل أن يدفع إليه دفاتر أسد وأن يضم إليه من شهد العسكر من رجال الجزيرة والأعراب - فخرج أحمد فانتخب لرجال واعترض الدفاتر فبلغت عدة من معه عشرين ألف رجل - ووجه الأمين عبد الله بن حميد بن قحطبة في عشرين ألفاً أخرى وأمرهما أن يتزلا حلوان ويدفعا طاهراً عنها وتقدم لهما في اجتماع الكلمة والتواد والتحاب على الطاعة - فتوجها حتى نزلا قريباً من حلوان فحقيقين.

أما طاهر فإنه أقام بموقعه وخندق عليه وعلى أصحابه ودس العيون والجواسيس إلى عسكرى عدوه فكانوا يأتونه بالأراجيف ولم يزل يحتال فى وقوع الخلاف بينهم حتى اختلفوا وانتقض أمرهم وقتل بعضهم بعضاً فأخلوا خائقين ورجعوا عنها من غير أن يلقوا طاهراً فتقدم طاهر حتى نزل حلوان. ثم لم يلبث إلا قليلاً حتى ورد عليه هرثمة بن أعين أحد قواد المأمون، ومعه كتاب المأمون والفضل بن سهل يأمره فيه بتسليم ما حوى من الكور والمدن إليه ويتوجه إلى الأهواز فسلم ذلك إليه وأقام هرثمة بحلوان فحصنها ووضع مسالحه ومراصده فى طرقها وجبالها وتوجه طاهر إلى الأهواز ليكون الهجوم على بغداد من جهتين.

كان من سوء حظ الأمين أن عبد الله بن صالح بن علىّ الذى كان الرشيد قد حبسه، خلّصه الأمين من سجنه فعد ذلك فضلاً منه وأراد مساعدته فطلب إليه أن يوليه الشام والجزيرة ليحضر إليه جنداً من العرب قد ضرستهم الحروب وأدبتهم الشدائد فولاه ذلك فلما وصل إلى الرقة أنفذ كتبه إلى رؤساء الأجناد بالشام ووجه الجزيرة فلم يبق أحد ممن يرجى ويذكر بأسه وغناؤه إلا وعده وبسط له فى آماله وأمنيته فقدموا عليه رئيساً بعد رئيس وجماعة بعد جماعة وأتاه أهل الشام الزواquil والأعراب من كل فج واجتمعوا عنده.

حصلت مشكلة تافهة بين جندى خراسانى وجندى من الزواquil، فتعصب لكل جماعة تعصباً أدى إلى التلاحم واستعد الأبناء وآتوا الزواquil وهم غازون فقتلوا منهم مقتلة عظيمة فتنادى الزواquil وركبوا ونشبت الحرب بين الفريقين وكان عبد الملك بن صالح إذ ذاك مريضاً فوجه إليهم رسولاً يأمرهم بترك الحرب فرموا رسولهم بالحجارة ولما أخبر بكثرة من قتل من العرب قال واذا له ستضام العرب فى دارها ومحلها وبلادها. فكان ذلك بمثابة محضاً حرك إلى الشر من لم يركب من الأبناء وقام بأمرهم الحسين بن علىّ بن عيسى بن ماهان. فلم رأى ذلك أهل الشام أجمعوا أمرهم على الرحيل إلى بلادهم فرحلوا قائلين الموت الفلسطينى خير من العيش الجزرى وأقام الحسين بمن معه من الأبناء.

انتهت هذه الفكرة بالفشل ولم يقف شرها عند هذا الحد فإن الحسين بن علىّ نادى فى عسكره بالرحيل قاصداً بغداد فلما وصلها حض الأبناء الذين معه على خلع الأمين فأجابوه فتوجه بهم حيث يقيم الأمين ونادوا بخلعه فى (١١ رجب سنة ١٩٦) وأخذوا البيعة للمأمون فى ثمانى عشرة وغدا فى الثالث عشر إلى الأمين فى قصره وأخرجته منه محبوساً.

خاف كبار الأبناء تقدم علىّ بن عيسى فقام محمد بن أبى خالد وقال أيها الناس م أدرى بأى سبب يتأمر الحسين بن علىّ علينا ما هو بأكبرنا سناً ولا أكرمنا حسباً ولا أعظم منزلة وإنى أولكم نقض عهده فمن كان على رأى فيعتزل معى وقام أسد الحربى ودعا من

سعه من الحرية إلى القيام بأمر محمد وفكه فتأثر الأبناء من هذه الأقوال وساروا إلى الحسين - على فأسروه ودخل أسد الحربى إلى الأمين ففك قيوده وأقعدته فى مجلس الخلافة وأتى الأمين بالحسين بن على فلامه على ما كان منه مع إحسانه إليه وإلى أبيه وأخيراً عفا عنه . يمكن ذلك لم يقد فإنه بعد العفو حاول الهرب من بغداد فأدرك وقتل .

هذه حال الاضطراب فى جند الأمين أما جند المأمون فكان على العكس من ذلك كان حدثاً منتظماً لا تزيده الأيام إلا قوة . انقسم إلى قوتين قوة مع هرثمة بن أعين تريد بغداد من جاده المشرق وقوة مع طاهر بن الحسين تريد بغداد من جادة الأهواز والبصرة .

ذهب طاهر إلى فارس فاستولى عليها بعد أن أوقع بعاملها محمد بن يزيد المهلبى وقعة سيدة بسوق الأهواز وقتل محمد بن يزيد وكان ترتيب جند طاهر فى مسيره وحربه حائزاً لغنية من النظام والاحتراس فضلاً عما حازه من الاسم الكبير الذى يفت فى الأعضاء .

أقام بفارس مدة أنفذ فيها العمال إلى الكور وولى على اليمامة والبحرين وعمان مما يلى لأهواز ومما يلى عمل البصرة ثم سار متوجهاً إلى واسط فجعلت المسالح والعمال تتقوض سلحة مسلحة وعاملاً كلما قرب منهم طاهر ولا عار فى الهرب منه دخل طاهر واسطاً ومنها وجه قائداً إلى الكوفة وعليها العباس بن موسى الهادى فبادر إلى خلع الأمين ومبايعة المأمون ، يرسل بذلك إلى طاهر فتم له ما بين واسط إلى الكوفة وأنفذ كتب التولية إلى العمال ، وكذلك بيع المأمون أمير البصرة وهو المنصور بن المهدي وكان ذلك كله فى رجب (سنة ١٩٦) .

ثم سار طاهر إلى المدائن فاستولى عليها من غير قتال :

فى تلك الأثناء حصل فى الحجاز ما زاد المأمون قوة والأمين خذلانا ذلك أن داود بن عيسى كان عاملاً للأمين على مكة والمدينة فلما بلغه ما فعل الأمين من خلع المأمون وأخذه لكتابين اللذين كانا بجوف الكعبة وتمزيقهما جمع حجة الكعبة والقرشيين والفقهاء ومن كذب شهد على ما فى الكتابين من الشهود وكان داود أحدهم فذكرهم بما كان الرشيد أخذ عنهم من العهود أن يكونوا مع المظلوم من ولديه على الظالم وأخبرهم أن محمداً كان لنى قد بدأ بالظلم فخلع أخويه وباع لابنه الصغير لذلك رأيت خلعه وأن أباع للمأمون فأجابه إلى ذلك أهل مكة وفى (٢٧ رجب سنة ١٩٦) نادى داود فى البيت الحرام بخلع لأمين وبيعة المأمون ثم كتب إلى ابنه سليمان وهو خليفته على المدينة يأمره أن يفعل بها مثل أهل مكة ففعل . ولما تم ذلك سار داود بنفسه إلى مرو وأعلم المأمون بما تم فى الحجاز صر المأمون جد السرور وتيمن ببركة مكة والمدينة وكتب إلى أهل الحجاز كتباً يعدهم فيها خير ويبسط أملهم وأقر داود على ولاية الحجاز فعاد مغذاً ليدرك الحج ومر وهو عائد على صهر بن الحسين فوجه معه يزيد بن جرير القسرى والياً على اليمن وكان يزيد هذا داعية أهل اليمن إلى بيعة المأمون فأجابوه .

اجتمعت جيوش طاهر، وهرثمة حول بغداد وحوصرت من ثلاث جهات فتزل هرثمة نهريين وأعد المجانيق والعرادات وأنزل عبيد الله بن الواضح الشماسية ونزل طاهر البستان بباب الأنبار ونزل المسيب بن زهير قصر رقة كلواذى. وقد نصب المسيب المجانيق والعرادات واحتفر الخنادق وجعل يخرج فى الأيام عند اشتغال الجند بحرب طاهر فيرمى بالعرادات من أقبل ومن أدبر، ويعشر أموال التجارة ويجبى السفر وبلغ من الناس كل مبلغ.

أحس محمد بالضيق ومنعت عنه الأموال فأمر ببيع كل ما فى الخزائن من الأمتعة وضرب آنية الذهب والفضة ودنانير ودراهم وحملها لأصحابه فى نفقاته.

وقد قاست هذه المدينة العظمى ودرة تاج الخلافة العباسية من هذا الحصار ما لم يكن يخطر لأحد على بال من الهدم والتحريق وسفك الدماء والجوع الشديد حتى درست محاسنها وكادت تمحى معالمها ونطقت ألسن شعرائها بوصف ما عليه الناس من الأحزان والمحن التى لا تحتمل وأحسنهم فى ذلك عمرو بن عبد الملك العترى الوراق فمما قاله :

من ذا أصابك يا بغداد بالعين	ألم تكونى زماناً قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم	كان قريهم زيناً من الزين
صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا	ماذا لقيت بهم من لوعة البين
أستودع الله قوماً ما ذكرتهم	إلا تحدر ماء العين من عيني
كانوا ففريقهم دهر وصدعهم	والدهر يصدع ما بين الفريقين
وقال بعض فتيان بغداد:	

بكيت دماً على بغداد لما	فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدلنا هموماً من سرور	ومن سعة تبدلنا بضيق
أصبتها من الحساد عين	فأنت أهلها بالمنجنيق
فقوم احرقوا بالنار قسراً	ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادى واصباحاً	وباكية لفقدان الشقيق
حوراء المدامع ذات دل	مضمخة الجاسد بالخلوق
تفر من الحريق إلى التهاب	ووالدها يفر إلى الحريق

وسالبة الغزاة مقتنيها	مضاحكها كلالاة البروق
حيارى كالهدايا مفكرات	عليهن القلائد فى الخلق
ينادين الشفيق ولا شفيق	وقد فقد الشفيق من الشفيق
قوم أخرجوا من ظل دنيا	متاعهم يباع بكل سوق
ومفترب قريب الدار ملقى	بلا رأس بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعاً	فما يدرون من أى الفريق
فلا ولد يقيم على أبيه	وقد هرب الصديق بلا صديق
ومهما أنس من شىء تولى	فلإن ذاكر دار الرقيق

وكان الأمين قد استعان فى حروبه بالعيارين والشطار والمسجونين من أهل بغداد فكان الشر لى أصاب المدينة منهم أكثر مما أصابها من العدو المهاجم وللخرمى قصيدة طويلة تبلغ (١٣٥ بيتاً) يصف فيها ما أصاب بغداد ويذكر أسباب تلك النكبات التى حلت استوفاه الطبرى فى خزانة العاشر من تاريخه (صحيفة ١٧٦) وما بعدها من طبع مصر يقول فيها:

يا يؤس بغداد دار مملكة	دارت على أهلها دوائرها
أمهلها الله ثم عاقبها	لما أحاطت بها كبائرها
بالخسف والقذف والحريق وبالد	حرب التى أصبحت تساورها

ثم قال:

رق بها الدين وستخف بذى	الفضل وعز النساك فاجرها
وخطم العبد أنف سيده	وبالرغم واستعبدت مخادرها
وصار رب الجيران فاسقهم	وابتز أمر الدروب زاعرها

وقال العترى:

الناس فى الهدم وفى الانتقال	قد عرض الناس بقليل وقال
يا أيها السائل عن شأنهم	عينك تكفيك مكان السؤال
قد كان للرحمن تكبيرهم	فاليوم تكبيرهم للقتال

اطرح بعينيك إلى جمعهم	وانتظر الروح وعد الليال
لم يبق فى بغداد إلا امرؤ	حالفه الفقر كثير العيال
لا أم تحمى عن حماها ولا	خال له يحمى ولا غير خال
ليس له مال سوى مطرد	مطرده فى كفه رأس مال
هان على الله فأجرى على	كفيه للشقوة قتل الرجال
إن صار ذا الأمر إلى واحد	صار إلى القتل على كل حال
ما بالناس نقتل من أجلهم	سبحانك اللهم يا ذا الجلال

استمرت هذه الشدائد على بغداد وما فيها حتى استفد الأمين كل وسائل الدفاع أيقن بالعطب إن هو استمر على الممانعة فاستشار من بقى من قواده فأشار عليه بعضهم أن يطلب لنفسه الأمان من هرثة بن أعين ويسلم له فرضى وكتب إلى هرثة بذلك فأجابه إليه و« علم طاهر أبى إلا أن يكون خروجه إليه إذا شاء ولما لم يكن الأمين ميالاً إلى الخروج إلى طاهر اتفق القواد أن يخرج ببذنه إلى هرثة وأن يدفع إلى طاهر الخاتم والقضيب والبردة ثم علم طاهر أنهم يمحرون به فاستعد للأمر وكمن حول القصر كمناء بالسلاح فلما خرج الأمين كانت حراقة هرثة تنتظره فركبها ولم تسر بهم إلا قليلاً حتى خرج أصحاب طاهر فرموا الحراقة بالسهم والحجارة فانكفأت الحراقة وغرق هرثة ومحمد الأمين فأما هرثة فأدركه أصحابه وأما محمد فسبح فى الماء حتى أدركه أصحاب طاهر فأمرهم طاهر بقتله فقتل ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم (سنة ١٩٨) وفى الصباح كتب طاهر إلى المأمون يخبره بما تم وبالأسباب التى جعلته يأمر بقتل الأمين. ثم دخل طاهر المدينة فأمر أهلها وهذا الناس وكان دخوله إليها يوم الجمعة فصلى بالناس وخطبهم خطبة بليغة حضهم فيها على الطاعة ولزوم الجماعة، ورغبهم فى التمسك بحبل الطاعة وانصرف إلى معسكره. بذلك انتهى الفصل الأول من هذه الحادثة الشيعة التى فرقت بين الأمة، وأحدثت هذه الثورة الهائلة.

أما سببها وتبعاتها فعائدان إلى هارون الرشيد أولاً، ثم إلى الفضل بن الربيع ثانياً، أما الرشيد فإنه غلط فى فعله غلطات. الأولى: أنه ولى عهده أولاً محمد الأمين والمأمون أسـ منه. ولم يكن ما يزيد الأمين إلا أنه ابن زبيدة. وليس هذا من الأسباب المرجحة فى نظر العقلاء، وإنما هو مرجح فى نظر الضعفاء الذين يتأثرون بالهوى. الثانية: أنه لما أحس بهذه

لنضطة أراد مداواتها ففعل ما يزيد بها شراً بتولية المأمون للعهد بعد الأمين، ولم يقتصر على مجرد توليه العهد بل أعطاه من الامتيازات ما يجعله مستقلاً، تمام الاستقلال، بأمر خراسان ولرى عن أخيه الأمين، ومن المعلوم أنه كلما كثرت الامتيازات، كثرت المشاكل، وأسباب لقساد بين الأمين والمأمون وإن كانا أخوين يتنافسان فالأول يميل أن يتمتع بسلطان الخلافة تمام، والثانى يميل أن يتمتع بامتيازاته تماماً، ولكل منهما جيش يتصرف فيه كما يرغب فلم يكن يظن أن يبقى لهذين صفاء متى حانت وفاة الرشيد، وقد أدرك المفكرون ذلك فى حياته الثالثة: أنه لم يقتصر عليهما فى ولاية العهد فأضاف إليهما أحياناً ثالثاً وأعطاه من الامتيازات: الجزيرة وأرمينية، ما أعطى المأمون فى خراسان، فجراً ذلك الأمين على نقض لعهد لأنه نظر فرأى نفسه مقصوص الجناحين، منزوعاً منه السلطان فى أعظم بقاع الإسلام وكثرها أعواناً وجنداً. الرابعة: أنه اغتر بالفضل بن الربيع الذى جرأه على إفساد ملكه بقتل ليرامكة والحرمان من مقدرتهم وكفاءتهم ولم يتبين خبث نية الرجل واستمر على الاستعانة به حتى عاد سيرته الأولى فى عهد الأمين فإنه هو الذى اجتهد فى إغرائه بأخيه لأنه ظن أن المأمون إذا تولى أخذه بتبعية نكته لعهد مع الرشيد وسيروه بالجنود التى كانت مع الرشيد إلى حداد، مع أن الرشيد عهد بها إلى المأمون فما زال يحتال فى الإفساد حتى أوقع هذه الاضطرابات. ولما أشد الأمر على الأمين. لم يفده فائدة بل اختفى وكان ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الحشر: ١٦).

يضاف إلى ذلك كله ما فى طباع الخلفاء من ميلهم إلى أن يكون بعدهم فى الخلافة تنزههم فهم يحتالون بكل ما فى وسعهم إلى إخراج إخوانهم أو بنى أعمامهم من العهد إن كان، ولم نر خليفة له ابن فلم يسمع له ذلك السعى ولم نجد عهداً أو عقداً منع من ذلك حتى كان هذا مجزئاً للخلفاء على عدم الاعتناء بالعهد المكتوبة وصاروا يفتحون لها من أبواب الحيل ما يبيح لهم عدم التمسك بها والرشيد نفسه يعلم ذلك بما وقع له من أخيه لهادى وقد كاد يظفر به ويخرجه من ولاية العهد لولا أن النية غلبت مع أن الرشيد لم يكن له شئ من الامتياز أعطاه إياه المهدي أبوه، نسأل الله السلامة من عدم الاعتبار والاعتاظ بهما المهلكة العامة.

صفات الأمين:

امتدت السنة الكتاب والشعراء بعد خلع الأمين وقتله إلى القدح إليه وتعدد مثالبه التى تودت به وهذه سنة قديمة أن الناس مع من يساعده القدر فهم أبداً مع القاهرة على المقهور، لأن للقوة سلطاناً على النفوس، لا يغالب، وهذا نموذج مما قيل فى هجاء الأمين.

يا أبا موسى وترويج اللعب	لم نبكيك لماذا للطرب
حرصاً منك على ماء العنب	ولترك الخمس في أوقاتها
وعلى كوثر لا أخشى العطب	وشنيف أنا لا أبكى له
لاولا تعرف ما حد الغضب	لم تكن تعرف ما حد الرضا
تعطك الطاعة بالملك العرب	لم تكن تصلح للملك ولم
عين من أبكاك إلا للعجب	أيها الباكي عليه لا بكت
للمجانيق وطوراً للسلب	لم نبكيك لما عرضتنا
لهم يبدو على الرأس الذنب	لقوم صيروننا أعبدنا
سدّد الطرق فلا وجه طلب	في عذاب وحصار مجهد
كل من قد قال هذا قد كذب	زعموا أنك حي حاشر
من جميع ذاهب حيث ذهب	ليت من قد قاله في وحدة
فإذا ما أوجب الأمر وجب	أوجب الله علينا قتله
غضب الله عليه وكتب	كان والله علينا فتنة

ومع هذا فقد رثاه كثير من الشعراء ومدحوه وسترك هذا وهذا ونفحص صفاته من أعماله .

أول ما عرف من عمل الأمين إرادته الغدر بأخيه والرمي بعهد الرشيد وراء ظهره، فقد أخذ العهدين من البيت الحرام ومزقهما تمزيقاً غير ناظر إلى ما وراء ذلك من العواقب الوخيمة في نظر الجمهور، إذ ليس أعظم في نظر المسلم من انتهاك حرمة البيت المقدس . ولا انتهاك أعظم من إفساد أمر دبر فيه، وجعل البيت الحرام حارساً عليه على أن الغدر في ذاته بقطع النظر عن ذلك كله قبيح وضار بحياة الأمة الأدبية فلا غرابة أن رأينا جمهور الأمة في صف أخيه .

ولما دخل هذا المدخل الوعر المسلك لم يسر فيه بشيء من الحزم ولا بعد النظر بل كـ أول قائد ولاه حرب أهل خراسان أعدى عدو لهم من جريبه فوجدوه ظالماً عاتياً يستحر أموالهم ويضرب أبشارهم وهو على بن عيسى بن ماهان أمير خراسان في عهد الرشيد فكان ذلك مما زاد أهل خراسان جداً في محاربته والضربة الأولى مما يدخل الوهن والخذلـ على المضروب ويزيد في حماسة الغالب وتفاؤله بالمستقبل .

ومع هذا الغلط كان الأمين مشتغلاً عن تدبير أمره، بما كان فيه من اللهو والعبث شتان
عن تدبيره وأخيه فبينما كان هو على هذا الطريق، كان أخوه المأمون بمرور يجمع إلى مجلسه
نعماء والفقهاء، ويجلس معهم، كما يجلسون ويتكلم معهم في الفقه والأدب والحديث،
حتى أشربت قلوبهم محبته ولا يخفى ما لهذا من التأثير في قلوب الجمهور.

يقال أن محمداً لما تول وجه إلى جميع البلدان في طلب الملهمين وضمهم إليه وأجرى
هم الأرزاق ونافس في ابتياع فره الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطيور وغير ذلك
وحتجب عن أخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم وقسم ما في بيوت الأموال وما
حضرتهم من الجواهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه وحمل إليه ما كان في الرقة من الجوهر
وخزائن السلاح وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته، ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد
وخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلى ورقة كلواذى وباب الأنبار ونبارى
ونهبوب وأمر بعمل خمس حراقات في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية
ونفرس، وأنفق في عملها مالا عظيماً فقال أبو نواس بمدحه:

سخر الله للأمين مطايا	لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سريراً	سار في الماء راكباً ليث غاب
أسداً باسطاً ذراعيه يهوى	أهرت الشدق كالح الأنياب
لا يعانيه باللجام ولا السو	ط ولا غمر رجله في الركاب
عجب الناس إذ رأوك على صو	رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه	كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسـر وجنا	حين تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء إذا ما اسـ	تعجلوها بجيئة وذهاب
بارك الله للأمين وأبقـا	وأبقى له رداء الشـباب
ملك تقصر المدائح عنه	هاشمى موفق للصواب

جمع ما وقفنا عليه من أخبار الأمين وسيره أنه كان يميل جداً إلى اللهو والغناء والشرب
حتى أقعده ذلك عن التدبير لأمره. هذا مع أنه ممتاز على بنى العباس قاطبة بأنه هاشمى
لأبوين، ولكن ليس بحسن الأنساب تعلق الرجال وإنما علوها بحسن الفعال.

٧

المأمون

هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي . وأمه أم ولد اسمها مراجل ولد (سنة ١٧٠) في اليوم الذي ولى فيه أبوه الخلافة . وولاه أبوه العهد وسنه (١٣ سنة) بعد أخيه الأمين وضمه إلى جعفر بن يحيى وولاه خراسان وما يتصل بها إلى همذان ومنحه بمقتضى الشروط التى عقدها استقلالاً يكاد يكون تاماً، ولما توفى أبوه لم يف له أخوه بوعده بل أراد أن يقدم عليه فى ولاية العهد ابنه موسى فأبى ذلك المأمون وكان من ورثه ذلك الحرب الفظيعة التى قصصنا خبرها وهى التى انتهت بقتل الأمين فى (٢٥ محرم سنة ١٩٨) (٥ سبتمبر سنة ٨١٣).

بويح المأمون بالخلافة العامة فى ذلك التاريخ واستمر خليفة إلى أن توفى غازياً بطرسوس فى (١٩ رجب سنة ٢١٨) (١٠ أغسطس ٨٣٢) فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام. أقام منها ببلاد خراسان من تاريخ ولايته إلى منتصف صفر (سنة ٢٠٤) وهو تاريخ قدومه بغداد وأقام الباقى ببغداد حاضرة الخلافة العباسية.

وكان يعاصره فى بلاد الأندلس الحكم بن هشام ثالث أمراء بنى أمية (١٨٠- ٢٠٦) ثم ابنه عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ - ٢٣٨).

ويعاصره فى بلاد المغرب الأقصى إدريس بن إدريس بن عبد الله سنة (١٨٨- ٢١٣) ثم ابنه محمد بن إدريس (٢١٣- ٢٣٨).

ويعاصره فى إفريقية من بنى الأغلب عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب (١٩٦- ٢٠١) ثم ابنه زيادة الله بن إبراهيم فاتح صقلية (٢٠١- ٢٢٣).

ويعاصره فى فرنسا شارلمان صديق أبيه وقد توفى (سنة ٨١٤) ثم لويز الأول الملقب باللين.

ويعاصره فى القسطنطينية ليون الأرمنى (٨١٣- ٨٢٠) ثم ميخائيل الثانى الملقب بالتاء ثانى مرة (٨٢٠- ٨٢٩) ثم ابنه توفيل (٨٢٩- ٨٤٢).

الأحوال في المدة الأولى:

لما تم الأمر للمأمون بالعراق على يد القائدين العظيمين طاهر بن الحسين وهرثمة بن عيين كان الذي يدير الأمر بمرؤ الفضل بن سهل الذي يرى لنفسه الفضل الأكبر في تأسيس دولة المأمون فأراد أن يستفيد من هذه الدولة فيستأثر بنفوذ الكلمة فيها وليس يتم له ذلك . فعراق بين يدي طاهر وهرثمة فأصدر أمرين على لسان المأمون أولهما بتولييه الحسن بن سهل جميع ما افتتحه طاهر من كور الجبال وفارس والأهواز والبصرة والكوفة والحجاز . نيم . وكتب إلى طاهر أن يسلمه جميع ما بيده من الأعمال وأن يشخص إلى الرقة نحاربة نصر بن شيبث وولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب فلم يسع طاهراً إلا أن يسمع ويطيع فسلم ذلك كله .

والأمر الثاني إلى هرثمة يأمره بالشخص إلى خراسان فشخص - وبذلك خلا العراق من أسديه وأهل العراق من قديم عبيد القوة ولا سيما أنهم خارجون من ثورة وهيجان فكان من اللازم أن تظل الأيدي المرهوبة حتى يستكين الناس ويخضعوا .

ولم يبق المأمون بعد ذلك بخراسان . هل كان الفضل بن سهل يريد أن يحول الخلافة لإسلامية إلى مرو ، فيجعلها حاضرة البلاد الإسلامية ، أو رأى أن نفوذه يضعف إذا حل خليفة بغداد وبها الألسنة التي لا تمل الوشايات فخشى من ذلك على مركزه سواء كان لسبب في تخلفه هذا أو ذاك فقد نتج عن هذا التدبير مضار شديدة واضطرابات كادت ترجع ملك المأمون أثراً بعد عين؟

شاع بالعراق بعد خروج طاهر وولاية الحسن بن سهل أن الفضل بن سهل قد غلب على مأمون وأنزله قصرأ حجبته فيه عن أهل بيته ، ووجوه قواده وأنه يبرم الأمور على هواه فغضب لذلك من كان بالعراق من بنى هاشم ووجوه الناس وأنفوا من غلبة الفضل على مأمون ، واستخفوا بالحسن بن سهل وهاجت الفتن في الأمصار وأول فتنة كانت خروج محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن عليّ خرج بالكوفة وقام بأمر رجل كبير من رجال هرثمة بن أعين وهو أبو السرايا السري بن منصور الشيباني فاستولى على كوفة من يد نائب عاملها سليمان بن أبي جعفر المنصور ، فأرسل إليه الحسن بن سهل جيشاً يقوده زهير بن المسيب عشرة آلاف فهزمه أبو السرايا واستباح عسكره وأخذ ما كان معه من مال وسلاح ودواب وفي غد ذلك اليوم مات محمد بن إبراهيم فجأة وذلك يوم الخميس أول رجب (سنة ١٩٩) فولى أبو السرايا غلاماً أمرد حدثاً وهو محمد بن محمد بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ وكان أبو السرايا هو الذي ينفذ الأمور ويولى من رأى ويعزل من شاء وإليه الأمور كلها .

أرسل الحسن جيشاً ثانياً بقيادة عبدوس بن محمد بن أبي خالد المروروذى فتوجه إليه أبو السرايا وأوقع به وقعة فى (١٧ رجب سنة ١٩٩ فقتله وأسر أخاه هارون واستباح عسكره وكانوا نحو أربعة آلاف رجل فلم يفلت منهم أحد.

انتشر بعد ذلك الطالبيون فى البلاد وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة ونقش عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بَنِيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف: ٤).

أفاق الحسن بن سهل من غفلته لما وجد قواده لا يغنون عنه شيئاً وكلما وجه أحدهم لحرب أبى السرايا عاد مهزوماً فوجه فكرته إلى هرثمة بن أعين مفضلاً إياه على طاهر بن الحسين وكان هرثمة قد توجه إلى خراسان مغاضباً للحسن بن سهل وكان قد وصل حلوان فبعث إليه يسأله الانصراف إلى بغداد لحرب أبى السرايا فأبى فأعاد عليه الرسالة متلطفاً فأجاب وانصرف إلى بغداد فقدمها فى شعبان (سنة ١٩٩) وتهاى للخروج إلى الكوفة وتهاى معه جند اختاره فمر على المدائن واستولى عليها من يد عمال أبى السرايا ثم التقى الفريقان عند قصر ابن هبيرة فقتل من أصحاب أبى السرايا مقتلة عظيمة. ثم ألح عليه هرثمة بالحرب حتى لم يعد قادراً على حماية الكوفة التى هى قاعدة أعماله فهرب عنها هو ومن معه من الطالبين وسار إلى القادسية فى محرم (سنة ٢٠٠) ودخل هرثمة الكوفة وأمن أهلها ولم يعرض لأحد منهم ثم بارحها مساء ذلك اليوم.

وترك أبو السرايا مكانه بالقادسية وسار حتى أتى السوس من بلاد فارس فلقيه هناك الحسن بن على الباذغيسى المعروف بالمأمون فقاتله وهزمه واستباح عسكره وجرح أبو السرايا جراحاً شديدة فهرب مريداً منزله برأس العين من الجزيرة فعثر به فى الطريق هو ومن معه وجيء بهم إلى الحسن بن سهل وكان مقيماً بالنهروان فضرب عنقه، وصلب جسده ببغداد. وكان بين خروجه بالكوفة ومقتله عشرة أشهر.

ثم أخذت البصرة من يد عاملها لأبى السرايا وهو زيد بن موسى بن جعفر وكان يقال له زيد النار لكثرة ما أحرق من دور البصرة. وكان إذا أتى برجل من المسودة كانت عقوبته عنده أن يحرق بالنار فأخذ أسيراً وأمن.

وكان للطالبين فى تلك الفتن أسوأ أثر بمكة والمدينة فإن أبا السرايا كان قد ولى مكة حسين بن حسن بن على بن الحسين بن على وكان بها داود بن عيسى بن موسى العباسي والياً فلم يرض القتال فى الحرم وخرج عن مكة فدخلها الحسين قبل مغرب يوم عرفة ولما تفرق الحاج من مكة جلس خلف المقام على نمرقة مثنية فأمر بثياب الكعبة التى عليها فجردت حتى لم يبق عليها من كسوتها شيئاً ثم كساها ثوبين من خز رقيق كان أبو السرايا

وجه بهما معه مكتوب عليهما (أمر به الأصفر بن أبي الأصفر أبو السرايا داعية آل محمد لكسوة بيت الله الحرام وأن يطرح عنه كسوة الظلمة من ولد العباس ليظهر من كسوتهم .كتب سنة ١٩٩) ثم قسم الكسوة التي كانت على الكعبة بين أصحابه وعمد إلى ما فى حزانة الكعبة من مال فأخذه ولم يسمع بوديعة عند أحد لبني العباس وأتباعهم إلا هجم عليه فى داره فإن وجد من ذلك شيئاً أخذ وعاقب الرجل وإن لم يجد عنده شيئاً حبسه وعذبه حتى يفتدى نفسه بقدر طوله ويقر عنده الشهود أن ذلك للمسودة من بنى العباس وأتباعهم حتى عم ذلك خلقاً كثيراً وكان لهم دارٌ اسمها دار العذاب يعذب فيها الناس حتى هرب منهم خلق كثير من أهل النعم فيتبعوهم بهدم دورهم وجعلوا يحكمون الذهب الرقيق لئلا فى رؤوس أساطين المسجد فيخرج من الأسطوانة بعد التعب الشديد قدر مثقال ذهب أو نحوه حتى عم ذلك أكثر أساطين المسجد الحرام وقلعوا الحديد الذى على شبايك زمزم وخشب الساج فيعب بالثمن الخسيس .

وما زالوا على تلك الحال حتى بلغهم قتل أبى السرايا وأن من بالكوفة والعراق من تطالبين قد طردوا فاجتمعوا إلى محمد بن جعفر الصادق وكان شيخاً وادعاً محبباً فى الناس مفارقاً لما عليه أكثر أهل بيته من قبح السيرة وكان يروى العلم عن أبيه وطلبوا إليه أن يرز شخصه ليبياعوه بالخلافة فأجاب بعد تردد وحشر إليه الناس فباعوه طوعاً وكرهاً وسموه أمير المؤمنين . فأقام على ذلك أشهراً وليس له من الأمر إلا اسمه . وابنه على وحسين بن حسن أسوأ ما كانوا سيرة وأقبح ما كانوا فعلاً حتى تعدوا الأموال إلى لأعراض .

أراد الله أن يفرج عن أهل مكة ما هم فيه فقدم عليهم إسحاق بن موسى بن عيسى مقلداً من اليمن فقاتل العلويين أياماً ثم بارح مكة فلقية البعث الذى أرسله هرثمة لتخليص مكة فعاد معهم وكان رئيس البعث ورقاء بن جميع فقاتلوا العلويين حتى هزموهم وطلب محمد بن جعفر الأمان له ولبن معه حتى يخرجوا من مكة ويذهبوا حيث شاؤوا فأجبيوا ومهلوا ثلاثة أيام فلما انتهت دخلت الجنود العباسية مكة وذهب كل فريق من العلويين إلى حجة .

أما فى اليمن فكان قد خرج فيها إبراهيم بن موسى بن جعفر وكان واليها إسحاق بن موسى بن عيسى فلما سمع بإقبال إبراهيم ترك له صنعاء وانصرف مقلداً عمه داود بن عيسى فى مكة فاستولى إبراهيم على اليمن وكان يقال له الجزار لكثرة من قتل باليمن من الناس ، وفى موسم (سنة ٢٠٠) وجه بعض ولد عقيل بن أبى طالب من اليمن فى جند كيف ليحج بالناس وكان الذى ولى إمرة الحج من العباسيين أبا إسحق بن الرشيد ومعه

كثير من القواد فلما وصل العقيلي إلى بستان ابن عامر بلغه أمر من بمكة فتوقف بالبستان فمرت به قافلة من الحاج. والتجار وفيها كسوة الكعبة وطبيها فأخذ أموال التجار وكسوة الكعبة وطبيها وقدم الحاج مكة عراة مسلويين بلغ أبا إسحق أمر العقيلي فأرسل إليه أحد قواده فلقبه بالبستان فأسر أكثر من معه وهرب من هرب منهم يسعى على قدميه ورد إلى الحاج ما كان أخذ منهم وعاد بكسوة الكعبة ثم عاقب كلاً من هؤلاء الأسرى بعشرة أسواط وخلاهم فذهبوا يستطعمون الناس في الطريق حتى هلك أكثرهم جوعاً.

انتهت هذه الفتن العلوية التي عادت بالضرر على البلاد والعباد والفضل في انتهاء أمرها لهريثة بن أعين القائد المحنك. ولما فرغ هريثة من أداء تلك المهمة أراد أن يتوجه إلى المأمون بمرو ليطلعه على حقيقة الحال، وما ينكره الناس عليه من استبداد الفضل بن سهل على أمره ولم يكن مما يروق في عين الفضل فأفهم المأمون أن هريثة قد أفسد البلاد وأنه هو الذي دس إلى أبي السرايا حتى صنع ما صنع ولو شاء أن لا يفعل ذلك أبو السرايا ما فعل لأنه كان من ضمن جنوده. وكان المأمون قد كتب لهريثة كتاباً من الطريق ليرجع ويلى الشام والحجاز فأبى هريثة أن يرجع حتى يرى أمير المؤمنين ويبين له حقيقة الحال فكان ذلك مما زاد المأمون وحشة منه. ولما بلغ هريثة مرو خشى أن يكتم المأمون خبر قدومه ف ضرب الطبول كي يسمعها المأمون فلما سمعها سأل فقالوا هريثة جاء يبرق ويرعد وظن هريثة أن قوله المقبول فأدخل على المأمون وقد أشرب قلبه منه ما أشرب فلم يسمع منه كلمة وأمر به فوجئ عنقه وديس بطنه وسحب بين يديه. وقد تقدم الفضل إلى الأعوان بالتغليظ عليه والتشديد فمكث في حبسه أياماً ثم دسوا إليه فقتلوه، وقالوا إنه مات. هكذا ذهب القائد العظيم من غير جناية ضحية خبث البطانة.

ولما بلغ أهل بغداد ما صنع بهريثة هاج الجند الحربية بها وثاروا على الحسن بن سهل فأخرجوا ولاته من بغداد واستخفوا بأمر المأمون، ولم يكن عند الحسن ما يقدر به على عمل لضعفه وسوء رأيه. ثم عمد أهل بغداد إلى منصور بن المهدي وطلبوا إليه أن يبايعوه بالخلافة ويخلعوا المأمون فأبى ذلك عليهم فطلبوا إليه أن يكون عليهم أميراً وأن يدعو للمأمون وقالوا: لا نرضى بالمجوسى الحسن بن سهل ونظرده حتى يرجع إلى خراسان فقبل وتولى أمر بغداد إلا أنها على كل حال كانت خالية من جيش قوى يأخذ على أيدي المفسدين من أهلها فتتج عن ذلك الفساد الشديد فإن فساد الحربية والشرطة الذين كانوا بها وبالكرخ آذوا الناس أذى شديداً وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطريق وكانوا يسألون الرجل أن يقرضهم أو يصلهم فلا يقدر على الامتناع وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال غير ذلك لا

سلطان يمنعهم لأن السلطان كان يعتز بهم وكانوا بطانته فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يتكبونه وكانوا يجيبون المارة في الطريق والسفن وعلى الظهر ويخفرون البساتين ويقطعون لغرق علانية ولا أحد يعدو عليهم! رأى الناس شدة هذا البلاء وضعف السلطان عن حمايتهم فقام صلحاء كل ريف وكل درب فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا إنما في الدرب لغسق والفاسقان إلى العشرة وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم وحداً لقمعتم هؤلاء الفساق. فقام رجل من ناحية طريق الأنبار اسمه خالد الدريوش فدعا جيرانه وأهل محله إلى أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأجابوه إلى ذلك. شد على من يليه من الفساق والشطار فمنعهم عما كانوا يصنعون فامتنعوا عليه فقاتلهم وهزمهم. وأخذ بعضهم فضربهم وحبسهم ورفعهم إلى السلطان وكان لا يرى من حقه الاعتداء على السلطان. ثم قام من بعده آخر اسمه سهل بن سلامة الأنصاري فدعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلق مصحفاً في عنقه ثم بدأ بأهل جيرانه ومحله ففرهم ونهاهم فقبلوا منه ثم دعا الناس جميعاً إلى ذلك الشريف منهم والوضيع بنى هاشم ومن دونهم وجعل له ديواناً يثبت فيه من أتاه منهم فبايعه على ذلك خلق كثير ثم طاف بغداد وأسواقها وأرباضها ودروبها وطرقها ومنع كل من يخفر ويجبي المارة وقال: لا خفارة في الإسلام - والخفارة أن يأتي الرجل بعض أصحاب البساتين فيقول بستانك في خفري فدفع عنه من أراحه بسوء ولي في عنقك كل شهر كذا وكذا درهماً فيعطيه ذلك شاء أم أبى.

لم يكن سهل والدريوش على وفاق لأن مقصد الدريوش كان معاونة السلطان في نقض على أيدي المفسدين، ولا يعيب عليه شيئاً ولا يقاتله ولا يأمره بشيء ولا ينهيه أما سهل فيظهر أنه كان ذا أطماع قال: إني أقاتل من خالف الكتاب والسنة سلطاناً كان أو سوقة فقد جعل نفسه بذلك فوق الجميع وكثرت أتباعه حتى خافه الولاة وخافه منصور نهدي الذي أقامه العراقيون أميراً.

ونحن نرى أن عمل هذين الرجلين وتكوين هذه الجمعية من أحسن ما يفكر فيه العقلاء في مثل ظروفهم لأن ذلك منع من وجود الفتنة الأهلية التي تقارن هذه المفاصل عادة.

كل ذلك وكان والمأمون في مرو لا يصل إليه شيء من أخبار حاضرة الخلافة وقد حجبه نقض بن سهل فلا يوصل إليه ما يشتهي.

وما كان في تلك الأونة أن المأمون اختار لولاية عهده علياً الرضا بن موسى بن جعفر صادق وهو الثامن من أئمة الشيعة الإمامية الاثنا عشرية وسماه الرضا من آل محمد وأمر محمد جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس ثياب الخفزة الذي اختاره شعاراً للدولة جديدة وكتب بذلك إلى الآفاق ويغلب على الظن أن هذا من عمل الفضل بن سهل لأن

الفرس يعجبهم أن يكون إمام المسلمين علوياً وطالما قاتلوا في سبيل رجوع السلطان إلى بني على وهذه فرصة يأخذون فيها الخلافة من غير حرب ولا قتال وساعد على ذلك ما كان يراه المأمون نفسه من تفضيل علىّ على غيره من الخلفاء الراشدين وأنه كان أحق بالخلافة منهم ولا نرى ذلك جاء المأمون إلا من البيعة التي تربي فيها فإنه كان في أول أمره في حجر جعفر البرمكي ثم انتقل إلى الفضل بن سهل وكلهم ممن يتشيع فاختمرت عنده هذه الفكرة على غير ما كان عليه أباه.

بلغ ذلك أهل بغداد فاختلّفوا فقال بعضهم: نبايع ونلبس الخضر وقال بعضهم: لا نبايع ولا نلبس الخضر ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس وإنما هذا دسيس من الفضل بن سهل فمكثوا على ذلك أياماً، وغضب ولد العباس من ذلك واجتمع بعضهم إلى بعض وتكلموا فيه وقالوا: نولى بعضنا ونخلع المأمون واتفقوا أخيراً على مبايعة إبراهيم المهدي عم المأمون بالخلافة وخلعوا المأمون وكان ذلك في أول المحرم (سنة ٢٠٢) فتغلب إبراهيم مع أهل بغداد على الكوفة والسواد كله وعسكر بالمداين وولى الجانب الشرقي من بغداد العباس بن الهادي والجانب الغربي إسحاق بن الهادي وتغلب على سهل بن سلامة المتطوع بعد أن تركه من معه.

بلغت هذه الأحوال المأمون ويقال إن الذي أبلغه إياها على الرضا ولى عهده فإنه أخبره بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار وأن أهل بيته قد نقموا عليه أشياء فبايعوا لإبراهيم بن المهدي بالخلافة - فقال له المأمون: إنما بايعوه ليكون أميراً لهم يقوم بأمرهم على ما أخبره به الفضل - فأعلمه أن الفضل قد كذبه وغشه وأن الحرب قائمة بين إبراهيم بن المهدي والحسن بن سهل وأن الناس ينقمون عليه مكانه ومكان أخيه ومكاني ومكان بيعتك لي من بعدك وسمى له عدة من القواد يشهدون بما قال فأحضرهم المأمون وسألهم فأخبروه بالخبر على وجهه بعد أن أعطاهم أماناً من الفضل بن سهل وأخبروه بما موه عليه الفضل في أمر هرثمة وأن هرثمة إنما جاء ناصحاً ليبين له ما يعمل وإنه إن لم يتدارك الأمر خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته وأن الفضل دس إلى هرثمة من قتله وأن طاهر بن الحسين قد أبلى في طاعته ما أبلى حتى إذا وطأ الأمر أخرج من ذلك كله وصير في زاوية في الأرض بالرقعة قد حظرت عليه الأموال حتى ضعف أمره فشغب عليه جنده وأنه لو كان على خلافتك ببغداد لضبط الملك ولم يجترأ عليه بمثل ما اجتريء به على الحسن بن سهل، وأن الدنيا قد تفتقت من أقطاره وسألوا المأمون الخروج إلى بغداد فإن بني هاشم والموالي والقواد والجنود لو رأوك سكنوا وفاءوا بالطاعة لك.

لما تحقق ذلك المأمون أمر بالرحيل إلى بغداد ولم يسلم هؤلاء القواد من شر الفضل بل عقيبهم بالحبس والطرده فراح على الرضا إلى المأمون وأعلمه بما كان من ضمانته لهم فأعلمه أنه يدارى ما هو فيه .

ارتحل المأمون من مرو حتى سرخس وهناك شد قوم على الفضل بن سهل وهو في خماس فضربوه بسيفهم حتى مات وذلك في (٢ شعبان سنة ٢٠٢) فأخذ ضاربوه وهم أربعة من خدم المأمون فلما جاء بهم إليه قالوا: أنت أمرتنا بقتله فأمر بهم فضربت أعناقهم . وسوابق العلة تؤكد أن صدورها كان بتدبير المأمون لأنه أحس بثقل يد الفضل عليه وبما كان من غشه له وأنه ما دام معه لا يرى من أهل بغداد طاعة فاحتال بهؤلاء الخدم ثم قتلهم وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل وعزاه وأخبره أنه صيره مكانه .

رحل المأمون من سرخس يوم عيد الفطر وكان هذا الرحيل سبباً لاختلاف القواد ببغداد عنى إبراهيم بن المهدي لأن السبب الذي من أجله خلعوا المأمون قد زال فاضطرب أمر إبراهيم ببغداد .

لما صار المأمون بطوس حدثت حادثة أخرى وهى وفاة على الرضا ويتممون المأمون بأنه سمه وليس عندنا من البراهين ما يؤكد هذه التهمة لأنه بقدر ما يقربها إرادة المأمون التقرب إلى أهل بغداد والعباسيين بالتخلص منه يبعدها ما كان مغروساً فى نفس المأمون من محبة كـ أبى طالب وأنه صاهر علياً وأن علياً هو الذى أظهر له حقيقة ما كان يدور بالعراق من لفتق ولا يبعد عندى أنه من فعل بعض البطانة المأمونية ليخففوا عن المأمون اضطراب ل عباسيين ويخلصوا مما يعتقدونه شراً وهو خروج الخلافة من آل العباس . وهناك كتب مأمون إلى بنى العباس والموالى وأهل بغداد يعلمهم موت على بن موسى .

رحل المأمون من طوس إلى الرى وهناك تحبب إلى أهلها بإسقاط ألفى ألف درهم من حراجها . وكان كلما قرب من بغداد زاد الاضطراب على إبراهيم بن المهدي وقام القواد فى وجهه حتى كتبوا إلى قائد من قواد الحسن بن سهل يطلبون إليه الحضور ليسلموا إليه ببغداد هم يلبث أن حضر وسلم له جند ببغداد المدينة وأعلن خلع إبراهيم بن المهدي والدعوة مأمون فاخفى إبراهيم ليلة الأربعاء (١٧ ذى الحجة سنة ٢٠٣) فكانت أيامه كلها ببغداد سنة واحدة وأحد عشر شهراً واثنى عشر يوماً .

ما زال المأمون ينتقل من منزلة إلى منزلة حتى وصل النهروان وهناك خرج أهل بيته ونقواد ووجوه الناس فسلموا عليه ووافاه طاهر بن الحسين من الرقة لأنه أمره بذلك . وفى يوم السبت لأربع عشر بقيت من صفر (سنة ٢٠٤) دخل مدينة بغداد فى لباسه ولباس أهله

الخضرة أقيبتهم وقلانسهم وأعلامهم فلبس ذلك أهل بغداد وبنو هاشم أجمعون. ومكثوا على ذلك ثمانية أيام فتكلم في ذلك بنو هاشم وولده العباس خاصة وقالوا: يا أمير المؤمنين تركت لباس آبائك وأهل بيتك ودولت ولبست الخضرة وكتب إليه في ذلك قواد أهل خراسان وسأله طاهر بن الحسين أن يرجع إلى لبس السراة فلما رأى المأمون طاعة الناس له في لبس الخضرة وكراحتهم لها قعد لهم وعليه ثياب خضر فلما اجتمعوا عنده دعا بسواد فلبسه ودعا بخلعة سواد فألبسها طاهراً ثم دعا بعدة من قواده فألبسهم أقبية وقلانس سوداً فلما خرجوا من عنده وعليهم السواد طرح سائر القواد والجند لبس الخضرة ولبسوا السواد وابتداء من ذلك الوقت ملك المأمون الحقيقي.

المأمون ببغداد:

أشرقت شمس أبي العباس عبد الله المأمون ببغداد حاضرة آبائه ومن ذلك الوقت ابتدأ ملكه الحقيقي وتجلت مزاياه وأخلاقه التي لم يشابهه فيها أحد من أهل بيته وساس الأمة وسياسة لين لا يشوبه ضعف وقوة لا يشوبها عنف وأخذت بغداد تستعيد نضرتها التي كانت لها في عهد أبيه وعظمت بها الحركة العلمية لما كان من ميل المأمون الشديد إلى تقوية تلك الحركة وسنين ذلك في فصل خاص إن شاء الله به أن تنتهي من بيان الحالة الداخلية.

الوزارة في عهد المأمون:

أول وزراء المأمون الفضل بن سهل وهو فارسي الأصل أسلم على يد المأمون (سنة ١٩٠) ويقال إن أباه سهلاً على يد المهدي والذي اختار الفضل للمأمون هو الرشيد بإشارة جعفر بن يحيى فكان مدير أمره وهو ولي عهده ولما فعل الأمين ما فعل دبر الفضل أمر إرساء الجنود وتدبير ما يلزمهم فأرسل طاهر بن الحسين لمحاربة على بن عيسى بن ماهان. وقد انتصر طاهر لقب الفضل ذا الرياستين وجعل له علماً من سنان ذي شعبتين وكتب على سيفه من جانب رئاسة الحرب ومن الجانب الآخر رئاسة التدبير وولاه المأمون في هذه السنة وهي (سنة ١٩٦) على المشرق كله وجعل عمالته ثلاثة آلاف ألف درهم (نحو ستين ألف جنيه).

ولما تم للمأمون النصر بتدبيره استولى عليه حتى ضايقه ولما كان من أمر أهل بغداد ما كان دبر المأمون عليه بسرخص من قتله وكان الفضل يتشيع حتى حمل المأمون على بيعه على الرضا بولاية العهد من بعده فجنى بذلك على نفسه وعلى الرضا من بعده وكان

تفضل بن سهل مولعاً بالنظر في النجوم ويقال إن له إصابات كثيرة في أمور أنبأ عنها قبل وقوعها وجميع ما دبره في أمر المأمون مع أخيه يدل على فكر شديد ورأى محكم وكان مع نكت جيد الكتابة حسن القول سخي اليد وقد مدحه كثير من شعراء عصره.

استوزر المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل أحمد بن أبي خالدة وأصله شامي مولى لبني عمر بن لؤي وكان أبوه كاتباً لعبيد الله كاتب المهدي أحضره المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل وقال له: إني كنت عزمت ألا أستوزر أحداً بعد ذي الرياستين وقد رأيت أن أستوزرك فقال: يا أمير المؤمنين اجعل بيني وبين الغاية منزلة يتأملها صديقي فيرجوها لي ولا يقول عدوى قد بلغ الغاية وليس إلا الانحطاط فاستحسن المأمون كلامه واستوزره.

وكان أحمد هذا من خيار الوزراء يحب أن تخلص قلوب الرعية لإمامه فكان دائم نشورة بما يسر أنفسهم ويسل دفين الأحقاد من صدورهم ومن طريف ما حصل منه مع مأمون أن المأمون ذكر يوماً عمرو بن مسعدة فاستأبطاه وقال: يظن أنني لا أعرف أخباره وما يجب إليه وما يعامل به الناس وكان أحمد حاضراً هذا المجلس فذهب إلى عمرو وأخبره خبير. فراح عمرو إلى المأمون فلما دخل عليه وضع سيفه بين يديه وقال: يا أمير المؤمنين ثأ عائد بالله من سخطك ثم عائد بك من سخطك يا أمير المؤمنين أنا أقل من أن يشكوني أمير المؤمنين إلى أحد أو يسر لي ضعفاً يبعثه بعض الكلام على إظهاره ما يظهر منه. فقال له: وما ذاك فأخبره عمرو بما بلغه ولم يسم له المخبر فقال له المأمون: لم يكن الأمر كما بلغك وإنما كانت جملة من تفصيل كانت على أن أخبرك به وإنما أخرج مني هذا الكلام معنى تجاريتاه وليس لك عندي إلا ما تحب فليفرج روعك وليحسن ظنك وظهر في وجهه خياء والحجل فلما غدا أحمد على المأمون قال له: أما لمجلسي حرمة؟ فقال: يا أمير المؤمنين وهل الحرمة إلا لما فصل عن مجلسك فأخبره المأمون الخبر وأن بعض من حضر ممن سى هاشم هو الذي أفشى ما قاله المأمون فقال أحمد: أنا يا أمير المؤمنين أخبرت عمراً لا أحد من بني هاشم والذي حملني على ذلك الشكر لك والنصح والمحبة لأن نعمتك على تولياتك وخدمك أعلم أن أمير المؤمنين يحب أن يصلح له الأعداء والبعداء فكيف الأولياء والقرباء لا سيما مثل عمرو في دنوه من الخدمة وموقعه من العمل ومكانه من رأي أمير المؤمنين أطل الله بقاءه فيه سمعت أمير المؤمنين أنكروا منه شيئاً فخبرته به ليصلحه ويقوم من نفسه أودها لسيده ومولاه ويتلافى ما فرط منه ولا يفسده مثله ولا يبطل الغناء فيه وإنما كان يكون ما فعلت فيها لو أشعت سراً فيه قدح في السلطان أو نقض تدبير في استتب فأما مثل هذا فما حسبه أن يكون ذنباً على فنظر إليه المأمون ملياً وقال: كيف قلت فأعاد عليه ما قال ثم قال: أعد فأعاد الثالثة فقال له المأمون: أحسنت لما أخبرتنى به أحب إليّ من ألف ألف

وَأَلْفَ أَلْفٍ وَأَلْفَ أَلْفٍ وَعَقْدَ خَنْصَرِهِ وَيَنْصَرُهُ وَالْوَسْطَى وَقَالَ: أَمَّا أَلْفُ أَلْفٍ فَلَنْفِيكَ عَنِّي سَوْءَ الظَّنِّ وَأَطْلُقُ وَسَطَاهُ وَأَمَّا أَلْفُ أَلْفٍ فَلَصَدَقَكَ إِيَّايَ عَن نَفْسِكَ وَأَطْلُقُ الْبَنْصَرَ وَأَمَّا أَلْفُ أَلْفٍ فَلَحَسَنَ جَوَابِكَ وَأَطْلُقُ الْخَنْصَرَ.

وَمِنْ عِيُوبِ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ أَنَّهُ كَانَ شَرَّهَا يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ النَّاسُ بِالْمَأْكَلِ لِيَنَالُوا مَا عِنْدَهُ مِنَ الْمَصَالِحِ وَكَانَ الْمَأْمُونُ يَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ فَأَجْرَى عَلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ لِمَائِدَتِهِ أَلْفَ دِرْهَمٍ لَثَلَا يَشْرَهُ إِلَى طَعَامِ أَحَدٍ مِنْ بَطَانَتِهِ وَكَانَ مَعَ هَذَا يَشْرُهُ إِلَى طَعَامِ النَّاسِ وَتَمْتَدُّ عَيْنُهُ إِلَى هَدِيَّةٍ تَأْتِيهِ وَكَانَ مَعَ هَذَا أَسَى اللَّقَاءِ عَابِسَ الْوَجْهِ يَهْرُ فِي وَجْهِهِ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ غَيْرَ أَنْ فَعَلَهُ كَانَ أَحْسَنَ مِنْ لِقَائِهِ وَكَانَ مِنْ عَرَفِ أَخْلَاقِهِ وَصَبَرَ عَلَى مَدَارَاتِهِ نَفْعَهُ وَأَكْسَبَهُ.

وَمِنْ الْغَرِيبِ أَنْ يَتَّفَقَ لِشَخْصٍ الشَّرَاهَةُ إِلَى طَعَامِ النَّاسِ وَكَثْرَةُ الْعَطَايَا الَّتِي كَانَ يَمْنَحُهَا مِنْ خَاصِّ مَالِهِ وَقَدْ رَوَى عَنْهُ أَبُو الْفَضْلِ أَحْمَدُ بْنُ طَاهِرٍ بْنُ طَيْفُورٍ فِي أَخْبَارِ بَغْدَادٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ يَهْدِي إِلَى الطَّعَامِ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرَى مَا أَصْنَعُ بِهِ يَهْدِيهِ إِلَى صَدِيقٍ اسْتَحَى مِنْ رَدِّهِ عَلَيْهِ.

تَوَفَّى أَحْمَدُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ فِي ذِي الْقَعْدَةِ (سَنَةِ ٢١١) وَصَلَّى عَلَيْهِ الْمَأْمُونُ وَلَمَّا دَلَّى فِي حَفْرَتِهِ تَرَحَّمْ عَلَيْهِ وَقَالَ: أَنْتَ وَاللَّهِ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

أَخُو الْجَدِّ إِنْ جَدَّ الرِّجَالُ وَشَمَّرُوا وَذُو بَاطِلٍ إِنْ كَانَ فِي الْقَوْمِ بَاطِلٌ

اسْتَوَزَرَ الْمَأْمُونُ بَعْدَهُ أَحْمَدَ بْنَ يَوْسُفَ كَانَ كَاتِبًا مِنْ خَيْرَةِ الْكُتَّابِ وَأَجُودَهُمْ خَطًّا حَتَّى قَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ يَوْمًا: يَا أَحْمَدُ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَخْطُ مِثْلَ خَطِّكَ وَعَلَى صَدَقَةِ أَلْفِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ. وَكَانَ يَجِيدُ الْكِتَابَةَ حَتَّى كَانَ الْمَأْمُونُ إِذَا كَانَ يَتَوَلَّى عَمْرُو بْنُ مَسْعُودَةَ دِيَوَانَ الرِّسَالِ كَانَ يَكْلِفُ أَحْمَدَ بْنَ يَوْسُفَ بَكْتَابَةَ الْكُتُبِ الَّتِي يَرِيدُ أَنْ تَشْهَرَ وَتَذْكَرَ وَوَلَاهُ الْمَأْمُونُ دِيَوَانَ الرِّبْرِيدِ خِرَاسَانَ وَصَدَقَاتِ الْبَصْرَةِ وَلَمَّا مَاتَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ اسْتَوَزَرَهُ مَكَانَهُ وَكَانَ مِنْ بَطَانَةِ الْمَأْمُونِ مَنْ يَحْسُدُ أَحْمَدَ بْنَ يَوْسُفَ عَلَى الدَّرَجَةِ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا مِنَ الْمَأْمُونِ فَكَادُوا لَهُ الْمَكَائِدَ حَتَّى أَقْصَوْهُ عَنْ قَلْبِهِ وَقَدْ أَرَدَتْ أَنْ أُبَيِّنَ لِحَضْرَاتِكُمُ الطَّرِيقَةَ الدِّنْيِيَّةَ الَّتِي اتَّبَعُوهَا مَعَ الْوَزِيرِ الَّذِي لَمْ يَجِدُوا فِيهِ عَيْبًا مِنْ جِهَةِ عَمَلِهِ. كَانَ الْمَأْمُونُ يَسْتَدْعِي أَحْمَدَ بْنَ يَوْسُفَ سَحَرًا لِقَضَاءِ الْأُمُورِ مَعَهُ فَقَالَ أَحَدُ الْبَطَانَةِ لِلْخَادِمِ مَنْ يَقُومُ عَلَى رَأْسِ الْمَأْمُونِ: إِذَا خَصَّ الْمَأْمُونُ أَحْمَدَ بْنَ يَوْسُفَ بِكَرَامَةٍ أَوْ لَوْنٍ مِنَ الْأَلْوَانِ فَأَعْلَمْنِي وَضَمَنْ لَهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَالًا. دَخَلَ أَحْمَدُ عِنْدَ الْمَأْمُونِ ذَاتَ يَوْمٍ سَحَرٌ وَلَيْسَ عِنْدَهُ أَحَدٌ وَكَانَ تَحْتَ الْمَأْمُونِ مَجْمَرَةٌ عَلَيْهَا بَيْضَةٌ غَنَبَرٌ كَانَ أَمْرُ بَوْضَعِهَا حِينَ دَخَلَ أَحْمَدُ وَلَمْ تَكُنِ النَّارُ قَدْ عَمَلَتْ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا فَأَرَادَ أَنْ يَكْرِمَ بِهَا أَحْمَدَ وَيُؤَثِّرَهُ بِهَا فَأَمَرَ بِأَنْ تَنْقَلُ تَحْتَهُ. فَأَخْبَرَ الْخَادِمُ صَاحِبَهُ بِذَلِكَ وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْخَلِيلِ بْنِ هِشَامٍ فَلَمَّا دَخَلَ الْمَأْمُونُ سَأَلَهُ عَمَّا تَقُولُ الْعَامَّةُ وَمَا تَتَحَدَّثُ بِهِ فَكَانَ مِمَّا أَخْبَرَهُ بِهِ

ن قال: انصرفت يوماً فمررت بمشرفة وأنا في الزلال (قارب) فسمعت سقاء يقول لآخر معه ما رأيت كما يخبر ندماء الرجل عنه فقال: ومن تعنى - قال له: أمير المؤمنين - قال: وما ذاك؟ - قال: انصرف من عنده أحمد بن يوسف فسمعتة يقول لغلامه ما رأيت أحداً قط تبخل ولا أعجب من المأمون دخلت عليه اليوم وهو يتبخر فلم تتسع نفسه أن يدعو لى بقطعة بخور حتى أخرج القنار الذى كان تحته فبخرنى به، فعرف المأمون الحديث وقال فى نفسه: والله ما حضر هذا اليوم أحد فأتوهم فيه ضرباً من الضروب، وجفا أحمد بن يوسف وأزاله عن مرتبته.

استوزر المأمون بعده القاضى يحيى بن أكثم التميمى كان من جلة العلماء الفقهاء الذين هم قدم ثابتة فى الحديث والفقه والأصول تولى قضاء البصرة وسنه عشرون سنة ثم اتصل بالمأمون وصله به ثمامة بن أشرس العالم المتكلم الذى كان المأمون يثق به كثيراً فلما احتاج مأمون إلى من يوليه الوزارة عرضها على ثمامة فامتنع منها ووصف له يحيى فاستوزره وولاه مع ذلك قاضى القضاة فكان إليه تدبير المملكة والقضاء وقلما اجتمعا فى شخص. وكان يحيى على مذهب العامة فكان إذا أراد المأمون شيئاً يخالف ما هم عليه احتال فيما يرجعه عنه. أراد المأمون أن يعلن يوماً حل المتعة وهى شىء نهى عنه عمر بن الخطاب فدخل عليه يحيى وهو متغير فسأله المأمون عن سبب تغيره فقال: غم يا أمير المؤمنين لما حدث فى الإسلام وهو النداء بتحليل الزنا قال الزنا، قال: نعم المتعة زنا، قال: من أين؟ قال: من كتاب الله وحديث رسول الله قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ (٥)﴾ (٥) عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاعِلُونَ﴾ (المؤمنون: ٥ - ٧) يا أمير المؤمنين زوجة المتعة ملك يمين قال: لا. قال: فهى لزوجة التى عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها قال: لا. قال: فقد صار من يتجاوز هذين من العادين - وهذا الزهرى يا أمير المؤمنين روى عن عبد الله والحسن بن محمد بن الحنفية عن أبيهما عن علي بن أبى طالب قال: أمرنى رسول الله ﷺ أن أنادى بالنهى عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها (أخرج الزهرى ورواه الإمام مالك) - فسأل المأمون عن حديث الزهرى أهو محفوظ فعلم أنه رواه مالك فقال المأمون: أستغفر الله وأمر فتودى بتحريم المتعة. وكان يحيى مع فقهه من أدهى الناس وأخبرهم بالأمور فصيحاً جوابه على قدر سؤال سائله لقيه مرة رجل فقال: أصلح الله القاضى كم أكل قال: فوق الجوع ودون الشبع قال: فكم أضحك قال: حتى يسفر وجهك ولا يعلو صوتك، قال: فكم أبكى قال: لا تقل من البكاء من خشية الله تعالى، قال: فكم أخفى عملى قال: ما استطعت، قال: فكم أظهر منه قال: مقدار ما يقتدى بك البر الخير ويؤمن عليك قول الناس.

وكان يحيى من المحدثين الذين يروى عنهم الحديث وقد اتهم بهنات لم يشتهها الناقدون من أهل عصره قال طلحة بن محمد جعفر فى حقه: يحيى بن أكثم أحد أعلام الدنيا قد اشتهر أمره وعرف خبره ولم يستر عن الكبير والصغير من الناس فضله وعمله ورياسته وسياسته لأمره وأمر أهل زمانه من الخلفاء والملوك واسع العلم بالفقه كثير الأدب حسن المعارضة قائم بكل معضلة وغلب على المأمون حتى لم يتقدمه أحد من الناس جميعاً عنده. وكان المأمون ممن برع فى العلوم فعرف من حال يحيى بن أكثم وما هو عليه من العلم والعقل ما أخذه بمجامع قلبه حتى قلده قضاء القضاة وتدبير أهل مملكته فكانت الوزارة لا تعمل فى تدبيره الملك شيئاً إلا بعد مطالعة يحيى بن أكثم.

وذكر الخطيب فى تاريخه أنه ذكر لأحمد بن حنبل رضى الله عنه ما يرميه الناس به فقال: سبحان الله من يقول هذا وأنكر ذلك إنكاراً شديداً ذكر ذلك ابن خلكان فى تاريخه وقال الطيفورى فى تاريخ بغداد: قال أحمد بن أبى طاهر كان المأمون يحضر يحيى بن أكثم وهو يشرب فلا يسقيه ويقول: لو أراد يحيى أن يشرب ما تركته وربما وضعت الصحفة قدام المأمون فيها مطبوخ (نبيذ) ويحيى يأكل معه فيقول له المأمون فيها مطبوخ إنى لا أترك قاضى يشرب النبيذ.

ولم يذكر ابن طباطبا فى كتابه الفخرى يحيى بن أكثم فى عداد وزراء المأمون والظاهر من عبارة طلحة بن محمد التى أوردناها أنه كان بمنزلة مستشار للخليفة فيما يجرى على أيدي الوزراء من الأعمال.

ولم يكن ختام أمره مع المأمون خيراً فقد كان من ضمن وصية المأمون لأخيه المعتصم. ولا تتخذن بعدى وزيراً تلقى إليه شيئاً فقد علمت ما نكبنى به يحيى بن أكثم فى معاملة الناس وخبث سيرته حتى أبان الله ذلك منه فى صحة منى فصرت إلى مفارقتة قائلاً له غير راض بما صنع فى أموال الله وصدقاته لا جزاء الله عن الإسلام خيراً.

ولولا هذه العبارة فى وصية المأمون لم يكن وصل إلى علمنا شيء مما كان بين المأمون ويحيى بن أكثم فى خاتمة الاتصال بينهما ثم رأيت فى مروج الذهب أن المأمون سخط عليه (سنة ٢١٥) وذلك بمصر وبعث به إلى العراق مغضوباً عليه.

وقد طالت حياة يحيى بن أكثم حتى توفى فى عهد جعفر المتوكل.

ومن وزراء المأمون أبو عباد الثابت بن يحيى بن يسار الرازى وهو الذى يقول فيه دعبل:

أولى الأمور بضيعة وفساد أمر يدبره أبو عباد

فقد كان مع كتابته وحذقه بالحساب أهوج محمقاً. وقد قيل للمأمون إن دعبلاً هجاك هذا: من أقدم على هجاء أبي عباد كيف لا يهجونى. وكان شديد الحدة سريع الغضب بما اغتاظ من بعض من يكون بين يديه فرماه بدواته أو شتمه فأفحش.

ومن وزرائه أبو عبد الله محمد بن داود بن سويد وهو آخر وزرائه وأصل بيته من حراسان كانوا مجوساً ثم أسلموا واتصلوا بالخلفاء وسويد أول من أسلم منهم وخرج بنوه كنجاً ولا سيما محمداً فإنه تأدب وبرع فى كل شىء فاستوزره المأمون ومات وهو وزيره.

ولم يكن للوزراء فى عهد المأمون كبير نفوذ بالأمور ولا استبداد بمصالح الدولة بل كانوا يهون هذه المصالح مع المأمون نفسه ويظهر أن الحروب السابقة فى عهد الرشيد ومن قبله بل وفى أول عهد المأمون جعلت الخليفة يسر أمور دولته بنفسه لئلا يستفحل أمر وزرائه فيكون من ذلك ما يخشاه من مثل ما حصل للفضل بن سهل ولجعفر بن يحيى البرمكى وأهل بيته ولمن قبلهم من أمثالهم.

الأحوال الداخلية:

العلويون وآثارهم فى الدولة.

قدمنا ما كان من المأمون من اختياره لولاية عهده على الرضا بن موسى الكاظم وهو ثامن من أئمة الشيعة الإمامية الاثنى عشرية واتخذه شعار الأخضر بدل الأسود وما ترتب على ذلك من الاضطراب فى بغداد وقيام أبى السرايا والعلويين الذين قاموا من أجل قيامه فى الأمصار الكبرى ثم ما كان من وفاة على الرضا بطوس وانتهاء فتنة أبى السرايا وسقوط جميع العلويين الذين خرجوا فى ذلك الوقت بالبصرة والحجاز واليمن. ونزع المأمون لشعار الأخضر بعد حلوله ببغداد وعودته إلى شعار أهل بيته وهو السواد. وكان المأمون يعامل الطالبين معاملة تناسب اعتقاده فى فضل أبيهم إلى أن خرج فى (سنة ٢٠٧) باليمن من آل أبى طالب عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب فوجه إليه المأمون دينار بن عبد الله فى جيش كثيف وكتب معه بأمانه فحضر دينار بن عبد الله الموسم وحج ولما فرغ من حجه سار إلى اليمن حتى أتى عبد الرحمن فبعث إليه بأمانه من المأمون فقبل ذلك ودخل ووضع يده فى يد دينار فخرج به إلى المأمون فمنع مأمون عند ذلك الطالبين من الدخول عليه وأمر بأخذهم بلبس السواد.

ومع ذلك فقد جاء فى وصيته لأخيه المعتصم وهو يجود بنفسه، (وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه، فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئتهم

وأقبل من محسنهم وصلاتهم فلا تغفلها فى كل سنة عند محلها فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى).

وبسبب اختلال الأمن فى البلاد اليمنية ورسوخ التشيع فيها أراد المأمون أن يختار لولاية تهامتها من يأخذ على أيدى المفسدين فيها فأشار عليه الحسن بن سهل برجل من ولد زياد بن أبى سفيان وهو محمد بن إبراهيم الزيدى فولاه إياه (سنة ٢٠٣) فتوجه فحج ثم ذهب إلى اليمن ففتح تهامة واختط مدينة زبيد (سنة ٢٠٤) وهى التى صارت حاضرة تهامة. وقد عظم أمر الزيدى بعد ذلك باليمن وصار كملك مستقل إلا أنه كان يخطب لبنى العباس ويحمل إليهم الخراج والهدايا وطال ملكه إلى (سنة ٢٤٥) ثم صار الملك فى أبنائه ثم فى مواليتهم وموالى مواليتهم إلى (سنة ٥٥٣) وتعرف هذه الدولة بالدولة الزيدية وهى أول الدول استقلالاً باليمن.

وحال هذه الدولة يشبه حال دولة الأغلبة فى إفريقية فإن الرشيد ولاها إبراهيم بن الأغلب التميمى ليكون حاجزاً بين الخلافة العباسية وبين الأدارسة الذين بالمغرب الأقصى وكانت توليته إياها (سنة ١٨٤) فعظم أمره وسار كملك مستقل إلا أنه يخطب للرشيد واستمر الملك فى أعقابهِ إلى (سنة ٢٩٦) وكان الأمير فى عهد المأمون عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب (٢٩٦ - ٣٠١) - ثم زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب الذى استمر ملكه إلى (سنة ٣٢٣) وهو الذى فتح جزيرة صقلية من أيدى الروم.

فهاتان الدولتان أول الدول المتغلبة على أطراف بنى العباس وأصل تكوينهم الخوف من الطالبين وامتداد نفوذهم وذلك بعد أن اقتطع من الخلافة المغرب الأقصى للأدارسة والاندلس لبنى أمية.

إبراهيم بن المهدي:

قدمنا ما كان من بيعة أهل بغداد لإبراهيم بن المهدي إذ كان المأمون بمرور فلما شخص المأمون إلى بغداد وعلم بقدمه القواد الذين كانوا مع إبراهيم تركوه فلما رأى ذلك اختفى وظل مختفياً ببغداد ينتقل من دار إلى دار إلى (سنة ٢١٠) وفى تلك السنة أخذ أخذه حارس أسود وهو متنقب مع امرأتين فى زى امرأة فأعلم المأمون بخبره فأمر بالاحتفاظ به ثم دخل به عليه فقال له: هيه يا إبراهيم فقال: يا أمير المؤمنين ولى الثأر محكم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الاعتزاز بما مده له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كل ذنب كما جعل كل ذنب دونك فإن تعاقب فيحقدك وإن تعف فبفضلك. قال بل أعفو يا إبراهيم فقال إبراهيم بمدحه:

يا خير من ذملت يمانية به
وأبو من عبد الإله على التقى
على الفوارع ما أطعت فإن تهج
متيقظاً حذراً وما يخشى العدا
ملكت قلوب الناس منك مخافة
بأبى وأمى فدية وبنيهما
ما ألين الكنف الذى بوأتنى
للمصالحات أخاً جعلت وللتقى
نفسى فداؤك إذ تفضل معاذرى
أملأ لفضلك والفواضل شيمة
فبذلت أفضل ما يضيق ببذله
وعفوت عمن لم يكن عن مثله
إلا العلو عن العقوبة بعدما
فرحمت أطفالاً كأفراخ القطا
وعطفت آصرة على كما وعى
الله يعلم ما أقول فإنها
ما إن عصيتك والغواة تقودنى
حتى إذا قطعت حبائل شقوتى
لم أدر أن لمثل جرمى غافرا
رد الحياة على بعد ذهابها
أحيأك من ولاك أطول مدة
كم من يد لك لم تحذثنى بها
أسديتها عفواً إلى هنيئة
إلا يسيراً عندما أوليتنى
إن أنت جدت بها على تكن لها
إن الذى قسم الخلافة حازها
جمع القلوب عليك جامع أمرها

بعد الرسول لآيس أو طامع
عيناً وأقوله بحق صاعد
فالصاب يمزج بالسمام النافع
نبهان من وسنات ليل الهاجع
وتبيت تكلؤهم بقلب خاشع
من كل معضلة ورب واقع
وطناً وأمرع رتعة للرائع
وأبا رؤوفا للفقير القانع
وألوذ منك بفضل حلم واسع
رفعت بناءك بالمحل اليافع
وسع النفوس من الفعال البارع
عفو ولم يشفع إليك بشافع
ظفرت يداك بمستكين خاضع
وعويل عانسة كقول النازع
بعد انهياض الوثى عظم الظالع
جهد الألية من حنيف راع
أسبابها إلا بنية طائع
بردى إلى حفر المهالك هائع
فوقفت أنظر أى حتف صارعى
ورع الإمام القادر المتواضع
ورمى عدوك بالوتين بقاطع
نفسى إذا آلت إلى مطامعى
فشكرت مصطنعاً لأكرم صانع
وهو الكثير لدى غير الضائع
أهلاً وإن تمنع فأعدل مانع
فى صلب آدم للإمام السابع
وحوى رداءك كل خير جامع

فذكر أن المأمون حين أنشده إبراهيم هذه القصيدة قال: أقول ما قال يوسف لإخوته ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ {يوسف: ٩٢}.

ومن الغريب أن المأمون قد اطلع قبيل ذلك على مؤامرة يقصد بها خلع المأمون وإعادة إبراهيم بن المهدي للخلافة، ورئيس هذا الأمر إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام المعروف بابن عائشة.

وكان اطلاع المأمون على ذلك يوم السبت (٥ صفر سنة ٢١٠) والظفر بإبراهيم بن المهدي ليلة الأحد (١٣ ربيع الآخر سنة ٢١٠) - وقد انتقم المأمون من ابن عائشة انتقاماً شديداً فقد أمر أن يقام ثلاثة أيام في الشمس على باب دار المأمون ثم ضربه بالسياط ثم أمر بحبسه في المطبخ وفعل قريباً من ذلك بمن كانوا معه وقد كتبوا للمأمون أسماء من دخل معهم في هذا الأمر من القواد والجند وسائر الناس فلم يعرض المأمون لأحد ممن كتبوا به ولم يأمن أن يكونوا قد قذفوا أقواماً براء ثم أمر المأمون بعد ذلك بابن عائشة فقتل وصلب وهو أول مصلوب في الإسلام من بني العباس وقتل معه ثلاثة من رؤوس المتآمرين وكان قتلهم في (١٤ جمادى الآخر) من تلك السنة.

نصر بن شيث:

كان نصر بن شيث من بني عقيل يسكن يكسوم شمالي حلب وكان عربياً شريفاً شهماً، له في محمد الأمين هوى فلما قتل الأمين غضب ولا سيما لما رأى العنصر العربي قد انحط شأنه وصار معظم القواد الأمراء من غيرهم فأظهر الخروج على السلطان وكان ذلك أواخر (سنة ١٩٨) وتغلب على ما جاوره من البلاد وملك سميساط واجتمع عليه خلق كثير من الأعراب وأهل الطمع وقويت نفسه وعبر الفرات إلى الجانب الشرقي وحدثته نفسه بالتغلب عليه فلما رأى الناس ذلك منه كثرت جموعه وزادت على ما كانت.

لما انتصر طاهر بن الحسين على الأمين وملك العراق ولى الحسن بن سهل على كل ما افتتحه وأمر أن يسلم ذلك إليه وأن يسير إلى الرقة لمحاربة نصر وولاه المأمون الموصل والجزيرة والشام والمغرب فسار طاهر إلى وجهه وأرسل إلى نصر يدعو على الطاعة وترك الخلاف فلم يجب فتقدم إليه طاهر ولقيه بنواحي يكسوم فاقتلا هناك قتالاً عظيماً أبلى فيه نصر بلاء حسناً فكان النصر له وعاد طاهر إلى الرقة شبه المنهزم وكان قصارى أمره حفظ تلك النواحي. والظاهر أنه لم يكن جاداً في حرب نصر لأنه رأى نفسه جرد مما فتحه من العراق وغيره ولم يتمتع بشيء مما جناه.

كان ذلك مما قوى أمر نصر حتى كثر جمعه وحصر حران بالجزيرة وأتاه نفر من شيعة هاشميين فقالوا له: قد وترت بنى العباس، وقتلت رجالهم فلو بايعت لخليفة كان أقوى ذمرك. فقال: من أى الناس؟ فقالوا: نبايع لبعض آل على بن أبى طالب. فقال: أبايح بعض أولاد السوداوات فيقول إنه خلقتى ورزقنى قالوا: فنبايع لبعض بنى أمية. قال: فينتك قوم قد أدبر أمرهم والمدير لا يقبل أبداً ولو سلم على مدبر لأعدانى إدباره وإنما هو نى فى بنى العباس وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم ولما تخص المأمون إلى بغداد أمر طاهراً أن يلقاه بها فترك الرقة واستخلف على الجيش ابنه عبد لله وأمره أن يقاتل نصراً فلما قدم طاهر ولاء المأمون خراسان. وولى ابنه عبد الله من الرقة بى مصر وأمره بالجد فى محاربة نصر وحينذاك كتب طاهر إلى ابنه عبد الله ذلك الكتاب مشهور الذى جمع فيه كل ما يحتاج إليه الأمراء من الآداب والسياسة والحث على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم مما لا يستغنى عنه أحد من ملك وسوقة وهذا الكتاب قد تنازعه الناس وكتبوه وشاع أمره وبلغ المأمون خبره فدعا به فقرأ عليه فقال: ما أبقى أبو الطيب (يعنى طاهراً) شيئاً من أمر الدنيا والدين والتدبير والرأى والسياسة وحفظ السلطان وطاعة خلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكم وأوصى به وأمر فكتب به إلى جميع العمال والنواحي ذهب عبد الله إلى وجهه فى محاربة نصر فجذب فى أمره وحصره وضيق عليه حتى مال إلى الأمان وفى ذلك الوقت ندب المأمون جعفر بن محمد العامرى ليؤدى إلى نصر رسالة ذهب إليه وهو بكفر عزون بسروج فأبلغه رسالة المأمون التى يطلب فيها منه ترك الحرب والجنوح إلى السلم فأذعن وشرط شروطاً منها ألا يسطأ بساطه فأتى المأمون وأبلغه مطالب نصر فقال: لا أجيبه والله إلى هذا أبداً ولو أفضيت إلى بيع قميصى حتى يسطأ بساطى. فعاد الرسول إلى نصر فأخبره فصاح بالخييل صيحة فجالت ثم قال: ولى عليه هو لم يقو على أربعمئة ضفدع تحت جناحه (يعنى الزط) يقوى على حلبة العرب. لكنه مع جد عبد لله بن طاهر فى حربه أجاب إلى التسليم وطلب الأمان فكتب له المأمون كتاب أمان فخرج نى عبد الله بن طاهر وحينذاك هدم يكسوم وخربها ووجه بنصر إلى المأمون فدخل بغداد فى صفر (سنة ٢١٠) وأنزل مدينة أبى جعفر ووكل به من يحفظه.

وكان مقام عبد الله بن طاهر على حربه خمس سنين.

الزط:

الزط معرب (جت) قال عنهم ابن خلدون «هم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق نبصرة وعاثوا فيها وأفسدوا البلاد» اهـ وهم المعروفون بالنور أصلهم من هنود آسيا كانوا يكتنون شواطئ الخليج الفارسى تجمعوا واستولوا على طريق البصرة أيام الفتنة التى كانت

بين الأمين والمأمون ولما استقر المأمون ببغداد بعث عيسى بن يزيد الجلودى لحربهم (سنة ٢٠٥) ويظهر أنهم كانوا إذا أخرجتهم الجنود تفرقوا في تلك الفيافي فقد ذكر الطبرى في حوادث (سنة ٢٠٦) أن المأمون ولى داود بن ماسجور محاربة الزط وأعمال البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين ولم يذكر هو ولا متبعوه نتيجة فعله ولا فعل من قبله والظاهر أنهما لم يؤثرًا أثراً فاضلاً بدليل ما ورد في عبارة نصر بن شيث (إنه لم يقو على أربعمئة ضفدع تحت جناحه) وقد استمر أمرهم كذلك إلى (سنة ٢١٩) في عهد المعتصم حيث وجه إليهم عجيف بن عنبسة أحد قواده وكانوا قد عاثوا في طريق البصرة فقطعوا فيه الطريق واحتملوا الغلات من البيادر بكسر وما يليها من البصرة وأخافوا السبيل فاهتم عجيف بحربهم ليضربهم ضربة قاضية فعسكر بقرب واسط وسد الأنهار التى كان الزط يدخلون منها ويخرجون فحصرهم من كل وجه ولما أخذ عليهم طريقهم حاربهم وأسر (٥٠٠ رجل) وقتل منهم في المعركة (٣٠٠ رجل) ف ضرب أعناق الأسرى وبعث برؤوس جميعهم إلى المعتصم. ثم أقام بإزائهم (١٥ يوماً) ظفر منهم فيها بخلق كثير وكان رئيس الزط رجلاً يقال له محمد بن عثمان وكان صاحب أمره والقائم بالحرب سملق. ومكث عجيف يقاتلهم فيما قيل تسعة أشهر ولم يزل يلح عليهم حتى طلبوا منه الأمان فأمنهم فخرجوا إليه في ذى الحجة (سنة ٢١٩) على أنهم آمنون على دمائهم وأموالهم وكانت عدتهم ذكر (٢٧ ألفاً) المقاتلة منهم (١٢ ألفاً) وأحصاهم عجيف (٢٧ ألف) إنسان بين رجل وامرأة وصبى ثم جعلهم فى السفن وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانية وأقام بها يوماً وعبأهم فى زواريقهم على هيشهم فى الحرب معهم البوقات حتى دخل بهم بغداد يوم عاشوراء (سنة ٢٢٠) فمروا على المعتصم على تعبثهم ثم عبر بهم إلى الجانب الشرقى فدفعوا إلى بشر بن السميدع فذهب بهم إلى خانقين ثم نقلوا إلى الشجر إلى عين زربة وقد ذكر ابن الأثير فى حوادث (سنة ٢٤١) فى عهد المتوكل أن الروم أغارت على عين زربة فأخذت من كان بها أسيراً من الزط مع نسائهم وذرائعهم وذويهم.

بابك الخرمى:

بين أذربيجان وأران فى شمال بلاد الفرس، كورة تدعى البذ يمر بها نهر الرس العظيم بهذه الكورة خرج بابك التى امتدت فتنته زمناً طويلاً فى عهد المأمون والمعتصم وكان خروجه (سنة ٢٢١) فى عهد المأمون ومنتهاه (سنة ٢٣١) فى عهد المعتصم.

ولا بد لنا من شرح أحوال هذا الرجل وفتته وما كانوا عليه من الاعتقاد وما أثروه فى دولة المأمون والمعتصم.

تمتاز البلاد الفارسية بكثرة المذاهب والاعتقادات الدينية سواء في ذلك ما كان قبل البعثة الحمديّة وما بعدها، ومن تلك الطوائف فرقة تسمى الحرّمية (بالحاء والراء المهملتين) كما حرى عليه ابن النديم في فهرسه وهم صنفان: الحرّمية الأولون ويسمون المحمرة وصاحبهم مزدك القديم أمرهم بتناول اللذات، والانعكاف على بلوغ الشهوات والأكل والشرب وبخااسة والاختلاط وترك الاستبداد بعضهم على بعض ولهم مشاركة في الحرم والأهل لا يتبع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه ومع هذه الحال فيرون أفعال الخير وترك القتل ويخال الآلام على النفوس ولهم مذهب في الضيافات ليس هو لأحد من الأمم إذا أضافوا لإنسان لم يمنعه من شيء يلتصه كائناً ما كان، وعلى هذا المذهب مزدك الأخير الذي ظهر أيام قباد بن فيروز وقتله أنو شروان وقتل أصحابه. الصنف الثاني الحرّمية البابكية يسبون إلى صاحبهم بابك الحرّمي وكان يقول لمن استغواه إنه إله وأحدث في مذاهب حرّمية القتل والغضب والحروب والمثلة ولم تكن الحرّمية تفعل ذلك. هكذا ذكر ابن النديم ومنه يظهر وجه تسميتهم بالحرّمية أما سائر المؤرخين فيقولون هم الحرّمية (بالحاء المعجمة خضومة والراء المفتوحة المشددة) قال أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعاني المروزي في كتاب الأنساب، (الحرّمي) نسبة إلى طائفة من الباطنية يقال لهم الخرمدينية يدينون بما يريدون ويشتهون وإنما لقبوا بذلك لإباحتهم المحرمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذوات المحارم، وفعل ما يتلذذون به، فلما شابها في هذه الإباحة المزدكية من المجوس الذين خرجوا في أيام قباد وأباحوا النساء كلهن وأباحوا سائر المحرمات إلى أن قتلهم أنو شروان بن قباد قيل لهم هذه المشابهة خرمدينية كما قيل للمزدكية وقال صاحب القاموس: خرمة قرية بفارس منها بابك الحرّمي - ثم قال وتخرم دان بدين الحرّمية لأصحاب التناسخ والإباحة.

ومن ذلك يظهر أن ما جاء في فهرس ابن النديم تحريف.

نشأ بابك بن بهرام بقرية تدعى بلال أباد رستاق ميمتد ثم اتصل بجاويدان بن سهرق ملك جبال البذ ورئيس من بها من الحرّمية وكان جاويدان يرى منه فهماً وشهامة وخبثاً ففر به إليه ولما أدركته منيته اجتهدت امرأته في أن يكون بابك مكانه في الملك فجمعت الحرّمية وقالت لهم: إن جاويدان قال لي إني أموت في ليلتي هذه وإن روحي تخرج من جسدي وتدخل بدن هذا الغلام خادمي وقد رأيت أن أملكه على أصحابي فإذا مت فاعلمهم ذلك وأن لا دين لمن خلفني فيه واختار لنفسه خلاف اختياري فقبلوا ذلك منها وتزوجت بابك.

أخذ بابك ومن معه في العيث والفساد وإخافة السبل وأول ما عرف ذلك من أمره كان (سنة ٢٠١) والمأمون بمرو لم يبرحها إلى بغداد فلما شخص المأمون إلى بغداد عين أحد قواده يحيى بن معاذ لحرب بابك فكانت بينهما وقعة لم يتصف فيها أحدهما من الآخر

فاختار المأمون قائداً آخر هو عيسى بن محمد بن أبى خالد فولاه أرمينية وأذربيجان ومحاربة بابك فنكب ثم وجه إليه صدقة بن على المعروف بزريق وندب للقيام بأمره أحمد بن الجنيد الإسكافي فأسره بابك ثم وجه إليه محمد بن حميد الطوسي فقتله بابك (سنة ٢١٤) بهشتادسر وفض عسكره وقتل جمعاً كثيراً ممن كان معه هكذا كان كلما أرسل الحرب بابك قائداً لم يصنع شيئاً لمكان بابك الحصين وقوته الكبيرة وشدة تأثيره في قلوب الجمهور الذين كانوا معه وقد ذكر في حوادث (سنة ٢٢٨) دخول جماعة كثيرة من أهل الجبال من همذان وأصبهان وماسبذان ومهرجان قذف في دين الحرمية وتجمعوا فعسكروا في عمل همذان ذلك أول ولاية المعتصم فوجه إليهم الجنود وكان آخر عسكر وجه إليهم وجهه المعتصم مع إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، وعقد له على الجبال فشخص إليهم وفض جموعهم وقتل في عمل همذان ستين ألفاً منهم وهرب سائرهم إلى بلاد الروم فقبلهم ملك الروم أحسن قبول، وفرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم في أهم أمورهم.

وكان من وصية المأمون لأخيه المعتصم حين أدرسته المنية (والخرمية فاغزهم ذا جرامة وصرامة وجلد واكتفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجال فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك واعمل في ذلك عمل مقدم النية فيه راجياً ثواب الله عليه) لذلك بذل المعتصم جهده في كسر شوكة بابك، لئلا يمتد شر بدعته في البلاد الفارسية فاختار لحربه قائداً تركياً من كبار قواده وهو حيدر بن كلوس الأشروسي المعروف بالأفشين (الأفشين لقب للملك أشروسنة) وذلك (سنة ٢٣٠) وقبل أن يخرج لوجهه وجه أباً سعيد محمد بن يوسف إلى مدينة أردبيل وأمره أن يبنى الحصون التي خربها بابك فيما بين زنجان وأردبيل ويجعل فيها الرجال مسالح لحفظ الطريق، لمن يجلب الميرة إلى أردبيل ففعل أبو سعيد ما أمره وأوقع بسرية أرسلها بابك للإغارة عليه وهذه أول مرة انهزم فيها لبابك جند. ثم نظم البريد بينه وبين الجيش فجعل من سامرا إلى عقبة حلوان خيلاً مضمرة على رأس كل فرسخ فرس معه مجر مرتب فكان يركض بالخيال ركضاً حتى يؤديه من واحد إلى واحد يبدأ بيد ومن حلوان إلى أذربيجان رتب في دواب المرج فكان يركض بها يوماً أو يومين ثم تبدل ويصير غيرها ويحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابة على رأس فرسخ وجعل لهم دبابية على رؤوس الجبال بالليل والنهار وأمروا أن ينفروا وإذا جاءهم الخبر فإذا سمع الذي يليه النفير تهاياً فلا يبلغ إلى صاحبه الذي نفر حتى يقف له على الطريق فيأخذ الخريطة منه فكانت الخريطة تصل من عسكر الأفشين إلى سامرا في أربعة أيام وأقل.

توجه الأفشين حتى أتى برزند فعسكر بها ورم الحصون فيما بين برزند وأردبيل وأنزل

قواداً من قواده ببعض الحصون هناك لحراسة القوافل والسابلة، وأطلق الأفشين عيونه وجواسيسه لتعرف الأخبار عن بابك. وأول وقعة كانت بينه وبين عسكر بابك بارشلق أحد حصون الأفشين، حيث خرج بابك ليقنص مالا أرسله المعتصم مع أحد قواده فبلغ خبره لأفشين، فخرج إليه سراً والتقى على مقربة من الحصن فأتى جند الأفشين على جميع رجاله بابك وأفلت هو في نفر يسير ودخل موفان ومنها توجه إلى البذ وعاد الأفشين إلى عسكره ببرزند.

استمرت الحروب بين الأفشين وبابك مدة طويلة وكانوا لا يتحاربون إلا إذا انصرم لشتاء لمكان الثلوج الشديدة التي كانت تكسو رؤوس الجبال تمنع المشاة من التقدم إلى أن كان الربيع (سنة ٢٢١) فسار الأفشين من مكانه يريد مهاجمة البذ وأخذة عنوة فسار محتسراً وقد رتب أموره أدق ترتيب لما هو قادم عليه فاستعرت لظى الحرب بين الفريقين واستبلا كلاهما وانتهى الأمر باقتحام المسلمين البذ واستيلائهم عليها وقد أراد بابك الهرب وشرع فيه فأفسد عليه الأفشين تدبيره، وسد عليه المسالك وأوقف عليها جنداً من جيشه، وأخيراً قبض عليه وعلى أخيه عبد الله وعاد بهما الأفشين إلى سامرا كما أمره المعتصم ومعهما (١٧ رجلاً) من أهل بيته ومن البنات والكتاب (٢٣ امرأة) وكان يوم دخولهم سامرا يوماً مشهوداً ثم قتل بابك وصلب بسامرا وفعل مثل ذلك بأخيه عبد الله ببغداد.

وكان جميع من قتل بابك في عشرين سنة (٢٥٥٠٠ إنسان) وغلب كثيراً من القواد لذين ذكرناهم وكان عنده من الأسرى الذين استنفذهم الأفشين (٧٦٠٠).

الخروج في عهد المأمون،

يمتاز عهد المأمون بوجود أثر تاريخي يدل على مقدار الجباية الخراجية من جميع الأقاليم التي دخلت تحت حكم الدولة العباسية، وهو الثبت الذي نقله العلامة ابن خلدون في مقدمة تاريخه نقله عن كتاب جراب الدولة ولما في ذلك الثبت من الفائدة أجبنا أن نقله عنه وما هو ذا.

الأقاليم والجباية من الدراهم والدنانير

الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض
السواد	٢٧ ٨٠٠ ٠٠٠ درهم
كسكر	١١ ٦٠٠ ٠٠٠ درهم
كوردجلة	٢٠ ٨٠٠ ٠٠٠
حلوان	٤٨٠٠ ٠٠٠
الاهواز	٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠
فارس	٢٧ ٠٠٠ ٠٠٠
كرمان	٤ ٢٠٠ ٠٠٠
مكران	٤٠٠ ٠٠٠
السندوما يليه	١٢٥٠٠ ٠٠٠
سجستان	٤٠٠٠ ٠٠٠
	٢٠٠ حلة بخراية
	٢٤٠ رطلاً من تين الختم
	٣٠ ٠٠٠ رطل سكر
	٣٠ ٠٠٠ قارورة ماء ورد
	٢٠ ٢٠٠ رطل زيت أسود
	٥٠٠ ثوب متاع بماني
	٢٠ ٠٠٠ رطل تمر
	١٥٠ رطل عود هندي
	٢٠٠ ثوب معين
	٢٠ رطل من الفانيذ
	٢ ٠٠٠ نقرة فضة
	٤٠ ٠٠٠ برذون
	١ ٠٠٠ رأس رقيق
	٢٠ ٠٠٠ ثوب متاع
	٣٠ ٠٠٠ رطل أهليلج
	١ ٠٠٠ شقة ابريسم
	١ ٠٠٠ نقرة فضة
	٦٠٠ قطعة قرش طبري
	٢٥٠ كساء
	٥٠٠ ثوب
	٣٠٠ منديل
	٣٠٠٠ جام

لرى	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠ ٠٠٠ رطل عمل
همذان	١١ ٣٠٠ ٠٠٠	١ ٠٠٠ رطل رب الرمانين
		١٢ ٠٠٠ رطل عمل
منها البصرة والكوفة	١٠٧٠٠ ٠٠٠	
ماسيدان والريان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
شهر زور	٦٧٠٠ ٠٠٠	
نوصل وما إليها	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠ ٠٠٠ رطل عمل
تفريجان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
لجزيرة وما إليها	٣٤ ٠٠٠ ٠٠٠	١ ٠٠٠ رأس رقيق
من عمل الفرات		١٢ ٠٠٠ ألف زق عمل
		١٠ بزة
		٢٠ كساء
		٢٠ قسطا محفوراً
٥٣٠	رطل رقم	
أرمينية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	١٠ ٠٠٠ رطل من المسايح السور ماهى
برقة	١ ٠٠٠ ٠٠٠	١٠ ٠٠٠ رطل سونج
		٢٠٠ بغل
		٣٠ مهراً
		١٢٠ بساط
أفريقية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	
فالمجموع بالدراهم	٣١ ٩٦٠ ٠٠٠ درهم	
ققنسرين	٤٠٠ ٠٠٠ دينار	
فدمشق	٤٢٠ ٠٠٠ دينار	
فالأردن	٩٧ ٠٠٠ دينار	
فلسطين	٣١٠ ٠٠٠ دينار	
فمصر	١ ٩٢٠ ٠٠٠ دينار	
فاليمن	٣٧٠ ٠٠٠ دينار	
فالبحجاز	٣٠٠ ٠٠٠ دينار	
المجموع	٣ ٨١٧ ٠٠٠ دينار	٣٠ ٠٠٠ رطل زيت

فمجموع الخراج من الدراهم (٣١٩٦٠٠٠, ٠٠٠ درهم) و(٣٨١٧٠٠٠ دينار) ومن العروض ما ذكر أمام كل إقليم وإذا قوم بلغ شيئاً كثيراً. كان هذا كله يرد إلى بغداد حاضرة الخلافة، ويتصرف فيه الخليفة فيدفع منه أرزاق وزرائه وعماله وحاشيته ويصرف منه في الحوادث التي تعرض للدولة من تجهيز الجيوش والباقي بعد ذلك كثير يهب منه ما شاء لمن شاء وذلك مقدار وافر يدور معظمه في الحاضرة الكبرى فيزيدها سعة ورخاء وترفاً. ومن نموذج ما كان يصرف على أيدي الخلفاء ما رواه اليفورى في أخبار بغداد أنه ورد على المأمون وهو بالشام (٣٠٠, ٠٠٠, ٠٠٠ درهم) حمله إليه المعتصم من خراج ما يتولاه فخرج المأمون وأصحابه ينظرون إلى ذلك المال فقال ليحيى بن أكثم: يا أبا محمد ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة إلى منازلهم خائبين وننصرف نحن بهذه الأموال قد ملكناها دونهم إنا إذاً للثام ثم دعا محمد بن يزداد (وزيره) فقال: وقع لآل فلان بألف ألف ولآل فلان بمثلها فما زال كذلك حتى فرق (٢٤٠٠٠٠٠٠) ورجله في الركاب ثم قال: ادفع الباقي إلى المعلى يعطى جندنا - قال راوى الخبر فجئت حتى قمت نصب عيني فلم أرى طرفي عنها لا يلحظني إلا يراني بتلك الحال فقال: يا أبا محمد وقع لهذا بخمسين ألف درهم من الستة الآلاف ألف لا يختلس ناظري قال: فلم تأت ليلتان حتى أخذت المال. وهذا عطاء كثير ولكن الوارد أكثر.

الجيش:

ظهور الدولة العباسية على أيدي أهل خراسان والموالي جعل لهؤلاء شأنًا عظيمًا في الدولة ومقاماً لا ينقص عن مقام العرب في اعتزاز الدولة بهم فكانت القواد العظام من أهل خراسان ومن العرب. وقيام دولة المأمون بأهل خراسان زاد مالهم في تلك الدولة وبقدر ما زادهم نقص من شأن العرب حتى لم يعد من العرب قائد معروف كما كان في عهد المنصور والمهدى والرشيد وصار معظم المرتزقين من الجند إنما هم من أهل خراسان والأبناء، وصار معظم الاعتماد عليهم وظهرت أسماء قواد من عناصر أخرى من أتراك ما وراء النهر. روى الطيفورى أنه تعرض رجل للمأمون بالشام مراراً فقال يا أمير المؤمنين: انظر لعرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان قال: أكثرت على يا أخا الشام والله ما نزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالى درهم واحد. وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبنتي قط وأما قضاة فسادتها تنتظر السفىاني وخروجه فتكون من أشياعه. وأما ربيعة فساخطة على الله مذ بعث الله عز وجل نبيه ﷺ من مضر. ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شارباً. أعزب فعل الله بك. وهذا تصريح عظيم من المأمون وهو يدل على أن تلك القوة العربية التي كان العالم الإسلامى يحس بوجودها وتخشى الخلفاء

مطوتها وانحرفها قد اتضعت فاجترأ خليفة المسلمين أن يجهر بمثل هذا القول على ملأ من لـس ولما كان جيش الدولة وهو الذى يدل على حقيقة أمرها كان من الواضح أن لمولة ليس لها من العربية إلا اللغة أما العصبية العربية للعنصر العربى فقد أشرفت على لإمحاء .

هتواد العظام فى عهد المأمون،

أكبر من اشتهر فى عهد المأمون بقيادة الجيوش وبعن النقية والصيت طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزق بن ماهان . كان جده رزق مولى طلحة بن عبد الله المعروف بطلحة لطلحات الخزاعى والى سجستان من مسلم بن زياد بن أبيه والى خراسان ولا ندرى أكان مولى إسلام أم مولى عتاقة ويغلب على الظن أنه مولى إسلام أسلم على يده فانتسب إلى قبيلته ولذلك كان يقال له الخزاعى وكانوا بقرية تدعى بوشنج من أعمال مرو وبها ولد طاهر بن الحسين (سنة ١٥٩) وكان جده مصعب بن رزق والياً عليها وعلى هراة وكان قبل ذلك كاتباً لسليمان بن كثير الخزاعى داعية بنى العباس .

نشأ طاهر ببوشنج شهماً شجاعاً أديباً وأول ما أحيا ذكره الخالد أعماله العظيمة التى قام بها فى قواد الكتائب الخراسانية لحرب الأمين والجيوش العراقية فظفر ظفراً عظيماً كما قدمنا وقاد الخلافة للمأمون مذلة فاشتهر ذكره وطار صيته إلا أن الفضل بن سهل نفس عليه أن يغرد بتلك الشهرة فحمل المأمون على تنحيته عن العراق وإرساله إلى الجزيرة لحرب نصر بن شيث ، ولما شخص المأمون إلى بغداد ومات الفضل فى الطريق أمر المأمون طاهراً أن ينقاه ببغداد فعرف له تلك السابقة وأحله المنزلة التى تليق به وولاه الجزيرة والشرط وجانبى بغداد ومعاون السواد .

كان الذى يتولى خراسان فى ذلك الوقت غسان بن عباد فبلغ المأمون أن عبد الرحمن المطوعى جمع جمعاً بنيسابور ليقاتل بهم الحرورية بغير أمر والى خراسان فتخوفوا أن يكون ذلك لأصل عمل عليه وأن يكون بدء نار يستطير شرارها إذا لم تتدارك برجل قوى الشكيمة ناهض العزم يتولى أمر خراسان ولم يكن بالحضرة من يماثل طاهراً فاختره المأمون لذلك وولاه من حلوان إلى أقصى عمل المشرق فتوجه إلى ولايته وساسها أحسن سياسة وأعظم شهادة له ما ذكره الطيفورى عن يحيى بن أكثم عن المأمون أنه كان يقول ما حابى طاهر فى جميع ما كان فيه أحداً ولا مالا أحداً ولا داهن ولا وهن ولا ونى ولا قصر فى شىء وفعل فى جميع ما ركن إليه ووثق به فيه أكثر مما ظن به وأمله وأنه لا يعرف أحداً من نصحاء الخلفاء وكفائهم فيمن سلف عصره ومن بقى فى أيام دولته على مثل طريقته ومناصحته

وغنائه وإجزائه قال: كان يحلف على صدق ما يقول فى ذلك مجتهداً مؤكداً لليمين على نفسه.

وكان لطاهر استقلال بحكم خراسان يؤدى الخراج عن عمله وعليه والى يريد يكتب إلى المأمون بأخباره قالوا: كان طاهر يتمنى أن يخطب على منبر مرو فوليها (سنة ٢٠٥) وخطب بهم فى سنة سبع ولم يصل بهم إلا ذلك اليوم فإنه صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ولم يدع للمأمون فكتب والى البريد إلى المأمون بذلك وفى تلك الليلة أصابته حمى وحرارة فوجد ميتاً على فراشه فكتب صاحب البريد بوفاته ولا نحسب ما ظن بطاهر من أنه أراد خلع المأمون حقاً فإنه لم يكن هناك داع إلى ذلك مطلقاً.

وقد استمر ملك البيت الطاهرى بخراسان من (سنة ٢٠٥) إلى (سنة ٢٥٩) حيث سقطت على يد يعقوب بن الليث الصفار وهى أول الدولة استقلالاً بالمشرق وأحسنها علاقة بدولة الخلافة ببغداد والسبب فى دوام هذا التحسن أن آل طاهر كان لهم مع خراسان ولاية الشرطة ببغداد ومن أجل ذلك كان الاتصال دائماً بين مرو وبغداد.

عبد الله بن طاهر: ولد عبد الله (سنة ١٨٢) فى خلافة الرشيد ونشأ نشأة مجيدة وكان عمره حين سطع نجم والده فى حوادث المأمون نحو (١٧ سنة) فتربى فى كنف المأمون فخرج شهماً نبيلاً أديباً وكان المأمون يحبه حباً جماً ولأه حرب نصر بن شيث بعد انصراف أبيه عن ذلك الوجه فقام بما أمر به خير قيام ورد نصرراً إلى طاعته بعد أن حصره وضيق عليه وكان مع قيامه بذلك خليفة لأبيه طاهر فى الشرط وأعمال بغداد فاستخلف على ذلك عمه إسحاق بن إبراهيم بن مصعب.

ولما فرغ من أمر نصر أمره المأمون أن يسير إلى مصر لاضطراب كان فيها من فتنه عبيد الله بن السرى أمير مصر وفتنة جالية الأندلسيين بالإسكندرية فذهب إليها واستنزل عبيد الله بن السرى من معاقله بعد أن أذله وأجلى الأندلسيين عما غلبوا عليه. قال يونس بن عبد الأعلى أحد علماء الحديث من أهل مصر. قدم علينا من قبل المشرق فتى حدث - يعنى عبد الله بن طاهر - والدنيا عندنا مفتونة قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب والناس منهم فى بلاء فأصلح الدنيا البرئ وأخاف السقيم واستوثقت له الرعية بالطاعة. وكتب إليه أحمد بن يوسف وزير المأمون إذ ذاك يهنئه بذلك الفتح. بلغنى أعز الله الأمين ما فتح الله عليك وخروج ابن السرى إليك فالحمد لله الناصر لدينه المعز لدولة خليفته على عباده المذل لمن عَدَّ عنه وعن حقه ورَغِبَ عن طاعته ونسأل الله أن يظاهر له النعم ويفتح له بلدان الشرك والحمد لله على ما وليك به مذ طعنت لوجهه فإننا ومن قبلنا نذكرك سيرتك

في حرك وسلمك ونكثر التعجب لما وفقت له من الشدة والليان في مواضعهما ولا نعلم
شئ جند ورعية عدل بينهم عدلك ولا عفا بعد المقدرة وعمن آسفه واضفته عفوك ولقلما
يت ابن شرف لم يلق بيده متكلأ على ما قدمت له أبوته ومن أوتى حظاً وكفاية وسلطاناً
بولاية لم يخلد إلى ما عفا له حتى يخل بمساماة ما أمامه ثم لا نعلم سائساً استحق النُّجح
حسن السيرة وكف معرة الأتباع استحقاقك، وما يجيز أحد ممن قبلنا أن يقدم عليك أحداً
جوى عند إلحاقه والنازلة المتصلة فليهنك منة الله ومزيده ويسوغك الله هذه النعمة التي
حواها لك بالمحافظة على ما به تمت لك من التمسك بحبل إمامك ومولاك ومولى جميع
سلمين وملاك وإيانا بالعيش ببقائه وأن تعلم أنك لم تزل عندنا وعند من قبلنا مكرماً
حقناً معظماً وقد زادك الله في أعين الخاصة والعامة جلاله وبجالة فأصبحوا يرجونك
لخصهم ويعدونك لأحداثهم ونوائبهم وأى جور أن يوفقك الله لمحابه. كما وفق لك صنعه
يتوفيقه فقد أحسنت جوار النعمة فلم تطغك ولم تزد إلا تذلاً وتواضعاً فالحمد لله على
أنالك وأبلاك وأودع فيك والسلام. وكتب له المأمون كتاباً وكتب في أسفله:

أخى أنت ومــــولاي	ومن أشكر نــــعماء
فما أحببت من أمر	فــــأنى الدهر أهواه
ومــــا تكره من شىء	فــــإنى لست أرضاه
لك الله على ذاك	لك الله لك الله

ولما عاد إلى مصر (سنة ٢١٢) ولأه المأمون الجبال وأرمينية وأذربيجان لمحاربة بابك
يصادف أنه مات بعد خروجه طلحة بن طاهر بن الحسين فولأه المأمون مكانه واستمر والياً
حتى مات (سنة ٢٣٠) في عهد الواثق.

علم في عهد المأمون:

كان عهد المأمون من أرقى عهود العلم في العصر العباسى وذلك لأمرين الأول أن
شعرون نفسه قد اشتغل بالعلم وأمعن فيه حينما كان بمرور فقد جالس كثيراً من العلماء وأخذ
عهم جملة صالحة من العلوم الدينية كالحديث والتفسير والفقه واللغة العربية فكان لذلك
حباً للعلم ولأزدياد نشره. الثانى: ما كان من الأمة نفسها إذ ذاك حيث وجد فيها شوق
فى العلم والبحث وكثرة العلماء فى كل مصر من أمصار المسلمين كما سنبينه فتوافق رأى
إمام واستعداد الأمة فكان من وراء ذلك ما نقصه من تقدم حركة العلم ورفعة بغداد.

العلوم التي نريد بيان حالها نوعان: علوم دينية وعلوم عقلية.

أما العلوم الدينية فمنها ما يرجع لأصل الدين وهو علم الكلام أو التوحيد ومنها ما يرجع إلى أحكام الأعمال وهي الفقه وأصوله وأدلة تلك الأحكام من القرآن والحديث:

ظهر في ذلك الوقت جمهور من فطاحل ورؤساء المتكلمين توغلوا في البحث في أصول الدين والعقائد وحكموا في البحث عقولهم فأنتج لهم ذلك اعتقادات تخالف ما عليه عامة المسلمين، وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث وهم الذين يستمدون آراهم من النصوص السمعية كتاب أو سنة أو أثر من آثار السلف وكان أول ما نشأ ذلك الخلاف في مدينة البصرة وامتد منها إلى بغداد. وجد بالبصرة واصل بن عطاء الغزال ثم عمرو بن عبيد الذي كان المنصور يحبه ويفضله على جميع معاصريه من العلماء حتى قال فيه:

كلكم يمشى رويد كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد

ولما مات رثاه ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه.

ثم أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف وإبراهيم بن سيار النظام وبشر بن غياث المريسي وعمرو بن بحر الجاحظ وثمانة بن أشرس وغيرهم من رؤوس الاعتزال وأصحاب الآراء والأقوال وكانوا يتكلمون في كثير من مسائل أصول الدين وأهم هذه المسائل التي خالفوا فيها الجمهور (أهل الحديث).

(١) مسألة القدر وأفعال العباد فكانوا يقولون إن أفعال العباد مخلوقة لهم لا لله ومن أجل ذلك يستحقون عليها الثواب والعقاب وأن المقصود بالقضاء والقدر ما يمنحه الله لعباده من التوفيق والخذلان ويقابل ذلك رأى العامة أن أفعال العباد مخلوقة لله ليس للعباد منها إلا جريانها على أيديهم وهذا ما أطلقوا عليه اكتساب العباد.

(٢) صفات الله تعالى فقد نزه المعتزلة الله عن ثبوت صفات قائمة بذاته من القدرة والإرادة والسمع والبصر والحياة والكلام وقالوا إن الله قادر بذاته والذي أداهم إلى ذلك الخوف من تعدد القدماء ويقابل ذلك قول العامة إن الله قدير بقدرة وهي صفة قائمة بالذات ليست عين الذات ولا غيرها. وتفرع عن ذلك قولهم في القرآن أهو قديم لأنه صفة نه جل ذكره كما تقوله العامة أم هو حادث مخلوق لله كسائر المخلوقات لأنه ليس بصفة نه بل يخلق الله هذه الحروف والأصوات في جسم محدث يسمعه النبي منه وهذا عندهم هو الوحى.

هاتان المسألتان أهم ما كان يدور فيه النزاع بين المعتزلة وفقهاء العامة.

وكما كان الاختلاف قد ظهر في أصول الدين التي تشابه ما ذكرنا كان قد ظهر في الفقه لدى هو أحكام أفعال العباد فكان من أئمة الفقهاء أهل حديث وأهل رأى كما بيناه في تريخ التشريع ووجد من كل من الفريقين علماء أجلاء وفقهاء عظام اعترف لهم الناس بالتقدم ونحووا نحوهم في التشريع واقتيدوا بهم منهم من سبق عصر المأمون كأبى حنيفة وصحابه ومالك وأصحابه ومنهم من كان في أول عصره كالشافعي محمد بن إدريس الذي توفي في السنة التي دخل فيها المأمون بغداد. والفرق بين هؤلاء في اختلافهم وبين أولئك المستبطين من الفقهاء كانوا لا ينكر بعضهم على بعض نتائج استنباطهم بل كانوا يرون في كل مجتهد مكلف أن يعمل بنتيجة اجتهاده وليس له أن يقلد غيره فقد سوغ بعضهم بعض الاجتهاد أما المختلفون في أصول الدين فكانوا على غير ذلك كل فرقة ترى النقص في الأخرى، وربما تلعنها فأهل الحديث يقولون عن المعتزلة إنهم مبتدعة فارقوا ما عليه صف الأمة وما تدل عليه الأخبار والآثار وأولئك يقولون عن أهل الحديث إنهم عامة يتخذون ما يظهرون به حلية لينفقوا أمام العامة وربما نالوا منهم أكثر من ذلك.

وكان هناك اختلافات أخرى ظهر القول فيها وهي مسألة الخلافة ومن يستحقها بعد رسول الله ﷺ فكان الجمهور يرى أن الخلفاء الراشدين مرتبون في الاستحقاق ترتيبهم في تولي الخلافة ومن ورائهم أصناف الشيعة يرون أن علياً هو أولى الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ ثم يستحقها من بعده أولاده وهم مختلفون في الحكم على من سبق علياً من الخلفاء فمنهم الغالي ومنهم الهين القول يرى أنهم أخذوا ما ليس لهم ولكن ولوا صدلوا فلا محل لانتقاصهم ووجد بسبب ذلك شيعتان مختلفتان الإمامية والزيدية ثم تشعبت الطرق بكل من الفرقتين فوجد من كل منهما مذاهب وآراء.

ولم يكن قبل المأمون لأصحاب المذاهب المخالفة لما عليه العامة حرية البحث وإظهار آراء بل كانوا يخشون العامة ولم تكن لهم قوة من الخلفاء يرتكزون عليها لأن الخلفاء كانوا كذلك يراعون العامة لأن القوة فيها فلما جاء المأمون رأى أن يجمع إليه العلماء من متكلمين والفقهاء وأهل الحديث ويجعل لهم مجالس المناظرة ويظهر أنه كان يرمى إلى أن يفتق هؤلاء العلماء على رأى فيما يلقى عليهم من المسائل ليحمل الجمهور على ذلك الرأى ويتفق كلمة الأمة ولا سيما فيما يتعلق بمباحث أصول الدين ومباحث الإمامة.

قال الطيفوري في تاريخ بغداد قال التغلبي سمعت يحيى بن أكثم يقول أمرني المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد فاخترت له من علامهم أربعين رجلاً وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض في فنون

الحديث والعلم فلما انقضى ذلك المجلس الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين قال المأمون يا أبى محمد كره هذا المجلس الذى جعلناه للنظر طوائف من الناس بتعديل أهوائهم وتركيز آرائهم فطائفة عابوا علينا ما نقول فى تفضيل على بن أبى طالب رضى الله عنه وظنوا أنه لا يجوز تفضيل على إلا بانتقاص غيره من السلف والله ما أستحل أو قال ما أستجيز أن أنتقص الحجاج فكيف السلف الطيب . وإن الرجل ليأتينى بالقطعة من العود أو بالخشب أو بالشئ الذى لعل قيمته لا تكون إلا درهما أو نحوه فيقول إن هذا كان للنبي ﷺ أو قد وضع يده عليه أو شرب فيه أو مسه وما هو عندى بثقة ولا دليل على صدق الرجل إلا أنى بفرط النية والمحبة أقبل ذلك فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر ثم أضعه على وجهى وعينى وأتبرك بالنظر إليه وبمسه فأستشفى به عند المرض يصيبنى أو يصيب من أهتم به كصياتنى بنفسى وإنما هو عود لم يفعل هو شيئاً ولا فضيلة له يستوجب بها المحبة إلا ما ذكر من مس رسول الله ﷺ له فكيف لا أرعى حق أصحابه وحرمة من قد صحبه وبذل ماله ودمه دونه وصبر معه أيام الشدة وأوقات العسرة وعادى العشائر والعمائر والأقارب وفارق الأهل والأولاد واغترب من داره ليعز الله دينه ويظهر دعوته؟ يا سبحان الله والله لو لم يكن هذا فى الدين معروفاً لكان فى الأخلاق جميلاً وإن من المشركين لمن يرعى فى دينه من الحرمة ما هو أقل من هذا معاذ الله مما فطن به الجاهلون . ثم لم ترص هذه الطائفة بالعب لم يخالفها حتى نسبته إلى البدعة فى تفضيله رجلاً على أخيه ونظيره ومن يقاربه فى الفضل وقد قال الله جل من قائل : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥] ثم وسع لنا فى جهل الفاضل من المفضول فما فرض علينا ذلك ولا ندبنا إليه إذ شهدنا لجماعتهم بالنبوة فمن دون النبيين من ذلك بعد إذ شهد لهم بالعدالة والتفضيل أمر لو جهله جاهل رجونا أن لا يكون اجترح إثماً - وهم لا يقولون بدعة فمن قال بقول واحد من أصحاب النبي ﷺ وشك الآخر واحتج فى كسره وإبطاله فى الأحكام فى الفروج والدمه والأموال التى النظر فيها أوجب من النظر فى التفضيل فيغلط فى مثل هذا أحد يعرف شيئاً أو له رؤية أو حسن نظر أو يدفعه من له عقل بل معاند يريد الإلطاط أو متبع لهواه ذاب عن رياسة اعتقدها وطائفة قد اتخذ كل رجل منهم مجلساً اعتقد به رياسة لعله يدعو قلة لضرب من البدعة ثم لعل كل رجل منهم يعادى من خالفه فى الأمر الذى قد عقد به رياسة بدعة ويشيط بدمه وهو قد خالفه من أمر الدين بما هو أعظم من ذلك إلا أن ذلك أمر لا رياسة له فسالمه عليه وأمسك عند ذكر مخالفته إياه فيه فإذا خولف فى نحلته ولعلها لم وسع الله فى جهله أو قد اختلف السلف فى مثله فلم يعاد بعضهم بعضاً ولم يروا فى ذلك إثماً فلعله يكفر مخالفه أو يبدعه أو يرميه بالأمور التى حرمها الله عليه من المشركين - دو- المسلمين بغياً عليهم وهم المترقبون الفتن الراسخون فيها ليتتهوا أموال الناس ويستحلوه

مغلبة وقد حال العدل بينهم وبين ما يريدون يزأرون على الفتنة زئير الأسد على فراشها -
 -نى لأرجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق الله وتأيدته ومعونته على إتمامه سببا لاجتماع هذه
 طوائف على ما هو أَرْضى وأصلح للدين . إما شك فيتين ويثبت فينقاد طوعا وإما معاند
 مِد بالعدل كرها .

وروى أيضا عن بشر المريسى قال حضرت عبدالله المأمون أنا وثمامة ومحمد بن أبى
 لعباس وعلى بن الهيثم فتناظروا فى التشيع فنصر محمد بن أبى العباس الإمامية ونصر
 عى بن الهيثم الزيدية وجرى الكلام بينهما إلى أن قال محمد لعلى يا نبطى ما أنت
 . الكلام . فقال المأمون وكان متكئا فجلس : الشتم عى والبذاءة لؤم إنا قد أبحنا الكلام
 ونظهرنا المقالات فمن قال بالحق حمدناه ومن جهل ذلك وقفناه ومن جهل الأمر حكمنا فيه
 . يجب فاجعلا بينكما أصلا فإن الكلام فروع فإذا افترعتم شيئا رجعتم إلى الأصول .
 فيستفاد من هذين الخبرين أمور جديدة بامعان النظر . .

١ - أن المأمون أباح الكلام وأظهر المقالات لدرجة قلما تجدها فى أمة وما ظنك بخليفة
 عباسى تناظر فى مجلسه اثنان فى الإمامية فنصر أحدهما الإمامية والثانى الزيدية وهذان
 المذهبان كلاهما إن صحا يذهبان بما فى أيدي آل العباس من الإمامية ولم يمنعه ذلك من
 ترك حرية القول لهم .

٢ - أن طوائف من الناس عابت ذلك على المأمون لأنه علم منه الموافقة على بعض آراء
 تخالف رأى العامة كما كان مذهبه فى تفضيل على بن أبى طالب رضى الله عنه على
 سائر الخلفاء واتهموه بسبب ذلك بما هو منه برىء وهو انتقاص غيره من الصحابة وقد
 دافع المأمون عن نفسه فى ذلك بما يغلب على الظن أنه صادق فيه .

٣ - أن المأمون كان يرى فى علماء وقته أنهم إنما كانوا ينكرون ما ينكرون فى الآراء التى
 كانت لهم سبب رياسة ولو كانت تافهة لا يترتب عليها فى الدين أثر ويغفرون لمن
 خالفهم فى الأمور الجسيمة التى تترتب عليها الآثار العظيمة ما دامت لا ترتبط بشيء مما
 يعتقدون به رياسة عند العامة .

٤ - أن المأمون كان يظن أن بمجلس المناظرة هذا يتوصل إلى إزالة الخلاف بين العلماء فيما
 اختلفوا فيه فإن الشاك يبين أو يثبت والمعاقد يُكره .

وهذا الذى فعله المأمون أول تجربة وآخرها لأنه لم يفكر أحد ممن قبله فى مثل هذا ولما
 انتهت تجربته بالفشل لم يعد أحد الخلفاء إلى مثله .

كانت قوة فقهاء العامة محكمة العرى لأن العامة كانت تجلهم وتحترم آراهم كما أن الفقهاء كانوا يحوطون معتقدات الجمهور، ويقفون ضد من يعلن مخالفتها. أدت المناقشات الكثيرة التي بين يدي المأمون إلى أنه كان يرى بعض آراء المعتزلة لا كلها فلما لم يكن قدرياً. روى الطيفوري عن محمد بن إسحاق بن إبراهيم اليزيدي أنه سمع ثمامة يقول إن المأمون عامى لتركه القول بالقدر، وإنما الذي صار إليه من آرائهم القول بخلق القرآن وأظهر رأيه ذلك (سنة ٢١٢) وكان يظن كما قدمنا أنه متى أعلن رأيه للعلماء وفقهاء الأمة يجيئهم إلى إعلان رضاهم به، فكانت النتيجة عكس ما ظن فإنهم تكلموا فيه وقالوا إنه مبتدع وغلا بعضهم في ذلك فقال بكفر من رأى خلق القرآن وبذلك تجسمت هذه المسألة التي نه تكن تستحق تجسيماً إذا نظر إليها بشيء من التدقيق. ولم تكن هناك أشياء أخرى غير المسألة العلمية توسع مسافة الخلاف بين المأمون ومن شاعبه وبين فقهاء الجمهور.

مرت سنوات أربع والخلاف يتسع والكلام من الفريقين في الآخر يزيد حتى كانت سنة (٢١٨) فرأى المأمون أن يستعين بسلطانه في رد الفقهاء إلى رأيه حتى لا يكون معترفاً بفشله فيما شرع فيه فكتب كتاباً وهو غاز إلى إسحاق بن إبراهيم عامله على بغداد (محافظها) ين فيه أن واجبه بصفته إماماً للمسلمين أن يجتهد في إقامة الدين ثم ذكر ما عليه الجمهور من حشو الرعية وسفلة العامة من الجهالة بالله حتى ساووا بينه وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا على أنه قديم مع النصوص الدالة على خلاف ذلك ثم قال (ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم ونسبوا أنفسهم إلى السنة وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوة مبطل لقولهم ومكذب دعواهم يرد عليهم قولهم ونحلهم. ثم أظهروا مع ذلك أنهم أحر الحق والدين والجماعة وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة فاستطاعوا بذلك عنى الناس وغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمات الكاذب والتخشع لغير الله والتخشع لغير الدين إلى موافقتهم عليه ومواطنتهم على سىء آرائهم تزينا بذلك عندهم وتصنع للرياسة والعدالة فيهم، فتركوا الحق إلى باطلهم واتخذوا دين الله وليجة إلى ضلالتهم فقبيلت بتزكيتهم لهم شهادتهم ونفذت أحكام الكتاب بهم على دغل دينهم ونغل أديمهم وفساد نياتهم ويقينهم وكان ذلك غايتهم التي إليها جروا وإياها طلبوا في متابعتهم والكذب على مولاهم) وبعد أن أعطاهم ما يستحقون على رأيه من مثل هذه القوارع قال لإسحاق (فاجمع بحضرتك من القضاة وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك فابدأ بامتحانهم فيما تقولون وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بديه وخلوص توحيده ويقينه فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى

ولنجاة فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومساءلتهم عن عملهم في القرآن .ترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره والامتناع من توقيعها عنده .يكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك .تأشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين .وإخلاص للتوحيد وكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله). وكتب في شهر ربيع الأول (سنة ٢١٨).

وكتب إلى إسحاق أن يشخص إليه سبعة نفر من كبار مشايخ الجمهور منهم محمد بن سعد كاتب الواقدي ويحيى بن معين وأبو خيثمة زهير بن حرب وأحمد بن إبراهيم لسورقي فأشخصوا إليه فامتنعهم وسألهم عن خلق القرآن فأجابوه جميعاً أن القرآن مخلوق فشخصهم إلى مدينة السلام وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره فشهر أمرهم وقولهم حضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلى سبيلهم .

وكتب المأمون إلى إسحاق كتاباً ثانياً زاد فيه على الكتاب الأول قال فيه في صفة من حالفوه . (وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظاً في الدين ولا نصيباً من الإيمان .ينيقين ولا يرى أن يحل أحد منهم محل الثقة في أمان ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق في قول ولا حكاية ولا تولية شيء في أمر الرعية).

فجمع إسحاق نحو ثلاثين رجلاً من هؤلاء العلماء وهذا نموذج من أجوبتهم لإسحاق .

قال لبشر بن الوليد ما تقول في القرآن - فقال قد عرفت مقالتي لأمر المؤمنين غير مرة - قال فقد تجد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى - قال - أقول القرآن كلام الله - قال لم أسألك عن هذا أم مخلوق هو - قال الله خالق كل شيء - قال أما القرآن شيء - قال هو شيء - قال فمخلوق هو - قال ليس بخالق - قال ليس أسألك عن هذا أم مخلوق هو - قال ما أحسن غير ما قلت لك وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه وليس عندي غير ما قلت لك .

وقال لعل بن أبي مقاتل يا عليّ - قال قد سمعت كلامي لأمر المؤمنين في هذا غير مرة .وما عندي غير ما سمع - فقال له القرآن مخلوق - قال القرآن كلام الله - قال لم أسألك عن هذا - قال هو كلام الله وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا .

وقال لأبي حسان الزبائدي القرآن مخلوق هو - قال القرآن كلام الله - والله خالق كل شيء وما دون الله مخلوق وأمير المؤمنين إمامنا وبسببه سمعنا عامة العلم وقد سمع ما لم

نسمع وعلم ما لم نعلم وقد قلده الله أمرنا فصار يقيم حجتنا وصلاتنا ونؤدى إليه زكاة أموالنا ونجاهد معه ونرى إمامته وإمامة وإن أمرنا ائتمرنا وإن نهانا انتهينا وإن دعانا أجبنا - قال القرآن مخلوق هو - فأعاد إليه حسان مقالته - قال إن هذه مقالة أمير المؤمنين - قال قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم إليها وإن أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرتنى فإنك الثقة المأمون عليه فيما أبلغتنى عنه من شيء فإن أبلغتنى عنه بشيء صرت إليه - قال ما أمرنى أن أبلغك شيئاً - قال قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ فى الفرائض والموارث ولم يحملوا الناس عليها.

وكان إسحاق يكتب مقالة كل قائل فلما أتم امتحانهم جميعاً أرسل إلى المأمون نتيجة الامتحان ولما رأى المأمون هذه المحاولة منهم غاظه ذلك وكتب فى شأنهم كتاباً ثالثاً قرع فيه أولئك العلماء أشد التقريع وذكر كل واحد منهم بما يعلمه فيه من النكوب عن الجادة فى عمله أو خلقه كأنه يعرف دخائل كل منهم معرفة خبير فمن ذلك قوله:

وأما الذبىال ابن الهيثم فأعلمه أنه كان فى الطعام الذى كان يسرقه فى الأنبار، وفيه يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبى العباس ما يشغله، وأنه لو كان مقتفياً آثار سلفه وسالكا مناهجهم ومحتذيا سبيلهم لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه.

وأما الفضل بن غانم فأعلمه أنه لم يقف أمير المؤمنين على ما كان منه بمصر وما اكتسب من الأموال فى أقل من سنة وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله فى ذلك فإنه من كثر شأنه شأنه وكانت رغبته فى الدنيا والدرهم رغبته فليس بمستكر أن يبيع إيمانه طمعاً فيهم وإيثاراً لعاجل نفعهما وأنه مع ذلك القائل لعلى بن هشام ما قاله والمخالف له فيما خالفه فيه، فما الذى حال به عن ذلك ونقله إلى غيره.

وأما الفضل بن الفرخان فأعلمه أنه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أخذ الودائع التى أودعها إياه عبدالرحمن بن إسحاق وغيره تربصاً بمن استودعه وطمعاً فى الاستكثار لما صر فى يده ولا سبيل عليه عن تقادم عهده وتطاول الأيام، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لا جزاك الله خيراً عن تقويتك مثل هذا وإيمانك إياه وهو معتقد للشرك منسلخ عن التوحيد.

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف بأبى معمر فأعلمهم أنهم مشاغل بأكل الرى عن الوقوف على التوحيد وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم فى الله ومجاهدتهم لإربائهم، وما نزل به كتاب الله فى أمثالهم لاستحل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركاً وصاروا للنصارى مثلاً؟

وأما سعدويه الواسطي فقل له قبح الله رجلا بلغ به التصنع للحديث والتزين به يحرص على طلب الرياسة فيه أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقريب بها متى يمتحن يجلس للحديث.

وأما المعروف بسجادة وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل لفقه القول بأن القرآن مخلوق، فأعلمه أنه في شغله بإعداد النوى وحكمه لإصلاح سجادته وبالودائع التي دفعها إليه على بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد وألهاه، ثم سبه عما كان يوسف بن أبي يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه إن كان شاهدهما يجالسهما.

وقد ذكر مثل ذلك في غير هؤلاء، وخلاصة ما يطلب في هذا الكتاب أنه ذكر رجلين هما بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدي أمره أن يستتيبهما فإن تابا أشهر أمرهما وإلا ضرب عناقهما، أما من عداهما فإن لم يقولوا بخلق القرآن حملهم جميعا موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين. وقال في ختام هذا الكتاب - وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بندارية - إنه ينتظر به اجتماع الكتب الخرائطية معجلا به تقربا إلى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ويرجاء ما اعتمد وإدراك ما أمل من جزيل ثواب الله عليه فأنفذ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين بعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك في خريطة بندارية مفردة عن سائر الخرائط لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله وكتب (سنة ٢١٨).

فأحضرهم إسحاق مرة ثانية وسألهم فأجابوه أن القرآن مخلوق ما عدا أربعة منهم فأمرهم فشدوا في الحديد وفي اليوم الثاني أعاد عليهم المحنة فأجابوه واحد من الأربعة فأطلقه وفي اليوم الثالث فعل كذلك فأجابوه ثان وبقي اثنان صمما على عدم الإجابة وهما أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فوجه بهما إسحاق إلى طرسوس. وبعد ذلك ورد كتاب من حمون على إسحاق يقول له فيه إن سليمان بن يعقوب صاحب الخبر كتب إليه أن بشر بن نونيد تأول الآية التي أنزلها الله تعالى في عمار بن ياسر إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان - وقد أخطأ التأويل - إنما عنى الله عز وجل بهذه الآية من كان معتقدا الإيمان مظهر الشرك مما من كان يعتقد الشرك مظهر الإيمان فليست هذه له، فأشخصهم جميعاً إلى طرسوس فجمعوا بها إلى خروج أمير المؤمنين من بلاد الروم فأشخصهم جميعاً ولما وافوا الرقة بلغهم وفاة المأمون فأقامهم والى الرقة بها ثم أعيدوا إلى مدينة السلام.

هذه كانت النتيجة لما شرع فيه المأمون وهي نتيجة تضاد ما قصده من تأليف القوم بجمعهم على رأى واحد فيما اختلف فيه من المسائل وقد كبر الخلاف في مسألة من هون المسائل وأيسرها حلا، ولكن المأمون قال إن أصغر المسائل متى كان أساسا لنحلة

أو سبباً لرياسة فإن الخلاف يعظم بسببه أما أعضل الأمور فإن الخلاف الشديد لا يجد إليه سبيلاً إذا لم يكن أساساً لنحلة أو سبباً لرياسة وهذا يكاد يكون صحيحاً . ومع اعترافنا بأن الخلاف لا محل له فى هذه المسألة لا نرى للمأمون حقاً وهو سلطان الأمه يصادرها فيما تعتقد على الشكل الذى سنه مما بيناه .

وليعلم أن جميع الذين تهاونوا مع المأمون فى مسألة القرآن أهمل المحدثون أمرهم وأنزلوا رتبهم وعدوا ذلك عيباً من عيوبهم وقد كاد إمام المحدثين البخارى يصيبه أثر من آثار هذه النكبة فإن فريقاً من العلماء رأى أن يفصل بين لفظ القرآن ومعناه فكان يقول لفظى بالقرآن مخلوق وكان البخارى ممن يقول بذلك فاضطهده محمد بن يحيى الذهلى إمام المحدثين بنيسابور حتى خرج البخارى عنها خوفاً من العامة أن تبطش به وكذلك ترك مسلم بن الحجاج مجلس محمد بن يحيى من أجل ذلك فإنه لما سمع محمداً يقول من قال لفظى بالقرآن مخلوق فلا يقرب من مجلسنا، أخذ كساءه وخرج . أما الذين وقفوا فى المحنة وثبتوا على آرائهم ولم يتساهلوا فإنهم استحقوا من العناية والتكريم ما لا مزيد عليه والعلم المفرد فيهم هو الإمام أحمد بن حنبل ، فإن هذه الحادثة شرفته بين القوم شرفاً عظيماً .

ولم يكتف المأمون بما كان فى حياته بل أوصى إلى أخيه المعتصم الذى استخلفه من بعده بأن يسير بسيرته فى القرآن فلم يجد المعتصم بداً من أن يتبع هذه الوصية مع أنه لم يكن فى ميدان العلم كبير جولة ولكن وصية أخيه وبقاء رؤوس الاعتزال بجانبه جعلاه يتشدد فى الأمر فأحضر أحمد بن حنبل وعرض عليه أن يقول كما قال غيره من العلماء فصمم على إنكار أن يكون القرآن مخلوقاً ولم يثنه عن ذلك ما لقيه من الضرب والتعذيب فى مجلس المعتصم نفسه وكان أحمد يتردد بين ذلك وبين ضيق الجبوس وهو صابر محتسب .

وقد اتبع الواثق سيرة أبيه وعمه فى هذه المحنة وبسببها حصلت فتنة أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعى ومالك بن الهيثم كان أحد نقباء الدعوة العباسية وكان أحمد يغشه أصحاب الحديث وكان يظهر المباينة لمن يقول القرآن مخلوق مع منزلة أبيه من السلطان فى دولة بنى العباس . ويبسط لسانه فيما يقول ذلك مع غلظة من الواثق كانت على من يقول ذلك وكان أحمد إذا تكلم عن الواثق يقول ألا فعل هذا الكافر فحركة المطفون به من أهل الحديث وحملوه على الحركة لإنكار القول بخلق القرآن وقصدوه دون غيره لما كان لأبيه وجده فى دولة بنى العباس من الأثر فرجوا استجابة العامة له والتفافهم عليه فيقال إنه أجاب إلى ذلك وسعى له فى دعاء الناس رجلاً ممن كان يغشاه فنجحاً وألفا فرقتين إحدهما بالجانب الشرقى والأخرى بالجانب الغربى من بغداد واتعدوا ليلة ليضربوا فيه

ضولهم للاجتماع صبيحتها للوثوب بالسلطان فاتفق أن بعض المحافظين على الطبل انتبذ نيداً فلما أخذ منه ضرب على الطبل قبل الموعد المضروب بليلة فانتبه لصوت الطبل محمد بن إبراهيم بن مصعب خليفة صاحب الشرطة فأرسل يسأل عن سببه وبعد التدقيق عرف سر المؤامرة فتبع القوم من ليلتهم فأخذوا وصيروا إلى الحبس وقبض على أحمد بن نصر أيضاً وحمل رؤوس القوم إلى الوراق بسامرا فجلس لهم الوراق مجلساً عاماً لامتحانهم ولما حضروا إليه لم ينظر الوراق أحمد بن نصر في الشعب ولا فيما رفع إليه من إرادة الخروج عليه لكنه سأل ما تقول في القرآن؟ قال هو كلام الله ولم يزد على ذلك وبعد أخذ ورد قتي الحاضرون بقتله فقام الوراق إليه بنفسه وقتله وصلب جسمه بسامرا وحمل راسه إلى بغداد فنصب بها في الجانب الشرقي وجعل في أذنه رقعة فيها هذا رأس الكافر المشرك لفضل وهو أحمد بن نصر بن مالك ممن قتله الله على يدى عبد الله هارون الإمام الوراق -لله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن، ونفى التشبيه وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع إلى الحق فأبى إلا المعاندة والتصريح والحمد لله الذى عجل به إلى ناره وأليم عقابه، وأن أمير المؤمنين سأل عن ذلك فأقره بالتشبيه وتكلم بالكفر فاستحل أمير المؤمنين دمه ولعنه.

وعن حمل إلى الوراق في هذه المحنة من علماء مصر أبويعقوب يوسف بن يحيى لبويطى أكثر أصحاب الإمام الشافعى رضى الله عنه غمى إلى الوراق أنه لا يقول بخلق القرآن، فأرسل إلى والى مصر فى امتحانه فامتحنه فلم يجب وكان الوالى حسن الرأى فيه فقال له قل فيما بينى وبينك قال إنه يقتدى بى مائة ألف ولا يدرون المعنى، فلما امتنع أمر لوائق بحمله فحمل وسجن ببغداد حتى مات فى سجنه (سنة ٢٣١).

واستمرت هذه المشكلة، حتى ملها الوراق نفسه وتمنى لو يجد مخرجاً وانتقلت المسألة من جدد إلى الهزل ودخل عبادة المضحك على الوراق فقال: يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك فى القرآن قال: ويلك القرآن يموت قال: يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت بالله يا أمير المؤمنين من يصلى بالناس التراويح إذا مات القرآن فضحك الوراق وقال قاتلك الله -صك.

وجئ الوراق بشيخ مقيد فسأله ابن أبى دؤاد عن قوله فى القرآن فقال له الشيخ لم تصفنى المسألة أنا أسألك قبل الجواب هذا الذى تقوله يا ابن أبى دؤاد من خلق القرآن شئ عن رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أوجهلوه - فقال بل علموه قال فهل دعوا عليه الناس كما دعوتهم أنت أوسكتوا - قال بل سكتوا - قال فهلا

وسعك ما وسعهم من السكوت - فسكت ابن أبي دؤاد وأعجب الواثق بكلامه وأمر بإطلاقه، وقال وهو يقول هلا وسعك ما وسعهم يكرر هذه الكلمة.

كانت تلك الحوادث مما أحمَد نار المحنة، ولذلك لما جاء المتوكل بعد الواثق أمر برفع المحنة وأن يترك الناس وشأنهم فيما يعتقدون وحسناً فعل وقد استحق المتوكل ثناء الجمهور العظيم بسبب ذلك وتجاوزوا له عما كان من هفواته.

يمكن القول بأن هذه المجالس التي تعقد للمناظرة رجاء الوصول إلى الوفاق إنما تقر الخلاف وتؤكد لا تزيله متى اتصل بهذا الخلاف شيء من الرياسة في الدنيا. وتاريخ المجامع والمجالس التي كان من شأنها البحث في الأمور الدينية شاهد بذلك.

علوم الصناعات،

كما كانت للمأمون جولة في العلوم الدينية كانت له جولة في العلوم الصناعية وقد كان أثره في هذه أظهر من أثره في تلك كما يتبين مما يأتي:

كانت الأمة العربية أمة أمية لا تتعلق بشيء من الصناعات ولا العلوم إلا قليلاً كما ينه في خلاصة تاريخها في الجزء الأول، فلما جاءها الإسلام لم يكن لها مجال في العلوم لأنها كانت في دور التكوين وذلك محتاج إلى استعمال ما عندها من القوة والفكر في سبيل ذلك فانقضت مدة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم في الفتح وتأسيس المملكة وتجهيد طريق الدعوة إلى الدين وكانت الحال كذلك في صدر الدولة الأموية إلا أنه وجد من رجالهم في أوسط أدوارها من عنوا ببعض الصناعات التي كانت فيمن سبقهم من الأمم واهتموا بترجمة كتب منها وأول من عرف اسمه في ذلك خالد بن يزيد بن معاوية الذي كان يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلاً في نفسه وله همة ومجبة للعلوم خطر بياله الصنعة «الكيمياء» فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة. ثم نقل الديوان وكان باللغة الفارسية إلى العربية في أيام الحجاج نقله صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم كما قدمنا ذلك في تاريخ بنى أمية، ثم نقل ديوان الشامي إلى العربية في زمن هشام بن عبد الملك نقله أبو ثابت سليمان بن سعد مولى حسين.

وكانت الدولة الأموية أقرب إلى من قبلها في السذاجة الصناعية فلم يكن لترجمة

لكتب فيها كبير حظ ولا عظيم أثر. فلما جاءت الدولة العباسية كانت اختلاطها بالفرس كثر لأن دولتهم بالخراسانيين والموالي قامت وهذا الاختلاط جعل نفوس العباسيين تصبوا إلى الاطلاع على شيء مما عند الفرس واليونان من آثار متقدميهم من العلماء والحكماء وفلاسفة وكان أول من عنى بترجمة شيء من هذه الكتب أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء عباسيين وكان الذي قام بترجمة الكتب له طبيب جرجس بن جبرائيل الذي كان طبيباً بمارستان جند نيسابور ثم طلبه المنصور إليه (سنة ١٤٨) ليعالجه فحظى عنده حظوة عظيمة وترجم له كتباً كثيرة من اليوناني إلى العربي. والبطريق قال في طبقات الأطباء إن المنصور أمره بنقل أشياء من الكتب القديمة وله نقل كثير جيد إلا أنه دون نقل حنين بن إسحاق. وقد وجدت بنقله كتب كثيرة في الطب من كتب أبوقراط وجالينوس وترجم له ابن المقفع كتاب كليله ودمنة من الفهلوية وترجم كتاب السند هند وكتاب المجسطي لبطليموس وكتاب بقليدس في الهندسة وغير ذلك إلا أن العناية لم تبذل كثيراً في الحصول على الكتب المفيدة حتى ترجم وتشغل بها الأمة.

فلما كان في زمن هارون الرشيد وغلب على بعض المدائن الرومية الكبرى كأنقرة وعمورية عثر على كتز ثمين من كتب اليونان فأمر أن تترجم له فترجمت وبذلك كانت حركة الترجمة أقوى منها في عهد المنصور وكان للبرامكة يد طولى في الترجمة وعون مترجمين عليه بما كانوا يدرونه عليهم من الأرزاق.

لما ولي المأمون كان قد تأثر فكره بما قرأ من هذه الكتب وأحسن بنفعها فقوى حركة لترجمة ونشطها تنشيطاً أساسه الاقتناع بالفائدة وساعده الجود والبذل في هذا السبيل حكى بن النديم في الفهرس أن المأمون رأى في منامه كأن رجلاً أبيض اللون مشرباً حمرة واسع خبهة مقرون الحاجب أجلى الرأس أشهل العينين حسن الشمائل جالس على سريرته قال مأمون وكأنى بين يديه قد ملئت له هبة فقلت من أنت قال أنا أرسطاطاليس فسررت به وقلت أيها الحكيم أسألك قال: سل، قلت: ما الحسن، قال ما حسن في العقل قلت ثم ماذا قال ما حسن في الشرع قلت ثم ماذا قال ما حسن عند الجمهور قلت ثم ماذا قال لا. ثم لا - وفي رواية أخرى قلت زدنى قال من نصحك في الذهب فليكن عندك كالذهب وعليك بالتوحيد - قالوا فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب - وإذا صحت هذه الحكاية فهذه الرؤيا أثر لشغف المأمون بأرسطاطاليس وتعاليمه.

كان بين المأمون وملك الروم مراسلات وقد استظهر عليه المأمون فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما عنده من مختار العلوم القديمة المخزومة المدخرة ببلد الروم فأجاب

إلى ذلك بعد امتناع فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج^(١) بن مطر وابن البرطيق^(٢) وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه إليه أمرهم بنقله وقيل إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلاد الروم.

ولم تكن هذه العناية قاصرة على المأمون وحده بل كان لهذه جماعة ذو يسار اعتنوا جد العناية بنقل هذه الكتب إلى اللسان العربى ومن هؤلاء محمد وأحمد والحسن بنو شاذان المنجم بذلوا الرغائب وأنفذوا حنين بن إسحاق وغيره إلى بلد الروم فجاءوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسية والموسيقى والأرغماطيقا والطب. قال أبو سليمان المنطقى السجستانى إن بنى المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن إسحاق وحبيش بن الحسن وثابت بن قره وغيرهم فى الشهر نحو (٥٠٠ دينار) للنقل والملازمة. وقال ابن النديم فى موضع آخر هؤلاء القوم ممن تنهى فى طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب وأنعبوا فيها نفوسهم وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها إليهم فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبدل السنى فأظهروا عجائب الحكمة وكان الغالب عليهم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم وهو الأقل وتوفى محمد بن موسى (سنة ٩٥) فى شهر ربيع الأول، ثم ذكر الكتب التى ألفوها، وقال ابن خلكان ومما اختصوا به فى ملة الإسلام وأخرجوه من القول إلى الفعل وإن كان أرباب الأرصاد المتقدمون على الإسلام قد فعلوه لكنه لم ينقل أن أحداً من أهل الملة تصدى له وفعله إلا هم وهوان المأمون كان مغرمًا بعلوم الأوائل وتحقيقها ورأى فيها أن دور كرة الأرض (٢٤٠٠٠ ميل) كل ثلاثة أميال فرسخ فيكون المجموع (٨٠٠٠ فرسخ) بحيث لو وضع طرف جبل على أى نقطة كانت من الأرض وأدركنا الجبل على كرة الأرض حتى انتهينا بالطرف الآخر إلى ذلك الموضع من الأرض التقى طرفا الجبل فإذا مسحنا ذلك الجبل كان طوله (٢٤٠٠٠ ميل) فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك فسأل بنى موسى المذكورين عنه فقالوا نعم هذا قطعى فقال أريد أن تعملوا الطريق الذى ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك أولاً - فسألوا عن الأراضي المتساوية فى أى البلاد هى فقبل لهم صحراء سنجار فى غاية الاستواء وكذلك وطاً الكوفة فأخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون إلى أقوالهم ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة وخرجوا إلى سنجار وجاءوا إلى الصحراء المذكورة فوقفوا فى موضع منها فأخذوا

(١) قال فى طبقات الأطباء: الحجاج بن مطر نقل للمأمون، من نقله كتاب إقليدس ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قره الحرانى.

(٢) قال فى الطبقات: يحيى بن البرطيق كان فى حملة الحسن بن سهل وكان لا يعرف العربية حق معرفتها ولا اليونانية وإنما كان لطيئياً يعرف لغة الروم وكتابتها وهى الحروف المتصلة لا اليونانية القديمة.

ارتفاع القطب الشمالي ببعض الآلات وضربوا في ذلك الموضع وتبدأ وربطوا فيه حبلًا طويلاً ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على استواء الأرض من غير انحراف إلى اليمين واليسار حسب لإمكان فلما فرغ الحبل نصبوا في الأرض وتبدأ آخر وربطوا فيه حبلًا طويلاً ومشوا إلى جهة الشمال أيضاً كفعلمهم الأول ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا إلى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد على الارتفاع الأول درجة فمسحوا ذلك القدر الذي قدروه من الأرض بالحبال فبلغ ٣، ٦١/١ ميلاً فعلموا أن كل درجة من درج الفلك يقابلها من سطح الأرض ١، ٣/٦١ ميلاً. عادوا إلى الموضع الذي ضربوا فيه الوند الأول وشدوا فيه حبلًا وتوجهوا إلى جهة الجنوب ومشوا على الاستقامة وعملوا كما عملوا في جهة الشمال من نصب الأوتاد وشد الحبال حتى فرغت الحبال التي استعملوا في جهة الشمال ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالي قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة فصح حسابهم وحققوا ما قصدوا من ذلك - وهذا إذا وقف عليه من له يد في علم الهيئة ظهر له حقيقة ذلك ومن المعلوم أن عدد درج الفلك ٣٦٠ لأن الفلك مقسوم باثنى عشر برجاً كل برج ٣٠ فتكون الجملة ٣٦٠ فضربوا عدد درج الفلك في ١، ٣/٦٦ ميلاً التي هي حصة كل درجة فكانت الجملة ٢٤٠٠ وهي ٨٠٠ فرسخ (الميل ١، ٢/١٦٦٦ ميلاً والفرسخ ٥٠٠) وهذا محقق لا شك فيه فلما عاد بنو موسى إلى المأمون وأخبروه بما صنعوا وكان موافقاً لما رآه في الكتب القديمة من استخراج الأوتار طلب تحقيق ذلك في موضع آخر فسيرهم إلى أرض الكوفة وفعلموا كما فعلوا في سنجار فتوافق الحسابان فعلم المأمون صحة ما حرره لتقديماء في ذلك. ومن كان ينقل لهم حنين بن إسحاق العبادي وكان فاضلاً في صناعة الطب فصيحاً باللغة اليونانية والسريانية والعربية والفارسية دار البلاد في جميع الكتب القديمة ودخل بلد الروم وأكثر نقوله لبنى موسى ونقله في غاية الجودة وكانت وفاته (سنة ٢٦٠).

وكان هناك كثير غير بنى شاكر يحذون حذوهم ذلك فكثرت الكتب المترجمة في جميع العلوم الصناعية ولما نقلت إلى العربية اشتغل بها الناس كثيراً علماً وعملاً ففسروا مغلقها وأصلحوا خللها ووجد منهم فلاسفة عظام ألفوا كتباً عظيمة في هذه العلوم منهم من صميم العرب يعقوب بن إسحاق الكندي يتتبع نسبته إلى الأشعث بن قيس بن معد يكرب ثم إلى كندة وكان عظيم المنزلة عند المأمون وعند المعتصم وله مصنفات جلييلة ورسائل كثيرة جداً في جميع العلوم ونقل في طبقات الأطباء عن سليمان بن حسان أنه كان عالماً بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف اللحن والهندسة وطبائع الأعداد وعلم النجوم، ولم يكن في الإسلام فيلسوف غيره احتذى في تأليفه حذو أرسطو طاليس وله تأليف كثيرة في فنون العلم وخدم الملوك فباشرهم بالأدب وترجم من كتب الفلسفة الكثير وأوضح منها

المشكل ولخص المستصعب وبسط العويص . وقال أبو معشر في كتاب المذكرات لشاذان: حذاق التراجمة الإسلام أربعة حنين بن إسحاق ويعقوب بن إسحاق الكندي وثابت بن قرة الحراني وعمر بن الفرخان الطبري وقد ذكر فهرس كتبه في نحو خمس صفحات في علوم شتى .

وإنما ذكرنا هذا لندل على أن الأمة كانت في استعداد تام لتلقى هذه الكتب والتصرف فيها والبناء عليها والزيادة فيها فنفتت بسبب ذلك هذه العلوم واشتغل بها المتعلمون في بغداد حاضرة الخلافة وفي غيرها من الحواضر ولم يقفهم عن التقدم كلمات العلماء من أهل الحديث التي كانت توجه إليهم أحياناً خفية لمكان الخليفة منهم فقد كان هو المساعد الأكبر في نفاق هذه العلوم .

فالمأمون يعد في الحقيقة حامل لواء هذه العلوم وسبب تلك الحركة الكبرى التي وجدت في الأمة الإسلامية مع حفظ الفضل لمن سبقه في ذلك كأبيه الرشيد وجده المنصور فإنهما وضعوا الأساس وهو هذا حذوهم إلا أنه فاقهم في الاهتمام والعزم .

الأحوال الخارجية:

لم يكن بين المسلمين والروم حروب في أول عهد المأمون إلى (سنة ٢١٥) وفيها شخص المأمون بنفسه من مدينة السلام لغزو الروم في المحرم (مارس سنة ٨٣٠) واستخلف على المدينة إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وسلك طريق الموصل حتى صار إلى منبج ثم دابق ثم أنطاكية ثم المصيصة ومنها خرج إلى طرسوس وهي الثغر الإسلامي ومن طرسوس دخل إلى بلاد الروم في منتصف جمادى الأولى (يولية سنة ٨٣٠) ففتح حصن قرعة عنوة وأمر بهدمه . ولما تم فتحه اشترى السبي بستة وخمسين ألف دينار ثم خلى سبيلهم وأعطاهم ديناراً ديناراً - وكان قبل ذلك الفتح حصناً اسمه ماجدة فمن على أهله - ثم أرسل أشتاس إلى حصن سندس فأتاه برأسه - ووجه عجيفاً وجعفرأ الخياط إلى صاحب حصن سنان فسمع وأطاع .

وبعد ذلك شخص إلى الشام وهناك ورد الخبر عليه بأن ملك الروم قتل قوماً من أهل طرسوس والمصيصة عدتهم فيما يقال (٦٦٠٠) فأعاد الكرة على بلاد الروم فنزل على أنظيفوا فخرج أهلها على صلح وصار إلى هرقله فخرج أهلها على صلح ووجه أخاه إسحاق فافتتح ثلاثين حصناً ووجه يحيى بن أكثم من طوانة فأغار وغنم ورجع إلى العسكر - ثم خرج المأمون إلى كيسوم ثم إلى دمشق ومنها خرج إلى مصر في (١٦) اذى الحجة سنة (٢١٦) ثم عاد منها إلى دمشق (سنة ٢١٧) فدخل أرض الروم ثالث مرة فأناخ على لؤلؤة

مائة يوم ثم رحل عنها وخلف عليها عجيلاً فاخضع أهلها وأسرره فمكث أسيراً في أيديهم ثمانية أيام ثم أخرجوه وسار توفيل إلى لؤلؤة فأحاط بعجيف فصرف المأمون الجنود إليه فارتحل توفيل لموافاتهم وخرج أهل لؤلؤة إلى عجيف بالأمان.

وكتب ملك الروم المأمون في سفرته هذه وأجابه المأمون على كتابه وهذه نسخة كتابيهما.

كتب ملك الروم إلى المأمون: أما بعد فإن اجتماع المختلفين على حفظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما ولست حرياً أن تدع لحظ يصل إلى غيرك حظاً تحوزه إلى نفسك وفي علمك كان عن أخبارك وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسألة راجياً في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا ويكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة فإن أبيت فلا أدب لك في الخمر ولا زخرف لك في القول فإنني لخائض إليك غمارها آخذ عليك أسداها شان عليك خيلها ورجلها وإن أفعل فبعد أن قدمت إليك المعذرة وأقمت بيني وبينك علم الحجة والسلام.

رد المأمون: أما بعد فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من المودة وخلطت فيه من اللين والشدة مما استعطفت به من فسح المتاجر واتصال المرافق وفك الأسارى ورفع القتل والقتال فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في تقلب الفكرة وأن لا أعتقد الرأي في مستقبله إلا في إصلاح ما أوتره في معتقه لجعلت لجواب كتابك خيلاً تحمل عن أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن تكلّمكم ويتقربون إلى الله بدمائكم ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم ثم أوصل لهم من الأمداد وأبلغ لهم كافياً من العدة والعتاد هم أظماً إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرفتهم عليكم موعدهم إحدى الحسينين عاجل غلبة أو كريم منقلب غير أنني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولن معك إلى الوحدة والشرعية الحنيفية فإن أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة وإن تركت ذلك ففي يقين المعينة لقوتنا ما يغني عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة والسلام على من اتبع الهدى.

شخص المأمون إلى الرقة (سنة ٢١٧) وفي هذه السنة في جمادى (يونية سنة ٨٣٣) سير ابنه العباس إلى أرض الروم وأمره بنزول الطوابة وبنائها فابتدأ البناء بناها ميلاً في ميل وجعل سورها على ثلاثة فراسخ وجعل لها أربعة أبواب وبنى على كل باب حصناً. ثم صار المأمون بعده إلى بلاد الروم فدخلها من ناحية طرسوس وهناك كانت وفاته كما يأتي:

أخلاق المأمون:

أول ما ظهر من حلى المأمون ميله للعفو وكراهته للانتقام فإنه عفا عن جميع من ساعدوا خصومه عليه ولم يهجم بشيء حتى الفضل بن الربيع الذي أخذ قواده وسلاحه وجنوده وجميع ما أوصى به أبوه له فذهب به إلى الأمين وتركه يبرو مجرداً عن كل ذلك ثم أفسد عليه أخاه وأغراه على خلعه وكان أشد عليه من كل شيء ومع هذا لم يؤاخذه بجرمه ولما دخل على المأمون وأعلنه المأمون بالعفو سأله الرضا فقال المأمون: أجل العفو لا يكون إلا عن رضا وسجد المأمون شكراً لله على أنه ألهمه نعمة العفو عنه وقال: الحمد لله قديماً كنت أسلم عليه فأفرح برده فسبحان الذي ألهمني الصفع عنه فلذلك سجدت قال طاهر بن الحسين: فعجبت لسعة حلمه. وقال زيد بن علي بن الحسين: جلس المأمون يوماً للغداء وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يذكر مناقبه ويصف سيرته ومجلسه إذ انهملت عين المأمون فلما سئل عن سبب بكائه قال: ما ذلك من حدث ولا لمكروه هممت به لأحد ولكنه جنس من أجناس الشكر لله لعظمته وذكر نعمته التي أتمها عليّ كما أتمها على أبوتي من قبلى أما ترون ذاك الذى فى صحن الدار (يعنى الفضل بن الربيع) كان فى أيام الرشيد وحاله حاله يرانى بوجه أعرف فيه البغضاء والشنآن وكان له عندى كالذى لىّ عنده ولكنى أداريه خوفاً من سعائته وحذراً من أكاذيبه فكنت إذا سلمت عليه فرد عليّ أظلل لذلك فرحاً وبه مبتهجاً وكان صفوه إلى المخلوع فحمله على أن أغراه بى ودعاه إلى قتلى وحرك الآخر ما يحرك القرابة والرحم الماسة فقال أما القتل فلا أقتله ولكن أجعله بحيث إذا قال لم يطع وإذا دعا لم يجب فكان أحسن حالاتى عنده أن وجه مع عليّ بن عيسى قيد فضة بعد ما تنازعا فى الفضة والحديد ليقيدني به وذهب عنه قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوْقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠] فذاك موضعه من الدار بأحسن مجالسها وأدنى مراتبها (وكان يجلس مع أصحاب الحرس) وهذا الخطيب على رأسى وكان بالأمس يقف على هذا المنبر الذى بإزائى مرة وعلى المنبر الغربى مرة فيزعم أنى المأمون ولست بالمأمون ثم هو الساعة يقرظنى تقريظه المسيح ومحمداً عليهما السلام.

وكان له فى العفو لذة لا يعادلها لذة حتى أنه لما ظفر بعمه إبراهيم عفا عنه مع عظيم جرمه وهذا خلق كاد ينساه التاريخ حتى حازه للمأمون الذى أحسن من نفسه بقدرة السلطان فأذهب ذلك عنه الحفيظة ولم يؤثر عنه ما يعيبه إلا ما كان منه بمصر حيث أمر بقتل محاريين نزلوا على حكمه مع ضياع قوتهم واقتناعه بعذرهم وهم أهل البشرد بأسفل مصر كانوا ثاروا على عمالهم بسبب سوء سيرتهم فأرسل إليهم الأفشين فأوقع بهم حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين ولما ذهب إليهم المأمون حكم بقتل رجالهم وبيع نسائهم وأطفالهم وذلك فى صفر

(سنة ٢١٧) وهى حادثة فى غاية الغرابة بالنسبة لما عرف من خلق المأمون الذى اشترى سبى لروم بماله وأطلقهم وأعطى كل واحد ديناراً ومن على غيرهم من السبى.

ومن مزايا المأمون أنه كان فى جدله ميالاً إلى الإقناع فكان يناقش من خالفه حتى يبين له الحق وله فى ذلك مجالس ماثورة مشهورة وله فى الجدل حجج قوية ناصعة مع سعة الصدر والاحتمال لما يبدر من حضره فى المناقشة وكان أصحابه ووزراؤه يدلونه على موضع الخطأ مما يريد أن يفعل. أراد مرة أن يتقص معاوية بن أبى سفيان ويلعنه فقال له يحيى بن أكثم إن العامة لا تحتل مثل هذا لا سيما أهل خراسان ولا تأمن أن يكون لهم نفرة وإن كنت لم تدر ما عاقبتها والرأى أن تدع الناس على ما هم عليه ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق فإن ذلك أصلح فى السياسة وأحرى فى التدبير فاتبع المأمون نصيحته وطوى الكتاب الذى كان قد أنشئ فى هذا المعنى فلم يقرأ على العامة ولكنه بقى فى دفاترهم مسجلاً.

كان المأمون مع حلمه يعلم ما عليه رؤساء جنده ورجال دولته فلم يكن بالمغفل الذى يتخذ برياء الناس ونفاقهم وظهورهم بما ليس من شيمهم قال يوماً وفى مجلسه جماعة ما فى عسكرنا من يطلب ما عندنا بالرياء فقال كل واحد بما عنده إما أن يقول فى عدو يقدح فيه أو يقول بما يعلم أنه يسر خليفته فلما قالوا ذلك قال ما أرى عند أحد منكم ما يبلغ إذاتى ثم أنشأ يحدث عن أهل عسكره أهل الرياء حتى لو كان قد أقام فى زحل كل واحد منهم حولاً ما زاد على معرفته فكان مما حفظ عنه إذ قال حين ذكر أهل الرياء وما يعاملون به الناس - تسبيح حميد الطوسى وصلاة قحطبة. وصوم النوشجاني. ووضوء بشر لمريسى. وبناء مالك بن شاهى المساجد. وبكاء إبراهيم بن بريهة على المنبر. وجمع الحسن بن قريش اليتامى. وقصص منجا وصدقة على بن الجنيد. وحملان إسحاق بن إبراهيم فى نسيل. وصلاة ابن رجاء فى الضحى وجمع على بن هشام القصاص - حتى جمع جماعة كثيرة فقال رجل من عظماء العسكر لآخر بعد أن خرجا من الدار هل رأيت أوسمعت بملك قط أعلم برعيته ولا أشد تنقيراً من هذا الحديث - فحدث إبراهيم بن المهدي بهذا الحديث رجلاً من أصحاب الأخبار والعلم فقال له وما تصنع بهذا قد شهدت رسالته إلى إسحاق بن إبراهيم فى الفقهاء يخبر بمعاييرهم رجلاً رجلاً حتى لهو بها أعلم منهم بما فى منازلهم.

قعد مرة للمظالم فقدم إليه أصحاب الحاجات فقضى ما شاء من حاجاتهم وكان فيهم نصراني من أهل كسكر كان قد صاح بالمأمون غير مرة وقعد له فى طريقه فلما بصر به لمأمون أثبتة معرفة فأمر مسلماً صاحب الحوائج أن يبطحه ويضربه عشرين درة وقال لسلم قل نه لا يعود يصيح بى فقال له سلم ذلك وهو مبطوح فقال الرجل أعود وأعود وأعود حتى تنظر فى حاجتى فأبلغه سلم ذلك فقال هذا مظلوم موطن نفسه على القتل أوقضاء حاجته ثم قال لآبى عياد أقص حاجة هذا كائنة ما كانت الساعة فلا أدري مم يعجب الإنسان أمن

ملاحظة المأمون وعرفان الرجل لأنه هو الذى صاح به مرة أو مرتين أم من تأميل الرجل فيه بعد أن أمر بضربه أم من رجوع المأمون عن خطئه فيما صنع وأمره بقضاء حاجة الرجل كائنه ما كانت .

وكان مع هذه الأخلاق أديباً يعرف جيد الشعر ورديته ويثيب على ما أعجبه منه ثواباً فوق كل أمل . حدث عمارة بن عقيل قال أنشدت المأمون قصيدة فيها مديح له فيها مائة بيت أو أكثر فما ابتدأت بصدر بيت إلا بادرني إلى قافيته فقال عمارة والله يا أمير المؤمنين ما سمعها منى أحد قط فقال المأمون هكذا ينبغي أن يكون وقال عمارة قال لى عبد الله بن السمط علمت أن المأمون لا يبصر الشعر فقلت ومن ذا يكون أعلم منه فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا إلى آخره . قال إني أنشدته بيتاً أجدت فيه فلم أره تحرك له - قلت وما الذى أنشدته فقال :

أضحى إمام الهدى المأمون مشغلاً بالدين والناس بالدنيا مشاغلاً

فقلت ما صنعت شيئاً وهل زدت على أن جعلته عجوزاً فى محرابها فى يده سبحتها فمن القائم أمر الدنيا إذا تشاغل عنها وهو المطوق بها هلا قلت فيه كما قال جرير فى عبد العزيز بن الوليد :

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

ولعلمه بالشعر ومحبه له راجت فى زمنه سوقه وكثر الشعراء والأدباء كما كثر المغنون ونبغوا . وكان المأمون يسمع الغناء ويحب الجيد منه وكان يشرب النبيذ على رأى أهل العراق .

أما كرمه فمما سارت به الأمثال فقد أربى على جميع خلفاء بنى العباس حتى على أبيه الذى كان يعطى عطاء من لا يخاف فقراً ولا يخشى إقلالاً وحكايات المأمون فى العطاء كثيرة فلا نطيل بذكرها إلا أنا نذكر حادثة تدل على مقدار الترف فى القوم وسعة اليد وكثرة البذل .

بنى المأمون (سنة ٢١٠) بيوران بنت الحسن بن سهل فى فم الصلح واحتفل أبوها بأمرها وعمل من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله فى مصر من الأمصار وانتهى أمره إلى أن نشر على الهاشمين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك فكانت البندقة إذا وقعت فى يد الرجل فتحها وقرأ ما فيها ثم يمضى على الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها ثم نشر بعد ذلك على سائر

الناس الدنانير والدرهم ونوافخ المسك وبيض العنبر وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه حتى على الجمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكريه فلم يكن في العسكر من يشتري شيئاً لنفسه ولا لدوابه تسعة عشر يوماً وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم (نحو مليون جنيه) وأمر المأمون له عند اتصافه بعشرة آلاف ألف درهم وأقطعه فم الصلح وأطلق له خراج فارس، وكور الأهواز مدة سنة. وهذا سرف عظيم سهل أمره الموارد الكثيرة.

وفاة المأمون:

بينما كان المأمون ببلاد الروم في آخر غزواته وهو بالبدندون شمالي طرطوس أصابته حمى لم تمهله كثيراً وفي ١٨ رجب (سنة ٢١٨) أدركته منيته فحمل إلى طرطوس ودفن بها وكانت سنه إذ توفي (٤٨ سنة).

ولاية العهد:

عهد المأمون وهو مريض إلى أخيه أبي إسحاق بن الرشيد ولم يخطئ خطأ من قبله بالعهد إلى اثنين وأوصاه بوصية مأثورة تقدم منها أشياء ومما جاء فيها (واعمل في الخلافة إذا طوقكها الله عمل المرید لله الخائف من عقابه وعذابه ولا تغتر بالله ومهله فكان قد نزل بك الموت ولا تغفل أمر الرعية الرعية العوام العوام فلإن الملك بهم وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين ولا ينهين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك وخذ من أقويائهم لضعفائهم ولا تحمل عليهم في شيء وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم وقربهم وتأنهم وعجل الرحلة عني والقدم إلى دار ملكك بالعراق وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم في كل وقت).

٨

المعتصم

هو أبو إسحاق محمد بن الرشيد بن المهدي بن المنصور وأمه أم ولد اسمها ماردة ولد (سنة ١٧٩) فبينه وبين أخيه المأمون تسع سنوات وكان في عهد أخيه المأمون والياً على الشام ومصر وكان المأمون يميل إليه لشجاعته فولاه عهده وترك ابنه وفي اليوم الذي توفى فيه المأمون ببلاد الروم وبويع له بالخلافة ولقب بالمعتصم بالله في (١٩ رجب سنة ٢١٨) (١٠ أغسطس سنة ٨٣٣) ولم يزل خليفة ثمانى سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام.

وكان يعاصره في المغرب الأقصى من الأدارسة محمد بن إدريس بن إدريس (٢١٣-٢٢١) ثم على بن محمد (٢٢١-٢٣٤).

ويعاصره في أفريقية من الأغالبة زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب (٢٠١-٢٢٣) ثم الأغلب بن زيادة الله (٢٢٦-٢٢٣) ثم محمد بن الأغلب بن زيادة الله (٢٢٦-٢٤٢).

ويعاصره في اليمن محمد بن إبراهيم الزيادى الذى ولاه المأمون (٢٠٣-٢٤٥).

ويعاصره في خراسان الأمير عبد الله بن طاهر الذى ولاه المأمون (٢١٣-٢٣٠).

ويعاصره في مملكة الروم بالقسطنطينية توفيل بن ميخائيل (٨٢٩-٨٤٢).

ويعاصره في فرنسا لويز الأول الملقب باللين (٨١٤-٨٤٠) ثم شارل الملقب بالأصلع (٨٤٠-٨٧٧).

الأحوال فى عهد المعتصم:

بعد أن تمت البيعة للمعتصم ببلاد الروم عاد بالعسكر قاصداً بغداد بعد أن أمر بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه بطوانة وحمل ما كان بها من السلاح والآلة وغير ذلك مما قدر على حمله وأحرق ما لم يقدر على حمله وأمر بصرف من كان المأمون أسكنه ذلك من الناس إلى بلادهم. وكان دخول المعتصم بغداد يوم السبت مستهل رمضان (سنة ٢١٨).

وزراء المعتصم

الفضل بن مروان بن ماسرخس . كان رجلاً نصرانياً من أهل البردان وكان متصلاً برجل من العمال يكتب له وكان حسن الخط ثم صار مع كاتب كان للمعتصم قبل أن يستخلف وهذا الكاتب هو يحيى الجرمقاني فلما مات يحيى صير الفضل في موضعه ولم يزل كذلك حتى بلغ المعتصم الحال التي بلغها والفضل كاتبه . لما خرج المعتصم مع المأمون في غزوته الأخيرة وكان الفضل ببغداد ينفذ أمور المعتصم ويكتب على لسانه بما أحب فلما بلغه موت المأمون قام بأمر بيعة المعتصم ببغداد وضبط الأمور حتى قدم المعتصم ببغداد خليفة فعرف له فضل اجتهاده ونشاطه فسلم إليه أمر الخلافة وخلع عليه ورد أموره كلها إليه فغلب عليه بطول خدمته وتربيته واستقل بالأمور ولم يزل على ذلك ستين فلما بدا للمعتصم استبداده بالأمور ثقل عليه . كان يدخل على المعتصم فيقول له احمل إليّ كذا وكذا من المال فيقول ما عندي فيقول فاحتلها من وجه من الوجوه فيقول ومن أين أحتالها ومن يعطيني هذا القدر من المال وعند من أجده فكان ذلك يسوء المعتصم ويعرف في وجهه . وكان للمعتصم رجل مضحك اسمه إبراهيم الهفتي كان يصحبه قبل الخلافة فيقول له فيما يداعبه والله لا أفلحت أبداً فلما ولي المعتصم أمر للهفتي بمال وأمر الفضل أن يعطيه إياه فلم يفعل - فبينما الهفتي يوماً عند المعتصم بعد ما بنيت له داره التي ببغداد واتخذ له فيها بستاناً قام المعتصم يمشي في البستان ينظر إليه وإلى ما فيه من أنواع الرياحين والغروس ومعه الهفتي وكان رجلاً مربوعاً ذا كدنة والمعتصم رجلاً معرقاً خفيف اللحم فجعل المعتصم يسبق الهفتي في المشي فإذا تقدم ولم يره التفت إليه فقال مالك لا تمشي يستعجله في المشي فلما كثر ذلك من أمر لمعتصم قال له الهفتي مداعباً كنت أراني أماشي خليفة ولم أكن أراني أماشي فينجا والله لا أفلحت - فضحك المعتصم وقال ويلك وهل بقي من الفلاح شيء لم أدركه بعد الخلافة فقال الهفتي أتخسب أنك أفلحت الآن إنما لك من الخلافة الاسم والله ما يجاوز أمرك أذنك وإنما الخليفة الفضل بن مروان الذي ينفذ أمره من ساعته فقال المعتصم أي أمر لى لا ينفذ فقال الهفتي أمرت لى بكذا وكذا منذ شهرين فما أعطيت مما أمرت به منذ ذاك حبة فاحتجها المعتصم على الفضل مع ما سبق له معه فأول ما فعله أن جعل عليه زمناً في نفقات الخاصة وهو أحمد بن عمار الخراساني وزمناً في الخراج وجميع الأعمال وهو نصر بن منصور . ثم زاد الأمر واستفحل فاشتد غضب المعتصم عليه وعلى أهل بيته وأمرهم برفع ما جرى على أيديهم أى تقديم الحساب عما وصل إليهم من المال وعمما صرفوه ولما فرغ الحساب أمر بحبس الفضل وأن يحمل إلى منزله ببغداد ثم نفى إلى قرية في طريق الموصل يقال لها السن وبقي كذلك حياة المعتصم قال الصولى في أخبار الوزراء إن المعتصم أخذ من بيته لما نكبه ألف ألف دينار وأخذ أثاثاً وآتية بألف ألف دينار .

كان الفضل قليل المعرفة بالعلم جيد الكتابة ومن المأثور عنه . لا تتعرض لعدوك

وهومقبل فإن إقباله يعينه عليك ولا تتعرض له وهومدبر فإن إداره يكفيك أمره واستمرت حياة الفضل بن مروان إلى (سنة ٢٥٠).

واستوزر المعتصم بعد الفضل أحمد بن عمار الخراساني الذي تقدم ذكره فلم يكن فيه كفاية كتابية. ورد على المعتصم كتاب من بعض العمال فقرأه الوزير عليه وكان في الكتاب ذكر الكلاً فقال المعتصم ما الكلاً فقال لا أدري. فقال المعتصم خليفة أمي ووزير عامي (وكان المعتصم ضعيف الكتابة) ثم قال أبصروا من بالباب من الكتاب فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات فأدخلوه إليه فقال له ما الكلاً - فقال الكلاً العشب على الإطلاق فإن كان رطباً فهو الخلاً فإذا يبس فهو الحشيش وشرع في تقسيم أنواع النبات فعرف المعتصم فضله واستوزره.

محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات: كان جده أبان رجلاً قروباً من الدسكرة يجلب الزيت من موضعه إلى بغداد فعرف محمد به. نشأ محمد ببغداد فتعلم وتأدب ونال من ذلك حظاً وافراً حتى قيل إن أبا عثمان المازني لما قدم بغداد في أيام المعتصم كان أصحابه وجلساؤه يخوضوه بين يديه في علم النحو فإذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك يقول لهم أبو عثمان ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب (يعني ابن الزيات) فاسألوه فاعرفوا جوابه فيفعلون ويصدر جوابه بالصواب الذي يرتضيه أبو عثمان ويوقعهم عليه. وكان محمد في أول أمره من الكتاب بالديوان فحصلت المسألة التي شرحناها في تاريخ أحمد بن عمارة فاستوزره المعتصم فقام بأمر الوزارة خير قيام واستمر وزيراً إلى وفاة المعتصم وخدم الخلفاء بعد ذلك كما يأتي.

وكان محمد بن عبد الملك مع علمه وأدبه ومعرفته بخدمة الملوك شاعراً ظريفاً عده دعبل بن علي في طبقات الشعراء وذكره أبو عبد الله هارون بن المنجم في كتابه البارع ومن رقيق شعره قوله في موت أم ابنه ولابنه ثمانى سنوات:

ألا من رأى الطفل المفارق أمه	بعيد الكرى عيناه تنسكبان
رأى كل أم وابنها غير أمه	يبيطان تحت الليل يتحبان
وبات وحيداً في الفراش تحببه	بلايل قلب دائم الخفقان
فهبنى أطلت الصبر عنها لأننى	جليد فمن للصبر بابن ثمان
ضعيف القوى لا يعرف الصبر جسـ	مه ولا يأتسى بالناس في الحدثان

وقد مدحه الوليد بن عباد الشاعر المعروف بالبحترى بقصيدة مطلعها:
بعض هذا العتاب والتفنيد ليس ذم الوفاء بالمحمود

يقول فيها واصفاً ما منحه من البلاغة :

لثفنتت فى الكتابة حتى	عطل الناس فن عبد الحميد
فى نظام من البلاغة ما شـ	ك أمروء أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا	حك فى رونق الربيع الجديد
مشرق فى جوانب السمع ما يخـ	للقه عوده على المستعيد
ما أعيرت منه بطون القرا	طيس وما حملت ظهور البريد
مستميل سمع الطروب المعنى	عن أغانى مخارق وعقيد
حجج تخرس الألد بألفا	ظ فرادى كالجوهر المعقود
ومعان لوفصلتها القوافى	هجت شعر جرول ولبيسد
حزن مستعمل الكلام اختياراً	وتجنبن ظلمة التعمقيد
وركن اللفظ القريب فأدر	كن به غاية المراد البعيد
كالعدارى غدون فى الحلل البـ	ض إذا رحن فى الخطوط السود
قد تلقيت كل يوم جديد	يا أبا جعفر بمجد جديد
يش الحاسدون منك وما مجـ	دك مما يرجوه ظن الحسود
وإذا استطرفت سيادة قوم	بنت بالسؤدد الطريف التليد
وذووالفضل مجمعون على فضـ	لك من بين سيد ومسود
عرف العالمون فضلك بالعلم	وقال الجهال بالتقليد

والذى كان يعاب عليه شدته فى معاملة العمال الذين يصادهم لخيانتهم فى الأعمال وكان إذا قال له أحد منهم أيها الوزير ارحمنى قال الرحمة خور فى الطبيعة .

أحمد بن أبى دؤاد الإيادى :كان من المعتصم كيحى بن أكثم من المأمون ولذلك سقنا خبره فى عداد الوزراء .

أصل بيته فيما يقال من إحدى قرى قنسرين كان أبوه يتجر إلى الشام أما هو فولد -بصرة (سنة ١٦٠) ونشأ بها فى طلب العلم وخاصة الفقه والكلام وصحب هياج بن نعلاء السلمى وكان من أصحاب واصل بن عطاء الغزالى كبير المعتزلة ومقدمهم .

فمال أحمد من أجل ذلك إلى الاعتزال وكان يحضر ببغداد مجلس القاضي يحيى بن أكثم فلما أمره المأمون أن يختار جماعة من الفقهاء يجالسونه ويبحثون معه كان أحمد في هؤلاء المختارين فكان المأمون إذا شرع أحمد في الكلام ينظر إليه ويتفهم ما يقول ويستحسنه فأمره أن يحضر مجلسه دائماً ولا يتأخر عنه وأحبه المأمون جداً وخف على قلبه حتى قال لأخيه المعتصم في وصيته (وأبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك وأشركه في المشورة في كل أمرك فإنه موضع لذلك منك) فولاه المعتصم قضاء القضاة واختص به حتى كان لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً إلا برأيه فكان له في حياة المعتصم مركز لا يدانيه فيه أحد حتى قال أوزن بن إسماعيل ما رأيت أحداً قط أطوع لأحد من المعتصم لابن أبي دؤاد وكان يسأل الشيء اليسير فيمتنع منه ثم يدخل ابن أبي دؤاد فيلكمه في أهله وفي الثغور وفي الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب فيجيبه إلى كل ما يريد ولقد كلمه يوماً في مقدار ألف ألف ليحفر بها نهراً في أقاصي خراسان فقال المعتصم وما على من هذا النهر فقال يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يسألك عن النظر في أمر أقصى رعيته كما يسألك عن النظر في أمر أدناها ولم يزل يرفق به حتى أطلقها.

وقال الحسين بن الضحاك الشاعر لبعض المتكلمين: ابن دؤاد عندنا لا يعرف اللغة وعندكم لا يحسن الكلام وعند الفقهاء لا يحسن الفقه وعند المعتصم يحسن هذا كله.

كان ابن أبي دؤاد ممن يحبون الخير للناس وله شرف نفس وجمال خلق عربي حتى عرف بالروءة وكان يحمل في سبيلها ما لا يحمله أحد قال ابن عبد الرحمن الكلبي: ابن أبي دؤاد روح كله من قرنه إلى قدمه. ومن طريف نوادره في الروءة أن الأفشين كان يحسد أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي للعربية والشجاعة فاحتال عليه حتى شهد عليه بجناية قتل فأخذه وأحضر السيف لقتله وبلغ الخبر ابن أبي دؤاد فخاف إذا هو ذهب إلى المعتصم وكلمه في شأنه أن يكون الكلام بعد فوات الوقت فركب فوراً مع من حضره من العدول ودخل على الأفشين وقد جرى بأبي دلف ليقتل فوقف وقال إني رسول أمير المؤمنين إليك وقد أمرتك ألا تحدث في القاسم بن عيسى حدثاً حتى تسلمه إلي ثم التفت إلى العدول وقال اشهدوا أنني أدبت إليه الرسالة عن أمير المؤمنين والقاسم حي معافى فقالوا شهدنا وخرج فلم يقدر الأفشين على تنفيذ مراده وذهب ابن أبي دؤاد إلى المعتصم من وقته فقال له يا أمير المؤمنين قد أدبت عنك رسالة لم تقلها ما أعتد بعمل خير خيراً منها وإنى لأرجوكم الجنة بها ثم أخبره الخبر فصوب المعتصم رأيه ووجه من أحضر القاسم فأطلقه ووصله وعنف الأفشين على ما كان عزم عليه.

وكان وجود ابن أبي دؤاد مع المعتصم مما عدل مزاجه لأنه شجاع شديد عجول فكان إذا

أسرع إليه الغضب هداً ابن أبى دؤاد من حدثه وأراه وجه الأناة والعمو فلا يسعه إلا أن يسير فى سبيلهما وكان له عليه من الدالة وعلوالمركز ما يستعين به على تنفيذ غرضه. غضب المعتصم مرة على خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى وأشخصه من ولايته لعجز لحقه فى مال طلب منه فجلس المعتصم لعقوبته وكان خالد قد طرح نفسه على ابن أبى دؤاد فتكلم فيه فلم يجبه المعتصم فلما جلس المعتصم حضر أحمد وهو قاضى القضاة فجلس دون مجلسه المعتاد فقال له المعتصم يا أبا عبد الله جلست فى غير مجلسك فقال ما ينبغى لى أن أجلس إلا دون مجلسى هذا، فقال له وكيف؟ قال لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعى موضع من يشفع فى رجل فيشفع - فقال المعتصم ارجع إلى مجلسك، قال مشفعاً أو غير؟ قال بل مشفعاً فارتفع إلى مجلسه ثم قال إن الناس ما يعلمون رضاء أمير المؤمنين إن لم يخلع عليه فأمر بالخلع عليه فقال يا أمير المؤمنين قد استحق هو وأصحابه رزق ستة أشهر لا بد أن يقبضوها وإن أمرت لهم بها فى هذا الوقت قامت مقام الصلة فقال قد أمرت له بها فخرج خالد وعليه الخلع وبين يديه المال وإن الناس ينتظرون الإيقاع به فصاح به رجل الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب فقال له اسكت سيد العرب والله أحمد بن دؤاد. وكان فى بن أبى دؤاد عصبية عربية ولعل هذا أفاد العرب وحفظ لهم شيئاً من مقامهم فى عهد معتصم الذى جعل القوة كلها لغلمان الأتراك الذين استكثر منهم ومن قوادهم.

وكان ابن أبى دؤاد مع ذلك شاعراً أديباً مجيداً فصيحاً بليغاً ذكره دعبل فى طبقات شعراء ومن ماثور قوله ثلاثة ينبغى أن ييجلوا وتعرف أقدارهم العلماء وولاة العدل والإخوان فمن استخف بالعلماء أهلك دينه ومن استخف بالولاة أهلك دنياه ومن استخف - لإخوان أهلك مروءته ولأبى تمام فيه مدائح جليلة منه قصيدته التى مطلعها:

سقى عهد الحمى سبيل العهد وروض حاضر منه وباد
ويقول فيها:

لقد أفنت مساوى كل دهر محاسن أحمد بن أبى دؤاد
متى تحلل به تحلل جناباً رضيعاً للسوارى والغوادى
يرشح نعمة الأيام فيه وتقسم منه أرزاق العباد
وما أشتبهت طريق المجد إلا هداك لقبلة المعروف هاد
وما سافرت فى الآفاق إلا ومن جسدواك راحلتى وزادى
مقيم الظن عندك والأمانى وإن قلقت ركابى فى البلاد

معاد البعث معروف ولكن ندى كفيك فى الدنيا معادى

العلويون فى عهد المعتصم:

لأول عهده توفى محمد الجواد بن على الرضا تاسع أئمة الشيعة الإمامية الاثنى عشرية وكانت وفاته (سنة ٢٢٠) وسنه (٢٥ سنة) وكانت تحته أم الفضل بنت المأمون فحملت إلى قصر عمها المعتصم فتولى الإمامة بعده ابنه أبوالحسن على الهادى وكانت سنه حين مات أبوه سبع سنين .

وخرج على المعتصم من الزيدية محمد بن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين بن على . كان مقيماً بالكوفة ثم خرج منها على الطالقان من خراسان يدعو إلى الرضا من آل محمد ﷺ فاجتمع إليه بها ناس كثير فاهتم بأمره عبد الله بن طاهر أمير خراسان وبعث له البعوث فكان بين الفريقين وقعات بناحية الطالقان وجبالها فهزم هو وأصحابه فخرج هارباً يريد بعض كور خراسان كان أهله كاتبوه فلما وصل إلى نسا دل عليه فأخذه عاملها واستوثق منه وبعث به إلى عبد الله بن طاهر فأرسل به إلى المعتصم فحبس بسامرا (سنة ٢١٩) فأقام فيه حتى كانت ليلة الفطر واشتغل الناس بالعيد والتهنئة احتال للخروج بواسطة رجال من شيعته فهرب ولم يعرف له خبر وقد انقاد إلى إمامته كثيرون من الزيدية ومنهم كثير يزعمون أنه لم يميت وأنه حى يرزق وأنه يخرج فيملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وأنه مهدى هذه الأمة وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم وكثير من كور خراسان وبقي ذلك الاعتقاد حتى (سنة ٢٣٢) كما قال المسعودى فى مروج الذهب .

الجيش:

قدمنا ما كان عهد المأمون من كثرة العناصر الغربية عن الأمة العربية فى جيش الدولة العباسية وذلك أمر قضت به الأحوال لذلك العهد كما شرحنا ذلك فلما جاء المعتصم أربى على أسلافه فى ذلك فقد كان يغلب عليه من أخلاق الرجال الشجاعة والميل إلى الشجعان . رأى أن من يبغداد من جنود الأبناء لا يوثق بهم لكثرة اضطرابهم وقيامهم على الخلفاء ورأى للأتراك من شدة البأس والنجدة فأراد أن يكون منهم جيشاً يستعز به على هؤلاء الأبناء ويرغم أنوفهم فاستكثر من غلمان الأتراك وأحضر منهم عدداً عظيماً فوق ما كان منهم فى عهد أخيه المأمون وأسكنهم بغداد واستغنى عن جيوش العرب بالمرّة وأسقطهم كافة من الدواوين بحيث لم يبق مرتزق لعهدده إلا من كان من الأتراك أو الأبناء إلا أنه

صطنع قوماً من خوف مصر ومن خوف اليمن وخوف قيس وسماهم المغاربة وأتى بكثير من الفراغة أهل فرغانة والأشروسنية أهال أشروسنة فكثر جيشه وكان هؤلاء القوم عجماً جفاة يركبون الدواب فيركضون في طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجال والمرأة والصبي فيأخذهم الأبناء فينكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم فربما هلك من الجراح بعضهم فشكا الأتراك ذلك إلى المعتصم وتأذت به العامة فرأى المعتصم أن بقاء هؤلاء الأتراك في وسط بغداد وبجانب جنود الأبناء خطر عليهم فكان ذلك سبباً لتفكيره في اختطاط حاضرة جديدة له ولهذا الجيش الجديد الذي أعجب به فاخطت سامرا.

وكان المعتصم يلبس هؤلاء الجنود أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزى عن سائر جنوده واشتهر منهم قواد اصطنعهم المعتصم ورفع من أقدارهم جعل بيدهم مستقبل الخلافة الإسلامية وسنذكر بعضهم:

١- الأفشين حيدر بن كاوس وهوتركى من أشروسنة «كورة من بلاد ما وراء النهر» شرقيها فرغانة وغربيها سمرقند وشمالها الشاش وبعض فرغانة وجنوبيها بعض حدود كش والصفايان وغيرهما ومدينتها التي يسكنها الولاة بنجكت.

كان حيدر في حاشية المعتصم في حياة المأمون وأصله من أبناء ملوك أشروسنة الذين ينقب الواحد منهم بالأفشين ولما رأى شجاعته وشهامته استعان به فيما ولى من الأعمال وكان المعتصم والياً على مصر والشام فأرسله نيابة عنه لإزالة الاضطراب في برقة ومصر فنجح فيهما. ولما استخلف المعتصم كان الأفشين في مقدمة قواده فعين (سنة ٢٢٠) لحرب -بك كما تقدم ذكره فظهرت على يديه عظام الأعمال وإحكام سير الجيوش حتى ظفر بخصمه مع مناعة موقعه. ولما أمره المعتصم بالعود إلى سامرا كان يوجه إليه كل يوم من حين فصل من برزند إلى أن وافى سامرا فرساً وخلعة. ولما حضر توجهه وألبسه وشاحين -الجوهر ووصله بعشرين ألف درهم منها عشرة آلاف صلة وعشرة آلاف ألف يفرقها في أهل عسكره وعقد له على السند. ولما غزا المعتصم عمورية كان قائداً لإحدى لفرق الثلاث التي دخلت بلاد الروم وهو الذي تولى حرب توفيل ملك الروم وهزم جنده. كل ذلك الإعظام والإجلال جعل الأفشين يبنى نفسه بالملك والاستقلال في بلاده أشروسنة يوماً ما وأول ما عرف ذلك منه أنه كان هو يحارب بابك لا يأتيه هدية ولا مال إلا وجه به إلى أشروسنة فيجتاز ذلك بعبد الله بن طاهر أمير خراسان فيكتب إلى المعتصم يخبره فيكتب المعتصم إلى ابن طاهر يأمره بتعريف جميع ما يوجه الأفشين من الهدايا إلى أشروسنة فيفعل ذلك عبد الله. كان الأفشين كلما تهيأ عنده مال حملة أوساط أصحابه بقدر طاقتهم فكان الرجل يحمل من الألف فما فوقه من الدنانير في وسطه فأخبر عبد الله

بذلك . فبينما هو فى يوم من الأيام وقد نزلت رسل الأفشين نيسابور ومعهم الهدايا وجه إليهم ابن طاهر وأخذهم فقتلهم فوجد فى أواسطهم هميانين فأخذهما منهم وقال لهم من أين لكم هذا المال فقالوا هذه هدايا الأفشين وأمواله فقال كذبتهم لو أراد الأفشين أخى أن يرسل بهذه الأموال لكتب إلى يعلمنى به لأبذره « أحرسه » لأن هذا مال عظيم وأنتم لصوص فأخذ عبد الله المال وأعطاه جنده وكتب إلى الأفشين يذكر له ما قال القوم وقال أنا أنكر أن تكون وجهت بهذا المال إلى أشروسنة ولم تكتب إلى تعلمنى لأبذره فإن كان هذا المال ليس لك فقد أعطيته الجند مكان المال الذى يوجه إلى أمير المؤمنين فى كل سنة وإن كان المال لك كما زعم القوم فإذا جاء المال من قبل أمير المؤمنين رددته إليك وإن يكن غير ذلك فأمر المؤمنين أحق بهذا المال وإنما دفعته إلى الجند لأنى أريد أن أوجههم إلى بلاد الترك . فكتب إليه يعلمه أن ماله ومال أمير المؤمنين واحد ويسأله إطلاق القوم ففعل ذلك ابن طاهر .

رأى الأفشين أنه لا يتم له أمر ما دام ابن طاهر بخراسان فانتظر الفرص ليحمل المعتصم على عزله وتوليته مكانه وحينئذ يتسع له المجال . كان ببلاد طبرستان دهقان من أبناء ملوكها اسمه مزيار بن قاون بن ونداهرمز وكان منافراً لآل طاهر لا يحمل إليهم الخراج ويحمله إلى المعتصم فكان إذا وصل المال همذان يأمر المعتصم رجلاً من قبله فيستوفيه ثم يسلمه إلى صاحب عبد الله بن طاهر ليرده إلى خراسان فكانت هذه الحال بينهما حتى زادت المنافرة وبلغت حداها الأقصى فأراد الأفشين انتهاز هذه الفرصة فكتب إلى مازيار يقويه على خلاف ابن طاهر ويخبره أن المعتصم ولاه إمارة خراسان وأراد الأفشين بذلك أن يخالف مازيار فيولى المعتصم الأفشين حربه ويكون له مع ذلك ولاية خراسان ودعا ذلك مازيار إلى إظهار الخلاف وشق عصا الطاعة ومنع الخراج وتحصن بجبال طبرستان . بلغ ذلك عبد الله بن طاهر فوجه إليه عمه الحسن بن الحسين بن مصعب وضم إليه جيشاً كثيفاً يحفظ جرجان ووجه المعتصم من قبله محمد بن إبراهيم بن مصعب فى جمع كثيف وضم إليه الحسن بن قارى الطبرى القائد ومن كان بالباب من الطبرية ووجه منصور بن الحسن صاحب ديباوند إلى مدينة الرى ليدخل طبرستان من ناحية الرى - ولم يتدب الأفشين لشيء مما كان ظن وقد أحاطت هذه الجنود بطبرستان من كل جانب وهزمت جنود مازيار - فرأى أن يستأمن إلى الحسن بن الحسين فاستأمن إليه هو أخوه قوهيار فأمر عبد الله بن طاهر بتسليم مازيار وأهل بيته إلى محمد بن إبراهيم فحملهم إلى المعتصم بسامرا .

تحقق المعتصم من كل ما بلغه عن الأفشين واطلع على الكتب التى كان أرسله أخوالأفشين إلى مازيار وعلم الأفشين ذلك فعزم على الهرب وصار يدبر التدابير الشنيعة للفتك بالمسلمين وقد وصل شيء من علم ذلك إلى قائد من القواد الأشروسنية فأخبر به

نعتصم فأمر بحضور الأفشين ولما حضر أخذ سواره وجبسه ثم أحضره فى مجلس عام تنبكيته ومناظرته وكان الذى تولى ذلك الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فثبت من تحقيق أن الرجل لا يزال على كفره وأنه كان يكيد المكاييد للوصول إلى ملك بلاده وأن هل أشروسنة كانوا يخاطبونه بإله الآلهة ثم ثبت أنه كان يكتب المازيار وشهد المازيار أن نخا خاش كتب إلى قوهيار أخى مازيار (إنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيرى وغيرك وغير بابك فأما بابك فإنه بحمقه قتل نفسه ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فأبى حمقه لا أن دلاه فيما وقع فيه فإن خالفت لم يكن للقوم ما يرمونك به غيرى ومعى الفرسان وأهل النجدة والبأس فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة المغاربة والعرب والأتراك والعربى بمنزلة الكلب اطرح له كسرة ثم اضرب رأسه بالدبوس وهؤلاء الذباب (يعنى المغاربة) إنما هم أكلة رأس وأولاد الشياطين (يعنى الأتراك) فإنما هى ساعة حتى تنفذ سهامهم ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتى على آخرهم ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه (أيام العجم) - ولما تبين أمره قال القاضى أحمد بن أبى دؤاد قد وضح لكم أمره فعليك به يا بغا فأعيد إلى محبسه حتى مات وبعد موته أخرج وصلب على باب العامة حتى يراه لناس ثم أحرق مع خشبته.

٢- إيتاخ: كان غلاماً خزرياً لسلام الأبرش طباحاً فاشتراه المعتصم (سنة ١٩٩) وكان لإيتاخ رجولة وبأس فرفعه المعتصم وولاه بعد الخلافة معونة سامرا مع إسحاق بن إبراهيم وكان من قبله رجل ومن قبل إسحاق رجل وكان من أراد المعتصم قتله فعند إيتاخ يقتل ويده يحبس وولاه المعتصم قيادة إحدى الفرق الثلاث التى دخلت بلاد الروم إلى عمورية وقد استمر إيتاخ على منصبه وزعامته مدة الوائى وقتل لأول عهد المتوكل (سنة ٢٣٥). ففى (سنة ١٩٩) اشترى بالمال وفى عهد الوائى كانت المملكة فى يده فكان إليه الجيش والمغاربة والأتراك والبريد والحجابة ودار الخلافة - وما الذى بقى بعد هذا.

٣- أشناس: غلام تركى اشتراه المعتصم ورقاه لما ظهر من شجاعته وكان فى غزوة عمورية على مقدمة الجيش واستخلفه مرة على سامرا حينما خرج منها وزاده رفعة (سنة ٢٢٥) بأن أجلسه على كرسى وتوجه ووشرحه كما فعل بالأفشين وزوج ابنته أترنجة للحسن بن الأفشين وأحضر عرسه عامة أهل سامرا وكان يباشر بنفسه تفقد من حضر. وكانت تلك منزلته عند الوائى حتى أنه فى (سنة ٢٢٨) توجه وألبسه وشاحين بالجواهر ولم يزل فى عظمتة حتى توفى (سنة ٢٣٠).

وغير هؤلاء كان من القواد عجيف بن عنبة ووصيف وبغا الكبير أبو موسى وغيرهم.

كل هؤلاء قواد من الأتراك اختارهم المعتصم لشجاعتهم وسلمهم زمام ملك آبائه وأنزل العرب عما كان لهم من قيادة الجيوش وأسقط أسماءهم من الدواوين واعتز بهؤلاء المجلوبين فجعل بذلك بنيه تحت سلطان هؤلاء الغلف القلوب يتصرفون فيهم كما يشاؤون. ومع اغترار المعتصم بهؤلاء القواد كان يحس بما وقع فيه من الخطأ باختيارهم ولا سيما أنه ليس لأكثرهم نسب معروف فقد حدث إسحاق بن إبراهيم أن المعتصم قال له يا إسحاق في قلبي أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة وإنما بسطتك في هذا الوقت لأفشي لك - نظرت إلى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم اصطنع المأمون طاهر بن الحسين فقد رأيت وسمعت وعبد الله بن طاهر فهو الرجل الذى لم ير مثله وأنت فأنت والله الذى لا يعتاض منك السلطان أبداً وأخوك محمد بن إبراهيم وأين مثل محمد، وأما أنا فاصطنعت الأفشين فقد رأيت إلى ما صار إليه أمره وأشناس ففشل رأيه وإيتاخ فلا شئ ووصيف فلا مغنى فيه - فقال إسحاق جعلنى الله فداك أجبب وعلى أمان من غضبك قال قل - قلت يا أمير المؤمنين أعزك الله نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تنجب إذ لا أصول لها - فقال يا إسحاق لمقاساة ما مرى فى طول هذه المدة أسهل على من هذا الجواب.

المعتصم وحده يتحمل تبعه أكثر ما حل بالعباسيين من بعده من اضطراب أمرهم وضعف سلطانهم وما حل بالأمة العربية من غلبة هذا العنصر الغريب على أمرها. لم يكن الرجل بعيد النظر فى العواقب وإنما كان شجاعاً جسوراً يحب الشجعان ويعتز بهم مهم كان شأنهم سواء كانت لهم أحساب يحمونها أم ليست لهم أحساب وسواء كان يهمهم شأن الدولة وبقاؤها أم لا ؟ وهذا خطأ عظيم يحط بقدر الدول ويتزلها من عظمتها.

ومن النتائج التى سببها غطرسة هؤلاء الجنود الغرباء وعدم احترامهم لحقوق الأمة ثورة أبى حرب المبرقع اليمانى بفلسطين، وذلك أن بعض الجند أراد النزول فى داره وهو غائب عنها وذلك أمر لم يكن معروفاً فى الدولة العربية قبل ذلك وكان فى الدار إما زوجة أبى حرب وإما أخته فمانعته من ذلك فضربها بسوط كان معه فاتقته بذراعها فأصاب السوط ذراعها فأثر فيها فلما رجع أبو حرب إلى منزله شكت إليه ما فعل بها وأرته الأثر فاشتعل سيفه ومشى إلى الجندى وهو غار فقتله ثم هرب وألبس وجهه برقعاً كيلاً يعرف فصار إلى جبل من جبال الأردن فطلبه السلطان فلم يعرف له خبر وكان يظهر بالنهار فيقعد على الجبل الذى أوى إليه متبرقعا فيراه الرائي فيأتيه فيذكره ويحرضه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويذكر السلطان وما يأتى إلى الناس ويعييه فما زال ذلك دأبه حتى استجاب له قوم من حرانى أهل تلك الناحية وأهل القرى فلما كثرت غاشيته من هذه

لطبقة من الناس دعا أهل البيوتات من تلك الناحية فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء ليمانية منهم رجل يقال له ابن ييهس كان مطاعاً في أهل اليمن فاتصل خبره بالمعتصم فبعث إليه رجاء بن أيوب الحضاري في زهاء ألف رجل من الجند فلما صار إليه وجده في عالم من الناس زهاء مائة ألف فترى رجاء حتى كان أول عمارة الناس الأرضين وحراثتهم وتصرف من كان معه من الحراثين إلى الحراثة وأرباب الأرضين إلى أراضيهم وبقي أبو حرب في زهاء ألف أو ألفين ففاجزه رجاء وأسره رجل ممن معه ثم سار به إلى المعتصم أسيراً.

الخراج:

كما يمتاز عصر المأمون بالثبوت الذي نقله العلامة ابن خلدون في مقدمة تاريخه عن كتاب جراب الدولة يمتاز عصر المعتصم بالثبوت الذي أورده قدامة بن جعفر في كتاب الخراج له عن مقدار الجباية في عهد المعتصم ونحن نورد خلاصته:

الجهة	مقدار الجباية بالدراهم أو الدينانير
سواد العراق	١١٤,٥٦٧,٦٥٠ درهماً
الاهواز	٢٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم
فارس	٢٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم
كرمان	٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم
مكران	١٠٠٠,٠٠٠ درهم
أصبهان	١٠,٥٠٠,٠٠٠ درهم
سجستان	١,٠٠٠,٠٠٠ درهم
خراسان	٣٧,٠٠٠,٠٠٠ درهم
حلوان	٩,٠٠٠,٠٠٠ درهم
الماهين	٩,٨٠٠,٠٠٠ درهم
همدان	١,٧٠٠,٠٠٠ درهم
ما سبذان	١,٢٠٠,٠٠٠ درهم
مهرجان قذق	١,١٠٠,٠٠٠ درهم

الإيفارين	٣,١٠٠,٠٠٠ درهم
قم وقاشان	٣,٥٠٠,٠٠٠ درهم
أذربيجان	٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم
الرى وذنباوند	٢٠,٠٨٠,٠٠٠ درهم
قزوين وزنجان وأبهر	١,٨٢٨,٠٠٠ درهم
قوس	١,١٥٠,٠٠٠ درهم
جرجان	٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم
طبرستان	٤,٢٨٠,٧٠٠ درهم
تكرت والطبرهان	٩٠٠,٠٠٠ درهم
شهرزور والصامغان	٢,٧٥٠,٠٠٠ درهم
الموصل وما إليها	٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم
قردي وبازبدی	٣,٢٠٠,٠٠٠ درهم
ديار ربیعة	٩,٦٢٥,٠٠٠ درهم
أرذن ومیافارقین	٤,٢٠٠,٠٠٠ درهم
آمد	١٠٠,٠٠٠ درهم
ديار مصر	٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم
أعمال طريق الفرات	٦٠٠,٠٠٠ درهم
المجموع	٢,٩٠٠,٠٠٠ درهم
	٣١٤,٢٧١,٣٥٠ درهماً
قنسرین والعواصم	٣٦٠,٠٠٠ دينار
جند حمص	٢١٨,٠٠٠ دينار
جند دمشق	١١٠,٠٠٠ دينار

جند الأردن	١٠٩,٠٠٠ دينار
جند فلسطين	٢٩٥,٠٠٠ دينار
مصر والإسكندرية	٢,٥٠٠,٠٠٠ دينار
الحرمين	١٠٠,٠٠٠ دينار
اليمن	٦٠٠,٠٠٠ دينار
اليمامة والبحرين	٥١٠,٠٠٠ دينار
عمان	٣٠٠,٠٠٠ دينار
—	٥,١٠٢,٠٠٠ دينار

وذلك قريب مما كان في حياة المأمون لأن الأحوال لم تتغير تغيراً يذكر.

العلاقة الخارجية:

قدمنا أن الذي كان يعاصر المعتصم من ملوك الروم توفيل بن ميخائيل وكان ينتهز نفرض ليتنقم من المسلمين الذين دوخوه وألزموه أن يدفع الفدية قهراً فحدث أنه لما كان لأفشين يحارب بابك وقد ضيق عليه أن كتب بابك إلى ملك الروم يقول: إن ملك العرب قد وجه معظم عساكره إلىَّ ولم يبق على بابي أحد فإن أردت الخروج إليه فليس في وجهك أحد يمنحك وكان يطمع أن ملك الروم إذا تحرك ينكشف عنه بعض ما هو فيه فلم يلبث توفيل أن خرج في مائة ألف مقاتل حتى أتى زبطرة ومعه جمع من المحمرة الذين أجلاهم سحاق بن إبراهيم عن الجبال كما ذكرنا ذلك في حروب البابكية فلما دخل زبطرة قتل من فيها من الرجال وسبى النساء والذرية وأحرق المدينة ومضى من فوره إلى ملطية فأغار على أهلها وعلى أهل حصن من حصون المسلمين وسبى من المسلمين فيما قيل أكثر من ألف امرأة ومثل بمن صار في يده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع آذانهم وآنافهم. بلغت تلك لأخبار المعتصم بسامرا فاشتد عليه وصاح في قصره النفير ثم ركب دابته وسمط خلفه شكالاً وسكة حديد وحقية فلم يستقم له الخروج إلا بعد التعبئة ولكنه أرسل مقدمته لتكون مدداً لأهل زبطرة فلما شارفتها وجدت ملك الروم قد رحل عنها فوقفوا قليلاً حتى تراجع تناس إلى قراهم واطمأنوا.

فلما انتهى أمر بابك سأل المعتصم أي بلاد الروم أمنع فقبل عسورية وهي مسقط رأس

توفيل كما أن زبطرة مسقط رأس المعتصم ولم تكن غزيت قبل ذلك فتجهز المعتصم جهازاً لم يتجهز خليفة قبله من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط وكانت التعبئة هكذا - على المقدمة أشناس ويتلوه عمد بن إبراهيم المصعبي وعلى الميمنة إيتاخ وعلى الميسرة جعفر بن دينار بن عبد الله الخياط وأمر الأفشين أن يمضي فيدخل بلاد الروم من درب الحدث وسمى له يوماً أمره أن يكون وصوله فيه إلى أنقرة وقدر هذا اليوم بنفسه لأشناس الذي أمره أن يكون دخوله من درب طرسوس، ولما وصل أشناس إلى مرج الأسقف ورد عليه كتاب من المعتصم يأمره بالتوقف لأنه بلغه عن ملك الروم أنه على نهر اللامس ويريد العبور ليكبس أشناس وجنده فأقام بالمرج ثلاثة أيام ثم علم بواسطة الجواسيس أن ملك الروم ارتحل عن نهر اللامس يريد مقابلة الأفشين فأرسل بخبر ذلك إلى المعتصم فبعث الأدلاء مسرعين يخبرون الأفشين بذلك وأمره أن يقف مكانه حذراً من مواجهة ملك الروم قبل أن تجتمع الجيوش فلم تصل هذه الأدلاء إلى الأفشين فتم على مسيرة حتى التقى بملك الروم فكانت بينهما موقعة هائلة كانت على الأفشين أول النهار ثم أعاد الكرة في الفرسان فغلب ملك الروم وهزمه هزيمة منكرة وتفرقت عنه الجنود. أما عسكر أشناس والمعتصم فإنهما وردا أنقرة من غير أن يلقيا حرباً لتفرق الجنود التي كان الملك قد جعلها لمحاربة المعتصم ثم ورد الأفشين بعد مقدمهما بيوم أنقرة.

وحينئذ قسم المعتصم الجيش ثلاثة أقسام قسم فيه أشناس في الميسرة وقسم فيه المعتصم وهو القلب وقسم فيه الأفشين وهو الميمنة وبين كل قسم فرسخان فسارت هذه الأقسام على تعبئة وسارت هذه الأقسام حتى بلغت عمورية وبينها وبين أنقرة سبع مراحل كان أول من وردها أشناس فدار حولها دورة ثم نزل على ميلين منها وجاء بعده المعتصم فدار حولها دورة ثم جاء الأفشين فكذاك تحصن أهل عمورية وتحرزوا فحصرها الجيش المعتصمي وكان لكل واحد من القواد أبراج على قدر أصحابه قلة وكثرة ونصبت المجانيق فضربت بها الأسوار لإتلافها حتى سقط منها جانب في ناحية المعتصم بعد معاناة شديدة وأعمال جسام ثم حصل القتال في ناحية هذه الثلثة بعد أن ردمت الخنادق ولم يزل القتال مستمراً حتى اقتحم المسلمون عمورية عنوة وغنموا منها مغانم كثيرة، وانتقم المعتصم من الروم بما فعلوه في زبطرة وملطية وبعد انتهاء الواقعة عاد المعتصم إلى طرسوس وكانت إناخته على عمورية في (٦ رمضان سنة ٢٢٣) وقف عنها بعد (٥٥ يوماً).

ومن غريب الأمور وأكبر الجرائم أن العباس بن المأمون اتفق مع بعض قواد المعتصم من الأتراك على أن يغتالوا المعتصم ويقيموه خليفة مقامه، تأمروا على ذلك وهم في وجه العدو والعهد قريب باصطناع المعتصم لهم وإغداق النعم عليهم فلم يتم لهم غرض واطلع المعتصم على سر مؤامرتهم فأخذ جميع أولئك القواد وقتلهم وحبس العباس حتى مات من شدة الأذى وكان الذي تولى كبر ذلك عجيف بن عنبة.

ولما ورد المعتصم سامرا كان دخوله إليها يوماً مشهوداً وامتحده أبوتمام حبيب بن أوس
فهيئته المشهورة التي أولها:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
يقول فيها:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به فتح تفتح أبواب السماء له
يايوم وقعة عمورية انصرفت أبقيت جد بنى الإسلام فى صعد
أم لهم لورجوا أن تفتدى جعلوا وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد بكر فما افترعتها كف حادثة
حتى إذا مخض الله السنين لها أتهم الكربة السوداء سادرة
جرى لها الفأل نحساً يوم أنقرة ولما رأت أختها بالأمس قد خرجت
كم بين حيطانها من فارس بطل بسنة السيف والخطى من دمه
لقد تركت أمير المؤمنين بها غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى
حتى كأن جلايب الضحى رغبت ضوء من النار والظلماء عاكفة
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت تصرح الدهر تصریح الغمام لها
نظم من الشعر أونثر من الخطب وتبرز الأرض فى أثوابها القشب
عنك المنى حفلا معسولة الحلب والمشركين ودار الشرك فى صبيب
فـداءها كل أم برة وأب كسرى وصدت صدوداً عن أبى كرب
شابت نواصى الليالى وهى لم تشب ولا ترقت إليها همة النوب
مخض الحليبة كانت زبدة الحقب منها وكان اسمها فراجة الكرب
إذ غودرت وحشة الساحات والرحب كان الخراب لها أعدى من الحرب
قائى الذوائب من آنى دم سرب لا سنة الدين والإسلام مختضب
لنار يوماً ذليل الصخر والخشب يقله وسطها صبح من اللهب
عن لونها أو كأن الشمس لم تغب وظلمة من دخان فى ضحى شحب
والشمس واجبة فى ذا ولم تجب عن يوم هيجاء منها طاهر جنب

ويقول في ختامها:

خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحم موصولة أودمام غير مقتضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب
أبقت بنى الأصفر المصفر كاسمهم صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

صفات المعتصم:

كانت أظهر صفات المعتصم الشجاعة والإقدام وشدة البأس وكان يحب العمارة ويقول
إن فيها أموراً محمودة فأولها عمران الأرض التي يحياها العالم وعليها يزكو الخراج وتكثر
الأموال ويعيش البهائم وترخص الأسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش

وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك إذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم
جاءنى بعد سنة عشر درهم فلا تؤامرني فيه . ولم يكن للمعتصم نفوذ فى العلم كأخيه
المأمون ولا كأبيه الرشيد وإنما كان همه الجيش وتحسينه .

ومن آثاره اختطاط مدينة سامرا وهانحن أولاء نقص شيئاً من أمرها .

لما ضاقت بغداد عن عسكر المعتصم من الأتراك قال لأحد كتابه إنى أتخوف أن يصيح
هؤلاء الحرية صيحة فيقتلوا غلمانى فإذا اتبعت لى موضع سامرا كنت فوقهم فإن رابنى
رائب أتيتهم فى البر والبحر حتى أتى عليهم فقصده كاتبه موضع سامرا وهو على دجلة فوق
بغداد بثلاثين فرسخاً (١٥٠ كليومتراً) فابتاع ديراً كان هناك بخمسة آلاف درهم وابتاع بستاً
كان فى جانبه بمثل ذلك ولما تم أمر البيع خرج المعتصم فى آخر (سنة ٢٢٠) حتى نزل
القاطول وهونهر سامرا كان احتفزه الرشيد وبنى عليه قصراً فنزل المعتصم هناك وبدأ بالبـ
(سنة ٢٢١) فبنى داراً له وأمر عسكره بمثل ذلك فعمر الناس حول قصره وبنى مسجد
جامعاً فى طرف الأسواق وأنزل أشناس بمن ضم إليه من القواد كرخ سامرا وهو كرخ
فيروز . وما زال البنيان يتسع حتى صارت مدينة من أعظم الحواضر الإسلامية وكادت
تضارع بغداد وأعظم اتساع وحضارة لها كان فى عهد المتوكل بن المعتصم وسيذكر ذلك
بعد .

بطاقة المعتصم:

احتجم المعتصم في أول يوم من المحرم (سنة ٢٢٧) فأصيب عقب ذلك بعلته التي
ماتت عليه يوم الخميس لثمانى ليال مضت من شهر ربيع الأول من تلك السنة ورثاه محمد
بن عبد الملك الزيات فقال:

قد قلت إذ غيبوك واصطفقت عليك أيد بالتراب والطين
أذهب فنعم الحفيظ كنت على الدنيا ونعم الظهير للدين
لا جبر الله أمة فقدت مثلك إلا بمثل هارون

ولاية العهد:

ولى المعتصم عهده ابنه هارون ولم يجعل معه فى الولاية غيره.

الوائق

هو أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية اسمه قراطيس ولد (سنة ١٨٦) بطريق مكة وبويع بالخلافة عقب وفاة والده فى يوم الخميس (٩ ربيع الأول سنة ٢٢٧) (٥ يناير سنة ٨٤٢) ولم يزل خليفة إلى أن توفى لست بقين من ذى الحجة (سنة ٢٣٢) (اغسطس سنة ٨٤٧) فكانت مدته خمس سنين وتسعة أشهر و١٥ يوماً وسنه (٣٦ سنة)

ويعاصره من الملوك والأمراء المستقلين من كان يعاصر أباه إلا فى مملكة الروم بالقسطنطينية فإن توفيل مات فى السنة التى توفى فيها المعتصم وخلفه ابنه ميخائيل الثالث الملقب بالسكير وكان إذ ذاك صبيّاً فكانت أمه بدورها تقوم مقامه وفى خراسان حيث توفى عبد الله بن طاهر (سنة ٢٣٠) ولى بعده ابنه طاهر بن عبد الله .

وزراء الواثق:

لم يستوزر الواثق غير محمد بن عبد الملك الزيات وزير أبيه وكان الواثق متغيراً عليه فى حياة أبيه حتى حلف أنه لينكبه إذا صار خليفة لكنه لما استخلف غلب عقله على هواه لأنه لم يجد بين رجاله من يقوم مقام محمد بن عبد الملك فكفر عن يمينه وصار هذا الوزير فى عهده صاحب الأمر والنهى أكثر مما كان فى عهد أبيه .

الجيش:

كانت حال الجيش لعهد الواثق كما كانت فى حياة أبيه إلا أن قدّم المماليك التى اصطنعهم المعتصم قد توطدت وصار رؤساء الأتراك أصحاب نفوذ عظيم ولا سيما أشناسر الذى توجه الواثق وألبسه وشاحين بالجوهر فى شهر رمضان (سنة ٢٢٨) وقد قام قولد الأتراك بأعظم الأعمال الحربية حتى فى جزيرة العرب نفسها التى كانت حمى ما استطاع أن تتعدى حدوده وهنا نسوق أسباب الاضطراب الذى كان هناك وكيف أزيل .

كان بنو سليم من قيس عيلان من أقوى القبائل العربية وأكثرها عدداً وكانوا ينزلون بقرب من المدينة بالحرّة المعروفة بهم وهى حرّة بنى سليم فاجتروا بالتطاول على الناس حول المدينة بالشر وكانوا إذا وردوا سوقاً من أسواق الحجاز أخذوا سعرها كيف شاءوا ثم ترقى بهم الأمر إلى أن أوقعوا بالجارى ناس من كنانة وباهلة فأصابوهم وقتلوا بعضهم فى جمادى الآخرة (سنة ٢٣٠) وكان رئيسهم عزيزة بن قطاب السلمى فوجه إليهم أمير المدينة محمد بن صالح بن العباس حماد بن جرير الطبرى وكان الواثق أرسله للمدينة فى (٢٠٠) من الشاكريّة لئلا يتطرقها الأعراب فتوجه إليهم حماد وقتلهم بالروثة على ثلاث مراحل من المدينة وكانت الهزيمة على جند حماد بعد أن قتل وحازت بنو سليم الكراع والسلاح وثياب وغلظ أمرهم فاستباحوا القرى والمناهل فيما بينها وبين مكة والمدينة حتى لم يمكن أحد أن يسلك تلك الطريق وتطرقوا من يليهم من قبائل العرب فوجه إليهم الواثق بغا كبير فى الشاكريّة والأترار والمغاربة فشخص إلى حرّة بنى سليم وعلى مقدمته طردوش لتركى فلقى بنى سليم بقراهم وقتل منهم نحو الخمسين وأسر مثلهم وانهزم سائرهم فدعاهم هذا إلى الأمان على حكم الواثق فأتوه واجتمعوا إليه فاحتبس منهم من وصف بالشر والفساد وهم زهاء ألف رجل وخلق سبيل سائرهم ثم رحل بالأسرى إلى المدينة فى ذى القعدة (سنة ٢٣٠) فحبسهم بها وشخص إلى مكة حاجاً. ولما انقضى الموسم انصرف إلى بيت عرق ووجه إلى بنى هلال من عرض عليهم مثل ما عرض على بنى سليم فأقبلوا فآخذ من مردتهم وعتاتهم نحواً من (٣٠٠ رجل) وخلق سائرهم ثم انصرف إلى المدينة فجعل المحبوسين من بنى هلال مع إخوتهم من بنى سليم وجمعهم جميعاً فى دار يزيد بن معاوية فى الأغلال والأقياد وعدتهم نحو (١٣٠٠ رجل) وسار هو إلى بنى مرة المحبوسين فقبوا السجن ليخرجوا فعلم بهم أهل المدينة فجاءوهم واجتمعوا عليهم ومنعوا الخروج صتوا محصورين وفى الغد حاربهم أهل المدينة وكاثروهم فقتلوهم أجمعين وقتل سودان نينة من لقوا من الأعراب فى أزقة المدينة ممن دخل يمتار أوزير. كل ذلك تم وبغا غائب فلما قدم ووجدهم قتلوا شق ذلك عليه ووجد وجداً شديداً.

أما ما فعله بنى مرة وفزارة الذين تغلبوا على فذك فإنه لما قاربهم أرسل إليهم رجلاً فزيّاً يعرض عليهم الأمان ويأتيه بأخبارهم فلما قدم عليهم الفزارى حذرهم سطوته وزينهم الهرب فهربوا ودخلوا البرية وخلوا فذكا ولم يستأمن إليه إلا القليل وهرب الباقون إلى موضع من اللقاء من عمل دمشق. ثم صار إليه جماعة من بطون غطفان وفزارة وأشجع مما صاروا إليه استحلّفهم الأيمان المؤكدة ألا يتخلفوا عنه متى دعاهم فحلفوا ثم شخص إلى ضرية لطلب بنى كلاب ووجه إليهم رسله فاجتمع إليه منهم نحو (٣٠٠ رجل) فاحتبس من أهل الفساد نحواً من (١٣٠٠ رجل) ثم قدم بهم المدينة فى رمضان (سنة ٢٣١)

فحبسهم بها ثم شخص إلى مكة حاجاً ورجع إلى المدينة بعد حجه فأرسل إلى من كان استخلف من ثعلبة وأشجع وفزارة فلم يجيبوه وتفرقوا في البلاد فوجه في طلبهم فلم تلحق منهم كثير أحد.

وفي (سنة ٢٣٢) أمره الواثق أن يذهب إلى غزو بني نمير لما كان من عبثهم وفسادهم في الأرض فمضى نحو اليمامة يريدهم فلقى منهم جماعة بموضع يقال له الشريف فحاربوه فقتل منهم نيفاً وخمسين رجلاً وأسروا نحواً من (٤٠٠) ثم سار إلى قرية لبني تميم من عمر اليمامة تدعى امرأة فتابع إلى سكانها رسله يعرض عليهم الأمان ودعاهم إلى السمع والطاعة وهم يمتنعون عليه ويشتمون رسله ويتفتلون إلى حربه فسار بغا إليهم من امرأة في أول صفر (سنة ٢٣٢) حتى دخل بخيله وأرسل إليهم أن اتوني فاحتملت بنوضبة من نمير فركبت جبالها مياسر جبل السود وهو جبل خلف اليمامة أكثر أهله بأهله فأرسل إليهم سرية ثم تدركهم ثم إنه سار حتى التقى بهم بموضع يقال له روضة الأبان وبطن السر فجعل يناشدهم ويدعوهم إلى الرجوع إلى طاعة أمير المؤمنين ويكلمهم بذلك محمد بن يوسف الجعفرى فجعلوا يقولون له يا محمد بن يوسف قد والله ولدناك فما رعيت حرمة الرحم ثم جئنا بهؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم والله لثرينك العبر. ولما أصبح الصبح عليهم حملوا على بغا وجنده وكانوا قد جعلوا رجالهم أمامهم وفرسانهم وراءهم ونعمهم ومواشيهم وراءهم وحملوا فهزموا بغا وجيشه وكاد يهلك لولا حصول أمر لم يكن مقصوداً وذلك أنه كان قد وجه من أصحابه نحو (٢٠٠ نفس) ليغير على خيل لهم وجدوها بمكان من بلادهم فبينما جيش بغا على شرف الانكسار إذ خرجت هذه الجماعة منصرفة من الموضع النتر وجهت إليه في ظهور بني نمير فنفضوا في صفاراتهم ولما سمع العرب نفخ الصفارات ظنوا أن قد جاءهم كمين من خلفهم فولوا هارين وأسلم فرسانهم ورجالتهم بعد أن كانوا على غاية المحاماة عنهم فلم يفلت من رجالتهم كثير أحد قتلوا عن آخرهم أما الفرسان فظروهم هرباً على ظهور الخيل. وأقام بغا بموضع الواقعة حتى جمعت له الرؤوس واستريح هو وأصحابه ثلاثة أيام ثم أرسل الهاربون يطلبون الأمان فأعطاهم إياه فصاروا إليه فقيدهم وحبسهم وأشخصهم معه وقد حاولوا أن يفرّوا وهم عائدون فضربهم بغا بالسياط ثم سار بهم حتى أتى البصرة في ذي القعدة (سنة ٢٣٢) وأرسل إلى صالح بن العباس أن يسير نحو قبله من المدينة من بني كلاب وفزارة ومرة وثعلبة وغيرهم فوافاه صالح ببغداد وسيرهم جميعاً إلى سامرا وكانت عدة الأسرى جميعاً نحو (٢٣٠٠ رجل).

نكبة الكتاب في عهد الواثق:

سأل الواثق سماره ذات ليلة عن السبب الذي من أجله نكب الرشيد البرامكة فقال -

نحدهم إن سبب ذلك ما علمه بعد التفتيش من أن البرامكة استهلكوا الأموال وتعللوا فى نفاذ ما كان الرشيد يأمر به من العطايا لمن يوقع لهم بها ومنهم رجل يقال له أبوالعود أمر به الرشيد بثلاثين ألف درهم فمطلوه بها فدخل على الرشيد ليلة فتحدث عنده ولم يزل يحتال حتى وصل حديثه بقول عمر بن أبى ربيعة:

وعدت هند وما كانت تعد ليت هنداً أنجزتنا ما تعد

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

فقال الرشيد أجل والله إنما العاجز من لا يستبد حتى انقضى المجلس وبعد ذلك جد لرشيد فى أمرهم حتى وثب عليهم وأزال نعمتهم فقال الواثق صدق والله جدى إنما العاجز من لا يستبد وأخذ فى ذكر الخيانة وما يستحق أهلها ولم يمض على ذلك أسبوع حتى أوقع كتابه وعذبهم حتى أدوا المال الذى ظن أنهم اختانوه مما عهد إليهم فى حفظه وهذه أسماء لكتاب ومقدار ما أخذ من كل منهم.

أحمد بن إسرائيل ٨٠٠٠ دينار

سليمان بن وهب كاتب إيتاخ ٤٠٠٠٠٠ دينار

الحسن بن وهب ١٤٠٠٠ دينار

أحمد بن الخصيب وكتابه ١٠٠٠٠٠٠ دينار

إبراهيم بن رباح وكتابه ١٠٠٠٠٠ دينار

نجاح ٦٠٠٠٠ دينار

أبو الوزير ١٤٠٠٠٠ دينار

١٧٢٢٠٠٠

وذلك سوى ما أخذ من العمال بسبب عمالاتهم.

وكانت العمال تسرع إليهم الثروة لاتساع مجال الخيانة إذ لم يكن هناك دقة فى محاسبات فإذا رأى الخليفة على العامل مظاهر الثروة فى وقت قريب وتلك الثروة لا تقوم بأرزاقه التى يتقاضاها حكم الخليفة قطعاً أنه خائن ولا يجد أمامه إلا تلك المصادرة التى لا نظام لها.

العلاقات الخارجية- الفداء بين المسلمين والروم؛

كانت الحروب دائمة الاتصال بين المسلمين والروم ولم تقدر إحدى الدولتين أن تغلب على الأخرى وكثيراً ما يكون في يد إحدى الدولتين أسرى من الأخرى ولما كان يهم كـ الدولتين أن تخلص أسراها حذراً من الاسترقاق كانتا تتفقان على المفادة كل أسير بمش وأول فداء حصل كان في عهد الرشيد على نهر اللامس قريباً من طرطوس فودى فيه بثلاثة آلاف وسبعمائة أسير من المسلمين على يد القاسم بن الرشيد وحصل فداء مثله في عهد أيضاً فودى بالفين وخمسين.

وقد كان الفداء الثالث في عهد الواثق (سنة ٢٣١) أرسل ملك الروم إلى الواثق رسلاً يسأله أن يفادى بمن في يده من أسارى المسلمين فأجاب وانتدب للفداء خاقان الخادم بعد أن أعد من أسرى الروم عدداً كبيراً وقد تقابل الفريقان في يوم عاشوراء (سنة ٢٣١) على نهر اللامس وكان عدد من فودى به من المسلمين (٤٦٠٠) منهم (٦٠٠) نساء وصبيـ ومنهم من أهل الذمة نحو (٥٠٠) فوقع الفداء كل نفس عن نفس صغيراً أو كبيراً وقد عقد المسلمون جسراً على النهر وعقد الروم جسراً فكان المسلمون يرسلون الرومى على جسره ويرسل الروم المسلم على جسره وقد أعطى خاقان الروم ممن كان فضل في يد (١٠٠ نفس) ليكون له عليهم الفضل استظهاراً ومن غريب ما حصل فى هذا الفداء أن أحمد بن أبى دؤاد القاضى أرسل مندوباً من قبله يمتحن الأسرى حتى لا يفدى منهم من يقول بأن القرآن مخلوق وهذا غلو قد وصل إلى نهايته.

صفات الواثق؛

كان الواثق كثير الأكل والشرب واسع المعروف متعظفاً على أهل بيته متفقداً لرعيته وكـ محباً للنظر مكرماً لأهله مبعظاً للتقليد وأهله محباً للإشراف على علوم الناس وآرائهم عـ تقدم وتأخر من الفلاسفة والمتطبيين وكان له مجلس نظر عقده للنظر بين الفقهاء والمتكلمـ فى أنواع العلوم من العقليات والسمعيات فى جميع الفروع فكانت سيرته فى ذلك سـ عمه المأمون ومن أجل ذلك أخذت مسألة خلق القرآن فى عهده شكلاً حاداً أكثر مما كانت فى عهد أبيه المعتصم لأن المعتصم كان يتكلف ذلك لمكان وصية أخيه.

وفاة الواثق؛

أصيب الواثق بـلة الاستسقاء وكانت سبب وفاته فى (٦ ذى الحجة ٢٣٢) ومـ

(٣٦سنة) وبموته مضى على الدولة العباسية قرن كامل . ولم يعهد الواثق لآحد من بعده بالخلافة فخلافته من بعده بدء شكل جديد لم تكن له سابقة فى الدولة العباسية وقد ختم هذا القرن بانتهاء الخلفاء العسكريين الذين كانوا يقودون الجيوش بأنفسهم ويخوضون غمرات الموت ولا يستسلمون لداعى الترف المصنى .

المتوكل

هو جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد خوارزمية يقال لها شجاع. ولد في شوال (سنة ٢٠٦) بفم الصلح ولم يكن بالمرضى عنه في حياة أخيه حتى كان الواثق قد وكل به رجلين هما عمر بن فرج الرخجي ومحمد بن العلاء الخادم فكان يحفظانه ويكتبان بأخباره في كل وقت وقد جر عليه ذلك انحراف الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فكان لا يلقاه لقاء حسناً وكانت صكاك رزقه لا تختتم له إلا بعناء حتى أن عمر بن فرج أخذ منه الصك مرة فرمى به في صحن المسجد الذي كان عمر يجلس فيه وكان الذي يصلح من شأنه عند الواثق أحمد بن أبي دؤاد.

ولما توفي الواثق ولم يكن عهد إلى أحد اجتمع كبار الدولة: ابن أبي دؤاد القاضي ومحمد بن عبد الملك الوزير وعمر بن فرج وأحمد بن خالد الكاتبان وإيتاخ ووصيف من قواد الأتراك وتناظروا فيمن يولونه الخلافة فأشار محمد بن عبد الملك بمحمد بن الواثق وكاد الأمر يتم له إلا أنهم لما جاءوا له وألبسوه دراعة سوداء وقلنسوة رصافية قال لهم وصيف أما تتقون الله تولون مثل هذا الخلافة وهو لا تجوز معه الصلاة ثم أشار ابن أبي دؤاد بجعفر بن المعتصم فاتفق رأيهم عليه وأحضره فآلبسه أحمد بن أبي دؤاد الطويلة وعممه وقبله بين عينيه وقال السلام عليك يا أمير المؤمنين وبايعه الحاضرون ولقب بالمتوكل على الله ثم بايعته العامة وتم ذلك كله في اليوم الذي توفي فيه الواثق وهو (٢٤ ذى الحجة سنة ٢٣٢) (١١ أغسطس سنة ٨٤٧) واستمر خليفة إلى أن قتل ليلة الخميس رابع شوال (سنة ٢٤٧) (١١ أغسطس سنة ٨٦١) فكانت مدته (١٤ سنة) وتسعة أشهر وعشرة أيام وكانت سنه إذ قتل (٤١ سنة). وكان يعاصره في بلاد الأندلس عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨) ثم ابنه محمد (٢٣٨-٢٨٣).

ويعاصره في بلاد المغرب من الأدارسة محمد بن علي بن إدريس الثاني (٢٢١-٢٤٢) ثم يحيى بن محمد (٢٣٤).

ويعاصره في أفريقية من الأغلبة محمد بن الأغلب بن إبراهيم (٢٣٦-٢٤٢) ثم أحمد بن محمد بن الأغلب (٢٤٢-٢٤٩).

ويعاصره في بلاد اليمن من الدولة الزيادية محمد بن عبد الله بن زياد (٢٠٤-٢٤٥) ثم إبراهيم بن محمد (٢٤٥-٢٨٩).

ويعاصره في خراسان من آل طاهر محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر (٢٣٠-٢٤٨).

ويعاصره من ملوك الروم بالقسطنطينية ميخائيل الثالث الملقب بالسكير ويعاصره في فرنسا شارل الأصغر (٨٤٠-٨٧٧).

وزراء الدولة:

كان الوزير الأول لأول عهد المتوكل هو محمد بن عبد الملك الزيات الذي كان وزيراً لأخيه وأبيه إلا أن المتوكل كان منحرفاً عنه لما كان يفعل معه في حياة أخيه من قبح المقابلة وعدم الرعاية وزاد على ذلك أنه أشار بتولية محمد بن الواثق فكانت شهوة الانتقام متمكنة منه ففي سابع صفر (سنة ٢٣٣) أمر بالقبض عليه وصادر جميع ماله من عقار ومنقول وكذلك ضياع أهل بيته حيث كانت. أما ما ناله من المكروه في نفسه فهو أعظم من أن يسطر ولم يزل ذلك دأبهم معه حتى مات تحت العذاب. إلى هذا الحد وصل ضعف الوازع الديني عند هؤلاء القوم - الرجل لم يكن على وفاق مع الخليفة قبل أن يتولى فأشد ما يكون من عقوبته ألا يستعان به في عمل - الرجل خان فيما عهد إليه من الأمانات فأقصى عقوبته أن يصادر في أمواله - الرجل قتل نفساً بدون حق فأقصى عقوبته أن يقتل فلم هذا التعذيب الذي سطره المؤرخون أليس ذلك دليلاً على أن شهوة الانتقام حالت بين القوم وبين دينهم الذي نهى أشد النهى عن التعذيب والمثلة ذلك دليلاً على أن صوت العلماء لا يظهر إلا في الأمور النظرية المحضة التي لا يترتب عليها عمل ولا أثر في الحياة أما ما تكون آثاره ظلم الناس بأخذ أموالهم وإزهاق نفوسهم فلا نكاد نسمع لهم ركزاً أين هذا مما كان في عهد عمر بن الخطاب الذي كانت أمته تحاسبه على كل ما يصدر منه من جليل وحقير.

وكان مبلغ ما قبض له مع قيمة موجوداته (٩٠٠٠٠ دينار) وبين القبض عليه ووفاته واحد وأربعون يوماً.

ولم يمض على ذلك خمسة أشهر حتى أمر المتوكل بالقبض على عمر بن فرج الرخجي وهو الكاتب الذي رمى بصك المتوكل في صحن المسجد أيام خلافة الواثق فقبض عليه

صودرت أملاكه وكان مقدار ما أخذ منه ومن أخيه محمد بن فرج (٢٧٤٠٠٠ دينار)، ١٥٠٠٠ درهم) سوى القصر والامتعة والضياع وقد حمل متاعه وفرشه على خمسين جملاً نرت مراراً ثم صالحوه بعد ذلك على أن يدفع (١٠٠٠٠٠٠٠ درهم) على أن ترد عليه سياحه بالأهواز فقط فردت عليه وأطلق من عقاله.

استكتب المتوكل بعد ابن عبد الملك أبا الوزير أحمد بن خالد الذي كان في حياة الواثق ماماً على عمر بن فرج الرخجى في ديوان النفقات ولما استكتبه لم يسمه باسم الوزير استمر كاتباً له زمناً قليلاً فإنه في ذى الحجة من (سنة ٢٣٣) غضب عليه وأمر بمحاسبه حمل نحواً من (٦٠٠٠٠ دينار) وحمل بدور دراهم وحلياً وأخذ له من متاع مصر ٦٢ سقطاً) و(٣٤ غلاماً) وفرشاً كثيراً وحبس بسببه جماعة من الكتاب وأغرموا من المال لمرأ كثيراً.

وبعد أبى الوزير استوزر محمد الفضل الجرجرائى منسوب إلى جرجرايا (وهى بلد من عمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقى) وكان الجرجرائى من أهل فضل والأدب والشعر وقال صاحب الآداب السلطانية إنه كان عالماً بالغناء مشتهراً به استمر على وزارته إلى (سنة ٢٣٦) وفيها صرفه عن العمل لأنه قال قد ضجرت من شيوخ وأريد حدثاً أستوزره فمن أجل ذلك صرفه.

اختار بعده لوزارته عبيد الله بن يحيى بن خاقان وبقي وزيراً للمتوكل إلى أن مات وكان صن الخط له معرفة بالحساب والاستيفاء وكانت فيه عيوب يسترها كرمه وحسن خلقه عفته ومن أجل ذلك كان الجند يحبونه، وقد حصل في وزارته حادثة تبين مقدار ما كان من الفساد عند العمال واحتجابهم الأموال لأنفسهم ووقعتهم بعضهم ببعض وكل ذلك سببه عدم الضبط في الإدارة المالية. كان نجاح بن سلمة على ديوان التوقيع والتتبع على لعمال فكان لذلك مخشى الجانب نافذ الكلمة. وكان الحسن بن مخلد على ديوان الضياع. وموسى بن عبد الملك على ديوان الخراج. وكان بين نجاح وبين ابن خاقان الوزير حشة ومضادة وكان ميل الحسن وموسى إلى الوزير. احتاج المتوكل في (سنة ٢٤٥) إلى لال لبناء القصور التى أراد تأسيسها بسامرا. فقال له نجاح أسمى لك قوماً تدفعهم إلى حتى أستخرج لك منهم من الأموال ما يكفيك لبناء مدينتك وسمى له نحواً من عشرين رجلاً: موسى بن عبد الملك وخليفته والحسن بن مخلد وخليفته وعبيد الله بن يحيى الوزير أخواه وغيرهم من العمال. فأعجب ذلك المتوكل وقال له بكر إلى غداً - وناظر الوزير لتوكل فى ذلك فقال له يا أمير المؤمنين أراد ألا يدع كاتباً ولا قائدأ ولا عاملاً إلا أوقع بهم من يقوم بالأعمال يا أمير المؤمنين، وخرج من عنده فدعا موسى بن عبد الملك والحسن بن

مخلد فقال لهما إن دخل نجاح إلى أمير المؤمنين دفعكما إليه فقتلكما وأخذ ما تملكان من مال ولكن اكتبنا إلى أمير المؤمنين رقعة تتقبلان به فيها ألفى ألف دينار ففعلا وأوصل الوزير رقتهم إلى المتوكل وأعانهما بالقول على القبول ثم أدخلهما على المتوكل وحجب نجاحاً فضمننا ذلك ودفع إليهما نجاحاً فأخذهما وانتقما منه شر انتقام. أما في المال فأخذنا من نجاح وابنه نحو (١٤٠٠٠٠ دينار) سوى قيمة قصورهما وفرشهما ومستغلاتهما بسامرا وبغداد وسوى ضياع لهما كثيرة قبض ذلك كله وأخذ كثير من المال من وكلاء نجاح ومن يتصل به فما كاتبه إسحاق بن سعد الذي كان يتولى خاص أموره فقد أمر المتوكل أن يغرم (٥١٠٠٠ دينار) وقيل ولم ذلك قال المتوكل: إنه أخذ مني أيام الوراق حينما كان يخلف عمر بن فرج خمسين ديناراً حتى أطلق أرزاقى فخذوا لكل دينار ألفاً وزيادة ألف فضلاً كما نخذ فضلاً فحبس ونجم عليه ثلاثة أنجم ولم يطلق حتى أدى تعجيل (١٧٠٠٠ دينار) وأخذ منه كفلاء بالباقي. وأما نفس نجاح فقد ماتت تحت الضرب والتعذيب.

وبعد وفاة نجاح ضم ديوان التوقيع إلى عبيد الله بن يحيى الوزير ثم توفي موسى بن عبد الله فضم ديوان الخراج على الوزير أيضاً.

من أغرب ما في هذا التاريخ أن يرتشى العامل من أخى الخليفة حتى يطلق له أرزاقه فما لظن بغيره من أصحاب الأرزاق ماذا يدفعون حتى يوقع لهم على صكاكهم بقبض تلك لأرزاق؟ ولا يستغرب بعد ذلك ما كان يجتمع إلى هؤلاء الكتاب من الأموال الوفيرة في لزمن القليل والعمال يعرفون بعضهم بعضاً فيعلم الواحد منهم ما اقتنى الآخر من الأملاك والضياع وما احتجن من المال فإذا بلغ خليفته شيئاً من ذلك هاجت أطماعه فيعمد إلى ما يتائل ما ذكرنا من عقوبة العامل ومصادرة أمواله.

وما من ظالم إلا سيلى بظالم

وتلك أمور تعم الفساد في جسم الدولة.

أحمد بن أبي دؤاد: هو الرجل الموثوق به في عهد المأمون وعظيم دولة المعتصم والوراق وقاضى القضاة في زمنهما والذي كان يعطف على المتوكل في عهد أخيه الوراق حتى سترضاه عنه بعد أن كان قد غضب عليه فلما ولي المتوكل حفظ له مقامه ورتبته وسابقته فكان قاضى القضاة وعظيم الدولة. وفي (سنة ٢٣٣) فلج فعجز عن العمل فكان ابنه نواليد يقوم مقامه في القضاء وولاية المظالم إلا أن الرجل لم تكن سيرته سيرة أبيه فكانت النتيجة أن غضب المتوكل على أحمد بن أبي دؤاد وعلى ابنه فعزلهما عن المظالم والقضاء ورضى عن يحيى بن أكثم فأشخصه من بغداد إلى سامرا وولاه قضاء القضاة

والمظالم . وأمر بالتوكيل على ضياع أحمد بن أبي دؤاد لخمس بقين من صفر (سنة ٢٣٧) وحبس يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الأول ابنه محمد فى ديوان الخراج وجبر إخوته عند عبد الله بن السرى خليفة صاحب الشرطة وبعد ذلك بيومين حمل أبو الوليد (٢٠٠٠٠دينار) وجواهر بقيمة (٢٠٠٠٠دينار) ثم صولح بعد ذلك على (١٦٠٠٠٠٠درهم) وأشهد عليهم جميعاً ببيع كل ضيعة لهم وفى أواخر (سنة ٢٣٩) مات محمد بن أحمد بن أبي دؤاد ببغداد وبعد وفاته بعشرين يوماً توفى أبوه أحمد وهم على تلك الحال .

العلويون:

امتاز المتوكل عن سائر أهل بيته بكرهه على بن أبى طالب رضى الله عنه وأهل بيته وهذا ما يعرف فى العقائد بالنصب وهو ضد التشيع وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولى علياً وأهله بأخذ المال والدم وكان فيما يقال يبغض ممن تقدمه من الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق لمحبة على وأهل بيته وكان ينادمه ويجالسه جماعة اشتهروا بالنصب وبغض على فكانوا يخوفونه من العلويين ويشيرون عليه بإبعادهم والإعراض عنهم والإساءة إليهم ثم حسنوا الواقعة فى أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم فى الدين . ومن آثار تلك الكراهة أنه أمر فى (سنة ٢٣٧) بهدم قبر الحسين بن على بكربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يحرث ويذر ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من إتيانه فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى فى الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى المطبق فهرب الناس وامتنعوا من المصير إليه وحرث ذلك الموضع وزرع ما حواليه .

وكان إمام الإمامية فى عهده أبو الحسن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب سعى به إلى المتوكل فأقدمه من المدينة إلى سامرا التى كانت تعرف بالعسكر فلقب بالعسكرى وقد ظل مقيماً بها نحو عشرين سنة ومات بها ولما جاء سامرا لم تنقض السعيات عنه فقليل له إن فى منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعة فوجه إليه ليلاً من هجم على منزله وهو غافل فوجد فى بيت وحده عليه مدرعة من شعر ولا بساط فى البيت إلا الرمل والحصى وعلى رأسه ملفة من صوف وهوىقرأ ويدعو فحمل إلى المتوكل فى جوف الليل فمثل بين يديه والمتوكل يشرب فأجلسه إلى جنبه وعرض عليه الكأس فاستغفى فأعفه ثم قال له أنشدنى شعراً فأنشده :

باتوا على قلال الأجيال تحرسهم غلب الرجال فما أغتتهم القلل
واستزلوا بعد عز عن معاقلهم فأودعوا حفراً يا بشما نزلوا

ناداهم صارخ من بعد ما قبروا أين الأسيرة والتيجان والحلل
 أين الوجوه التي كانت منعمة من دونها تضرب الأستار والكلل
 فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
 قد طالما أكلوا دهرأ وما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
 وطالما عمروا دورأ لتحصنهم ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
 وطالما كنزوا الأموال وادخروا فخلفوها على الأعداء وارتحلوا
 أضحت منازلهم قفراً معطلة وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا
 فبكى المتوكل حتى بلت دموعه لحيته ثم أمر برفع الشراب وأمر له بأربعة آلاف دينار
 يقضى بها دينه ورده إلى منزله مكرماً.

وفي عهد المتوكل أتى بيحيى بن عمر بن يحيى بن زيد بن عليّ بن الحسين من بعض
 لنواحي وكان قد جمع جمعاً فضربه عمر بن فرج ثمانى عشرة مفرقة وحبس ببغداد فى
 عتق.

الجيش:

كان الجيش على العهد الذى كان عليه فى مدة الواثق والمعتصم وكلما قدم العهد زاد
 لأتراك نفوذاً وقوة وقد أحس المتوكل بتوغل الأتراك فى الدولة واستبدادهم بأمور الخلافة
 -دارتها- وجيشها فأحب أن يضعف شوكتهم ويقلل من نفوذهم فبدأ بإيتاخ الذى كان على
 جيش والمغاربة والأتراك والموالى والبريد والحجابة ودار الخلافة وأراد المتوكل الإيقاع به
 يتخلص من هذا السلطان الواسع فرأى أن ذلك لا يمكنه معه وهو بسلامة بين قومه وجنده
 همز إليه من أشار عليه بالاستئذان فى الحج ففعل فأذن له المتوكل وصيره أمير كل بلد
 يدخله وخلع عليه وركب معه جميع القواد وخرج معه من الشاكرية والقواد والغلمان سوى
 عجمانه وحشمه بشر كثير فلما حج وانصرف إلى العراق وجه إليه المتوكل بكسوة والطفاف
 -مر الرسول أن يلقاه بالكوفة أوبيعض الطريق وتقدم إلى عامله على شرطة بغداد
 -هو إسحاق بن إبراهيم المصعبى بأمره فيه. فلما وصل بغداد قال له إسحاق بن إبراهيم إن
 صير المؤمنين أراد أن تدخل بغداد وأن يلقاك بنوهاشم ووجوه الناس وأن تقعد لهم فى دار
 خزينة بن خازم فتأمر لهم بجوائز: فلما صار إيتاخ بالقرب من دار خزينة حمز عنه غلمانه

ودخل الدار وحده فكان فيها سجنه ثم نقل إلى منزل إسحاق فأدخل ناحية منه وقيد وأُتقل بالحديد في عنقه ورجليه ثم قدم بابنيه منصور ومظفر وبكاتيه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد فحبسوا وكانت الشدة التي عومل بها إيتاخ سبباً لوفاته فمات (سنة ٢٣٥) وأما ابنه فبقيا في الحبس حياة المتوكل ثم أطلقهما المستعين بعده.

ولكرهة المتوكل لهؤلاء الغلمان ورؤسائهم كره من أجلهم المدينة التي أنشئت لهم فعزم أن يغير حاضرة خلافته فاختر (سنة ٢٤٣) أن يجعل دمشق حاضرتة فشخص إليها ونقل دواوين الملك وأمر بالبناء بها فتحرك الأتراك في أرزاقهم وأرزاق عيالهم مريدين التشغب عليه لأنهم ظنوا أن المتوكل يريد أن يستعين بسلطان العرب عليهم حيث اختار بلاد الشنه فأمر المتوكل لهم بما أرضاهم وبعد أن أقام بدمشق أياماً ظهر أنه استوبأ البلد لأن الهواء بارد ندى والماء ثقیل والريح فيها تهب مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل وغلت فيها الأسعار وحال الثلج بن السابلة والميرة فبارحها عائداً إلى سامرا ويظهر أن الأتراك هم الذين حملوه على العودة. وفي (سنة ٢٤٥) أمر ببناء الماحوزة وسمّاها الجعفرى وأقطع القواد وأصابه وجد في بنائها وأمر بنقض القصر المختار والبدیع من قصور سامرا وحمل ساجهما إلى الجعفرى وأنفق عليها فيما قيل أكثر من ألفى ألف دينار وكان يسميه هو وأصحابه المتوكلية وكانت بالقرب من سامرا وبنى فيها قصراً سماه لؤلؤة لم ير مثله في علوه وأمر بحفر نهر يأخذ رأسه من موضع يقال له كرمى على رأس خمسة فراسخ فوق الماحوزة جعله شرباً لما حوله من فوه النهر وقدر للنهر من النفقة (٢٠٠٠٠٠ دينار) لكنه مات قبل أن يتم فأهمل وهذه المدينة خربت بعد قتل المتوكل. ولما انتقل إلى مدينته الجديدة شاع أنه عزم على الفتك بوصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوهم ولكن لم يتأت له ذلك لأنهم تغدوا به قبل أن يتعشى بهم كما نبينه في خبر مقتله: وقد حصلت حوادث في أطراف الدولة في عهد المتوكل فأطفت، منها:

أولاً: حادثة محمد بن البعيث بن حليس من ولد عتيب بن عمرو بن هنب بن أقي بن دعى بن جديلة في مدينة مرند وهى من مشاهير مدن أذربيجان استدارتها فرسخين وبينها وبين تبرين يومان كانت في الأصل قرية صغيرة فنزلها حليس أبو البعيث ثم حصنها لبعيث ثم محمد ابنه وبنى بها محمد قصراً. وكان محمد بن البعيث محبوساً في حجر إسحاق بن إبراهيم فتلكم فيه بغا الشرايى وأخذ منه الكفلاء وأطلق فهرب إلى مرند وهى موضوعة من أذربيجان فرم ما كان وهى من سورها وأتاه من أراد الفتنة من كل ناحية من بيعة وغيرهم فصار فى نحو من (٢٢٠٠ رجل) وكان الوالى بأذربيجان محمد بن حاتم بن هرثمة فقصر فر طله فولد المتوكل حمدويه بن علم بن الفضل السعدى أذربيجان ووجه

من سامرا على البريد فلما صار إليها جمع الجند والشاكرية ومن استجاب له فصار في عشرة آلاف فرحف إلى ابن البعيث فألجأه إلى مدينة مرند ولما طالت مدته وجه إليه المتوكل زيرك التركي في عدد كبير من الأتراك فلم يغن شيئاً فوجه إليه عمرو بن سيسل بن كال فكدلك فاختر له بغا الشرابي في (٤٠٠ رجل) ما بين تركي وشاركي ومغربي وكان القواد الذين سبقوه قد زحفوا إلى مدينة مرند، وقطعوا ما حولها من الشجر شجر الغياض، ونصبوا عليها عشرين منجنيقاً، وبنوا بحذاء المدينة ما يستكنون فيه ونصب عليهم ابن البعيث من المجانيق مثل ذلك وما زالوا على ذلك حتى قرب منهم بغا الشرابي ومعه أمانات لوجوه أصحاب ابن البعيث ولا بن البعيث أن يتزلوا ويتزل على حكم أمير المؤمنين وإلا قاتلهم فإن ظفر بهم لم يستبق منهم أحداً ومن نزل فله الأمان وأرسلت لهم هذه الأمانات مع عيسى بن الشيخ الشيباني وكان عامة من مع ابن البعيث من ربيعة فتزل منهم قوم كثير من القلعة بالحبال ثم فتح باب القلعة جماعة ممن خانوا ابن البعيث فدخلت جنود المتوكل المدينة وقد أراد ابن البعيث أن يهرب فأدرك وأخذت حرمه وأخذ نحو (٢٠) من رجاله فوافاهم بغا الشرابي وقد تم الأمر فكتب إلى المتوكل بالفتح.

ثم عاد إلى سامرا ومعه أسراء فأمر المتوكل بحبسهم جميعاً ثم أتى بابن البعيث فأمر بضرب عنقه فطرح على نطع وجاء السيافون فلوحوا له فقال المتوكل وأغلظ عليه: ما دعاك يا محمد إلى ما صنعت قال: الشقوة وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه وإن لى فيك لظنين أسبقهما إلى قلبى أولاهما بك وهو العفو، ثم اندفع بلا فصل فقال:

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلى إمام الهدى والصفح بالناس أجمل
وهل أنا إلا جبلة من خطيئة وعفوك من نور النبوة يجبل
فإنك خير السابقين إلى العلا ولا شك أن خير الفعالين تفعل

فالتفت المتوكل إلى على بن الجهم وقال إن معه لأدباً وعفا عنه وكان ابن البعيث أديباً شجاعاً يقال إن له أشعاراً نظمها بالفارسية. وكان ابن البعيث لما هرب قال:

كم قد قضيت أموراً كان أهملها غيرى وقد أخذ الإفلاس بالكمظم
لا تعذلىنى فيما ليس ينفعنى إليك عنى جرى المقدار بالقلم
سألتف المال فى عسر وفى يسر إن الجواد الذى يعطى على العدم

ولم يمكث ابن البعيث بعد ذلك كثيراً فإنه توفي بعد شهر ثم أطلق بنوه الثلاثة وهم

حلبس والبعيث وجعفر وصاروا في عداد الشاكسية مع عبيد الله بن يحيى بن خاقان وأجريت عليهم الأتزال:

ثانياً: اضطراب أرمينية. كان لبغا الشرايى ولاية أرمينية وأذربيجان وابنه فارس خليفته فولى عليها بالنيابة عنه أبا سعيد محمد بن يوسف المروزى وفى شوال (٢٣٦) مات فجأة فولى بعده ابنه يوسف بن محمد ولى حربها وخارجها فشحى إليها فضبطها ووجه عماله فى كل ناحية وبينما هو فى عمله خرج عليه رجل من بطارقة أرمينية وهو كبير البطارقة واسمه بقرات بن أشوط خرج يطلب الإمارة لنفسه فأخذه يوسف بن محمد فقيده وبعث به إلى باب الخليفة فهاج ذلك من بطارقة أرمينية فأجمعوا أمرهم على الخروج على يوسف وكان يقيم بمدينة طرون فحاصروه بها ولما خرج لقتالهم قاتلوه وقتلوه وأصحابه فلما علم بذلك المتوكل بعث بغا الشرايى إلى أرمينية مطالباً بدمه فشخص إليها من ناحية الجزيرة فبدأ بأرزن وكان بها موسى بن زرارة الذى وافق البطارقة على الفتك بيوسف فحمله بغا إلى باب الخليفة ثم سار حتى أتاه بجبل الخويشيه وهم جملة أهل أرمينية وقتله يوسف بن محمد فحاربهم وظفر بهم فقتل زهاء ثلاثين ألفاً وسبى منهم خلقاً كثيراً ثم سار مخترقاً بلاد أرمينية لإرهاب عصاتها حتى بلغ ديبيل فأقام بها شهراً ومنها سار إلى تفليس وفى يوم السبت (١٠ ربيع أول سنة ٢٣٧) وجه زيرك التركى الكر عليه وتفليس فى الجانب الغربى وصفدييل فى الجانب الشرقى وكان معسكر بغا فى الشرق وكان غرضهم من ذلك إخضاع إسحاق بن إسماعيل مولى بنى أمية الثائر بها فناوشوه القتال فخرج لقتالهم فبعث بغا بالنفاطين فغضبوا المدينة بالنار فأقبل ابن إسماعيل إلى المدينة لينظر فإذا النار قد أخذت فى قصره ثم أتاه الأتراك والمغاربة فأخذوه أسيراً وأخذوا ابنه عمراً فأتوا بهما بغا فأمر بضرب عنقه ويقال إنه احترق فى المدينة (٥٠٠٠٠ إنسان) وأسر من بقى حياً فيها وكان إسحاق قد حصنها وحفر خندقها وجعل فيها مقاتلة من الخويشيه وغيرهم وأعطاهم بغا الأمان على أن يضعوا أسلحتهم ويذهبوا حيث شاءوا وكان إسحاق مصاهراً للملك السريز تزوج بنته. ولم يزل بغا يجوس خلال هذه الديار حتى استنزل أكثر العصاة من معاقلم وأخذ معه كثيراً من بطارقة أذربيجان وأران.

الدولة اليعفرية:

فى آخر عهد المتوكل ابتدأت الدولة اليعفرية بصنعاء وكان جدهم عبد الرحيم بن إبراهيم الحوالى نائباً عن جعفر بن سليمان بن على الهاشمى الذى كان والياً للمعتصم على نجد اليمن وصنعاء وما إليها ولما توفى عبد الرحيم قام فى الولاية. مقامه ابنه يعفر بن عبد الرحيم وهورأس الدولة ومبدأ استقلالها إلا أنه كان يهاب آل زياد ويدفع لهم خراجاً يحمل إلى

زيد كأنه عامل لهم ونائب عنهم وكان ابتداء استقلال يعفر بن عبد الرحيم (سنة ٢٤٧) واستمر ملك صنعاء في أعقابها إلى (سنة ٣٨٧) وهذه أسماء ملوكهم:

- ١- يعفر بن عبد الرحيم ٢٤٧ - ٢٥٩
- ٢- محمد بن يعفر ٢٥٩ - ٢٧٩
- ٣- عبد القادر أحمد بن يعفر ٢٧٩ - ٢٧٩
- ٤- إبراهيم بن محمد ٢٧٩ - ٢٨٥
- ٥- أسعد بن إبراهيم ٢٨٥ - ٢٨٨
- فترة لائمة صنعاء والقرامطة ٢٨٨ - ٣٠٣
- ٦- أسعد بن إبراهيم مرة ثانية ٣٠٣ - ٣٣٢
- ٧- محمد بن إبراهيم ٣٣٢ - ٣٥٢
- ٨ - عبد الله بن قحطان ٣٥٢ - ٣٨٧

وقد اتبعنا في ثبت هذه الدولة ما جاء في تاريخ الأمم الإسلامية للمؤلف «لين بول» وفيه بعض مخالفة لما في تاريخ الدولة الإسلامية للشيخ دحلان هـ. والحوالي نسبة إلى عبد الله بن حوالة الأردى صاحب رسول الله ﷺ.

العلاقات الخارجية:

كانت الحروب بين المسلمين وبين الروم لا تزال دائمة الاتصال برأ وبحراً لا تنقطع إلا لهدنة وقتية.

ففي (سنة ٢٣٨) أغار الروم على مصر من جهة دمياط وكان أمير مصر قد أمر حاميتها أن يحضروا إليه بالفسطاط ليتجمل بهم فلما جاءها الروم بمراكبهم لم يجدوا بها حامية وكانوا في نحو (٣٠٠ مراكب) فدخلوا البلد وعاثوا فيه وأحرقوا دوره والمسجد الجامع وسبوا كثيراً من نساء المسلمين وأهل الذمة وأخذوا ما وصلت إليه أيديهم من المغنم ثم عادوا إلى بلادهم لم يكلم أحد منهم كلمة. وكان المسلمون يفعلون مثل ذلك في صوائفهم من جهة الدروب التي تلاصق المملكة الإسلامية من الجهة الشمالية وفي بحر الروم.

وفي (سنة ٢٤١) كان الفداء الرابع بين المسلمين والروم على نهر اللامس في (١٢)

شوال) وكان القائم به شنيف خادم المتوكل وحضر معه جعفر بن عبد الواحد الهاشمي القاضي وعلى بن يحيى الأرمني أمير الثغور الشامية وكانت عدة من فودى به من المسلمين في سبعة أيام ٢١٠٠. رجل وامرأة) على رواية المقرئ في الخطط وروى الطبري أن عدة أسرى المسلمين كانت (٧٨٥ إنساناً) ومن النساء (١٢٥ امرأة) قال المقرئ وكان من الروم من النصاري المأسورين من أرض الإسلام مائة رجل ونيف فعوضوا مكانهم عدة أعلاج.

وفي (سنة ٢٤٢) خرجت الروم من ناحية شمشاط بعد خروج على بن يحيى الأرمني من الصائفة حتى قاربوا آمد ثم خرجوا من الثغور الجزرية فانتهبوا عدة قرى وأسروا عدداً عظيماً من الأهليين ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم فخرج في أثرهم قرياس وعمر بن عبد الله الأقطع وقوم من المتطوعة فلم يلحقوا منهم أحداً فكتب إلى على بن يحيى أن يسير إلى بلادهم شاتياً.

وفي (سنة ٢٤٤) وجه المتوكل بغا من دمشق لغزو الروم في شهر ربيع الآخر فغزوا الصائفة فافتتح صملة.

وفي (سنة ٢٤٥) أغارت الروم على سميساط فقتلوا وسبوا نحواً من (٥٠٠) وغزا على بن يحيى الأرمني الصائفة.

وفي (سنة ٢٤٦) كان الفداء السادس بين المسلمين والروم في صفر على يد على بن يحيى الأرمني ففودى بألفين وثلاثمائة وسبعة وستين نفساً.

صفات المتوكل وأخلاقه:

ولم يكن المتوكل كمن قبله في حب النظر والجدل بل كان ميالاً إلى التقليد فأمر لأول ولايته بترك النظر والمباحة والجدل والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق وأمر الناس بالتسليم والتقليد وأمر الشيوخ والمحدثين بالتحديث وإظهار السنة.

لم يكن المتوكل ممن يوصف في عطائه بالبذل والجود ولا بتركه وإمساكه بخلاً ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس ظهر في مجلسه اللعب والمضاحك والهزل فلما جاء المتوكل أحدث ذلك كله فاتبعه فيها أكثر خواصه ورعيته فلم يكن في وزرائه والمتقدمين من كتابه من يوصف بجود ولا أفضال ولا يتعالى عن مجون أو طرب دخل عليه أبوعبادة البحرى الشاعر المشهور فأنشده قصيدة يمدحه بها قال فيها.

عن أى نفس تبتسم وبأى طرف تحسنتكم

حسن يضى بحسنه والحسن أشبهه بالكرم
 قل للخليفة جعفر الد متوكل بن المعتصم
 المرتضى ابن المجتبى والمنعم ابن المنتقم
 أما الرعية فهي من أمان عـدلك فى حـرم
 يا باني المجد الذى قد كان قوض فانهدم
 أسلم لدين محمد فإذا سلمت فقد سلم
 لننا الهدى بعد العمى بك والغنى بعد العدم

فلما انتهى مشى القهقرى للانصارف. فوثب أبو العنيس فقال: يا أمير المؤمنين تأمر برده فقد والله عارضته فى قصيدته هذه فأمر برده فأخذ ينشد أبياتاً هزلية غثة لم أستحسن إيرادها فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه وفحص برجله اليسرى وقال يدفع إلى أبى العنيس عشرة آلاف درهم فقال الفتح بن خاقان ياسيدى البحترى الذى هجا وأسمع المكروه ينصرف خائباً فقال ويدفع على البحترى عشرة آلاف درهم فوصل الجاد فى كرامة الهازل.

وكان ينفر من استعمال أهل الذمة فى الدواوين ويكره أن يظهروا فى الطريق بمظهر المسلمين ولذلك أصدر أمره فى (سنة ٢٣٥) أن يلبسوا زياً خاصاً بهم وهوالطبالسة العسلىة والزنانير وأن تكون لهم سروج خاصة بهم لركوبهم ونهى أن يستعان بهم فى الدواوين وأعمال السلطان التى يجرى فيها أحكامهم على المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم فى كتاتيب المسلمين ولا يعلمهم مسلم وكتب منشوراً إلى عماله فى الآفاق بذلك كتبه إبراهيم بن العباس الصولى فى شوال (سنة ٢٣٥).

قال المسعودى وكانت أيام المتوكل فى حسننها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لا ضراء كما قال بعضهم كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السيل و رخص السعر وأمانى الحب وأيام الشباب.

وتتعاذل عند المحدثين سيئاته وحسناته، فإبطاله المناقشة فى القرآن وحدوثه ترفعه إلى أعلى الدرجات وهدمه قبر الحسين يحطه إلى أسفل الدرجات فكأنه عندهم لا عليه ولا له. أما الحكم على زمنه بما كان من مصادرة الكتاب وعقوباتهم الشديدة فلم يكن محل عناية من أحد.

ولاية العهد،

تشبه المتوكل فى كثير من أعماله بجده الرشيد ومن ذلك توليته العهد؛ فقد عقد الولاية لأولاده الثلاثة وهم محمد المنتصر ومحمد المعتز وإبراهيم المؤيد فى (٢٧ ذى الحجة سنة ٢٣٥) وقسم البلاد بينهم.

فجعل لأكبرهم المنتصر أفريقية والمغرب كله من عرش مصر إلى حيث بلغ سلطانه من المغرب وجند قسرين والعواصم والثغور الشامية الجزرية وديار مصر وديار ربيعة والموصل وهيت وعانات والخابور وقرقيسيا وكروياجرمى وتكرت وطاسايح السواد وكور دجلة والحرمين واليمن وعك وحضرموت واليمامة والبحرين والسند ومكران وقنديل وفرج بيت الذهب وكور الأهواز والمستغلات السامرا وماه الكوفة وماه البصرة وماه سبذان ومهرجان قذق وشهرزور وواراباد ويصامغان وأصبهان وقم وقاشان وقزوين وأمور الجبل والضياع المنسوبة إلى الجبال وصدقات العرب بالبصرة.

وجعل لابنه المعتز كور خراسان وما يضاف إليه وطبرستان والرى وأرمينية وأذربيجان وكور فارس وضم إليه فى (سنة ٢٤٠) خزن بيوت الأموال فى جميع الآفاق ودور الضرب، وأمر بضرب اسمه على الدراهم.

وجعل لابنه المؤيد جند دمشق وجند حمص وجند الأردن وجند فلسطين.

وكتب بينهم كتاباً يشبه الكتاب الذى كتبه الرشيد بين الأمين والمأمون والقاسم. وقد جعل المتوكل لا بنيه المعتز والمؤيد تمام الاستقلال فى أعمالهما إذا آلت الخلافة للمنتصر بحيث لا يجوز أن يشرك فى شئ من أعمال أحدهما أحداً ولا يوجه عليه أمناً ولا كاتباً ولا بريداً ولا يضرب على يده فى قليل ولا كثير وكذلك جعل على المعتز للمؤيد إذا آلت الخلافة للمعتز. وكتب من هذا الكتاب أربع نسخ نسخة بخزانة أمير المؤمنين وعند كل من أولياء العهد نسخة وهذا نموذج مما قيل من الشعر فى هذه البيعة وهو ينم على نفاق قائلة لأن القوم لم ينسوا بعد ما كان بين أولاد الرشيد. قال إبراهيم بن العباس الصولى:

أضحت عرى الإسلام وهى منوطة	بالنصر والإعزاز والتأييد
بخليفة من هاشم وثلاثة	كنفوا الخلافة من ولاة عهد
قمر توالى حوله أقماره	يكنفن مطلع سمعه بسعود
كنفتهم الآباء واكتفت بهم	فسموا بأكرم أنفس وجدود

مقتل المتوكل،

لم تكن قلوب كبار الأتراك مطمئنة إلى المتوكل، فقد وقع في أنفسهم أنه يريد تدبير المكاييد لهم حتى يتخلص منهم واحداً بعد واحد، فأخذتهم من ذلك وحشة وكان وزير المتوكل عبيد الله بن خاقان ونديمه الفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر ولى العهد مائلين إلى المعتز. فأوغرا قلب أبيه عليه حتى هم أن يعزله من ولاية العهد فاجتمع لذلك الخصمان قواد الأتراك وولى العهد. مال الأتراك إلى المنتصر ليستعينوا به في تنفيذ غرضهم ومال إليهم ليحفظ لنفسه الخلافة عاجلاً. ومما زاد في إغراء المنتصر أن المتوكل اشتكى فأمره أن يصلى بالناس يوم الجمعة فقال عبيد الله والفتح للمتوكل مر أبا عبد الله المعتز بالله بالصلاة لشرفه بذلك في هذا اليوم الشريف فقد اجتمع أهل بيته والناس جميعاً فقد بلغ الله به فأمره المتوكل بالصلاة فركب وصلى بالناس وأقام المنتصر في منزله وفي الجمعة الثانية أراد المتوكل أن يصلى المنتصر بالناس فحسنا له أن يركب هو لئلا يرجم الناس بعلته ففعل. وكل ذلك زاد المنتصر حقداً وخوفاً على الخلافة أن تفوته. ويقال إن المتوكل اتفق مع الفتح بن خاقان على الفتك بالمنتصر وقتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ولم يكن هذا السر ليستر مع النبيذ والاستهتار بشربه فاتفق القوم على أن يفتكوا بالمتوكل.

وقد تولى كبر ذلك بغا الصغير المعروف بالشرابي فإنه أعد لذلك قوماً في مقدمتهم باغر التركي الذي كان يقوم بحراسة المتوكل وأعد معه عشرة من الأجناد فدخلوا القصر وسيوفهم مسلولة والمتوكل قد أخذ منه الشراب فابتدره أحدهم بضربة وثنى عليه بأخرى أتت على نفسه، وكان معه الفتح بن خاقان فقتل معه، وكان قتله ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال (سنة ٢٤٨) ويعجبني ما قاله بعض شعراء الوقت في تلك الحادثة:

لا حزن إلا أراه دون ما أجد	وهل كمن فقدت عيناي مفتقد
لا يبعدن هالك كانت منيته	كما هوى عن غطاء الزبية الأسد
لا يدفع الناس ضيماً بعد ليلتهم	إذ لا تمد إلى الجاني عليك يد
لو أن سيفي وعقلي حاضران له	أبليتة الجهد إذ لم يبله أحد
هلا أناه أعاديه مجاهرة	والحرب تسعر والأبطال تطرد
فخر فوق سرير الملك منجدلاً	لم يحمه ملكه لما انقضى الأمد
وأصبح الناس فوضى يعجبون له	ليثاً صريعاً تنزى حوله النقد
علتك أسياف من لا دونه أحد	وليس فوقك إلا الواحد الصمد

أضحى شهيد بنى العباس موعظة لكل ذى عزة فى رأسه صيد
 خليفة لم ينل ما ناله أحد ولم يضع مثله روح ولا جسد
 كم فى أديمك من فوهاء هادرة من الجوائف يغلى فوقها الزبد
 إذا بكيت فإن الدمع منهمل وإن ونيت فإن القول مطرد
 قد كنت أسرف فى مالى وتخلف لى فعلمتنى الليالى كيف أقتصد
 لما اعتقدتم أناس لا حلوم لهم ضعنتم وضيعتم من كان يعتقد
 فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم حمتكم السادة المذكورة الحشد
 قوم هم الجذع والأنساب تجمعهم والمجد والدين والأرحام والبلد
 وقال على بن الجهم من قصيدة له :
 عبيد أمير المؤمنين قتلنه وأعظم آفات الملوك عبيدها
 بنى هاشم صبراً فكل مصيبة سببلى على وجه الزمان جديدها

وهذه الحادثة أول ثمرة لغرس المعتصم فإنه ملك الخلافة قوماً لا حلوم لهم وليس لهم من الأخلاق ما يمنعهم مما فعلوا ولا من العصبية ما يجعل جانبهم مأموناً وأجل من ذلك أن يكون ولى العهد شريكاً فى دم أبيه وهذا أيضاً أول حادث من نوعه يعجبني ما قاله البحتري :

أكان ولى العهد أضمر غدره فمن عجب أن ولى العهد غادره
 فلا ملك الباقي تراث الذى مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره

المنتصر

هو محمد المنتصر بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية اسمها جبشية (سنة ٢٢٢) وعقد له أبوه ولاية العهد (سنة ٢٣٥) وسنه ثلاث عشرة سنة ولما قتل أبوه يبعه قواد الأتراك عقيب مقتله في (٤ شوال سنة ٢٤٧) (١١ ديسمبر سنة ٨٦١) واستمر حنيفة إلى أن توفي يوم الأحد لخمس خلون من شهر ربيع الآخر (سنة ٢٤٨) (٧ يونيه سنة ٨٦٠) فكانت مدته التي تعجلها بقتل أبيه ستة أشهر.

استوزر المنتصر أحمد بن الخصيب وكان كاتبه قبل أن يستخلف وكان مقصراً في صناعته فغفرواً عليه في عقله وكانت فيه مروءة وحدة وطيش فمن احتمله بلغ منه ما أراد وقد وصفه المسعودي بأنه كان قليل الخير كثير الشر وقد ندم المنتصر على ما فعل من تقليده نوزارة ونفيه عبيد الله بن خاقان وزير أبيه بسبب ما شاع من حدة ابن الخصيب وطيشه. يذك أن ركب ذات يوم فتظلم إليه متظلم بقصة فأخرج رجله من الركاب فزج بها في صدر المتظلم فقتله فتحدث الناس بذلك، فقال بعض شعراء ذلك الزمان:

قل للخليفة يا ابن عم محمد أشكل وزيرك إنه شكال

أشكله عن ركل الرجال وإن ترد مالا فعند وزيرك الأموال

هـجيش:

بقتل المتوكل واستيلاء المنتصر الشاب زادت الأتراك قوة في الدولة على قوتهم لأن ينهم امتدت إلى حياة الخلفاء فقتلوا الخليفة وساقوا الخلافة إلى خليفة فأنشوا أظفارهم منك في جسم الدولة ولم يكن هناك من حيلة للتخلص منهم لما دب إلى قلوب الخلفاء من الهيبة ورعاية جانبهم وما يدل على ذلك أن الأتراك لم يكونوا يحبون أن تكون ولاية لعهد للمعتز والمؤيد ابني المتوكل فأشاروا على المنتصر بخلعهما فأحضرا دار الخلافة وطلب سهما أن يكتبتا طالين أن يخلعا من ولاية العهد لضعفهما عن ذلك فرضى المؤيد وأبى المعتز

فقال له المؤيد يا جاهل تراهم قد نالوا من أبيك وهو هو ما نالوا ثم تمتنع عليهم، اطلع ويلك ولا تراجعهم. وما زال به حتى أجاب وكتب ما أملى عليهما في ذلك. وهذا ما كتبه «بسم الله الرحمن الرحيم إن أمير المؤمنين المتوكل على الله رضى الله عنه قلدى هذا الأمر وبائع لى وأنا صغير من غير إرادتى ومحبتى، فلما فهمت أمرى علمت أنى لا أقوم بـ قلدى ولا أصلح لخلافة المسلمين فمن كانت بيعتى فى عنقه فهو من نقضها فى حل وقد حللتكم منها وأبرأتكم من أيمانكم ولا عهد لى فى رقابكم ولا عقد وأنتم براء من ذلك». ثم دخلا على المنتصر فاعترفا بما فى الكتاب ثم أقبل عليهما والأثراك وقوف وقال لهما أترينى خلعتكما طمعاً فى أن أعيش حتى يكبر ولدى وأبائع له والله ما طمعت فى ذلك ساعة قط وإذا لم يكن فى ذلك طمع فوالله لأن يليها بنو أبى أحب إلى من أن يليها بنو عمى ولكن هؤلاء (وأوما إلى سائر الموالى من هوقائم وقاعد) ألحوا علىّ فى خلعتكما فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتى عليكما فما ترينى صانعاً أقتله فوالله ما تقى دماؤهم كلهم بدم بعضكم، فكانت إجابتهم إلى ما سألوا أسهل علىّ.

فانظروا كيف كان عجز الخليفة عن أن يرد مشورة لهم تخالف ما عقده المتوكل وأكده بالآيمان والمواثيق والعهود. وقد كتب المنتصر بذلك إلى الآفاق وظهر فى كتابه براعة المشيخ فى ذلك الوقت وإن لم تظهر فيه براعة الأخلاق الفاضلة وحفظ العهود والمواثيق وكاد الكاتب له أحمد بن الخصيب.

صفات المنتصر:

لئن كان الغضب قد حمل المنتصر على تذليل السبيل لإهراق دم أبيه فإنه كان لا يزال د نفس تحس فتأثر فلم يزل يلقى أهوال التوبيخ فى يقظته ومنامه حتى أسقم ذلك بدنه وأخذ نفسه. دخل عليه عبد الله بن عمر البازيار ذات يوم وهو يبكى ويتحجب فسأله عن سبب بكائه فقال كنت نائماً فرأيت كأن المتوكل قد جاءنى فقال لى ويلك يا محمد قتلتنى وظلمتنى وغبتنى خلافتى والله لا تمتعت بعدى إلا أياماً يسيرة ثم مصيرك إلى النار فانتبهت وما أملك عيني ولا جزعى. فهون عليه عبد الله الأمر وكان كثيراً ما يقول إذا سئل عـ حاله ذهب والله منى الدنيا والآخرة، فكان الرجل يكابد نيراناً تضطرم بين جنبيه جزء فعلته وكان يهم أن يكفر سيئته فينتقم من قتلة أبيه لولا أنه أحس بأن الذين تمكنوا من قتل أبيه لا يبعد عليهم أن يكرروا التجربة فيه فكان يفكر فى تفريق جمعهم، وأثرت عنه كلمات فى ذلك ولكن قوتهم كانت أكبر من أن تتأثر بتفكير ذلك الخليفة الشاب.

كان من خلق المنتصر سعة الاحتمال وكثرة المعروف والرغبة فى الخير والسخاء والعفة .
 .يكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق وحسن المعاشرة بما لم يسبقه خليفة إلى مثله ومما حبه إلى
 نس إزالته عن آل أبى طالب ما كان قد أوحشهم فتقدم بالكف عنهم وترك البحث عن
 أخبارهم وألا يمنع أحد زيارة قبر الحسين رضى الله عنه ولا قبر غيره من آل أبى طالب
 .يطلق أوقاف الطالبين وترك التعرض لشيعتهم ودفع الأذى عنهم ومما يؤثر من قوله (إن لذة
 لعنوا عذب من لذة التشفى وأقبح أفعال المقتدر الانتقام) وقد أظهر الإنصاف فى الرعية
 صالت إليه قلوب الخاصة والعامة مع شدة هيبتها له .

وهة المنتصر:

قال الطبرى لم أزل أسمع الناس حين أفضت إليه الخلافة من لدن ولى إلى أن مات
 يقولون إنما مدة حياته ستة أشهر «مدة شيرويه بن كسرى» قاتل أبيه مستفيضاً ذلك على
 سن العامة والخاصة وكذلك كان فقد أصابته العلة التى قضت عليه ويوم الخميس لخمس
 عين من شهر ربيع الأول (سنة ٢٤٨) ومات مع العصر من يوم الأحد لخمس ليل خلون
 من شهر ربيع الآخر ويقال إن تلك العلة كانت الذبحة فى حلقه وبعضهم يقول كانت ورماً
 حياً فى معدته ويقال إنه سمَّ سمَّ الطبيب فى مبضع والله أعلم أى ذلك كان .

١٢

المستعين

هو أحمد بن محمد بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد صقلية اسمها مخارق ولد (سنة ٢٢٠) وبويع بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه المتصر وهو خامس ربيع الآخر (سنة ٢٤٨) (٧ يونيو سنة ٨٦٢) ولم يزل خليفة إلى أن خلع يوم الجمعة (٤ محرم سنة ٢٥٢) (١٥ يناير سنة ٨٦٦) فكانت مدته ثلاث سنوات وثمانية أشهر و٢٨ يوماً.

كيف انتخب:

اجتمع الموالي وفيهم بغا الصغير وبغا الكبير وأتامش ومن معهم فاستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة والأشروسنية على أن يرضوا بما رضى به من سميناء، فأجمع رأى الثلاثة على ألا يولوا أحداً من أولاد المتوكل لثلاث يغتالهم بدم أبيه كما أنهم يريدون إخراجها عن أولاد المعتصم مولاهم فاقترح عليهم توليه أحمد بن المعتصم فقال لهم محمد بن موسى بن شاذي المنجم أتولون رجلاً عنده أنه أحق الناس بالخلافة قبل المتوكل وأنكم دفعتموها عنه وأنه أحق بالأمر من المتوكل والمتصر فبأى عين يراكم وأى قدر يكون لكم عنده ؟ ولكن أطيعوا إن شاء يعرف لكم ذلك . فكانت هذه الكلمات مما وافق هواهم جميعاً إلا بغا الكبير فإنه قال لهم نحيي بمن نهابة ونفرقه فنبقى معه وإن جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضاً فقتلنا أنفسنا، ثم ذكروا أبا العباس أحمد بن محمد بن المعتصم وقالوا هذا من ولد مولانا المعتصم وإنه نخرجها عنهم ونصطنعه فيعرف ذلك لنا ولم يزالوا يبغوا الكبير حتى وافقهم عليه فبايعوه جميعاً، وهو أول خليفة من بني العباس لم يكن أبوه خليفة بعد مؤسسى الدولة السفوح والمنصور وأول خليفة تولى بعد ابن عمه .

وفى عهده توفي من الأغالبة بأفريقية أحمد بن محمد بن الأغلب (سنة ٢٤٩) وخلفه أخوه زيادة الله بن محمد (سنة ٢٥٠) وخلفه ابن أخيه محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب إلى (سنة ٢٦١).

وفى عهده توفى من آل طاهر بخراسان طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين فولى مكانه محمد بن طاهر إلى (سنة ٢٥٩).

هـوزارة في عهد المستعين:

لم يكن للخليفة شئ من النفوذ فإن الموالى هم الذين حولوا الخلافة عن المعتز بخلفهم به من ولاية العهد وهم الذين ساقوها إلى المستعين بلا عهد ولا سابقة فكان من المعقول أن يكون بين أيديهم يفعلون به ما شاءوا حتى مثله بعض الشعراء بقوله:

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قاله كما تقول الببغا

فالوزير من قبلهم يولى فإن وافق هواهم رضوا عنه وإن خالفهم فى شئ أزالوه عن رتبته . قاموا غيره .

تركوا الوزارة فى يد أحمد بن الخصيب الذى كان وزيراً للمعتصم ثم لم يلبثوا أن غضبوا عليه فى جمادى الأولى من (سنة ٢٤٨) فاستصفوا ماله ومال ولده ونفوه إلى جزيرة قريطش .

واختير لوزارة المستعين أتماش أحد قواد الأتراك وكان الذى يقوم بأمر الكتابة كاتبه نجاع فكان أتماش بذلك صاحب السلطان التام فأطلقت يده فى الأموال ومعه شاهك خذم الذى جعله المستعين على داره وكراعه وخزائنه وخاص أموره وضم إليهما فى النفوذ . تصرف أم المستعين فإنه لم يمنعها من شئ تريده وكان كاتبها سعيد بن سلمة النصرانى حكمت الأموال التى ترد على السلطان من الآفاق يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة فعمد تمش إلى ما فى بيوت الأموال فاكسحه وكان المستعين قد جعل ابنه العباس فى حجر تمش فكان ما فضل من الأموال عن هؤلاء الثلاثة يؤخذ للعباس فيصرف فى نفقاته . نيا به وصاحب ديوان ضياعه يومئذ كاتب اسمه دليل بن يعقوب النصرانى فاقتطع من خ أموالاً جلييلة لنفسه . نظرت الموالى هذه الحال : الأموال تستهلك وهم فى ضيقة ، تمش هو صاحب المستعين وصاحب أمره والمستولى عليه ينفذ أمور الخلافة ووصيف وبغا . ذلك كله بمعزل فأغريا الموالى به ولم يزالا يدبران الأمر عليه حتى أحكما التدبير تمعرت الأتراك والفراغنة على أتماش وخرج إليه منهم يوم الخميس (١٢ ربيع الآخر سنة ٢٥٤) أهل الدور والكرخ فمسكروا وزحفوا إليه وهو فى الجوسق مع المستعين وبلغه الخبر

فأراد الهرب لم يمكنه واستجار بالمستعين فلم يجره وفي يوم السبت دخلوا الجوسق فاستخرجوا أتامش من موضعه الذى توارى فيه فقتل وقتل كاتبه شجاع وانتهت دار أتامش فأخذوا منها أموالاً جلييلة ومتاعاً وفرشاً وآلة.

استوزر المستعين بعده أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزيد وأبوه كان قبل ذلك وزيراً للمأمون فمكث فى الوزارة نحو ثلاثة أشهر لم يرض فيها أحزاب الموالى لأنه أراد أن يضبط حساب المملكة فلم يعجب ذلك بغا الصغير وحزبه فأظهروا له الغضب فهرب منهم إلى بغداد فى شعبان (سنة ٢٤٩).

استكتب المستعين بعده محمد بن الفضل الجرجرائى وهو الذى كان وزيراً للمتوكل قبل ذلك ولم يسمه باسم وزير.

العلويون فى عهد المستعين:

كان الذى فى عهد المستعين من أئمة الإمامية الاثنا عشرية على الهادى وهو العاشر من أئمتهم وكان مقيماً بسامرا.

أما الزيدية فقد خرج منهم.

أولاً: يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن على بن الحسين خرج بالكوفة وكان قبل خروجه يتردد بين بغداد وسامرا يطالب كبار الدولة بما يصلح من شأنه فكان يرجع دوماً بالفشل فاستثار جمعاً كثيراً من الأعراب وانضم إليهم جمع من الكوفة فعسكر بهم بضواحي الكوفة ولما علم بخبره محمد بن عبد الله بن طاهر وجه الجنود إليه فبادر يحيى إلى الكوفة فاستولى عليها وعلى بيت مالها ثم خرج منها وصار يتردد فى السواد ثم عد إلى الكوفة ودعا إلى الرضا من آل محمد وكثف أمره وتولاه العامة من أهل بغداد ولا يعد أنهم تولوا من أهل بيته غيره. أقام بالكوفة يعد العدد ويطبع السيوف ويعرض الرجز ويجمع السلاح. كان الذى توجه لحربه فرع من فروع الأسرة المصعبية وهو الحسين بن إبراهيم بن مصعب فلما وصل بجناحه إلى ظاهر الكوفة أشار على يحيى جماعة من الزينة لا علم لهم بالحرب بمعاجلة الحسين وألح عليه عوام أصحابه بمثل ذلك فخرج من وراء الخندق ليلة الإثنين (١٣ رجب سنة ٢٥٠) فى جمع ليسوا بذى علم ولا تدبير ولا شجاعة فأسروا ليلتهم حتى صبحوا الحسين وهو وأصحابه مستريحون مستعدون فلم يكن بأسرع. انهزم جند يحيى ووضع فيهم السيف وكان أكثر رجاله الكوفة عزلاً فداستهم الخيل وانهكهم العسكر عن يحيى تقطر به بردونه فقتل وأخذت رأسه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر فحمله إلى المستعين بسامرا فنصب الرأس بباب العامة بسامرا واجتمع الناس تحت

وكثروا وتذمروا فرد إلى بغداد لينصب بها فلم يمكن لما أبداه العامة من كراهة ذلك . وقال أبوهاشم داود الهيثم الجعفرى فى ذلك .

يا بنى طاهر كلوه وبيا إن لحم النبى غير مرى
إن وترأ يكون طالبه الله لو تر نجاحه بالخرى

ومع هذا الميل من الناس إلى العلويين لم يمكنهم الاستفادة من ذلك الميل لأنهم لم يكن لهم تدبير منتظم ولا استعانة بذوى التدبير والحيل من رجال الحرب .

ثانياً: خرج الحسين بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على . خرج بنواحى طبرستان وسبب خروجه أن المستعين أقطع محمد بن طاهر قطائع من صوافى السلطان بطبرستان وذلك بعد أن انتصر على يحيى بن عمر وكان من جملة تلك القطائع قطيعة قرب ثغرى طبرستان من نواحى الديلم وهما كلاروسالوس وبحذاء تلك قطيعة أرض لأهل تلك الناحية فيها مرافق منها محتطبهم ومراعى مواشيهم ومسرح سارحتهم وليس لأحد عليها ملك . فوجه محمد بن طاهر جابر بن هارون أخا كاتبه نصرانى لحيازة ما أقطع من تلك الأراضى وكان عامل طبرستان إذ ذاك سليمان بن عبد نله بن طاهر وقد غلب على أمره محمد بن أوس البلخى ومن ولده كان العمال على مدن طبرستان وهم أحداث سفهاء فاستأذى بهم وبسفهم من تحت أيديهم والرعية واستنكروا منهم ومن والدهم ومن سليمان بن عبد الله سفهم وسيرهم فيهم ، وزاد على ذلك أن محمد بن أوس وتر الديلم بدخوله إلى بلادهم من حدود طبرستان على غرة وهم أهل سلم وموادعة لأهل طبرستان فسبى منهم ورجع .

لما جاء رسول محمد بن طاهر وأراد استلام القطيعة أحب أن يحوز معها تلك الأرض حتى تتصل بها من الموات الذى يرتفق به أهل تلك الناحية .

كان هناك رجلان معروفان بالبأس والشجاعة وكانا معروفين قديماً بضبط تلك الناحية من رما من الديلم وهما محمد وجعفر ابنا رستم فأنكرا ما فعله جابر ومنعه وكانا مطاعين ومستنهضاً من أطاعهما فنهضوا معهما وهرب جابر خوفاً على نفسه ولحق سليمان بن عبد نله فأيقن الرجلان حيثئذ بالشر وراسلا جيرانهم من الديلم يطلبون منهم المساعدة والمظاهرة عنى سليمان بن عبد الله فأجابهم الديلم إلى ذلك وتعاقدا هم وأهل كلاروسالوس أن يعين بعضهم بعضاً على حرب سليمان بن عبد الله ومحمد بن أوس وغيرهما ممن قصدهم بحرب ثم أرادوا أن يكون على رأسهم رجل يبايعونه فاتفقوا على الحسن بن زيد وكان مقيماً بالرى فوجه إليه القوم من دعاه إلى أمرهم فأجاب وتوجه إليهم فبايعوه وبايعه

رؤساء الديلم ثم ناهضوا من فى تلك النواحي من عمال ابن أوس فطردوهم عنه فلاحقو بمدينة سارية .

ثم زحف الحسن ومن معه على مدينة آمل وهى حاضرة طبرستان وجاء محمد بن أوس يريد دفعه عنها فلم يقدر وفر هارباً ودخل الحسن مدينة آمل فكشف جيشه وغلظ أمره وما إليه كل طالب نهب ومريد فتنة من الصعاليك والحوزية وغيرهم ثم سار من آمل إلى سارية وبها العامل سليمان بن عبد الله فغلبه عليها ولم يكن له هو ومحمد بن أوس إلا النجاة منها بأنفسهما فهربا إلى جرجان وبذلك تم للحسن بن زيد الاستيلاء على بلاد طبرستان كلها فوجه خيلاً إلى الرى فاستولت عليها وطردت عنها عمال ابن طاهر .

ورد الخبر بذلك إلى المستعين ومدبر أمره وصيف التركى فوجه إلى همذان قائداً فى جمع من الجنود ليقم بها ويمنع خيل الحسن أن تتجاوزها لأن ما وراء همذان كان لمحمد بن طاهر وبه عماله وعليه صلاحه .

هكذا نجح الحسن بن زيد فى تكوين هذه الدولة التى تعرف بالدولة الزيدية بطبرستان واقطع من ملك بنى العباس وآل طاهر طرفاً عظيماً تحميه جبال طبرستان والديلم واستمرت هذه الدولة نحو قرن كامل (٢٥٠-٣٥٥) تولى فيها:

- ١- الحسن بن زيد الداعى ٢٥٠ - ٢٧٠
- ٢- محمد بن زيد القائم بالحق الدولة السامانية ٢٧٠ - ٣٠١
- ٣- الحسن الأطروش بن على بن عمر بن زين العابدين ٣٠١ - ٣٠٤
- ٤- الحسن بن القاسم بن على بن عبد الرحمن ومعه أولاد الأطروش ٣٠٤ - ٣٥٥

ولم تكن هذه الدولة ذات نظام ملكى ولا مرتاحة من الأعداء فإن بنى سامان الآتى ذكرهم قتلوا محمد بن زيد واستولوا على طبرستان إلى (سنة ٣٠١) ثم ظهر آخر الأطروش فاسترد طبرستان من آل سامان ولكنه قتل فى بعض حروبه مع السامانية فقام به الحسن بن القاسم ونازعه أولاد الأطروش ولم يزل النزاع والخلاف قائماً بينهم حتى انتهى أمرهم (سنة ٣٥٥) وانقضى الملك الزيدى من تلك الجبال .

الجيش

كان ما ظنه بغا الكبير فى محله فإنه قال للقوم (نجى بمن نهايه ونفرقه فبقى معه ورجعنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضنا فقتلنا أنفسنا) وجد التحاسد بين هؤلاء القوم ونرى

للخليفة سلطان يقيم به من بغى منهم فكانت أولى جناياتهم قتل أتامش لما رآوه قد استبد بأموال الدولة وبمصالحتها. ثم اتفق وصيف وبغا على قتل باغر التركي الذي تولى قتل المتوكل لأنهما خافا على أنفسهما وكان باغر قد جمع إليه جماعة الذين كانوا بايعوه على قتل المتوكل فجدد عليهم البيعة التي كان أخذها عليهم وقال لهم الزموا الدار حتى نقتل المستعين وبغا ووصيفا (وكانا يسميان بالأميرين) ونجى بعلى بن المعتصم أوبابن الوائق فنفعده خليفة حتى يكون الأمر لنا كما هو لهذين اللذين قد استوليا على أمر الدنيا وبقينا نحن على غير شيء فأجابوه إلى ذلك وانتهى الأمر إلى المستعين فبعث إلى وصيف وبغا فقال لهما ما طلبت إليكما أن تجعلاني خليفة وإنما جعلتاني وأصحابكما ثم تريدان أن تقتلاني فحلفا له أنهما ما علما بذلك فأعلمهما الخبر فاتفق الرأي على التدبير على باغر ففعلا وقتلاه فهاج أصحابه هيجانا شديدا ولم يكن من الأميرين إلا حمل المستعين معهما والانحدار به إلى بغداد يوم الأربعاء (٤ محرم سنة ٢٥٢) ونزل المستعين بدار محمد بن عبد الله بن طاهر ولحقهم جماعة من قواد الأتراك فدخلوا إلى المستعين فرموا بأنفسهم بين يديه وجعلوا مناطقهم في أعناقهم تذلا وخضوعا وسألوه الصفح عنهم فقال لهم أنتم أهل بغى وفساد واستقلال للنعم ألم ترفعوا إلى في أولادكم فألحقتم بكم وهم نحو من ألفي غلام وفي بناتكم فأمرت بتصويرهن في عداد المتزوجات وهن نحومن أربعة آلاف امرأة وفي المراكين والمولودين؟ وكل هذا قد أجبتكم إليه وأدرت لكم الأرزاق حتى سكبت لكم آية الذهب والفضة وحرمت نفسى لذتها وشهوتها كل ذلك إرادة لصلاحكم ورضاكم وأنتم تزدادون بغيا وفسادا وتهددوا وإيعادا. فتضرعوا إليه حتى قال قد رضيت عنكم فقال له أحدهم بايكباك إن كنت رضيت عنا وصفحت فقم فاركب معنا إلى سامرا فإن الأتراك ينتظرونك. فأوما محمد بن عبد الله بن طاهر إلى محمد بن أبى عون فلكز في حلق بايكباك وقال هل هكذا يقال للأمير المؤمنين قم فاركب معنا فضحك المستعين من ذلك وقال هؤلاء قوم عجم ليس لهم معرفة بحدود الكلام.

وقال لهم المستعين تصيرون إلى سامرا فإن أرزاقكم دارة عليكم وأنظر أنا في أمرى ههنا ومقامى. فانصرفوا آيسين منه غاضبين مما حصل لهم فأجمعوا أمرهم على إخراج المعتز والبيعة له وكان المعتز والمؤيد في حبس الجوسق في حجرة صغيرة مع كل واحد منهما غلام يخدمه فأخرجوا المعتز وبايعوه بالخلافة ولأخيه المؤيد ولاية العهد.

وبذلك صارت بغداد في جانب المستعين والقائم بأمره محمد بن عبد الله بن طاهر ومن لف لفه، وسامرا في جانب المعتز. كان من أول ما فعله ابن طاهر أن منع الميرة عن سامرا وقام بتحسين بغداد فأدير عليها السور وحفرت حولها الخنادق ورتبت الرجال على أبوابها وأسوارها وكتب المستعين إلى عمال الخراج بكل بلدة وموضع أن يكون حملهم ما يحملون من الأموال إلى بغداد ولا يحملون إلى سامرا شيئا.

دارت المكاتبات فكتب المستعين إلى أترك سامرا يأمرهم بنقض بيعة المعتز ومراجعة الوفاء ببيعتهم إياه ويذكرهم أياديه عندهم وينهاهم عن معصيته ونكث بيعته وكان كتابه بذلك إلى سيما الشرابي. وكتب المعتز إلى محمد بن عبد الله بن طاهر يدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه من بايعه بالخلافة وخلع المستعين ويذكره ما كان أبوه المتوكل أخذ له عليه بعد أخيه المنتصر من العهد وعقد الخلافة. فلم تفد هذه المكاتبات شيئاً وهما المعتز جيشاً لحرب المستعين جعل قيادته لأخيه أبي أحمد بن المتوكل وتديره على كلبانكين التركي. خرج هذا الجيش من سامرا فوافى عكبرا في غاية المحرم من (سنة ٢٥١) ووصل باب الشماشية ببغداد لسبع خلون من صفر. وقد حصل بين الفريقين مواقع هائلة حول أسوار بغداد وبعيداً عنها وانقطعت بذلك السابلة وخربت الضياع وذهبت الأرزاق وكانت الحرب بين الفريقين في البر وفي النهر. وقد ظلت بغداد مرسحاً للفتن والحروب (سنة ٢٥١) كلها وفي آخرها كتب ابن طاهر المعتز في الصلح وأشيع بين عامة بغداد أن ابن طاهر مال إلى خلع المستعين وأنه وجه قواده فبايعوا المعتز فلما سمعوا ذلك هاجوا وأظهروا الواقعة في ابن طاهر وشتموه أقبح الشتم وتجمعوا حول داره يريدون الإيقاع به فكلم ابن طاهر المستعين وسأله أن يطلع إليهم ويسكنهم ويعلمهم ما عليه ابن طاهر فأشرف عليهم من أعلى الدار وعليه البردة والطويلة وابن طاهر بجانبه فحلف لهم بالله ما اتهمه وإنه لفي عافية ما عليه من ابن طاهر بأس ووعدهم أن يخرج في غد يوم الجمعة ويصلى بهم فانصرفوا وجاؤا في الغد يطلبون خروج المستعين إليهم فلم يخرج فازداد هياجهم وطلبوا خروج الخليفة من دار ابن طاهر فلم يجد من ذلك بدا وانتقل في أوائل ذي الحجة إلى دار رزق الخادم وكان معه حين انتقاله ابن طاهر وبيده الحربة يسير بها والقواد خلفه وكان هذا الانتقال على غير إرادة المستعين ويقال إن السبب في عدول ابن طاهر عن الإخلاص للمستعين أن عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذي كان وزيراً للمتوكل قال له أطل الله بقاءك إن هذا الذي تنصره وتجد في أمره من أشد الناس نفاقاً وأخبثهم ديناً والله لقد أمر وصيفاً وبغا بقتلك فاستعظما ذلك ولم يفعلوا. كنت شاكاً فيما وصفت من أمره فسل تخبر. وإن من ظاهر نفاقه أنه كان وهو بسامرا لا يجهر في صلاته بيسم الله الرحمن الرحيم فلما صار إلى ما قبلك جهر بها مراعاة لك وترك نصرة وليك وصهرك وتربيتك ونحو ذلك من كلام كلمه به فقال محمد بن عبد الله أخزى الله هذا لا يصلح لدين ولا لدنيا. كان وراء ذلك أن تخلى محمد عن نصرة المستعين وكانت نتيجة هذا التخلي أن تضعع أمره وانحياز العامة له لم يفده فرأى من مصلحته أن يقبل خلع نفسه واشترط شروطاً تضمن حياته وراحته.

وفي يوم السبت (١٠ ذي الحجة سنة ٢٥١) ركب محمد بن عبد الله إلى الرصافة وجمع

لقضاة والفقهاء وأدخلهم على المستعين فوجاً فوجاً وأشهدهم عليه أنه قد صير أمره إلى محمد بن عبد الله فأرسل حينئذ محمد إلى المعتز من جاء يحطه بقبول الشروط التي طلبها المستعين وعادت الرسل في ثالث المحرم (سنة ٢٥٢) وفي رابعه دخل ابن طاهر على المستعين ومعه كتاب الشروط كتبه سعيد بن حميد فقال ابن طاهر يا أمير المؤمنين قد كتب سعيد الشروط وأكد غاية التأكيد فنقرأ الكتاب عليك فقال المستعين لا عليك لا عليك فما انقوم بأعلم الله منك وقد أكدت على نفسك قبلهم فكان ما قد علمت - فما رد عليه محمد شيئاً.

ولما بايع المستعين للمعتز ببغداد أخذ منه البردة والقضيب والخاتم ووجه ذلك إلى المعتز وأشخص المستعين إلى واسط. ويعجبني هنا ما قاله أحد شعراء العصر:

خلع الخليفة أحمد بن محمد وسيقتل التالي له أو يخلع
ويزول ملك بنى أبيه فلا يرى أحد بملك منهم يستمتع
إيها بنى العباس إن سبيلكم في قتل أعبدكم طريق مهيع
رغمتم دنياكم فتمزقت بكم الحياة تمزقاً لا يرقع

الأحوال الخارجية:

كان الحال في الخارج أشد من ذلك وأنكى فإن الاضطراب الحادث في داخلية الدولة كان سبباً في تقاعد أولى الأمر عن حماية الثغور والوقوف في وجه الروم الذين كانوا ينتظرون مثل هذه الفرصة وقد صادف أن قائدتين عظيمين من قواد الثغور قتلا في حرب مع الروم أول عهد المستعين وهما عمر بن عبد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرمني وكانا نابين من أنياب المسلمين شديداً بأسهما عظيماً غناؤهما في الروم فأما أولهما فقد غزا ملطية فقابله ملك الروم في جمع عظيم فأحاطوا به فقتل وقتل معه ألفا رجل وجراهم قتله على قصد الثغور الجزرية فقصدوها وكلبوا عليها وعلى حرب المسلمين فبلغ ذلك على بن يحيى وهو قافل من أرمينية إلى ميفارقين فنفر إليهم في جماعة قليلة فقتل نحو (٤٠٠ رجل).

لما بلغ ذلك أهل بغداد شق على عامتهم وعظم مقتل الرجلين في صدورهم مع ما لحقهم من استفظاعهم من الأتراك قتل المتوكل واستيلاؤهم على أمور المسلمين وقتلهم من أرادوا من الخلفاء واستخلاصهم من أحبوا استخلافه من غير رجوع منهم إلى ديانة ولا نظر

لأموار المسلمين فثاروا وربما كانوا ينجحون فيما إليه قصدوا من ثورتهم هذه لو وجدوا قائلاً يدبر أمرهم ويبيدهم عن الفوضى ولكنهم لم يظفروا به .

اجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنفير وانضمت إليهم الأبناء الشاكرية وفتحوا أبواب السجون وأخرجوا من فيها ثم أخرج أهل اليسار من أهل بغداد وسامرا أموالاً كثيرة من أموالهم فقوموا من خف للنهوض إلى الثغور لحرب الروم وأقبلت إليهم العامة من نواحي الجبل وفارس وغيرهما لهذا القصد كل ذلك والخليفة لاه بما هوفيه عن ثغور المسلمين فلم يوجه لها عسكرياً ولم تجد حركة العامة شيئاً .

المعتز

هو أبو عبد الله المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد اسمها قبيحة ولد (سنة ٢٣١) وكان أبوه المتوكل جعله ولي عهده بعد المتنصر فلم تتم له الولاية لأن المتنصر أرغمه على أن يخلع نفسه ولما ولي المستعين بعد المتنصر حبسه هو وأخاه المؤيد حتى كانت الفتنة بين قواد المستعين فأخرج المعتز وبويع وتم له الأمر بعد خلع المستعين في رابع محرم (سنة ٢٥٢) (٢٥ يناير سنة ٨٦٦) ولم يزل خليفة إلى أن خلع لثلاث بقين من رجب (سنة ٢٥٥) (١١ يولية سنة ٨٦٩) فكانت مدة خلافته بعد خلع المستعين ثلاث سنوات وستة أشهر و٢٣ يوماً.

وزراء المعتز

لم يكن للوزارة في هذا العهد كبير شأن لا انحطاط أمر الخلافة نفسها وقد كان الوزراء كتاب أموال فمن أمكنه أن يقوم بحاجة كبار الأتراك ومقدميهم بقى في منصبه وإلا عزل وفعلت به الأفاعيل.

أول وزراء المعتز أبو الفضل جعفر بن محمود الإسكافي. لم يكن له علم ولا أدب ولكنه كان يستميل القلوب بالمواهب والعطايا وكانت وزارته على غير رغبة المعتز لأنه كان يكرهه وكان الأتراك فيه فريقين فثارت بسبب ذلك فتنة فعزل من أجل ذلك.

وتولى الوزارة بعده عيسى بن فرخان شاه ولم يمكث إلا قليلاً حتى عزل بسبب فتنة كالاولى فولى بعده أحمد بن إسرائيل الأنباري وهو كاتب حاذق ذكي وكان المعتز يميل إليه لأنه كان يتولى له أموره قبل أن يلى الخلافة فمكث وزيراً إلى (سنة ٢٥٥) ومما يدل على قدر ما صار إليه سلطان الخليفة في مبلغ الفساد في أحوال الدولة، الكيفية التي عزل بها أحمد ابن إسرائيل عن الوزارة هو والكتاب الذين معه.

دخل صالح بن وصيف مقدم الأتراك على المعتز وقال له: يا أمير المؤمنين ليس للأتراك

عطاء ولا فى بيت المال مال وقد ذهب ابن إسرائيل وأصحابه بأموال الدنيا فقال له أحمد بن إسرائيل: يا عاصى يا ابن العاصى ثم لم يزالا يتراجعان الكلام بحضرة الخليفة حتى سقط صالح مغشياً عليه من شدة الغيظ والحر فرش على وجهه الماء وبلغ ذلك أصحابه وهم على الباب فصاحوا صيحة واحدة واختلطوا سيوفهم ودخلوا على المعتز فلما رأى ذلك المعتز دخل وتركهم وأخذ صالح بن وصيف أحمد بن إسرائيل الوزير والحسن بن مخلد كاتب قبيصة أم المعتز وأبا نوح عيسى بن إبراهيم فقيدهم وطالبهم بالمال فقال المعتز لصالح قبل أن يحملهم: هب لى أحمد فإنه كاتبى وقد ربانى فلم يفعل ذلك صالح وبعثت إليه أم المعتز فى ابن إسرائيل تقول له: إما حملته إلى المعتز وإما ركبت إليك فيه فلم يفد هذا ولا ذاك شيئاً. وهذا دليل على انحطاط عظيم فى أمر الخلافة وزاد صالح الأمر شتعة فبعث إلى جعفر بن محمود الإسكافى الذى كره المعتز أن يعمل له وولاه الوزارة رغم أنه.

وإسكاف التى ينتمى إليها جعفر بن محمود قرية من نواحي النهروان بين بغداد وواسط من الجانب الشرقى وهى إسكاف العليا وهناك إسكاف السفلى بالنهران أيضاً.

العلويون فى عهد المعتز:

فى عهد المعتز مات علىّ الهادى بن محمد الجواد بن علىّ الرضا وهو الإمام العاشر من أئمة الشيعة الإمامية فتولى الشيعة بعده ابنه الحسن العسكرى وهو الحادى عشر من أئمتهم وإنما لقب بالعسكرى لإقامته بسامرا التى كانت تدعى إذ ذاك بالعسكر.

أما الزيدية فكانوا قد وجدت لهم دولة ببلاد طبرستان على يد الحسن بن زيد كما تقدم وقد اتهم جماعة من الطالبين فى بغداد والكوفة بالدعوة للحسن بن زيد ووجدت مع بعضهم كتب من الحسن فأمر المعتز بحملهم إليه بسامرا فحملوا إليه ولم يعرض المعتز لهم بمكره وإنما توثق منهم.

حال الجيش والأتراك:

استخلف المعتز وأحوال الجند والأتراك على شر ما يكون فهم أصحاب السلطان والنفوذ وهم فيما بينهم مختلفون لأنه لا يد فوق توقف كلاً منهم عند حده ولا حيلة للخليفة إلا مراعاة جانبهم حيناً وإعمال الحيلة والدسائس حيناً وهكذا يفعل كل من سلب سلطانه ولا قدرة على استرداده.

فى أول خلافة المعتز كتب بإسقاط اسم وصيف وبغا وهما أكبر قواد الأتراك لما كان من

مساعدتهما المستعين وكان هذا الكتاب مرسلًا إلى محمد بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد فبلغ ذلك وصيفاً وبغا فجاء إلى محمد وقال: بلغنا أيها الأمير ما عزم عليه القوم من قتلنا والقوم قد غدروا وخالفوا ما فارقونا عليه والله لو أرادوا أن يقتلونا ما قدروا فحلف لهم محمد بالله أنه لم يعلم بشئ من ذلك فذهب الرجلان وتحزرا وتكلم لهما عند المعتز من أرضاه عنهما ثم اجتمع الأتراك عند المعتز وسأله الأمر بإحضارهما وقالوا هما كبيرانا ورئيسانا فكتب إليهما بالرضا عنهما فذهبا من بغداد إلى سامرا فذهب لزيارتهما في منزلهما وزير المعتز أحمد بن إسرائيل وردهما المعتز إلى مراتبهم رغم أنه بقاء على إلحاح الأتراك وردت إليهما ضياعهما.

كان من عناصر الجيش المهمة المغاربة وهم ممن اصطنع المعتصم كما اصطنع الأتراك. رأى مغاربة ما عليه الأتراك من النفوذ والعلو فساءهم ذلك فاجتمع بعضهم إلى بعض مع محمد بن راشد ونصر بن سعيد فيهم وجاؤوا إلى الأتراك وهم بالجوسق مريداً سامرا فغلبوهم عليه وأخرجوهم منه وقالوا لهم في كل يوم تقتلون خليفة وتخلفون آخر وتقتلون وزيراً وكانوا قد وثبوا على عيسى بن فرخان شاه الذي كان وزيراً للمعتز قبل أحمد بن إسرائيل فتناولوه بالضرب وأخذوا دوابه.

ولما أخرجت المغاربة الأتراك من الجوسق وغلبوهم على بيت المال أخذوا خمسين دابة مما كان الأتراك يركبونها فاجتمع الأتراك ولموا شعثم فتلاقوا هم والمغاربة وكان يعين المغاربة لغواء والشاكرية فضعفت الأتراك وانقادوا للمغاربة فأصلح جعفر بن عبد الواحد بين لفريقين على ألا يحدثوا شيئاً ويكون في كل موضع فيه رجل من قبل أحد الفريقين يكون به آخر من الفريق الآخر فمكثوا على ذلك مدة ثم احتال الأتراك على محمد بن راشد ونصر بن سعيد اللذين اجتمع عليهما المغاربة حتى ظفروا بهما فقتلوهما والذي تولى ذلك -يكباك أحد كبار قواد الأتراك ولم يفعل المعتز في ذلك شيئاً وعاد النفوذ إلى الأتراك.

وفي (سنة ٢٥٣) شغب الأتراك والفراغنة والأشروسنة وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر فخرج إليهم بغا ووصيف وسيم الشراي فكلّمهم وصيف وقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: أرزاقنا فقال: خذوا تراباً وهل عندنا مال وقال لهم بغا: نذهب فنستأمر أمير المؤمنين ومضى هو وسيم وبقى وصيف في أيديهم فوثب عليه بعضهم فضربه بالسيف ضربتين ووجاه آخر سكين ثم أجهزوا عليه ونصبوا رأسه على محرك تنور.

ولما علم بذلك المعتز لم يكن له من العمل إلا أن جعل ما كان إلى وصيف من الأمور لى بغا الشراي. خاف بغا من أن يكون له من هؤلاء يوم كيوم وصيف فصار يحض المعتز

على المسير إلى بغداد والمعتز يأبى عليه ذلك لخوفه أن يجرى عليه ما جرى على سلفه. وكان بايكباك كبير الأتراك ومقدمهم بعد بغا منحرفاً عن بغا وكانا متهاجرين وكان المعتز مع بايكباك يريد التخلص من بغا فجمع بايكباك جموعه وساعده المعتز حتى تمكن من بغا فقتله ونصب رأسه بسامرا ثم ببغداد وثبت المغاربة على جثته فأحرقوها بالنار وتبع عبيد الله بن طاهر بنيه ببغداد وكانوا صاروا إليها هرباً فحبس من ولده وأصحابه نحو (٢٥ شخصاً) وصارت الكلمة العليا في الأتراك وفي الدولة لصالح بن وصيف وبايكباك.

كانت بغداد بعيدة عن الاضطرابات لأمرين: الأول: بعد هؤلاء الغلف القلوب عنها. والثاني: وجود محمد بن عبد الله بن طاهر بها وهو رجل ذوعزم وأيد زيادة على ماله في نفس القوم من الهيبة ومع ذلك كله فقد مسها طائف من شيطان الاضطراب في سنة (٢٥٢) وذلك أن المعتز كتب إلى محمد بن طاهر يأمره أن يبيع غلال بعض الضياع التي منها أرزاق جند بغداد وكتب إلى والي البريد ببغداد يأمره أن يقرأ كتابه على من بها من القواد ففعل ذلك دون أن يعلم الأمير ابن طاهر، فلما قرئ الكتاب على القواد جاؤوا إلى ابن طاهر فخبروه الخبر فأحضر والي البريد وقال له: ما حملك على هذا بغير علمي وتهده على ذلك ثم اجتمعت الجنود البغدادية إلى باب ابن طاهر تطلب أرزاقها فأخبرهم أن كتاب الخليفة ورد عليه جواب كتاب له كان كتبه بمسألة أرزاق بغداد إن كنت فرضت الفروض لنفسك فأعطهم أرزاقهم وإن كنت فرضت لنا فلا حاجة لنا فيهم - أعطاهم ابن طاهر - سكتهم به وقتاً ثم اجتمعوا في (١١ رمضان سنة ٢٥٢) ومعهم الأعلام والطبول وضربوا المضارب والحيم على باب حرب والشماسية وغيرهما وبنوا بيوتاً من بوارى القصب وهكذا استعدوا للشغب على ابن طاهر كما يشغب أتراك سامرا على المعتز فجمع ابن طاهر الجند القادمين معه من خراسان وأعطاهم شهرين وأعطى جند بغداد القداماء الفارس منهم دينارين والراجل ديناراً وشحن داره بالرجال.

اجتمع أهل الشغب وعليهم رجل يقال له عبدان بن الموفق وهو رجل قد اعتاد هذه الثورات وهو الذي كان يحض أهل الشغب على الطلب بأرزاقهم وفاتهم وضمن لهم أن يكون رأساً يدبرهم وأن يعينهم بماله حتى ينالوا ما يطلبون. عزموا بعد اجتماعهم أن يحضروا إلى الجامع فيمنعوا الخطيب من الدعاء للمعتز فذهبوا إلى الإمام وحظروا عبه ذلك فتعلل بالمرض ولم يذهب إلى الجامع.

وجه إليهم ابن طاهر قواده في جماعة من الفرسان فكانت بين الفريقين حروب ووقته غلب فيها المشاغبون قواد ابن طاهر ثم فسد نظام جماعة المشاغبين ووشى بعضهم بساثره

قبض على رؤوسهم وعوقبوا أشد العقوبات وصلب رئيسهم عبدان بن الموفق وبذلك انتهى هذا الاضطراب وعادت أحوال بغداد إلى ما كانت من الأمن.

وفي (١٤ ذى القعدة سنة ٢٥٣) توفي الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد واستخلف على إمارته أخاه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وهذه نسخة وصيته:

«أما بعد فقد استخلفت عبيد الله بن عبد الله مولى أمير المؤمنين أخي الموثوق باقتفائه جرى وأخذ بهسد ما أنا بسبيله من سلطان أمير المؤمنين إلى أن يأتيه من أمره ما يعمل بحسبه فاعلم ذلك واتم فيما تتولاه بما يرد به كتب عبيد الله وأمره إن شاء الله وكتب يوم الخميس ثلاث عشرة خلعت من ذى القعدة (سنة ٢٥٣) وقد أقره المعتز على هذه الولاية وعاش عبيد الله إلى (سنة ٣٠٠) وهي سنة وفاته».

خاتمة المستعين سلف المعتز:

قدمنا أن المعتز كتب للمستعين شروطاً عند خلعها منها تأمينه على حياته وقد أكدوا في هذا الكتاب تأكيداً شديداً وارتضى أن يقيم بالبصرة فقبل له إن البصرة وية فكيف اخترت أن تنزلها فقال المستعين: هي أوبأ أوترك الخلافة؟ فأشخص المستعين مع محمد بن مظفر بن سبل وأبن أبي حفصة إلى واسط لا إلى البصرة في نحو (٤٠٠) من الفرسان وقبل أن تسهي السنة بدا للمعتز فعزم على قتل المستعين ولم يبال بكتاب الأمان فأرسل إلى ابن طاهر يخبره أن يكتب إلى عامل البصرة أن يسلم المستعين لمن نذبه المعتز لاستلامه وهو أحمد بن حولون التركي فأخرج المستعين من واسط لست بقيت من شهر رمضان فوافى به القاطول ثلاث خلون من شوال فتسلم منه سعيد بن صالح وكان في ذلك ختام حياة المستعين وكيفية قتله مبهمة مختلف فيها كثيراً وأتى المعتز فيما قيل برأسه وهو يلعب الشطرنج فقبل: هذا رأس المخلوع فقال: ضعه هنالك ثم فرغ من لعبه ودعا به فنظر إليه ثم أمر بدفنه وأجاز سعيد بن صالح بخمسين ألف درهم وولى معونة البصرة.

وكما لم يأبه المعتز بكتابة أمان المستعين وقتله كذلك لم يأبه لعهد أخيه إبراهيم المؤيد ولا سبقة أخيه أبي أحمد بن المتوكل وهو الذي قاد الجيش إلى بغداد وحصرها حتى أسقط المستعين من عرش الخلافة فلما خلع الأول من ولاية العهد وجبه ثم أماته وحبس الثاني وضيق عليه بسبب ذلك أن عامل أرمينية العلاء بن أحمد بعث إلى إبراهيم المؤيد بخمسة آلاف دينار ليصلح به أمره فبعث ابن فرخان شاه الوزير إليه فأخذها فأغرى المؤيد الأتراك بآبن فرخان شاه وخالفهم بخربة وكانت فتنة فبعث المعتز إلى أخويه المؤيد وأبي أحمد فحبسهما في الجوسق وقيد المؤيد بحيره في حجرة ضيقة ثم خلعها عن ولاية العهد يوم الجمعة (٧ رجب ٢٥٢).

وبعد هذا الحبس والتضييق والخلع بلغ المعتز أن الأتراك يريدون إخراجه من سجنه فأرسل إلى موسى بن بغا فسأله فأنكر وقال: إنما أرادوا أن يخرجوا أبا أحمد بن المتوكل لأنسهم به يوم كان في الحرب التي كانت وأما المؤيد فلا. فأغرى ذلك المعتز بأخيه فعمل على موته بدون أثر ظاهر وحول أبو أحمد على الحجير التي كان فيها المؤيد ثم نفاه (سنة ٢٥٤) إلى واسط ثم على البصرة ثم رد إلى بغداد وأنزل إلى الجانب الشرقي في قصر دينر بن عبد الله.

خلع المعتز:

لما أخذ صالح بن وصيف الكتاب على الشكل الذي أوضحناه قبلاً في تاريخ الوزراء له يجد عندهم من المال ما يسد مطامعه ومطامع الجنود الذين معه فذهبت الجنود إلى المعتز وقالوا له: أعطنا أرزاقنا حتى نقتل لك صالح بن وصيف فأرسل المعتز إلى أمه ذات الثروة الطائلة يسألها أن تعطيه مالا ليعطيهم فأبت أن تعطيه شيئاً وأنكرت أن يكون عندها شيء ولا وجد الأتراك أن المعتز وأمه قد امتنعا أن يسمحا لهم بشيء وبيت المال خال اتحدت كلمة الأتراك والفراغة والمغاربة على خلع المعتز فساروا إليه لثلاث بقين من رجب فلم يرعه إلا صياح القوم وإذا صالح بن وصيف وبايكباك ومحمد بن بغا قد دخلوا عليه في السلاح فجلسوا على باب المنزل الذي ينزله المعتز. ثم بعثوا إليه اخرج إلينا فبعث إليهم إني أخذت الدواء أمس وقد أجفاني اثنتي عشرة مرة ولا أقدر على الكلام من الضعف فلما كان أمر لا بد منه فليدخل إليّ بعضكم فليعلمني فدخل إليه القوم فخرجوا برجله إلى باب الحجرة وتناولوه كما قيل ضرباً بالدبابيس فخرج وقميصه مخرق في مواضع وآثار الدم على منكبه فأقاموه في الشمس في الدار في وقت شديد الحر فصار يرقع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذي قد أقيم فيه ثم بعثوا إلى قاضى القضاة فحضر وأمر المعتز أن يمضى على كتاب خلع كتب له فأمضى وشهد عليه الحاضرون. ويقال إنه بعد الخلع دفع على من يعذبه ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة من ماء البحر فمنعوه حتى مات وهكذا انتهت حياة هذا الخليفة البائس الذي سعى كثيراً للحصول على هذه الخلافة وركب في سبيل الخلاص ممن توهمهم مزاحمين له ما لا يجوز من خليفة ولا من سوقة فقتل المستعدي وخلع أخاه. ثم قتله ونفى أخاه الثاني كل ذلك لتهدأ له الخلافة فلم ينل ما أراد بسبب القدر المستحكم في الدولة وقال بعض شعراء العصر في ذلك:

عين لا تبغلى بسفح الدموع واندى خير فاجع مفجوع
خاناه الناصح الشفيق ونالت له أكف الردى بحتف سريع

بكر الترك ناقلين عليه خلعتة أفدية من مخلوع
 قتلوه ظلماً وجوراً فألفو ه كريم الأخلاق غير جزوع
 كان يغشى بحسنه بهجة البدر فتلقاء مظهراً للخضوع
 وترى الشمس تستكين فلا تشد ررق إما رأت وقت الطلوع
 لم يهابوا جيشاً ولا رهبوا السد سيف فلهفى على القنيل الخليع
 أصبح الترك مالكي الأمر والعاد لم ما بين سامع ومطيع
 وترى الله فيهم مالك الأمه ر سيجزبهم بقتل ذريع
 وقال آخر فى قصيدة:

أصبحت مقلتي تسح الدموع إذ رأت سيد الأنام خليعاً
 لهف نفسي عليه ما كان أملاً ه وأسراه تابعاً لتبوعاً
 ألزموه ذنباً على غير جرم فشوى فيهم قتيلاً صريعاً
 وينوعمه وعم أبيه أظهروا ذلة وأبدوا خضوعاً
 ما بهذا يصح ملك ولا يغد زى عدو ولا يكون جميعاً

وكان المعتر أول خليفة أظهر الركوب بحلية الذهب وكان من سلف قبله من خلفاء بنى
 نعباس وكذلك جماعة من بنى أمية يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة والمناطق واتخاذ
 نسيوف والسروج واللجم فلما ركب المعتر بحلية الذهب اتبعه الناس فى فعل ذلك.

المهتدي

هو محمد المهتدي بالله بن هارون الواثق بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية بقدر لها قرب، ولد (سنة ٢١٨) وبويع له بالخلافة بعد أن خلع المعتز نفسه لثلاث بقين من رجب (سنة ٢٥٥) (١١ يولية سنة ٨٦٩) ولم يزل خليفة إلى أن خلع في (١٤ رجب سنة ٢٥٦) (١٧ يولية سنة ٨٧٠) فكانت مدته ١١ شهراً وأياماً.

كيف انتخب:

لما عزم الأتراك على خلع المعتز أرسلوا إلى بغداد فأحضروا محمداً هذا وقد كان المعتز نفاه إليها واعتقله فيها فأتى به في يوم وليلة إلى سامرا فتلقاه الموالى في الطريق ودخل إلى الجوسق فعرضوا عليه الخلافة فأبى أن يقبلها حتى يرى المعتز ويسمع كلامه فأتى بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل فلما رآه محمد وثب إليه فعانقه وجلسا جميعاً على السرير فقال له محمد: يا أخى ما هذا الأمر؟ قال المعتز: أمر لا أطيقه ولا أقوم به ولا أصلح له؛ فأراد محمد أن يتوسط أمره ويصلح الحال بينه وبين الأتراك فقال المعتز: لا حاجة لى فيها ولا يرضوا بى لها فقال محمد: فأنا فى حل من بيعتك قال: أنت فى حل فلما جعله فى حل من بيعته حول وجهه عنه فأقيم عن حضرته ورده إلى محبسه وكان من أمره ما قدمنا.

وزراء المهتدي:

أبقى المهتدي محمود بن جعفر الإسكافي على وزارته مدة قليلة ثم عزله واستوزر من بعده سليمان بن وهب بن سعيد. وهومن بيت قديم فى الكتابة منذ عهد معاوية بن أبى سفيان وكان جده سعيد فى خدمة آل برمك وكان أبوه وهب فى خدمة جعفر بن يحيى البرمكى ثم تحول إلى ذى الرياستين الفضل بن سهل وهو القائل فيه عجبت لمن معه وهب

كيف تهمه نفسه؟ ثم استكتبه الحسن بن سهل بعده أما سليمان فكتب للمأمون وعمره (١٤ سنة) ثم لإيتاخ ثم لأشناس وولى الوزارة للمهتدى وللمعتمد وكان أخوه الحسن بن وهب يكتب لمحمد بن عبد الملك بن الزيات ومن ظريف المدح ما قاله أبوتمام فى سليمان بن وهب:

كل شعب كتم به آل وهب فهو شعبى وشعب كل أديب
إن قلبى لكم لكالكبد الحر ي وقلبي لغيركم كالقلوب

وقال فيه البحرى:

كأن آراءه والحزم يتبعها تربه كل حفى وهو إعلان
ما غاب عن عينه فالقلب يكلؤه وإن تم عينه فالقلب يقظان

وكان سليمان أحد كتاب الدنيا ورؤسائها فضلاً وأدباً وكتابة فى الدرج والدستور وأحد عقلاء العالم وذوى رأى منهم واستمر وزيراً للمهتدى إلى أن خلع.

حدث عبد الله الباقطانى كان يتقلد ديوان المشرق قال: دخلت مع أبى العباس ابن ثوبة إلى المهتدى وكان سليمان بن وهب وزيره وكان يدخل إليه الوزير وأصحاب الدواوين والعمال والكتّاب فيعملون بحضرته فيوقع إليهم فى الأعمال فأمر سليمان أن يكتب عنه عشرة كتب مختلفة إلى جماعة من العلماء فأخذ سليمان بيد أبى العباس بن ثوبة ثم قال له: أنت اليوم أحد ذهناً منى فهل نتعاون فدخلا بيتاً ودخلت معهما وأخذ سليمان خمسة أنصاف وأبو العباس خمسة أنصاف آخر فكتبنا الكتب التى أمر بها سليمان ما أحتاج أحدهما إلى نسخة وقد أكمل كل واحد منهما ما كتب به صاحبه فاستحسنه وقرظه ثم وضع سليمان الكتب بين يدى المهتدى فقال له وقد قرأها: أحسنت يا سليمان ونعم الرجل أنت لولا المعجل والمؤجل وكان سليمان إذا ولى عاملاً أخذ منه مالاً معجلاً وأجل له مالاً إلى أن يتسلم عمله فقال له: يا أمير المؤمنين هذا قول لا يخلو من أن يكون حقاً أو باطلاً فإن كان باطلاً فليس مثلك من يقوله وإن كان حقاً وقد علمت أن الأصول محفوظة فما يضر من يساهمنى من عمالى على بعض ما يصل إليهم من بر من غير تحيف للرعية ولا نقص للأموال. فقال: إذا كان هكذا فلا بأس ثم قال له، اكتب إلى فلان العامل يقبض ضيعة فلان المصروف المعتقل فى يده بياقى ما عليه من المصادرة فقال أبو العباس بن ثوبة: كلنا يا أمير المؤمنين خدمك وأولياؤك وكلنا حاطب فى حبلك وساع فيما أرضاك وأيد ملكك أفنمضى ما تأمر به على ما خيلت أم نقول بالحق؟ قال: بل قل الحق يا أحمد فقال: يا أمير المؤمنين الملك يقين والمصادرة شك أفترى أن أزيل اليقين بالشك قال: لا قال: فقد شهدت الرجل بالملك وصادرته عن شك فيما بينك وبينه وهل خائنك أم لا فتجعل المصادرة صلحاً

فإذا قبضت ضيعته بها فقد أزلت اليقين بالشك فقال له: صدقت ولكن كيف الوصول إلى المال؟ فقال له: أنت لا بد لك من عمال على أعمالك وكلهم يرتزق ويرتفق فيجوز رفقه ورزقه إلى منزله فاجعله أحد عمالك ليصرف هذين الوجهين إلى ما عليه ويسعفه معاملوه فيتخلص بنفسه وضييعته ويعود إليه مالك فأمر سليمان بن وهب أن يفعل ذلك.

وقد سقنا هذه الحكاية لنبين ما كان عليه العمال إذ ذاك من تحليل الارتفاق وإقامة البرهان بين يدي الخليفة على جوازه وليس ارتفاق العامل إلا رشوة وما هذا المعجل والمؤجل الذي لا حظ المهتدى على وزيره أليس هو رشوة ومع ذلك نراه احتج وأقنع خليفته بأنه لا ضرر فيه وكذلك قول ابن ثوبة فهو حق شيب بباطل وباطل أشبه الحق.

صفات المهتدى:

كان المهتدى من صالح بنى العباس يكره الظلم ويجب رفعه وبني قبة لها أربعة أبواب وسماها قبة المظالم وجلس فيها للعام والخاص للمظالم وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرم الشراب ونهى عن القيان وأظهر العدل وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ويؤم بهم وكان فيه ديانة وتكشف حتى أن الجند تأسوا به إلا أن الدولة كانت وصلت إلى الدرجة التي لا يصلحها فيها مثل المهتدى في صلاحه وكثرة عبادته في بدء خلافته كان موسى بن بغا أميراً على الرى وقائداً للجنود التي تتولى حرب الحسن بن زيد الطالبي فلما بلغه ما فعل صالح بن وصيف بالمعتز وبيعة المهتدى ترك ذلك الثغر وأقبل من سامرا فكتب الخليفة إليه كتباً كثيرة يطلب إليه بها البقاء بموضعه فلم يفعل ثم أرسل إليه في ذلك رسلاً من بني هاشم فلم يطع وكان صالح بن وصيف يتخوف عودة موسى فكان يعظم انصرافه عن الثغر وينسبه إلى المعصية والخلاف. قدم موسى سامرا ختقاً على صالح فاختنفى منه ودخلت جنود موسى على المهتدى وهو جالس للمظالم فأقاموه من مجلسه وحملوه إلى معسكرهم فقال لموسى: ما تريد ويحك اتق الله وخفه فإنك تركب أمراً عظيماً فرد عليه موسى خيراً ثم أخذوا عليه العهود والمواثيق ألا يمالي صالحاً عليهم ففعل فجددوا له البيعة في (١٢ محرم سنة ٢٥٦) ولثمان بقين من صفر قتل صالح بن وصيف بعد خطوب طويلة وكان أصحاب موسى قد اتهموا المهتدى بإخفائه فأرادوا خلعه فانتشر الخبر في العامة فكتبوا رقاعاً ألقوها في المسجد الجامع وفي الطرقات ونص هذه الرقاع (بسم الله الرحمن الرحيم يا معشر المسلمين ادعوا الله لخليفتمكم العدل الرضا المضاوى لعمر بن الخطاب أن ينصره على عدوه ويكفيه مؤنة ظالمه ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه فإن الموالي قد أخذوه

بأن يخلع نفسه وهو يعذب منذ أيام والمدير لذلك فلان وفلان رحم الله من أخلص النية ودعا وصلى على محمد ﷺ). فلما بلغ ذلك الأتراك خافوا ثورة العامة فأرسلوا إلى المهتدى يخبرونه أنهم يبذلون دماءهم دونه وشكوا مع ذلك سوء حالهم وتأخر أرزاقهم وما صار من الإقطاعات إلى قوادهم التى قد أجمعت بالضياح والخراج وما صار لكبرائهم من المعاون والزيادات من الرسوم القديمة مع أرزاق النساء الدخلاء الذين قد استغرقوا كثيراً من أموال الخراج. وهذه الشكوى كانت فى الحقيقة بدء انقلاب جديد لو وجدت خليفة قوياً يتفجع بها لأنها عبارة عن تغير الجند على قوادهم الذين أقطعوا ضياعاً كثيراً لم يلتفتوا إلى إصلاحها فخربت وأدى ذلك إلى نقصان الخراج حتى لم يكن عند الخليفة ما يسد به حاجة الجند.

كتب إليهم المهتدى يذكر سروره من طاعتهم وأخبرهم أنه يعز عليه ما ذكروا من حاجتهم ولكن ليس لديه ما يرفع عنهم هذه الخلة وأنه سينظر فى أمر الإقطاعات ويسير فيها على ما يحبون. فأعادوا عليه الكتاب مبينين ما يطلبون هو:

- (١) أن ترد الأمور إلى أمير المؤمنين فى الخاص والعام ولا يعترض عليه معترض.
- (٢) أن ترد رسومهم إلى ما كان عليه أيام المستعين وهو أن يكونه على كل تسعة عريف منهم وعلى كل خمسين خليفة وعلى كل مائة قائد.
- (٣) ألا يدخل مولى فى قبالة ولا غيرها.

- (٤) أن يوضع لهم العطاء كل شهرين على ما لم يزل.
- (٥) أن تبطل الإقطاعات وأن يكون أمير المؤمنين يزيد من شاء ويرفع من شاء.

وذكروا أنهم سيصيرون إلى باب أمير المؤمنين حتى تقضى حوائجهم وأنه إن بلغهم أن أحداً اعترض على أمير المؤمنين فى شئ من الأمور أخذوا رأسه وإن سقط من رأس أمير المؤمنين شعرة قتلوا به موسى بن بغا وبايكباك ومفلحاً وياجور بكالبا وغيرهم.

وهذه المطالب كلها فى مصلحة الخلافة لذلك أجابهم إليها المهتدى موقعاً بخطه إجابة إلى كل ماسألوا. فوصلهم كتابه وفيه اعتذار عن رؤسائهم ومع كتابه أرسل هؤلاء الرؤساء يعتذرون إليهم.

فأعادوا الكتاب يقولون لا نرضى حتى يخرج الخليفة خمسة توقيعات بطلباتهم ثم يصير أمير المؤمنين الجيش إلى أحد إخوته أو غيرهم ليسفر بينهم وبينه بأموالهم ولا يكون رجلاً من الموالى وأن يحاسب الرؤساء على ما عندهم من الأموال وكتبوا على القواد بمثل ما كتبوا به على المهتدى وأخبرهم أنه إن شاكته شوكة أو أخذ منه شعرة أخذوا رؤوسهم جميعاً.

فلما جاء كتابهم المهتدى كتب لهم بكل ما يريدونه ودفع لهم التوقيعات الخمسة التي طلبوها وكذلك كتب لهم موسى بن بغا فلما وصلتهم الكتب والتوقيعات كان بينهم اختلاف وهرج كثير فطائفة يقولون نريد أن يعز الله أمير المؤمنين ويوفر علينا أرزاقنا فإنه قد هلكتنا بتأخيرها عنا وطائفة يقولون لا نرضى حتى يولى علينا أمير المؤمنين أحد إخوته فيكون واحد بالكرخ وآخر بسامرا ولا نريد أحد منا يكون علينا رأساً ولم يكتبوا للمهتدى جواباً شافياً. فأرسل إليهم المهتدى يسألهم عن سبب اجتماعهم بعد أن أجيبت طلباتهم ففترقوا ثم عادوا إلى الاجتماع.

كانت كل هذه الأحوال فرصاً لخلاص المهتدى من سيادة القواد الأتراك فلم يفعل بل كان ظاهره مع الرؤساء وباطنه مع الجنود ويظهر أنه أراد استعمال الحيلة في الخلاص منهم فأنفذ جنداً لمحاربة خارجي وفيه موسى بن بغا وبايكباك ومفلح فكتب المهتدى إلى بايكباك يأمره أن يضم العسكر الذي مع موسى إلى نفسه وأن يكون هو أمير الجيش وأن يقتل موسى ومفلحاً. فلما وصل الكتاب بايكباك ذهب إلى موسى وأراه إياه وقال له: إني لست أفرح بهذا وإنما هوتدير علينا جميعاً وإذا فعل بك اليوم شئ فعل بى غداً مثله فما ترى؟ قال: أرى أن تصير إلى سامرا وتظهر له أنك في طاعته فإنه يطمئن إليك ثم تدبر في قتله فقدر بايكباك فدخل على المهتدى فأظهر المهتدى الغضب من مخالفته حيث لم يقتل موسى ومفلحاً فاعتذر إليه بايكباك فاحتبسه المهتدى عنده وأخذ سلاحه ولما رأى الجند الذين معه غيبتهم عنهم جاشوا وأحاطوا بالجوسق فلما رأى المهتدى ذلك استشار صالح بن على بن يعقوب بن المنصور فأشار عليه أن يفعل ما فعله المنصور بأبى مسلم فأمر المهتدى بضرب عنق بايكباك فضرب عنقه والأتراك مطيفون بالجوسق بسلاحهم فلم يرعهم إلا رأس بايكباك بين أيديهم أمر المهتدى برميها. فلما رأوها اضطربوا واستعدوا للقتال فحاربتهم الفراغنة والمغاربة والأشروسنية وكثر بينهم القتل ثم انفصل الفريقان وذهب الأتراك فقووا أنفسهم وجاء منهم زهاء عشرة آلاف وخرج المهتدى وفي عنقه مصحف يدعو الناس إلى نصرته فلما التحم القوم مال الأتراك الذين مع المهتدى إلى إخوانهم وبقي في المغاربة والفراغنة ومن خف من العامة فحملت عليهم الأتراك حملة شديدة فمروا منهزمين معهم المهتدى والسيف في يده مشهور وهو يقول: يا معشر الناس انصروا خليفتم حتى صار إلى دار محمد بن يزيد وفيها أحمد بن جميل صاحب الشرطة فدخلها ووضع سلاحه فعلم الأتراك خبره فجاؤوا إليه وقبضوا عليه وحملوه إلى داره مهاناً وذلك في (٤) رجب سنة (٢٥٦) ثم خلعه لما أبى أن يخلع نفسه ثم مات لاثنى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة (٢٥٦).

المعتمد

هو أحمد المعتمد على الله بن المتوكل بن المعتصم وأمه أم ولد كوفيه اسمها فتيان ولد (سنة ٢٣١) وبويع له بالخلافة من غير عهد سابق يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب (سنة ٢٥٦) (١٩ يونية ٨٧٠) ولم يزل خليفة حتى توفي ليلة الإثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب (سنة ٢٧٩) (١٥ أكتوبر سنة ٨٩٢) فكانت مدته (٢٣ سنة وثلاثة أيام) وكان يعاصره في الأندلس محمد بن عبد الرحمن المتوفى (سنة ٢٧٣) ثم ابنه المنذر بن محمد (٢٧٣-٢٧٥) ثم عبد الله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠) وفي إفريقية وصقلية من الأغالبة محمد بن أحمد بن الأغلب المتوفى (سنة ٢٦١) ثم أخوه إبراهيم المتوفى (سنة ٢٨٩).

وفي اليمن من آل زياد يزيد إبراهيم بن محمد إبراهيم (٢٤٥-٢٨٩).

وفي اليمن من آل الحوالى بصنعاء محمد بن يعفر (٢٥٩-٢٧٩).

وفي خراسان من آل طاهر محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر (٢٤٨-٢٥٩) وهو آخر الأمراء الطاهرية بخراسان.

ويعاصره في طبرستان الحسن بن زيد (٢٥٠-٢٧٠) ثم أخوه محمد بن زيد (٢٧٠-٢٧٩).

ويعاصره في بلاد الروم بالقسطنطينية الملك بسيل الصقلی (٨٦٧-٨٨٦) ثم لاون السادس الملقب بالفيلسوف (٨٨٦-٩١١).

ويعاصره في فرنسا شارل الملقب بالأصلع (٨٤٠-٨٧٧) ثم لويز الثاني الملقب بالتتمام إلى (سنة ٨٧٩) ثم لويز الثالث إلى (سنة ٨٨٢) ثم كارلومان إلى (سنة ٨٨٤) ثم شارل الملقب بالغليظ إلى (سنة ٨٨٧) وكان أمبراطور ألمانيا أيضاً ثم أودون الذي توفي (سنة ٨٩٨).

الأحوال الداخلية،

كانت نتيجة طلبات الأتراك أن يتولى أمر الجيش أحد إخوة أمير المؤمنين وألا يرأسهم أحد منهم لما كان بينهم من الخلاف والمنافسة أن ولى المعتمد أخاه أبا أحمد طلحة بن المتوكل أمر الجيش والولايات فولاه فى صفر (سنة ٢٥٧) الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن ثم ولاه فى رمضان من هذه السنة بغداد والسواد وكور دجلة والبصرة والأهواز وفارس. فى ربيع الأول (سنة ٢٥٨) عقد له على ديار مضر وقنسرين والعواصم فصار السلطان الفعلى لأبى أحمد لا للخليفة وصارت كلمة أبى أحمد هى العليا على الأتراك وقوادهم فكان ذلك مما حسن الأحوال العامة بعض التحسين وإن كانت أحوال المعتمد نفسه ساءت لأنه لم يترك له شئ من التصرف حتى أنه احتاج فى بعض الأحيان إلى ثلثمائة دينار فلم يجدها فقال:

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شئ فى يديه
إليه تحمل الأموال طرا ويمنع بعض ما يجبى إليه

كان أبوأحمد الموفق بن المتوكل رجلاً صاحب عزيمة ثابتة ومحبة للغلب والسلطان وعلى يديه تمت الحوادث الجسام فى عهد المعتمد وسنقتها بعد أن نذكر إجمال الوزارة لعهد.

كان الذى يولى الوزراء هو أبوأحمد الموفق لأن المعتمد لم يكن له إلا الخطبة والسكة والاسم وما عدا ذلك فهو لأخيه.

كان أول الوزراء عبيد الله بن يحيى بن خاقان وقدمنا ذكره إذ كان وزيراً للمتوكل. ولما عرضت عليه الوزارة كرهها وتنصل منها ولكنهم أبوا إلا إياه فرضى بعد ذلك الإباء وكان عبيد الله خبيراً بأحوال الرعايا والأعمال ضابطاً للأموال ولم يزل وزيراً إلى (سنة ٢٦٣) حيث مات بسقوطه عن دابته فى الميدان وصلى عليه أبوأحمد بن المتوكل ومشى فى جنازته.

استوزر بعده الحسن بن مخلد وكان كاتباً لأبى أحمد الموفق فاجتمعت له وزارة المعتمد وكتابة الموفق. وأصله من دير قنى وكان أحد كتاب الدنيا قالوا: كان له دفتر صغير يعمل به فيه أصول أموال المملكة ومحمولاتها بتاريخها فلا ينام كل ليلة حتى يقرأه ويتحقق ما فيه بحيث لو سئل فى الغد عن أى شئ كان منه أجاب من خاطره بغير توقف ولا مراجعة دستور. ولم يمكث فى وزارة المعتمد كثيراً فإن مدته لا تزيد على (١٦ يوماً) من (١١ ذى القعدة سنة ٢٦٣ إلى ٢٧ منه) وذلك لقدم موسى بن بغا أحد كبار قواد الأتراك فإنه لم يكن على وفاق معه فهرب إلى بغداد عقب حضوره.

ولى الوزارة بعده سليمان بن وهب وهو الذى كان وزيراً للمهتدى وقد قدمنا صفته وبيته وولى عبد الله بن سليمان كتابة أبى أحمد الموفق إلى ما كان له قبل ذلك من كتابة موسى بن بغا.

وفى (سنة ٢٦٤) خرج سليمان بن وهب من بغداد إلى سامرا حيث يقيم الخليفة فلما صار بها غضب عليه المعتمد وحبه وقيده وانتهب داره ودارى ابنه وهب وإبراهيم وأعاد إلى الوزارة الحسن بن مخلد لثلاث بقين من ذى القعدة فلما علم بذلك الموفق شخص من بغداد ومعه عبد الله بن سليمان فلما قرب من سامرا تحول المعتمد إلى الجانب الغربى فمسكر به ونزل أبو أحمد ومن معه جزيرة المؤيد واختلف الرسل بينهما. ولما كان بعد أيام خلون من ذى الحجة صار المعتمد إلى حراقة فى دجلة وصار إليه أخوه أبو أحمد فى زلال فخلع المعتمد عليه وعلى من معه من القواد.

وفى الثامن من ذى الحجة عبر جند أبى أحمد على جند المتوكل على وفاق وأطلق سليمان بن وهب ورجع المعتمد إلى الجوسق وهرب الحسن بن مخلد وأحمد بن صالح بن شيرزاد وكتب فى قبض أموالهما وأموال أسبابهما.

ولم يدم رضا أبى أحمد طويلاً عن سليمان بن وهب فإنه غضب عليه (سنة ٢٦٥) وأمر بحبه وحبس ابنه عبد الله فحبسا وعدة من أسبابهم فى دار أبى أحمد وانتهدت دور عدة من أسبابه ووكل بحفظ دارى سليمان وابنه عبد الله وأمر بقبض ضياعهما وأموالهما وأموال أسبابهما وضياعهما خلا أحمد بن سليمان ثم صولح سليمان وابنه عبد الله على (٩٠٠٠٠٠ دينار) وصيرا فى موضع يصل إليهما من أحبا.

وقد مات سليمان بن وهب فى حبس أبى أحمد (سنة ٢٧٢).

ولى الوزارة بعده للمعتمد أبو الصقر إسماعيل بن بلبل وهو عربى ينتسب إلى شيان ولكن نسبه كان مغموراً ومن مساورة الظنون للمتهم أن ابن الرومى الشاعر مدح أبا الصقر بقصيدة نونية مطلعها:

أجنت لك الوصل أغصان وكثبان فيهن نوعان تفاح وorman

يقول فيها:

قالوا أبو الصقر من شيان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منه شيان

كم من أب قد علا بابن له شرفا كما برسول الله عدنان

فلما سمع أبو الصقر قوله قلتُ لهم كلا ظن أن ابن الرومي قد هجاه بذلك باطناً وأنه عرض بأنه دعى واشتبه على أبي الصقر الأمر فاستحكم ظنه فأعرض عنه وتوصل ابن الرومي إلى إفهامه معنى الشعر فلم يقبل في ذلك قول قائل له: يا سبحان الله فانظر إلى البيت الثاني وحسن معناه فإنه معنى مخترع ما مدح أحد بمثله قبلك فلم يصنع وجزم بأن ابن الرومي هجاه فكان ذلك داعياً إلى أن سل ابن الرومي عليه لسانه وهجاه فأفحش في هجائه ومما هجاه به قوله:

مهلاً أبا الصقر فكم طائر خر صريعاً بعد تخليق
زوجت نعمى لم تكن كفوها فصانها الله بتطبيق
لا قدست نعمى تسربلتها كم حجة فيها لزنديق

وكان أبو الصقر كريماً مطعماً متجماً وبلغ في الوزارة مبلغاً عظيماً وجمع له السيف والقلم فنظر في أمر العساكر أيضاً وسمى الوزير الشكور.

وفي (سنة ٢٧٨) قبض على أبي الصقر وأسبابه وانتهت منازلهم وخلع بعد ذلك على عبيد الله بن سليمان بن وهب وولى الوزارة وكان من كبار الوزراء مشايخ الكتاب وقد مر ذكر أبيه سليمان وبيته وبيت وهب.

ومن خدموا في كتابة الموفق أبو أحمد صاعد بن مخلد خلع عليه (سنة ٢٦٥) واستعمله الموفق في قواد الجيش مع الكتابة ومن أجل ذلك سمى ذا الوزارتين (سنة ٢٧٠) وقبض عليه الموفق (سنة ٢٧٢) وعلى ابنه أبي عيسى وأبي صالح وعلى أخيه عبدون.

وعلى الجملة فإن أحوال الوزارة كانت لذلك العهد مضطربة جداً وقد استوزر بعض من سمعنا من الوزراء أكثر من مرة.

العلويون:

في عهد المعتمد على الله توفي أبو محمد الحسن العسكري بن عليّ الهادي بن محمد الجواد بن عليّ الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن محمد زين العابدين بن الحسين بن عليّ وهو الحادي عشر من أئمة الشيعة الإمامية الاثنا عشرية والذين في عمود نسبه إلى عليّ بن أبي طالب تسعة أئمة والعاشر هو الحسن بن عليّ. وكانت وفاة الحسن العسكري (سنة ٢٦٠) بسامرا ودفن بها بجانب أبيه عليّ الهادي ولما توفي اختلفت الشيعة بعده اختلافاً كبيراً وجمهورهم على أن الإمام بعده ابنه محمد العسكري وهو الثاني

عشر من أئمتهم قالوا: إنه دخل سرداباً في دار أبيه بسامرا وأمه تنظر إليه فلم يخرج إليها وسيظهر فيملاً الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً ويسمونه المنتظر والقائم والمهدي والشيعة يتظرون خروجه من ذلك السرداب.

ويقول غيرهم: إن الحسن العسكري لم يعقب وإن سلسلة الأئمة انقطعت بوفاته وبعضهم يتولى أخاه جعفر بن عليّ.

لم يسكت الذين يريدون الانتفاع من التشيع وتأثر جمهور المسلمين به بل وجهوا وجوههم شطر فرع آخر من فروع جعفر الصادق فقد كان له سبعة من الأولاد منهم عبد الله الأفطح ومحمد وموسى وإسماعيل.

فقال قوم: إن الإمامة بعد جعفر لابنه عبد الله الأفطح لأنه أسن أولاد الصادق وزعم بعضهم أن جعفرأ نص على إمامته بعده ومع ذلك فإنه لم يعش بعد أبيه إلا سبعين يوماً ولم يعقب ولداً ذكراً.

وقال قوم: إن الإمامة من بعده لابنه محمد ورووا عنه أنه قال: إن صاحبكم اسمه اسم نبيكم.

وقال قوم منهم: الاثنا عشرية الذين ذكرناهم. إن الإمامة من بعده لابنه موسى ورووا عنه أنه قال: سابعكم قائمكم، واجتمع عليه جمهور الشيعة وساقوا الإمامة في أولاده كما يينا.

ومنهم من قال إن الإمام بعد جعفر ابنه إسماعيل نصاً عليه من أبيه جعفر ثم اختلفوا فمن قائل إنه عاش بعد أبيه ومن قائل إنه مات في حياة أبيه. وفائدة النص بقاء الإمامة في تولاده دون غيره وساقوا الإمامة من بعده إلى ابنه محمد ويقال لهؤلاء الشيعة الإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وهم إمامية يتفقون مع الإمامية الاثنا عشرية في المبدأ لعام للتشيع الإمامي: وهوانه لا بد للناس من إمام معصوم يبلغهم الشريعة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأن الشريعة لا تؤخذ بالرأى ويتفقون معهم على إمامة الستة من على بن أبي طالب إلى جعفر الصادق ومنه يبتدئ الاختلاف فالاثنا عشرية ذهبوا إلى فرع موسى الكاظم والإسماعيلية ذهبوا إلى فرع إسماعيل.

ولما كان الإمام هوحجة الله على خلقه وأنه لا بد من وجوده ليؤدي ما نيظ به من تبليغ لشريعة وأحكامها ورأوا أنه لم يقم أحد من ولد إسماعيل بالظهور للناس قالوا إن الإمام قد يكون مستوراً مكتوماً عن الناس خبره وحيث لا بد له من نائب يكون هوالحجة وهوالقائم بالدعوة والتبليغ عنه. وساقوا الإمامة إلى محمد بن إسماعيل ثم إلى أولاده من

بعده وظهرت الدعوة إلى هذا المذهب عقب وفاة الحسن العسكري خاتمة أئمة الشيعة الاثني عشر وكان لهم تعاليم دينية يسترون كثيراً منها عن الناس ومن أجل ذلك قيل لهم الباطنية ويقدمون هذه التعاليم برفق وتأن لمن يدعونه حتى يجيبهم إلى بغيتهم وقد حاول قوم أن يربطوا نحلة هؤلاء القوم بالنحلة الديصانية وهي نحلة تنسب إلى رجل يعرف بابن ديصان خرج بالبلاد الفارسية قبل ظهور الدين الإسلامي بعد ظهور مرقيون بنحو ثلاثين سنة وكان ظهور مرقيون في السنة الأولى من ملك ططوس بن أنطونيانوس الرومي وجاء بعد ابن ديصان «مانى» وهذه المذاهب الثلاثة متقاربة في أصولها فالمرقونية يقولون بوجود أصليين قديمين هما النور والظلمة وقالوا إن ههنا كوناً ثالثاً هو الحياة وهو عيسى وزعمت طائفة أن عيسى رسول ذلك الكون الثالث وهو الصانع للأشياء بأمره وقدرته إلا أنهم أجمعوا على أن العالم محدث وأن الصنعة بيّنة فيه لا يشكون في ذلك وزعموا أن من جانب الزهومات والمكر وصلى لله دهره وصام أبداً أفلت من حبائل الشيطان وقالوا بتزيه الله عز وجل عن الشرور وأن خلق جميع الأشياء كلها لا يخلو من ضرر والله متزّه عنه .

أم الديصانية الذين جاءوا على أثرهم فتقول أيضاً بالأصليين النور والظلمة وتقول طائفة منهم إن النور خالط الظلمة باختيار منه ليصلها فلما حصل فيها ورام الخروج منها امتنع ذلك عليه وقالت طائفة: إن النور أراد أن يرفع الظلمة عنه لما أحس بخشونتها وتنته فشابكها بغير اختيار وزعم ابن ديصان أن النور جنس واحد والظلمة جنس واحد وزعم بعض الدياصنة أن الظلمة أصل النور وذكر أن النور حي حساس عالم وأن الظلمة بضد ذلك عامية غير حساسة ولا عالمة فتكارها ولهم كتب كثيرة في مذهبهم .

والمانية يقولون أيضاً بالأصليين النور والظلمة وهما مبدأ للعالم فالنور هو العظيم الأول ليس بالعدد وهو الإله وزعم أنه أزلى بصفاته ومعه شيان اثنان أزليان أحدهما الجوّ والآخر الأرض - والأصل الثانى الظلمة وله كلام طويل فى بدء كون الإنسان واشتباكه مع إبليس وغلبة الثانى الأول ثم خلاص الثانى من هذه الشباك وفرض لمتبعيه فرائض أوجب عليهم اتباعها سن لهم عبادات من الصلاة والصوم وقد دان بتلك الشريعة كثيرون من أمة الفرس وكان لهم بعد مانى أئمة يدينون بطاعتهم قبل الإسلام وبعد ظهوره ولهم كتب دينية كتبها لهم مانى ومن بعده من الأئمة . وقد نسب كثير من فلاسفة المسلمين إلى اعتقاد مذهب مانى وكانوا يعرفون بالزنادقة وهم الذين تجرد لهم المهدي وابنه الهادي فقتل منهم عدد كبيراً، قال ابن النديم فى الفهرس: قيل إن البرامكة بأسرها إلا محمد بن خالد بن برمث كانت زنادقة وقيل فى الفضل وأخيه الحسن بن سهل مثل ذلك وكان محمد بن عبيد الله كاتب المهدي زنديقاً واعترف بذلك فقتله . قرأت بخط بعض أهل المذهب أن المأمون كان

منهم وكذب فى ذلك وقيل كان محمد بن عبد الملك بن الزيات زنديقاً. ومن رؤسائهم يزدان بخت وهو الذى أحضره المأمون من الرى بعد أن أمّنه فقطعه المتوكلون فقال له المأمون: أسلم يا يزدان بخت فلولا ما أعطيناك إياه من الأمن لكان لنا ولك شأن فقال يزدان بخت: نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم فقال المأمون: أجل.

قال الذين يريدون تأكيد الصلة بين الديبانية والباطنية إن عبد الله بن ميمون القداح كان هو وأبوه ميمون ديبانيين وادعى عبد الله أنه نبي مدة طويلة وكان يظهر الشعابذ ويذكر أن الأرض تطوى له فيمضى أين أحب فى أقرب مدة وكان يخبر بالأحداث والكائنات فى البلدان الشاسعة وكان له مرتبون فى مواضع يرغبهم ويحسن إليهم ويعاونونه على نوايسه ومعهم طيور يطلقونها من المواضع المتفرقة إلى الموضع الذى فيه بيته فيخبر من حضره بما يكون فيموه ذلك عليهم وكان انتقل فتزل عسكر مكرم فكبس بها فهرب منها فنقضت له داران فى موضع يعرف بسباط أبى نوح فبنيت إحداهما مسجداً والأخرى تمت على خرابها وصار إلى البصرة فتزل قوم من أولاد عقيل بن أبى طالب فكبس هناك فهرب إلى سلمية ومن هناك ابتدأت الدعوة ويزعم أصحاب هذا القول أن عبيد الله المهدي رأس الدولة الفاطمية من نسل هذا الرجل وأن عبيد الله هوسعيد بن الحسين بن عبد الله بن ميمون لثقداح وأنه تسمى بعبيد الله لما ورد مصر.

وهذا كلام كله يظهر عليه التوليد والاختراع كتب إرضاء لبنى العباس الذين غصوا بمكان فاطميين ولم يجدوا لهم ما يحاربونهم به إلا مثل هذه الأقاويل. والحق أن النحلة سياسية يقصد منها الوصول إلى هدم دولة بنى العباس إلا أنها شبت بشئ من التعاليم لتكون مقدمة للدعوة وأساساً لها حتى يفجأ المدعوب بالغرض السياسى لأول وهلة والتعاليم متى كانت سرية حامت حولها الظنون وجعلتها الشكوك فى ظلمات حتى لا تتميز حقيقتها.

نشأ عن هذا المذهب قوتان كبيرتان كلتاهما ضد الدولة العباسية.

إحداهما: منظمة معتدلة ومركزها قرية سلمية بقرب حمص وهى موئل الدولة الفاطمية لعبيدية ومجمع أسرارها كما كانت قرية الحميمة منذ (١٦٠ سنة) موئل الدولة العباسية ومجمع أسرارها.

الثانية: قوة ذات فوضى ومجون ونكوب عن حسن السياسة ومركزها كان لأول ظهورها -نعراق وهى القرامطة وهذه أولاهما فى الظهور فإنها ظهرت بوادر شرها فى عهد المعتمد عى الله والثانية تأخرت عنها. وستكلم الآن عن القرامطة.

ظهر في أواخر دولة المعتمد رجل بسواد الكوفة قدم إليها من نواحي خورستان وكان يظهر الزهد والتقشف ويسف الخوص ويأكل من كسبه ويكثر الصلاة فأقام على ذلك مدة وأعلم الناس أنه يدعو إلى إمام من أهل البيت وكان يزداد في أعين الناس نبلاً بما يظهر من الزهد ثم مرض وكان في القرية رجل يلقيه أهلها بكرمية لحمرة عينيه وهوبالنبطية أحمر العين فحمل هذا العليل إلى منزله ووصى أهله بالإشراف عليه والعناية به ولم يزل مقيماً عنده حتى برأ فكان كرمية يدعو الناس إلى مذهبه حتى أجابه جمع كثير من الأكره وكان يأخذ من كل من دخل في مذهبه ديناراً يزعم أنه للإمام واتخذ من أهل القرية نقباء اثني عشر فاشتغل الزراع هناك عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات الكثيرة التي أخبرهم أنها مفروضة عليهم.

كان للهيصم في تلك النواحي ضياع فوقف على تقصير أكرته في العمارة فسأل عن ذلك فعلم بخبر الرجل فوجه في طلبه فأخذ وجئ به إليه فحبسه واشتغل بشربه. رقت إحدى جوارى الهيصم للرجل فأخذت مفتاح الحجر التي حبس فيها من تحت رأس الهيصم وفتحت الباب وأخرجته ثم أعادت المفتاح إلى مكانه فلما أصبح الهيصم فتح الباب ليقتل الرجل فلم يجده وشاعت تلك الحادثة في الناس فافتنوا به وقالوا: رفع ثم ظهر في ناحية أخرى وأشيع بين الناس أنه لا يمكن أحداً أن يناله بسوء فعظم في أعينهم. ومع ذلك فقه خاف على نفسه وخرج إلى الشام وأطلق على نفسه اسم الرجل الذي آواه وهو كرمية ثم خفف فقليل قرمط.

ثم فشا مذهب القرامطة في سواد الكوفة والسلطان لاه عنهم لا يفكر في تغيير شيء هم عليه حتى كان منهم ما كان من الكوارث العظمى التي حلت بالأمة الإسلامية وحتى أخيفت السبل وقطع طريق الحاج مما سنذكره في مواضعه إن شاء الله.

دعى آل علي:

لم يكف بنو العباس ما أصاب دولتهم من آل علي بن أبي طالب الذي نفسوا عليهم ملك الدنيا وخلافة النبوة فضعفوا جوانب دولتهم وزعزعوا أركانها بل قام دعى في آل علي لا يعرف الطالبيون له نسباً ولا رحماً يدلى بدلوه في الدولة لينال منها حظاً لنفسه ذلك هو علوى البصرة أو الخيث صاحب الزنج زعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وأصله من عبد القيس من ربيعة ورء

البحرين (سنة ٢٤٩) فادعى أنه عباسى ودعا الناس بهجر إلى طاعته فاتبعه قوم وأباه آخرون فوجدت فتنة بين الفريقين فانتقل عنهم إلى حى من تميم فأقام بينهم وقد عظم مقامه بين أهل البحرين حتى أحلوه من أنفسهم محل النبی وجبوا له الخراج هناك وقتلوا أسباب السلطان ووتر منهم جماعة كثيرة فتنكروا له، فتحول عنهم إلى البادية ومعه جماعة من أهل البحرين منهم مولى لبنى حنظلة أسود يقال له سليمان بن جامع وهوقائد جيشه. نبت به البادية لسوء طاعة أهلها فشخص إلى البصرة فتزل بها فى بنى ضبيعة فاتبعه بها جماعة منهم على بن أبان المعروف بالمهلبى وأخواه محمد والخليل وغيرهم وكان قدومه البصرة (سنة ٢٥٤) وعاملها محمد بن رجاء الحضارى فعلم بهم فخرجوا من البلد خائفين وحبس ابن رجاء جماعة ممن اتهموا بالميل إليه منهم ابن الدعى.

مضى الدعى مع من اتبعه حتى صار إلى مدينة السلام فأقام بها حولاً يستميل إليه الناس سراً حتى إذا عزل محمد بن رجاء عن البصرة شخص إليها فى رمضان (سنة ٢٥٥) ونزلوا بقصر قريب منها يعرف بقصر القرشى وهناك خطرت له فكرة غريبة وهى الاستعانة بالعبيد الذين كانوا يعملون بتلك النواحي فى حمل السباخ وغيره لأهل البصرة وهم كثير والعدد يهمهم أن ينالوا الحرية ويخرجوا مما هم فيه فكيف لو وعدوا مع الحرية بالسيادة على مالكى رقابهم؟ فأخذ منهم غلاماً اسمه ربحان بن صالح ووعدته أن يكون قائداً وأمره أن يحتال للعبيد الذين يعرفهم حتى يجيئوه إلى نحلته ويتركوا ساداتهم وأعمالهم فاجتمع إليه كثير منهم فخطب فيهم فمناهم ووعدهم أن يقودهم ويرثهم ويملكهم الأموال وحلف لهم الإيمان الغلاظ ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى به إليهم. حذر الناس على غلمانهم وكان هناك نحو (١٥٠٠٠ غلام).

لم يزل الرجل يحتال لجمع هؤلاء الزنوج حتى كان يوم عيد الفطر من (سنة ٢٥٥) وفيه صلى بأصحابه صلاة العيد وخطبهم خطبة ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال وأن الله قد استغفهم به من ذلك وأنه يريد أن يرفع أقدامهم ويملكهم العبيد والأموال والمنازل ويبلغ بهم أعلى الأموال ثم حلف لهم على ذلك. وشرع ففقد قواده وقال لهم: كل من أتى برجل مضموم إليه. استمر يعيث فى تلك الجهات وينهب الأموال ويستكثر من الرجال وقد أرسلت إليه جيوش من البصرة فهزمها ثم اتجه نحو البصرة فقابلته جنود كثيرة من أهل السلطان ومرتزقة الديوان فانتصر عليها وقتل منها مقتلة عظيمة وقوى أمره جداً بتلك الواقعة وحل الرعب فى قلوب أهل البصرة وكتبوا إلى السلطان بخبره والخليفة يومئذ

المهتدى بالله. أقام الدعى بعد ذلك بالقرب من البصرة بسبخة هناك تعرف بسبخة أبى قرة ثم تحول منها إلى الجانب الغربى من نهر أبى خصيب وهناك غنم مغنم كثيرة من المراكب الماخرة فى دجلة وكانت شيئاً كثيراً.

وفى رجب (سنة ٢٥٦) أحرق مدينة الأبله واستسلم له أهل عبادان خوفاً أن يصيبهم ما أصاب أهل الأبله فأخذ من كان بها من العبيد وضمهم إلى جنده وفرق فيهم السلاح ومن هناك سير عسكرياً إلى الأهواز فاستولى عليها وأسر إبراهيم ابن المدبر عامل الخراج بها فزاد ذلك أهل البصرة رعباً. أرسل السلطان إلى الدعى جنوداً فكان يصيبها أبداً بالفشل.

وفى شوال (سنة ٢٥٨) أوقع بأهل البصرة وقعة هائلة قتل فيها من أهل البصرة عدد عظيم وخربت أكثر مبانيها.

وكان كل يوم يكتسب قوة جديدة بما يضاف إليه من العبيد وما يتاح له من النصر المتتابع حتى استفحل أمره وعظم شره وخيف على الدولة منه فلم ير مدبر الدولة وقائد جيوشها أبوأحمد الموفق إلا أن يحشد إليه الجموع ويتولى هزيمتها ليكتسب الجيش العباسى من ذلك قوة روح. فعلاً جنداً كثير العدد ثم العدة وجاء كثير من المتطوعين انتدبوا أنفسهم لحرب هذا الدعى وقد كانت لأبى أحمد معه وقائع هائلة وخطوب جسام استمرت أعواماً. فى آخر الأمر أنزل الله نصره على رجال الدولة وهزموا الزنوج وقتلوا هذا الدعى وكان ذلك فى أواخر (سنة ٢٧٠) وأمر الموفق كاتبه أن يكتب إلى أمصار الإسلام بالنداء فى أهل البصرة والأبله وكور دجلة وأهل الأهواز وكورها وأهل واسط وما حولها مما دخله الزنج بقتل الدعى وأن يؤمروا بالرجوع على أوطانهم ففعل ذلك فسارع الناس إلى ما أمروا به وقدموا المدينة الموقية التى اختطها الموفق هناك من جميع النواحي وأقام الموفق بعد ذلك بالموقية ليزداد الناس بمقامه أمناً وإيناساً.

وكان خروج صاحب الزنج فى يوم الأربعاء لأربع من رمضان (سنة ٢٥٥) وقتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر (سنة ٢٧٠) فكانت أيامه من لدن أن خرج إلى اليوم الذى قتل فيه (١٤ سنة وأربعة أشهر وستة أيام). وكان دخوله الأهواز لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان (سنة ٢٥٦) وكان دخوله البصرة وقتله أهلها وإحراقها لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال (سنة ٢٥٧).

ولم يكن يدرى إلا الله ماذا تكون العاقبة لوانتصر هذا الرجل بزوجه على آل العباس بأتراكهم كان الأمر ينتقل من أيدى الأتراك إلى أيدى الزنوج فتقع الأمة فى الشر العظيم

والوباء الوبيل لأن هؤلاء الزنوج ليس لهم أدب معروف بل لا يكادون يفقهون قولاً فانتصار العباسيين عليهم خلاص للأمة من شر مستطير.

الاضطراب في المشرق:

كان آل طاهر أمراء المشرق منذ عهد المأمون إليهم خراسان وما وراءها من بلاد ما وراء النهر وما إليها من بلاد الري وطبرستان وجرجان وكرمان وكانوا كفأة لما عهد به إليهم موثقاً بهم في ارتباطهم بحبل الخلافة العباسية إلا أن حال بغداد وسامرا ونزوع الأتراك إلى الاستيلاء على أمور الملك والاستبداد على الخلفاء جعل الطامعين فيما بعد عن دار الخلافة أشبه إلى الاستبداد بما يمكن أن يحوزوه ويستولوا عليه والقوة الطاهرية لم تكن تحل المحل الأرفع أمام معاكسيها إلا بهيئة الخلافة وشدة بأس القوة المركزية التي يحسب حسابها كل عاص وكل طامع.

وجد بالشرق ثلاث قوى تحيط بآل طاهر وتنازعها ما بيدها من هذا الملك الطويل العريض.

الأول: القوة الزيدية بطبرستان وجرجان وقد شرحناها قبل.

الثانية: القوة الصفارية بسجستان أوجدها يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو. كان هذان الرجلان يشتغلان في حدائتهما بعمل الصفر وكانا يظهران الزهد فصحبا رجلاً من أهالي سجستان وكان مشهوراً بالتطوع في قتال الخوارج اسمه صالح بن النضر الكنانى فأحبهما وحظى بهما حتى جعل يعقوب مقام الخليفة عنه. ولما توفي صالح ولى مكانه فى رئاسة المطوعة درهم بن الحسين فكان يعقوب مع درهم كما كان مع صالح وكان قائداً لعسكره. وكان درهم غير ضابط لأمواره على عكس ما كان يعقوب فرأت المطوعة ذلك فعزلوا درهماً وولوا يعقوب مكانه فحارب الخوارج والشرأة فظفر بهم ظفراً عظيماً وأطاعه أصحابه بمكره ودهائه طاعة لم يطيعوها أحداً قبله ثم اشتدت شوكته فغلب على سجستان وهراة وبوشنج وما إليها. ثم قاتل الترك الذين بتخوم سجستان وانتصر عليهم فربه الملوك الذين حوله منهم ملك الملتان وملك الرخج وملك الطبيين وملك ذابليستان وملك السند ومكران وغيرهم وأذعنوا له. وكان ملكه هراة وبوشنج (سنة ٢٥٣) وأمير الخراسان محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر.

لم يكن يعقوب بن الليث يريد الاستقلال التام عن الخلافة العباسية بل كان يريد أن يكون أميراً بعهد من خليفة بغداد ليستعين بذلك على تأييد مركزه والحلول محل آل طاهر فراسل المعتز وبعث إليه بهدية سنوية منها مسجد فضة مخلع يصلى فيه خمسة عشر إنساناً

وسأل أن يعطى بلاد فارس ويقرر عليه خمسة عشر ألف ألف درهم على أن يتولى إخراج على بن الحسين المتغلب على بلاد فارس. ثم شخص على أثر كتابه للمعتز إلى كرمان فتزل بها وهي الحد الفاصل بين كرمان وسجستان ثم استولى على كرمان ثم دخل إلى عمل فارس فخذق على بن الحسين على نفسه بشيراز وذلك في (١٨ ربيع الآخر سنة ٢٥٥) وأرسل إلى يعقوب يعلمه أنه إن كان يريد فارس فكتاب أمير المؤمنين يأمرنى بتسليم العمل لأنصرف فلم يلتفت يعقوب إلى ذلك الطلب المقبول وأذنه بحرب فحصلت بينهما موقعة في جمادى الأولى (سنة ٢٥٥) انهزم فيها جند شيراز وأسر على بن الحسين ودخل يعقوب شيراز ظافراً وصلى الجمعة بها ودعا خطيبه للمعتز، ثم عاد بعد ذلك إلى كرمان ثم إلى سجستان.

رفع ذلك من شأن يعقوب بن الليث فإن كوراً عظيمة أذعنت لسلطانه وفي (سنة ٢٥٩) فى عهد المعتمد قصد نيسابور فلما قرب منهالقى بنوطاهر بأيديهم وقابلوه مطيعين لما رأوا أنه لا قبل لهم بمقاومته وأن قوة الخلافة ضعفت عن إعانتهم فلما دخلها حبس محمد بن طاهر وآل بيته وبهذا انتهت دولتهم وفض اللواء الذى كان المأمون قد عقده لطاهر بن الحسين إذ ولاه خراسان وبلاد المشرق.

بعد هذا الانتصار الباهر أرسل يعقوب إلى سامرا وفداً معهم كتاب يذكر فيه ما تناهى إليه من حال أهل خراسان وأن الشراة المخالفين قد غلبوا عليها وضعف عنهم محمد بن طاهر وأن أهل خراسان كاتبوه وسألوه القدوم عليهم وأنه بسبب ذلك سار إليها فلما كان على عشرة فراسخ منها سار إليه أهلها فدفعوها إليه فدخلها.

كان المدبر للدولة فى ذلك الوقت أبو أحمد الموفق فأجاب الرسل بأن أمير المؤمنين لا يقار يعقوب على ما فعل وأنه يأمره بالانصراف إلى العمل الذى ولاه إياه وأنه لم يكن له أن يفعل ما فعل بغير أمر أمير المؤمنين فليرجع إلى عمله فإنه إن فعل ذلك كان من الأولياء وإلا لم يكن له إلا ما للمخالفين. فلم يكن لهذه الرسالة أدنى تأثير فى نفس يعقوب ولا فى مركزه القوى لأن المسألة مسألة تنازع فى الحياة ولا بقاء للحياة إلا بالقوة.

وفى (سنة ٢٦٠) كانت بين قوة يعقوب وقوة الحسن بن زيد المتغلب على طبرستان وقائع انهزم فيها الحسن ودخل يعقوب سارية وآمل ظافراً وصار يتبع الحسن وهو منهزم حتى صار إلى بعض جبال طبرستان فأدركته هنالك الأمطار وتتابعت عليه نحو أربعين ليلة فلم يتخلص مما هوفيه إلا بمشقة شديدة ولما رأى صعوبة السير إلى الأمام انصرف بجنده وقد فقد منه فى هذه الواقعة نحو أربعين ألفاً وتقرب بما فعل إلى سامرا فبعث يخبر به وذكر وأنه نفى الحسن بن زيد من طبرستان وأسر سبعين من الطالبين.

لم تكن أعمال يعقوب مما يعجب السلطان لأن رجال الدولة خافوا ما وراء ذلك من استقلاله أو غلبته على حاضرة الخلافة نفسها فأمر الموفق عبيد الله بن طاهر أن يجمع من كان ببغداد من حاج خراسان والرى وطبرستان وجرجان ويقرأ عليهم كتاباً يعلمهم فيه أن السلطان لم يول يعقوب بن الليث خراسان ويأمرهم بالبراءة منه لإنكار الخليفة دخوله خراسان وحبيه محمد بن طاهر. وهذا رجوع منهم إلى القوة الروحية التي لخليفة المسلمين ولكنهم لم يروا لها تأثيراً بإزاء القوة فعادوا على الحيلة خوفاً من أن ذلك يخرج يعقوب فيدعو لنفسه ويعلن استقلاله فأعلنوا أن أمير المؤمنين ولاء خراسان وطبرستان وجرجان والرى وفارس والشرطة بمدينة السلام وذلك إقامة له مقام آل طاهر.

لما نال يعقوب ما طلب ازداد طمعاً وجرأة فأرسل يقول إنه لا يرضيه ما كتب به إليه دون أن يصير إلى باب السلطان ويظهر أنه كان يريد بذلك الاستيلاء الفعلي على بغداد وبلاد العراق فلما علم المعتمد ذلك رأى أو رأى مدبرو أمره أنه لم يبق بد من قيام الخليفة بنفسه إلى حربه ولا سيما بعد أن علم أن يعقوب قادم بجيوشه إلى سامرا فرحل المعتمد عن سامرا إلى بغداد ومنها اتجه نحو عسكر يعقوب الذي وصل إلى واسط فتقابل الجيشان بين سيب بنى كوما ودبر العاقول وكانت هناك موقعة هائلة بين الطرفين كان الظفر فيها أولاً جند يعقوب ولكن أصابهم بعد ذلك شر من جراء ذلك فإن كثيراً من الجند اليعقوبى كرهوا لقتال إذ رأوا أنفسهم يحاربون الخليفة وجهاً لوجه فانفصلوا عن الجيش فانهزم جنده أما يعقوب فإنه فارق موضعه على تعبته ومضى. تخلص بسبب ذلك محمد بن طاهر من أسره فحضره الخليفة وخلع عليه مرتبته وقرأ على الناس كتاباً يذكر فيه مثالب يعقوب وأنه لم يرضه ما تفضل السلطان به عليه حتى جاء مشاقاً محارباً وكان هذا الكتاب مؤرخاً بيوم (١١ رجب سنة ٢٦٢).

رجع المعتمد إلى سامرا وقدم محمد بن طاهر ببغداد وقد رد إليه عمله فخلع عليه في لرصافة، أما يعقوب فعاد من طريق فارس وضبطها وولى على كورها رجالاً من قبله وكانت له بها وقائع مع رجال الدعى صاحب الزنج الذى لم يكن انتهى أمره بعد.

وفى (سنة ٢٦٥) توفى يعقوب بن الليث بالأهواز.

كان هذا الرجل عصامياً نشأ في صناعة الصفر ثم ما زال يهم بالمعالي فتتقاد له. قاد خنود لفتح البلدان وساس من تغلب عليهم سياسة سلطانية عالية حتى أمكنه أن يفعل ما لم يؤخذ عليه في تدبيره إلا هذه الفعلة الأخيرة وهى قدومه من بلدان قاصية لحرب خليفة بسامرا وبغداد وهوى جيوشه وعدده ومواليه فكانت عاقبة الفشل ويظهر أن الرجل

ما كان يظن أنه يلقي حرباً وكان يرى أن كتبه التي يظهر فيها الخضوع وأنه لم يجئ إلا لخدمة أمير المؤمنين والمثول بين يديه تجوز حيلتها على القائمين بأمر الدولة. وكانت مدته (١٨ سنة).

بعد موت يعقوب بايع جنده أخاه عمرو بن الليث فكان خيراً من أخيه في التدبير وإحكام السياسة حتى كان يقال ما أدرك في حسن السياسة للجنود والهداية إلى قواني المملكة منذ زمن طويل مثل عمرو بن الليث وكان يحضر بنفسه يوم أن تصرف الأعطيات للجنود حين يعرضون عدتهم الحربية فكان العارض يقعد والأموال بين يديه والجند بأسره حاضرون ويتنادى المتنادى أولاً باسم عمرو بن الليث لتقدم دابته إلى العارض بجميع آله الفارس فيتفقدوها ويأمر بوزن (٣٠٠ درهم) باسم عمرو بن الليث فتحمل إليه في صرة فيأخذ الصرة فيقبلها ويقول الحمد لله الذي وفقني لطاعة أمير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق ثم يضعها في خفة تكون لمن يخلع خفه. ويدعى بعد ذلك بأصحاب الرسوم على مراتبهم فيتعرض لآلاتهم الثامة ودوابهم الفره ويطالبون بجميع ما يحتاج إليه الفارس والراجل من صغير آلة وكبيرها فمن أخل بإحضار شئ حرموه رزقه. وفوق ذلك كان يرضى الخليفة وبطائه بما كان يرسله من الأموال والهدايا والتحف فجعله الخليفة والياً على ما كان يلي أخوه ووجهت إليه بذلك الخلع مع العهد والعقد.

ولم يزل أمره على ذلك حتى تغير عليه الخليفة (سنة ٢٧٢) لما كان يبدو له من طموح إلى ما طمح إليه أخوه فأدخل عليه من كان ببغداد من حاج خراسان ولعنه بحضرتهم وأخبرهم أنه قلد خراسان محمد بن طاهر وأمر بلعن عمرو بن الليث على المنابر ثم رضى عنه بعد ذلك لما استرضاه بالمال ولم يزل عمرو في حروب ووقائع لا قيمة لها حتى تعرض أخيراً لما كان بيد السامانيين من بلاد ما وراء النهر فولاه الخليفة إياها فكانت تلك الولاية خاتمة عزه كما سيجي.

السامانيون:

تنسب الأسرة السامانية إلى بهرام جور صاحب كسرى هرمز فهي أسرة عريقة المجد في الأمة الفارسية. كان في عهد المأمون من تلك الأسرة أولاد أسد بن سامان وكان المأمون يرضى حقوق الحرمة لذوى البيوتات فقربهم ورفع من أقدارهم وكانت بلاد ما وراء النهر مقسمة بينهم يلونها من جهة أمير خراسان فكان نوح بن أسد في سمرقند وأحمد بن أسد في فرغانة ويحيى بن أسد في الشاس وأشروسنة والياس بن أسد في هراة. وكان أحمد بن

أسد عفيف الطعنة مرضى السيرة لا يأخذ رشوة ولا أحد من أصحابه. ولما توفي استخلف ابنه نصرأ على أعماله بسمرقند وما وراءها فبقى عاملاً بها إلى آخر أيام الطاهرية. وكان إسماعيل بن أحمد يخدم أخاه نصرأ فولاه بخارى (سنة ٢٦١) وكان بين هذين الأخوين خطوط طويلة بسبب سعاة السوء حتى إنه فى (سنة ٢٧٥) تحارب نصر وإسماعيل فقهر نصر وحمل إلى أخيه إسماعيل فلما رآه ترجل له وقبل يديه ورده من موضعه إلى سمرقند وتصرف هو على النيابة عنه ببخارى.

وإسماعيل هذا هو الذى على يده انتهى عز عمروبن الليث وورث ما كان بيده من ملك خراسان وصارت له دولة عظيمة أورثها أهل بيته واستمرت دولتهم (١٧٠ سنة وستة أشهر) ثم انتهت على أيدى آل سبكتكين من جهة والترك الخاقانية من جهة أخرى وهذه أسماء ملوكهم وتواريخهم.

- ١- نصر بن أحمد بن سامان ٢٦١ - ٢٧٩
- ٢- إسماعيل بن أحمد ٢٧٩ - ٢٩٥
- ٣- أحمد بن إسماعيل ٢٩٥ - ٣٠١
- ٤- نصر بن أحمد ٣٠١ - ٣٣١
- ٥- نوح بن نصر ٣٣١ - ٣٤٣
- ٦- عبد الملك بن نوح ٣٤٣ - ٣٥٠
- ٧- منصور بن نوح ٣٥٠ - ٣٦٦
- ٨- نوح بن منصور ٣٦٦ - ٣٨٧
- ٩- منصور بن نوح ٣٨٧ - ٣٨٩
- ١٠- عبد الملك بن نوح ٣٨٩ - ٣٨٩

كما تقدم يفهم أن البلاد المشرقية تقلص عنها ظل الخلافة العباسية فعلاً وإن كان يدعى بهم ببعضها أسماء.

فكانت الدولة الصفارية بفارس وكرمان وسجستان وخراسان وكانت الدولة السامانية ببلاد ما وراء النهر وكان بطبرستان وجرجان الدولة الزيدية والعلوية وهؤلاء يدعون لأنفسهم -خلافة ولا يدينون لبنى العباس بطاعة.

أما بالمغرب فقد حدثت قوة جديدة اقتطعت من بنى العباس برقة ومصر وسوريا وهي دولة أحمد بن طولون.

أحمد بن طولون،

كان طولون مملوكاً تركياً أهده نوح بن أسد الساماني إلى المأمون (سنة ٢٠٠) فكان من عداد الجنود التركية الكفاة وولد له أحمد ابنه بسامرا (سنة ٢٢٠) فربى في حلبة أولئك الجنود وأفصح بالعربية وحفظ القرآن الكريم وكان ذا خلق قويم ولما بلغت سنه العشرين توفي أبوه طولون فكان بعده في ضمن جنود بايكباك الذي تقدم ذكره.

كانت ولاية مصر مضافة إلى بايكباك وهو الذي يختار أميرها ففي (سنة ٢٥٤) اختار نه أحمد بن طولون لما رأى من كفايته وشجاعته فعقد له عليه ودخلها أحمد لتسع بقين من رمضان وكان يتقلد القصبه وحدها وكان معه أحمد بن محمد الواسطي كاتب بايكباك.

لما توفي المعتز (سنة ٢٥٥) وتولى المهتدي وقتل بايكباك حال محله أماجور وكان صهر أحمد بن طولون فلما كان زوج ابنته فكتب إليه أماجور تسلم من نفسك لنفسك وزاده الأعمال الخارجة عن قصبه مصر فعظمت لذلك منزلته واتسع ملكه وكان يدعى عنى منابر مصر للخليفة أولاً ثم لأماجور ثم لأحمد بن طولون حتى مات أماجور (سنة ٢٥٨) فاستقل أحمد بمصر ودعى له بها وحده بعد الدعاء للخليفة وضبط ابن طولون بلاد مصر أحسن ضبط وخضد شوكة الثائرين الذين كانوا يثرون بها من وقت لآخر.

وفي (سنة ٢٦٢) حصل بينه وبين أبي أحمد الموفق تنافر أدى إلى وحشة استحكمت حلقاتها فكتب أبو أحمد إلى ابن طولون يهدده بالعزل فأجابه جواباً فيه بعض الغلظة فـ إليه الموفق جيشاً يقوده موسى بن بغا فلما بلغ الرقة أقام فيها عشرة أشهر ولم يمكنه المسير لقلة الأموال وطالبته الجنود بالعطايا فلم يكن معه ما يعطيهم فاختلفوا عليه وثاروا بوزيره فاضطر ابن بغا أن يعود إلى العراق وكفى ابن طولون شره وفي (سنة ٢٦٣) ولي المتمد أحمد بن طولون طرطوس ليقوم بحفظ ذلك الثغر عن الروم الذين كانوا قد تطرقوا البلاد لضعف قوة الخلافة.

وفي (سنة ٢٦٤) دخل في حوزته بلاد الشام والثغور بعد وفاة أماجور الذي كانت تلت البلاد له فاتسع ملكه اتساعاً عظيماً حتى كانت حدود مملكته تنتهي إلى نهر الفرات وبذلك تم التغلب والافتراء عن بنى العباس من أقاصى الغرب إلى نهر الفرات فضاقت مملكة بنى العباس واقتصرت على العراق والجزيرة الفراتية على ما فيها من الثورات والاضطرابات وبلاد الرى والأهواز.

وكان الموفق في ذلك الوقت مشغولاً بحرب الدعى صاحب الزنج فكان ذلك فرصة عظيمة لأحمد بن طولون أن يقوى أمر ملكه وكان يعلم ما بين المعتمد الخليفة وبين أخيه من فتور فأراد أن ينتفع من ذلك وصادف أن أرسل المعتمد إلى ابن طولون يشكو له مما هو فيه من استبداد الموفق عليه وأنه ليس له من الخلافة إلا الاسم فأشار عليه ابن طولون أن يلحقه بمصر ولو تم ذلك لانتقلت الخلافة العباسية إلى القطائع مدينة أحمد بن طولون بمصر ولكن حال دونه عامل الموصل والجزيرة الذى أرسل إليه الموفق أن يبذل جهده فى منع نعتمد من المسير إلى مصر فلما بارح المعتمد سامراً ووصل إلى عمل الموصل منعه العامل من المسير فعاد ثانية إلى سامرا وبسبب ذلك اتسعت مسافة الخلاف بين الموفق وابن طولون حتى أن ابن طولون قطع خطبة الموفق واسقط اسمه من الطراز فتقدم الموفق إلى المعتمد يلغى ففصل مكرهاً لأن هواه كان مع ابن طولون.

وفى (سنة ٢٧٠) توفى أحمد بن طولون فخلفه فى مصر والشام والثغور الشامية ابنه خماروية وقد استمر ملك مصر والشام فى أعقاب ابن طولون إلى (سنة ٢٩٢) وقد ولى من هذا البيت خمسة أمراء وهم:

- ١- أحمد بن طولون ٢٥٤ - ٢٧٠
- ٢- خماروية بن أحمد ٢٧٠ - ٢٨٢
- ٣- أبو العساكر جيش بن خمارويه ٢٨٢ - ٢٨٣
- ٤- هاورن بن خمارويه ٢٨٣ - ٢٩٢
- ٥- شيبان بن أحمد بن طولون ٢٩٢ - ٢٩٢

الحوادث الخارجية:

ترتب على الاضطرابات التى قصصنا حديثها فى عهد المعتمد أن الحدود الرومية كانت محل اضطراب دائم يغير عليها الروم كل وقت فيجدون الدفاع عنه ضعيفاً حتى أنهم أخذوا (سنة ٢٦٣) حصن لؤلؤة الذى كان شجى فى حولفهم وغلبوا كثيراً من الجيوش ونم تتحسن الأحوال قليلاً إلا بعد أن أخذ ابن طولون مدينة طرطوس وعهد إليه حماية ثغور الشامية فتولى الغزو بجنوده المصرية والشامية وقد أوقع بالروم وقعة هائلة (سنة ٢٧٠).

وكانت غارات الروم بعد ذلك على ديار ربيعة وثغورها الجزرية فكانت ترد السرايا من

تلك الجهة فتغير على المسلمين وهم غارون فيأخذون منهم كثيراً من الأسرى ولولا جنود المتطوعين لكانت الحال أسوأ مما حصل.

ولاية العهد:

كان أبو أحمد الموفق ولي العهد بعد المعتمد وكانت إليه أمور الخلافة فعلاً فلما توفي (سنة ٢٧٨) جعل ولي العهد المفوض ابن المعتمد ومن بعده أبو العباس بن أبي أحمد الموفق وكان أبو العباس صاحب الكلمة في الخلافة بعد أبيه فلم يلبث أن خلع المفوض من ولاية العهد وجعل نفسه مقدماً.

صفات المعتمد:

لم يكن للمعتمد نفوذ في إدارة البلاد ولا شيء من سياسة المملكة لأن الأمر كله كان منوطاً بأخيه أبي أحمد وكان المعتمد مشغولاً بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهي لا همَّ له إلا ذلك وله أحاديث في الغناء والرقص والندامي وهيئة المجالس ومنازل التابع والمتبوع وكيفية مراتبهم وتعبية مجالس الندماء استبدال هذا بتعبية الجيوش وسوقها إلى خوض الغمرات:

وكانت وفاة المعتمد على أثر شراب شربه فأكثر منه ثم أتبعه لأكلة هاضته وأنت عمى حياته لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب (سنة ٢٧٩).

المعتضد

هو أبو العباس أحمد بن أبي أحمد الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم وأمه أم ولد سمها ضرار وكان عضداً لأبيه الموفق في حروبه وأعماله وولى العهد بعد وفاه أبيه وبعد خلع المفوض ابن المعتمد (سنة ٢٧٩) وبويع له بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه المعتمد على الله لإحدى عشرة بقية من رجب (سنة ٢٧٩) (١٥ أكتوبر سنة ٨٩٢) ولم يزل خليفة حتى توفي لثمان بقين من ربيع الآخر (سنة ٢٨٩) (١٥ إبريل سنة ٩٠٢) فكانت مدته تسع سنوات وتسعة أشهر وثلاثة أيام.

وكان يعاصره في الأندلس عبد الله بن محمد الذي توفي (سنة ٣٠٠).

وكانت دولة الأدارسة على غاية من الاضطراب يؤذن فيها بقرب الانتهاء.

ويعاصره في إفريقية وصقلية من الأغالبة إبراهيم بن أحمد بن الأغلب الذي توفي (سنة ٢٨٩).

وفي مصر من آل طولون خمارويه بن أحمد المتوفى (سنة ٢٨٢) ثم جيش ابن خمارويه نحوفى (سنة ٢٨٣) ثم هارون بن خمارية المتوفى (٢٩٢).

وفي زييد من آل زياد إبراهيم بن محمد عبد الله بن زياد المتوفى (سنة ٢٨٩).

وفي صنعاء من آل يعفر عبد القادر أحمد بن يعفر المتوفى (سنة ٢٧٩) ثم إبراهيم بن محمد بن يعفر المتوفى (سنة ٢٨٥) ثم أسعد بن إبراهيم المخلوع (سنة ٢٨٨) ثم دخلت صنعاء تحت سلطان الزيدية ثم القرامطة.

وفي طبرستان وجرجان محمد بن زيد العلوى المقتول (سنة ٢٨٧).

وفي خراسان وسجستان عمرو بن الليث الصفار الذى أسر (سنة ٢٨٧).

وفي بلاد الروم لاون السادس الملقب بالفيلسوف المتوفى (سنة ٩١١).

وفى فرنسا أودون أول ملك من الكاباسيان المتوفى (سنة ٨٩٨) ثم شارل الثالث الملقب بالساذج المتوفى (سنة ٩٢٣).

وزراء الدولة:

أول وزراء المعتضد عبد الله بن سليمان بن وهب واستمر في وزارته حتى مات (٢٨٨) فاستوزر بعده ابنه أبوالحسين القاسم بن عبيد الله ومات وهو وزيره.

من المهم أن نذكر هنا ملخصاً لما أورده الكاتب هلال بن الحسن الصابئ في كتابه الموسوم بتحفة الأمراء في أخبار الوزراء لنذل بذلك على مقدار مصروف الخليفة المعتضد.

قال عبد الحميد الكاتب لما تولى أبو القاسم عبيد الله بن سليمان وزارة المعتضد بالله رحمة الله عليه والدنيا منفلقة بالخوارج والأطماع مستحكمة من جميع الجوانب وانود قاصرة والأموال معدومة وقد استخرج إسماعيل بن بلبل خراج السواد لستين في مـ وليس في الخزائن موجود من مال ولا صياغة احتاج في كل يوم إلى ما لا بد منه من النفقات إلى سبعة آلاف دينار وتعذر عليه قيام وجهها وقال له يوماً وهو في مجلسه من مـ المعتضد بالله: يا أبا الفضل قد وردنا على دنيا خراب مستغلقة وبيوت مال فارغة وابتدع عقد لخليفة جديد الأمر وبيننا وبين الافتتاح مدة ولا بد لي في كل يوم من سبعة آلاف دينار لنفقات الحضرة على غاية الاختصار والتجزئة فإن كنت تعرف وجهها تعينني به فأحب ترشدني إليه فحسن له إطلاق ابني الفرات أبي الحسن على وأبي العباس أحمد ابني محمد بن موسى بن الفرات. وكانا محبوبين بعد أن صودرا فحسن الوزير للمعتضد إطلاقهم والاستعانة بهما ففعل وحينئذ أحضرا أحمد بن محمد الطائي وضمنا أعمال سقى الفرس ودجلة وجوخى وواسط وكسكر وطساسيج نهر بوق وغيرها على أن يحمل من ماله في كل يوم سبعة آلاف دينار وفي كل شهر ستة آلاف دينار وأخذ خطه بالتزام الضمان وتصحيح المال على ما تقرر من أوقاته واستقبلا به في المياومة يومهما وفي المشاهرة غدهما.

وهذا تفصيل وجوه خرج المياومة مما شرط فيه ما قرره المعتضد بالله:	
دينار أرزاق أصحاب النوبة من الرجال ومن برسمهم من البوابين ومن يجرى مجراهم.	١
دينار أرزاق الغلمان الخاصة وفيهم الحاجب وخلفاء الحجاب.	١
دينار أرزاق ممالك المعتضد المعروفين بالممالك الحجرية.	١٥٠

أرزاق الممالك المختارين .	٦٠٠
أرزاق الفرسان المميزين .	٥٠٠
أرزاق سبعة عشر صنفاً من الموسومين بخدمة الدار .	١١٠
المرتقة يرسم الشرطة بمدينة السلام والخلفاء عليهم ومن يجرى مجراهم .	٥٠
أثمان إنزال الغلمان الممالك .	٣٠٠
نفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابز ونزال الحرم ومخابز السودان .	$\frac{٢٥٣}{٣}$
ثمن وظائف شراب الخاصة والعامة ونفقات خزائن الكسوة والخلع والطيب وحوائج الوضوء وما شابه ذلك .	١٠٠
أرزاق السقاين بالقرب .	٤
أرزاق الخاصة ومن يجرى مجراهم من الغلمان والممالك .	١٦٩
أرزاق الحرم من المستخدمين في شراب العامة وخزائن الكسوة إلخ .	١٠٠
أرزاق الحرم .	١٠٠
ثمن علوفة الكراع في الاصطبلات الخمسة .	٤٠
ما يصرف في ثمن الكراع والإبل وما يتاع من الخيل .	$\frac{٦٦}{٢}$
أرزاق المطبخين .	٣
أرزاق الفراشين ومن جرى مجراهم .	٣
ثمن الشمع والزيت .	$\frac{٦}{٢}$
أرزاق أصحاب الركاب والنجايب والسروج .	٤
أرزاق الجلساء وأكابر الملهمين .	$\frac{٤٤}{٢}$
أرزاق المتطيين وتلامذتهم مع أثمان الأدوية .	$\frac{٢٣}{٢}$
أرزاق أصحاب الصيد وثنم الطعم والعلاج للجوارح .	٧
أرزاق الملاحين .	$\frac{٦١}{٢}$
ثمن نفط ومشاقة .	:

صدقة يومية .	١٥	
جارى أولاد المتوكل .	٣٣	$\frac{1}{3}$
جارى ولد الواثق والمهتدى والمستعين وسائر أولاد الخلفاء .	١٦	$\frac{2}{3}$
جارى ولد الناصر .	١٦	$\frac{2}{3}$
أرزاق مشايخ الهاشمين والخطباء بمدينة السلام .	٢٠	
جارى جمهور بنى هاشم .	٣٣	$\frac{1}{3}$
رزق الوزير وابنه .	٣٣	
أرزاق أكابر الكتاب وسائر من فى الدواوين وثمان الصحف والقراطين والكاغد .	١٥٦	$\frac{2}{3}$
رزق القاضى وخليفته وعشرة فقهاء .	١٦	$\frac{2}{3}$
خدام المسجدين الجامعين بمدينة السلام .	٣	$\frac{1}{3}$
نفقات السجون .	٥٠	
نفقات الجسرين وأرزاق الجسارين .	١٠	
نفقات البيمارستان الصاعدى وأرزاق أطبائه وأثمان الأدوية .	١٥	
المجموع	٦٩٤٦	

فهذه وجوه الصرف تبين أن جميع المصروفات التى كانت تصرف فى الحضرة كل يوم حوالى سبعة آلاف دينار وفى الشهر (٢١٠٠٠٠) وفى السنة (٢٥٢٠٠٠٠ دينار) وهو مقدار قليل إذا قيس بما كان يرد على حضرة الخلافة فى عهد المأمون والمعتمد ولا غرابة فى ذلك فإن كثيراً من الأقاليم استقل بإدارته وأمواله المتغلبون وما بقى لبنى العباس لم يعمره العنصر والأمن لكثرة الاضطرابات فى الجزيرة وبلاد العراق وفارس .

اضطرابات الجزيرة،

كانت العرب مع تغلب الأتراك على دولة بنى العباس لا يقرّون بالخضوع لهم بل كنوا على ما لم يزلوا عليه من الاستقلال بأمر أنفسهم فى ديار ربيعة وفى ديار مضر ولا يحد

بعد أن أسقط العباسيون أسماء العرب من ديوان المرتزقة فكانت لا تزال تخرج منهم خوارج يدعون الناس إلى خلع طاعة العباسيين وأكثر هؤلاء العرب جمعاً وخروجاً بنو شيان من ربيعة.

ففى أول خلافة المعتضد سار إلى بنى شيان بالموضع الذى يجتمعون فيه من أرض جزيرة فلما بلغهم قصده جمعوا إليهم أموالهم وأغار المعتضد على الأعراب عند السن قهب أموالهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ثم غرق فى نهر الزاب مثل من قتل ثم سار إلى نوصل فليقيته بنو شيان يسألونه العفو وبذلوا له رهائن فأجابهم إلى ما طلبوا وعاد على بغداد.

وفى (سنة ٢٨١) سار يريد قلعة ماردين للاستيلاء عليها من يدى حمدان بن حمدون الذى تغلب عليها وهو جد الأسرة الحمدانية فلما بلغه مسير المعتضد إليه ترك فى القلعة ابنه وصار عنه فلما وصلها المعتضد نازلها يومه وفى الغد ركب بنفسه حتى أتى باب القلعة وصاح بابن حمدان فأجابه فأمره بفتح باب القلعة ففتحه ففقد المعتضد فى الباب وأمر بنقل ما فى القلعة وهدمها ثم وجه خلف حمدان من يطلبه أشد الطلب حتى ظفر به بعد عودته إلى بغداد.

وكان مما بهم المعتضد خارجى ظهر بالجزيرة اسمه هارون الشارى واستفحل جمعه واشتدت قوته حتى لم يحاربه جند من جنود السلطان إلا هزمه فرأى المعتضد أن يضرب خديد بالحديد فندب الحسين بن حمدان لحرب هارون فقال له الحسين: إن أنا جئت به فلى ثلاث حاجات عند أمير المؤمنين إحداها إطلاق أبى وحاجتان أذكرهما بعد مجيئى فأجابه المعتضد إلى ذلك فمضى مع جند اختاره حتى لقيه فحاربه وهزمه ثم ما زال يتبعه حتى ظفر به فأخذه أسيراً وأحضره للمعتضد فخلع على الحسين وطوقه وخلع على إخوته وأمر بفك يه والتوسعة عليه والإحسان إليه فكان هذا بدء ظهور الأسرة الحمدانية.

القرامطة:

قد ذكرنا فيما مضى كيف ابتدأت نحلة القرامطة تشيع فى سواد الكوفة ويدخل الناس فيها حتى كثر أتباع القرامطة.

فى قريب من الوقت الذى انتشر فيه هذا المذهب بسواد الكوفة ظهر بالبحرين رجل يقال له سعيد الحسن الجنبابى. وجنابة من سواحل فارس يدخل إليها فى المراكب فى خليج من البحر الفارسى وبين المدينة والبحر ثلاثة أميال وقبلتها فى وسط البحر جزيرة خارك نشأ

بها أبو سعيد هذا وكان دقاً فنفى عن جنابة فخرج إلى البحرين فأقام بها تاجراً وجسراً يستميل العرب إلى نحلته حتى استجاب له أهل البحرين وما والاها وقوى أمره فقتل مـ حوله من أهل القرى وفعل ذلك بالقطيف وأظهر أنه يريد البصرة التي كتب عليها الشقة فإنه لم يمض على ما لا قته من السوء على يد دعوى العلويين أكثر من (١٥ سنة) فكـ واليها إلى المعتضد يخبره بالأمر فأمره المعتضد أن يبنى على البصرة سوراً ففعل وفي (٢٨٧) أقبل الجنابي بجموعه يريد البصرة فأرسل إليه المعتضد جيشاً قائده العباس بن عمر الغنوي فهزمه أبو سعيد وأسر العباس واحتوى ما فى العسكر وقتل الأسرى ثم سار الجنابي بعد الواقعة إلى هجر وانصرف المنهزمون إلى البصرة فلقيهم الأعراب فأفنؤهم: أحدثت ذنبت بالبصرة قلقاً واضطراباً حتى هم أهلها بالجلء عنها ولكن واليها هدأ بالهم.

أما أمرهم بسواد الكوفة فإنه لما علم المعتضد أمر انتشار مذهبهم هناك وكثرة متبعيه أرسـ إليهم جيشاً يقوده شبل غلام أحمد بن محمد الطائي فظفر بهم وأخذ رئيسه لهم يعرف بنى القوارس فقدم به على المعتضد فسأله المعتضد هل تزعمون أن روح الله تعالى وأرواح أنبيته تحل فى أجسادكم فتعصمكم من الزلل وتوفقكم لصالح العمل ؟ فقال: يا هذا إن حلت روح الله فىنا فما يضرك وإن حلت روح إبليس فما ينفعلك فلا تسأل عما لا يعينك وسـ عما يخصك، فقال: ما تقول فيما يخصنى قال: أقول إن رسول الله ﷺ مات وأبوكم العباس حى فهل طلب بالخلافة أم هل بايعه أحد الصحابة على ذلك ثم مات أبوكم فاستخلف عمر وهو يرى موضع العباس ولم يوص إليه ثم مات عمر وجعلها شورى فى ستة أنفس ولم يوص إليه ولا أدخله فيهم فيماذا تستحقون أنتم الخلافة وقد اتفق الصحنـ على دفع جدك عنها ؟ فأمر به المعتضد فقتل.

كان تتابع الجيوش من المعتضد إلى من بسواد الكوفة سبباً لأن داعية قرمط زكرويه بـ مهرويه سعى فى استغواء كلب بن وبرة بواسطة أولاده فأجابه بعض بطونهم وبايعوا (بـ ٢٩١) ابن زكرويه المسمى يحيى المكنى بأبى القاسم ولقبوه الشيخ وزعموا أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وزعم لهم أن له بالبلاد مائة ألف تابع وسمى أتباعه الفاطميين فقصدهم شبل مولى المعتضد من ناحية الرصافة فاغتروه فقتلوه وأحرقـ مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى بلغوا الشام وكانت إذ ذاك فى حيوـ خماريه ابن أحمد بن طولون وينوب عنه فيها طغج بن جف فقاتلهم مراراً فهزموه.

هذا ما كان منهم فى حياة المعتضد ظهوروا بثلاثة مواضع بالبحرين والعراق والشام وبدـ بخروجهم شعلة النار المحرقة التي آذت المسلمين ودوختهم وسلبتهم أمن الطريق إلى بيت الله المقدس كما يأتى بيانه.

وفى تلك الأزمنة كان يشتغل دعاة الفاطميين باليمن وأفريقية فكانت الدعوة الإسماعيلية رتبت أن يكون فى آن واحد بجميع الجهات الإسلامية حتى لا يكون لبني العباس قبل بملاقة شرها وكذلك كان .

نصر المشرق:

اتسع سلطان عمرو بن الليث فى أول عهد المعتضد ودخل نيسابور (سنة ٢٨١) ولما خرج بجيشه منها خالفه رافع بن هرثمة وأعلن خضوعه لمحمد بن زيد العلوى ودعا له على منبر نيسابور فعاد عمرو بن الليث وحاصره بنيسابور حتى احتلها ثانياً وكان رافع قد هرب إلى طوس فأرسل إليه عمرو جنداً فلحقوه هناك وقتلوه فانهزم إلى خوارم فتبعوه إليها وهناك قتلوه وأرسل عمرو إلى المعتضد كتاباً بذلك مع رأس رافع فارسلت إلى عمرو الخلع ولواء لولاية على الرى وهدايا من قبل المعتضد .

لما اتسع لعمرو هذا السلطان أرسل إلى الخليفة يطلب منه عهد الولاية على بلاد ما وراء النهر وعزل إسماعيل بن أحمد السامانى أميرها ففعل المعتضد ذلك وأرسل إليه عهد الولاية فاجابه عمرو على ذلك بإرسال هدية فكان مبلغ المال الذى وجهه أربعة آلاف ألف درهم وعشرين من الدواب بسروج ولجم محلاة و(١٥٠ دابة) بجلال مشهورة وكسوة وطيب ويزاة .

كانت هذه الولاية سبباً لمصيبة عمرو بن الليث فإنه خرج ليجوزها ولم يكن إسماعيل بالذى يسلمها إليه فكتب إليه إنك قد وليت دنيا عريضة وإنما فى يدى ما وراء النهر وأنا فى نهر فاقنع بما فى يدك واتركنى مقيماً بهذا النهر فأبى إجابته إلى ذلك فذكر لعمرو أمر نهر بلخ والشدة فى عبوره فقال: لو أشاء لسكرته ببدر الأموال وعبرته ولما أيس إسماعيل من تصرفه عنه جمع من معه من التناء والدهاقين وعبر النهر إلى الجانب الغربى وجاء عمرو فنزل بلخاً وأخذ إسماعيل عليه النواحي فصار كالمحاصر وندم على ما فعل وطلب المحاجة فنبى إسماعيل عليه ذلك فلم يكن بينهما كبير قتال حتى هزم عمرو فولى هارباً ومر بأجمة فى طريقه قيل له إنها أقرب فقال لعامة من معه: امضوا فى الطريق الواضح ومضى فى نفر يسير فدخل الأجمة فوحت دابته فوقعت ولم يكن له فى نفسه حيلة ومضى من معه ولم ينووا عليه وجاء أصحاب إسماعيل فأخذوه أسيراً وخيره إسماعيل بين أن يقيم عنده وأن يرسل إلى المعتضد فاختر أن يوجه إلى المعتضد فحبس وبذلك انتهت أيام عزه وختم معتضد حياته بالأمر بقتل عمرو فقتل فى أول خلافة المكتفى .

لما علم محمد بن زيد بأمر عمرو ظن ذلك فرصة لاخذ خراسان لأنه فهم أن إسماعيل بن أحمد لا يبارح عمله بما وراء النهر فخرج من طبرستان مريداً الاستيلاء على خراسان

فلما صار إلى جرجان كتب إليه إسماعيل يسأله الرجوع إلى طبرستان وترك جرجان له فأبى عليه ذلك ابن زيد فندب إسماعيل لحربه قائداً في جند فلقه على باب جرجان فانهزم عسكر ابن زيد وأصابته ضربات وأسر ابنه زيد ثم مات محمد بعقب هذه الواقعة بأيام فدفن على باب جرجان وحمل ابنه إلى إسماعيل بن أحمد بذلك زالت على يد السامانيين دولة رجلين كبيرين: عمرو بن الليث الصفار ومحمد بن زيد ونم يكن لأولادهما بعدهما كبير ذكر في التاريخ.

ولما تم ذلك كله على يد إسماعيل أرسل إليه المعتضد الخلع بدنة وتاجاً وسيفاً من ذهب مركباً على جميع ذلك الجوهر وبهدايا وثلاثة آلاف ألف دينار يفرقها في كل جيش من جيوش خراسان يوجهه إلى حرب سجستان لمحاربة من فيها من أصحاب طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث وبذلك صارت القوة في المشرق للأسرة السامانية فيبدهم بلاد ما وراء النهر وخراسان إلى الرى وسجستان ولهم فيها النفوذ والسلطان التام.

أمر المغرب:

كانت علاقة المعتضد بخمارويه بن أحمد بن طولون حسنة وكان خمارويه يتقرب إليه كثيراً فأهدى إليه كثيراً فأهدى إليه لأول خلافته من العين عشرين حملاً على بغال وعشرة من الخدم وصندوقين فيهما طراز وعشرين رجلاً على عشرين نجيباً بسروج محلاة بحية فضية كثيرة ومعهم حراب فضية وعليهم أقبية الدياج والمناطق المحلاة وسبع عشرة دقة بسروج ولجم منها خمسة بذهب والباقي بفضة و(٣٧دابة) بجلال مشهرة وخمسة أبغر بسروج ولجم وزرافة. ثم أراد أن يتقرب إلى الخليفة بالمصاهرة فعرض أن يزوج ابنته قهر الندى من على بن المعتضد فقال المعتضد أن أتزوجها فتزوجها واحتفل خمارويه بجهازها ثم احتفال ومن ضمن ذلك الجهاز دكة (سرير) أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مثبت في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا يعرف لها قيمة ومائة هون من ذهب ومنها ألف تكة ثمنها عشرة آلاف دينار فانظروا كم يكون بعد هذا. ولما تم الجهاز أمر قهر لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر فيما بين مصر وبغداد وأخرج معها أخاه شيبان بن أحمد بن طولون في جماعة فكانوا يسيرون بها سير الطفل في المهد فإذا وافت المتر وجدت قصرأ قد فرش فيه جميع ما يحتاج إليه وعلقت فيه الستور وأعد فيه كل ما يصلح لملها في حال الإقامة فكانت في سيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة كأنها في قصر أبيها تنتقل من مجلس إلى مجلس حتى قدمت بغداد أول المحرم (سنة ٢٨٢) وكان المعتضد إذ ذاك غائباً بالموصل فأدخلت للحرم حتى قدم فنقلت إليه في رابع ربيع الثاني ونودي في

جانبي بغداد ألا يعبر أحد في دجلة يوم الأحد وهو يوم الزفاف وغلقت أبواب الدروب التي تلى الشط ومد على الشوارع النافذة إلى دجلة شراع ووكل بحافتي دجلة من يمنع الناس أن يظهروا في دورهم على الشط فلما صليت العتمة وافت الشذا من دار المعتضد وفيها خدم معهم الشمع فوقفوا بإزاء دار صاعد التي كانت فيها قطر الندى وكانت أعدت أربع حراقات شدت مع دار صاعد فلما جاءت الشذا أهدرت الحراقات وصارت الشذا بين أيديهم فنزلت إليها حتى وصلت إلى دار المعتضد.

كان خمارويه يلي مصر وإليه طرطوس والشام فكانت إليه المحافظة على ثغر طرطوس وجنوده تقوم بذلك خير قيام. لم يزل الحال على ذلك حتى قتل خمارويه (سنة ٢٨٣) ولم يكن عند ولده جيش من المقدرة ما يسوس بها ملك أبيه فاتفق جمع من جنده على الفتك به ولكن عرف أمرهم فهربوا ووردوا بغداد فأكرم المعتضد وفادتهم وبعد ذلك ثار جماعة آخرون بجيشه فقتلوه وولوا أخاه هارون وكانت هذه المنازعات الداخلية سبباً لخروج طرطوس من أيدي بني طولون فقد قدم وفد من أهلها على المعتضد يطلبون أن يولى عليها والياً من قبله ففعل.

ثم اتفق المعتضد بعد ذلك مع هارون أن يتنازل هارون عن قنسرين والعواصم وتقصر ولايته على مصر والشام على أن يحمل إلى بيت المال ببغداد كل سنة (٤٥٠٠٠٠ دينار) ووجهت الخلع والعقد إلى هارون. ومن هذا يتبين أن نفوذ المعتضد في مصر والشام صار أقوى مما كان قبل لضعف أمر الطولونيين بالخلاف الذي وقع بينهم.

صفات المعتضد:

كان المعتضد قوى القلب جريئاً ولذلك كان للخلافة في عهده أكثر مما كان في عهد أبيه من الهيبة وإن كان الأمر في الحقيقة جل أن يصلح لأن وراءهم عدواً لا ينأى ويريد إفساد ملكهم ما أمكنه ولو أدى ذلك إلى إفساد البلاد كلها. وكان مع شجاعته قليل الرحمة سفاكاً للدماء شديد الرغبة في التمثيل بمن يقتله.

وله إصلاحات داخلية جلييلة منها أنه أمر برد الفاضل من سهام الموارث على ذوى الأرحام وأمر بإبطال ديوان الموارث وكان أصحاب التركات يلقون من ذلك عناء ومنها اهتمامه بكبرى دجيل وهو أحد روافد دجلة وقلع من فوهته صخراً كان يمنع الماء.

ومن أهم إصلاحه ما يعرف بالتقويم المعتضدى وإنا قائلون كلمة في شرحه: معلوم أن دين الإسلام يستعمل السنة الهلالية ويجعل أهلة الشهور علامة على عبادات افترضها منها

صوم رمضان وحج البيت في ذى الحجة فلم يكن هناك معتبر للسنة الشمسية التي تزيد على السنة الهلالية أحد عشر يوماً وربعاً إلا قليلاً، ولم يكن هناك مجال للتوفيق بين السنتين الشمسية والهلالية ولكن حصل أن المسلمين اضطروا فيما بعد لمراعاة السنة الشمسية لأن جباية الخراج إنما تكون عند إدراك الثمار والغلات وهذه وقتها واحد فكانوا يفتحون الخراج في يوم النيروز.

وكانت الفرس تعتبر السنة الشمسية (٣٦٠ يوماً) كل شهر ثلاثون يوماً كاملاً وكانوا يضيفون إليها خمسة أيام بين آبان ماه وأذرماه وهما الشهر الثامن والشهر التاسع من شهورهم ويجتمع لهم في كل (١٢٠ سنة) من ربيع اليوم أيام شهر تام ومن خمس الساعة الذي يتبع ربيع اليوم عندهم يوم واحد فألحقوا الشهر التام بها في كل (١١٦ سنة)، وبناءً على ذلك كانوا يؤخرون النيروز عن وقته شهراً كاملاً كلما مضت هذه المدة. فلما سقط ملكهم أغفلوا هذا الكبس واستمر فتح الخراج أيام النيروز في عهد المتوكل دخل بعض بساتينه فمر بزرع فرآه أخضر فقال لعلى بن يحيى المنجم: إن الزرع أخضر بعدما أدرك وقد استأمرني عبيد الله بن يحيى في استفتاح الخراج فكيف كانت الفرس تستفتح الخراج في النيروز والزرع لم يدرك بعد؟ فقال له على: ليس يجري الأمر اليوم على ما كان يجري عليه أيام الفرس ولا النيروز في هذه الأيام في وقته الذي كان في أيامها لأنها كانت تكبس في كل (١٢٠ سنة) شهراً وكان النيروز إذ تقدم شهراً وصار في خمس من حزيران كبست ذلك الشهر فصار في خمس من أيار وأسقطت شهراً وردته إلى خمس من حزيران فكان لا يتجاوز هذا، فلما تقلد خالد القسرى العراق وحضر الوقت الذي تكبس فيه الفرس منعها من ذلك فلما امتنعوا من الكبس تقدم النيروز تقدماً شديداً حتى صار يقع في نيسان والزرع أخضر فقال المتوكل: فاعمل لهذا عملاً ترد النيروز فيه إلى وقته الذي كان يقع فيه أيه الفرس وعرف بذلك عبيد الله بن يحيى ليكون استفتاح الخراج فيه فكتبت بذلك كتب (٢٤٣) ولكن أمرها لم يتم لقتل المتوكل. فلما ولي المعتضد وأخبر بخبر المتوكل اهتم بالأمر وحسب المدة التي تقدمها تاريخ النيروز بسبب إهمال الكبس فوجد أنه تأخر ستين يوماً فأخر النيروز بقدره فكان في (١١ حزيران) فجعله كذلك دائماً لا يتأخر عنه وجعله على حساب شهور الروم لتكبس شهوره كلما كبست الروم شهورها فصار لا يتقدم النيروز عن زمنه ولا يتأخر. قال البيروني في كتابه الآثار الباقية: وهذا وإن دقق في تحصيله فلم يعد به النيروز إلى ما كان عليه عند الكبس في دولة الفرس وذلك أن إهمال الفرس كبسهم كان قبل هلاك يزيدجرد بقریب من سبعين سنة لأنهم كانوا قد كبسوا السنة في زمان يزيدجرد بن سابور بشهرين أحدهما لما لزم السنة من التأخر وهو الواجب ووضعوا اللواحق خلفه علامة

وكان النوبة لأبان ماه كما سنذكر والشهر الآخر للمستأنف ليكون مفرغاً منه إلى مدة طويلة فإذا أسقط من السنين التي بين يزدجرد بن سابور وبين يزدجرد بن شهریار (١١٠ سنة) بقى بالتقريب سبعون سنة لا بالتحقيق فإن تواريخ الفرس مضطربة جداً ويكون حصّة هذه السبعين سنة من الأرباع قريباً من (١٧ يوماً) فكان يجب بالتحليل من القياس أن يؤخر (٧٧ يوماً) لا (٦٠) حتى يكون النيروز في (٢٨ حزيران) ولكن المتولى لذلك ظن أن طريقة الفرس في الكبس كانت شبيهة بالتى يسلكها الروم فيه فحسب الأيام من لدن زوال ملكهم والأمر فيه على خلاف ذلك ا هـ.

أما مسألة اتفاق السنة الخراجية مع السنة الهلالية فإنهم لما رأوا بالحساب أن كل (٣٢ سنة) شمسية تساوى بالتقريب (٣٣ سنة) هلالية كانوا يضيفون على السنة الخراجية كلما مرت (٣٢ سنة) ففى (سنة ٢٤١) الخراجية نسب الخراج إلى (سنة ٢٤٢) الهلالية وأسقطت (سنة ٢٤١) لأن الغلة إنما أدركت (سنة ٢٤٢). ولنضرب لذلك مثلاً يفهم به ما كانوا يعملونه كان أول المحرم (سنة ٢٠٤ وهو ٤ مايوسنة ٨٢٤) أول المحرم (سنة ٢٤٢ وهو ١٠ مايوسنة ٨٥٦) ومن بين هذين (٣٣ سنة) قمرية و(٣٢ سنة) شمسية فتكون السنة بالحساب الخارجى (سنة ٢٤١) فلكى تتحد مع السنة الهلالية يضيفون عليها واحداً حتى تكون (سنة ٢٤٢) ويسقطون من الخراج (سنة ٢٤١).

وقد كتب المعتضد بذلك كتاباً أمر فيه أن تكون جباية الخراج فى العراق والمشرق وما يتصل بهما ويجرى مجراهما على الطريق التى رسمها وإنما قيد بالعراق والمشرق لأن الحال فى مصر كانت على الكبس القبطى وفى الشام على الكبس الرومى وكلاهما لا يتغير به الزمان.

والمعتضد هو الذى ترك سامرا واستبدل بها بغداد فضاعت أبهتها وخربت بعد أن كانت تضارع بغداد بل لم يكن فى الأرض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا توسع ملكاً منها ولما استدبر أمرها جعلت تنقض وتحمل أنقاضها إلى بغداد وفى ذلك يقول بن المعتز:

قد أففرت سامرا ومما لشيء دوام
قالنقض يحمل منها كأنها آجام
ماتت كمات فيل تسئل منه المعظام

وبها قبور ستة من الخلفاء وهم الواصل والمتوكل والمتنصر والمعتز والمهدي والمعتمد وبها قبر إمامين من أئمة الشيعة وهما عليّ بن محمد والحسن بن عليّ العسكريين وبها السرداب التي تزعم الشيعة وهما عليّ بن محمد والحسن بن عليّ العسكريين وبها السرداب الذي تزعم الشيعة أنه يخرج منه المهدي المنتظر.

وفاة المعتضد:

توفي المعتضد لثمان بقين من ربيع الآخر (سنة ٢٨٩) وكان ولي عهده ابنه المكتفى.

المكتفى

هو على المكتفى ابن المعتضد بن أبى أحمد بن المتوكل وأمه أم ولد تركية اسمها جيجك ولد (سنة ٢٣٦) وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المعتضد بعهد منه وذلك فى (٢٢ ربيع الآخر سنة ٢٨٩) (١٥ أبريل سنة ٩٠٢) ولم يزل خليفة إلى أن توفى فى (١٢ ذى القعدة سنة ٢٩٥) (١٣ أغسطس سنة ٩٠٨) فكانت مدته ست سنوات وستة أشهر و١٩ يوماً.

وتولى فى عهده على بلاد المغرب الأقصى من الأدراسة يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس بن إدريس بعد اختلافات طويلة كانت بين أفراد هذا البيت وكانت ولايته (سنة ٢٩٢).

وفى عهده تولى إفريقية من الأغالبة زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب وهو آخر أمراء هذا البيت وكانت ولايته (سنة ٢٩٠).

وكان أمير مصر على عهده شيان بن أحمد بن طولون وهو آخر الأمراء من هذا البيت. وكان الأمير على زيد من آل زياد إبراهيم بن محمد (٢٨٩-٢٩١) ثم أبو الجيوش إسحاق بن إبراهيم.

وكان الأمير من آل سامان بالمشرق إسماعيل بن أحمد (٢٧٩-٢٩٥) ثم أحمد بن إسماعيل (٢٩٥-٣٠١).

ويعاصره فى بلاد الروم لاون السادس المقلب بالفيلسوف وفى فرنسا شارل الثالث الملقب بساذج.

وزراء المكتفى:

لما استخلف المكتفى أبقى فى الوزارة وزير أبيه القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب

فدبر الأمور على ما كان فى زمن المعتضد واستمر فى الوزارة عظيماً مهيباً إلى أن توفى (سنة ٢٩١).

فاستوزر المكتفى بعده العباس بن الحسن.

الأحوال فى عهده:

انتكست البلاد فى عهد المكتفى بعد أن كانت ابتدأت تنتعش فى عهد أبى أحمد الموفق وعهد ابنه المعتضد فقد ابتدأت ولايته بظهور المنافسات بين ذوى النفوذ من الدولة فكان أحدهم يكيد للآخر شر كيد حتى يورده المهالك من غير نظر فى ذلك إلى ما تقتضيه مصلحة الأمة.

ومما حصل مما يدل على ذلك أن بدران غلام المعتضد كان يقود الجيش المحافظ فى إقليم فارس وكان بينه وبين وزير المكتفى القاسم عبيد الله مباحدة فلم يكن من الوزير إلا أن أرسل للقواد الذين مع بدر بفارس يأمرهم بالمسير إليه ومفارقة بدر ففعلوا. لما رأى ذلك بدر انصرف إلى واسط فلما بلغ الخليفة انصرافة وكل بداره وقبض على جماعة من غلمته وقواده فحبسوا وأمر بمحواسمه من التراس والأعلام كلها وكان عليها (أبو النجم مؤلى المعتضد بالله) وذلك كله حصل لإغراء الوزير وتخويفه الخليفة من غدر بدر.

أراد الوزير بعد ذلك استعمال الحيلة فى القبض على بدر فدعا بأبى عمر محمد بن يوسف القاضى وأمره بالمضى إلى بدر ورفقائه وتطييب نفسه وإعطائه الآمال من أمير المؤمنين على نفسه وماله وولده فذهب إليه القاضى ودفع إليه الأمان فاستقر الأمر بينهم على أن بدران يدخل بغداد سامعاً مطيعاً وأمر غلماناه أن ينزعوا سلاحهم وأن لا يحاربوا أحداً وبينما هويسير فى الحراقة إذ وافاه محمد بن إسحاق بن كنداج فى شذا فلما قرع تحول إلى الحراقة وطيب نفس بدر ثم ورد عليه فى ذلك الحين أحد غلمان السلطان فى طبر فأخذه من الحراقة حتى صار به إلى جزيرة فى الصافية فأخرجه إليها وقتله وتسلم السلطان ضياعه ومستغلاته ودوره وجميع ماله.

وكان بهذا العمل الخزى للقاضى الذى توسط فى أمر لم يكن قادراً على تنفيذه وقد كانت العامة تدرك ما فى الإخلال بالعهود والمواثيق من المعرة حتى قال أحد الشعراء به القاضى على فعلته:

قل لقاضى مدينة المنصور بم أحلت أخذ رأس الأمير
بعد إعطائه الموائيق والعهد وعقد الأيمان فى منشور
أين أيمانك التى شهد الله على أنها يمين فجور
إن كفيك لا تفارق كفيه إلى أن ترى ملكك السرير
يا قليل الحياء يا أكذب الأمة يا شاهداً شهادة زور
ليس هذا فعل القضاة ولا يحسن أمثاله ولاية الجسور
أى أمر ركبت فى الجمعة الزهراء من شهر خير الشهور
قد مضى من قتلت فى رمضان صائماً بعد سجدة التعفير
يا بنى يوسف بن يعقوب أضحى أهل بغداد منكم فى غرور
بدد الله شملكم وأرانى ذلكم فى حياة هذا الوزير
فأعد الجواب للحكم العا دل من بعد منكر ونكير
أنتم كلكم فداء أبى حا زم المستقيم كل الأمور

والذى أهاج الناس من هذا أنهم لم يكونوا يتوقعون من القضاة الذين ينفذون فيهم شريعة الإسلام أن يكونوا عوناً على الغدر وعدم احترام الأيمان.

كانت تلك الحال سبباً لازدياد أمر القرامطة واضطرام نيرانهم فى الشام والعراق والبحرين وطريق مكة .

لما رأى داعيتهم زكرويه أهل السواد لا يغنون عن أنفسهم سعى لاستغواء أعراب الكوفة من أسد وطىء وتيم وغيرهم إلى رأيه فلم يستجيبوا وكانت جماعة من كلب تخفر الطريق على البر بالسماوة بين الكوفة ودمشق على طريق تدمر وتحمل الرسل وأمتعة التجار على إبلها فأرسل زكرويه أولاده إليهم فبايعوهم وخالطوهم وانتموا إلى على بن أبى طالب فقبلوا منهم ذلك ثم دعوهم إلى رأى القرامطة فقبل ذلك منهم أحد أفخاذهم فبايعوا فى آخر (سنة ٢٨٩) يحيى بن زكرويه ولقبوه الشيخ وزعم لهم أن بالسواد والمشرق مائة ألف تابع ومخرق لهم حتى اعتقدوه وأطاعوه فقصدهم سبك الديلمى مولى المعتضد بناحية الرصافة غربى ديار مضر فاغتروه وقتلوه وحرقوا مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى أصدعوا إلى أعمال الشام التى كانت فى حوزة هارون بن خمارويه ويليها من قبله

طغج بن جف فهزم القرمطى كل جيش وجهه إليه طغج حتى حصره فى مدينة دمشق فأنفذ إليه المصريون بدرأ الكبير غلام أحمد بن طولون فاجتمع مع طغج على حربه فواقعهم قريباً من دمشق وقتل فى الواقعة يحيى القرمطى ثم دارت الدائرة على المصريين فانحازوا وولى القرامطة عليهم الحسين بن زكرويه أخا يحيى فأظهر شامة فى وجهه وزعم أنها آية له فلقب ذا الشامة وظهر على المصريين وعلى جند حمص وغيرها من أرض الشام وتسمى بإمرة المؤمنين على منابرها - كان ذلك كله فى (سنتى ٢٨٩-٢٩٠).

وكان يكثر القتل فى كل بلد دخلها إلا من اتقت شره بصلحه والدخول فى أمره وكان لا يترك أحداً حتى صبيان المكاتب ومن البلدان التى لم يبق بها أحداً سليمة.

توالت كتب أهل الشام إلى الخليفة ببغداد يشكون مما ألم بهم من ذى الشامة من القتل والسبى وتخريب البلاد فلم ير بدأ من الخروج بنفسه إلى الشام فتأهب وسار إلى الشام وجعل طريقه على الموصل وقدم بين يديه أبو الأغر فى عشرة آلاف فارس فنزل أبو الأغر قريباً من حلب فكبسهم القرمطى فقتل منهم خلقاً كثيراً وسلم أبو الأغر فدخل حلب فى ألف رجل فتبعه القرمطى إلى حلب فحاربه أبو الأغر بمن بقى معه من أهل البلد فرجع عنهم.

سار المكتفى حتى نزل الرقة وسير الجيوش إليه وجعل أمرها إلى محمد بن سليمان الكاتب فسار محمد حتى صار بينه وبين حماء (١٢ ميلاً) فالتقوا بأصحاب القرمطى فالتحمت الحرب بين الفريقين واشتدت فهزم أصحاب القرمطى وقتلوا وأسر من رجالهم بشر كثير وتفرق الباقون فى البوادر وتبعهم أصحاب السلطان. ولما رأى القرمطى ما نزل بجنده حمل أخاً له مالاً وتقدم إليه أن يلحق بالبوادر إلى أن يظهر فى موضع فيسير إليه وركب هو فى ثلاثة معه وسار يريد الكوفة عرضاً فى البرية حتى انتهى إلى موضع نفذ معه زاده وعلفه فوجه بعض من كان معه إلى موضع يعرف بالدالية من أعمال طريق الفرات فلما دخلها أنكر زيه وسئل عن أمره فمجمج ثم أقر أن ذا الشامة معه فخرج متولى المسلحة بتلك الناحية وقبض عليه وعلى من معه فصاروا به إلى المكتفى وفى (٢٦ محرم سنة ٢٩١) أدخل الرقة مشهراً ثم حمل إلى بغداد وعقب ذلك أقبل محمد بن سليمان بجنده وبالأسرى الذين أخذهم من القرامطة وهم نيف وسبعون أسيراً فأعدموا كلهم ونظفت النواحي الشامية من هذه الفرقة المنكرة إلا أن ذلك لم يكن مبدءاً للمذهب القرمطى فإن والد يحيى ذا الشامة لم يزل على قيد الحياة وهو زكرويه رأس الفتنة.

لما بلغه مقتل ذى الشامة أنفذ رجلاً كان معلماً للقرآن بإحدى القرى اسمه عبد الله بن سعيد فتسمى نصرأ ليعمى أمره فدار على أحياء كلب يدعوهم إلى رأيه فساعده رجل اسمه

مقدام واستغوى له طوائف من أعراب البادية فذهب بهم إلى جهات الشام فأغار على مدينتي بصرى وأذرعات فحارب أهلها ثم أمنهم فلما استسلموا قتلهم وسبى ذراريهم واستصفى أموالهم ثم سار يؤم دمشق فغلب مقاتلتها ولكنه لم يطمع في دمشق لدفاع أهلها عنها. ولما علم الخليفة بفعله نفذ إليه الحسين بن حمدان فورد دمشق وقد دخل القرامطة طبرية فلما اتصل بهم خبره عطفوا نحو السماوة وتبعهم الحسين في برية السماوة وهم ينتقلون من ماء إلى ماء فلما أوغلوا انقطع عنهم. أما هم فأسرعوا إلى هيت فصبحوها وأهلها غارون فنهبوا نعمها وقتلوا من قدروا عليه من أهلها ثم رحل عنها إلى البرية فأرسل إليهم الخليفة محمد بن إسحاق في جيش وأمر الحسين بن حمدان أن يصمد نحوهم. ولما علم بنو كلب بتوجه هذه الجيوش إليهم عمدوا إلى نصر فقتلوه وتقربوا برأسه إلى السلطان وأظهروا الخضوع فعفا عنهم أما بقية القرامطة فأنحازوا إلى البادية.

ولما بلغ زكرويه كل ذلك أرسل إليهم داعية بدل نصر اسمه القاسم بن أحمد وواعدهم أن يوافوه بالكوفة ليغيروا عليها يوم النحر من (سنة ٢٩٣) فامتثلوا أمره ووافوا باب الكوفة منصرف الناس من صلاة العيد وعددهم نحو (٨٠٠ رجل) فأوقعوا بمن لحقوه من العوام وسلبوا جماعة وبادر الناس إلى الكوفة فدخلوها وتنادوا السلاح فنهض العامل بمن عنده من الجند وصادف القرامطة فهزمهم ثم بعث يطلب نجدة من بغداد فأرسل من هناك جند لمحاربة القرامطة بجهة القادسية ولكن هذا الجند لم يحافظ على خط رجعتة فجاءته القرامطة من خلفه فانهزم أقبح هزيمة واحتوى القرامطة على ما في معسكرهم فأخذوه وصارت لهم به قوة ثم أرسلوا إلى زكرويه فاستخرجوه من مخبئه فسار معهم وهو محتجب يدعونه السيد لا يبرزونه والقاسم يتولى الأمور دونه ويمضيها وجعلوا مقر أعمالهم الصحراء.

ومن أخبث ما فعلوه في (سنة ٢٩٤) أنهم أغاروا على قراقل الحج الآبية من مكة إلى المشرق خراسان والعراق فلم يتركوا من هؤلاء الحجاج من يخبر بخبر وأخذوا من الأموال شيئاً عظيماً وورد خبر ذلك إلى بغداد فعظم الأمر على الناس وعلى السلطان فاهتم الوزير بالأمر وندب إليهم جيشاً عظيماً ذهب إليهم في جادة مكة وقاتلهم فقتل منهم كثيراً وأسر زكرويه وخليفته وجماعة من خاصته واحتوى الجند على ما في معسكره وعاش زكرويه بعد الواقعة خمسة أيام ثم مات والذين هربوا من القرامطة لقيهم الحسين بن حمدان فأوقع بهم.

ولنذكر هنا نص كتابين أحدهما من ذى الشامة إلى عامل من عماله والثاني من عامل إلى ذى الشامة ليتضح لنا كيف كان لسان هؤلاء القوم في دعاويهم التي بها يستحلون سفك دماء الناس والسعى في الأرض بالفساد.

الكتاب الأول: من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدي المنصور بالله الناصر لدين الله القائم بأمر الله الحاكم بحكم الله الداعي إلى كتاب الله الذاب عن حرم الله المختار من ولد رسول الله أمير المؤمنين وإمام المسلمين ومذل المنافقين خليفة الله على العالمين وحاصد الظالمين وقاصم المعتدين ومبيد الملحددين وقاتل القاسطين ومهلك المفسدين وسراج المبصرين وضياء المستضيئين ومشتت المخالفين والقيم بسنة سيد المرسلين وولد خير الوصيين عليه السلام وعلى أهل بيته الطيبين كثيراً، إلى جعفر بن حميد الكردي سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأسأله أن يصلي على جدي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أما بعد فقد انتهى إلينا ما حدث قبلك من أخبار أعداء الله الكفرة وما فعلوه بناحيك وأظهروه من الظلم والعبث والفساد في الأرض فأعظمتنا ذلك ورأينا أن تنفذ إلى ما هناك من جيوشنا من ينتقم الله به من أعدائه الظالمين الذين يسعون في الأرض فساداً وأنفذنا عطيراً داعيتنا وجماعة من المؤمنين إلى مدينة حمص وأمددناهم بالعساكر ونحن في أثرهم وقد أوعزنا إليهم في المسير على ناحيتك لطلب أعداء الله حيث كانوا ونحن نرجو أن يجزنا الله فيهم على أحسن عوائده عندنا في أمثالهم فينبغي أن تشد قلبك وقلوك من معك من أوليائنا وتثق بالله وبنصره الذي لم يزل يوعدنا في كل من مرق عن الطاعة وانحرف عن الإيمان وتبادر إلينا بأخبار الناحية وما يتجدد فيها ولا تخف عنا شيئاً من أمرها إن شاء الله سبحانه اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على جدي محمد رسول الله وعلى أهل بيته وسلم كثيراً.

الكتاب الثاني: بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله أحمد الإمام المهدي المنصور بالله - ثم الصدر كله على مثال صدر نسخة كتابه إلى عامله - ثم بعد ذلك من عامر بن عيسى العنقائي سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته أما بعد أطل الله بقاء أمير المؤمنين وأدام الله عزه وتأييده ونصره وسلامته وكرامته ونعمته وسعادته وأسبغ نعمة الله عليه وزاد في إحسانه إليه وفضله لديه فقد كان وصل كتاب سيدي أمير المؤمنين أطل بقاء يعلمني فيه ما كان من نفوذ بعض الجيوش المنصورة مع قائد من قواده إلى ناحيتنا لمجاهدة أعداء الله بنى القصيص والخائن ابن دحيم وطلبهم حيث كانوا والإيقاع بهم وبأسبابهم وضياعهم ويأمرني أدام الله عزه عند نظري في كتابه بالنهوض في كل من قدرت عليه من أصحابي وعشائري للقائهم ومكاثفة الجيش ومعاضدتهم والمسير بسيرهم ولعمل كل ما يومون إليه ويأمرون به وفهمته ولم يصل إلى هذا الكتاب أعز الله أمير المؤمنين حتى وافت الجيوش المنصورة فنالت طرفاً من ناحية ابن دحيم وانصرفوا بالكتاب الوارد عليهم من مسرور بن أحمد الداعية ليلقوه بمدينة أقامية ثم ورد على كتاب مسرور بن أحمد في درجة الكتاب

الذى اقتصصت ما فيه فى صدر كتابى هذا يأمرنى فيه بجمع من تهيأ من أصحابى وعشيرتى والنهوض إلى ما قبله ويحذرنى التخلف عنه وكان ورود كتابه على وقت صح عندنا نزول المارق سبك عبد مفلح مدينة عرقة فى زهاء ألف رجل ما بين فارس وراجل وقد شارف بلدنا وأطل على ناحيتنا وقد وجه أحمد بن الوليد عبد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه إلى جميع أصحابه ووجهت إلى جميع أصحابى فجمعناهم إلينا ووجهنا العيون إلى ناحية عرقة لنعرف أخبار هذا الخائن وأين يريد فيكون قصدنا ذلك الوجه ونرجو أن يظفر الله به ويمكن منه بمنه وقدرته ولولا هذا الحادث ونزول هذا المارق فى هذه الناحية وإشرافه على بلدنا لما تأخرت فى جماعة أصحابى عن النهوض إلى مدينة أفامية لتكون يدى مع أيدى القواد المقيمين لمجاهدة من بتلك الناحية حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين وأعلمت سيدى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه السبب فى تخلفى عن مسرور بن أحمد ليكون على علم منه ثم إن أمرنى أدام الله عزه بالنفوذ إلى أفامية كان نفوذى برأيه وامتلئت ما يأمرنى به إن شاء الله على أمير المؤمنين نعمه وأدام عزه وسلامته وهنأ كرامته وألبسه عفوه وعافيته والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد النبى وعلى أهل بيته الطاهرين الأخيار.

هكذا ضعف سلطان هذه الطائفة بالعراق بعد قتل زكرويه وأولاده وقتل أكثر دعاةهم ولكن قد بقى ذنب الأفعى وهو الجناى بالبحرين ولم يكن له فى عهد المكتفى كبير عمل وإنما كانت مصائبه ورزاياه فى عهد المقتدر وسنين ذلك فى حينه.

خبر المشرق:

انتظمت بلاد خراسان وما وراء النهر لإسماعيل بن أحمد السامانى وكان رجلاً عاقلاً مدبراً ذا عزيمة ثابتة ولم يزل أمره على ما هو عليه والمكتفى راض عنه حتى توفى (سنة ٢٩٥) فولى بعده ابنه أحمد بن إسماعيل وعقد له المكتفى بيده لواء وأرسله إليه.

خبر المغرب:

وفى عهد المكتفى انقضت دولتان إحداهما دولة بنى طولون بمصر على يدى العباسيين وآخر أمرائها شيبان بن أحمد بن طولون (سنة ٢٩٢) والثانية دولة الأغالبة بإفريقية انتهت على يدى أبى عبد الله الشيعى داعية الفاطميين بالمغرب.

العلاقات مع الروم:

كانت العلاقات فى أول الأمر حسنة مع ملك الروم حتى أنه تبودلت الهدايا بين الملكين.

وفى (سنة ٢٩٠) وردت رسل صاحب الروم يسألون المكتفى المفاداة بمن فى أيدى المسلمين من الأسرى ومعهم هدايا فأجيبوا إلى طلبهم ولم يتم هذا الفداء إلا (سنة ٢٩٣) فكان جملة من فودى به من المسلمين نحو (١٢٠٠٠) وكان المتولى للفداء أمير الثغور رستم بن برد ولم تستمر العلاقات حسنة.

ففى (سنة ٢٩١) سار جيش إسلامى من طرطوس وصمد نحو أنطاكية ففتحها بالسيف عنوة وهى من أهم مدن الروم وثغورهم البحرية وقد قتل فى فتحها نحو (٥٠٠٠) من الروم وأسر مثلهم واستنقذ من أسارى المسلمين مثل ذلك وأخذوا من الروم ستين مركباً فحملت فيها الغنائم من الأموال والمتاع والرقيق وقد نصيب كل رجل ألف دينار وغزا من المسلمين أمير الثغر رستم مرتين وبلغ فى غزوته الثانية سلندوا ففتحها وصار إلى ألس فأسر من الروم عدداً كبيراً وغزا ابن كيغلغ من طرطوس وفى (سنة ٢٩٤) استأمن إلى السلطان بطريق اسمه أندرونقس وكان على حرب أهل الثغور من قبل ملك الروم فأجيب طلبه وأخرج نحواً من مائتى نفس من المسلمين كانوا أسرى فى حصنه وكان ملك الروم قد وجه من يقبض عليه فأعطى المسلمين الذين كانوا أسرى فى حصنه السلاح وأخرج معهم بعض بنيه فكبسوا البطريق الموجه إليه للقبض عليه ليلاً وقتلوا من معه خلقاً كثيراً وغنموا ما فى معسكرهم.

وكان رستم قد خرج فى أهل الثغور فى جمادى الأولى قاصداً أندرونقس ليخلصه فوافى رستم قونية بعقب الواقعة وعلم البطارقة بمسير المسلمين إليهم فانصرفوا ووجه أندرونقس ابنه إلى رستم ووجه رستم كاتبه وجماعة من البحرين فباتوا فى الحصن فلما أصبحوا خرج أندرونقس وجميع من معه من أسرى المسلمين ومن صار إليه منهم ومن وافقه على رأيه من النصارى وأخرج ماله ومتاعه إلى معسكر المسلمين وضرب المسلمون قونية ثم قفلوا إلى طرطوس هم وأندرونقس وأسارى المسلمين ومن كان مع أندرونقس من النصارى وقد وصل هذا البطريق إلى بغداد فأكرم.

وحصل فى آخر عهد المكتفى مفاداة ثانية تمت (سنة ٢٩٥) وكان عدة من فودى به من الرجال والنساء ثلاثة آلاف نفس.

وفاة المكتفى،

توفى المكتفى فى (١٢ ذى القعدة سنة ٢٩٥).

المقتدر

هو جعفر المقتدر بالله بن المعتضد بن أحمد بن المتوكل وهو أخو المقتفى وأمه أم ولد اسمها شغب (ولد سنة ٢٨٢) ويبيع بالخلافة بعد وفاة أخيه ولم يزل خليفة إلى أن قتل في (٢٨ شوال سنة ٣٢٠) (١٠ نوفمبر سنة ٩٣٢) فتكون مدته (٢٤ سنة و ١١ شهراً و ١٦ يوماً).

كان يعاصره في الأندلس عبد الله بن محمد إلى (سنة ٣٠٠) ثم أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر المتوفى (سنة ٣٥٠) وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين من بني أمية بالأندلس.

ويعاصره بإفريقية عبيد الله المهدي أول خلفاء الفاطميين بالمغرب (٢٩٧-٣٢٢).

ويعاصره في بلاد الروم لاون السادس ثم أخوه الإسكندر بن بسيل (٩١١-٩١٢) ثم قسطنطين السابع بن لاون السادس وكانت تدبره أمه زوا ثم رومانس الأول الأرمني الذي اغتصب الملك (سنة ٩١٩) ولم يبق لقسطنطين إلا الاسم وشارك رومانس في الملك أبناؤه خريستوف واسطفانس وقسطنطين أحدهم بعد الآخر وتصرف به تصرف مالك (٢٥ سنة) إلى (سنة ٩٤٤) فأغرى قسطنطين السابع ابنه رومانس هما اسطفانس وقسطنطين الثامن المناصب لآبيهما فثارا به وثلا عرشه وجبسه في دير حيث مات (سنة ٩٤٨) وعاد قسطنطين لسابع إلى ملكه (سنة ٩٤٥) حيث مات مستبدًا به إلى (سنة ٩٥٩) حيث مات مسموماً على ما يقال.

ويعاصره في فرنسا شارل الثالث الملقب بالساذج ثم روبرت الأول (٩٢٢-٩٢٣) ثم راول من أقارب الكاباسيان (٩٢٣-٩٦٢).

ويعاصره في خراسان وما وراء النهر أحمد بن إسماعيل بن أحمد الساماني.

كيف انتخب:

لما ثقل المكتفى كان فى منصب الوزارة العباس بن الحسين ففكر فيمن يتولى الخلافة بعده لأنه لم يكن ولى أحداً العهد فى صحته وكان من عادة الوزير أن يسايره إذا ركب واحد من هؤلاء الأربعة الذين يتولون الدواوين وهم أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح وأبو الحسن محمد بن عبد الله وأبو الحسن على بن محمد بن الفرات وأبو الحسن على بن عيسى فاستشار الوزير يوماً محمد بن داود الجراح فى ذلك فأشار بعبد الله بن المعتز ووصفه بالعقل والأدب والرأى واستشار بعده أبا الحسن بن الفرات فقال: هذا شئ ما جرت به عادتي أن أشير فيه وإنما أشاور فى العمال لا فى الخلفاء فغضب الوزير وقال: هذه مقاطعة باردة وليس يخفى عليك الصحيح وألح عليه فقال: إن كان رأى الوزير قد استقر على أحد بعينه فليفعل فعلم الوزير أنه يعنى ابن المعتز لاشتهار خبره فقال: لا أقنع إلا أن تمحضنى النصيحة فقال ابن الفرات: فليتنق الله الوزير ولا ينصب إلا من قد عرفه واطلع على جميع أحواله ولا ينصبه بخيلاً فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ولا طماعاً فيشره فى أموالهم فيصادروهم ويأخذ أموالهم وأملأهم ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة والآثام ويرجو الثواب فيما يفعله ولا يولى من عرف نعمة هذا ويستان هذا وضبعة هذا وفرس هذا ومن قد لقى الناس ولقوه وعاملهم وعاملوه ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه دخلهم وخرجهم فقال الوزير: صدقت ونصحت فيمن تشير؟ قال: أصلح الموجودين جعفر بن المعتضد فقال: ويحك هوصبى قال ابن الفرات: إلا أنه ابن المعتضد ولم نأت برجل كامل يياشر الأمور بنفسه غير محتاج إلينا. فمالت نفس الوزير إلى مشورة ابن الفرات وانضاف إلى ذلك وصية المكتفى فإنه أوصى لما اشتد مرضه بتقليد أخيه جعفر الخلافة فلما مات المكتفى اختار الوزير جعفر أ للخلافة بالاتفاق مع صافى الحرمى ولقب المقتدر بالله وسنه ١٠٠ ذاك ثلاث عشرة سنة.

وكان ذلك لم يرق للناس لصغر سن المقتدر فاجتمع القواد والقضاة والكتاب مع الوزير العباس بن الحسن واتفقوا على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز فراسلهم فى ذلك فأجابهم على ألا يكون فيه سفك دم ولا حرب فأخبروه باجتماعهم عليه وأنه ليس لهم منازع ولا محارب وكان رأس هذا التدبير الوزير ومحمد بن داود بن الجراح وأحمد بن يعقوب القاضى ومن القواد الحسين بن حمدان وبدر الأعجمى ووصيف بن صوارتكين ثم إن الوزير أراد الانفصال عنهم لأنه رأى حاله صالحاً مع المقتدر وأنه على ما يحب فقام عليه الآخرون فقتلوه، قتله الحسين بن حمدان وبدر ووصيف فى (٢٠ ربيع أول سنة ٢٩٦) وفى غده خلعوا المقتدر وبايعوا لابن المعتز وحضر البيعة الناس والقواد وأصحاب الدواوين سوى أبى الحسن بن الفرات وخواص المقتدر وكتبت الكتب بذلك إلى العمال ووجه المقتدر يأمره

بالانتقال من دار الخلافة فأجابه بالسمع والطاعة وسأل الإمهال إلى الليل . ولم يكن بقى مع المقتدر من القواد إلا مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال وحاشية الدار . فلما هم المقتدر بالانتقال قال بعضهم لبعض : لا نسلم الخلافة من غير أن نبلى عذراً ونجتهد فى دفع ما أصابنا فأجمع رأيهم على أن يصعدوا فى المساء إلى الدار التى فيها ابن المعتز ويقاتلوه وعاونهم المقتدر بالسلاح والزرديات وغير ذلك فركبوا فى السميريات واصعدوا فى المساء فلما رآهم من عند ابن المعتز هالهم كثرتهم واضطربوا وهربوا على وجوههم من قبل أن يصلوا إليهم وكان قد حصل قبل ذلك أن الحسين بن حمدان فارق بغداد بأهله وتركهم فى هذا المأزق ولا يدري لم فعل ذلك .

فلما رأى ابن المعتز هذه الحال ركب ومعه وزيره الذى اختاره له وهو محمد بن داود وهربا وغلما له ينادى يا معشر العامة أدعوا لخليفكم السنى البريهارى (ينسبونه إلى الحسين بن القاسم بن عبيد السله البريهارى مقدم الحنابلة وأهل السنة وللعمامة فيه اعتقاد فأرادوا من تلك النسبة استمالتهم بهذا القول) سار ابن المعتز على هذه الصفة نحو الصحراء ظناً منهم أن من بايع ابن المعتز من الجند يتبعونه فلم يلحقه منهم أحد ولما رأوا ذلك اختفى محمد بن داود فى بيته ونزل ابن المعتز عن دابته ومعه غلامه وانحدر إلى دار أبى عبد الله بن الجصاص فاستجار به واستتر أكثر من بايع ابن المعتز ووقعت الفتنة والنهب والقتل ببغداد وثار العيارون والسفل ينهبون الدولة لأن صاحب الشرطة كان ممن بايع ابن المعتز فهرب أيضاً .

فى ذلك الوقت خرج المقتدر بالعسكر وقبض على من كان لهم يد فى بيعه ابن المعتز فقتلهم وأرسل إلى ابن الفرات فاستوزره . ثم عثر على ابن المعتز فأخذ وحبس إلى الليل وعذب حتى مات وأخذ وزيره محمد بن داود فقتل ثم أرسل خلف الحسين بن حمدان فلما يدرك وأخيراً رضى عنه المقتدر فحضر إلى بغداد مرضياً عنه .

وانتهت بذلك هذه الفتنة التى بها ابتدأ ضعف الخلافة وسقوط هيبتها واشتد الانتكاس فى عهد المقتدر حتى لم يعد للخلافة أدنى سلطان ولا احترام فإن المقتدر حين ولى كان شاباً غراً لا يعرف من السياسة ولا من الشجاعة شيئاً وكانت له أم وقهرمانه صار لهما الحكم فى كل ما يجرى من الشؤون وإليهما يقترب بالرشوة من يريد عملاً أو وزارة والمقتدر لاه بما هوفيه من اللعب واللهو والسرف لا يفكر فى صلاح ولم يعد بيده شئ . ولنصور لكم الحال تماماً نبدأ بذكر الوزراء أيام دولته وكيف كانوا ينالون الوزارة وكيف كان يفعل بهم إذا قدمت رشوة من يريد أن يحل محلهم .

كان أول وزرائه أبو الحسن علي بن محمد موسى بن الفرات استوزره يوم الأحد لعشر بقين من شهر ربيع الأول (سنة ٢٩٦) فنظر في الأمور نظر جد واهتمام وأمر جماعة من القواد بطواف البلد ليلاً والإيقاع بأهل الدعارة ومن يرونه متعرضاً لنهب دار وأخذ مال وعلى يد ابن الفرات كانت عقوبات جميع من خرجوا مع ابن المعتز فصادر من صادر وقتل من قتل وكان ممن دخل في هذه الفتنة أبو عمر محمد بن يوسف القاضي فأخذ فيمن أخذ وحضر أبوه يوسف وهو شيخ كبير مجلس ابن الفرات وبكى بين يديه بكاء شديداً رق له منه وسأله حراسه نفس ولده أبي عمر والتصديق عليه به فقال الوزير الجناية عظيمة ولا يمكن تخليته إلا بمال جليل يطمع الخليفة فيه من جهته فبذل يوسف أن يفقر نفسه وابنه طلباً لبقائه وتلطف ابن الفرات فيما قاله للمقتدر وقرر أمر أبي عمر على مائة ألف دينار فأدى منها تسعين ألفاً من جملة ٤٥ ألفاً كانت عنده وديعة للعباس بن الحسين وأمره ابن الفرات بعد ذلك بملازمة داره وألا يخرج منها لثلا يجعل له حديث مجدّد.

مضى ابن الفرات في وزارته هذه ثلاث سنين وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً اختلفت عليه الأمور فيها وحدثت الحوادث وحضر عيد النحر من (سنة ٢٩٨) فاحتيج فيه من النفقات إلى ما جرت العادة به وكانت المواد قصرت والمؤن قد تضاعفت وطلب المقتدر أن يعطيه من بيت مال الخاصة ما يصرفه في نفقات هذا العيد فمنعه من ذلك وألزمه القيام به من جهته فوجد بذلك أعداؤه الطريق إلى الوقعة فيه.

فركب في يوم الأربعاء لأربع خلون من ذي الحجة إلى دار الخلافة وهو على غاية السكون والطمأنينة وجلس في الموضع الذي كان يجلس فيه قبل الوصول إلى السلطان فقبض عليه وعلى كاتبه ومضى القواد للقبض على أسبابه وكتابه فقبضوا عليهم وصلّ مؤنس الخادم إلى دار الوزارة فوكل بها وأنفذ يلبق إلى دار ابن الفرات فأحاط عليها وتسرع الجند والعوام إلى دور أولاده وأهله فنهبوا وأخربوها وأخذوا ساجها وسقوفها وعظم الأمر في النهب حتى ركب أبو القاسم في الحال بعد العصر في القواد والغلمان وطلب النهاية وعاقب قوماً منهم فقامت الهيبة وسكنت الفتنة وأحضر الوزير الثاني.

محمد بن عبيد الله بن خاقان:

يقلد الوزارة وقبض ما كان لابن الفرات من الضياع والأقطاع والأملاك والعقار والأموال والغلات وضح له ما مقداره ألف ألف دينار عيناً وستمائة ألف دينار سوى الأثاث والرحل والكرع والجمال.

تولى ابن خاقان فبدأ وزارته بالمصادرات والمضايقات يريد بذلك سد حاجة الخليفة حتى لا يقع فيما وقع فيه سلفه وحول من بيت مال الخاصة إلى بيت مال العامة ألف ألف دينار وستمئة ألف دينار على سبيل القرض ولم يؤد من عوض ذلك سوى أربعين ألف دينار وكان في ابن خاقان إهمال للأمور وإطراح للأعمال وتلون في الأفعال فكانت الكتب ترد عليه تصدر جواباتها عنه من غير أن يقف عليها أو يأمر بشيء فيها وإذا أخرجت إليه جوامعها تركها أياماً فلم يطالعها وربما وردت رسائل بحمول وكتب فيها سفاتج بمال فتبقى أياماً لا تفض وإذا قلد عامل أتبع بمن يعزله قبل وصوله إلى عمله وأتبع الصارف بمن يصرفه فقليل إنه اجتمع في خان بحلول سبعة أنفس وقد قلد كل واحد منهم ماء الكوفة في عشرين يوماً وبالموصل خمسة قد قلدوا قردى وبازيدى وأنهم اجتمعوا وتشاكوا ما دفعوا إليه وخرج عن أيديهم من نفقاتهم وما بذلوه عن تقليدهم على أن ينالوا من مال العمل ما قدموه وأنفقوه واستظهروا لنفوسهم به وخلوا العمل على آخر من ورد من الناحية.

وكان إذا سئل حاجة دق صدره بيديه وقال: نعم وكرامة حتى لقب دق صدره ويسط يده وأيدى أولاده وكتابه بالتوقيعات بالصلوات والإطلاقات والإقطاعات والتسويغات وتخفيف الطسوق والمعاملات وأخذ الموافق على إضاعة الحقوق وإسقاط الرسوم فسخت الوزارة وأخلقت الهيبة وزادت الحال في إخلال الأعمال ووقوف الأحوال وقصور المواد وتضاعف الاستحقاقات واشتداد المطالبات وشغب الجند شغباً بعد شغب وتسحبوا على السلطان تسحباً بعد تسحب وأخرج إليهم من بيت مال الخاصة شيئاً بعد شيء، حتى إذا انحل النظام وبان الانتشار وتصور المقتدر الصورة فيما تطرق من الوهن على المملكة شاور مؤسناً الخادم فيمن بقلده الوزارة فاستقر الأمر على وزارة:

على بن عيسى:

وكان بمكة بعيداً عما يجري ببغداد خوفاً على نفسه فأنفذ إليه فلما حضر قلد الوزارة في عاشر محرم (سنة ٣٠١) فكانت مدة سلفه سنة واحدة وشهراً وخمسة أيام فسلم إلى الوزير الجديد هو وولده وأبو الهيثم بن ثوبة. ولما نظر على في الأمور وجد في أيدي القواد والحاشية والرعية توقيعات كثيرة بخط ابن خاقان وخط ابنه وكتابه في فك وإثبات وتقرير إيجاب ومظالم وتسويغات وإقطاعات ومقاطعات بما مثله يأتي على ارتفاع المملكة وقد كان الخاقاني أذن لهذه الجماعة في التوقيع عنه بكل ما رآه وكانوا على فاقة وضغطة وخروج من نكبة وعطلة وعرضهم الارتفاق وأخذ ما لاح: تأمل على بن عيسى هذه التوقيعات فأسقطها وكان منها ما ثبت في الدواوين وما لم يثبت وعمل على إعلام المقتدر ما على

الملك وبيت المال من الوهن والنقص بامضائها فقال له أحد خلائه: لا تفعل فإن الخليفة على ما تعرفه من التدبر بآراء النساء والقبول من الحاشية وأكثر هذه التوقيعات لهم وللمتعلقين عليهم والمتجئين إليهم فاعدل إلى أن تنظر ما قد أنشئ الكتاب به من ديوان الدار إلى أصحاب الدار فتمضيه وما كان بخلاف ذلك أبطلته فإنك غمضى القليل وتبطل الكثير وتأمين عداوة الناس ومتى استأذنت الخليفة لم تأمن أن يأمر بامضائها كلها فتقع في الطويل العريض. فلم يقبل ومضى فطالع المقتدر بالصورة واستأمره في إسقاط التوقيعات وقد كان الحواشي سبقوا إليه بالشكوى فقال له: ارجع إلى الخاقاني وابنه فما عرفاك أنه بتوقيعها أمضيتها وما كان بتوقيع أصحابها رددته. فأمر بجمع الرقاع وأنفذت إلى الخاقاني وابنه في السجن فأقر الخاقاني بصدور كلها عن إذنه فقامت قيامة علي بن عيسى من ذلك الجواب واضطر إلى إمضاء الأكثر وإسقاط من استضعف صاحبه واستلان جانبه ولم تكن نه جهة يشفع له وعرف الحاشية ذلك وشكروا للخاقاني وتعصبوا له وقاموا بأمره كم سيجىء.

كان علي بن عيسى رجلاً عاقلاً متديناً متصوناً متعقفاً، وعارفاً بالأعمال حافظاً للأموال كثير الوقار والجهد بعيداً من التبذل والهزل على شح غالب في طباعه وتجههم ظاهر في أخلاقه وعمد في نظره إلى تخفيف المؤن وحذف الكلف ونقص الخرج المضايقة في الجارء والرزق ورد كثيراً مما وقع به الخاقاني من الإثبات والزيادات فأوحش خواص المقتدر وعاداه فكثرت السعاية عليه والوقية فيه واستقل أكثر الناس موضعه وضائق صدورهم بنظره ووقع الشروع في إفساد أمره ورد ابن الفرات.

عرف الوزير ما يجري من ذلك فبدأ بالاستعفاء وكان فيما كتب من رقاعة بذلك إني السيدة أم المقتدر.

بسم الله الرحمن الرحيم أطال الله بقاء السيدة وأدام عزها وتأييدها وكلاءتها وحرستها وأسبغ نعمه عليها وزاد في إحسانه إليها ومواهبه الجميلة وآلائه الجزيلة وأقسمه الهيثة وفوائده السنية عندها وبلغها في سيدنا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وأدام له النعم والتمكين والنصر والتأييد غاية محبتها وأفضل أمنيتها ووصل أيام سرورها بعافيته واعتباطه برؤيته ووقاها فيه وفي نفسها وفي الأمراء استودعهم الله واستوهم أيامهم كل سوء محض ومخوف بمنه ورأفته وصلت الرقعة أعز الله السيدة وعرفت ما تضمنت فأما الفتنة التي كانت ملتحمة مع أعظم الأعداء مضره وأقربهم محلة وأشدهم على المطالبة جراً فقد تكلفت الإنفاق عليها وقمت بتدبيرها حتى بلغ الله أمير المؤمنين والسيدة في جميعها المحنة وانتظمت في صدور الأعداء شرقاً وغرباً الهيبة وما أنفقت مع ذلك من بيت مال الخاصة

بعد الذى رددته إليه نصف عشر ما أنفق محمد بن عبيد الله الخاقاني وابن الفرات قبله وأنا عامل بعون الله على رد ذلك عن آخره ومتى لم ينفق المعتضد بالله فى أسفاره على مائدة أعدائه من بيت مال الخاصة أضعاف هذه النفقة وقد أنفق المكتفى بالله وكان من النظر فى القليل اليسير على ما عرف به من بيت مال الخاصة جملة بعد جملة مع قلة النفقات فى أيام المعتضد بالله وما أقول قولاً يدفع لأن الدواوين تشهد به وحسابات بيوت الأموال تدل عليه ومؤنس خازن بيت مال الخاصة منذ أيام المعتضد بالله وإلى هذه الغاية يعلمه وإن سئل عنه صدق هذا مع رفقى بالرعية وعمارتى النواحي المحتلة وإزالتي عنها كل ظلم ومؤونة حتى صارت أيام أمير المؤمنين أطال الله بقاءه منذ خدمته أيام الخير وفيها الآثار الموصوفة وامتلات قلوب الرعية هيبة بعد أن كانت تثب على الرؤساء وترمى بالحجارة على ما قيل نى عند اجتيازهم فى دجلة . وأما الاستحقاقات المتأخرة فلست أعرفها وبياب أمير المؤمنين الكبير من الغلمان والحاشية والفرسان والرجالة وما أحسب صنفاً من هذه الأصناف يقدر أن يقول إنه قبض فى وقت من الأوقات قبضاً متصلاً وليس يقول أحد منهم إنه دفع عن استحقاق ولا تأخر له شئ من رزقه ونزله كذلك الفرسان والعساكر الخارجة مع مؤنس وغيره مستوفية وأكثر من بالحضرة فهذه سيبلهم . وقد حضروا منذ مدة باب العامة وطالبوا فأدخلت طائفة منهم ونوظرت فلم تكن لهم حجة فى الاستحقاقات وإنما التمسوا الزيادة والنظر والصلة وهذا خارج عن الواجب ولومنع بعضهم فلم يعط شيئاً لكان ذلك واجباً صالحاً ومتى كان الجند يوفون حتى لا يكون لهم شئ متأخر ما كان هذا فى زمن من لأزمان وما تركت أن قلت لسيدنا أمير المؤمنين أعزه الله فى ذلك ما يجب أن أقوله وخاطبت أم عيسى مرة بعد مرة فيه وأما ما قيل للسيدة أعزها الله فى استعفاء فلم أستعفها ولوحملت الرماد على رأسى لما تكرهت ذلك ولا تأييته وإنى لألزم نفسى الصبر على كل نائبة فى خدمة سيدنا أمير المؤمنين، أيده الله وأرى ذلك ديانة ولكنى أعز الله السيدة تحجر كما يضجر الناس إذا خوطب بما لا يحب وأنا أبلغ جهدى فى النصيحة وتأدية لأمانة فإن كان ذلك واقعاً موقعه فهو الذى أقصد وإن كان يظن بى غير ما أنا عليه فهى نصيبة وقد يحرم الإنسان ثمرة اجتهاده ويقع ما يفعله على خلاف مذهبه واعتماده وما يسعى وما يحل لى أن أؤخر الصدق فى جميع الأحوال قاضياً بذلك حق الله عز وجل بحق سيدنا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وحق السيدة أعزها الله وأسأل الله أولاً وآخراً أن يهلع لهما أمورهما ظاهراً وباطناً صغيرها وكبيرها ويكفيهما المهم ويسهل الصلاح بهما . على أيديهما بمنه وقدرته وجوده وكرمه .

وإنما كتبنا هذا الكتاب بطوله ليتبين كيف كان تداخل النساء فى سياسة المملكة . إن على

بن عيسى كان أحسن وزراء المقتدر وقد كان مما فعله في وزارته هذه أن أسقط المكس بمكة والتكملة بفارس وسوق بحر الأهواز وحصن مهدي ونهر السدرة وكان يعترض في هذه المواضع على ما يجهز إلى البحر ويرد منه وتؤخذ الضرائب المسرفة عنه وأزال جباية الجمهور بديار ربيعة وأشار على المقتدر بوقف المستغلات بدار السلام وغلثها نحو ثلاثة عشر ألف دينار والضياع الموروثة بالسواد الجارية في ديوان الخاصة وارتفاعها نيف وثمانون ألف دينار على الحرمين والثغور فقبل رأيه ونصب على بن عيسى لهذه الوقوف ديواناً سمى ديوان البر. ولما كان بمكة وجد الماء ضيقاً على أهلها وعلى أصحاب السلطان يسخرون جمال الناس وحميرهم لنقله من جدة إليها فابتاع عدداً كبيراً من الجمال والحمير ووقفه على حمل الماء وأقام لها العلوفة الراتبية ومنع من السخرية وحظرها وحفر بئراً عظيمة فخرجت عذبة شروباً وسماها الجراحية. وابتاع عيناً غزيرة بألف دينار وفتحها ووسعها حتى كثر الماء بمكة ووصل الفرق به إلى أهل الضعف والمسكنة.

ومع كل ما أجراه من الإصلاح فإن حكومة النساء لم تتركه هادئ البال. قرب عيه الأضحى واحتيج إلى ما جرت العادة بإطلاقه للحرم فجاءته أم موسى القهرمانة في آخر فت القعدة مخاطبة في ذلك ومقررة للأمر فيه وكان محتجياً فلم يأذن لها حاجبه واعتذر نه عذراً لطيفاً وصرفها صرفاً جميلاً فغضبت وانصرفت وأعلم على بن عيسى خبرها في حضورها وانصرفا فأنفذ إليها واستعذرها فلم تعذر وصارت إلى المقتدر بالله وإلى السيدة وأغرتهما به وتكذبت عندهما عليه وأدى ذلك إلى القبض عليه في يوم الإثنين ثامن فت الحجة (سنة ٣٠٤) فكانت مدة وزارته ثلاث سنين وعشرة أشهر و٢٨ يوماً.

وفي يوم القبض عليه أطلق الوزير ابن الفرات وأعيد من محبسه إلى دست الوزارة وروى عليه المقتدر ما كان قبض عنه وعن أهله وكتبه وأسبابه من الضياع والأموال فارتجع ما كد حصل في أيدي الناس والقواد وخواص الدولة من ذلك وكان قد تعهد وهو في السجن أنه متى رد للوزارة أطلق المولد والحرم والخدم ومن بالحضرة من الفرسان برسم التغاريق مثل ما كان يطلقه في وزارته الأولى تماماً وإداراً وأن يحمل إلى المقتدر كل يوم ألف دينار وروى السيدة والأمراء (٥٠٠) دينار فوفى بما تعهد به.

كان حامد بن العباس قد تضمن واسطاً وضياعها بمال يخرج منه إياها على بن عيسى فلما وزر ابن الفرات كان يعلم أن حامد بن العباس يربح منها ربحاً كثيراً فلما انتهت مدة ضمانه أراد أن يخرجها عنه إلى غيره وأن بواسط قسيماً الجوهري يشرف للسيدة المقتدر على ضياعها بواسط ويكثر هناك المقام ويحضر عند حامد فيسطه فاتفقا على أن قسيماً يسفر له في نيل الوزارة فذهب قسيم إلى بغداد وخاطب نصيراً الحاجب في دست

وأطعمه فى حامد وملاً يده منه وعرفه سعة صدره وسخاء نفسه وضمن له منه تصحيح المال الكثير من ابن الفرات وأسبابه وراسل السيدة أيضاً ووافق هذا القول والسعى سوء رأى نصر الحاجب فى ابن الفرات وخوفه منه وكثرة الوقية فيه قول الناس إنه قد قلد ولده الدواوين وأقاربه الأعمال إلى غير ذلك من الوشائيات التى تروج فى حكومة النساء فاتفق الأمر على إصعاد حامد وتوليته فأرسل إليه فحضر وفى يوم حضوره قبض على ابن الفرات يوم الخميس لثلاث بقين من جمادى الأولى (سنة ٣٠٦) وكانت مدة وزارته هذه الدفعة (سنة وخمسة أشهر و١٩ يوماً).

حامد بن العباس:

لم يكن لحامد من الخصال ما يؤهله للوزارة فظهر ذلك لحاشية المقتدر فعابوه عنده ونسبوه على الجهل بأمور الوزارة فأمر بإطلاق على بن عيسى من محبسه وجعله يتولى الدواوين شبه النائب عن حامد فكان يراجع فى الأمور ويصدر عن رأيه ثم إنه استبد بالأمور دون حامد ولم يبق لحامد غير اسم الوزارة حتى قيل فيهما:

هذا وزير بلا سواد وذا سواد بلا وزير

ثم إن حامداً أحضر ابن الفرات ليقابله على أعماله ووكل بمناظرته على بن أحمد الماذننى ليصحح عليه الأحوال فلم يقدر على إثبات الحجة فانتدب له حامد وسبه ونال منه وقام إليه فلكنه وكان حامد سفيهاً فقال له ابن الفرات: أنت على بساط السلطان وفى دار المملكة وليس هذا الموضع مما تعرفه من بيدر تقسمه أوغلة تستفضل فى كيلها ولا مثل أكار تشتمه ثم قال لشفيح اللؤلؤى: قل لأمير المؤمنين عنى إن حامداً إنما حملة على الدخول فى الوزارة وليس من أهلها إننى أوجب عليه أكثر من ألفى ألف دينار من فضل ضمانه وألححت عليه فى مطالبته بها فظن أنها تندفع عنه بدخوله فى الوزارة وأنه يضيف إليها غيرها فاستشاط حامد وبالع فى شتمه فأنفذ المقتدر فأقام ابن الفرات من مجلسه ورده إلى محبسه وقال على بن عيسى ونصر الحاجب لحامد: قد جنيت علينا وعلى نفسك جناية عظيمة بما فعلت بابن الفرات وأيقظت منه شيطاناً لا ينم.

ولما رأى حامد أنه لا عمل له مع على بن عيسى شرع فى عمل له آخر فضمن أعمال الخراج والضيايع الخاصة والعامة والمستحدثة والفراية بسواد بغداد والكوفة وواسط والبصرة والأهواز وأصبهان واستأذن فى الانحدار إلى واسط ليدبر أمر ضمانه الأول فأذن له فأنحدر واسم الوزارة عليه وعلى بن عيسى يدبر الأمور وأظهر حامد زيادة ظاهرة فى الأموال فسر المقتدر وبسط يد حامد فى الأعمال حتى خافه على بن عيسى ثم إن السعر غلا ببغداد

فثارت العامة والخاصة واستغاثوا وكسروا المنابر وكان حامد يخزن الغلال وكذلك غيره من القواد فأمر المقتدر بإحضار حامد بن العباس فحضر فعاد الناس إلى شغلهم فأنفذ حامد جنداً لمنعهم فقاتلهم العامة وأحرقوا الجسرين وأخرجوا المحبوسين من السجون ونهبوا ديار صاحب الشرطة ولم يتركوا له شيئاً فأنفذ المقتدر جيشاً قاتل العامة حتى هربوا ودخلوا الجامع بباب الطاق فوكل بأبواب الجامع وأخذ كل من فيه فحبسوا وضربوا بالمقارع وقطعت أيدي من عرف بالفساد فسكنت الفتنة وأمر المقتدر بفتح مخازن الغلة التي لحامد ولأم المقتدر وغيرهما وبيع ما فيهما فرخصت الأسعار وسكن الناس وأفهم على بن عيسى المقتدر - سبب غلاء الأسعار إنما هو ضمان حامد لأنه منع من بيع الغلال في البيادر وخزنها فأمَرَ المقتدر بفسخ الضمان عن حامد وصرف عماله عن السواد وأمر على بن عيسى أن يتولى ذلك فسكن الناس.

ضج الأولاد والحرم والخدم والحشم إلى المقتدر مستغيثين من تأخير أرزاقهم فإن على بن عيسى كان يؤخرها فإذا اجتمع عدة شهور أعطاهم بعضاً وأسقط بعضاً وحط من أرزاق العمال في كل سنة شهرين فزادت عداوة الناس له وضجر المقتدر من هذه الاستغاثات وكذلك ضجر حامد بن العباس من مقامه ببغداد وليس له من الأمر شيء غير لبس السود وأنف من أطراح على بن عيسى لجانبه فاستأذن حامد وسار إلى واسط. وجرى بين حماد وبين مفلح الأسود كلام فقال حامد: لقد هممت أن أشتري مائة خادم أسود وأسميهم مفلحاً فحقدها عليه مفلح وكان خصيصاً بالمقتدر فسعى ومعه المحسن بن الحسن بن الفرات للحسن بالوزارة وضمن أموالاً جلييلة وكتب على يده رقعة يقول إن تسلم الوزير وعلى بن عيسى وابن الحواري وشفيعاً للؤلؤى ونصرأ الحاجب وأم موسى القهرمانة والمادرتي - يستخرج منهم سبعة آلاف ألف دينار وهذه رشوة عظيمة لا يستهان بها فأصاب ذلك السر وقبض على على بن عيسى في ربيع الآخر (سنة ٣١١) وأطلق ابن الفرات وعهدت إليه وزارته الثالثة وسمع حامد بالخبر واختفى ببغداد ثم لبس زي راهب وخرج من مكانه ثم اختفى فيه ومشى إلى نصر الحاجب وسأله أن يوصل حاله إلى الخليفة فدعا نصر مفلح فلما حضر ورأى حامداً قال: أهلاً بمولانا الوزير أين ممالكك السودان الذين سميت كل واحد منهم مفلحاً ولم يكن لحضوره نتيجة تقيده بل سلم إلى ابن الفرات الوزير فامتنع المحسن ابنه وكان وقحاً سئ الأدب ذا قسوة شديدة وكان الناس يسمونه الخبيث فعنف حامداً بأنواع العذاب وأخيراً أنفذه إلى واسط لبيع أملاكه بها ثم دس من سمه في الطريق فمات وظهر في هذه الوزارة من المحسن شر عظيم لكثرة ما نكب الناس وطاردهم وعنفهم بأنواع العذاب لاستخراج أموالهم حتى مات أكثرهم تحت العذاب من غير شفقة ولا رحمة

وفيه كبار الدولة ورؤساؤها وكتاب دواوينها وصادف ذلك أن وقع الشر العظيم من القرامطة بالحجاج فتضاعفت المصائب على أهل بغداد رؤساؤهم تقتل وحجاجهم تنهب وتموت عطشاً ولا مدافع ولا محام فكثر الإرجاف على ابن الفرات وأخيراً صدر الأمر بالقبض عليه من ثامن ربيع الأول (سنة ٣١٢) بعد أن استقر في هذه الوزارة الأخيرة عشرة أشهر وثمانية عشر يوماً فقبض عليه ثم قبض على ابنه المحسن وتولى الوزارة.

عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان:

بعد أن تكفل بمصادرة ابن الفرات بألفي ألف دينار فكان ذلك سبباً لتضييقه على ابن الفرات وولده ثم عذب المحسن بأنواع العذاب ليجيب إلى مصادرة يذلها فلم يجبه إلى دينار واحد وقال: لا أجمع لكم بين نفسى ومالى واشتد عليه العذاب بحيث امتنع عن الطعام والشراب فلما علم بذلك المقتدر أمر بحمله مع أبيه إلى دار الخلافة ثم اتفق رجال الحاشية على قتلها فذبحوهما كما تذبح الغنم وكان عمر ابن الفرات حين قتل (٧١ سنة) وعمر ولده المحسن (٣٣ سنة) كان ابن الفرات يقول إن المقتدر يقتلنى. عاد يوماً وهو مفكر كثير الهم فقيل له فى ذلك فقال: كنت عند أمير المؤمنين فما خاطبته فى شئ من الأشياء إلا قال لى نعم فقلت له الشئ وضده فى كل ذلك يقول نعم فقيل له: هذا لحسن ظنه بك وثقته بما تقول فقال: لا والله ولكنه أذن لكل قاتل وما يؤمنى أن يقال له يقتل الوزير فيقول نعم والله إنه قاتلى. وكان ابن الفرات كريماً ذا رياسة وكفاية فى عمل حسن السؤال والجواب ولم يكن له إلا ولده المحسن.

لم يكن الوزير الخاقانى بأحسن حظاً من غيره من الوزراء فقد وجد من يساوم عليه فرفع إلى المقتدر رقعة من أبى العباس الخصيبى يذكر معايبه ومعائب ابنه عبد الوهاب وعجزهما وضياع الأموال وطمع العمال ثم إن الوزير مرض فوفقت الأموال وطلب الجند أرزاقهم وشغبوا فأرسل إليه المقتدر فى ذلك فلم يقدر على شئ فعزل فى رمضان (سنة ٣١٣) وولى الوزارة.

أبو العباس الخصيبى:

وكان هذا الوزير الجديد لا يصلح لعمل فإنه كان شروباً فكان يصبح سكراناً لا قصد فيه لعمل وسماع حديث وكان يترك الكتب الواردة للدواوين لا يطالعها إلا بعد مدة ويهمل الأجوبة عنها فضاعت الأموال وماتت المصالح ثم إنه لضجره وتبرمه بها وبغيرها من

الأشغال وكُلَّ الأمور لنوابه وأهمل الإطلاع عليهم فباعوا مصلحته بمصلحة نفوسهم ولم يظهر هذا الاختلال أشير على المقتدر بعزله وولاية عليّ بن عيسى فقبض عليه في ذي القعدة (سنة ٣١٤) بعد وزارة مدتها سنة وشهران وأخذ ابنه وأصحابه فحبسوا واستدعى عليّ بن عيسى من مكة وكان بها مقيماً ليدبر أمر الوزارة وأمر عبيد الله بن محمد الكلوزاني بالنيابة عن عليّ بن عيسى إلى أن يحضر فسار عليّ بن عيسى فحضر بغداد في أول (سنة ٣١٥) وبه صلحت الأموال نوعاً وكان من أقوم الأسباب في ذلك أن الخصى كان قد اجتمع عنده المصادرون وكفالات من كفل منهم وضمانات العمال بما ضمنوا من المال بالسواد والأهواز وفارس والمغرب فنظر فيها عليّ وأرسل في طلب تلك الأموال فأقبلت إليه شيئاً بعد شيء فأدى الأرزاق وأخرج العطاء وأسقط من الجند من لا يحمل السلاح ومن أولاد المرتزقة من هو في المهد فإن آباءهم أثبتوا أسماءهم ومن أرزاق المغنيّ والمساخرة والندماء وغيرهم وتولى الأعمال بنفسه ليلاً ونهاراً واستعمل العمال في الولايات واختار الكفاة ومع ما أظهره من الهمة وظهر على يده من الصلاح لم يكن ممن يعجب حاشية المقتدر لأنه كان يرى أن الإصلاح لا يكون إلا مع الاقتصاد في النفقة ونفقة الخدم والحرم ولاسيما أم المقتدر كانت هائلة فلا بد من الاقتصاد فيها ولما علموا بذلك شرعوا يشون به فلما أحس عليّ بذلك استعفى من الوزارة واحتج بالشيخوخة وقلة النهضة فأمره المقتدر بالصبر وقال: أنت عندى بمنزلة والدى المعتضد فآلح في ذلك ومع أن الرجل كذ يستقيل ليخرج من هذه المضايق بسلام أبى سوء الحال في تلك الأزمنة وتغلب النهم والحاشية أن ينيله هذه الراحة في خروجه فأمر المقتدر في منتصف ربيع الأول (سنة ٣١٦) بالقبض عليه وعلى أخيه عبد الرحمن وولى الوزارة.

أبو عليّ بن مقلّة:

وكما كانت لأبى عليّ يد ماهرة في الكتابة حتى ضرب بها المثل كانت ماهرة في أخذ الرشاء على التولية والعزل وكان بينه وبين أكبر القواد مؤنس المظفر مودة فلذلك كان يشيت قدمه كلما قاربها الزلل حتى حصلت الوحشة بين المقتدر ومؤنس فدعا ذلك إلى عزل ابن مقلّة في آخر جمادى الأولى (سنة ٣١٨) وقبض عليه بعد سنتين وأربعة أشهر وثلاثة أيام واستوزد.

سليمان بن الحسن:

ولما لم يكن المقتدر ميالاً لسليمان وإنما رضيه تبعاً لرأى مؤنس أمر عليّ بن عيسى بالاطلاع على الدواوين وأن لا ينفرد عنه سليمان بشئ وصودر ابن مقلّة بمائتى ألف دينار.

لم تطل هذه الوزارة كثيراً لأن الأحوال ضاقت على سليمان: كثرت عليه المطالبات ووقفت وظائف السلطان واتصلت رقاع من يرشح نفسه للوزارة بالسعاية والضمان بالقيام بالوظائف وأرزاق الجند وغير ذلك. كانت وزارته غير متمكنة لأن عليّ بن عيسى كان معه على الواوين وسائر الأمور وأفرد عليّ بن عيسى بالنظر في المظالم واستعمل على ديوان السواد غيره فانقطعت مواد الوزير فإنه كان يقيم من قبله من يشتري توقيعات أرزاق جماعة لا يمكنهم مفارقة ما هم عليه من الخدم فكان يعطيهم نصف المبلغ وكذلك إدارات الفقهاء وأرباب البيوت فكانت أحواله رديئة وأدى ذلك إلى القبض عليه لثلاث بقين من رجب (سنة ٣١٩) بعد سنة وشهرين واستوزر.

نبو القاسم الكلوزاني:

ولم تكن وزارته أيضاً عن رغبة المقتدر بل عن رأى مؤنس وقد حصلت حوادث غريبة الشكل تبين لنا ما كان عليه المقتدر من الجهل والغباوة وذلك أنه كان يبغداد إنسان يعرف بالدانيالى وكان ذواً ذكياً محتالاً وكان يعتق الكاغد ويكتب فيه بخطه ما يشبه الخط العتيق ويذكر فيه إشارات ورموزاً يودعها أسماء أقوام من أرباب الدولة فيحصل له بذلك رفق كثير. توصل إلى الحسين بن القاسم حتى جعل اسمه في كتاب ووضع عتقه وذكر فيه علامات وجهه وما فيه من الآثار ويقول إنه يوزر للخليفة الثامن عشر من بنى العباس وتستقيم الأمور على يديه ويقهر الأعداء وتتغمر الدنيا في أيامه وجعل هذا كله في جملة كتاب فيه ذكر حوادث وقعت وأشياء لم تقع بعد ونسب ذلك إلى دانيال وعتق الكتاب وأخذه وقرأه على مفلح الأسود فأخذ الكتاب وأحضره للمقتدر فقال له: أتعرف في الكتاب من هو على هذه الصفة فقال: ما أعرف إلا الحسين بن القاسم فقال المقتدر: صدقت وإن قلبى ليميل إليه فإن جاءك رسول برقعة منه فاعرضها على واكتم حاله ولا تطلع على أمره تحداً وذهب الدانيالى إلى الحسين وعرفه الخبر فكتب رقعة إلى مفلح فأوصلها إلى المقتدر وفيها يطلب الوزارة وضمن أنه يقوم بالنفقات من غير أن يطلب شيئاً من بيت المال الخاص فعزل الكلوزاني في رمضان (سنة ٣١٩) بعد شهرين وثلاثة أيام وتولاها:

الحسين بن القاسم:

ولما جاء لم يكن من أهل الوزارة ولا من ذوى التدبير فضاقت عليه الأحوال وكثرت لإخراجات فاستسلف جملة وافرة واطلع المقتدر على اضطرابه فعزله في ربيع الآخر (سنة ٣٢٠) بعد سبع أشهر واستوزر:

أبا الفتح الفضل بن حجر هو آخر وزرائه،

تولى الوزارة في عهد المقتدر اثنا عشر وزيراً ومنهم من تقلد الوزارة مرتين وثلاثاً وكانت تنال بالرشوة ودخل في أمر تعيين الوزراء النساء والخدم والحاشية ولم يكن الصالح منهم يبقى في العمل كثيراً لأن مدار طول المدة كان على رضا أم المقتدر وقهرمائه وخدم الدار وهؤلاء لا يرضون إلا إذا حوبوا بالأموال الكثيرة التي بها تفسد المالية وتختل موازنتها فمتى حصل التقصير في ذلك وقدم رجل آخر رشوة فسرعان ما يقبض على الأول ويصادر ويعين الثاني وهذه حال أخلقت ديباجة الدولة وأسقطت حرمتها حتى لم يكن لها في نظر العامة ولا في نظر متغلبى الأطراف حرمة. وليس ذلك كل ما أسقط أمر الدولة في عهد المقتدر بل أضيف إلى ذلك قوة القرامطة وما كان منهم من الإخلال بالأمن في العراق والحجاز.

أمر القرامطة،

كان رئيس القرامطة بالبحرين أبوسعيد الحسن بن بهرام الجاني فقتل (سنة ٣٠١) بعد أن استولى على هجر والأحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين فولى بعده ابنه أبا طاهر سليمان الجاني وكانت له غزوات متتابعة إلى جهة البصرة يريد الاستيلاء عليها وأشد غزواته له (سنة ٣١١) فإنه سار إليها في ألف وسبعمائة من القرامطة ودخلها وقتل حاميتها ووضع السيف في أهلها وأقام بها سبعة عشر يوماً يحمل منها ما يقدر عليه من المال والأمتعة والنساء والصبيان ثم عاد إلى بلده ومنها توجه إلى طريق الحاج ليلقاهم عند رجوعهم إلى مكة فأوقع بقافلة تقدمت معظم الحاج وكان فيها خلق كثير من أهل بغداد وغيرهم فنهبهم واتصل الخبر بباقي الحاج وهم بفيء فأقاموا بها حتى فنى زادهم فارتحلوا مسرعين إلى طريق الكوفة فأوقع بهم القرامطة وأخذوا جمال الحاج جميعها وما أرادوا من الأمتعة والأموال والنساء والصبيان ثم عاد الجاني إلى هجر وترك الحاج في مواضعهم فمات أكثرهم جوعاً وعطشاً من حر الشمس فانقلبت بغداد من سوء تأثير هذا الخبر وكان وصوله في الوقت الذي قتل فيه المحسن بن الفرات من قتل من المصادرين فازدوجت المصيبة وكان ابن الفرات يتهم بالتشيع فذكر بكل قبيح على الستهم.

اضطر المقتدر أن يكاتب أبا طاهر يطلب منه أن يطلق من عنده من أسرى الحاج فأطلقهم وطلب ولاية البصرة والأهواز فلم يجبه المقتدر فسار من هجر يريد الحاج وكان جعفر بن ورقاء الشيباني متقلداً أعمال الكوفة وطريق مكة فلما سار الحاج من بغداد سار جعفر يريد أيديهم خوفاً من أبي طاهر ومعه ألف رجل من بني شيبان وسار معهم أيضاً قواد السلط-

ومعهم ستة آلاف رجل فلقى أبوطاهر القرمطى جعفرأ الشيباني فقاتله جعفر فبينما هويقاتله إذ طلع جمع من القرامطة عن يمينه فانهمز من بين أيديهم فلقى القافلة الأولى فردها إلى الكوفة ومعها عسكر الخليفة وتبعهم أبو طاهر إلى باب الكوفة فقاتلهم فانهمز عسكر الخليفة ودخل أبوطاهر الكوفة وأقام ستة أيام بظاهرها يدخل البلد نهاراً فيقيم في الجامع إلى الليل ثم يخرج فيبيت في عسكره وحمل منها ما قدر على حمله من الأموال والثياب وغير ذلك ثم عاد إلى هجر وكان أهل بغداد قد خافوا أن يهجم القرامطة عليهم.

وفى (سنة ٣١٥) سار أبوطاهر نحو الكوفة فأمر المقتدر يوسف بن أبي الساج أن يسير إليها لحمايتها من القرامطة وقد أعد له بالكوفة الإنزال له ولعسكره فسبقه إليها أبوطاهر واستولى على كل هذه المون وكانت شيئاً كثيراً ووصل يوسف بعد أبي طاهر بيوم واحد فلما وصل أرسل إلى القرامطة يوم الجمعة يدعوهم إلى طاعة المقتدر فإن أبوا فموعدهم الحرب يوم الأحد فقالوا: لا طاعة علينا إلا لله والموعود بيننا للحرب بكرة غد فلما كان الغد رأى يوسف قلة القرامطة فاحتقرهم وقال: إن هؤلاء الكلاب لا بقاء لهم بعد ساعة في يدى وتقدم بأن يكتب كتاب الفتح والبشارة بالظفر قبل اللقاء تهاوناً بهم ثم زحف الناس بعضهم إلى بعض واستمر القتال إلى غروب الشمس فلما رأى أبوطاهر ذلك باشر الحرب بنفسه ومعه جماعة يثق بهم وحمل بهم فطحن أصحاب يوسف ودقهم فانهمزوا بين يديه وأسر يوسف وعدد كثير من أصحابه وورد الخبر بذلك إلى بغداد فخاف الخاص والعام من القرامطة خوفاً شديداً وعزموا على الهرب إلى حلوان وهمذان وجاء المنهزمون من وقعة الكوفة إلى بغداد ووصل الخبر بأن القرامطة قد ساروا إلى عين التمر فأنفذ من بغداد خمسمائة سميرية فيها المقاتلة ل تمنعهم من عبور الفرات وسير جماعة من الجيش إلى الأنبار حفظها ومنع القرامطة من العبور هنالك. ثم إن القرامطة قصدوا الأنبار ولما وصلوها نزلوا غربى الفرات لأن أهل الأنبار كانوا قد قطعوا الجسر ثم أنفذ أبوطاهر أصحابه إلى الحديثة فجاؤوه بسفن عقدها وعبر عليها نحو ثلثمائة من أصحابه فقاتلوا عسكر الخليفة فهزمهم وقتلوا منهم جماعة واستولوا على مدينة الأنبار وعقدوا الجسر وعبر عليه أبوطاهر ولكنه خلف عظم جيشه فى البر الغربى ولما ورد الخبر بعبور أبى طاهر إلى الأنبار خرج نصر خاجب بجيش جرار فلحق بمؤنس فلحق المظفر فاجتمعا فى نيف وأربعين ألف مقاتل وكان هذا الجيش مضطرباً فى مسيره قد تمكن الخوف من قلب أجناده وكان يمكنهم لودبروا جيشهم تدبيراً حسناً أن يأخذوا أبا طاهر الذى كان قد عبر وترك جنده ولكنهم تهاونوا حتى عد إلى جيشه ثم اقتطع مؤنس من الجيش نحو ستة آلاف أمرهم بالعبور ليغتموا معسكر لقرامطة ويخلصوا يوسف بن أبى الساج ففشلوا وانهمزوا أمام شجاعة القرامطة وكانت

نتيجة ذلك أن أمر أبوطاهر بقتل يوسف وجميع الأسرى وكانت عدة القرامطة في هذه الخرجة (٢٧٠٠) ولما علم المقتدر بعدة عسكره وعدة القرامطة قال لعن الله نيفاً وثمانين ألفاً بعجزون عن (٢٧٠٠) وجاء إنسان إلى علي بن عيسى الوزير وأخبره أن في جيرانه رجلاً من شيراز على مذهب القرامطة يكتب أبا طاهر بالأخبار فأحضره وسأله فاعترف وقال: ما صحبت أبا طاهر إلا لما صح عندي أنه على الحق وأنت وصاحبك كفار تأخذون ما ليس لكم ولا بد لله من حجة في أرضه وإمامنا المهدي محمد ابن فلان ابن فلان ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب ولسنا كالرافضة والاثنا عشرية الذين يقولون بجهلهم إن لهم إماماً ينتظرونه ويكذب بعضهم البعض فيقول قد رأيته وسمعته وهويقرأ ولا ينكرون بجهلهم وغباوتهم أنه لا يجوز أن يعطى من العمر ما يظنونه. فقال الوزير: قد خالطت عسكرنا وعرفتهم فمن فيهم على مذهبك؟ فقال: وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة كيف تطمع مني أن أسلم قوماً مؤمنين إلى قوم كافرين يقتلونهم لا أفعل ذلك فأمره فضرب ضرباً شديداً ومنع الطعام والشراب فمات بعد ثلاثة أيام.

أما أبوطاهر فإنه سار من الأنبار وعانى في أرض الجزيرة نهياً وقتلاً إلا من اعتصم من بالأمان والفدية وجيوش السلطان لا تؤثر فيها أثراً وتخاف أن تقدم عليه فلما تم له ما نود من الجزيرة عاد إلى الكوفة ومنها دخل هو وأصحابه البرية بعد أن أخافوا السبل وأهلكوا العدد الجم.

وكانت هذه الانتصارات سبباً في ظهور من كان بالسواد ممن يعتقد مذهب القرامطة ويكتم اعتقاده خوفاً فأظهروا اعتقادهم واجتمع منهم بسواد الكوفة أكثر من عشرة آلاف رجل وولوا أمرهم رجلاً يعرف بحريث بن مسعود واجتمعت طائفة أخرى بعين السمر ونواحيها في جمع كثير وولوا أمرهم رجلاً يعرف بعيسى بن موسى وكانوا يدعون إلى المهدي وسار عيسى إلى الكوفة ونزل بظاهرها وجبى الخراج وصرف عمال السلطان عن السواد وسار حريث إلى أعمال الموفق وبنى بها داراً سماها دار الهجرة واستولى على تلك الناحية فكان أصحابه ينتهبون ويقتلون ويسبون. فأرسل المقتدر إلى حريث بن مسعود ومعه هارون بن غريب وإلى عيسى بن موسى ومن معه بالكوفة صافياً البصري فأوقع فيهما بمن أرسل إليه من القرامطة وأسرى منهم خلق كثير وقتل أكثر ممن أسرى وأخذ أعلامهم وكانت بيضاء كتب عليها (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم الوارثين) فأدخلت بغداد منكوسة واضمحل أمر من بالسواد منهم وكفى له ناس شرهم وإن كان كل ذلك مما يجعل بخراب القرى وإتلاف المزارع.

وفى (سنة ٣١٧) فعل أبو طاهر ما هو أشنع وأدهى وذلك أنه سار بجنده إلى مكة فوافها يوم التروية فلم يرع حرمة البيت الحرام، بل نهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتلهم حتى فى المسجد الحرام وفى البيت نفسه وقلع الحجر الأسود وأنفذه إلى هجر فخرج إليه أمير مكة فى جماعة من الأشراف فسألوه فى أموالهم فلم يشفعهم فقاتلوه فقتلهم أجمعين وقلع باب البيت وطرح القتلى فى بئر زمزم ودفن الباقي فى المسجد الحرام حيث قتلوا بغير غسل ولا كفن ولا صلى على أحد منهم وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة. ولم يحصل فى التاريخ أن انتهكت حرمة هذا البيت إلى هذا الحد حتى أن المهدي عبيد الله العلوى لما علم ذلك كتب إلى أبى طاهر ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة ويقول: قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم وترد الحجر الأسود إلى مكانه وترد كسوة الكعبة فأنا برئ منك فى الدنيا والآخرة ولما وصله هذا الكتاب أعاد الحجر الأسود واستعاد ما أمكنه من أموال أهل مكة فردّه وقال: إن الناس اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحجاج ولا أقدر على منعهم.

للتغلبون وما كان منهم:

فى عهد المقتدر اشتد سلطان التغلبين بأطراف المملكة وهذه نتيجة طبيعية لما أصاب الدولة من الخلل.

ففى الأندلس قام رجل الدولة الأموية عبد الرحمن الناصر وتسمى باسم أمير المؤمنين لأنه لم يعد هناك ما يراعيه رجال الدولة الأموية من أمر الخلافة الإسلامية ببغداد لانحطاط شأنها ولعب الفساد بها وخيانة الوزراء فيها وكان عبد الرحمن قد مكّنه عقله الواسع وفكره الثاقب من العلوبعد الصيت حتى رهبته ملوك الإفرنجية والروم وهادوه وأرسلوا إليه السفراء وكذلك فعل هو معهم.

وفى إفريقية قامت الدولة العلوية ومحت فى طريق غلبتها دولة الأدارسة من المغرب لأقصى والأغلبة من إفريقية وجعلت مقرها مدينة المهديّة التى أسسها عبيد الله المهدي بالقرب من القيروان وكانت همته بعد ذلك موجهة إلى الاستيلاء على مصر فكان يناوشها بالجنود ولكنه لم يتهياً له الاستيلاء عليها.

وفى البحرين وما صاقبها اتسع سلطان القرامطة واستقلوا بملك تلك البلاد وكانت لعراق دائماً على خوف مستمر منهم وقطعوا طريق الحج حتى كان حجاج العراق قد اتخذوا لهم طريقاً آخر إلى مكة علم، الموصل، ثم الشام ثم مكة.

وفى خراسان وما وراء النهر استقر ملك الدولة السامانية وكان الديلم يناوشونها من وقت لآخر كما سيأتى فى تاريخهم.

وفى الموصل ابتدأت دولة آل حمدان ولكن لم يتمكن سلطانهم فى عهد المقتدر أما ما فعله الروم بثغور المسلمين فى هذا العهد فهو فى غاية الشنعة ففى (سنة ٣٠٣) أغاروا على الثغور الجزرية وقصدوا حصن منصور وسبوا من فيه وجرى على الناس أمر عظيم ولم يكن أمه الروم من الجيوش من يصدهم لأنهم كانوا مشغولين برتق الفتوق الداخلية التى كانت متوالية.

وفى (سنة ٣٠٥) وصل رسولان من ملك الروم إلى المقتدر يطلبان المهادنة والفدء فأكرما إكراماً كثيراً وأدخلوا على الوزير وهو فى أكمل أبهة وقد صف الأجناد بالسلاح والزينة التامة فأديا الرسالة ثم أتتهما دخلا على المقتدر وقد جلس لهما واصطف الأجد بالسلاح والزينة التامة وأديا الرسالة فأجابهما المقتدر إلى طلب ملك الروم من الفداء وسر مؤنساً الخادم ليحضر الفداء وجعله أميراً على كل بلد يدخله يتصرف فيه على ما يريد إنى أن يخرج منه وسير معه جمعاً من الجنود وأطلق لهم أرزاقاً واسعة وأنفذ معه مائة وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين وسار مؤنس والرسل وكان الفداء على يديه.

ولم يدم هذا الصفاء طويلاً بل عادت الحروب والغارات من الطرفين وكانت سجلاً وكلما كان يجتمع عند الطرفين أسرى يحصل الفداء كالعادة.

وفى (سنة ٣١٣) كتب ملك الروم إلى أهل الشغور الإسلامية يأمرها بحمل الخراج إليه فإن فعلوا وإلا قصدهم فقتل الرجال وسبى الذرية وقال إننى صحت عندى ضعف ولا تك فلم يفعلوا فسار إليهم وأخرب البلاد ودخل ملطية (سنة ٣١٤) فأخربها وسبى منها ونهب وأقام فيها ستة عشر يوماً ولما رأى أهل ملطية ما حل بقراهم من التخريب قصدوا بغداد مستغيثين فلم يغاثوا وعادوا بغير فائدة.

وفى (سنة ٣١٥) خرجت سرية من طرطوس إلى بلاد الروم فوقع عليها العدو وأسرى من المسلمين أربعمائة رجل فقتلوا صبراً. وفيها سار الدمستق فى جيش عظيم من الروم إلى مدينة ديبيل وهى قاعدة أرمينية وكان معه دبابات ومجانيق ومعه مزارق تترق بالنار فلا يقوه بين يديها أحد من شدة النار فكان ذلك أشد شئ على المسلمين حتى أصيب الرامى به من سهام المسلمين فخفت الشدة وكان الدمستق يجلس على كرسى عال يشرف على أئيدى وعلى عسكره فأمرهم بالقتال على ما يراه فصبر لهم المسلمون حتى وصلوا إلى سور المدينة فنقبوا فيها نقباً كثيرة ودخلوا المدينة فقاتلهم أهلها قتالاً شديداً حتى أخرجوهم من المدينة وقتلوا منهم عشرة آلاف قتيل. وكانت هذه السنة سنة نجاح المسلمين على الروم.

وفى (سنة ٣١٩) اشتدت وطأة المسلمين على الروم وغزوا بلادهم حتى بلغوا عمورية وانقرة، والفضل فى ذلك كله يرجع إلى قائد عظيم من غلمان المقتدر اسمه ثمل وكان والى الثغور فأمكنه بما أوقعه من الرعب فى قلوب أعدائه أن يستعيد بعض الهيبة للدولة بعد أن كادت تذهب من صدر الروم بالمرّة.

وعلى الجملة فكانت خلافة المقتدر فى جميع أيامها شر أيام على الدولة العباسية لأنه حكم فيها النساء والخدم وبذر فى الأموال تبذيراً مفضعاً وكان يعزل الوزراء ويولى غيرهم بما يقدم من الرشاء له ولأمله ولقهرماته ولخدمه ولا يأخذ الوزارة بالرشوة إلا من هو عازم على الخيانة ليحصل على ما دفعه فكان جل هم الكثير منهم أن يسد حاجته أولاً ثم حاجة من ولأه، لا يسألون أجاءت تلك الأموال من ظلم أوعدل ؟ وهكذا نهاية الفساد فى الدولة وهو المؤذن بخرابها واضمحلالها.

قتل المقتدر

كان فى دولة المقتدر قائدان هما فى أرفع الدرجات أولهما مؤنس المظفر وهو القائد العام للجيش وعليه المعول فى تسييرها ويليه فى المرتبة محمد بن ياقوت وكان بينهما شئ من المنافسة.

ففى (سنة ٣١٩) قوى أمر محمد بن ياقوت وقلد مع الشرطة الحسبة وضم إليه رجال قوى بهم فعظم ذلك على مؤنس وسأل المقتدر صرف محمد عن الحسبة وقال: هذا شغل لا يجوز أن يتولاه غير القضاة والعدول فأجابه المقتدر وعزله وصرف محمداً عن الحسبة وصرف ابنه عن الشرطة وأبعدهما عن الحضرة فأخرجوا إلى المدائن حسبما طلب مؤنس وولى بدلهم إبراهيم بن رائق وأخاه محمداً الحسبة والشرطة وهذا كان بدء الوحشة بين مقتدر ومؤنس ومتى وجدت الوحشة ساءت الظنون وكان للوهم فى النفوس أكبر الآثار.

بلغ مؤنس أن الوزير الحسين بن القاسم فقد وافق جماعة من القواد فى التدبير عليه فتكر له مؤنس وطلب من المقتدر عزله ومصادرته فأجاب إلى عزله ولم يصادره فلم يقنع مؤنس بذلك فبقى الحسين فى الوزارة وكتب إلى هارون بن غريب أحد القواد وهو بدير لعاقول أن يحضر إلى بغداد وكذلك كتب إلى محمد بن ياقوت يستقدمه فزادت الوحشة عند مؤنس وصح عنده أن الحسين يسعى فى التدبير عليه ثم صح عنده أنه قد جمع الرجال وأنغلما الحجرية فى دار الخليفة فأظهر الغضب وذهب نحو الموصل وأرسل غلاماً له إلى مقتدر برسالة فطلب الوزير منه أن يسلمها إليه فأبى فسيبه الوزير وشم صاحبه وأمر بضربه

وصادره بثلاثمائة ألف دينار وأخذ خطه بها وحبسه ونهب داره فلما بلغ مؤنس الخبر سار نحو الموصل في أصحابه ومماليكه وتقدم الوزير بقبض أقطاع مؤنس وأملاكه وأملاك من معه فحصل من ذلك مال عظيم وزاد في محل الوزير عند المقتدر فلقبه عميد الدولة وضرب اسمه على الدينار والدرهم وتمكن من الوزارة وولى وعزل.

أما مؤنس فإنه استولى على الموصل من يد بنى حمدان واستولى على أموالهم وديارهم وخرج إليه كثير من العساكر من بغداد والشام ومصر لإحسانه كان إليهم وعاد إليه ناصر الدولة بن حمدان فصار معه. فلما اجتمعت إليه العساكر انحدر إلى بغداد في شوال (سنة ٣٢٠) فلما بلغ خبره جند بغداد شغبوا وطلبوا أرزاقهم ففرق المقتدر فيهم مالا عظيماً إلا أنه لم يشيعهم وسير العساكر لمقابلة مؤنس في طريقه فلم يقدروا على رده فجاء حتى نزل بباب الشماسية فحل الخوف في قلب المقتدر وجنده وكان يريد ترك بغداد لمؤنس والرحيل إلى واسط فردّه عن ذلك محمد بن ياقوت وزين له اللقاء وقوى نفسه بأن القوم متى رأوه عادوا بأجمعهم إليه فرجع إلى قوله وهو كاره ثم أشار عليه بحضور الحرب فخرج وهو كاره وبين يديه الفقهاء والقراء معهم المصاحف مشهورة وعليه البردة والناس حوله فوقف على تل بعيد من المعركة فأرسل قواد أصحابه إليه يسألونه التقدم مرة بعد أخرى وهو لا يرى مكانه فلما ألحوا عليه تقدم من موضعه فانهزم أصحابه قبل وصوله إليهم فلقبه على بـ بليق من أصحاب مؤنس فترجل وقبل الأرض وقال له: أين تمضى ارجع فلعن الله من أشار عليك بالحضور فأراد الرجوع فلقبه قوم من المغاربة والبربر فشبهوا عليه سيوفهم وضربه أحدهم بسيفه على عاتقه فسقط إلى الأرض وذبحه بعضهم ثم رفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وأخذ جميع ما عليه حتى سراويله وتركوه مكشوفاً إلى أن مر به رجل من الأكرّة فستره بحشيش ثم حفر له موضعه ودفن وكان عمره حين قتل (٨٠ سنة) ثم تقدم مؤنس وأنفذ إلى دار الخليفة من يمنعها من النهب.

القاهر

هو أبو محمد بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل وأمّه أم ولد بربرية اسمها قتول وبويع بالخلافة يوم أن قتل المقتدر فى (٢٨ شوال سنة ٣٢٠) (١ نوفمبر سنة ٩٣٢) ولم يزل خليفة حتى خلع فى (٥ جمادى الأولى سنة ٣٢٢) (٢٣ إبريل سنة ٩٣٤) فكانت مدته سنة وستة أشهر وستة أيام.

ومعاصروه من الملوك والمتغلبين هم معاصرو المقتدر ما عدا أحمد بن إسماعيل السامانى.

كيف انتخب:

لما قتل المقتدر كان من رأى مؤنس إقامة ولد أبى العباس أحمد وقال إنه تربيتى وهوصبى عاقل وفيه دين وكرم ووفاء بما يقول فإذا جلس للخلافة سمحت نفس جدته والدة المقتدر وإخوته وغلمان أبيه ببذل المال ولم ينتطح فى قتل المقتدر عزّان فاعترض عليه أبويعقوب إسحاق بن إسماعيل النوبختى وقال بعد الكد والتعب استرحنا من خليفة له أم وخالة وخدم يديرونه فنعود إلى تلك الحال والله لا نرضى إلا برجل كامل يدبر نفسه ويدبرنا وما زال بمؤنس حتى رده عن رأيه وذكر له محمد بن المعتضد وهو أخو المكتفى فأجابه إليه على كره منه فإنه كان يقول إنى عارف بشره وسوء نيته ولكنه لا حيلة. فبايعوه واستخلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه بليق ولعلّى بن بليق وأخذوا خطه بذلك واستقرت له الخلافة وبايعه الناس واستوزر أبا على بن مقلة واستحجب على بن بليق.

الحال فى عهد القاهر:

كان القاهر كما قال مؤنس شريراً خبيث النية فإنه فى أول خلافته اشتغل بالبحث عمن استتر من أولاد المقتدر وحرمه واشتغل بمناظرة أم المقتدر وكانت مريضة قد ابتدأ بها داء

الاستسقاء وقد زاد مرضها بقتل ابنها ولما سمعت أنه بقى مكشوفاً جزعت جزءاً شديداً وامتغت من الأكل والشرب حتى كادت تهلك فوعظها حتى أكلت شيئاً يسيراً من الخبز والملح. أحضرها القاهر عنده وهى على تلك الحال من المرض والجزع وسألها عن مالها فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب ولم تعترف بشئ من المال والجوهر فضربها أشد ما يكون من الضرب وعلقها برجلها وضرب المواضع الغائصة من بدنها فحلفت أنها لا تملك غير ما أطلعته عليه وقالت لو كان عندى مال لما أسلمت ولدى للقتل ولم تعترف بشئ. ثم أخرجها على تلك الحال لتشهد على نفسها القضاة والعدول أنها قد حلت أوقافها ووكلت فى بيعها فامتنعت من ذلك وقالت: قد وقفنها على أبواب البر والقرب بمكة والمدينة والثغور وعلى الضعفاء والمساكين ولا أستحل حلها ولا بيعها وإنما أوكل فى بيع أملاكى فلما علم القاهر بذلك أحضر القاضى والعدول وأشهدهم على نفسه أنه قد حل أوقافها جميعها ووكل فى بيعها فبيع ذلك جميعه مع غيره واشتره الجند من أرزاقهم ثم صادر جميع ولد المقتدر وحاشيته ولم نسمع فى التاريخ ما يقارب فعل القاهر نذالة وجبن وخسة وشراسة نفس.

بعد قتل المقتدر هرب كبار معينيه وخاصة محمد بن ياقوت وابنا رائق وهارون بن غريب ومفلح وعبد الواحد بن المقتدر فلما صاروا بواسط أرسل هارون بن غريب يطلب الأمان لنفسه ويذل مصادرة ثلثمائة ألف دينار على أن تطلق له أملاكه فأجيب إلى طلبه وظل رفقة سائرين إلى السوس وسوق الأهواز فأقاموا بالأهواز وطردهوا عماله فجهاز إليهم مؤنس جيش أخرجهم منها ثم طلبوا إليه الأمان فأمنهم وتوجهوا معه إلى بغداد ومعهم محمد بن ياقوت فتقدم عند القاهر وعلت منزلته وصار يخلو به ويشاوره فغلظ ذلك الوزير مؤنس المظفر وسيق الحاجب وابنه لأنهم ما حاربوا المقتدر إلا من أجله وثبت عندهم أن محمد بن ياقوت يسير عليهم فاستوحشوا من القاهر وضيقوا عليه وأمر مؤنس بتفتيش كل من يدخل الدار ونقل من كان محبوساً بدار الخلافة كوالدة المقتدر التى اشتد عليها المرض مما نالها من الضرب عما كان القاهر أن العتاب لا يفيد فأخذ فى التدبير على القوم الذين أجلسوه هذا المجلس وكان اعتماد مؤنس على العساكر الساجية فأفسد القاهر قلوبهم عليه وأغراهم بمؤنس وأغرى كاتب ابن مقه به ووعد الوزارة محله فكان يكاتب القاهر بجميع الأخبار.

أما هؤلاء الخصوم فانفقوا على خلع القاهر وتحالفوا على ذلك ولكنهم لم يبدوا شيئاً من الحكمة أمام مكر القاهر ودهائه فرأى الوزير أن يظهرها أن أبا طاهر القرامطى ورد الكوفة وأن على بن بليق صائر إليه ليمنعها منه فإذا دخل على القاهر يودعه قبض عليه فكتب يرسى مقلة إلى الخليفة بما اتفقوا على إخباره به ولكن لم يتم ذلك لأن الخبير جاء القاهر سرّاً

دبر عليه فاحتاط لنفسه وأنفذ إلى الساجية فأحضرهم وفرقهم فى دهاليز الدار مستخفين فلما جاء ابن بليق وطلب الإذن لم يؤذن له ورد رداً قبيحاً من الساجية فخرج هارباً من الدار وعلم بليق بما جرى على ابنه فاحتد وقال: لا بد من المضى إلى دار الخليفة حتى أعلم سبب ما فعل بابنى فذهب هو وجميع القواد الذين بدار مؤنس فلما حضر أمر القاهر بالقبض عليه وقبض كذلك على أحمد بن زيرك صاحب الشرطة ثم أرسل إلى مؤنس فى داره من أحضره بالحيلة وكان قد استولى عليه الضعف والكبر فلما حضر الدار أمر بالقبض عليه واختفى الوزير ابن مقلة وأمره القاهر بالختم على دور مؤنس وبليق وابنه على وابن مقلة وأحمد بن زيرك والحسن بن هارون ونقل دوابهم ووكل بحرهم وأمر بإحراق دار ابن مقلة فأحرقت وظهر محمد بن ياقوت فولى الحجابة.

ولما تمكن القاهر من هؤلاء الأعداء وضبطهم بداره أمر بقتلهم جميعاً فقتلوا ورأى الناس من شدة القاهر ما علموا معه أنهم لا يسلمون من يده وتدم كل من أعانه من الجنود حيث لم ينفعهم التدم.

ومن الغريب أن القاهر بعد أن تم له ما أراد أمر بالقبض على أكبر رجل ساعده وهو طريف السبرى الذى كان من قواد مؤنس فخاناه.

بقى من أعداء القاهر الوزير ابن مقلة فإنه كان مستتراً لم يظهر عليه وكذلك الحسن بن هارون فكانا يرسلان قواد الساجية والحجرية ويخوفانهم من شر القاهر ويذكراهم غدره ونكته مرة بعد مرة وكان ابن مقلة يجتمع بالقواد ليلاً تارة فى زى أعمى وتارة فى زى مكد وتارة فى زى امرأة ويغريهم به حتى ملأ صدورهم فاتفقوا على خلعه وزحفوا إلى الدار وهجموا عليها من سائر الأبواب فلما سمع القاهر الأصوات والجلبة استيقظ مخموراً وطلب باباً يهرب منه فلم يجده فقبضوا عليه وحبسوه ثم سملوا عينيه وبذلك انتهت مدته وكانت جامعة للمعائب والقبايح، ومن ذلك عدا ما تقدم ذكره أنه أمر بتحريم الخمر والغناء وسائر الأنبذة وأما الجوارى والمغنيات فأمر ببيعهن على أنهن سواذج لا يعرفن الغناء ثم بدا له أن يشتري كل حاذقة فى صنعة الغناء فاشترى منهن ما أراد بأرخص الأثمان وكان القاهر مشتهراً بالغناء والسماع فجعل ذلك طريقاً إلى تحصيل غرضه رخيصاً نعوذ بالله من هذه الأخلاق التى لا يرضاها العامة من الناس.

الراضى

هو أبو العباس أحمد ابن المقتدر بن أبى أحمد الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ونه اسمها ظلوم (ولد سنة ٢٩٧) وبويع بالخلافة بعد خلع القاهر فى (٥ جمادى الأولى سنة ٣٢٢) (٢٣ إبريل سنة ٩٣٤) ولم يزل خليفة إلى أن توفى فى منتصف ربيع الأول (سنة ٣٢٩) (٨ ديسمبر سنة ٩٤٠) فكانت مدته ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام. لما قبض على القاهر سأل القواد الخدم عن المكان الذى فيه أبو العباس بن المقتدر فدلوههم عليه وكذ هو والدته محبوسين فقصدوه وفتحوا عليه ودخلوا فلموا عليه بالخلافة وأجلسوه على السرير يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى ولقبوه الراضى وبايعه القواد.

الحال فى عهده:

كانت الحال تزيد إدياراً وانتكاساً واضطراباً فى عهده فأصحاب السلطان فى العراق يتنافسون ويقتلون والذين يحيطون بهم من المتغلبين يجدون ويجتهدون فدولة الأندلس زهت وعظمت بهمة الرجل العظيم أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الذى أعلن فى بلاده أنه أمير المؤمنين بعد أن لم يكن سلفه يتسمون بذلك وإنما كانوا يسمون بالأمرء. والدولة العبيدية فى المغرب والمهدية قد اشتدت وطأتها وهى آخذة فى العلو وتحاول الاستيلاء على مصر. وبنو بويه طهروا واستولوا على كثير من بلاد الجبال والأهواز. والروم انتهزوا هذه الفرص لاقتطاع البلاد الإسلامية وغزو الثغور وأهل بغداد مع هذا كله مشغولون بأنفسهم ومتكالبون على ما فى أيديهم من البلاد العراقية كما ترى.

كانت الكلمة العليا فى أول عهد الراضى لوزيره ابن مقلة وحاجبه محمد بن ياقوت فهما اللذان بأيديهما الحل والعقد فى البلاد. فى (سنة ٣٢٣) نظر ابن مقلة فوجد محمد بن ياقوت قد تحكم فى البلاد بأسرها وأنه هو لم يعد بيده شئ فسعى به إلى الراضى ونه- السعاية فبلغ ما أراد ففى خامس جمادى الأولى ركب جميع القواد إلى دار الخليفة ح-

عادتهم وحضر الوزير ومحمد بن ياقوت ومعه كاتبه فأمر الخليفة بالقبض عليه وعلى أخيه المظفر بن ياقوت وحبسهما وقد مات محمد فى الحبس ثم أطلق المظفر بعد أن أخذ عليه ابن مقله العهد أنه يواليه ولا ينحرف عنه ولا يسعى له ولا لولده بمكرهه. ظن ابن مقله أن الوقت قد صفا له بحبس ابنى ياقوت وأنه لم يعد له منافس فى سلطانه ولكنه غفل عن المظفر الذى أطلقه من السجن بعد موت أخيه محمد فإن المظفر كان يظن أن ابن مقله سم أخاه فكان لذلك يتحين الفرصة للقبض عليه فاتفق مع الجنود الحجرية أن يقبضوا على ابن مقله فقبضوا عليه وأرسلوا إلى الراضى يعلمونه فاستحسن فعلهم وطلبوا من الخليفة أن يعين وزيراً فرد الاختيار إليهم فاختراروا للوزارة على بن عيسى وعرضوها عليه فامتنع وأشار بوزارة أخيه عبد الرحمن فاستوزره الراضى وسلم إليه ابن مقله فصادره.

رأى عبد الرحمن أنه لا يمكنه إدارة الحركة لازدياد الفساد فاستعفى فلم يقبل الراضى منه وقبض عليه وصادره على سبعين ألف دينار وصادر أخاه علياً على مائة ألف.

واستوزر بعده أبا جعفر الكرخى فرأى قلة الأموال وانقطاع المواد فازداد عجزاً إلى عجزه وضاق عليه الأمر وما زالت الإضافة تزيد وطمع من بين يديه من العالمين فيما عنده من الأموال وقطع محمد بن رائق والى البصرة ما كان يحمل من البصرة وواسط إلى بغداد وقطع البريدى والى الأهواز ما كان يحمل من الأهواز وأعمالها وكان ابن بويه قد تغلب على فارس فتحير أبو جعفر وكثرت المطالبات عليه ونقصت هيئته واستتر بعد ثلاثة أشهر ونصف من وزارته فلما استتر استوزر الراضى أبا القاسم سليمان بن الحسن فكان فى الوزارة كأبى جعفر فى وقوف الحال وقلة المال.

ولما رأى الراضى ذلك اضطرت له الحال لمراسلة محمد بن رائق وهو بواسط يعرض عليه الولاية ببغداد فحضر مسرعاً فقلده الراضى لقب أمير الأمراء وولاه الخراج والمعاون فى جميع البلاد والدواوين وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر وأنفذ إليه الخلع فانتقل السلطان ببغداد إليه ومن ذلك الوقت بطلت الدواوين وبطلت الوزارة فلم يكن الوزير ينظر فى شىء من الأمور وإنما كان ابن رائق وكاتبه ينظران فى الأمور جميعها وكذلك كل من تولى إمرة الأمراء بعده وصارت الأموال تحمل إلى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون ويطلقون للخليفة ما يريدون وبطلت بيوت الأموال وتغلب أصحاب الأطراف وزالت عنهم الطاعة ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها والحكم فيها جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم.

كتب ابن رائق كتاباً عن الراضى إلى أبى الفتح جعفر بن الفرات يستدعيه ليجعله وزيراً

وكان يتولى الخراج بمصر والشام وظن ابن رائق أنه إذا استوزره جبي له أموال الشام ومصر فقدم بغداد ونفذت له الخلع قبل وصوله فلقيته بهيت فلبسها ودخل بغداد وتولى وزارة الخليفة ووزارة ابن رائق جميعاً.

فكر ابن رائق فيما بيد أبي عبد الله البريدي من بلاد الأهواز وأشار على الراضى بالانحذار معه إلى واسط ليقرب من الأهواز ويراسل البريدي فلأن أجاب إلى ما يطلب من وإلا قرب قصده عليه فأجاب الراضى وانحذر معه إلى واسط ثم تهيأ للمسير إلى الأهواز ولما علم بذلك البريدي جدد ضمان الأهواز كل سنة بثلاثمائة وستين ألف دينار يحمل كل شهر قسطه فأجاب الراضى إلى ذلك وعاد إلى بغداد ولكن البريدي لم يحمل مما صمن ولا ديناراً واحداً.

رأى ابن رائق استفحال قوة البريدي وعدم التمكن من قهره ففكر في أنه يستوزره فكتب إليه بذلك وطلب منه أن يرسل نائباً عنه في الوزارة فأجاب وأرسل أحمد بن علي الكوفي نائباً عنه فسارت أمور البريد ببغداد على ما يروق وضمنت البصرة التي كانت في يد ابن رائق إلى أبي يوسف ابن البريدي أخى عبد الله فصار بيد البريدي الأهواز والبصرة وأرسل إلى البصرة جنداً للاستيلاء عليها وكان ذلك سبباً لتجدد الوحشة بين ابن رائق والبريدي حيث رأى الأول أنه زاد البريدي سلطاناً على سلطانه بما أخذ من البصرة ولم يمكنه أن يعمل معه شيئاً ما ففكر أن يرسل جنداً إلى الأهواز لقتال البريدي فاختر رجلين لقيتهما الجند أحدهما بدر الخرشنى والثانى بجكم الديلمى فسار بجكم بالجند إلى السوس واستولى عليه بمن معه من الأتراك والديالة ثم أخذ تستر ولما رأى ذلك أبو عبد الله البريدي ركب هو وإخوته ومن يلزمه السفن، وأخذ معه ما يبقى من الأموال (٣٠٠ ألف) درهم فغرت السفينة بهم فأخرجهم الغواصون وقد كادوا يغرقون فركبوا ووصلوا إلى الأبله فأقام به وكتب إلى ابن رائق يستعطفه فلم يجبه وكانت الرسل من أعيان أهل البصرة فلما رأوا ذلك منه ازدادوا جداً في مقاومته فصاروا كلما جهز إليهم جنداً هزموه ولما رأى ذلك ابن رائق سار بنفسه إلى واسط وكتب إلى بجكم وهو في الأهواز مستول عليها يأمره باللاحاق فأتاه فيمن عنده من الجند فتقدموا وقاتلوا أهل البصرة فقاوموهم مقاومة عنيفة حتى ردوه منهزمين ورأى البريدي أنه لا بد له من معين على ابن رائق وبجكم فسار إلى عماد الدولة ابن بويه وأطمعه في العراق والاستيلاء عليه فسير معه أخاه معز الدولة فاستولى على الأهواز بعد أن حارب بجكم وانتصر عليه فسار بجكم إلى واسط، لم يستمر الصفاء البريدي ومعز الدولة لأن كلا طامع يريد أن يكر بالثاني وكانت نتيجة المنافسة بينهما أن أنفذ بجكم جماعة من أصحابه فاستولوا على السوس وجنديسابور وبقيت الأهواز

البريدى ولم يبق بيد معز الدولة إلا عسكر مكرم ثم عاد فاستولى على الأهواز وأجلى عنها البريدى إلى البصرة.

أما حال ابن رائق ببغداد فكانت حال إديار لأن بجكم منع منه مال واسط ولم يرسل إليه شيئاً وكان يميل إلى أن يحل محل ابن رائق فى إمارة الأمراء ببغداد وكان يسعى له فيها ابن مقله وقد كلم الخليفة بذلك فأجاب وأبلغ ابن مقله ما استقر عليه الأمر لبجكم فسار من واسط نحو بغداد فى غرة ذى القعدة (سنة ٣٢٦) ولم يزل حتى ورد بغداد فقاتلته الجنود الراقية ولكنهم انهزموا عنه فدخل بجكم بغداد فى (١٣ ذى القعدة) ولقى الراضى من الغد وخلع عليه وجعله أمير الأمراء فكتب إلى جميع القواد الذين كانوا مع ابن رائق يطلب إليهم العودة إليه ومناهم فجاء أكثرهم وسقط ابن رائق بعد إمارة استمرت سنة واحدة وعشرة أشهر و١٦ يوماً واستتر عن العيون.

فى أول (سنة ٣٢٧) منع ناصر الدولة بن حمدان ما ضمنه من مال الموصل فسار إليه لراضى هو وبجكم فأقام الراضى بتكرت وسار بجكم لحرب ناصر الدولة فقهره فانتزع ابن رائق فرصة غيابهما عن بغداد فظهر واستولى عليها ولما بلغ الراضى وبجكم خبره انزعجا واضطرهما ذلك إلى الإسراع بمصالحة ناصر الدولة بن حمدان على أن يعجل (٥٠٠ ألف درهم) وعادا يريدان بغداد فراسلها ابن رائق يطلب الصلح فاتفقا معه على ذلك وتقلد طريق الفرات وديار مضر حران والرها وما جاورهما وجند قيسرين والعواصم.

أراد بجكم أن يستعيد بلاد الجبل والأهواز من يد ابن بويه فاتفق مع البريدى أن يسير إلى الأهواز وأمه رجال وأن يسير بجكم إلى بلاد الجبل ولكن علم بجكم أن البريدى يريد استعمال الحيلة معه ليلقيه فى المهالك ويعود هو إلى بغداد ليكون أمير الأمراء فبدلاً من أن يسير إلى بلاد الجبل سار إلى واسط فاستولى عليها وأجلى عنها البريدى.

وهكذا كانت مدة الراضى منازعات سياسية بين هؤلاء المتغلبين الذين كل منهم يود أن تكون له إمارة الأمراء ببغداد والأعداء ينتقصون كل يوم أطراف الخلافة ولم يعد لها شئ من الهيبة ولا نفوذ الكلمة.

وما زاد الأمر إدياراً ظهور المنازعات الدينية ببغداد عاصمة الخلافة فقد ظهر بها الحنابلة رقيت شوكتهم وصاروا يكسبون دور القواد العامة وإن وجدوا نبذاً أراقوه وإن وجدوا بغية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا فى البيع والشراء ومشى الرجال مع النساء الصبيان فإذا رأوا من يمشى مع امرأة أوصبى سألوه عن الذى هومعه من هو؟ فإن أخبرهم إلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة فأزعجوا بغداد فركب بدر لخرشنى وهو صاحب الشرطة ونادى فى جانبى بغداد فى أصحاب أبى محمد البربهارى:

الحنابلة لا يجتمع منهم اثنان ولا يناظرون في مذهبهم ولا يصلى منهم إمام إلا إذا جهر
ببسم الله الرحمن الرحيم فى صلاة الصبح والعشاءين، فلم يفد فيهم وزاد شرهم وفتنتهم
واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون إلى المساجد وكانوا إذا مر بهم شافعى المذهب أغروا
به العميان فيضربونه بعصيتهم حتى يكاد يموت فخرج توقيع الراضى بما يقرأ على الحنابلة
ينكر عليهم فعلهم ويوبخهم باعتقاد التشبيه وغيره فمنه تارة أنكم تزعمون أن صورة
وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيتكم الرذلة على هيئته وتذكرون الكف
والأصابع والرجلين والنعلين والشعر القلط والصعود إلى السماء والتزول إلى الدنيا تعالى
الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً ثم طعنكم على خيار الأئمة ونسبتكم شيعة
آل محمد ﷺ إلى الكفر والضلال ثم استدعاءكم المسلمين إلى التدين بالبدع الظاهرة
والمذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن وإنكاركم زيارة قبور الأئمة وتشنيعكم على
زوارها بالابتداع وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذى شرف
ولا نسب ولا سبب من رسول الله ﷺ وتأمرون بزيارته وتدعون له معجزات الأنبياء
وكرامات الأولياء فلعن الله شيطاناً زين لكم هذه المنكرات وما أغواه وأمير المؤمنين يقسم
بالله قسماً جهداً يلزمه الوفاء به لئن انتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقتكم ليوسعنكم
ضرباً وتشريداً وقتلاً وتبيداً وليستعملن السيف فى رقابكم والنار فى منازلكم ومحالككم.

وبذلك يتبين أن الشقاق والنزاع تجاوزا الأمراء إلى عامة الناس وقلما وجدت المنازعات
الدينية بين قوم إلا ذلوا وفشلوا.

أمر القرامطة:

لم تزل القرامطة على حالهم فى الإفساد والعبث واعتراض الحجاج وفى (سنة ٣٣٢) أُرسل
محمد بن ياقوت رسولا إلى أبى طاهر يدعوه إلى طاعة الخليفة ليقره على ما بيده من البلاد
ويقلده بعد ذلك من البلدان ويحسن إليه ويلتمس منه أن يكف عن الحاج جميعهم وأن يرد
الحجر الأسود إلى موضعه بمكة فأجاب أبوطاهر إلى أنه لا يعترض للحاج ولا يصيبهم بمكروه
ولم يجب إلى رد الحجر الأسود إلى مكة وسأل أن تطلق له الميرة من البصرة ليخطب للخليفة
بهجر. فسار الحاج إلى مكة هذه السنة ولم يعترضهم القرمطى. ولكنه فى (سنة ٣٣٣)
اعترضهم فخرج جماعة من العلويين بالكوفة إلى أبى طاهر فسأله أن يكف عن الحاج فكف
عنهم وشرط عليهم أن يرجعوا إلى بغداد فرجعوا ولم يحج هذه السنة من العراق أحد وسر
أبوطاهر إلى الكوفة فأقام بها عدة أيام ورحل عنها.

وفى (سنة ٣٣٦) أصابهم خلل وفساد فى سياستهم وسببه ما كان من ابن سنير
وهو رجل كان من خواص أبى سعيد القرمطى والمطلعين على سره وكان له عدو من

القرامطة يدعى أبا حفص فعمد ابن سنبر إلى رجل من أصبهان وقال له: إذا ملكتك أمر القرامطة أريد منك أن تقتل عدوى أبا حفص فأجابه إلى ذلك وعاهده عليه وأطلعه على أسرار أبى سعيد وعلامات كان يذكر أنها فى صاحبهم الذى يدعون إليه فحضر عند أولاد أبى سعيد وذكر لهم ذلك فقال أبوطاهر: هذا هو الذى ندعوا إليه فأطاعوه ودانوا له حتى كان يأمر الرجل بقتل أخيه فيقتله وكان إذا كره رجلاً يقول إنه مريض يعنى إنه قد شك فى دينه ويأمر بقتله وبلغ أبا طاهر أن الأصبهاني يريد قتله لينفرد بالملك فقال لإخوته: لقد أخطأنا فى هذه الرجل وساكشف حاله فقال له: إن لنا مريضاً فانظر إليه ليبراً فحضرنا وأضجعوا والدته وغطوها بإزار فلما رآها قال: إن المريض لا يبرأ فاقتلوه فقالوا له: كذبت هذه والدتك ثم قتلوه بعد أن قتل منهم خلق كثير من عظمائهم وشجعانهم وكان هذا سبب تمسكهم بهجر وترك قصد البلاد والإفساد فيها.

وفى عهد الراضى ظهرت الدولة الأخشيدية بمصر على يد مؤسسها محمد الأخشيد ابن طنج وهو من موالى آل طولون كان ملكه مصر (سنة ٣٢٣) واستمر الملك فى عقبه إلى (سنة ٣٥٨) وهم الذين تسلم منهم الفاطميون مصر وهذا ثبت ملوكهم:

٣٢٣ - ٣٣٤

١ - محمد الأخشيد بن طنج

٣٣٤ - ٣٤٦

٢ - أبو القاسم أنوجر بن الأخشيد

٣٤٦ - ٣٥٥

٣ - أبو الحسن على بن الأخشيد

٣٥٥ - ٣٥٧

٤ - أبو المسك كافور مولى الأخشيد

٣٥٧ - ٣٥٧

٥ - أبو الفوارس أحمد بن على بن الأخشيد

وفى عهد الراضى مات عبيد الله المهدي أول خلفاء الفاطمين بالمهدية وولى بعده ابنه أبو القاسم محمد وكان يريد ملك مصر فلم يتمكن.

ختم الراضى الخلفاء فى أشياء منها أنه آخر خليفة دون له شعر وآخر خليفة انفرد بتدبير الملك وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة وآخر خليفة جالس الندماء ووصل إليه العلماء وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزته وخدمته وحجابه تجرى على قواعد الخلفاء المتقدمين.

وفى أيامه حدث اسم أمير الأمراء فى بغداد وصار إلى أمير الأمراء الحل والعقد والخليفة يأتمر بأمره وليس له من نفوذ الكلمة ولا سلطان الخلافة شيء.

وكان الراضى أديباً له شعر مدون يحب محادثة الأدباء والفضلاء والجلوس معهم وكان سمحاً سخيّاً.

توفى الراضى فى منتصف ربيع الأول (سنة ٣٢٩) (١٨ ديسمبر سنة ٩٤٠) ابن الأثير.

المتقى

هو إبراهيم المتقى لله بن المعتمد بن أبى أحمد الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ولد اسمها خلوب بوبع بالخلافة فى (٢٠ ربيع الأول سنة ٣٢٩) (٤ ديسمبر سنة ٩٤٠) ولم يزل خليفة حتى خلع فى (٢٠ صفر سنة ٣٣٣) (١٢ أكتوبر سنة ٩٤٤) فكانت مدته (٤ سنوات و١١ شهراً).

كيف انتخب:

لما مات الراضى كان بجكم بواسط، فورد كتابه مع وزيره أبى عبد الله الكوفى يأمره فيه بأن يجتمع مع أبى القاسم سليمان بن الحسن وزير الراضى كل من تقلد بالوزارة وأصحاب الدواوين والعلويون والقضاة والعباسيون ووجوه البلد ويشاورهم الكوفى فيمن ينصب للخلافة ممن يرتضى مذهبه وطريقته فجمعهم الكوفى واستشارهم فاتفقوا على إبراهيم بن المقتدر فبايعوه فى التاريخ السابق ولقب نفسه المتقى لله وسير الخلع واللواء إلى بجكم بواسط.

الحال فى عهده:

كان بجكم أمير الأمراء والتدبير كله إلى وزيره أبى عبد الله الكوفى وليس للخليفة ولا لوزيره سليمان بن الحسن شئ، لم يطل زمن بجكم فى الإمارة فإن البريدى كان لا يزال يئى نفسه بالاستيلاء على بغداد فأنفذ من البصرة جيشاً إلى المذار فأنفذ إليه بجكم جيشاً يقوده قائد من كبار قواده واسمه توزون فالتقى الجيشان واقتلا وكان النصر أولاً لجيش البريدى، فأرسل توزون إلى بجكم يطلب أن يلحق به فسار إليه وصادف أن عادت الكرية لتوزون فأرسل إلى بجكم يخبره بالظفر فأراد الرجوع إلى واسط فأشار عليه بعض أصحابه أن يتصيد، فسار حتى بلغ نهر جور وحينذاك اغتاله رجل من الأكراد الذين يسكنون هناك

وكان قتله مفرجاً عن البريدى ومفيداً للمتقى لأنه استولى على داره وما فيها من الأموال فبلغ ما ناله ألف ألف وماتى دينار . وكانت مدة إمارة بجكم ستين وثمانية أشهر .

لما قتل بجكم انحدر الديلم إلى البريدى فقوى بهم وعظمت شوكته فسار مريداً الاستيلاء على بغداد ولم يتمكن الخليفة من صده فدخلها فى (١٢ رمضان سنة ٣٢٩) ولقيه الوزير والقضاة والكتاب وأعيان الناس فأنفذ إليه المتقى يهته بسلامته . ولم يتم له ما أرادته من التأمير لأن الأتراك والدبالة اختلفوا عليه ففارق بغداد بعد أن أقام بها (٢٤ يوماً) وحيثئذ تقدم على الجند كورتيكين الديلمى فسماه المتقى أمير الأمراء وخلع عليه . وكانت مدته مضطربة لأن عامة البغداديين تأذوا من الديلم فلم ينكر كورتيكين على جنده ما فعلوه لذلك حصلت وقائع بين العامة والديلم ولما رأى المتقى أن كورتيكين ليس عنده من المنعة ما يزيل به الاضطراب أرسل إلى ابن رائق وهو بالشام يطلب إليه الرجوع إلى بغداد ليكون أمير الأمراء فعاد . أما كورتيكين فإنه خرج إليه وقابله بعكبراء ف وقعت الحرب بينهما عدة أيام وفى (٢١ ذى الحجة) سار ابن رائق بجيشه ليلاً فأصبح ببغداد وقابل المتقى : أما كورتيكين فإنه لما أحس فى الصباح بمسير ابن رائق تبعه إلى بغداد وكانت عليه الهزيمة حتى لاقته جنود ابن رائق فاخفى وأخذ ابن رائق من استأمن إليه من الديلم فقتلهم وكانوا نحو (٤٠٠) وحيثئذ خلع المتقى على ابن رائق وسماه أمير الأمراء .

تجددت أطماع البريدى لما علم بضعف الديلم والأتراك بسبب ما قتل منهم ابن رائق فأرسل جنداً فى الدجلة للاستيلاء على بغداد ولم ير مقاومة شديدة فاستولى عليها وهرب المتقى وابنه وابن رائق إلى الموصل أما أصحاب البريدى فإنهم فعلوا ببغداد فعلاً قبيحاً قتلوا من وجدوه فى دار الخليفة من الحاشية ونهبوها ونهبوا دور الحرم وكثر النهب فى بغداد ليلاً ونهاراً وكبسوا الدور وأخرجوا أهلها منها حتى عظم الأمر وغلت أسعار الحنطة والشعير وأصناف الحبوب وكان ذلك كله سبباً لوقوع الفتن والاضطراب وفى آخر شعبان زاد البلاء على الناس فكبسوا منازلهم ليلاً ونهاراً واستتر أكثر العمال لعظيم ما طولبوا به مما ليس فى السواد وعلى الجملة فإن هذه الفترة ببغداد لم ير أهلها مثل ما حصل فيها من الشدة .

طلب المتقى من ناصر الدولة بن حمدان أن يعينه على البريدى فأرسل أخاه سيف الدولة لتصرته فلقيه هو وابن رائق بتكرت فرجع معهما إلى الموصل وهناك جاء ناصر الدولة واغتال ابن رائق لأنه يريد أن يحل محله فى إمرة الأمراء وقد كان ذلك فإن المتقى خلع عليه وسماه أمير الأمراء فى أول شعبان (سنة ٣٣٠) وخلع على أخيه أبى الحسن على ولقبه ذلك اليوم بسيف الدولة .

بعد ذلك تجهز ناصر الدولة وسار إلى بغداد معه المتقى ولما قاربها هرب عنها أبوالحسين

ابن البريدى وسار إلى واسط بعد أن أقام ببغداد ثلاثة أشهر وعشرين يوماً ودخل المتقى بغداد ومعه بنو حمدان في جيوش كثيرة.

ثم خرج بنو حمدان يريدون واسط لأخذها من البريدى فأقام ناصر الدولة بالمدائن وسير أخاه سيف الدولة لقتال البريدى فالتقى به تحت المدائن بفرسخين وكانت مقاومة البريدى شديدة حتى أنه هزم سيف الدولة ومن معه فعاد إلى المدائن فقواهم ناصر الدولة بجنود أخرى فعادوا فقاتلوا أبا الحسين وهزموه ولكن سيف الدولة لم يتبعه إلى واسط لما فى أصحابه من الوهن والجراح ولما اندملت جراحهم وقبوا سار سيف الدولة إلى واسط فأخذها وانحدر أبو الحسين إلى البصرة وأقام سيف الدولة بواسط وكان يريد المسير إلى البصرة فلم يمكنه لقله المال عنده فكتب إلى أخيه فلم يسعه فحصل بين الأخوين وحشة ووقع سيف الدولة فى أخيه ناصر الدولة وكان القواد الذين معه الأتراك قد قلت عنده هيبته لقله المال فسار بنوبويه وكبسوه ليلاً فهرب وترك معسكره ولما علم ناصر الدولة باخبر سار عن بغداد إلى الموصل وترك إمارة الأمراء بعد أن أقام فيها ثلاثة عشرة شهراً وخمسة أيام.

اختار المتقى بعد رحيل ناصر الدولة لإمارة الأمراء أكبر قواد الديلم واسمه توزون وإن يكن عنده شئ من حسن السياسة فاستوحش منه المتقى وخافه على نفسه فرأى أن يسير إلى الموصل مستعيناً بالحمدانيين فبأمر بغداد إليها ولما بلغ ذلك توزون تبعه حتى وصل تكريت وهناك التقى بسيف الدولة فقاتله وهزمه مرتين ثم استولى على الموصل فسار عنده بنو حمدان والمتقى معهم إلى نصيبين. ثم ترددت الرسل بين توزون من جهة وبين الحمدانيين والمتقى من جهة على الصلح فتم على أن يضمّن ناصر الدولة ما بيده من البلاد ثلاث سنين كل سنة بثلاثة آلاف وستمائة ألف درهم وعاد توزون إلى بغداد ولم يعد معه المتقى. استمر فى الموصل. ثم أرسل إلى توزون يطلب منه أن يعود إلى بغداد فأظهر توزون الرغبة فى ذلك وحلف للمتقى أنه لا يغدر به فاغتر المتقى بتلك اليمين. وسار إلى بغداد فقبّ توزون تحت هيت ولما رآه قبل له الأرض وقال: هأنذا قد وفيت بيمينى، والطاعة لك من كل به وبعد ذلك سمله وخلعه وبذلك انتهت خلافة المتقى.

المستكفى

هو أبو القاسم عبد الله المستكفى بالله بن المكتفى بن المعتضد .
لما قبض توزون على المتقى أحضر المستكفى إليه إلى السندية وباعه هو وعامة الناس .

الخلافة العباسية تحت سلطان آل بويه:

يبتدئ هذا الدور من (سنة ٣٣٤) إلى (سنة ٤٤٧) تولى الخلافة فيه خمسة خلفاء وهم المستكفى والمطيع والطائع والقادر والقائم .

تاريخ هذا الدور يرتبط بتاريخ آل بويه الديلميين الذين كانوا أصحاب النفوذ الحقيقي والسلطان الفعلى فى العراق لذلك أردنا أن نسوق فصلاً نبين فيه أحوال الديلم وكيف تصرف بهم الأحوال إلى أن وصلوا إلى ذروة العظمة باستيلائهم على بغداد عاصمة الخلافة العباسية .

بلاد الديلم أو بلاد جيلان واقعة فى الجنوب الغربى من شاطئ بحر الخزر سهلها للجيل وجبالها للديلم وقصبتها روزبار .

كانت فى القديم إحدى الولايات الفارسية إلا أن أهلها لم يكونوا من العنصر الفارسى بل عنصر ممتاز يطلق عليه اسم الديالة أو الجيل . ولما أذن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالانساح فى بلاد العجم كانت بلاد الديلم مما فتحه المسلمون واستمر الديلم خاضعين للحكم الإسلامى مع بقائهم على وثنتهم ولم يكن استيلاء المسلمين عليهم مما ينقص من شجاعتهم أو يفقدهم جنسيتهم . وكانت تجاورهم بلاد طبرستان وأكثر أهلها دانوا بالإسلام وكان بين الديالة والطبريين سلم ومودة .

على هذا كان الحال فى صدر الدولة العباسية فلا الديالة تحدثهم أنفسهم بالخروج إلى بلاد المسلمين ولا المسلمون يحدثون أنفسهم بالتوغل فى بلادهم حتى كانت حادثة إقطاع

المستعين محمد بن طاهر تلك القطائع التي يقرب بعضها من ثغور طبرستان وأراد رسول ابن طاهر أن يستلمها ومعها الأرض التي كانت مرافق لأهل تلك النواحي فامتنع من ذلك أهل طبرستان وأظهروا العصيان لمحمد بن طاهر ورأوا أن ذلك لا يتم إلا أن يكون على رأسه رجل يدينون بطاعته فاتفقوا على الحسن بن زيد الذي قدمنا حديثه في خلافة المستعين وكان مقيماً بالرى فراسلوه فأقبل إليهم فبايعوه وطلبوا من الديلم أن يساعدهم على عمال ابن طاهر فبذلوا لهم ما طلبوا من المساعدة لإساءة كانت من عمال ابن طاهر إليهم. استولت هذه القوة على مدن طبرستان ثم الرى وجرجان ولم يزل الحسن مدبر أمرهم حتى مات (سنة ٢٧١) ثم ولى أخوه محمد بن زيد وكانت مدته مضطربة حتى قتل (سنة ٢٨٧) وكـ وجود الحسن بن زيد وأخيه في تلك البلاد سبباً لمواصلة أهل الديلم وشيوع الدعوة الإسلامية بينهم.

بعد ذلك دخل بلاد الديلم الحسن بن عليّ الملقب بالأطروش وأقام بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام ويقتصر منهم على العشر ويدفع عنهم عدوهم فأسلم منهم نحو كثير واجتمعوا عليه وبنى في بلادهم المساجد. وكان لآل سامان بإزائهم ثغور مثل قزوین وسالوس وغيرهما وكان بمدينة سالوس حصن منيع فهدمه الحسن لما أسلم الديلم والجبل - ثم إنه جعل يدعوهم إلى الخروج معه إلى طبرستان فلا يجيبونه لإحسان عبد الله بن محمد بن نوح الذي كان أميراً على تلك الجهات من قبل آل سامان فاتفق أن أحمد الساماني عزـ عبد الله وولى بدله آخر اسمه سلام فلم يحسن سياسة أهلها فهاج عليه الديلم فقاتلهم وهزمهم واستقال من الولاية فأعاد أحمد الساماني عبد الله بن محمد بن نوح فصلحت البلاد - ولما مات جاءها وال غير رسومه وأساء السيرة وقطع عن رؤساء الديلم ما كان يهبه إليهم ابن نوح فانتهز الحسن بن عليّ الفرصة وهيج الديلم عليه ودعاهم إلى الخروج معه فأجابوه وخرجوا معه حتى التقوا بأمير طبرستان فهزموه واستولوا على طبرستان وكان كـ معينه ليلي بن النعمان وماكان ابن كالي الديلميان وكان من عظماء الديلم وقوادهم استولـ على طبرستان وجرجان باسم الحسن بن عليّ الأطروش. ومن عرف اسمه في تلك الوقت الحسن بن القاسم الداعي العلوي وكان ختن الأطروش.

وتوفي الأطروش (سنة ٣٠٤) وكان يلقب بالناصر لله وكان له من الأولاد الخـ وأبوالقاسم والحسن وكان الحسن مغاضباً له فلم يوله شيئاً وولى ابنه الآخرين فكنت طبرستان في أيديهم بمعونة الحسن بن القاسم الداعي.

وفى (سنة ٣٠٩) قتل ليلي بن النعمان أحد قواد الزيدية وكان يلي بلاد جرجان وكـ.

أولاد الأطروش يكتبون المؤيد لدين الله المتتصر لآل رسول الله ﷺ ليلى بن النعمان وكان سبب قتله أنه سار إلى نيسابور بأمر الحسن بن القاسم يريد الاستيلاء عليها وكانت بيد السامانية فكان فى هذه الإغارة حتفه وانهزام جنوده ثم تقدمت جنود السامانية إلى جرجان وبها أبوالحسين بن الناصر فانهزم عنها إلى استراباذ ثم فارقتها وقصد مدينة سارية وجعل على استراباذ ماكان ابن كالى وهوثانى القواد المشهورين من الديلم بعد ليلى بن النعمان فاجتمع إليه الديلم وقدموه وأمره عليهم وكان على يديه إعادة جرجان من الجنود السامانية فأقام بها.

وكان من أصحاب ماكان قائد ديلمى اسمه أسفار بن شيرويه وكان سبب الخلق والعشرة فأخرجه ماكان من عسكره فاتصل بأمير نيسابور للسامانية وهوبكر بن محمد بن اليسع فأكرمه بكر وسيره إلى جرجان ليأخذها من يد أبى الحسن ابن كالى أخى ما كان وكان أخوه قد ولاه عليها وذهب إلى طبرستان. وكان أبوالحسن قد اعتقل أبا على بن الأطروش عنده فتمكن أبو على من الخلاص من هذا الاعتقال واغتال أبا الحسن أخا ماكان وأرسل إلى جماعة القواد يخبرهم بمقتله ففرحوا وبايعوا العلوى وألبسوه القلنسوة وكاتبوا أسفار بن شيرويه وعرفوه الحال واستقدموه إليهم فسار إلى جرجان وضبطها وجاء ما كان يحاربه فهزمه أسفار وصادف أن مات أبو على بن الأطروش وصفت جرجان لأسفار وأسفار هذا هو ثالث قواد الديلم. ولما تمكنت قدمه بجرجان أرسل لمرداويج بن زيار الجبللى يستدعيه فحضر عنده وجعله أمير الجيوش وأحسن إليه ثم قصدا طبرستان فاستوليا عليها فعلم بذلك الحسن بن القاسم الداعى وهوبالرى ومعه ما كان بن كالى فسار نحو طبرستان والتقى بأسفار عند سارية فانهزم الحسن وما كان ثم أدرك الحسن فقتل وبقتله صفت لأسفار طبرستان والرى وجرجان وقزوين وزنجان وأبهر وقم والكرج ودعا لصاحب خراسان وهو السعيد بن نصر السامانى وأقام بسارية ثم استولى على قلعة الموت وهى قلعة على جبل شاهق فى حدود الديلم.

عظمت جيوش أسفار وجل قدره فتجبر وعصى على الأمير السعيد صاحب خراسان وأراد أن يجعل على رأسه تاجاً وينصب سرير ذهب للسلطنة ويحارب خليفة بغداد المقتدر بالله فسير إليه المقتدر جيشاً فحاربه أسفار وانتصر عليه ولما علم السعيد بذلك سار من بخارى حاضرة ملكه ليحارب أسفار ويأخذ بلاده فلما علم أسفار بوصول السعيد إلى نيسابور أدرك أنه لا يمكنه أن يقاومه فراسله فى الصلح واتفقا على شروط منها حمل الأموال والخطبة باسمه فى بلاده.

وبينما هو فى ذروة عزه قام عليه أكبر قواده مرداويج بن زيار وشق عصا طاعته واتخذ مع سلاّر صاحب شميران وتحالفا وتعاقدا على التّساعد على حرب أسفار. ومن حسن حظ مرداويج أن أكثر قواد أسفار كانوا ملوه لجبره وظلمه فسرعان ما أجابوا مرداويج حين أعلمهم بأمره وكانت نتيجة هذا الاتفاق أن قتل أسفار (سنة ٣١٦).

ملك البلاد مرداويج وأحبته الجنود لحسن سيرته واتسعت رقعة ملكه وعمل له سريراً من ذهب يجلس عليه وسريراً من فضة يجلس عليه أكابر قواده وإذا جلس على السرير يقف عسكره صفوفاً بالبعد عنه ولا يخاطبه أحد إلا الحجاب الذين رتبهم لذلك وخافه الناس خوفاً شديداً ودخلت فى حوزته طبرستان وجرجان واجتهد ما كان بن كالى أن يدافعه عنهم واستعان بكل وسيلة فلم يقدر وأقبلت الديلم إلى مرداويج من كل ناحية لبذله وإحسانه إلى جنده فعظمت جيوشه وكثرت عساكره فكثّر الخراج عليه فلم يكفه ما فى يده فذهب إلى همدان واستولى عليها من يد جنود الخليفة وبذلك تم له الاستيلاء على بلاد الجبل كلها وبلغت عساكره إلى نواحي حلوان وهى أول حدود العراق.

ثم ملك بعد ذلك أصبهان والأهواز وأرسل إلى المقتدر رسولا يقرر على نفسه مالا على هذه البلاد كلها فأجابه المقتدر إلى ذلك وقوطع على مائتى ألف درهم كل سنة.

فى (سنة ٣٢٠) أرسل مرداويج إلى أخيه وشمكير وهوبيلاد جيلان يستدعيه إليه فجاء واعتز به. والمؤرخ أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى الخوارزمى يؤكد فى كتابه الموسوم بالآثار الباقية عن القرون الخالية الذى ألفه باسم شمس المعالى قابوس ابن وشمكير أن هذه الأسرة من أصل شريف الطرفين فأما أحد الأصلين فوردانشاه الذى لا تجهل سيادته فى الجبل وأما الأصل الآخر فملوك الجبال الملقبون بأصفهيدية طبرستان والفرجوار جرشاهية وليس ينكر اعتزاء من كان منهم من أهل بيت الملك إلى ما يجمعهم والاكاسرة فى شعب واحد فإن خاله هو الأصفهيد رستم بن قارن بن شيرويه بن رستم بن قارن بن شهريار بن شروين بن سرخاب بن شابور بن كياس بن قباذ والد أنوشروان.

ولما استقرت قدم مرداويج قدم عليه ثلاثة نفر من أعيان الديلم كانوا من قواد ما كان بن كالى وفارقوه لما ضاقت بهم الحال وهم علىّ والحسن وأحمد أولاد بويه ساروا إلى مردلوج ومعهم جماعة من قواد ما كان. وهؤلاء الثلاثة هم الذين أسسوا الأسرة البويهية التى امتلكت ناصية بلاد العراق وما يحيط بها من البلاد الإسلامية وهى التى تكون الدور التى من أدوار الخلافة العباسية ولما ارتفع شأنهم ظهر لهم ذلك النسب العالى فقد ذكر ليو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى فى كتابه الذى سماه بالتاج أن بويه ينتهى نسبه إلى بهرام

جور الملك البيروني السابق ذكره يرجح أن هذا النسب إنما ظهر لهم بعد ثبوت ملكهم وإلا فتلك الأمم ليست معروفة بحفظ الأنساب ولا مذكورة بتخليد ذلك ولا بأنها كانت تعرف ذلك منهم قبل انتقال الدولة إليهم مع أنه فيما سبق يرجح صحة نسب أخوال وشمكير ويسوقها نسقاً حتى يصل بها إلى قباز ملك الفرس.

لما ورد أبناء بويه على مرداويج خلع على علي والحسن وولى القواد الذين وصلوا معهما النواحي وولى علي بن بويه بلاد الكرج وكتب لهم بذلك العهود فساوا إلى الري وبها وشمكير أخو مرداويج ومعه وزير مرداويج الحسين بن محمد الملقب بالعميد. صادف أن كان مع ابن بويه بغلة شهباء من أحسن ما يكون فعرضها للبيع فبلغ ثمنها (٢٠٠) دينار فعرضت على العميد فأخذها ونقد ثمنها فلما حمل إلى علي أخذ منه عشرة دنانير ورد الباقي ومعه هدية جميلة فكان ذلك بدء الصلة بين العميد وآل بويه.

ندم مرداويج بعد انفصال هؤلاء القواد على توليتهم فكتب إلى أخيه وشمكير وإلى العميد يأمرهما بمنع أولئك القواد عن المسير إلى أعمالهم وإن كان بعضهم قد خرج يردّه وكانت الكتب تصل إلى العميد قبل وشمكير فيقرؤها ثم يعرضها على وشمكير فلما وقف العميد على هذا الكتاب أنفذ إلى علي بن بويه يأمره بالمسير من ساعته إلى عمله ويطوى المنازل فصار من ساعته ولما أصبح العميد عرض الكتاب على وشمكير فمنع سائر القواد من الخروج من الري واستعاد التوقعات التي كانت معهم وأراد أن ينفذ خلف علي بن بويه من يردّه فقال العميد: إنه لا يرجع طوعاً وربما قاتل من يقصده ويخرج من طاعتنا فتركه. وصل على الكرج وأحسن إلى الناس ولطف بعمال البلاد فكتبوا إلى مرداويج يشكرونه ويصفون ضبطه للبلد وحسن سياسته. وافتتح قاعات كانت للخرمية وظفر منها بذخائر كثيرة صرفها جميعاً إلى استمالة الرجال والصلوات والهبات فشاع ذكره وقصده الناس وأحبوه. ولما كان مرداويج بالري أطلق مالا لجماعة من قواده على الكرج فاستمالهم علي بن بويه ووصلهم وأحسن إليهم حتى مالوا إليه وأحبوا طاعته وبلغ ذلك مرداويج فاستوحش وندم على إنفاذ أولئك القواد فكتب إليهم وإلى علي يستدعيهم إليه وتلطف بهم ودافعه علي واشتغل بأخذ العهود عليهم وخوفهم سطوة مرداويج فأجابوه جميعاً فجئ علي مال الكرج واستأمن إليه سيرا زاد وهو من أعيان قواد الديلم فقويت نفسه وسار بمن معه على أصبهان فاستولى عليها من يد المظفر بن ياقوت. بلغ ذلك الخليفة فاستعظمه وبلغ مرداويج فأقلقته وخاف على ما بيده من البلاد واغتم لذلك غمّاً شديداً ولكن رأى أن يحتال فراسل علياً يعاتبه ويستميله ويطلب إليه أن يظهر طاعته حتى يمده بالعساكر الكثيرة ليفتح بها البلاد ولم يكلفه سوى الخطبة له في البلاد التي يستولى عليها وجهاز بعقب تلك الرسالة أخاه

وشمكير في جيش كثيف ليكبس علياً وهو مطمئن إلى الرسالة المتقدمة فعلم بذلك فرحل عن أصبهان بعد أن جباها شهرين وتوجه إلى أرجان وبها أبو بكر بن ياقوت فانهزم عنها أبو بكر من غير قتل وقصد رامهرمز فاستولى على أرجان في ذي الحجة (سنة ٣١٩) فاستخرج منها أموالاً قوى بها. جاءته وهو بها كتب من أبي طالب زيد بن علي النوبندجاني يستدعيه ويشير عليه بالمسير إلى شيراز ويهون عليه أمر ياقوت ويعرفه بتهوره واشتغاله بجباية الأموال وكثرة مؤنته ومؤنة أصحابه وثقل وطأتهم على الناس مع فشلهم وجبنهم فتردد على أولاً ثم عزم على السير فصار نحو النوبندجان في ربيع الآخر (سنة ٣٢١) فلقي لها مقدمة ياقوت فهزمها ثم سار منها إلى اصطخر خوفاً أن يقع بين ياقوت ومرداويج لأنه بلغه أنهما تراسلا ليتفقا عليه فقابله في الطريق ياقوت بجيوشه فكان النصر لعلی وانهزم ياقوت هو ومن معه وكان أحمد بن بويه ممن ظهر أثره في ذلك اليوم وهو صبي لم تنب لحيته وكان عمره (١٩ سنة). وبعد هذا الانتصار عامل على الأسرى أحسن معاملة وخيرهم بين المقام عنده وللحاق بياقوت فاختراروا المقام عنده فخلع عليهم وأحسن إليهم ثم سار حتى أتى شيراز قصبة فارس فاستولى عليها ونادى في الناس بالأمان وبث العدو واقفه لهم شحنة تمنع ظلمهم واستولى على كثير من أموال ياقوت وودائعهم فسهل عليه أمر استرضاء الجنود والتودد إليهم فأحبوه وثبت ملكه ثم أرسل إلى خليفة بغداد الراضي بالله وإلى وزيره ابن مقلة يعرفهما أنه على الطاعة ويطلب أن يقاطع على ما بيده من البلاد وينذر ألف ألف درهم فأجيب إلى ذلك وأنفذت إليه الخلع واللواء.

ولما بلغ مرداويج ما ناله ابن بويه قام لذلك وقعد وسار إلى أصبهان للتدبير عليه وبه أخوه وشمكير فرأى أن ينفذ عسكرياً إلى الأهواز للاستيلاء عليها ويسد الطريق على ابن بويه إذا قصدته فلا يبقى له طريق إلى الخليفة ويقصده هو من ناحية أصبهان ويقصده عسكرياً من ناحية الأهواز فلا يثبت لهم. فسارت عساكر مرداويج حتى بلغت أيلج في رمضان ثم استولت على رامهرمز في شوال (سنة ٣٢٢) ثم استولت على الأهواز وأجلت عنها ياقوتاً بلغ ابن بويه أن مرداويج استولى على الأهواز فكان نائبة يستميله ويطلب منه أن يتوسل بينه وبين مرداويج ففعل واستقر الأمر بينهما على أن ابن بويه يخطب لمرداويج وأهدى ابن بويه هدية جميلة وأنفذ له أخاه الحسن رهينة.

من حسن حظ ابن بويه أن مرداويج قتل بعد ذلك (سنة ٣٢٣) تمردت عليه جنوده الأتراك لأنه كان كثير الإساءة إليهم ويفضل عليهم الديلمة الذين هم من عنصره فانفقوا على اغتياله ففعلوا وكان رؤساء المتألبين عليه من الأتراك بجكم وتوزون وهما اللذان ذكرا. أنهما توليا إمرة الأمراء بالعراق وباروق وابن بغرا ومحمد بن بنال الترجمان. ولما تم لهم ما أرادوا تفرق الجيش فأما الأتراك فافترقوا فرقتين فرقة منهم لحقت بابن بويه وفرقة سارت

نحو الجبل مع بجكم. وأما الديلم فذهبوا إلى وشمكير بالرى وأطاعوه. وكان من نتيجة قتل مرداويج أن يخلص الحسن بن بويه الذي كان رهينة عنده وسار إلى أخيه بفارس.

صارت القوى الكبرى ببلاد العجم ثلاثاً قوة على بن بويه بفارس وقوة وشمكير بن شيرويه بالرى وقوة السامانية بخراسان وما وراء النهر. أما ياقوت الذي كان بالأهواز فضعفت قوته جداً حتى لم تعد قادرة على حفظ ما معها فضلاً عن مصادمة غيرها أما القوة الحية النامية فهي قوة ابن بويه. سير أخاه الحسن إلى بلاد الجبل ومعه العساكر فاستولى على أصبهان وأزال عنها وعن عدة من بلاد الجبل نواب وشمكير وبقي وشمكير يتنازعان هذه البلاد وهي أصبهان وهمدان وقم وقاشان وكرج والرى وكنكور وقزوین وغيرها حتى تم للحسن بن بويه الاستيلاء عليها بعد خطوب وحروب طويلة وانجلي عنها نواب وشمكير.

خطر ببال علي بن بويه أن يمد سلطانه إلى الأهواز والعراق لما علمه من ضعف قوة الخليفة ببغداد وكان هو مشغولاً بإدارة إقليم فارس وأخوه الحسن مشغولاً ببلاد الجبل وأخوهما الأصغر لا شغل له فسيره على الأهواز فاستولى عليها بعد حروب بينه وبين بجكم الرائقي وانهزم بجكم إلى واسط.

كان من أهم مقاصد ابن بويه المسير إلى العراق بعد الاستيلاء على واسط فصار أحمد بن بويه يسير إلى واسط ثم يعود عنها حتى كاتبه قواد ببغداد يطلبون إليه المسير نحوهم للاستيلاء على ببغداد فوصلها في (١١ جمادى الأولى سنة ٣٣٤) والخليفة بها هو المكتفي بالله فقابلته واحتفى به وبإيعاه أحمد وحلف كل منهما لصاحبه هذا بالخلافة وذاك بالسلطنة وفي هذا اليوم شرف الخليفة بنى بويه بالألقاب فلقب علياً صاحب بلاد فارس عماد الدولة وهو أكبرهم ولقب الحسن صاحب الرى والجبل ركن الدولة ولقب أحمد صاحب العراق معز الدولة وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على النقود.

وهذا اليوم هو تاريخ الدور الثانى للخلافة العباسية وهو تاريخ سقوط السلطان الحقيقى من أيديهم وصيرورة الخليفة منهم رئيساً دينياً لا أمر له ولا شئ ولا وزير وإنما له كاتب يدبر إقطاعاته وإخراجاته لا غير وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من شاء.

وكان يخطر ببال معز الدولة أن يزيل اسم الخلافة أيضاً عن بنى العباس ويوليها علوياً لأن القوم كانوا شيعة زيدية لأن التعاليم الإسلامية وصلت إليهم على يد الحسن بن زيد ثم على يد الحسن الأطروش وكلاهما زيدى فكانوا يعتقدون أن بنى العباس قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها ولكن بعض خواصه أشار عليه ألا يفعل وقال له: إنك اليوم مع

الخلافة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوا؛ فأعرض عما كان قد عزم عليه وأبقى اسم الخلافة لبني العباس وانفرد هو بالسلطان ولم يبق بيد الخلافة شيء البتة إلا أقطعه معز الدولة مما يقوم بحاجته.

كان السلطان في ذلك الوقت ببلاد الأندلس لبني أمية والقائم بالأمر منهم عبد الرحمن الناصر وقد لقب بأمر المؤمنين حينما وصلت خلافة بغداد إلى ما وصلت إليه من الضعف أمام الأتراك والديلمة الذين سال سيلهم ببغداد.

وببلاد إفريقية للعبّيين الذين تأسست دولتهم على أنقاض الأغالبة والأدارسة والقائه بالأمر منهم إسماعيل المنصور وهوثاني خلفائهم وكان يلقب بأمر المؤمنين.

وبمصر والشام للأخشيديين والأمير منهم أنوجور بن محمد الأخشيد وكانوا يخطبون باسم الخلافة العباسي.

وبحلب والثغور لسيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان الشيباني ويخطب باسم الخلافة العباسي.

وبالجزيرة الفراتية لناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان الشيباني يخطب باسم الخلافة العباسي.

وبالعراق للدليم والسلطان منهم معز الدولة أحمد بن بويه ويخطب على منابرهم باسم الخلافة العباسي ثم باسم معز الدولة من بعده.

وبعمان والبحرين واليمامة وبادية البصرة للقرامطة ويخطبون باسم المهدي.

وبفارس والأهواز لعلّ بن بويه الملقب عماد الدولة ويخطب باسم الخلافة العباسي وجرجان وطبرستان يتنازعهما وشمكير بن شيرويه وركن الدولة وآل سامان.

وبخراسان وما وراء النهر لآل سامان ومقر ملكهم مدينة بخارة ويخطبون على منابرهم باسم الخلافة العباسي.

هذه هي القرى الكبرى التي كانت لأسر ملوكية في الرقعة الإسلامية فقد تفرق هذا الملك الواسع تفرقاً غريباً بعد أن كان متماسك الأعضاء يرجع كله إلى حاضرة كبرى تجمع شتاته. ومما يستحق النظر أن العنصر العربي لم يبق له شيء من الملك إلا ما كان لناصر الدولة وأخيه سيف الدولة فإنهما من عنصر عربي ومع هذا فقد كان النفوذ والسلطان فيهما

يلبانه من البلاد لقواد من الأتراك ولم يكن لهما استقلال سياسى بل كان أمر بنى بويه فوقهما وكانا يذكران اسم معز الدولة فى الخطبة بعد ذكر الخليفة العباسى .

لم يمكث المستكفى فى الخلافة بعد استيلاء معز الدولة إلا أربعين يوماً وخلع لأن معز الدولة اتهمه بالتدبير عليهم فصمم على خلعه ، ففى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة (سنة ٣٣٤) حضر الخليفة وحضر الناس ورسول صاحب خراسان ثم حضر اثنان من نقباء الديلم يصيحان فتناولا يد المستكفى فظن أنهما يريدان تقييلها فمدها إليهما فجذباه عن سريره وجعلاً عمامته فى حلقه ونهض معز الدولة واضطربت الناس ونهبت الأموال وساق الديلميان المستكفى ماشياً إلى دار معز الدولة فاعتقل بها ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شئ وقبض على أبى أحمد الشيرازى كاتب المستكفى وكانت مدة المستكفى سنة واحدة وأربعة أشهر .

المطيع

هو الفضل المطيع لله بن المقتدر بن المعتضد فهو ابن عم المستكفي ببيع بالخلافة ثاني عشر جمادى الآخرة (سنة ٣٣٤) (٢٩ يناير سنة ٩٤٦) ولم يزل خليفة إلى أن خلع في منتصف ذي القعدة (سنة ٣٦٣) (٧ أغسطس سنة ٩٧٤) فكانت مدته (٢٩ سنة) وخمسة أشهر غير أيام ولم يكن له من الأمر شيء والنفوذ في حياته للملوك من آل بويه وهم:

أولاً: معز الدولة: وهو أحمد بن بويه فاتح العراق وكان أصغر إخوته وكان سلطان معز الدولة بالعراق مبدأ خرابه بعد أن كان جنة الدنيا فإنه لما استقرت قدمه فيه شغب الجند عليه وأسمعوه المكروه فضمن لهم أرزاقهم في مدة ذكرها لهم فاضطر إلى ضبط الناس وأخذ الأموال من غير وجوهها وأقطع قواده وأصحابه بالقرى جميعها التي للسلطان وأصحاب الأملاك فبطل لذلك أكثر الدواوين وزالت أيدي العمال وكانت البلاد قد خربت من الاختلاف وفي الغلاء والنهب فأخذ القواد القرى وزادت عمارتها معهم وتوفر دخلها ببب الجاه فلم يمكن معز الدولة العود عليهم بذلك وأما الاتباع فإن الذي أخذه زاد خراباً فرفوه وطلبوا العوض عنه فعوضوا وترك الأجناد الاهتمام بمشارب القرى وتسوية طرقها فهلك وبطل الكثير منها وأخذ غلمان المقطعين في الظلم وتحصيل العاجل فكان أحدهم إذا عجز الحاصل تممه بمصادراته. ثم أن معز الدولة قد فوض حماية كل موضع إلى بعض أكثر أصحابه فاتخذ مسكناً فاجتمع إليه الإخوة وصار القواد يدعون الخسارة في الحاصل فلا يقدر وزير ولا غيره على تحقيق ذلك فلما اعترضه معترض صاروا أعداء له فتركوا و يريدون، فازداد طمعهم ولم يقفوا عند غاية فتعذر على معز الدولة جمع ذخيرة تكون للنواب والحوادث وأكثر من إعطائه غلمانه الأتراك والزيادة لهم في الأقطاع فحسد الديلم وتولد من ذلك الوحشة والمنافرة ولم تمض سنة على بغداد حتى اشتد الغلاء فأكلك الناس الميتة والسنانير والكلاب وأكل الناس خروب الشوك وكانوا يسلقون جبه ويأكلونه فلحق الناس أمراض وأورام في أحشائهم وكثر فيهم الموت حتى عجز الناس عن

دفن الموتى فكانت الكلاب تأكل لحومهم وانحدر كثير من أهل بغداد إلى البصرة فمات أكثرهم في الطريق وبيعت الدور والعقارات بالخيز.

فكان نظام الإقطاع أول فساد بالعراق، لأنه أضعف همّة الفلاحين الذين يقومون بزرع الأرض وإصلاحها وتنميتها.

السبب الثاني من أسباب الفساد اختلافان: الأول اختلاف عنصرى بين الأجناد فإنهم كانوا يتألفون من ديلم وأتراك وبين العنصرين غيرة ومنافسات فكان بينهما فى أكثر الأحيان نزاع شديد يعود بالضرر على الناس حيث تقف حركة التجارة لخوف الناس على ما بيدهم من المال وقد كادت هذه المنازعات تؤدى (سنة ٣٣٥) إلى خلع معز الدولة بيد الديلم أنفسهم فإنهم لما رأوا تقدم الأتراك ثاروا به ومقدمهم قائد منهم اسمه روزبهان بن ونداد خورشيد وساعده على ذلك أخوه ولكن معز الدولة انتصر عليه بقوة الأتراك فاصطنعهم عون الديلم وأمر بتوبيخ الديلم والاستطالة عليهم ثم أطلق للأتراك إطلاقاً، زائدة على واسط والبصرة فساروا لقبضها مدلين بما صنعوا فأخربوا البلاد ونهبوا الأموال وصار ضررهم أكبر من نفعهم. وأما الاختلاف الثانى: فهو اختلاف دينى تأججت ناره ببغداد نفسها وبما جاورها من بلاد فقد كان أهل بغداد قبل الدولة البويهية على مذهب أهل السنة والجماعة يحترمون جميع الصحابة ويفضلون الشيخين أبا بكر وعمر على سائرهم ولا يقدحون فى معاوية ولا غيره من سلف المسلمين فلما جاءت هذه الدولة وهى متشعبة غالية: نما مذهب الشيعة ببغداد ووجد له من قوة الحكومة أنصاراً فقد كتب على مساجد بغداد (سنة ٣٥١) ما صورته (لعن الله معاوية بن أبى سفيان ولعن من غصب فاطمة رضى الله عنها «فدكا» ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ومن نفى أبا ذر الغفارى ومن أخرج العباس من الشورى) والخليفة كان محكوماً عليه لا يقدر على المنع وأما معز الدولة فبأمره كان ذلك فلما كان الليل حكه بعض الناس فأراد معز الدولة إعادته فأشار عليه وزيره أبو محمد المهلبى بأن يكتب مكان ما محى لعن الله الظالمين لآل رسول الله ﷺ ولا يذكر أحداً فى اللعن إلا معاوية ففعل ذلك.

وفى (سنة ٣٥٢) أمر معز الدولة عاشر المحرم أن يغلقوا دكاكينهم ويطلقوا الأسواق والبيع والشراء وأن يظهروا النياحة ويلبسوا قباً عملوها بالسوح وأن يخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجه قد شققن ثيابهن يدرن فى البلد بالنوائج ويلطمن وجوههن على الحسين بن على رضى الله عنهما ففعل الناس ذلك ولم يكن للسنية قدرة على المنع لكثرة الشيعة ولأن السلطان معهم.

وفى ثامن عشر ذى الحجة أمر معز الدولة بإظهار الزينة فى البلد وأشعلت النيران

بمجلس الشرطة وأظهر الفرح وفتحت الأسواق بالليل كما يفعل ليالى الأعياد فعل ذلك احتفالاً بعيد الغدير يعنى غدير خم وهو الموضع الذى يروى أن رسول الله ﷺ قال فيه عن على «من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وضربت الدبابد والبوقات وكان يوماً مشهوداً.

وبهذا الانقسام صارت بغداد وبلاد فارس والرى ميداناً للاضطرابات المتكررة بين العامة والسلطان ضلعه مع أحد الفريقين والخليفة ضلعه مع الفريق الآخر. وهو الأكثر عدداً ومن المعلوم أن جميع العداوات يمكن تلافها فيهمون أمرها ما عدا ما منشؤه الدين منها وأعظمه شدة ما كان بين فرقتين من دين واحد فإنها يشتد توهجها إذا وجدت حاضاً يحركها لغاياته ولا أشد من يد السلطان فى تحريكها فإذا لعبت فيها أصبعه ماج الناس وهاجوا وأثر ذلك فى الأحوال العامة أسوأ تأثير ولا يزول ذلك إلا بعد أن ينغرس فى نفوس الناس حرية الدين والعقيدة ولم يكن ثم سبيل إلى ذلك لأن إحدى الفرقتين تحترم شخصاً والأخرى تلعنه فأنى تتفقان.

ومع ما أدت إليه سياسة معز الدولة من هذا الفساد كانت هناك أمور أخرى تشغل باله فى شمالى بلاده وجنوبها أما فى الشمال فناصر الدولة بن حمدان بالموصل وكان الرجلان يتنازعان السلطان وكل يريد الإغارة على ما بيد الآخر.

ففى السنة الأولى لولاية معز الدولة جاء ناصر الدولة واستولى على الجانب الشرقى من بغداد وكاد أمر معز الدولة يضمحل لولا أن استعمل الحيلة التى خدع بها ناصر الدولة وهزمه فجاء الديلم ونهبوا أموال الناس فكان مقدار ما غنموه من أموال الناس المعروفين دون غيرهم عشرة آلاف ألف دينار وقتلوا كثيراً ممن اتهموه. واضطر ناصر الدولة يظف معز الدولة الصلح على مال يؤديه عما تحت يده من البلاد، فقبل ذلك معز الدولة.

وفى (سنة ٣٣٧) سار معز الدولة إلى الموصل مريداً الاستيلاء عليها فسار عنه ناصر الدولة إلى نصيبين فدخلها معز الدولة وظلم أهلها وعسفهم وأخذ أموال الرعايا فكرهه الناس وكان من غرضه أن يستولى على جميع ما بيد ناصر الدولة من البلاد ولكن بلغه من أخيه ركن الدولة أن جيوش السامانية خرجت تريد الاستيلاء على جرجان والرى على أن يؤدى ناصر الدولة عن الموصل وديار الجزيرة كلها والشام فى كل سنة ثمانية آلاف ألف درهم ويخطب فى بلاده لأولاد بويه الثلاثة وإذا ذاك رجع معز الدولة إلى بغداد.

ولما قامت فتنة رزبهان الديلمى على معز الدولة أراد ناصر الدولة إعادة الكرة على بغداد فسير أحد أولاده فى جيش لكنه لم يتمكن ممن أراد فلما انتصر معز الدولة على خصمه

ولى وجهه شطر الموصل للانتقام من ناصر الدولة فراسله ناصر الدولة الصلح على مال ضمنه فقبل ولكن ناصر الدولة لم يف بما ضمن فسار إليه معز الدولة (سنة ٣٤٧) فلما قارب الموصل سار عنها ناصر الدولة إلى نصيين فاستولى عليها معز الدولة ثم سار إلى نصيين ففارقها ناصر الدولة إلى ميفارقين فاستولى عليها معز الدولة.

ولما رأى ناصر الدولة ما صار إليه سار إلى أخيه سيف الدولة بحلب فلقيه أخوه وبالغ فى إكرامه وراسل معز الدولة فى طلب الصلح فامتنع معز الدولة من تضمين ناصر الدولة لإخلافه مرة بعد أخرى فضمن سيف الدولة البلاد منه بألفى ألف درهم وتسعمائة ألف درهم وكان ذلك فى محرم (سنة ٣٤٨).

إنما أجاب معز الدولة إلى الصلح لأنه ضاقت عليه الأموال وتقاعد الناس عن حمل الخراج واحتجوا بأنهم لا يصلون إلى غلاتهم وطلبوا الحماية من العرب أصحاب ناصر الدولة فاضطر بسبب ذلك الانحذار وأجاب إلى الصلح وانحدر إلى بغداد وعاد ناصر الدولة إلى الموصل ومع كل هذا لم تهدأ الحروب بين هذين الطرفين فاشتغلا بها عن كل مصلحة وكان ذلك سبباً فيما يأتى ذكره من الضعف أمام الروم.

لم يكن هذا وحده الذى يشغل معز الدولة بل كان له فى الجنوب أيضاً مشاغل كبرى فقد كان بالبصرة أبو القاسم البريدى أميراً عليها باسم معز الدولة ولكن نفسه كانت تطمع للاستقلال بها وألا يرسل إلى معز الدولة خراجاً. فكان معز الدولة يرسل إليه الجيوش والبريدى يرسل مثلها فيحصل القتال بين الطرفين.

وفى (سنة ٣٣٦) عزم معز الدولة أن يسير إلى البريدى فسار إليه سالكاً البرية فأرسل إليه القرامطة ينكرون عليه مسيره إلى البرية بغير إذنهم فلم يجبهم على كتابهم وقال من هؤلاء حتى يستأمروا، ولما وصل إلى الدرهمية استأمن إليه كثير من عسكر البريدى وهرب هو إلى هجر والتجأ إلى القرامطة وملك معز الدولة البصرة.

وكانت نتيجة ما فعله مع القرامطة والاستهانة بهم أن جاءوا إلى البصرة (سنة ٣٤١) ومعهم أمير عمان من البحر ولكن البصرة قاومتهم بفضل الوزير المهلبى وزير معز الدولة.

وفوق هذا فقد حدثت قوة جديدة زادت متاعبه ومشاغله وهى قوة عمران بن شاهين وكان فى أول الأمر جابياً فجباً جبايات ثم هرب إلى البطيحة وهى أرض واسعة بين واسط والبصرة وكانت قديماً قرى متصلة وأرضاً عامرة فاتفق فى أيام كسرى أبرويز أن زادت دجلة زيادة مفرطة وزاد الفرات أيضاً بخلاف العادة فعجز عن سدها فبتطح الماء فى تلك الديار والعمارات والمزارع فطرد أهلها عنها فلما نقص الماء وأراد العمارة أدركته المنية ولم يفعل من

بعده شيئاً ثم جاء الإسلام فاشتغلوا بالحروب والجلاء ولم يكن للمسلمين إذ ذاك دراية بعمارة الأرضين فلما ألقت الحروب أوزارها واستقرت الدولة الإسلامية في قرارها استفحل أمر البطائح وفسدت مواضع البشوق وتغلب الماء على النواحي ودخلها العمال بالسفن فأروا فيها مواضع عالية لم يصل الماء إليها فبنوا فيها قرى وسكنها قوم وزرعوها الأرض. جاء عمران إلى هذه البطائح خوفاً من السلطان وأقام بين القصب والآجام متحصناً بها واقتصر على ما يصيد من السمك وطيور الماء ثم صار يقطع الطريق على من يسلك البطيحة واجتمع إليه جماعة من الصيادين وجماعة من اللصوص فقوى بهم وحمى جانبه من السلطان فلما خاف أن يقبض استأمن إلى أبي القاسم البريدي فقلده حماية الجامدة ونواحي البطائح وما زال يجمع الرجال إلى أن كثر أصحابه وقوى واستعد بالسلاح واتخذ معاقل على التلول التي بالبطيحة وغلب على تلك النواحي فلما اشتد أمره سير معز الدولة جيشاً لمحاربتة قائده وزيره أبو جعفر الصيمري فانتصر أبو جعفر انتصاراً باهراً وكاد يأخذ عمران لولا أن شغل معز الدولة ب وفاة أخيه الأكبر عماد الدولة فاضطر إلى أن يأمر وزيره بقصد شيراز لإصلاحها ففارق البطيحة وكان ذلك منفساً عن عمران فزاد قوة وجراً فأنفذ إليه معز الدولة جيشاً ثانياً فكان نصيب هذا الجيش الفشل وغنم عمران ما كان فيه من السلاح فقوى وطمع أصحابه في السلطان فصاروا إذا اجتاز بهم أحد من أصحاب السلطان يطلبون منه البذرة والخفارة فإن أعطاهم وإلا ضربوه وكان الجند لا بد لهم من العبور عليهم إلى ضياعهم ومعاشهم بالبصرة وغيرها ثم انقطع الطريق إلى البصرة إلا على الظهر فشكا الناس ذلك إلى معز الدولة فكتب إلى وزيره المهلبى بالمسير إلى واسط وأسده بالجيوثر فزحف إلى البطيحة وضيق على عمران فأنتهى إلى المضايق التي لا يعرفها إلا هو وأصحابه فهجم عليهم المهلبى وكان عمران قد جعل الكمائن في تلك المضايق فلما تقدم المهلبى خرج عليه وعلى أصحابه الكمائن ووضعوا فيهم السلاح فقتلوا وأغرقوا وأسروا وألقى المهلبى نفسه في الماء فنتجا سباحة وأسر عمران القواد والأكابر فاضطر معز الدولة إلى مصاحته وإطلاق من عنده من أهل عمران وإخوته فأطلق عمران من في أسره من أصحاب معز الدولة وقلده معز الدولة البطائح فقوى واستفحل أمره وقد استمر ملك عمران بن شاهين بالبطيحة من (سنة ٣٢٩) إلى (سنة ٣٦٩) أي أربعين سنة كان فيها شجراً في حلق بنى يومه لا يقرون منه على شئ وانتقل الملك منه إلى أعقابه ومواليهم إلى (سنة ٤٠٨) وهذا ثبتهم:

٣٦٩ - ٣٢٩

١- عمران بن شاهين

٣٧٢ - ٣٦٩

٢- الحسن بن عمران

٣٧٣ - ٣٧٢

٣- أبو الفرج بن عمران

٣٧٣ - ٣٧٣

٤ - أبوالمعالى بن الحسن بن عمران

٣٧٦ - ٣٧٣

٥ - المظفر بن على وزير عمران وابنه الحسن بالتغلب

٤٠٧ - ٣٧٦

٦ - مهذب الدولة أبوالحسن على بن نصر بن أخت المظفر

٤٠٨ - ٤٠٧

٧ - أبوالحسن بن مهذب الدولة

٤٠٨ - ٤٠٨

٨ - عبد الله بن نسي بالتغلب

ثم صارت البطيحة متغلباً لكثير من الأقوياء يتلقاها أحدهم عن الآخر بطريق التغلب والقوة إلى انتهاء الدولة السلجوقية فعادت إلى خلفاء بغداد.

لم يكن عهد معز الدولة ببغداد إلا شراً كله من جراء الاختلافات والحروب الداخلية والحروب وضعف هيئة السلطان. ولما أحس بقرب منيته وصى ولده بختيار بطاعة عمه ركن الدولة واستشارته فى كل ما يفعل وبطاعة عضد الدولة ابن عمه لأنه أكبر منه سناً وأقوم بالسياسة. ثم أدرسته منيته فى (١٣ ربيع الآخر سنة ٣٥٦).

ومما حصل من حوادث أهل بيته فى عهد وفاة عمه عماد الدولة على بن بويه (سنة ٣٣٨) باصطخار ولما لم يكن له ولد ذكر طلب من أخيه ركن الدولة أن يرسل إليه ابنه فناخسرو الملقب عضد الدولة فأجابه فولاه عهده ولما توفى قام عضد الدولة بأمر فارس من بعده وانتقلت إمرة الأمراء إلى أخيه ركن الدولة الحسن.

ثانياً عز الدولة بختيار: وهو ابن معز الدولة أحمد بن بويه ولى العراق بعد وفاة أبيه واستمر فى سلطانه إلى أن خلعه ابن عمه عضد الدولة (سنة ٣٦٧) فكانت مدته (١١ سنة) قضى منها سبع سنين فى خلافة الفضل المطيع وكانت البلاد فى سلطانه أسوأ حالاً منها فى سلطان أبيه فإنه اشتغل باللهو واللعب وعشرة النساء والمغنيين وشرع فى إباحاش كاتبي أبيه نبي الفضل العباس بن الحسين وأبى الفرج محمد بن العباس مع أن أباه أوصاه بتقريرهما كفايتهما وأمانتهما وأوحش سبكتكين أكبر القواد فلم يحضر داره ونفى كبار الديلم شرها إلى إقطاعاتهم وأموالهم وأموال المتصلين بهم فاتفق أصاغرهم عليه وطلبوا الزيادات فاضطر إلى مرضاتهم واقتدى بهم الأتراك فعملوا مثل ذلك ولم يتم له على سبكتكين ما أراد من غتياله لاحتياظه واتفاق الأتراك معه وخرج الديلم إلى الصحراء وطلبوا بختيار بإعادة من سقط منهم فأحتاج أن يجيهم إلى ما طلبوا وفعل الأتراك أيضاً مثل فعلهم وفى أول عهده قبض أولاد ناصر الدولة بن حمدان ملك الموصل على أبيهم واستقر فى الأمر منهم ابنه أبو تغلب وضمن البلاد من عز الدولة بألف ألف ومائتى ألف درهم كل سنة وكذلك مات

سيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان صاحب حلب وقام مقامه ابنه أبوالمعالى شريف. ومات كافور الأخشيدى صاحب مصر (سنة ٣٥٦) وبموته اضطرب أمرها وتهايت الفرصة للفاطميين. ومات وشمكير بن زيار وهو يحارب ركن الدولة على بلاد الرى يريد استردادها منه وقام بأمر ملكه بعده ابنه ييستون بن وشمكير (سنة ٣٥٧) ومات أيضاً نقفور الذى ملك الروم وهدد الثغور الشامية والجزرية وأذاقها الوبال.

حال الثغور الإسلامية فى عهد المطيع:

كانت الثغور الإسلامية لذلك العهد فى حوزة سيف الدولة على بن حمدان الذى كان متغلباً على حلب والعواصم وديار بكر فكان هو الذى يقوم بحمايتها ودفع العدو عنها. وكان قد ولى هذه الثغور مولاه نصرأ فكانا يتناوبان الغزو ولكن لم تكن بهما الكفيلة لمقاومة عدو كانت الخلافة الكبرى تحتد له وتهتم أعظم الاهتمام بأمره.

وفى (سنة ٣٣٧) سار سيف الدولة بنفسه إلى بلاد الروم فلقوه فاقتتلوا فكانت عليه وأخذ الروم مرعش وأوقعوا بأهل طرطوس. وفى السنة التى تليها دخل غازياً فكان له النصر أولاً ولكنه توغل فى البلاد فلما أراد العودة أخذ عليه الروم المضايق فهلك من كده معه من الجند أسراً وقتلاً واسترد الروم الغنائم والسبى وغنموا أثقال المسلمين وأموالهم ونجى سيف الدولة فى عدد يسير.

وفى (سنة ٣٤١) غزا سيف الدولة البلاد الرومية وكان له بها نصر عظيم وقتل فى تلك الواقعة قسطنطين بن الدمستق وقد عظم مقتله على أبيه فجمع عساكره من الروم والروم والبلغار وغيرهم وقصد الثغور فسار إليه سيف الدولة فالتقوا عند الحدث فى شعبان فاشتد القتال وصبر الفريقان وكانت العاقبة للمسلمين فانهمز الروم وقتل منهم وعمن معهم خسر عظيم وأسر صهر الدمستق وابن بنته وكثير من بطارقه والدمستق عند الروم الرئيس الأكبر للجيش والبطارقة قواده.

وفى (سنة ٣٤٥) سار سيف الدولة إلى بلاد الروم فى جيوشه حتى وصل إلى خرشة وفتح عدة حصون ثم رجع إلى أذنة فأقام بها حتى جاءه رئيس طرطوس فخلع عليه وأعطاه شيئاً كثيراً ثم عاد إلى حلب فلما سمع الروم بما فعل جمعوا جموعهم وساروا إلى ميافارقين بديار ربيعة فأحرقوا سوادها ونهبوا وسبوا أهله ونهبوا أموالهم وعادوا ولم يكف بذلك بل ساروا فى البحر إلى طرطوس فأقوعوا بأهلها وقتلوا منهم (١٨٠٠ رجل) وأحرقوا القرى التى حولها. ثم غزوها مرة ثانية (سنة ٣٤٧) وغزوا الرها ففعلوا بها الأفاعيل وعصو سالمين لم يكلم أحد منهم كلاماً.

وفى (سنة ٣٤٩) سار سيف الدولة إلى بلاد الروم فى جمع عظيم فآثر فيها آثاراً شديدة

وفتح عدة حصون وبلغ إلى خرشنة ثم إن الروم أخذوا عليه المضايق فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهل طرطوس إن الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك فلا تقدر على العود منه والرأى أن ترجع معنا فلم يقبل منهم وكان معجباً برأيه يحب أن يستبد ولا يشاور أحداً لئلا يقال إنه أصاب برأى غيره وعاد من الدرب الذى دخل منه فظهر الروم عليه واستردوا ما كان معه من الغنائم وأخذوا أثقاله ووضعوا السيف فى أصحابه فأتوا عليهم قتلاً وأسرأ وتخلص هو فى (٣٠٠ رجل) بعد جهد وهذا من سوء رأى المستبدين.

وفى (سنة ٣٥٠) سار قفل عظيم من أنطاكية إلى طرطوس ومعهم صاحب أنطاكية فخرج عليهم كمين للروم فأخذ من كان فيه من المسلمين وقتل كثيراً منهم وأقلت صاحب أنطاكية وبه جراحات.

وفى (سنة ٣٥١) غزا الدمستق عين زربة وهى من أحصن مدن الثغور فاستولى عليها وقتل أهلها ولم يرحم شيخاً ولا صبياً وأقلت قليل منهم هربوا على وجوههم فماتوا فى الطرقات وفتح حول عين زربة (٥٤ حصناً) للمسلمين بعضها بالسيف وبعضها بالأمان وقد حصل أن حصناً من هذه الحصون التى فتحت بالأمان أمر أهله بالخروج منه فتعرض أحد الأرمن لبعض حرم المسلمين فلحق المسلمين غيرة فجردوا سيوفهم فاغتاظ الدمستق من ذلك فأمر بقتل جميع المسلمين وكانوا (٤٠٠ رجل) وقتل النساء والصبيان ولم يترك إلا من يصلح أن يسترق ولما أدركه الصوم انصرف على أن يعود بعد العيد وخلف جيشه بقيسارية وكان صاحب طرسوس قد خرج فى (٤٠٠ رجل) فأوقع بهم الدمستق فقتل أكثرهم وكان صاحب طرسوس قد قطع خطبة سيف الدولة فلما رأوا ما أصابهم من الوهن أعاد أهل البلد خطبة سيف الدولة وراسلوه بذلك وراسل أهل بغراس الدمستق وبذلوا له مائة ألف درهم فأقرهم وترك معارضتهم.

وفى هذه السنة استولى ملك الروم على مدينة حلب حاضرة ملك سيف الدولة فخرج عنها سيف الدولة منهزماً بعد أن قتل أكثر أهل بيته وظفر الدمستق بأموال سيف الدولة وكنوزه وأسلحته وخرب داره التى كانت بظاهر حلب وسبى من حلب وحدها بضعة عشر ألف صبى وصبية وقتل أكثر من ذلك ولم يبق مع الروم ما يحملون عليه غنائمهم أمر لدمستق بإحراق الباقي وأحرق المساجد وأقام بحلب تسعة أيام أراد الانصراف عنها فتصرف عازماً على العودة. وظهر بذلك غلبة الروم على المسلمين إلا أن هؤلاء كانوا يغيرون أحياناً بقيادة سيف الدولة أو أحد غلمانه ولكنهم لا يؤثرون عظيم أثر.

وفى (سنة ٣٥٣) حصر الدمستق مدينة المصيصة ولكن أهلها أحسنوا الدفاع عنها فأحرق

الروم رستاقها ورستاق أذنة وطرسوس لمساعدتهما أهل المصيصة، ثم إن إنساناً وصل إلى الشام من خراسان ومعه خمسة آلاف متطوع للجهاد فأخذهم سيف الدولة وسار بهم نحو بلاد الروم فوجدوا الروم قد عادوا فتفرق الغزاة الخراسانية في الثغور لشدة الغلاء وعاد أكثرهم إلى بلادهم. وبعد تراجع الأسعار عاد ملك الروم إلى طرسوس فحصرها وجرى بينه وبين أهلها حروب كثيرة وقاوم الطرسوسيون مقاومة يحمدون عليها فحصرهم الروم ثلاثة أشهر ولم يأتهم جند يردهم لا من قبل سيف الدولة ولا غيره حتى اشتد الغلاء على الروم وكثر بينهم الوباء فاضطروا إلى الرحيل.

وفي (سنة ٣٥٤) ألح نقفور على المصيصة بالحرب حتى فتحها عنوة ووضع السيف في أهلها فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم رفع السيف عنها ونقل كل من بها إلى بلاد الروم وكانوا نحواً من مائتي ألف إنسان ثم سار إلى طرسوس فحصرها فأذعن أهلها بالطاعة وطلبوا الأمان فأجابهم إليه وفتحوا البلد فلقيهم بالجميل وأمرهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم ما يطيقون ويتركوا الباقي ففعلوا ذلك وساروا برّاً وبحراً وسير معهم من يحميهم حتى بلغوا أنطاكية وجعل الملك المسجد الجامع اصطبلًا لدوابه وأحرق المنبر وعمر طرسوس وحصنها وجلب الميرة إليها حتى رخصت الأسعار وتراجع إليها كثير من أهلها ودخلوا في طاعة الملك وتنصر بعضهم. ومن غرائب العقول أن يجرى هذا كله بشغور الإسلام والخلاف والشقاق قد استحکم أمرهما بين ولاية المسلمين وأمرائهم.

وفي (سنة ٣٥٨) دخل ملك الروم الشام فلم يمنعه أحد فسار في البلاد إلى طرابلس وأحرق بلدها وحصر قلعة عرقة فملكها ونهبها وسبى من فيها ثم قصد حمص وكان أهله قد انتقلوا عنها وأخلوها فأحرقها ملك الروم ورجع إلى بلدان الساحل فأتى عليها نهراً وتخريباً وملك ثمانية عشرة منبراً فأما القرى فكثير لا يحصى وأقام في بلاد الشام شهراً يقصد أى موضع شاء ويخرب ما شاء ولا يمنعه أحد إلا أن بعض العرب كانوا يغيرون على أطراف الروم أحياناً وأثناء جماعة منهم وتنصروا وكادوا المسلمين من العرب وغيرهم فامتنت العرب من قصدهم وصار للروم هيبة عظيمة في قلوب المسلمين وقد عاد من الروم ذلك ومعه من السبى مائة ألف رأس ولم يأخذوا إلا الصبيان والصبايا والشبان فعد الكهول والشيوخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من أطلقه.

وكانت هذه الحوادث الجلى سبباً لازدياد الهياج ببلاد خراسان وتنادى الناس بالنفير انعم لحماية الثغور الإسلامية فتطوع منهم عشرون ألفاً عليهم قائد منهم وكان فيهم أبو بكر محمد بن إسماعيل بن القفال الشاشي أحد أئمة الشافعية بما وراء النهر. وما يحزن أن هـ

الجيش المتطوع اضطر إلى المرور ببلاد الجبل التي في حوزة ركن الدولة وهو ديلمى يكرمه أهل خراسان ويعتقدون أن الديلم هم سبب كل هذه البلايا فحصلت فتن بين المتطوعين والديلم وكانت نتيجتها أن حاربهم ركن الدولة وشتت شملهم.

وفي (سنة ٣٥٩) ملك الروم مدينة أنطاكية وهي حاضرة الثغور وأضخمها وأخذوا منها سبيًا يزيد على عشرين ألفًا كلهم شباب وصبيان وصبايا وأخرجوا المشايخ والعجائز والأطفال من البلد ليذهبوا حيث يشاؤون. ولما تم لهم ملك أنطاكية غزوا حلب وبها قرعويه السيفي غلام سيف الدولة وكان أبو المعالي شريف بن سيف الدولة يحاربه فلما سمع بخبر الروم فارق حلب وقصد البرية ليعبد عن الروم أما هؤلاء فجاءوا وحاصروا البلد فتحصن قرعويه بقلعتها واستولى الروم على البلد ثم صالحهم قرعويه على مال يؤديه لهم وأعطاهم رهائن على ذلك.

وفي (سنة ٣٦١) أغار ملك الروم على الرها ونواحيها وساروا في الجزيرة حتى بلغوا نصيبين فغنموا وحرقوا وخربوا البلاد وفعلوا كل ذلك بديار بكر ولم يكن من أبى تغلب بن حمدان في ذلك حركة ولا سعى في دفعه ولكنه حمل إليه مالا كفه به عن نفسه فسار جماعة من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنصرين وقاموا في الجوامع والمشاهد واستنفروا المسلمين وذكروا ما فعله الروم من النهب والقتل والأسر والسبي فاستعظم ذلك الناس وخوفهم أهل الجزيرة من انفتاح الطريق وطمع الروم أنه لا مانع منهم فاجتمع معهم أهل بغداد وقصدوا دار الخليفة وأرادوا الهجوم عليه فمنعوا من ذلك وغلقت الأبواب وكان بختيار حينئذ يتصيد بنواحي الكوفة فخرج إليه وجوه أهل بغداد مستغيثين منكرين عليه اشتغاله بالصيد وقتل عمران بن شاهين (صاحب البطيحة) وهو مسلم وترك جهاد الروم ومنعهم عن بلاد الإسلام حتى توغلوها فوعدهم التجهز للغزو وأرسل الحاجب سبكتكين يأمره بالتجهز وأن يستنصر العامة ففعل سبكتكين ذلك فاجتمع من العامة عدد كثير لا يحصون كثرة وكتب بختيار إلى أبى تغلب بن حمدان صاحب الموصل يأمره بإعداد الميرة والعلوفات ويعرفه عزمه على الغزو فأجابه بإظهار السرور وإعداد ما طلب منه ثم أنفذ بختيار إلى المطيع لله يطلب منه مالا فقال المطيع إن الغزو والنفقة عليه وعلى غيره من مصالح المسلمين تلزمنى إذا كانت الدنيا في يدي وتجبى إلى الأموال وأما إذا كانت حالى هذه فلا يلزمنى شيء من ذلك وإنما يلزم من البلاد في يده وليس لى إلا الخطبة فإن شئتم أن اعتزل فعلت وترددت الرسائل بينهما حتى وصل الحال إلى تهديد الخليفة فبذل المطيع (٤٠٠ ألف درهم) فاحتاج إلى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك وشاع بين الناس من أهل

العراق وخراسان وغيرهم أن الخليفة قد صودر فلما قبض بختيار المال صرفه في مصالحه وبطل حديث الغزو.

وفي (سنة ٢٦٢) كانت واقعة بين الدمستق وبين هبة الله بن ناصر الدولة بن حمدان وكان الروم يريدون الاستيلاء على آمد فاستعد له أبو تغلب وأرسل أخاه هبة الله فواقع الدمستق في مضيق لا تجول فيه الخيل والروم على غير أهبة فانهزموا وأسر الدمستق ولم يزل محبوساً إلى أن مرض (سنة ٣٦٣) فبالغ أبو تغلب في علاجه وجمع الأطباء له فلم ينفعه ذلك ومات.

هذه كانت الحال في خلافة المطيع استرد الروم فيها جميع الشغور الإسلامية الكبرى وصارت لهم الهيبة في قلوب المسلمين من أهل الجزيرة والشام وبنو بويه وبنو حمدان يغزو بعضهم بعضاً وهم عما نابهم من عدوهم مشغولون.

ومما حصل في عهد المطيع من الحوادث انتقال خلفاء الفاطميين إلى مصر بعد استيلاء جوهر الصقلي عليها وذلك (سنة ٣٦١) في عهد الخليفة المعز لدين الله معدة الفاطمي.

موت المطيع:

لم يكن للمطيع عمل ولا تاريخ يذكر وقد فلج فأشار عليه سبكتكين مقدم الأتراك أن يعتزل فلم يجد من الامتثال بداً فخلع نفسه في منتصف ذي القعدة (سنة ٣٦٣).

الطائع

هو أبو الفضل عبدالكريم الطائع لله بن المطيع بن المقتدر بن المتعضد ولد (سنة ٣١٧) وبويع له بالخلافة بعد خلع أبيه المطيع في منتصف ذي القعدة (سنة ٣٦٣)، (١٨ أغسطس سنة ٩٧٤) واستمر خليفة إلى أن خلع في (٢١ رجب سنة ٣٨١) (أكتوبر سنة ٩٩١) فكانت مدته (١٧ سنة) وثمانية أشهر وستة أيام.

كانت خلافة الطائع والسلطان بالعراق لخمسة من بنى بويه وهم:

أولاً: عز الدولة بختيار بن معز الدولة إلى (سنة ٣٦٧).

ثانياً: عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة الحسن بن بويه إلى (سنة ٣٧٢).

ثالثاً: صمصام الدولة أبو كالجار المرزبان بن عضد الدولة إلى (سنة ٣٧٦).

رابعاً: شرف الدولة أبو الفوارس سيرزبل بن عضد الدولة إلى (سنة ٣٧٩).

خامساً: بهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة.

ويعاصره في بلاد الأندلس الحكم بن عبدالرحمن الناصر (٣٥٠ - ٣٦٦) وهشام بن الحكم (٣٦٦ - ٣٩٩) وهو الذي كان يحجبه المنصور بن أبي عامر.

وبأفريقية وصقلية يوسف بن بلكين بن زيري الصنهاجي نيابة عن الفاطميين إلى (سنة ٣٧٣) وخلفه ابنه المنصور بن يوسف إلى (سنة ٣٨٦).

وبمصر والشام والحجاز المعز لدين الله معدة الفاطمي إلى (سنة ٣٦٥) وخلفه ابنه العزيز بالله إلى (سنة ٣٨٦).

وباليمن من آل زياد أبو الجحيش إسحاق بن إبراهيم إلى (سنة ٣٧١) ثم عبدالله بن إسحاق إلى (سنة ٣٩٠).

وبصنعاء من آل يعفر عبدالله بن قحطان إلى (سنة ٣٨٧) وهو آخر أمراء هذه الدولة.

وبحلب سعد الدولة أبو المعالي شريف بن سيف الدولة إلى (سنة ٣٨١).

وبالموصل عدة الدولة أبو تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة إلى (سنة ٣٦٩) ثم أبو طامر إبراهيم وأبو عبدالله الحسين ابنا ناصر الدولة إلى (سنة ٣٨٠) وفيها انتهت الدولة الحمدانية بالموصل وقام على أثرها الدولة العقيلية. وأولها أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد العقيلي أمير بنى عقيل.

وفى ديار بكر ابتدأت الدولة المروانية الكردية على أنقاض دولة بنى حمدان وأول هذه الدولة أبو على الحسين بن مروان الذى ابتدأ ملكه (سنة ٣٨٠).

وبخراسان وما وراء النهر الدولة السامانية وأميرها نوح بن منصور الساماني (٣٦٦ - ٣٨٧).

وبجرجان الدولة الزيدانية والأمير ظهير الدولة بيستون بن وشمكير إلى (سنة ٣٦٦) وخلفه شمس المعالي قابوس بن وشمكير إلى (سنة ٤٠٣).

وقد ابتدأت فى أيام الطائع الدولة السبكتكينية بمدينة غزلة وجدت على أطلال الدولة السامانية وصارت تنتقص أرضها الخراسانية التى غربى نهر جيحون وكانت دولة الأتراك الإيلكخانية تنتقص أملاكها فيما وراء النهر. وأما بلاد فارس والأهواز والرى والجبّال والعراق فهى بيد بنى بويه يتناوبونها كما سيأتى توضيحه.

وبعاصر الطائع بفرنسا لونار إلى (سنة ٩٨٦) ثم لويز الخامس الملقب بالكسلان إلى (سنة ٩٨٧) ثم هو فى كابات أول الأسرة الكاباسيانية إلى (سنة ٩٩٦).

وباستريا أول ملك من جماعة المارغرف وهو ليوبولد الأول كونت دوباينبرج (٩٨٢ - ٩٩٤).

ولى الطائع وأمر بختيار مضطرب لأن الأتراك وفى مقدمتهم سبكتكين قد تباعد ما بينهم وبينه وكانت العامة من أهل السنة تنصر سبكتكين لكراهة ما كان عليه بنو بويه من التشيع الشديد الذى كان سبباً لفتنة عظيمة ببغداد بين أهل السنة والشيعة سفكت فيها الدماء وأحرقت الكرخ التى كانت محلة الشيعة وظهر أهل السنة عليهم فكتب بختيار إلى عمه ركن الدولة بأصبهان وإلى ابن عمه عضد الدولة يسألهما أن يساعدها على الأتراك فجهز إليه ركن الدولة جنداً مع وزيره ابن العميد وأما عضد الدولة فكان ميالاً إلى ملك العراق

فتربص ببختيار الدوائر كرر إليه بختيار الكتب يستغيث به ويستحقه فلما رأى عضد الدولة أن الأمر قد بلغ ببختيار ما يرجوه سار نحو العراق ظاهره رحمة لبختيار وباطنه إرادة الاستيلاء على العراق فسار إلى واسط منها إلى بغداد فتغلب على عساكر الأتراك في (١٤ جمادى الأولى سنة ٣٦٤) ودخل بغداد ظافراً وكان يريد القبض على بختيار فوسوس إلى جنده أن يشوروا عليه ويشغبوا ويطالبوه بالأموال ففعلوا ولم يكن مع بختيار ما يسكنهم به وأشار عليه عضد الدولة ألا يلتفت إلى شكواهم ويغلظ في معاملتهم ففعل ذلك فاستمر هذا الحال أياماً وحينئذ استدعى بختيار هو وإخوته إليه وقبض عليهم وجمع الناس وأعلمهم استعفاء بختيار عن الإمارة وعجزه عنها ووعد الجنود بالإحسان إليهم وأظهر الخليفة سروره بما تم لأنه كان منافياً لبختيار وقد قابله عضد الدولة بأن أظهر من رسوم الخلافة وتعظيمها ما كان قد نسي وترك وأمر بعمارة دار الخلافة والإكثار من الآلات وعمارة ما يتعلق بالخليفة وحماية أقطاعه .

بلغ ذلك كله ركن الدولة فاستاء منه جداً كاتبه محمد بذلك محمد بن بقية وزير بختيار الذى استاء أيضاً مما جرى ونافر عضد الدولة وجمع الجيوش لحربه فأرسل إليه ركن الدولة يقويه ما هو بسيله ويخبره أنه سائر بنفسه إلى العراق لإخراج عضد الدولة عنه فكان ذلك سبباً لاضطراب الأمر على عضد الدولة ولم يقبل فى ذلك قول قائل لأنه كان يحب أخاه معز الدولة والد بختيار حباً شديداً ولما وجد ذلك عضد الدولة لم يسعه إلا إعادة بختيار إلى ملكه والمسير إلى فارس .

لم يطل الأمر إلا بمقدار ما توفى ركن الدولة (سنة ٤٦٦) فاستولى ابنه عضد الدولة على ملكه بمعهد منه وما عثم أن تجهز إلى بغداد وأرسل إلى بختيار يطلب منه الطاعة وأن يسيره عن العراق إلى أى جهة شاء وضمن مساعدته بما يحتاج إليه من مال وسلاح فأجاب بختيار إلى ذلك وسلم إلى عضد الدولة وزيره الأمير محمد بن بقية ثم سار حتى دخل بغداد وخطب له بها ولم يكن قبل ذلك يخطب لأحد ببغداد وضرب على بابه ثلاثة نوب ولم تجر بذلك عادة من تقدمه وأمر بأن يلقي ابن بقية بين قوائم الفيلة لتقتله ففعل به ذلك وصلب على رأس الجسر فى شوال (سنة ٣٦٧) وهو الذى رثاه أبو الحسين الأنبارى بقصيدته المشهورة التى أولها:

علو فى الحياة وفى الممات لحق أنت إحدى المعجزات

استقر ملك عضد الدولة بالعراق وما معها من ملك أبيه ومحمد ثم سار نحو الموصل فملكها وأقام بها مطمئناً وأزال عنها الدولة الحمدانية وبث سراياه فى طلب أبى تغلب

الحمداني فهرب أبو تغلب على وجهه إلى بلاد الروم وفتحت الجنود العضدية جميع ديار بكر وديار ربيعة ثم افتتح ديار مضر إلى الرقة وجعل باقيها في يد سعد الدولة ابن سيف الدولة صاحب حلب وبذلك اتسعت أملاك عضد الدولة وصار له العراق والجزيرة والأهواز وفارس والجلال والرى ثم دخلت في حوزته جرجان (سنة ٣٧١) أخذها من صاحبها قابوس بن وشمكير.

لم يبق في آل بويه من يماثل عضد الدولة جرأة وإقداماً وكان عاقلاً فاضلاً حسن السياسة والإصابة شديد الهيبة بعيد الهمة ثاقب الرأي محباً للفضائل واهباً باذلاً في موضع العطاء مانعاً في مواضع الخزم ناظرًا في عواقب الأمور وهو الذي بنى على مدينة رسول الله ﷺ سوراً إلا أنه كان مع ذلك فخوراً يميل إلى اللهو واللعب ومن شعره:

ليس شرب الكأس إلا في المطر وغناء من جوار في السحر
غانيات سالبات للنهي ناغمات في تضاعيف الوتر
مبرزات الكأس من مطلعها ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة ابن ركنها ملك الأملاك غلاب القدر

وهذا غلو كبير. ومن فضله أنه كان لا يعول في أموره إلا على الكفاة ولا يجعل للشفاعات طريقاً إلى معارضه من ليس من جنس الشافع ولا فيما يتعلق به حكى عنه أنه مقدم جيشه أسفار بن كردويه شفع في بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضي لسمع تزكيته ويعدله فقال له ليس هذا من أشغالك إنما الذي يتعلق بك الخطاب في قائد ونقل مرتبة جندي وما يتعلق بهم وأما الشهادة وقبولها فهي إلى القاضي وليس لنا ولا الكلام فيه ومتى عرف القضاة من إنسان ما يجوز معه قبول شهادته فعلوا ذلك بغير شفاعة. وكان يخرج في ابتداء كل سنة شيئاً كثيراً من الأموال للصدقة والبر في سائر بلاده ويأمره بتسليم ذلك إلى القضاة ووجوه الناس ليصرفوه إلى مستحقه وكان يوصل إلى العمال المتعطلين ما يقوم بهم ويحاسبهم إذا عملوا. وأما اهتمامه بالعلم فكثير ويذكر ذلك في تاريخ العلوم في الدولة الإسلامية.

ومما يعد من سيئاته أنه أحدث في آخر أيامه رسوماً جائرة في المساحة والضرائب على بيع الدواب وغيرها من الأمتعة ومنع من عمل الثلج والقز وجعل ذلك متجراً خاصاً وكان يتوصل إلى أخذ المال بكل طريق. توفي عضد الدولة في شوال (سنة ٣٧٢).

اجتمع القواد بعد وفاته على بيعه ابنه أبى كالجار المرزبان الملقب صمصام الدولة وكان

إخوته وبنو أعمامه متفرقين في الولايات فأخوه شرف الدولة شيرزِيل بفارس وعمه مؤيد الدولة أبو منصور بويه بجرجان.

مكث صمصام الدولة قائماً بأمر العراق واضطراب لاحق من جراء خلاف أخيه شرف الدولة عليه فإنه أظهر مشاقته وقطع خطبته فسير إليه جيشاً كانت عاقبته الهزيمة.

وخرجت عن يده بلاد الموصل استولى عليها الأكراد وعليهم شجاع باذ بن دوستك وهو من الأكراد الحميدية وكان ابتداء أمره أنه كان يغزو كثيراً بشغور ديار بكر وكان عظيم الحلقة وله شدة وبأس فلما ملك عضد الدولة حضر عنده ثم فاته لما تخوف منه وذهب إلى ثغور ديار بكر وأقام بها إلى أن استفحل أمره وقوى ملك ميفارقين وغيرها من ديار بكر بعد موت عضد الدولة ووصل بعض أصحابه إلى نصيين فاستولى عليها فجهز إليه صمصام الدولة العساكر فانهمزمت وقوى أمر باذ وغلب جيوش الديلم ثم سار إلى الموصل فملكها وحدثه نفسه بالاستيلاء على بغداد وإزالة الديلم عنها فخافه صمصام الدولة وأهمه أمره وأعد له جيشاً عظيماً مستوفى العدة فلقوه بظاهر الموصل وهزموه هزيمة منكرة فخرج منها ثم انتهى الحال بالصلح بين الديلم وباذ على أن يكون لباز ديار بكر والنصف من طور عدين.

كانت هذه الاضطرابات والمشاكل سبباً لأن شرف الدولة صاحب فارس تجهز يريد الاستيلاء على الأهواز والعراق فسار بجيشه (سنة ٣٧٥) فاستولى على الأهواز من يد أخيه أبي الحسن الملقب بتاج الدولة ثم سار إلى البصرة فملكها، بلغ الخبر صمصام الدولة فراسله في الصلح فاستقر الأمر بينهما على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق بعد صمصام الدولة ويكون هذا نائباً عنه فصلح الحال واستقام وخطب لشرف الدولة بالعراق وسيرت إليه الخلع من الطائع لله فلما وردته الرسل بذلك ليحلفوه عاد من الصلح وعزم على قصد بغداد والاستيلاء عليها ونفذ تلك العزيمة فلما وصل واسط ملكها فاتسع الخرق على صمصام الدولة وشغب عليه الجند فوقع رأيه على اللحاق بأخيه والدخول في طاعته فسار إليه فقبض عليه شرف الدولة وسار إلى بغداد فدخلها في رمضان (سنة ٣٧٦) وانتهت مدة صمصام الدولة بالعراق ومقارها ثلاث سنين وأحد عشر شهراً.

ومن أحدث هذا البيت في عهد وفاة عمه مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة صاحب جرجان واستيلاء أخيه فخر الدولة على بن ركن الدولة على بلاده باختيار القواد والوزير الكبير صاحب بن عباد.

ملك شرف الدولة شيرزِيل بغداد بعد صمصام الدولة بستين وثمانية أشهر وقد ابتداء

عهده باضطراب وقتن بين جنود الديلم والترك ببغداد أدى إلى قتال بينهم وقد بذل شرف الدولة جهده حتى أزال من بينهم الخصام ومن فضائل شرف الدولة أنه منع الناس من السعایات ولم يقبلها فأمن الناس وسكنوا.

وكانت وفاة شرف الدولة فى جمادى الآخرة (سنة ٣٧٩).

تولى العراق بعده أخوه بهاء الدولة أبو نصر. ولأول تولية تجددت الاضطرابات بين الترك والديلم وأدت إلى قتال دام خمسة أيام وانضم بهاء الدولة إلى الأتراك فاشتد الأمر على الديلم ومع ما حصل من الصلح بين الفريقين فإن الديلم قد ضعفت شوكتهم وتغلب الأتراك عليهم. وكانت بينه وبين آل بيته فتن كثيرة بسبب طمعهم فيما بيده من الملك ومحاولتهم سلبه منه ولكنهم أخفقوا.

وفى (سنة ٣٨١) قبض بهاء الدولة على الطائع لله وذلك أن الأموال قلت عنده فشعب عليه الجند فأطمعه وزيره فى أموال الخليفة وحسن له القبض عليه فأرسل إلى الطائع وسأله الإذن فى الحضور ليجدد العهد به فأذن له فى ذلك وجلس له كما جرت العادة فدخل إليه بهاء الدولة ومعه عدد كثير فلما دخل قبل الأرض وأجلس على كرسى فدخل بعض الديلم كأنه يريد أن يقبل الخليفة فجذبه فأنزل عن سريره والخليفة يقول إنا لله وإنا إليه راجعون ويستغيث فلا يلتفت إليه وأخذ ما فى داره من الذخائر ومن قول الشريف محمد بن الحسين الرضى فى ذلك:

من بعد ما كان رب الملك مبتسمًا إلى أدنوه فى النجوى ويدننى
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى يا قرب ما عباد بالضراء يبكينى
هيهات أغتر بالسلطان ثانية قد ضل ولاج أبواب السلاطين

ولما حمل الطائع إلى دار بهاء الدولة أشهد عليه بالخلع.

القادر

هو أبو العباس أحمد القادر بالله بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد وأمه أم ولد اسمها دمنة بويح بالخلافة في (١٢ رمضان سنة ٣٨١) (٣ أكتوبر سنة ٩٩١) واستمر خليفة إلى أن توفي في غاية ذي الحجة (سنة ٤٤٢) (١٨ ديسمبر سنة ١٠٣١) فكانت مدته (٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوماً).

كان أبو العباس لما مات أبوه إسحاق بن المقتدر جرى بينه وبين أخت له منازعة في ضيعة وطال الأمر بينهما ثم إن الطائع مرض مرضاً أشفى منه ثم أبل فسعت إليه بأخيها وقالت له إنه شرع في طلب الخلافة عند مرضك فتغيز رأيه فيه وأرسل في القبض عليه فلما وصلت إليه رسل الطائع خرج عن داره واستتر ثم سار إلى البطيحة فنزل على صاحبها مهذب الدولة أبي الحسن علي بن نصر صاحب البطيحة فأكرم نزله ووسع عليه وحفظه وبالع في خدمته وكان ذلك في (سنة ٣٧٩) فأقام عنده حتى قبض بهاء الدولة على الطائع فذكر من يصلح للخلافة فأجمع رأيهم ورأى مستشاريه على أبي العباس فأرسل إليه بهاء الدولة خواص أصحابه ليحضروه إلى بغداد ليتولى الخلافة وشغب الديلم ببغداد ومنعوا من الخطبة فقبل على المنبر (اللهم أصلح عبدك وخليفتك القادر بالله) ولم يذكروا اسمه. ولما وصلت الرسل إلى القادر بالله انحدر معهم وقام مهذب الدولة بخدمته خير قيام وحمل إليه من المال وغيره ما يحمله كبار الملوك للخلفاء وشيعة فسار القادر بالله إلى بغداد فلما دخل جيل انحدر بهاء الدولة وأعيان الناس لاستقباله وساروا في خدمته فدخل دار الخلافة ثاني عشر رمضان وبايعه بهاء الدولة والناس وخطب له ثالث عشر رمضان.

والقادر هو ثالث خليفة عباسي لم يكن أبوه خليفة.

معاصرو القادر من الملوك:

كان الخليفة بالأندلس هشام بن الحكم الملقب بالمؤيد إلى (سنة ٣٩٩) ثم خلفه محمد

لهدى بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر إلى (سنة ٤٠٣) وقد ثار عليه سليمان المستعين ن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر فأخذ منه قرطبة وكانت بينهما خطوب إلى أن تل المهدي وانتهت مدة المستعين (٤٠٨) ثم كانت البلاد الأندلسية ميداناً للنزاع بين أعقاب لأمويين والعلويين من ذرية إدريس بن عبدالله فكانت الحال هناك فى اضطراب يشبه ما كان فى الشرق ويزيد عليه.

وكان الأمير بأفريقية من آل زيرى الناثين عن الدولة الفاطمية المنصور بن يوسف ولكن لى (سنة ٣٨٦) ثم ابنه باديس إلى (سنة ٤٠٦) ثم المعز بن باديس إلى (سنة ٤٥٣) وكان لخليفة بمصر والشام من الدولة الفاطمية العزيز بالله نزال إلى (سنة ٣٧٦) ثم ابنه الحاكم أمر الله منصور إلى (سنة ٤١١) ثم ابنه الظاهر لإعزاز دين الله (سنة ٤٧٢).

وفى عهده ابتدأت الدولة النجاشية بزبد على أطلال الدولة الزيدية وكان ابتداءها على بد المؤيد نجاش (سنة ٤١٢) وهو مولى موالى آل زياد وأصله عبد حبشى سمى به همته إلى أن تولى ملك تهامة اليمن وعاد إليها وقد استمر ملكها فيه وفى أعقابها إلى (سنة ٥٥٤) بهذا ثبتهم.

٤١٢ - ٤٥٢

١ - المؤيد نجاش

٤٥٢ - ٤٧٣

فترة على الداعى الصليحي

٤٧٣ - ٤٨٢

٢ - سعيد الأحوال بن نجاش

٤٨٢ - ٤٩٨

٣ - جياش بن نجاش

٤٩٨ - ٥٠٣

٤ - فاتك بن جياش

٥٠٣ - ٥١٧

٥ - منصور بن فاتك

٥١٧ - ٥٣١

٦ - فاتك بن منصور

٥٣١ - ٥٥٤

٧ - فاتك بن محمد بن فاتك

وانتقل الملك عنهم إلى الدولة المهدية وسيأتى حديثها إذ ذاك.

أما الجزيرة الفراتية وما إليها من حوض الفرات فكانت منقسمة إلى ثلاث إمارات وهى ديار ربيعة وحاضرتها الموصل وديار بكر وحاضرتها آمد وديار مضر وحاضرتها الرقة:

ففى عهد القادر ظهرت الدولة العقيلية التى أسسها أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع

بن مقلد العقيلي بالموصل ولم يكن له تمام الاستقلال بل كان معه نائب من قبل بهاء الدولة الديلمي إلا أن النفوذ الفعلي كان لأبي الذواد ولم يزل كذلك حتى توفي (سنة ٣٨٦) فخلفه أخوه حسام الدولة المسيب بن المقلد. وكان الاتفاق أن يتولى الموصل والكوفة والقصر والجامعين ولم يزل يليها إلى أن قتل (سنة ٣٩١) فخلفه ولده أبو المنيع معتمد الدولة قرواش بن المقلد ومن أهم حوادثه السياسية أنه خطب للحاكم بأمر الله العلوي صاحب مصر بأعماله كلها وهي الموصل والأنبار والمدائن والكوفة وغيرها وكان ابتداء الخطبة بالموصل (الحمد لله الذي انجلت بنوره غمرات العصب وانهدت بقدرته أركان النصب وأطلع بنوره شمس الحق من العرب) فأرسل القادر بالسه القاضى أبا بكر بن الباقلاني شيخ الأشعرية ببغداد إلى بهاء الدولة يعرفه ذلك فأكرم بهاء الدولة القاضى وكتب إلى نائبه ببغداد يأمره أن يسير لحرب قرواش فسار عميد الجيوش لحربه. ولما علم بذلك أرسل يعتذر وأعاد خطبة القادر بالله.

وقد استمرت هذه الدولة العربية بالموصل إلى (سنة ٤٨٩) وانتهت على يد السلاجقة كما انتهت الدولة الديلمية وهذا ثبت ملوكها.

- ١ - حسام الدولة المقلد بن المسيب ٣٨٦ - ٣٩١
- ٢ - معتمد الدولة قرواش بن المقلد ٣٩١ - ٤٤٢
- ٣ - زعيم الدولة أبو كامل بركة بن المقلد ٤٤٢ - ٤٤٣
- ٤ - علم الدولة أبو المعالى قرواش بن بدران بن المقلد ٤٤٣ - ٤٥٣
- ٥ - شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن قرواش ٤٥٣ - ٤٧٨
- ٦ - إبراهيم بن قرواش ٤٧٨ - ٤٨٦
- ٧ - على بن مسلم بن قرواش ٤٨٦ - ٤٨٩

وفى ديار بكر ظهرت دولة الأكراد من آل مروان على يد مؤسسها أبى على الحسين بن مروان قام بالأمر (سنة ٣٨٠) بعد خاله باذ الذى قدمنا حديثه وضبط ديار بكر أحسن ضبط وأحسن إلى أهلها وآلان جانبه لهم ثم تزوج ست الناس بنت سيف الدولة ولم يكن ملكاً إلى أن قتل (سنة ٣٨٧) فخلفه أخوه محمد الدولة أبو منصور بن مروان إلى أن قتل (سنة ٤٠٢) فتولى بعده أخوه أبو نصر نصر الدولة أحمد بن مروان وهو واسطة عقد آل مروان فإن أيامه طالت وأحسن السيرة جداً وكان مقصوداً من العلماء فى كافة الأقطار فكثروا ببلاده ومن قصده أبو عبد الله الكازروتى وعنه انتشر مذهب الشافعى رحمه الله بديار بكر وقصده

الشعراء فأجزل مواهبهم وبقي كذلك إلى (سنة ٤٥٣) وكانت الثغور معه آمنة وسيرته في رعيته أحسن سيرة وولى ابنه نظام الدولة نصر إلى (سنة ٤٧٢) ثم منصور بن نصر إلى (سنة ٤٨٩) وعلى يده انتهت دولتهم بملك آل سلجوق لها .

أما ديار مصر فقد استولى عليها لأول عهد القادر بكجور الذى كان والياً على دمشق للعزیز بالله الفاطمى خليفة مصر وفى (سنة ٣٨٧) عزله عنها فتوجه إلى الرقة فاستولى عليها وعلى الرحبة وما يجاورها ثم راسل بهاء الدولة ملك العراق فى الانضمام إليه وكتب أيضاً باذ الكردى والمغلب على ديار بكر وكذلك راسل سعد الدولة بن سيف الدولة صاحب حلب بأن يعود إلى طاعته ويعطى مدينة حمص كما كانت له فلم يجبه واحد منهم إلى شئ فبقى بالرقة يرسل جماعة من عمالِك سعد الدولة ويستميلهم فأجابوه وحينئذ أغرى العزیز بالله نزاراً صاحب مصر على قصد حلب فأجابه وأرسل إليه العساكر تتصرف بأمره ولكنه لم ينجح لأن سعد الدولة استعان عليه بوالى انطاكية الرومى وبالعرب الذين مع بكجور فكانت النتيجة فشل بكجور وقتله ثم سار سعد الدولة إلى الرقة فاستولى عليه من وزير بكجور وأخذ أولاد بكجور وأمواله ثم أن سعد الدولة هلك بعقب ذلك فأرسل أهل الرحبة إلى بهاء الدولة يطلبون إليه أن ينفذ من يتسلم بلدهم فأنفذ لهم أميراً تسلمها ولم يتمكن من الاستيلاء على الرقة ولم تمكث الحال على ذلك كثيراً فإن البلاد انتقلت إلى حوزة العلويين من أصحاب مصر، وصاحب يخطب لهم بالرقة والرحبة إلا أن سلطانهم كان اسمياً والنفوذ إلى رؤساء القبائل المضربة فكان فيها أولاد أبى على بن شمال الخفاجى ثم استولى عليها عيسى بن خلط العفيلى ثم صار أمرها إلى صالح بن مرداس الكلابى وكان محسناً للرعية ويدعوا للعلويين .

أما حلب فكان السلطان بها لأول عهد القادر بالله لسعد الدولة بن سيف الدولة ابن حمدان وكان قد عصى عليه بكجور الذى تقدم ذكره وهو أحد عمالِك أبيه وغزاه من الرقة بعساكر خليفة مصر العلوى ولكنه لم يفز وقتل كما قدمنا وتسبب عن ذلك أن سعد الدولة أراد أن يأخذ دمشق ليأخذها من يد العزیز بالله فمات عقب خروجه (سنة ٣٨٢) وعهد لابنه أبى الفضائل وأوصى به لؤلؤاً أحد عمالِك أبيه سيف الدولة فلما توفى سعد الدولة قام ابنه مقامه وأخذ له لؤلؤ العهد على الأجناد .

كان خليفة مصر لا يزال يتطلع إلى الاستيلاء على حلب فسير إليها جيشاً من دمشق عليه منجوتكين أحد أمرائه ولما كانت عساكره كثيرة ولا قبل للؤلؤ بمقاومتها استنجد بملك الروم بسيل فأرسل إلى نائبه بأنطاكية يأمره أن ينجد أبا الفضائل فصار إليه بحلب حتى نزل

على الجسر الجديد بالعاصى. ولما سمع منجوتكين الخبر سار إلى الروم ليقابلهم قبل اجتماعهم بأبى الفضائل وعبر إليهم العاصى وأوقع بهم وقعة شنيعة وسار على أنطاكية فنهب بلدهم وقرأها وأحرقها. وأنفذ أبو الفضائل إلى بلد حلب فنقل ما فيه من الغلال وأحرق الباقي إضراراً بعساكر مصر. وعاد منجوتكين إلى حلب فحصرها فأرسل لؤلؤ إلى رؤساء المصريين يبذل لهم مالاً ليردوا منجوتكين عنهم هذه السنة بعلّة تعذر الأقوات ففعلوا ذلك وكان منجوتكين قد ضجر من الحرب فأجابهم وعاد إلى دمشق ولكن ذلك لم يعجب العزيز بالله وكتب بإعادة الكرة على حلب وأرسل الأقوات من مصر إلى طرابلس بحرّاً ومنها إلى العسكر فنازل المصريون حلب وأقاموا عليه ثلاثة عشر شهراً فقلّت الأقوات بحلب وعاد لؤلؤ إلى مراسلة ملك الروم متعضداً به وقال متى أخذت حلب أخذت أنطاكية وعظم عليك الخطب فجاء ملك الروم منجداً له فلما علم منجوتكين بقرب وروده سار عن حلب فجاء ملك الروم فنزل عليها وخرج إليه أبو الفضائل ولؤلؤ ثم سار بسيل إلى الشام ففتح حمص وشيزر ونهبهما وسار إلى طرابلس فنازلها فامتنعت عليه وأقام عليها نيفاً وأربعين ليلة ولما أيس منها عاد إلى بلاده. ولما علم العزيز بتلك الأخبار عظم الأمر عليه ونادى فى الناس بالنفير لغزو الروم فحال موته دون ذلك.

لم يزل الأمر لأبى الفضائل حتى (سنة ٤٠٢) حيث غزاه صالح بن مرداس الكلابى وكان السلطان الحقيقى فى حلب للؤلؤ وكان يخطب باسم الحاكم بأمر الله العلوى بمقتضى اتفاق عقد بين الطرفين بعد الحوادث المتقدمة. غزاه صالح وبنو كلاب وغلبوه وأخذوه أسيراً وكان صالح أطلقه مقابل مائتى ألف دينار ومائة ثوب وإطلاق كل أسير عنده من بنى كلاب. ثم أن غلاماً لابن لؤلؤ كان يتولى القلعة غدر به وكاتب الحاكم بأمر الله وأظهر طاعته وأظهر العصيان لأستاذه فخرج ابن لؤلؤ من حلب إلى صاحب أنطاكية فأقام عنده وصارت حلب من البلاد التابعة لصاحب مصر يتناوبها نواب يرسلها من قبله حتى صار بيد إنسان من الحمدانية يعرف بعزيز الملك قدّمة الحاكم واصطنعه وولاه حلب ولما مات الحاكم وولى الظاهر عصى عليه فوضعت ست الملك أخت الحاكم فراشاً له على قتله فقتله.

وفى (سنة ٤١٤) اتفق ثلاثة من أمراء العرب وهم حسان أمير طيء وصالح بن مرداس أمير بنى كلاب وستان بن عليان على أن يكون من حلب إلى عانة لصالح بن مرداس ومن الرملة إلى مصر لحسان ودمشق لستان. فقصد صالح حلب فاستولى عليها من يد عامل المصريين وكان الحلبيون يحبون صالحاً لإحسانه إليهم ولسوء سيرة أمراء العلويين معهم فملك من بعلبك إلى عانة وأقام بحلب ست سنين وفى (سنة ٤٢٠) جهز الظاهر صاحب مصر جيشاً سيره إلى الشام لقتال صالح وحسان وكان مقدم الجيش أبوشتكين البربرى

والالتقاء عند طبرية فقتل في الموقعة صالح وابنه ونجا ولده أبوكامل نصر بن صالح فجاء إلى حلب وملكها وكان يلقب بشبل الدولة وقد استمرت الدولة المرداسية بحلب إلى (سنة ٤٧٢) وهذا ثبت ملوكها:

- ١ - صالح بن مرداس ٤١٤ - ٤٢٠
 - ٢ - شبل الدولة أبوكامل نصر ٤٢٠ - ٤٢٩
 - الفاطميون ٤٢٩ - ٤٣٤
 - معز الدولة أبوعلوان طمل بن صالح ٤٣٤ - ٤٤٩
 - الفاطميون ٤٤٩ - ٤٥٢
 - رشيد الدولة محمود بن شبل الدولة ٤٥٢ - ٤٥٣
 - معز الدولة (ثانياً) ٤٥٣ - ٤٥٤
 - أبوذؤاية عطية بن صالح ٤٥٤ - ٤٥٤
 - رشيد الدولة (ثانياً) ٤٥٤ - ٤٦٨
 - جلال الدولة نصر بن رشيد الدولة ٤٦٨ - ٤٦٨
 - أبوالفضل سابق بن رشيد الدولة ٤٦٩ - ٤٨٢
- وهذا آخرهم وقد انتهى أمرهم على يد الدولة العقيلية التي تقدم ذكرها.

في المشرق:

كانت المملكة السامانية بما وراء النهر بخراسان تنهار قواعدها وتزلزل جوانبها كان أميرها نوح بن منصور وقد نشأ بالشرق دولة تركية صاحب الأمر فيها شهاب الدين هارون بن سليمان بن أيلك خان المعروف ببغراخان وكانت دولته جديدة أمام دولة رثت بكثرة الاختلاف ففي (سنة ٣٨٣) غزا بغراخان في بخارى بملاة أبي الحسن سمجور أمير خراسان لنوح وكان القصد أن يملك الأول ما وراء النهر كله والثاني إقليم خراسان فسار بغراخان نحو بخارى واستولى على بلادها شيئاً بعد شيء. ثم نازل بخارى فاخفى نوح وملكها بغراخان ونزلها وخرج منها نوح مستخفياً فعبّر النهر إلى آمد وأقام بها ولحق به أصحابه يريد إعادة الكرة على بخارى وصادف أن أصاب بغراخان مرض ثقیل اضطر بسببه للانتقال

نحو بلاداه وبينما هوسائر أدركه أجله ولما سمع نوح بذلك عاد إلى دار ملكه وولى الترك بعد بغراخان ابنه أيلك خان - ثم مات بعقب ذلك نوح (سنة ٣٨٧) وخلفه ابنه منصور وبايعه الأمراء والقواد.

ولما بلغ أيلك خان وفاة نوح سار إلى سمرقند وسير الجنود لأخذ بخارى يقدمها فائق أحد القواد السامانية قبلاً فاستولى عليها ولكنه اتفق مع منصور بن نوح أن يكون اسم الملك لمنصور والسلطان لفائق فاستمرت الحال على ذلك إلى أن اتفق فائق ويكتوزون قائد الجنود السامانية على القبض على منصور فقبضا عليه وأقاما مقامه أخاه عبد الملك وهو صبي صغير وأعقب ذلك موت فائق وهو مدبر الأمر فارتبك أمرهم وكان نجم الدولة السبكتيكية قد بزغ بخراسان أيلك خان إلى بخارى وأظهر لعبد الملك المودة والموالة والحمية له فظنوه صادقاً ولم يحترسوا منه وخرج إليه يكتوزون وبقية الأمراء فلما اجتمعوا قبض عليهم وسار حتى دخل بخارى يوم الثلاثاء عاشر ذي الحجة (سنة ٣٨٩) فلم يدر عبد الملك ما يصنع فاختفى فنزل أيلك خان دار الإمارة وبث الطلب والعيون على عبد الملك حتى ظفر به فأودعه بافكند فمات بها وهو آخر ملوك الدولة السامانية وانقضت بموته دولتهم كان لم تغن بالأمس وكانت هذه الدولة قد انتشرت ودخل في حوزتها من حدود حلوان إلى بلاد الترك بما وراء النهر وكانت من الدولة العلمية الكبرى ولم يزل أمرهم على سداد حتى ظهرت دولة الترك الإيكلخانية فأخذت منهم ولايات ما وراء النهر وظهرت دولة ابن سبكتكين فأخذت منهم خراسان.

الدولة السبكتيكية:

من ضمن أعمال الدولة السامانية غزنة وهى مدينة عظيمة وولاية واسعة طرف خراسان وهى الحد بين خراسان والهند ويلفظها الخاصة غزني وكان صاحب جيشها إسحاق بن البتكين وكان ضمن غلمانه سبكتكين وهو المقدم عنده وعليه مدار أمره قدم بخارى أيام الأمير منصور بن نوح مع أستاذه إسحاق فعرفه أرباب تلك الدولة بالعقل والعفة وجودة الرأى والصرامة وعاد معه إلى غزنة فلم يلبث إسحاق أن توفى فاجتمع جنده على سبكتكين لما عوفوه من عقله ودينه ومروءته وخلال الخير فيه فوليههم وأحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة وجعل نفسه كأحدهم فى الحال والمال وكان يدخر من أقطاعه ما يعمل منه طعاماً لهم فى كل أسبوع مرتين وكان جنده يطيعونه طاعة تامة فغزا بهم ما جاوره من بلاد الهند حتى خافه ملوك تلك البلاد ثم استولى على مدينة بست وقصدار ولما رأى ملك الهند جيبال ما دهاه وأن بلاده تملك من أطرافها حشد جموعه وسار حتى اتصل بولاية

سبكتكين فخرج هذا إليه من غزنة وأوقع به وقعة شنيعة على حدود بلاده فأرسل ملك الهند إلى سبكتكين يطلب صلحه فأجابه إلى ذلك على مال يؤديه إليه وبلاد يسلمها وخمسين فيلاً يحملها إليه واستقر الأمر على ذلك ولما أبعد ملك الهند ورأى نفسه فى مأمن خاس بعهدده فسار سبكتكين نحوه حتى وردلفان وهى من أحسن قلاعهم فافتحها عنوة وهدم بيوت الأصنام وأقام فيها شعار الإسلام ولما علم جيال حشد الجيوش مرة ثانية لحرب سبكتكين فكان نصيبه الفشل والهزيمة ففوى سبكتكين بهذا الانتصار وأطاعه من أجله الأفغان والخلج.

وفى (سنة ٣٨٤) لما ثارت الفتن والقلاقل بالبلاد الخراسانية رأى الأمير نوح بن منصور أن يكل أمرها إلى سبكتكين ليكسر من جناح قواده الذين جاهروا بعصيانه فكتب إليه وهو بغزنة يطلعه على الأحوال، ويأمره بالمسير إليه لينجده وولاه خراسان فأجاب إلى ذلك سبكتكين وجمع العساكر وحشدها ولما بلغ قائدى نوح الخبر وهما فائق وأبو على بن سيمجور راسلاً فخر الدولة بن بويه يستجدانه ويلطبان منه عسكرياً فأجابهما إلى ذلك وسير إليهما عسكرياً كثيراً وكانت الواقعة بين هذين الجيشين بنواحي هراة فكان الظفر لسبكتكين ثم سار نحو نيسابور التى انهزم إليها أبو على وفائق فلما علما بالخبر سارا نحو جرجان واستولى نوح بن منصور بمعونة سبكتكين وجيشه على خراسان فولاه محمود بن سبكتكين وسماه سيف الدولة ولقب أباه ناصر الدولة فأحسن السيرة وأقام محمود بنيسابور وعاد نوح إلى بخارى وسبكتكين إلى هراة.

لما علم أبو على بمبارحة سبكتكين ونوح نيسابور طمع فى استردادها فقدم إليها ومعه فائق فخرج إليهما محمود وقاتلهما ولما كانت رجاله قليلة لم تمكنه المقاومة فانهزم عنهم قاصداً أباه فلما استقر هذا الخبر عند سبكتكين جمع الجند وأتى مدداً لابنه فتقابلت جنوده مع جنود أبى على بنواحي طوس فانهزم أبو على هزيمة منكرة ولم يرتفع له بعد ذلك ذكر وصفت خراسان لسبكتكين.

وفى (سنة ٣٨٧) توفى سبكتكين بعد بلخ وغزنة ودفن بغزنة بعد ملك دام عشرين سنة وكان عادلاً خيراً كثير الجهاد ذا مروءة تامة وحسن ووفاء وعهد بالملك من بعده لآب إسماعيل. وكان أصغر من أخيه محمود فاستضعف الجند وأرسل إليه محمود من نيسابور يقول له إن أباك إنما عهد إليك لبعدى عنه وذكره ما يتعين من تقديم الكبير على الصغير ويطلب منه الوفاق وإنفاذ ما يخصه من تركة أبيه فلم يفعل وكان ذلك داعياً إلى أن محمود قصده بغزنة واستولى عليها ولكنه عامل أخاه معاملة كريمة ولما تم له أمر غزنة واستقام له

الملك عاد إلى بلخ ومحمود هذا هو ثالث آل سبكتكين وواسط عقدهم لقبه الخليفة القادر بيمين الدولة . وكانت هناك بعض مناوشات بينه وبين قواد السامانية انتهت بالنصر والتمكين له في خراسان فأزال عنها اسم السامانية وخطب للقادر بالله (سنة ٣٨٩) وجعل أخاه نصراً قائداً لجند نيسابور وسار هو إلى بلخ فاتخذها دار ملك له واتفق أصحاب الأطراف على طاعته .

كان عهد محمود عهد ارتفاع وقوة فوسع أملاكه فقد كانت في الأصل بلاد غزنة ثم ضم بلاد الغور وهي جبال ووديان بين هراة وغزنة وأكبر ما فيها قلعة يقال لها فيروزكوه . ثم أدخل جزءاً عظيماً من بلاد الهند تحت سلطانه حتى وصل إلى قشمر فأسلم صاحبها على يده وأسلم كذلك كثير من ملوك الهند وقد عبر نهر الكنج في فتوحاته . ومن الجهة الأخرى ضمت إليه خراسان والرى والجبال ودانت له ملوك طبرستان وجرجان ولم يزل في عزه وسلطانه إلى أن أدركته الوفاة (سنة ٤٢١) عهد بالملك من بعده لابنه محمد وكان أصغر من مسعود ولقب بجلال الدولة إلا أن ذلك لم يرق لأخيه مسعود فسار إليه وأخذ الملك منه وتوفى القادر بالله والملك في آل سبكتكين لمسعود بن سبكتكين وقد استمرت الدولة في أعقاب هذا البيت إلى (سنة ٥٨٢) وهذا ثبت ملوكها .

- ١ - سبكتكين ٣٦٦ - ٣٨٧
- ٢ - إسماعيل بن سبكتكين ٣٨٧ - ٣٨٨
- ٣ - يمين الدولة محمود بن سبكتكين ٣٨٨ - ٤٢١
- ٤ - جلال الدولة محمد بن محمود ٤٢١ - ٤٢١
- ٥ - ناصر دين الله مسعود ٤٢١ - ٤٣٢
- ٦ - شهاب الدولة مودود بن مسعود ٤٣٢ - ٤٤٠
- ٧ - مسعود بن مودود ٤٤٠ - ٤٤٠
- ٨ - بهاء الدولة أبوالحسن على بن مسعود بن محمود ٤٤٠ - ٤٤٤
- ٩ - عز الدولة عبد الرشيد بن محمود ٤٤٤ - ٤٤٤
- ١٠ - جمال الدولة فزحزاد بن مسعود بن محمود ٤٤٤ - ٤٥١
- ١١ - ظهير الدولة إبراهيم بن عبد الرشيد ٤٥١ - ٤٩٢
- ١٢ - علاء الدولة مسعود بن إبراهيم ٤٩٢ - ٥٠٨

- ١٣ - كمال الدولة شيرزاد بن مسعود ٥٠٨ - ٥٠٩
 ١٤ - سلطان الدولة أرسلان بن مسعود ٥٠٩ - ٥١٢
 ١٥ - يمين الدولة بهرام شاه بن مسعود ٥١٢ - ٥٤٧
 ١٦ - معز الدولة خسرو شاه بن بهرام شاه ٥٤٧ - ٥٥٥
 ١٧ - تاج الدولة خسرو مالك بن خسرو شاه ٥٥٥ - ٥٨٢

وكان انقضاء هذه الدولة على يد الدولة الغورية.

كان بجرجان من الدولة الزيدية شمس المعالي قابوس بن وشمكير إلى (سنة ٤٠٣) ثم فلك المعالي متوجهر بن بستون بن وشمكير إلى (سنة ٤٢٠) ثم أنوشروان بن قابوس إلى (سنة ٤٣٤) وهو الذي انتهى على يده ملك أهل بيته على يد الدولة الغزنوية. أما السلطان بيلاد العراق فكان لأربعة ملوك من آل بويه يتلوأحدهم الآخر الأول بهاء الدولة أبو نصر عضد الدولة وهو الذي ولي القادر الخلافة وكان عهده عهد اضطراب بينه وبين أهل بيته فأضعف ذلك من سلطانه وأذن البيت كله بالانحلال وكانت وفاته (سنة ٤٠٣) وكان في سلطانه العراق والأهواز وفارس وكرمان.

الثاني سلطان الدولة أبوشجاع بن بهاء الدولة ولم يكن عهده أحسن من عهد أبيه بل كان عهد ضعف واستكانة فإن جنده ما كانوا يطيعونه وكثيراً ما شغبوا عليه يطلبون من طلبات لا يقدر عليها وكان ذلك سبباً لقيام أخيه وهو.

الثالث شرف الدولة أبوعلى بن بهاء الدولة قام على أخيه وانتزع منه ملك العراق فخطب له ببغداد في آخر المحرم (سنة ٤١٢) ونفى سلطان الدولة عن العراق فذهب إلى بلاد فارس وضبطها ثم اصطلح الأخوان على أن يكون لشرف الدولة العراق ولسلطان الدولة فارس وكرمان إلا أن مدة سلطان الدولة لم تطل فإنه توفي (سنة ٤١٥) بشير وخلفه ابنه أبو كاليجار وفي ربيع الأول (سنة ٤١٦) توفي شرف الدولة وكان كثير الخير قليل الشر عادلاً حسن السيرة.

الرابع جلال الدولة أبوطاهر بن بهاء الدولة خطب له ببغداد بعد وفاة أخيه وكان إذ ذاك بالبصرة والياً عليها وطلب إلى بغداد فلم يصعد إليها وإنما بلغ واسطاً وأقام بها ثم عاد إلى البصرة فقطعت خطبته لابن أخيه أبي كاليجار بن سلطان الدولة الذي كان صاحب الأهواز وكان بها وراسله الجند في ذلك فوعدهم أن يجي ولكن تأخر لما كان بينه وبين عمه أبي

القوارس صاحب كرمان من الحرب فازدادت الفتن ببغداد لعدم السلطان وكثر شر الأتراك بها ولما رأى ذلك عقلاء القواد راسلوا جلال الدولة ليصعد إليهم فيملك أمرهم وخطبوا باسمه في جمادى الأولى (سنة ٤١٨) فما عثم أن صعد إليهم وملك أمرهم ولكن لم يكن عنده من المال ما يضمن راحتهم وراحته فكثر الشغب عليه من الجند وأتراك بغداد حتى كادوا يخلعونونه وكان ينازعه أخوه أبوكاليجار. وانتهت مدة القادر بالله وهما على ذلك النزاع.

لم يكن للخليفة القادر بالله شيء من السلطان كمن مضى في عهد سلاطين ابن بويه إلا أن ضعف بيت الملك أحياناً له شيئاً من الكلمة والنفوذ وكان فيه من خلال الخير ما يساعد على ذلك فقد كان حليماً كريماً خيراً يجب الخير وأهله ويأمر به وينهى عن الشر ويبغض أهله وكان حسن الاعتقاد صنف كتاباً على مذهب أهل السنة والجماعة وكان يخرج من داره في زى العامة ويزور قبور الصالحين وإذا وصل إليه حال أمر فيه بالحق.

وكان في زمنه أحداث عظام في جميع الأصقاع الإسلامية من قيام دول وإبادة أخرى وكلها تهتف على منابرها باسمه وتتقلد الولايات منه إلا ما كان من البلاد التي تحت يد الدولة المضرية فإنها كانت تخطب باسم أئمتها ومع ذلك فإن المعز بن باديس صاحب المغرب والقيروان دعا باسم القادر على منابر بلاده.

توفي القادر بالله في ذى الحجة (سنة ٤٣٢) وعمره ست وثمانون سنة وعشرة أشهر وخلافته (٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرون يوماً).

القائم

هو أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله . ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه وكانت بيعته فى ذى الحجة (سنة ٤٢٢) (نوفمبر سنة ١٠٣١) وبقي خليفة إلى (٣ شعبان سنة ٤٦٧) (٤ إبريل سنة ١٠٧٥) فكانت مدته (٤٤ سنة و ٢٥ يوماً).

كان سلطان العراق لأول عهده جلال الدولة بن بهاء الدولة ولم يكن أمره فى سلطانه على سداد لكثرة شغب الغلمان والأتراك عليه طالبين مرتباتهم التى لم يكن يقدر على أدائها فى أوقاتها لقلة الوارد عليه فلم تحب (سنة ٤٢٦) إلا وقد انحل أمر الخلافة والسلطنة جميعاً ببغداد حتى أن بعض الجند خرجوا إلى قرية يحى فلقبهم أكراد فأخذوا دوابهم فعادوا إلى قراح الخليفة فتهبوا شيئاً من ثمرته وقالوا للعمال فيه أنتم عرفتم حال الأكراد ولم تعلمونا فسمع الخليفة الحال فعظم عليه ولم يقدر جلال الدولة على أخذ أولئك الكراد لعجزه ووهنه واجتهد فى تسليم الجند إلى نائب الخليفة فلم يمكنه ذلك فتقدم الخليفة إلى القضاة بترك القضاء والامتناع عنه وإلى الشهود بترك الشهادة وإلى الفقهاء بترك الفتوى فلم رأى ذلك جلال الدولة سأل أولئك الأجناد ليجيئوه إلى أن يحملهم إلى دار الخلافة ففعلوا فلما وصلوا إليها أطلقوا عظم أمر العيارين وصاروا يأخذون الأموال ليلاً ونهاراً ولا مانع لهم لأن الجند يحملون على السلطان نوابه والسلطان عاجز عن قهرهم وانتشر العرب فى البلاد فتهبوا النواحي وقطعوا الطريق وبلغوا أطراف بغداد حتى وصلوا إلى جامع المنصور وأخذوا ثياب النساء فى المقابر .

ولكثرة تشغب الجند على جلال الدولة كان الخليفة يتداخل بين الفريقين متوسطاً فى أمر الصلح ومع ما ظهر من ضعف جلال الدولة وسقوط هيئته سأل الخليفة القائم (سنة ٤٢٢) أن يخاطب بملك الملوك فامتنع الخليفة من ذلك فاستعان عليه جلال الدولة بالفقهاء الذين يلجأ إليهم السلاطين فى مثل ذلك فأفتى بالجواز القاضى أبو الطيب الطبرى والقاضى أبو عبد الله الصيرفى والقاضى ابن البيضاوى وأبو القاسم الكرخى وامتنع من الفتيا أبو الحسن

الماوردي وجرى بينه وبين من أفتى بالجواز مراجعات فأجاب الخليفة طلب جلال الدولة وخطب له بملك الملوك وكان الماوردي من أخص الناس بجلال الدولة وكان يتردد إلى دار المملكة كل يوم فلما أفتى بهذه الفتيا انقطع ولزم بيته خائفاً وأقام منقطعاً من شهر رمضان إلى يوم النحر فاستدعاه جلال الدولة فحضر خائفاً فأدخله وحده وقال له قد علم كل أحد أنك من أكثر الفقهاء مالا وجاهاً وقرباً منا قد خالفتهم فيما خالف هواي ولم تفعل ذلك إلا لعدم المحابة واتباع الحق وقد بان لي موضعك من الدين ومكانك من العلم وجعلت جزءاً ذلك إكرامك بأن أدخلتك وحدك وجعلت إذن الحاضرين إليك ليتحققوا عودي إلى ما تحب فشكره ودعا له وأذن لكل من حضر بالخدمة والانصراف وهكذا يفعل بالإنسان قول الحق حسبما يعتقد لا يخشى في ذلك لومة لائم ولا غضب سلطان.

قضى جلال الدولة حياته في منازعات بينه وبين جنوده وبينه وبين أبي كاليبجار إلى أن توفي (سنة ٤٣٥) بعد ملك مدته (١٦ سنة و ١١ شهراً) قال ابن الأثير ومن علم سيرته وضعفه واستيلاء الجند والنواب عليه ودوام ملكه إلى هذه الغاية علم «أن الله على كل شيء قدير يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء» وكان يزور الصالحين ويقرب منهم وزار مرة مشهدى على والحسين عليهما السلام وكان يمشى حافياً قبل أن يصل إلى كل مشهد منهما نحور فرسخ يفعل ذلك تديناً.

استقر في الملك بعده منازعه ابن أخيه أبو كاليبجار المرزباني بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة ولقبه الخليفة محيي الدين ولم تكن قدمه بأثبت من قدم أبيه ولا سلطانه أوفر بل كان النزاع كثيراً ما يستحكم بين الديلم عنصر السلطان وبين الأتراك قدماء العهد ببغداد وكانت وفاة أبي كاليبجار (سنة ٤٤٠).

بويج بالسلطان بعده ابنه أبونصر خسرو فيروز وطلب من الخليفة أن يلقبه بالملك الرحيم فلم يجب إلى ذلك وقال لا يجوز أن يلقب بأخص صفات الله تعالى فأبى إلا أن يكون ذلك لقبه فكان ما أراد واستقر ملكه بالعراق وخوزستان والبصرة وقد استمر سلطاناً حتى ورد إلى بغداد السلطان طغرل بك فأزاله عن ملكه ونفاه إلى قلعة السرجان وبذلك انقضت مدة آل بويه التي لم يكن فيها شيء من الصلاح للبلاد بل زادت فساداً وفرقة بما أظهرته من التشيع في بغداد مع أن أكثرية أهلها أهل سنة وجماعة فكان النزاع كثيراً ما يقع بين الفريقين وتحصل حوادث شديدة الوقع في بغداد لا يغيرها الخليفة لضعفه ولا السلطان لأنه كان يعين طائفته ووجد الخلاف بين أفراد البيت بعد وفاة الرجال الثلاثة الذين أسسوا هذا الملك العظيم وكان هذا الخلاف كثيراً ما يدعو إلى وقوف بعضهم متحاربين وعلى الجملة فإن البلاد التي استولوا عليها لم تستفد من دولتهم شيئاً على طول مدتهم وضخامة دولتهم وأجمل هذه المدة عهد عضد الدولة فخسرو ثالث ملوك هذه الدولة بالعراق.

آل سلجوق

من عشائر الغز الكبير عشيرة السلاجقة تنسب إلى مقدمها سلجوق بن تقاق وكانت هذه العشيرة تقيم في بلاد تركستان تحت حكم ملك الترك المسمى بيغوا وكان تقاق مقدم العشيرة إلى قوله يرجعون وعن أمره يصدرون وولد له ابنه سلجوق بذلك الإقليم فلما كبر ظهرت عليه أمارات النجابة ومخايل التقدم فقربه ملك الترك وجعله قائد الحقد (شباسي) وكانت امرأة تخوفه من سلجوق لما ترى من طاعة الناس له فأغرته بقتله وبلغ سلجوق ذلك الخبر فجمع عشيرته وهاجر إلى ديار الإسلام واعتنق الحنيفية فازدار بذلك عزا إلى عزه وأقام بنواحي جند (على طرف سيحون من حدود الترك) وصار يشن الغارة على بلاد الترك.

في تلك الأوقات قام النزاع بين أحد ملوك السامانية وهارون بن أيلك خان وقد استولى هارون على بعض بلاده فرأى أن يضرب الحديد بالحديد فاستنجد سلجوق فأنجده بانه إرسال في جمع من أصحابه فقوى بهم الساماني واسترد من خصمه ما أخذه وهذه أول صلة بين عشيرة السلاجقة والسامانية.

لم يزل سلجوق بجند حتى توفي له ثلاثة من الأولاد هم أرسلان وميكائيل وموسى فأما ميكائيل فغزا غزوة في بلاد الترك فاستشهد وبقيت أولاده وهم بيغوا وطرغريك محمد وجفري بك داود فأطاعتهم عشيرتهم.

رحلوا بعد ذلك من جند ونزلوا بالقرب من بخارى على عشرين فرسخاً منها. فخافهم أميرها فأساء جوارهم وأراد الإيقاع بهم فالتجأوا إلى بغراخان ملك تركستان وأقاموا في بلاده ولمزيد حرصهم على أنفسهم اتفق طغرلي بك وداود أنهما لا يجتمعان عند بغراخان حذراً من مكر يمكره بهم وكان بغراخان يجتهد أن يجمع بينهما عنده فلم ينجح فقبض على طغرلي وأسرهم فثار داود في عشائره ليخلص أخاه فأنفذ إليه بغراجان عسكرياً فانهزم ذلك العسكر وخلص طغرلي بك من الأسر وانصرف إلى جند.

لما انقضت دولة السامانية (سنة ٣٨٩) وملك أيلك خان عظم محل أرسلان بن سلجوق بما وراء النهر وكان على تكين أحد قواد السامانية في حبس أرسلان خان فهرب ولحق ببخارى واستولى عليها واتفق مع أرسلان بن سلجوق فامتنعا واستفحل أمرهم وقصدهما أيلك فهزماه وبقياً ببخارى.

لما عبر محمود بن سبكتكين النهر إلى بخارى للاستيلاء على بلاد ما وراء النهر هرب

على تكين من بخارى وأما أرسلان بن سلجوق وجماعته فإنهم دخلوا المفاذه والرمل فاحتلوا من محمود فرأى من قوتهم ما هاله وأراد أن يستعمل معهم الحيلة فكاتب أرسلان واستماله ورغبه فورد عليه فلم يكن من محمود إلا أن قبض عليه وسجنه فى قلعة ونهب حركاته ثم أمر عشيرته فعبروا نهر جيحون وفرقهم فى بلاد خراسان فلم يطمثوا بها من جور العمال عليهم فساد منهم أهل ألفى خركاه فلحقوا بأصبهان ومنها إلى أذربيجان ودخلوا مراغة (سنة ٤٢٩) وأحرقوا جامعها وقتلوا من عوامها مقتلة عظيمة فعظم الأمر على أهلها واشتد بهم البلاء.

رأى ذلك أكرد أذربيجان وكانوا مختلفين فاتفقت كلمتهم على هؤلاء المفسدين فانتصفوا منهم رأى الغز أنهم لا مقام لهم هناك فافترقوا فرقتين فطائفة سارت إلى الرى ومقدمهم بوقا وطائفة سارت إلى همدان ومقدمهم منصور وكوكتاش.

أما الذين ذهبوا إلى الرى فإنهم استولوا عليها ونهبوها نهباً فاحشاً وسبوا النساء وبقوا كذلك خمسة أيام حتى لجأ الحريم إلى الجامع وتفرق الناس كل مذهب ومهرب وكان السعيد من نجا بنفسه وكادوا يستأصلون أهل الرى.

وأما الذين ساروا إلى همدان فإنهم ملكوها أيضاً من يد بنى بويه (سنة ٤٢٠).

ولما دخلوها نهبوها نهباً منكراً لم يفعلوه بغيرها من البلدان غيظاً منهم وحنقاً عليهم حيث قاتلوهم أولاً وأخذوا الحريم وضربت سراياهم إلى أسداذبان وقرى الدينور واستباحوا تلك البلاد.

ولم يزلوا على هذا الإفساد والتخريب حتى ظهرت السلاجقة وخرج إبراهيم ينال أخوطغربك إلى الرى فلما علموا بمسيره جفلوا من بين يديه وفارقوا بلاد الجبل قاصدين أذربيجان فلم يمكنهم القيام بها لما فعلوه بها أولاً ولأن إبراهيم ينال وراءهم وكانوا يخافونه لأنهم كانوا له ولاخيه طغربك رعية فساروا إلى ديار بكر وأميرها سليمان بن نصر الدولة بن مروان فأخربوا ونهبوا أعمالها إلى أن بذل لهم سليمان مالاً ليفارقوا عمله. إذ ذاك صمموا على قصد الموصل وأميرها قرواش من الدولة العقيلية فانهزم عنهم لما حاربوه فدخلوا البلد ونهبوه ووصل قرواش إلى مدينة السن وهناك أرسل جلال الدولة سلطان بغداد يعرفه الحال ويطلب النجدة واستنجد أيضاً ديبس بن مزيد ملك الحلة وغيره من أمراء العرب والأكرد.

عمل الغز بأهل الموصل الأعمال الشنيعة من الفتك وهتك الحريم ونهب الأموال ولما

اشتد الأمر على أهل الموصل ثاروا بالغز وقتلوا منهم كثيراً فخرج الغز وعسكروا خارج المدينة حتى جمعوا قواهم ثم عادوا إليها متفقيين فوضعوا السيف في أهلها وأسروا كثيراً ونهبوا الأموال على ذلك اثني عشر يوماً يقتلون وينهبون.

لما طال مقامهم بتلك البلاد كتب جلال الدولة ونصر الدولة بن مروان إلى طغرل بك يشكون ما حل بالبلاد من تلك الفتنة.

بقي قرواش بالسفن حتى جاءت النجيدات فسار إلى الموصل وبلغ الخبر الغز فتجهت للحرب فاجتمعت القوتان على نهر العجاج وكان النصر أولاً للغز ثم نصر الله العرب فانهمز الغز شر هزيمة وأخذهم السيف وتفرقوا وكثر القتل فيهم وملك العرب حللهم وحركاتهم وكفى الله أهل الموصل شرهم وتبعهم قرواش إلى نصيبين ثم عاد عنهم فقصدوا ديار بكر وصاروا يعيشون فساداً ولكن قواهم وهنت وتضعضع أمرهم ويسمى التاريخ هذه الطائفة بالغز العراقية وهى بقايا من كان مع أرسلان بن سلجوق.

أما من كان من أولاد ميكائيل بن سلجوق فإنهم اقلعوا بنواحي بخارى كما قدمنا فنصر بمكانهم أمير بخارى على تكين فأعمل الحيلة فى الظفر بهم فأرسل إلى يوسف بن موسى بن سلجوق ومناه الإحسان وفوض إليه التقدم على جميع الأتراك الذين فى ولايته ولقبه بالأمير اينانج بيغو وأراد بذلك أن يستعين به ويعشيره على ابنى عمه طغرل بك وداود وأن يفرق كلمتهم ويضرب بعضهم ببعض فلم تجز هذه الحيلة على يوسف فلم يكن من على تكين إلا أن قبض عليه وقتله بيد أمير من أمرائه فعظم على ابنى عمه فجمعاً قومهما للأخذ بثأره وجمع على تكين جيوشه فكان النصر لطغرل بك وأخيه ثم احتشد على تكين مرة ثانية وأوقع بالسلاجقة وقعة كانت عليهم شديدة ألجأتهم إلى عبور النهر. نحو خراسان فكتب إليهم خوارزم شاه هارون بن التونتامش ملك خوارزم يستدعيهم للاتفاق معه فساروا إليه وخيموا بظواهر خوارزم (سنة ٤٢٦) واطمأنوا إلى خوارزم شاه ولكن غدر بهم وكبسهم وهم غارون فقتل منهم جمعاً فساروا عن خوارزم إلى مفازة نسا ثم كتبوا إلى الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين يطلبون منه الأمان ويضمنون أن يكونوا عوناً له على من يعاديه فلم يفعل وسير إليهم جيوشه فلقيتهم عند نسا فأرقع السلاجقة بجيش مسعود ولما بلغه ذلك نده على رده طاعتهم وعلم أن هيئتهم تمكنت من قلوب عسكره فأرسل إليهم يتهدهم ويتوعدهم فكتب إليه طغرل بك هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يؤتى الملك من يشاء وينزعهُ مَنْ تَشَاءُ ﴿ فلما ورد الكتاب على مسعود كتب من ثانية يعدهم المواعيد الجميلة ويأمرهم أن يرحلوا إلى آمل على شاطئ جيحون وينهاهم عن الشر والفساد وأقطع داهستان

لداود «وداهستان» مدينة عند مازندان بناها عبد الله بن طاهر بين جرجان وخورازم آخر حدود طبرستان» وأقطع نسا لطغربك وأقطع فراوة لبيغو «وفراوة بلدة مما يلي خوارزم» بناها عبد الله بن طاهر. استخف السلاجقة برسل مسعود لعدم ثقتهم بالرسالة وصاروا يشنون الغارة على البلاد وعسكر مسعود قد هابهم ومسعود قد شغل عنهم بنفسه وأعرض عن خراسان والسلاجقة فاجتمع وزراؤه وقالوا له إن هؤلاء القوم إذا تركوا وشأنهم استولوا على خراسان سريعاً ثم ساروا منها إلى مدينة غزنة فأيقظوه من رقدته فجهز لهم الجنود مع أكبر قواده وكان داود قد استولى على مرو وأحسن السيرة في أهلها وخطب له بها أول جمعة في رجب (سنة ٤٢٨) ولقب في الخطبة بملك الملوك. جاءت الجنود السعودية فالتقت بجند داود عند باب مرو فلم يثبت العسكر المسعودي وانهزم أفبح هزيمة وسار مرة أخرى إلى هراة فتبعهم داود إلى طوس وكانت هذه الواقعة هي التي ملك السلاجقة بعدها خراسان ودخلوا قصبات البلاد فدخل طغربك نيسابور وخطب له بها في شعبان ولقب بالسلطان المعظم وفرقوا التواب في النواحي.

علم ذلك مسعود فاضطر أن يسير بنفسه من غزنة في جيوش عظيمة حتى وصل بلخاً ومنها سار في أول رمضان (سنة ٤٢٩) واستعد له السلاجقة فلما التقى الفريقان كان التعب قد أخذ من عسكر مسعود فاجتاحهم السلاجقة واضطر مسعود أن ينهزم ومعه مائة فارس وغنم السلاجقة من هذا العسكر مالاً يدخل تحت الإحصاء فقسمه داود على عسكره وآثرهم على نفسه.

بعد تلك الواقعة عاد طغربك إلى نيسابور فملكها ثانية آخر (سنة ٤٣١) وسكن الناس وطمأنهم بعد أن كانوا في شدة من الفوضى ثم ملك دواد بلخ وفي (سنة ٤٣٣) ملك طغربك جردان وطبرستان من يد أنوشروان بن منوچهر بن قابوس بن وشمكير، وفي (سنة ٤٣٤) ملك خوارزم.

لما تم له ذلك سار يريد الري وبلاد الجبل وكان قد سبقه إليها أخوه لأمه إبراهيم ينال واستولى على الري فلما سمع بقدومه سار إليه وسلمه إياها وجميع ما ملك من بلاد الجبل فأمر طغربك بعمارة الري وكانت قد خربت ثم سار إلى قزوین فملكها صلحاً وملك أيضاً همدان.

بذلك تم له ملك أصقاع كبيرة من البلاد الإسلامية وهي خوارزم وخراسان وبلاد الري ووصلت طلائع جنوده إلى البلاد العراقية أهم ذلك أبا كاليجار صاحب العراق ولم يجد في نفسه قدرة على صد ذلك السيل فأرسل إلى طغربك في الصلح فأجابه إليه واصطلحا

وكتب طغرلبيك إلى أخيه إبراهيم ينال يأمره بالكف عما وراء ما بيده واستقر الحال على أن يتزوج طغرلبيك بابتة أبي كاليبجار ويتزوج الأمير أبو منصور بن أبي كاليبجار بابتة الملك داود أخى طغرلبيك وتم هذا فى ربيع الأول (سنة ٤٣٩) وفى (سنة ٤٤١) خطب لطغرلبيك بديار بكر. خطب له بها نصر الدولة ابن مروان صاحبها وفى (سنة ٤٤٢) استولى على أصبهان ثم أطاعته أذربيجان وأرسل إليه من بها من الأمراء يبذلون له الطاعة والخطبة فأبقى بلادهم بأيديهم وأخذ رهائنهم ثم سار إلى أرمينية وقصد ملازجرد وهى للروم فحصرها وأخرب ما حولها وأثر فى بلاد الروم آثاراً عظيمة وبلغ فى غزوته هذه إلى أرزن الروم (ارضروم) ولما هجم عليه الشتاء عاد إلى أذربيجان ثم توجه إلى الرى فأقام بها إلى (سنة ٤٤٧).

فى هذا الوقت كانت الأحوال سيئة فى بغداد فإن آل بويه قد تفرقت كلمتهم وزالت من القلوب هيبتهم فلم يكن يمكنهم أن يحفظوا بغداد لا من عدو طارئ ولا من عياربها ولصوصها فأعدوا الجمهور لقبول ما يغير من هذه الحال. ومما زاد الحال فساداً ما كان من أمر أبى الحارث أرسلان المعروف بالبساسيرى وهو غلام تركى من مماليك بهاء الدولة فإنه أراد أن يزيل الخلافة عن بنى العباس وكاتب الخليفة المستنصر العلوى بمصر ليدخل فى طاعته ويخطب باسمه على منابر بغداد والخليفة العباسى عنده علم ذلك. فكتب إلى السلطان طغرلبيك مستنجداً مستغيثاً وكانت هذه أمنيته فأظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر العلوى صاحبها وكاتب أصحابه بالدينور وقرميسين وحلوان وغيرها فأمرهم بإعداد الأقوات والعلوفات فعظم الإرجاف ببغداد وفت أعضاء الناس. وصل طغرلبيك إلى حلوان وانتشر أصحابه فى طريق خراسان فأجفل الناس إلى غربى بغداد وأرسل طغرلبيك إلى الخليفة يبالغ فى إظهار العبودية والطاعة إلى الأتراك البغداديين يعدهم الجميل والإحسان فاتفق من ببغداد من الرؤساء والأمراء على مكتبة طغرلبيك يبذلون له الطاعة والخطبة ففعلاً تقدم الخليفة إلى الخطباء بالخطبة لطغرلبيك بجوامع بغداد فخطب له فى يوم الجمعة (٢٢ محرم سنة ٤٤٨) ودخلها طغرلبيك فى الخامس والعشرين منه وقبض على آخر سلاطين بنى بويه وهو الملك الرحيم وبذلك انقضت دولتهم ووجدت بالعراق وما وراءه هذه الدولة الفتية وهى دولة السلاجقة.

هذه العشيرة استولت على جل ما ملكه المسلمون وقد انقسمت إلى خمسة بيوت:

الأول: السلاجقة العظمى وهى التى كانت تملك خراسان والرى والجليل والعراق والجزيرة وفارس والأهواز.

الثانى: سلاجقة كرمان.

الثالث: سلاجقة العراق.

الرابع: سلاجقة سوريا.

الخامس: سلاجقة الروم.

أم السلاجقة الكبرى فهي الدولة التي أسسها ركن الدين أبوطالب طغرل بك وحياتها (٩٣ سنة) من (سنة ٤٢٩) (١٠٣٩ م) إلى (سنة ٥٢٢) (١١٢٧ م) وهذا ثبتها.

- ١ - ركن الدين أبوطالب طغرل بك: من ٤٢٩ - ٤٥٥
- ٢ - عضد الدين أبوشجاع ألب أرسلان ٤٥٥ - ٤٦٥
- ٣ - عضد الدين أبو الفتح ملكشاه ٤٦٥ - ٤٨٥
- ٤ - ناصر الدين محمود ٤٨٥ - ٤٨٧
- ٥ - ركن الدين أبوالمظفر بركياروق ٤٨٧ - ٤٩٨
- ٦ - ركن الدين ملكشاه الثاني ٤٩٨ - ٤٩٨
- ٧ - غياث الدين أبوشجاع محمد ٤٩٨ - ٥١١
- ٨ - معز الدين أبو الحارث شجر ٥١١ - ٥٢٢

وقد انقضت دولتهم على أيدي شاهات خوارزم.

وأما سلاجقة كرمان فكانوا من عشيرة قاروت بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وهو أخو ألب أرسلان ومدة ملكهم (١٥٠ سنة) من (٤٣٢) (١٠٤١ م) إلى (٥٨٣) (١١٨٨ م) وهذا ثبت ملوكها:

- ١ - عماد الدين قرا أرسلان قاروت بك ٤٣٣ - ٤٥٦
- ٢ - كرمانشاه ٤٥٦ - ٤٦٧
- ٣ - حسين ٤٦٧ - ٤٦٧
- ٤ - ركن الدين سلطان نشاه ٤٦٧ - ٤٧٧
- ٥ - تورانشاه ٤٧٧ - ٤٩٠
- ٦ - أرانشاه ٤٩٠ - ٤٩٤

- ٧ - أرسلانشاه ٤٩٤ - ٥٣٦
- ٨ - مغيث الدين محمد الأول ٥٣٦ - ٥٥١
- ٩ - محيى الدين طغريل شاه بهرامشاه أرسلانشاه الثانى ٥٥١ - ٥٦٣
- محمد الثانى ٥٦٣ - ٥٦٣

وقد انقضت دولتهم على أيدي الغز التركمان.

وأما سلاجقة العراق وكردستان فقد ابتدأت دولتهم (سنة ٥١١) (١١١٧) أى من عهد وفاة غياث الدين أبى شجاع محمد سابع ملوك السلاجقة وانتهت (سنة ٥٩٠هـ) (١١٩٤) ببقيت (٧٩ سنة) وانقرضت على أيدي شاهات خوارزم وهذا ثبت ملوكها:

- ١ - مغيث الدين محمود ٥١١ - ٥٢٥
- ٢ - غياث الدين داود ٥٢٥ - ٥٢٦
- ٣ - طغريل الأول ٥٢٦ - ٥٢٧
- ٤ - غياث الدين مسعود ٥٢٧ - ٥٤٧
- ٥ - معين الدين ملكشاه ٥٤٧ - ٥٤٨
- ٦ - محمد ٥٤٨ - ٥٥٤
- ٧ - سليمانشاه ٥٥٤ - ٥٥٦
- ٨ - أرسلانشاه ٥٥٦ - ٥٧٣
- ٩ - طغريل الثانى ٥٧٣ - ٥٩٠

وأما سلاجقة سوريا فكانوا من بيت تتش بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وقد ابتدأت دولتهم (سنة ٤٨٧) (١٠٩٤) أى فى أول عهد ركن الدين بركياروق خامس ملوك السلاجقة العظمى وانتهت (سنة ٥١١) (١١١٧) فكانت حياتها (٢٤ سنة) وانتهت على أيدي الدولتين النورية والأرتقية وهذا ثبت ملوكها:

- ١ - تتش بن ألب أرسلان ٤٨٧ - ٤٨٨
- ٢ - رضوان بن تتش ٤٨٨ - ٤٨٨
- ٣ - تقاق بن تتش فى دمشق ٤٨٨ - ٥٠٧

- ٤ - ألب أرسلان أحرص بن رضوان ٥٠٧ - ٥٠٨
 - ٥ - سلطان شاه بن رضوان ٥٠٨ - ٥١١
- وأما السلاجقة الروم ملوك قونية وأقصر فكانوا من بنى قطلمش بن إسرائيل بن سلجوق وقد ابتدأت دولتهم (سنة ٤٧٠) (١٠٧٧) فى عهد جلال الدين أبى الفتح ملكشاه ثالث ملوك السلاجقة العظمى وانتهت (سنة ٧٠٠) (١٣٠٠) فمدة حياتها (٢٣٠ سنة) فهى أطول دول السلاجقة حياة وقد انتهت دولتهم على أيدي الأتراك العثمانيين والمغول وهذا ثبت ملوكها:
- ١ - سليمان بن قطلمش ٤٧٠ - ٤٧٥
 - ٢ - قليج أرسلان داود بن سليمان ٤٧٥ - ٥٠٠
 - ٣ - ملكشاه بن قليج أرسلان ٥٠٠ - ٥١٠
 - ٤ - مسعود بن قليج أرسلان ٥١٠ - ٥٥١
 - ٥ - عز الدين قليج أرسلان بن ملكشاه ٥٥١ - ٥٨٤
 - ٦ - قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان ٥٨٤ - ٥٨٨
 - ٧ - غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان ٥٨٨ - ٥٩٧
 - ٨ - ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان ٥٩٧ - ٦٠٠
 - ٩ - قليج أرسلان بن سليمان ٦٠٠ - ٦٠١
 - غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان ثانياً ٦٠١ - ٦٠٧
 - ١٠ - عز الدين كيقاوس بن ملكشاه ٦٠٧ - ٦١٦
 - ١١ - علاء الدين كيقباز بن ملكشاه ٦١٦ - ٦٣٤
 - ١٢ - غياث الدين كيخسرو بن كيقباز ٦٣٤ - ٦٤٣
 - ١٣ - عز الدين كيقاوس بن كيخسرو ٦٤٣ - ٦٥٥
 - ١٤ - ركن الدين قليج أرسلان بن كيخسرو ٦٥٥ - ٦٦٦
 - ١٥ - غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان ٦٦٦ - ٦٨٢
 - ١٦ - غياث الدين مسعود بن كيقاوس ٦٨٢ - ٦٩١
 - ١٧ - علاء الدين كيقباز ٦٩١ - ٧٠٠

والذى كان يرتبط تاريخه من هذه البيوت بتاريخ الدولة العباسية لدخول بغداد فى حوزتهم السلاجقة العظمى وسلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان على العباسيين (٤٤٧) إلى (سنة ٥٩٠) (١٤٣ سنة).

استخلف من آل العباس فى عهد الدولة السلجوقية تسعة خلفاء وهم:

٢٦ - عبد الله القائم بأمر الله بن القادر بن المقتدر.

٢٧ - عبد الله المقتدى بالله بن محمد بن القائم.

٢٨ - أحمد المستظهر بن المقتدى.

٢٩ - الفضل المسترشد بن المستظهر.

٣٠ - المنصور الراشد بن المسترشد.

٣١ - محمد المقتفى بن المستظهر.

٣٢ - يوسف المستنجد بن المقتفى.

٣٣ - الحسن المستضى بن المستنجد.

٣٤ - أحمد الناصر بن المستضى.

وأولهم القائم بأمر الله هو الذى فى عهده انتهى العصر البويهى وابتدأ ملك السلجوق وآخرهم الناصر لدين الله هو الذى انتهى فى عصره ملك السلاجقة.

ملك السلطان طغرل بك بغداد وتقرب من الخليفة تقريباً عظيماً حتى إن الخليفة تزوج أرسلان خاتون واسمها خديجة بنت داود أخت طغرل بك وقبل الخليفة العقد بنفسه وذهبت والدة الخليفة وتسلمتها وأحضرتها إلى دار الخلافة. ولم تقف المصاهرة بين البيتين عند هذا الحد بل إن السلطان طغرل بك تطلع إلى أن يتزوج هو أيضاً من البيت العباسى وهو أمر لم تجر به العادة فأرسل (سنة ٤٥٣) يخطب بنت الخليفة فانزعج الخليفة من هذا الطلب وأرسل إلى السلطان رسولاً أمره أن يستعفى من الإجابة فإن أعفى وإلا تم الأمر على أن يحمل السلطان (٣٠٠٠٠٠ دينار) ويسلم واسط وأعمالها فلما وصل الرسول قال له عميد الملك لكنندرى وزير طغرل بك لا يحسن أن يرد السلطان وقد سأل وتضرع ولا يجوز مطالبته أيضاً بطلب الأموال والبلاد فهو يفعل أضعاف ما طلب منه ففوض الرسول الأمر إلى الوزير فبنى لوزير الأمر على الإجابة وطالع السلطان فسر به وجمع الناس وعرفهم أن همته سمت به إلى الاتصال بتلك الجهة النبوية وبلغ من ذلك ما لم يبلغه سواء من الملوك وأمر الوزير أن

يسير إلى بغداد لإتمام ذلك فلما ورد الوزير بغداد رأى من الخليفة امتناعاً ولم يزل المحيطون بالخليفة يرفقون به حتى رد الأمر إلى عميد الملك فحضر إلى دار الخلافة ومعه جمع من الأمراء والحجاب والقضاة والشهود فتكلم وقال للخليفة أسأل مولانا أمير المؤمنين التطول بذكر ما شرف به العبد المخلص شاهنشاه ركن الدين فيما رغب فيه ليعرفه الجماعة فأظهر الخليفة نفرة من ذلك وكاد الأمر يفضى إلى فساد ولما رأى الخليفة شدة الأمر أذن فى العقد وكل فيه عميد الملك فجرى العقد فى شعبان (سنة ٤٥٤) بظاهر تبريز وحمل السلطان أموالاً كثيرة وجواهر نفيسة للخليفة ولولى العهد ولزوجته ولوالدتها وغيرهم وجعل يعقوباً وما كان بالعراق لخاتون زوجة السلطان التى توفيت للسيدة ابنة الخليفة ولما تم ذلك حضر السلطان إلى بغداد فأراد الخليفة أن يستقبله فاستعفاه من ذلك وأرسل عميد الملك يطلب السيدة من دار الخلافة فنقلت إلى دار المملكة فى منتصف صفر (سنة ٤٥٥) وجلست على سرير ملبس بالذهب ودخل السلطان إليها وقبل الأرض وخدمها ولم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له وحمل لها شيئاً كثيراً من الجواهر وغيرها وبقي كذلك يحضر كل يوم يخدم وينصرف وخلع على كثير من الأمراء وظهر عليه كثير من السرور.

الحادث العظيم ببغداد:

فى السنة التى تلى حكم السلاجقة ببغداد وهى (سنة ٤٤٨) كانت عند مدينة سنجار وقعة شديدة بين البساسيرى ومعه نور الدولة دبىس بن مزىد الأسدى وبين قرىش بن بدران العقلى ومعه قتلش ابن عم السلطان طغرلىك انهزم فيها قرىش وقتلش فوصل خبر هذه الواقعة إلى السلطان بعد أن أقام ببغداد ثلاثة عشر شهراً لم يقابل فيها الخليفة فسار عنها بجيوشه فقاتل العرب بالموصل والجزيرة وانتصر عليهم وانتهى الأمر باستلاته على جميع البلاد الموصلية والجزرية وسلمها إلى أخيه لأمه إبراهيم ينال ثم عاد إلى بغداد فى أوائل (سنة ٤٤٩) وقابل الخليفة لأول مرة وفوض إليه الخليفة أمر إدارة البلاد وقد بالغ طغرلىك فى احترام مقام الخلافة العباسية وخلع عليه الخليفة سبع خلع وتوج وعمم إشارة إلى جمعه بين ملك العرب والعجم وقلد سيفاً محلى بالذهب وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب فقبل يد الخليفة دفعتين ووضعها على عينه تبركاً، فعل ما فعل من ذلك التعظيم والإجلال تديناً.

وفى (سنة ٤٥٠) ترك إبراهيم ينال بلاد الموصل وتوجه نحو بلاد الجبل ويقال إن المصرين كاتبوه وأطمعوه فى الملك فأهم ذلك السلطان وسار وراءه إلى همدان فى ذلك الوقت عاد البساسيرى بقوته وكان المصريون يساعدونه ويمدونه ولم يزل يجتاح البلاد حتى

وصل بغداد فى ثامن ذى القعدة (سنة ٤٥٠) واستولى عليها لأنه ليس بها جند يحميها وخطب بجامع المنصور لمعد المستنصر العلوى صاحب مصر وأذن بخير العمل وكانت العامة قد مالت إليه أما الشيعة فلا تحاد المذهب وأما أهل السنة فلما فعل بهم الأتراك.

أما الخليفة القائم فإنه خرج من قصره فى ذمام رئيس العرب قريش بن بدران العقيلي استند منه بذمام الله وذمام رسوله ﷺ وذمام العربية فأعطاه ذلك ونزع قريش قلنسوته فأعطاه الخليفة ثم حمله إلى معسكره وعليه السواد والبردة وبيده السيف وعلى رأسه اللواء وأنزله فى خيمة ثم سلمه إلى ابن عمه مهاريش بن المجلى وهو رجل فيه دين وله مروءة فحمله فى هودج وسار به إلى حديثة عانة فتركه بها آمناً مطمئناً فى ذمام العربية الذى يرى الخيانة عاراً.

أما البساسيرى فإنه سار ببغداد سيرة ملك ورفعت على رأسه الألوية البيضاء التى أرسلت إليه من مصر ثم ملك بعد ذلك واسط والبصرة وهتف على منابر تلك البلاد باسم آل على.

أما السلطان فإنه استنجد بأولاد أخيه أرسلان وياقوتى وقاروت بك فجاؤوه بالعساكر يتلو بعضها بعضاً فلقى بهم أخاه إبراهيم ينال بالقرب من الرى فتغلب عليه وأسر به ثم أمر به فخنق بوتر قوسه فى تاسع جمادى الآخر (سنة ٤٥١) ولما تم له ذلك عاد يطلب العراق وليس له هم إلا إعادة القائم بأمر الله إلى خلافته ولما قارب بغداد أدرك البساسيرى أنه لا قبل له بمقاومته فرحل عن بغداد وكان دخوله إليها سادس ذى القعدة (سنة ٤٥٠) وخروجه منها سادس ذى القعدة (سنة ٤٥١) وكان السلطان قد أرسل وهو بالطريق إمام أهل السنة أب بكر أحمد بن محمد المعروف بابن فورك إلى قريش بن بدران يشكره على ما فعله بالخليفة ويخبره أنه أرسل ابن فورك للقيام بخدمة الخليفة وإحضاره فأرسل قريش إلى ابن عمه مهارش يقول له أودعنا الخليفة عندك ثقة بأمانتك لينكف بلاء الغزو عنا والآن فقد عادو وهم عازمون على قصدك فارحل أنت وأهلك إلى البرية فإنهم إذا علموا أن الخليفة عند فى البرية لم يقصدوا العراق ونحكم عليهم بما نريد فأبى ذلك مهارش وقال إن الخليفة قد استحلبنى بعهود وموائق لا مخلص منها وسار بالخليفة إلى العراق وقد لقيهما ابن فورك بتل عكبرا فساروا معاً حتى وصلوا إلى النهروان فى (٢٤ ذى القعدة) فخرج السلطان إلى خدمة الخليفة فاجتمع به وقبل الأرض بين يديه وهنأه بالسلامة وأظهر الفرح بسلامته واعتذر عن تأخره بعصيان أخيه إبراهيم وأنه قتله عقوبة لما جرى من الوهن على الدولة العباسية فقلده الخليفة بيده سيفاً وقال لم يبق مع أمير المؤمنين من داره سواه وقد تبرك به أمير المؤمنين فكشف غشاء الخركاه حتى رآه الأمراء فخدموا وانصرفوا ثم ساروا جميعاً إلى بغداد وكان دخول الخليفة لخمس بقين من ذى القعدة (سنة ٤٥١).

ثم أنفذ السلطان جيشاً لملاحقة البساسيرى الذى توجه سمت الشام وسار السلطان فى أثرهم فقابلته الطلائع ببعض الطريق فوقف لهم فقاتلوه وقتلوه وحملوا رأسه إلى بغداد وكان البساسيرى هذا مملوكاً تركياً من ممالك بهاء الدولة الديلمى تقلبت به الأمور حتى بلغ هذا المقام المشهور وكنيته أبو الحارث وهو منسوب إلى بسا مدينة بفارس، كان سيده الأول منها.

وبعد أن تم ما أراده عاد إلى الرى التى جعلت دار ملكه وكان له ببغداد محافظ يسمى الشحنة. وفى (سنة ٤٥٥) عاد إلى بغداد ليبنى بابنة الخليفة التى ذكرنا فيما مضى حديثها ثم عاد إلى الرى وبها كانت وفاته فى يوم الجمعة (٨ رمضان سنة ٤٥٥).

ولما توفى أراد عميد الملك أن يقيم فى الملك بعده ابن أخيه سليمان بن داود ولكن لم يتهيأ له ما أراد وتم الأمر للسلطان.

(٢) عضد الدولة أبوشجاع ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وقد عارضه فى الملك ابن عم أبيه قتلش بن إسرائيل فقتل دون مراده. استعان ألب أرسلان فى إدارة ملكه بوزيره العظيم نظام الملك وسيأتى التعريف به وبما نال المملكة من الخير العميم على يديه.

كان ألب أرسلان بعيد الهمة ثاقب العزم ميمون النقيية إلى بره بالرعية وإرادة خيرهم وكان إذا أمر ببناء أو عز بأن يكون أسمى بنیان ويقول: آثارنا هذه تدل على علو هممتنا ووفور نعمتنا. وكانت أظهر أعماله بالبلاد الرومية فقد أقبل لأول عهده (سنة ٤٦٢) ملك الروم وأخنى على منبج واستباحها وسبى حاميتها فأساء ذلك ألب أرسلان ولا سيما أنه بلغه أن الروم عازمون على إعادة الكرة فأغذ السير إلى أذربيجان لأنه سمع أن ملك الروم أخذ على سمت خلاط ومعه من الجنود من لا يحصون كثرة ولما قارب خلاط أرسل إليها بعشرين ألف فارس فوقف فى أوجههم مقدم عسكر خلاط وانتصف منهم وذلك فى رابع ذى القعدة (سنة ٤٦٣) ثم تلاحق عسكر الروم ونزل على خلاط محاصراً ونزل على ملازكرد فسلمت حاميتها. حصل ذلك والعسكر السلطانى مجد فى سيره ولم ينتظر السلطان تلاحق جنده بل قال أنا أحتسب عند الله نفسى بالشهادة وكان وصول السلطان فى اليوم الذى سلمت فيه حامية ملازكرد وكان نزول عسكره فى يوم الخميس (٦ ذى القعدة) والروم بين خلاط وملازكرد فأرسل السلطان إلى ملك الروم يقول له إن كنت ترغب فى الهدنة أتمننا ما تريد وإلا اعتزمتنا وعلى الله اعتمدنا، فظن ملك الروم أن صدور هذه الرسالة عن خور فقال للرسول سوف أجيب عن هذا بالرى فكان ذلك مما ألهب النفوس الإسلامية وزادها حمية وقال إمام السلطان أبونصر محمد بن عبد الملك البخارى الحنفى

للسلطان إنك تقاتل عن دين الله الذى وعد بإظهاره، فالفهم يوم الجمعة بعد الزوال والناس يدعون لك على المنابر. فلما أصبحوا يوم الجمعة وكادت الشمس تزول تهاى السلطان وعبا أصحابه تعبئة عسكرية تدل على فهم ثاقب لأنه قسمهم أربع فرق كل فرقة أقامها فى نقطة لا تبرحها لتكون عند اللزوم وراء جند العدو ثم أشعل نار الحرب بهيمته العالية واستجر الروم إليه حتى صار الكمين من ورائهم وحينئذ أخذتهم الحنود السلجوقية من أمامهم ومن خلفهم فما عثم الروم أن انهزموا بعد أن أخذ منهم اندعر والرعب وأسروا ملكهم، قالوا وكان مع الروم ثلاثة آلاف عجلة لحمل الأثقال ومعهم منجنيقات كثيرة منهم منجنيق له ثمانية أسهم ويمد فيه ألف ومائتا رجل ويحمله مائة عجلة يرمى حجراً وزنه - بالرطل الكبير الخلاطى - قطار وكثر عدد الأسرى من الروم وكذلك الغنائم حتى سقطت قيم الدواب والكرع والسلاح والمتاع فبيعت (١٢خوذة) بسدس دينار وثلاثة أذراع بدينار.

وعاد السلطان مؤيداً ظافراً بعد هذه الواقعة التى لم تقم للروم بعدها قائمة فى نواحي أرمينية وكان عهد ألب أرسلان كله عهد نمو وارتقاء فى دولة السلاجقة لا للسيف وحده بل للعلم أيضاً فإن نظام الملك أسس فى عهده أول المدارس النظامية ببغداد وقد تم بناؤها (سنة ٤٥٨) ودرس فيها شيخ الشافعية بالعراق بل وبغيرها وهو الشيخ أبو إسحاق الشيرازى ولما رأى ذلك شرف الملك أبوسعده محمد بن منصور مستوفى المملكة ببغداد بنى على ضريح أبى حنيفة رحمه الله بباب الطاق مشهداً ومدرسة لأصحابه وكتب على تلك القبة.

ألم تر هذا العلم كان مشتتاً فجمعه هذا المغيب فى اللحد
كذلك كانت هذه الأرض ميتة فأنشروها فضل العميد أبى سعد

وفى (سنة ٤٦٥) توجه ألب أرسلان قاصداً بلاد الترك فعبّر نهر جيحون ولكن المشية سابقة فسبقتة. حكى عنه أنه قال وهويقرب من الموت: ما كنت قط فى وجه قصده ولا عدو أردته إلا توكلت على الله وطلبت منه النصر وأما فى هذه النبوة فإنى أشرفت من تال عال فرأيت عسكرى فقلت أين من له قدر بمصارعتى ومعارضتى وإنى أصل بهذا العكر إلى بلاد الصين. فكان ما أراد الله وكانت وفاته فى (٦) ربيع الأول (سنة ٤٦٥).

ولى السلطنة بعده ولى عهده السلطان جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه.

ولأوائل حكمه توفى الخليفة القائم بأمر الله ثالث عشر شعبان (سنة ٤٦٧) فقام بالأمر بعده ولى عهده حفيده.

المقتدى بأمر الله

أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة أبي العباس محمد بن القائم ولم يكن للقائم من أعقابهِ ذكر سواه فإن الذخيرة توفي أيام أبيه ولم يكن له غيره فأيقن الناس بانقراض نسله وانقراض الخلافة من البيت القادرى إلى غيره ولم يشكوا فى اختلاف الأحوال بعد القائم لأن من عدا البيت القادرى كانوا يخالطون العامة فى البلد ويجرون مجرى السوق فلو اضطر الناس إلى خلافة أحدهم لم يكن له قبول ولا هبة فقدّر الله أن الذخيرة كانت له جارية أرمنية اسمها أرجوان وكان يلم بها فلما توفي ظهر أنها حامل وولدت بعد موت سيدها بستة أشهر وذلك الولد هو عبد الله الذى ولاه جده العهد بعده لما بلغ الحلم وقد بويع بعد وفاة جده واستمر خليفة إلى أن توفي فجأة فى يوم السبت خامس محرم (سنة ٤٨٧). فكانت خلافته (١٩ سنة) وثمانية أشهر غير يومين وهو من خيرة بنى العباس كان قوى النفس عظيم الهمة أصلح كثيراً من الأحوال الأدبية ببغداد فأمر بنفى المغنيات والمفسدات منها ووقع الهرادى والأبراج التى للطيور ومنع من اللعب بها لأجل الاطلاع على حرم الناس ومنع الملاحين أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين ولذلك أصلح كثيراً من الماديات فعمرت فى بغداد عدة محال فى خلافته ومنع من إجراء ماء الحمامات إلى دجلة وألزم أربابها بحفر آبار للمياه وأمر أن من يغسل السمك المالح يعبر إلى النجى فيغسله هناك وكانت أيامه كثيرة الخير واسعة الرزق وعظمت الخلافة أكثر مما كان من قبله وكان سلطان السلاجقة فى عهده ملكشاه الذى ذكرنا قيامه بعد أبيه ألب أرسلان. وكان ملكشاه سلطاناً عادلاً ذا فضل وإنصاف شجاعاً مقداماً صائب الرأى والتدبير أيامه فى دولة السلاجقة واسطة عقدها وكان ميمون النقيبة لم يتوجه إلى إقليم إلا فتحه ولما توجه إلى الشام وأنطاكية بلغ إلى حد قسطنطينية وقرر ألف دينار على ملوكها تحمل على خزائنه ووضع فى النواحي التى فتحها من الروم خمسين منبراً إسلامياً ولم يزد زمن ذلك العمل على شهرين ثم عاد إلى الرى وقصد سمرقند فظفر بخانها وأسره فحمل غاشية السلطان على كتفه وسار فى ركابه إلى

موضع سرير ملكه ثم من عليه وأعاده إلى ملكه. وتوجه في السنة الثانية إلى أوزكند فأخضعها وخضع له جميع الملوك والرؤساء بالمشرق والمغرب. وهذه السعادة كلها إنما تيسرت بسعادة الوزير الكبير خواجه بزرگ قوام الدين نظام الملك أبي على الحسن بن على بن إسحاق رضى أمير المؤمنين الطوسى، وكان معدوداً من العلماء الأجواد وكان محباً للعلم مجلسه دائماً معمور بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين. أهل الخير والصلاح. أمر ببناء المدارس المعروفة بالنظامية فى سائر الأمصار والبلاد وأجرى لها الجرايات العظيمة وسمع الحديث بالبلاد ببغداد وخراسان وغيرهما وكان يقول إني لست من أهل هذا الشأن ولكنى أحب أن أجعل نفسى على قطار نقلة حديث رسول الله ﷺ وكان إذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه فإذا فرغ لا يبدأ بشئ قبل الصلاة وأسقط فى زمنه كثيراً من المكوس والضرائب وهو الذى أزال لعن الأشعرية من المناير وكان سلفه عميد الملك الكندرى قد حسن للسلطان طغرل بك التقديم بلعن الرافضة فأمره بذلك فأضاف إليهم الأشعرية ولعن الجميع فلماذا فارق كثير من الأئمة بلادهم مثل إمام الحرمين وأبى القاسم القشبرى وغيرهما فلما ولى نظام الملك أزال ذلك جميعه وأعاد العلماء إلى أوطانهم.

ومن طريف الأخبار أن نظام الملك كان إذا دخل عليه إمام الحرمين وأبوالقاسم القشبرى يقوم لهما ويجلس فى مسنده كما هو وإذا دخل عليه أبوعلى الفارمذى يقوم إليه ويجلسه فى مكانه ويجلس هو بين يديه فقليل له ذلك فقال إن هذين وأمثالهما إذا دخلوا على يقولون لى أنت كذا وكذا يشنون بما ليس فى فيزيدنى كلامهم عجباً وتبهاً وهذا الشيخ يذكر لى عيوب نفسى وما أنا فيه من الظلم فتتكسر نفسى لذلك وأرجع عن كثير مما أنا فيه. وكان ينظر فى الأوقاف والمصالح ويرتب عليه الأمناء ويشدد فى أمرها وعلى الجملة فكان غرة فى جبين آك سلجوق ومن حسناته حجة الإسلام الإمام الغزالى فهو قرينة فى الطلب ازدادت بهما طوس واختالت على ما سواها من بلاد فارس وكان مؤيداً بقرنين مؤيدين لدولته وهما كمال الدولة أبوالرضى فضل الله بن محمد صاحب ديوان الإنشاء والطغراء وشرف الملك أبوسعدي بن منصور بن محمد صاحب ديوان الزمام والاستيفاء وكلاهما صاحب الرأى والتدبير والدهاء والجود، ومع ما ظهر منه من الكفاية وعين النقية وسعادة الحركة لم يترك المفسدون أديم المودة بينه وبين سلطانه صحيحاً بل ما زالوا فى سعاياتهم حتى نغل ذلك الأديم ومل السلطان طول مدة الوزير واستطالة مدته فأنفذ إليه أحد خاصته برسالة واختار عيناً يحصى على الوزير ما يفوه به. وكان مضمون الرسالة إنك استوليت على ملكى وقسمت ممالكى على أولادك وأصهارك أتريد أن آمر برفع دواة الوزارة من بين يديك وأخلص الناس من استطالتك؟ فكان جوابه عن تلك الرسالة - قولوا للسلطان إن دواتى مقترنة بتاجك، فمتى رفعتها رفع، ومتى سلبتها سلب - فاشتد من ذلك الجواب

غيظ السلطان وكان بعد ذلك أن أحد الملاحه اعتدى على نظام الملك فقتله وذلك (سنة ٤٨٥).

ومن غرائب المصادفات أن السلطان لم يعيش بعده إلا (٣٣ يوماً) وبموتهما انتهت سعادة البيت السلجوقي ووقعت بين رؤسائه الفتن وحكموا بينهم السيف.

مات ملكشاه بعد أن اتسع ملكه اتساعاً عظيماً فخطب له من حدود الصين إلى آخر الشام ومن أقاصى بلاد الإسلام في الشمال إلى آخر بلاد اليمن وحملت إليه الروم الجزية ولم يفته مطلب. وانقضت أيامه على أمن عام وسكون شامل وعدل مطرد: أسقط المكوس والمؤن من جميع البلاد، وعمر الطرق والقناطر والمرباط التي في المفاوز وحفر الأنهار الخراب، وعمر الجامع ببغداد وعمل المصانع بطرق مكة وبنى البلد بأصبهان.

وكان للسلطان ملكشاه أربعة بنين وهم بركياروق ومحمد وسنجر ومحمود. وكان محمود طفلاً وأمه ترکان خاتون فطلبت من الخليفة المقتدى أن يعين ولدها للسلطنة فأجاب إلى ذلك على شروط اشترطها إلا أن جنود نظام الملك ساعدوا أخاه الأكبر بركياروق على أن يكون هو السلطان، فتم ما أرادوا وأرسل تقليده إلى الخليفة ليوقعه فمات الخليفة والتقليد بين يديه وكانت وفاته في (١٥ محرم سنة ٤٨٧).

وفاة المقتدى،

في منتصف المحرم (سنة ٤٨٧) توفي المقتدى بالله فجأة بعد أن قدم إليه تقليد السلطان بركياروق فقراه وعلم ما فيه ولم يمضه.

المستظهر بالله

ببيع بالخلافة بعده ولده أبو العباس أحمد المستظهر بالله واستمر خليفة إلى أن توفي في (١١ ربيع الآخر سنة ٥١٢) فكانت خلافته (٢٤ سنة) وثلاثة أشهر و(١١ يوماً) وكانت سنة حين توفي (٤١ سنة) وستة أشهر وستة أيام.

حال الممالك الإسلامية في عهده:

وكان بالأندلس والمغرب الأقصى دولة الملتزمين والقائم بأمرهم يوسف بن تاشفين إلى (سنة ٤٨٠) - ثم من بعده ابنه عليّ إلى (سنة ٥٣٧).

وبأفريقية من آل زيري تميم بن المعز بن باديس إلى (سنة ٥٠١) ثم يحيى بن تميم على (سنة ٥٠٩) ثم عليّ بن يحيى إلى (سنة ٥١٥).

وبمصر من الفاطميين المستعلي أبو القاسم أحمد بن المستنصر معد إلى (سنة ٤٩٥) ثم الأمر بأحكام الله عليّ المنصور بن المستعلي إلى (سنة ٥٢٤).

وبزبيد من الدولة النجاشية الأمير جيش بن نجاح (سنة ٤٩٨) ثم فاتك بن جيش إلى (سنة ٥٠٣) ثم منصور بن فاتك إلى (سنة ٥١٧).

وبصنعاء ومهرة ظهر الأمير حاتم بن غاشم الهمداني من (سنة ٤٩٢) إلى (سنة ٥٠٢) ثم عبد الله بن حاتم إلى (سنة ٥٠٤) ثم معن بن حاتم إلى (سنة ٥١٠) ثم هشام بن قبيط وحاتم بن حماص.

وما عدا ذلك من البلدان الإسلامية في آسيا فهو محكوم بدولة السلاجقة. كان المستظهر بالله من خيار بني العباس لين الجانب كريم الأخلاق يحب الاصطناع ويفعل الخير ويسارع إلى أعمال البر والمثوبات مشكور المساعي لا يرد مكرمة تطلب منه وكان كثير الوثوق بمن يوليه غير مصغ إلى سعاية ساع ولا ملتفت إلى قوله ولم يعرف منه تلون وانحلال عزم

بأقوال أصحاب الأغراض وكانت أيامه أيام سرور لرعيته وكان إذا بلغه ذلك فرح به وسره وإذا تعرض سلطان أونائب له إلى أذى أحد بالغ في إنكار ذلك والزجر عنه وكان حسن الخط جيد التوقيعات لا يقاربه فيها أحد وله شعر رقيق فمن ذلك قوله :

أذاب حر الهوى في القلب ما جمدا لما مسدت إلى رسم الوداع يدا
وكيف نسلك نهج الاضطبار وقد أرى طرائق في مهوى الهوى قددا
قد أخلف الوعد بدر قد شغفت به من بعد ما قد وفي دهرى بما وعدا
إن كنت أنقض عهد الحب في خلدي من بعد هذا فلا عاييته أبداً

تولى ملك العراق في خلافة المستظهر بالله ملكان من آل سلجوق أولهما السلطان أبوالمظفر بركياروق بن ملكشاه ولأول عهده استوزر عز الملك أبا عبد الله الحسين بن نظام الملك ولم يكن فيه شيء من كفاية أبيه وكان أخوه عبد الرحيم إليه منصب الطغراء وتولى ديوان الاستيفاء الأستاذ على بن أبي على القمي وكانوا جميعاً سواسية في النكوب عن جادة الاعتدال وسياسة المملكة . والسلطان مشغول عما يصلح ملكه باللعب وعشرة الصبيان والوزير منهمك في شرابه وقد ذهب الجميع إلى بغداد واختاروا المقام فيها لاهين بمغانيتها وغوانيتها . وكان ذلك مجرئاً عم السلطان تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق أن يكون طالباً السلطنة لنفسه فقام بجنوده واستولى على بلاد الجزيرة والموصل وديار بكر وأذربيجان ثم بدا له فعاد إلى دمشق لما رأى كثيراً من أمرائه ميالين إلى مساعدة بركياروق وانتظم الأمر لبركياروق ولكن أمر ذلك لم يطل إلا بمقدار ما أعد تتش للأمر عدته فعاد (سنة ٤٨٧) بجنوده التي أعدها واستولى على حلب والجزيرة وديار بكر وأذربيجان وهمذان ثم أرسل إلى الخليفة ببغداد يطلب الخطبة له فأجيب طلبه بعد أن وصل إليهم الخبر بأن تتش هزم بركياروق في وقعة كانت بينهما ولم يزل الأمر على ذلك حتى لم بركياروق شعثه وأصلح من أمر جنوده والتقى بعمره في موضع قريب من الرى فكانت الهزيمة على جند تتش وأما هو فثبت حتى قتل وذلك (سنة ٤٨٧) واستقام الأمر لبريكاروق بعد أن كاد يضمحل وكان نجاحه براء الوزير مؤيد الملك أبي بكر عبد الله بن نظام الملك الذي استوزره بعد أخيه عز الملك ولم يكن في أولاد نظام الملك أكفى منه وكان وحيداً في بلاغة النظم والنثر ولما هيا السلطان بالفتح قال له كل هذا ببركتك وعين نقيبتك إلا أن مدة ذلك الوزير الأيمن لم تطل فإن أم السلطان كانت متداخلة تداخلاً كثيراً في سياسة دولة ابنها فتغير قلبها على الوزير ولما رأى ذلك أخوه فخر الملك أبوالفتح المظفر أرسل وبذل أموالاً جزية في الوزارة فأجيب إليها وعزل أخوه واعتقل فاحتال حتى خلاص من اعتقاله ، وتوجه إلى محمد بن ملكشاه الذي

كان ملكاً على أران ومقره مدينة جنرة فقبله محمد واصطفاه واستشاره فى مهماته ثم سلم إليه وزارته فلم يزل يقرب لمحمد قصد أخيه بركياروق والاستيلاء على ملكه حتى حرك منه ما كمن من هواه فسار من أران فى شردمة يسيرة حتى وصل دار الملك أصفهان فلم تستعص عليه فملكها واستمال إليه العساكر فمالوا إليه .

كانت مطالبة محمد للسلطنة وقيامه فى وجه أخيه بركياروق فاتحة شر مستطير على هذين الأخوين بل على البيت السلجوقى كله بل على الإسلام جميعاً فقد ظلت نيران الحرب بينهما مستعرة من (سنة ٤٩٢) إلى (سنة ٤٩٧) خمس سنين ما أشد وقعها على الرعية والجند حصلت فيها مواقع هائلة والحرب فيها سجال . والإفرنج تحركوا من مرابضهم للإغارة على البلاد الإسلامية لتخليص البيت المقدس كما زعموا وملوك الإسلام وهم من بيت واحد وأبناء رجل واحد يتطاحنون ويتخاصمون .

رأى الرجلان أن الحروب تطاولت بينهما وعم الفساد فصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والقرى محرقة والسلطنة مطموعاً فيها وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمهم وانبساطهم وإدلالهم وكان السلطان بركياروق حيثث بالرى والخطبة له بها والجبل وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة وبالحرمين الشريفين وكان السلطان محمد بأذربيجان والخطبة له فيها وبلاد أران وأرمينية وأصبهان والعراق كلها ما عدا تكريت . وأما أعمال البطائح فيخطب ببعضها لبركياروق وبعضها لمحمد وأما البصرة فكان يخطب فيها لهما جميعاً وأما خراسان فإن السلطان سنجر بن ملكشاه كان يخطب له فى جميعها وهى من حدود جرجان إلى ما وراء النهر ولأخيه السلطان محمد - فلما رأى السلطان بركياروق المال عنده معدوماً والطمع من العسكر زائداً أرسل القاضى أبا المظفر الجرجانى الحنفى وأبا الفرج أحمد بن عبد الغفار الهمدانى إلى أخيه محمد فى تقرير قواعد الصلح فسارا إليه ورغباه فى الصلح وفضيلته وذكرأ له ما شمل البلاد من الخراب وطمع عدو الإسلام فى أطراف الأرض فأجاب إلى ذلك واستقر الأمر بينهما على أن بركياروق لا يعترض أخاه محمداً فى السبل وألا يذكر معه على سائر البلاد التى صارت له وألا يكاتب أحدهما الآخر بل تكون المكاتب بين وزيريهما ولا يعارض أحد من العسكر فى قصد أيهما شاء وأن يكون للسلطان محمد من النهر المعروف بأسبيذه رود إلى باب الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام ويكون له من بلاد العراق بلاد سيف الدولة صدقة وهى الحلة وما إليها وقد حلف كل منهما لصاحبه على الوفاء فتحسنت الأحوال وزال الخلف والشغب ولم تطل مدة بركياروق بعد هذا الصلح فإنه توفى فى ثانى ربيع الآخر (سنة ٤٩٧).

بعد موت بركياروق خطب أمراؤه لابنه ملكشاه إلا أن أمره لم يتم فإن عمه محمداً ما عثم أن قدم إلى بغداد بجيوشه الوافرة فلم يكن أمامه من يقدر على رده، وقد حاول أكبر الأمراء البركياروقية أن يوقد نار الحرب ليقوم بما يجب عليه لمولاه ولكن الله حسن الصلح والاتفاق فتم ذلك وخطب لمحمد بالسلطنة بدون منازع ثم عاد إلى دست ملكه بأصفهان.

لم يكن السلطان محمد موفقاً لاختيار كبار مملكته وقد كانت الأعمال الكبرى في دولة آل سلجوق هي.

(١) الوزارة (٢) استيفاء الملكة ويقال لصاحبها المستوفى. (٣) الطغراء وهو رئاسة الديوان ومن جملته ديوان الرسائل والإنشاء (٤) الإشراف وعرض الجيش. قال بعض الكتاب في حق السلطان محمد: قد كثر تعجبي من السلطان يتأنق في تخير كلاب الصيد وفهوده وإنما يقتنى منها ما يراه موافقاً لمقصوده فيسأل عن فروعه وأصوله وانقطاعه ووصوله فما باله لا يتخير لديوانه ومراتب سلطانه من الكفاة الأفاضل والصدور الأماثل من عرفه ذاك وعرقه كريم ومجده قديم وطريقه في الكفاية مستقيم؟! لقد كان هؤلاء أولى باختيار وأجدر بالاختبار فإنهم أمانؤه على مملكته ووكلاؤه على دولته وسفراؤه في خدمته. ولعدم حسن الاختيار كثر الاضطراب والتغيير. واستمر ملك محمد هذا إلى (سنة ٥١١) حيث توفي في (٢٤ ذى الحجة) وعمره إذ ذاك (٢٧ سنة) وكان عادلاً حسن السيرة شجاعاً وقد أطلق في حياته المكوس والضرائب في جميع البلاد ولم يعرف منه فعل قبيح وعلم الأمراء سيرته فلم يقدم أحد منهم على الظلم وكفوا عنه.

فاختير للملك بعده ابنه السلطان مغيث الدنيا والدين أبو القاسم حمود بن محمد بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين وخطب له ببغداد في (١٣ محرم سنة ٥١٢).

ولم يقم الخليفة المستظهر بالله طويلاً بعد وفاة محمد بن ملكشاه فإنه توفي في (١٦ من ربيع الآخر) فلم يكن بين رحيليهما من هذا العالم إلا أقل من أربعة أشهر.

كان في حياة المستظهر بالله أحداث عظيمة في المملكة الإسلامية في الشرق والغرب فأما في الشرق فظهور الباطنية وعيشتهم في البلاد حتى كادوا يميلون ميزانها وأما في الغرب فأغارت الفرنج على البلاد الإسلامية وبدأت الحروب الصليبية ولا بد أن نشير إلى كل من الحادثتين بكلمة لبنين كيف كان ابتداءهما فإن استيفاء ما يتعلق بهما يرجع إلى شرح حال الدولة الفاطمية المصرية لأن الحادثين يتعلقان بها فالباطنية أنصارهم.

الباطنية

لما نجح الفاطميون في إقامة دولتهم بالمغرب ثم بمصر واتسعت رقعة مملكتهم حتى وصلت إلى نواحي الفرات دار في خلدتهم أن يمدوا سلطانهم متجهين إلى المشرق حتى يعم بقاع الأرض ملكهم وكانت الطريقة التي جروا عليها من أول نشأتهم أن يرسلوا الدعاة إلى الأقطار فيدعون الناس إليهم سرّاً ويزينون لهم ما يدعون إليه بضروب من الزينة مهروا في إبداعاتها. وكان للدعوة بمصر درجة رفيعة الشأن عليها رجل كبير يعرف بداعي الدعاة ودرجته تلى قاضى القضاة وكان الدعاة يحصلون على أسرار الدعوة بمصر ثم يبرحونها إلى كل قطر متبعين نظاماً مسنوناً. ومن البلاد التي اهتم الفاطميون بها وأرسلوا دعائهم إليها: البلاد الفارسية وقد كان أول رواج هذه الدعوة في عهد ملكشاه، وسبب هذا الرواج أنه لم يكن للدولة أصحاب أخبار. وكان الرسم في أيام الديلم ومن قبلهم أنهم لا يخلون البلاد من أصحاب الأخبار والبريد فلم تكن تخفى عنهم الأخبار. فلما تولى السلطان ألب أرسلان فاوضه وزيره نظام الملك في هذا الأمر فأجابه لا حاجة إلى صاحب خبر فإن الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء فلماذا نقل إلينا صاحب الخبر خبيراً وكان له غرض أخرج الصديق في صورة العدو والعدو في صورة الصديق ومن أجل ذلك أسقط السلطان هذا الرسم. فصادف الباطنية بسبب ذلك نجاحاً وأول ما عرف من أمرهم أنه اجتمع منهم (١٨ رجلاً) بمدينة ساوة وهى مدينة بين الرى وهمذان فصلوا صلاة العيد فظن بهم الشحنة فأخذهم وحبسهم ثم سئل فيهم فأطلقهم فهذا أول اجتماع كان لهم. ثم إنهم دعوا مؤذناً من أهل ساوة كان مقيماً بأصبهان فلم يجبههم إلى دعوتهم فخافوه أن ينم عليهم فقتلوه فهو أول قتل لهم وأول دم أراقوه فبلغ خبره إلى نظام الملك الوزير فأمر بأخذ من يتهم بقتله فوقعت التهمة على نجار اسمه طاهر فقتل ومثل به فهو أول قتل منهم. ولما رأى الباطنية ذلك من نظام الملك أمروا واحداً منهم فقتله وهى أول فتكة مشهورة كانت لهم وقالوا قتل نجاراً فقتلناه به. وأول موضع غلبوا عليه وتحصنوا به بلد عند قايين وهى بين نيسابور وأصبهان وكان متقدماً هذا البلد على مذهبهم فاجتمعوا عنده وقروا به فاجتازت به قافلة عظيمة من كرمان إلى قايين فخرج عليهم الباطنية فقتلوا القفل أجمعين ولم ينج منهم غير رجل واحد تركمانى فوصل إلى قايين وأخبر بالخبر؛ فتسارع أهلها إلى جهادهم فلم يقدرُوا عليهم ثم قتل نظام الملك ومات ملكشاه فعظم أمرهم واشتدت شوكتهم وقويت أطماعهم ولا سيما بأصبهان واستولوا على قلعة أصبهان وهى قلعة بناها السلطان ملكشاه.

كان الداعية الأكبر للباطنية بتلك البلاد هو أحمد بن عبد الملك بن عطاش فقدموه عليه وألبسوه تاجاً وجمعوا له الأموال ثم ظهر منهم الرئيس الثانى وهو الحسن بن الصباح أخذ

هذا المذهب عن عبد الملك بن عطاش ثم رحل إلى مصر فلقى بها الخليفة المستنصر وتلقى بمصر أصول الدعوة الباطنية وكان شهماً ذكياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم ثم عاد بمرو لنصرة هذا المذهب بقلعه وسيفه فكان أول ما فعله أن استولى على قلعة الموت وتحصن بها وهى من نواحي قزوين فى موضع حصين . ولم يكن نظام الملك إذ ذاك قد توفى فلما بلغه الخبر بعث إلى تلك القلعة عسكرياً فحاصروا فيها ابن الصباح وأخذوا عليه الطرق ولما ضاق ذرعاً بالحصر أرسل من قتل نظام الملك فلما قتل رجع العسكر عنها .

ودخل فى خوزتهم أيضاً بعض قهستان وطيس وملكو كذلك قلعة وسنكوه بقرب أبهر وغير ذلك من القلاع التى جعلوها حصوناً لهم ومعاقل . تمكنت أقدامهم بالبلاد الفارسية وصار يحسب لهم حساب وكان الواحد منهم يهجم على كثير وهو يعلم أنه يقتل فقتل بذلك من شاء غيلة وكان رؤسائهم يستعملونهم فيما أرادوا ويمنونهم الأمانى الجميلة التى يخضع لسلطانها أمثال هؤلاء الناس فيأتون بالعجب العجائب . وقد صارت الناس فيهم فرقتين فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة فمن عاداهم خاف من فتكهم ومن سالمهم نسبته الناس إلى الارتكاس فى عقيدتهم وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين ولما كانوا قد تجمعوا من كل صنف تطرقت إلى جميع أصناف الناس التهم ودب إلى البراء السقم وتعين على السلطان أن يكشفهم مدافعاً لثلاث ينسبه العوام وأهل الدين إلى الإلحاد وفساد الاعتقاد وقد حصل ذلك للملك تيرانشاه بن تورانشاه بن قاروت بك فقد اتهمته رعيته بالميل إلى الباطنية والقول بدعوتهم فثاروا عليه وأخرجوه عن مدينة بردسير التى هى مدينة كرمان واتفقوا بعد خروجه على تولية أرسلانشاه بن كمانشاه بن قاروت بك . ومن المصيبة أنه ما كان سلطان يثق بخواصه والناس فى كل جيل يميل بعضهم إلى الانتقام من بعض لنيل هذه الدنيا ومظاهرها الكاذبة فلما رأوا جد السلطان فى إبادة القوم سعى بعض الناس ببعض وأحب وصمه بالإلحاد لما بينهما من العداوة ولم يبق للناس فى هذا المصائب رأى ولا تدبير .

لما اشتد أمر الباطنية وقويت شوكتهم وكثر عددهم صار بينهم وبين أعدائهم دخول وإحتراب فلما قتلوا جماعة من الأمراء الأكابر وكان أكثر من قتلوا ممن هو فى طاعة السلطان محمد أخى بركياروق مثل شحنة أصبهان وغيره نسب أعداء بركياروق ذلك إليه واتهموه بالميل إليهم فلما ظفر السلطان بركياروق وهزم أخاه محمداً انبسط جماعة منهم فى العسكر واستغفروا كثيراً منهم وأدخلوهم فى مذهبهم وكادوا يظهرون بالكثرة والقوة وحصل بالعسكر منهم طائفة من وجوههم وزاد أمرهم فصاروا يتهددون من لا يوافقهم بالقتل فصار يخافهم من يخالفهم حتى لم يجسر أحد من مخالفهم لا أمير ولا مستقدم على الخروج من منزله

حاسراً بل يلبس تحت ثيابه درعاً واستأذن السلطان بركياروق خواصه فى الدخول عليه بسلاحهم وعرفوه خوفهم من الباطنية وأشاروا على السلطان أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافى أمرهم وأعلموه ما يتهمه الناس به من الميل إلى مذهبهم حتى أن عسكر أخيه السلطان محمد يشنعون بذلك وكانوا فى المصاف يكبرون ويقولون يا باطنية فاجتمعت هذه البواعث كلها فأذن السلطان فى قتلهم والفتك بهم وركب هو والعسكر معه وطلبوهم وأخذوا جماعة منهم ولم يفلت منهم إلا من لم يعرف وأخرج الجماعة المتهمون إلى الميدان فقتلوا وقتل معهم جماعة برآء لم يكونوا منهم سعى بهم أعداؤهم. ومن الغريب أنه قد اتهم بتلك التهمة الكيا الهراسى مدرس النظامية ورفيق الغزالى فى الطلب والتلمذة لإمام الحرمين فأمر السلطان محمد فقبض عليه فأرسل الخليفة المستظهر بالله من استخلصه وشهد له بصحة الاعتقاد وعلو الدرجة فى العلم فأطلق.

وفى (سنة ٤٩٤) جمع الأمير بزغش وهو أكبر أمير مع السلطان سنجر جموعاً كثيرة وقواهم بالمال والسلاح وسار إلى بلد الإسماعيلية فنهبه وخربه وقتل فيهم فأكثر وحصر طبرستان وضيق عليها ورمائها بالمنجنيق فخرّب كثيراً من سورها وضعف من بها ولم يبق إلا أخذها فأرسلوا إليه الرشا الكثيرة واستنزوه عما كان يريد منهم فرحل عنهم وتركهم فأعادوا عمارة ما انهدم من سورها وملأوها ذخائر من سلاح وأقوات وغير ذلك ثم عاد إليهم (سنة ٤٩٧) بجمع فيه كثير من المتطوعين فخرّب طبرستان وما جاورها من القلاع والقرى وأكثر فيهم القتل والنهب والسبى وفعل بهم الأفعال العظيمة ثم إن أصحاب سنجر أشاروا بأن يؤمنوا ويشترط عليهم أنهم لا يبنون حصناً ولا يشترون سلاحاً ولا يدعون أحداً إلى عقائدهم فسخط كثير من الناس هذا الأمان وهذا الصلح ونعوه على سنجر ثم توفى بزغش بعد عوده من هذه الغزاة.

وكان تركهم بعد هذا التضيق عليهم داعياً إلى اشتداد قوتهم وقوة شوكتهم بعد ذلك ومن جملة أفعالهم الخبيثة أن قفل الحاج تجمع هذه السنة مما وراء النهر وخراسان والهند والشام وغيرها من البلاد فوصلوا على جوارى الرى فأتاهم الباطنية وقت السحر فوضعوا فيهم السيف وقتلوه كيف شاءوا وغنموا أموالهم ودوابهم ولم يتركوا شيئاً.

وفى (سنة ٥٠٠) رأى السلطان محمد ما وصل إليه أحمد بن عبد الملك بن عطاش من القوة والهيبة فإن أمره استفحل بالقلعة التى ملكها بجوار أصبهان وكان يرسل أصحابه لقطع الطريق وأخذ الأموال وقتل من قدروا على قتله فقتلوا خلقاً كثيراً لا يمكن إحصاؤه وجعلوا له على القرى السلطانية وأملاك الناس ضرائب يأخذونها ليكفوا عنها الأذى فتعذر

بذلك انتفاع السلطان بقراه والناس بأملاكهم ونسى أمر الباطنية بالخلف الواقع بين السلطانيين
بركياروق وأخيه محمد فلما صفت السلطنة لمحمد لم يكن عنده أمر أهم من قصد الباطنية
وحربهم والانتصاف للمسلمين من جورهم وعسفهم فرأى البداية بقلعة أصبهان التي
بأيديهم لأن الأذى بها أكثر وهي متسلطة على سرير ملكه فخرج إليهم بنفسه فحاصره
وصعد جبلاً يقابل القلعة من غربيها ونصب له التخت بأعلاه واجتمع له من أصبهان
وسوادها لحربهم الأمم العظيمة للدخول التي يطالبونهم بها وأحاطوا بجبل القلعة ودوره
أربعة فراسخ ورتب الأمراء لقتالهم فكان يقاتلهم كل يوم أمير فضاك الأمر بهم واشتد
الحصار عليهم وتعذرت عندهم الأقوات ولما اشتد الأمر عليهم كتبوا فتوى فيها (ما يقول
السادة الفقهاء أئمة الدين في قوم يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن ما جاء به
محمد ﷺ حق وصدق وإنما يخالفون الإمام هل يجوز للسلطان مهادنتهم وموادعتهم وأن
يقبل طاعتهم ويحرسهم من كل أذى) فأجاب أكثر الفقهاء بجواز ذلك وتوقف بعضهم
فجمعوا للمناظرة ومعهم أبو الحسن علي بن عبد الرحمن السمعاني وهو من شيوخ
الشافعية فقال بمحضر من الناس يجب قتالهم ولا يجوز إقراهم بمكانهم ولا ينفعهم التلطف
بالشهادتين فإنهم يقال لهم أخبرونا عن إمامكم إذا أباح لكم ما حظره الشرع أوحظر عليكم
ما أباحه الشرع أتقبلون أمره فإنهم يقولون نعم وحيثنذ تباح دماؤهم بالإجماع وطالت
المناظرة في ذلك ثم إن الباطنية سألوا السلطان أن يرسل إليهم من يناظرهم وعينوا لذلك
أشخاصاً من العلماء منهم القاضي أبو العلاء صاعد بن يحيى شيخ الحنفية بأصبهان وقاضيتها
وغيره فصعدوا إليهم وناظروهم وعادوا كما صعدوا وإنما كان قصدهم التعلل والمطالبة فليج
حيثنذ السلطان في حصرهم فلما رأوا منه عين الجد أذعنوا إلى تسليم القلعة على أن يعطوا
عنها قلعة خالنجان وهي على سبعة فراسخ من أصبهان وقالوا إنا نخاف على دماننا وأموالنا
من العامة فلا بد من مكان نحتمى فيه فأشير على السلطان بإجابتهم إلى ما طلبوا فسألوا أن
يؤخرهم إلى النوروز ليرحلوا إلى خالنجان ويسلموا قلعتهم وشرطوا ألا يسمع فيهم قول
متصح وإن قال أحد عنهم شيئاً سلمه إليهم وأن من آتاه منهم رده إليهم فأجابهم إليه
وطلبوا أن يحمل إليهم من الإقاة ما يكفيهم يوماً فاجيبوا وكان قصدهم المطالبة
انتظاراً لفتن أو حادث يتجدد ورتب لهم وزير السلطان ما يحمل إليهم كل يوم من الطعام
والفاكهة وجميع ما يحتاجون إليه فجعلوهم يرسلون ويتاعون من الأطعمة ما يجمعونه
ليمتنعوا في قلعتهم ثم إنهم وضعوا من أصحابهم من يقتل أميراً كان يبالغ في قتالهم فوثبوا
عليه فجرحوه وسلم منهم وحيثنذ أمر السلطان بإخرا ب قلعة خالنجان ودد الحصار عليهم
فطلبوا أن ينزل بعضهم ويرسل السلطان معهم من يحيمهم إلى أن يصلوا إلى قلعة الناظر

بارجان وهى لهم وينزل بعضهم ويرسل معهم من يوصلهم إلى طبس وأن يقيم باقيهم فى ضرس من القلعة إلى أن يصل إليهم من يخبرهم بوصول أصحابهم فينزلون حيثذ ويرسل معهم من يوصلهم إلى ابن الصباح بقلعة الموت فأجيبوا إلى ذلك فنزل جماعة إلى قلعة الناظر وطبس وصل منهم من أخبر ابن عطاش بوصولهم فلم يسلم السن الذى بقى بيده وبان للسلطان منه الغدر فقرر الزحف عليه فزحف الناس كافة عليه وكان قد قل عنده من يمنع ويقاقل فظهر منهم صبر عظيم جداً وشجاعة زائدة وكان قد استأمن إلى السلطان إنسان من أعيانهم فدلّه على عورة لهم فأتى بهم إلى جانب لذلك السن لا يرام فقال اصعدوا من هنا فقل إنهم ضبطوا هذا المكان وشحنوه بالرجال فقال إن الذى ترون أسلحة وكراغندات جعلوها كهيئة الرجال لقتلهم عندهم وكان جميع من بقى ثمانين رجلاً فزحف الناس من هناك وملكوا الموضع وقتل أكثر الباطنية واختلط جماعة منهم مع من خرجوا معهم وأما ابن عطاش فأخذ أسيراً فترك أسبوعاً ثم قتل هو وولده ومثل بهما وحملت رؤوسهما إلى بغداد والقت زوجته نفسها من رأس القلعة فهلكت وكانت مدة البلوى بابن عطاش اثنتى عشرة سنة.

وكما اهتم بأمر ابن عطاش وقعلته كذلك اهتم بأمر الحسن بن الصباح صاحب قلعة الموت وما معها فقد كان يعلم أن مصالح البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم وإخرا بديارهم وملك وحصونهم وقلاعهم فجعل قصدهم دأبه وكانت أيام ابن الصباح قد طالت وله منذ ملك قلعة الموت ما يقارب ستاً وعشرين سنة وكان المجاورون له فى أقبح صورة من كثرة غزواته لهم وقتله وأسره رجالهم وسبى نساءهم فسير إليهم السلطان العساكر ولكنها لم تبلغ منه غرضاً ولما أعضل داؤه ندب لقتاله الأمير أنوشتكين شيركير صاحب آية وسادة وغيرهما فملك منهم عدة قلاع وكان كلما ملك قلعة سير بمن فيها إلى الموت ولما تهيأت له الجنود وأمدّه السلطان بعدة من أمرائه سار إلى قلعة الموت فحصرها وكان أنوشتكين من بين أولئك الأمراء صاحب القريحة والبصيرة فى قتالهم مع جودة رأى وشجاعة فبنى عليها مساكن يسكنها هو ومن معه وعين لكل طائفة من الأمراء أشهراً يقيمونها فكانوا يغيبون ويحضرون وهوملازم الحصار وكان السلطان ينقل إليه الميرة والذخائر والرجال فضا ق الأمر على الباطنية وعدمت عندهم الأقوات وغيرها فلما اشتد عليهم الأمر أنزلوا نساءهم وأبناءهم مستأمنين ويسألون أن يفرج لهم ولرجالهم عن الطريق ويؤمنوا فلم يجابوا إلى ذلك وأعادهم إلى القلعة قاصداً أن يموت الجميع جوعاً وكان ابن الصباح يجرى على كل رجل منهم فى اليوم رغيفاً وثلاث جوزات فلما بلغ بهما الأمر إلى هذا الحد الذى لا مزيد عليه بلغهم موت السلطان محمد فقويت نفوسهم وطابت قلوبهم ووصل الخبر إلى العسكر المحاصرة لهم

بعدهم يوم فعزموا على الرحيل فقال لهم شيركير إن رحلنا عنهم وشاع الأمر نزلوا إلينا وأخذوا ما أعددنا من الأقوات والذخائر والرأى أن نقيم على قلعته حتى نفتحها وإن لم يمكن المقام ولا بد من مقام ثلاثة أيام حتى ينفذ منا ثقلنا وما أعددنا ونحرق ما نعجز عن حمله لئلا يأخذ العدو فلما سمعوا قوله أجابوه ولكنهم لما أمسوا رحلوا من غير مشاورة فتبعهم شيركير فغنم الباطنية ما تخلف عندهم.

هذا حالهم وما أثاروه من الفتن والنكبات إلى وفاة السلطان محمد بن ملكشاه وسنذكر بعد خاتمة أمرهم.

خطر المغرب:

كما كان اختلاف آل سلجوق وتفرق كلمتهم سبباً لنكبتهم بالباطنية كذلك كان سبباً لنكبتهم من المغرب باخروب الصليبية وليس غرضنا الآن أن نشرح هذه الخروب شرحاً وافياً فإنها حوادث أجيال إذ قد استمر أمرها من (سنة ٤٩٠) إلى (سنة ٦٩٠) أي قرنين كاملين اشترك فيها من الدولة الإسلامية الفاطمية بمصر ودولة السلاجقة ودول الأتابكية التي تفرعت عن السلاجقة ودول الأيوبية ودولة المماليك البحرية بمصر ولما كنا الآن في اقتصاص أحوال آل سلجوق نسوق من أخبار هذه الخروب ما ارتبط بتاريخهم.

امتد سلطان السلاجقة إلى بلاد الروم (أرمينية والأناضول) وتأسست هناك دولة سلجوقية عظيمة الشأن بقونية وأقصرا وما إليهما وأخذوا بمخنق الروم فقصدوا كل حيلة في سترداد ما أخذ منهم لقوة الهاجمين وخافوا على ما بقى لهم من الملاك في آسيا. وكان ملك السلاجقة الروميين في أيام تلك الحوادث السلطان قليج أرسلان داود بن قتلмыш (٤٨٥-٥٠٠).

وكذلك امتد على بلاد سوريا وتأسست لهم بها دولة حاضرتها دمشق وكان سلطانها في هذه الحوادث السلطان رضوان بن تتش بن ألب أرسلان وكان بينه وبين أخيه دقاق بن تتش حروب سببها المنافسة في الملك.

وكان خليفة مصر الفاطمي هو المستعلى بالله أبو القاسم أحمد بن المستنصر (٤٨٧-٤٩٥).

كان بيت المقدس مما ملكه تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان مؤسس الدولة السلجوقية بسوريا فأقطعه للأمير سقمان بن أرتق التركماني فاستمر في حوزته إلى (سنة ٤٨٩) وهي سنة التي سار فيها الصليبيون قاصدين في الظاهر الاستيلاء عليه وتخليصه من أيدي هؤلاء لغتصبيين.

وقد اضطربت كلمة المؤرخين من العرب فى السبب الذى حد بأولئك المغيرين إلى الخروج من بلادهم بهذه الشدة والكثرة فقال فريق منهم إن هذه الحملة كانت فى الأصل موجهة إلى شمال أفريقية وكانت إذ ذاك تحت يد الدولة الزيرية والقائم بالأمر فيها تميم بن المعز بن باديس (٤٥٣-٥٠١) وكان رجار الصقلى قد قام فى عهده واستولى على صقلية وحارب تيمماً فى عقر داره حروباً كانت بينهما سجالات ولما بلغ رجار ما عزم عليه الصليبيون لم يعجبه لأنه قال إذا وصلوا إلى أحتاج إلى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم إلى أفريقية وعساكر من عندى أيضاً فإن فتحوا البلاد كانت لهم وصارت المؤنة لهم من صقلية وتنقطع عنى ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة وإن لم يفلحوا رجعوا إلى بلادى وتأذيت بهم ويقول تميم غدرت ونقضت عهدى وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا وبلاد أفريقية باقية لك متى وجدنا قوة أخذناها ومن أجل ذلك أشار على هؤلاء المتحمسين بقصد بيت المقدس لأن الجهاد فى تخليصه أعظم أثراً وأبقى فخراً.

وقال فريق آخر إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام إلى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم وقد دخل بعضهم فعلاً إلى بلاد مصر لما رأوا ذلك خافوا وأرسلوا إلى الإفرنج يدعونهم إلى الشه ليملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين.

وقال فريق من غيرهم إن ملك الروم هو الذى دعا الإفرنج إلى ذلك لما خاف على دونه من السلاجقة فإنهم كما أخافوا المصريين أخافوا الروم فكل من الفريقين خائف وجل.

والذى عليه جمهور المؤرخين أن الغيرة الدينية التى أثارها فى أوروبا بطرس الراهب بمساعدة البابا أوربانس الثانى هى التى أهاجت أنفُس الإفرنج لهذه الإغارة.

وكل هذه الأسباب لا يبعدها العقل ولا يبعد أن يكون بعضها قد ساعد بعضاً والإفرنج يميلون إلى جعلها حرباً دينية لا سياسية أثار غبارها ما كان من حمية الجاهلية فى ذلك العصر.

زار بطرس الراهب البيت المقدس فعز عليه ما رآه من ملك المسلمين لهذا البيت الذى فيه أثار المسيح عليه السلام فعاد إلى أوروبا شاكياً باكياً مستغيثاً متضرعاً واستعان بسلطان أيد أوربانس الثانى الذى كان إذ ذاك صاحب الكلمة العليا فى أوروبا فأعانه وعقد المؤتمرات لبث الحمية الدينية فى قلوب المسيحيين فنجح فى ذلك ولا سيما أنه أعطى امتيازات لها قيمة لمن يتطوع فى هذه الحرب فتألفت جيوش عظيمة سارت إلى طلبتها فى (٢٥ أغسطس ١٠٩٦) (٤٨٩) يقدمها بطرس الراهب وغيره إلا أن هذه الحملة لم تنجح فى مسيرها لأنها

لم تكن ذات نظام عسكري فعاثت فى الأرض فساداً فقاومها البلغاريون واليهونفريون وأفنوا كثيراً منها والذين تخلصوا وجازوا البحر عند القسطنطينية إلى آسيا أخذتهم سيوف السلطان قليج أرسلان عند قونية فلم ينج منهم أحد وهذه هى الحملة الأولى من الحرب الصليبية الأولى قامت على أثرها حملة أخرى وهى الحملة الثانية يقدمها غودا فرودى بوليون دوق دى لورين السفلى ومعه عدد وافر من قواد فرنسا والنمسا وجيش آخر يقدمه هوكرز أخو ملك فرنسا ومعه عدد من القواد وجيش ثالث يقدمه بوهيمند أمير تارنت الإيطالى .

سارت هذه الجيوش ومرت بالقسطنطينية بعد خطوب نالتهم من ملك الروم اليكسيوس ثم عبرت المجاز قاصدة مدينة قونية التى كانت من أعمال قليج أرسلان وعددهم عظيم جداً فلقبهم ذلك السلطان مدافعاً عن ملكه فتغلب عليه الصليبيون لكثرة عددهم ثم حصروا قونية نحو خمسين يوماً وفى نهايته سلمت حامية هذه المدينة لكنها لم تسلم للصليبيين بل سلمت قائد ملك الروم الذى أرسل مع الصليبيين لهذه الغاية وكان هذا العمل سبباً لغيظ قوادهم أصاب هذا الجيش بعد ذلك نكبات شديدة جداً فى مسيره ففنى كثير منه بالحرب والجوع والتعب والأوبئة والاختلاف الكثير بين القواد الذين كان لكل منهم مقصد فى العلو والرفعة وقد انفصل عنهم وهم سائرون أحد القواد وهو بودوين وسار إلى الجزيرة الفراتية فامتلك مدينة الرها وكانت للروم إذ ذاك .

صار القوم إلى أنطاكية وكان حاكمها أحد قواد السلجوقية باغيسيان فحاصروها تسعة أشهر وظهر من شجاعة باغيسيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره فهلك أكثر الإفرنج وبعد هذا الحصر استولوا على المدينة بخيانة أحد المستحفظين للأبراج الذى بذل له الإفرنج مالاً وأقطاعاً وكان الإفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق: إننا لا نقصد غير البلاد التى كانت للروم لا نطلب سواها وإنما فعلوا ذلك معهم حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية وقد كان ما أرادوا . سار الإفرنج بعد ذلك إلى معرة النعمان فامتلكوها .

كان البيت المقدس فى تلك الأيام قد خرج من حوزة السلاجقة وامتلكه المصريون فإنهم لما علموا بما أصاب الأتراك على أنطاكية أرسلوا جيشاً يقدمه الأفضل بن بدر الجمالى فاستولى عليه من يد الأمير لقمان بن أرتق التركمانى واستتاب فيه رجلاً يعرف بافتخار الدولة وهو الذى تلقى حملة الصليبيين الذين حضروا إليه بعد أن حصروا عكا ولم يقدروا على فتحها . حصروا بيت المقدس نيفاً وأربعين ليلة وأخيراً استولوا عليه فى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان (سنة ٤٩٢) ولم يكن منهم ما يحمد عليه المحارب الشجاع بل أساءوا معاملة أهله وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وورد المستنفرون من الشام فى رمضان إلى بغداد صحبة

القاضي أبي سعيد الهروي فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا والسلطانان السلجوقيان بركياروق ومحمد إذ ذاك يتطاحنان يريد كل منهما الانفراد بالملك وإقصاء أخيه عنه .

ولما تم للإفرنج ما طلبوا من الاستيلاء على البيت المقدس انتخبوا القائد غودافر ليكون ملكاً هناك ولكنه لم يرض أن يلقب بلقب ملك بل بحامي قبر المسيح وأقام معه بعض الجنود ورحل سائرهم إلى أوطانهم .

وضع غودافر قانوناً لإدارة مملكته الجديدة إلا أن زمنه لم يطل فإنه توفي في (١٨ يوليوسنة ١١٠٠) فأقيم مقامه بودوين ملك الرها وشقيق غودافر وأعلم بذلك فقبله وأقام بدله في ملك الرها ابن عمه بودوين دى بورغ ملكاً على الرها وسار هو إلى حاضرة ملكه وهو المعروف في التواريخ العربية باسم بردويل . هكذا وجدت مملكة إفرنجية في وسط أملاك المسلمين لأول مرة ولم يتركها المسلمون براحة بال ولا هي تركتهم بل كانت الحروب متصلة بين الطرفين: المصريون يناوشونهم من الجنود والأتراك من الشرق . ولم تكن المملكة الإفرنجية واحدة في البلاد التي استولوا عليها بل كانت جملة ممالك مملكة القدس وأنطاكية والرها وغير ذلك إلا أن المملكة الكبرى كانت مملكة القدس . وستكلم في حوادثها عند ظهور الدولة الأتابكية والدولة الأيوبية اللتين أجمتا نار الحرب مع هؤلاء الإفرنج .

المسترشد بالله

هو أبو منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر ولاء أبوه بالعهد فبويج بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه والده (١٦) ربيع الآخر (سنة ٥١٣) (٧ أغسطس سنة ١١١٨) واستمر خليفة إلى أن قتل في يوم الأحد (١٧) ذي القعدة (سنة ٥٢٩) (٣٠ أغسطس سنة ١١٣٥).

كان سلطان العراق لأول عهده هو السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وكان السلطان سنجر بن ملكشاه في ذلك الوقت ملك خراسان وما إليها من بلاد ما وراء النهر إلى غزنة وخوارزم وقد عظمت دولته وهوشيوخ البيت السلجوقي وعظميه. فلما توفي أخوه محمد وجلس ابن أخيه محمود وهو زوج ابنته لحقه لوفاة أخيه حزن أليم وجزع وجلس للعزاء على الرماد وتقدم الخطباء يذكرون السلطان محمداً بمحاسن أعماله من قتال الباطنية وإطلاق المكوس وغير ذلك وكان يلقب ناصر الدين فلما توفي أخوه تلقب معز الدين وهولقب أبيه ملكشاه وعزم على قصد الجبل والعراق وما بيد ابن أخيه محمود. ثم إن السلطان محموداً أرسل إلى عمه سنجر وفداً معه الهدايا والتحف وطلب إليه أن ينزل له عن مازندران فغاضه هذا الطلب وقال إن ولد أخى صبي وقد تحكم عليه وزيره وحاجبه وصمم على المسير فसार وكذلك فعل السلطان محمود والتقى عند الرى بالقرب من ساوة وكان العسكر المحمودى قد استهان بالعسكر السنجري لكثرة الأولين وشجاعتهم وكثرة خيلهم ولما حصل اللقاء انهزمت ميمنة سنجر وميسرته وسارت جنودهما لا تلوى على شئ أما سنجر فكان واقفاً في القلب وأمامه السلطان محمود وقد أشار بعض المقرئين من سنجر عليه أن ينهزم فقال: إما النصر وإما القتل وأما الهزيمة فلا، وهجم بفيلته على قلب محمود هجوماً شديداً فتراجعت خيل محمود على أعقابها وكان بذلك هزيمة السلطان محمود ولما تم النصر لسنجر أرسل من رد المنهزمين من جنده. ورد الخبر إلى بغداد في عشرة أيام فأشير على الخليفة بالخطبة للسلطان سنجر ففعل. أما محمود فإنه سار إلى أصبهان ومعه وزيره وبعض أمرائه وأما سنجر فसार

إلى همدان وهناك راسل ابن أخيه الصلح وكانت والدته سنجر تشير عليه بذلك وتقول قد استوليت على غزنة وأعمالها وما وراء النهر وملكت ما لأحد قدر عليه وقررت الجميع على أصحابه فاجعل ولد أخيك كأحدهم فأجاب إلى قولها وبعد مطاولات تقرر الصلح وسار محمود إلى عمه سنجر ونزل على جدته أم السلطان سنجر وأكرمه عمه وبالف في إكرامه وحمل له محمود هدية عظيمة فقبلها ظاهراً وردّها باطناً ولم يأخذ منه سوى خمسة أفراس عربية وكتب السلطان سنجر إلى جميع عماله أن يخاطب لمحمود من بعده حيث جعله ولي عهده ورد عليه جميع ما أخذ منه سوى الرى .

ولم يكد السلطان محمود ينتهى من هذا النزاع بينه وبين عمه حتى قام ضده أخوه مسعود بن محمد وكان لمسعود حينئذ الموصل وأذربيجان وذلك (سنة ٥١٤) وقد أجمع الأمراء نار هذا الخلاف لينالوا من وراء ذلك حظوظهم ولا يبالون بالملكة الإفرنجية التى صارت شوكة فى جنوبهم وكان وزير مسعود هو الأستاذ أبوإسماعيل الحسين بن على الأصفهاني وهو الذى حسن لمسعود أن يقوم مطالباً بالملكة ولما بلغ ذلك محموداً كتب إليهم يخوفهم إن خالفوه ويعدّهم الإحسان إن أقاموا على طاعته وموافقته فلم يصغوا إلى قوله وأظهروا ما كانوا عليه وما يسرونه وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة وضربوا له النواب الخمس ثم سار كل منهم إلى لقاء صاحبه فالتقوا عند عقبة أسدأباز واقتتلوا من بكرة إلى آخر النهار وأبلى الجنود المحمودية بلاء حسناً فانهمز عسكر مسعود آخر النهار وأسر جماعة من مقدمى جنودهم ومنهم الوزير أبوإسماعيل الطغراني فأمر السلطان بقتله وقال قد ثبت عندى فساد دينه واعتقاده وكان حسن الكتابة والشعر .

ثم أرسل محمود وراء أخيه من لحقه وأتى به بعد أن بذل له الأمان فاستقبله استقبالا عظيماً ووفى له بما بذله وخلطه بنفسه فى كل أفعاله فعُد ذلك من مكارم محمود ولا عجب فقد علمه سنجر .

كان الخليفة المسترشد بالله فى هذا العصر قد استرد شيئاً من نشاط العباسيين وقاد الجيوش بنفسه لحرب المخالفين عليه وأهمهم ديبس بن صدقة ملك الحلة ولم يكن للخلفاء عهد بذلك منذ زمن طويل ولا شك أن الملوك السلجوقيين لا يقع ذلك عندهم موقع الاستحسان فإنهم يتخوفون عاقبته ويرون فيه خطراً على نفوذهم ومما يدل على ذلك منحه قوة لم تكن لسلفه أن شحنة بغداد برنقش الذكوى حصل بينه وبين نواب الخلافة نفرة فتهدده الخليفة فخاف فسارعن بغداد إلى السلطان محمود وشكا إليه وحذره جانب الخليفة وأعلمه أنه قاد العساكر ولقى الحروب وقويت نفسه ومتى لم تعاجله بقصد العراق ودخول

بغداد ازداد قوة وجمعاً ومنعك عنه وحينئذ يتعذر عليك ما هو الآن بيده فآثر ذلك الكلام فى نفس السلطان وتوجه نحو العراق فأرسل إليه الخليفة يعرفه بالبلاذ وما عليه أهلها من الضعف والوهن وأن الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات والأقوات لهرب الأكرة ويطلب منه أن يؤخر حضوره حتى تصلح الأحوال وبذل له على ذلك مالا كثيراً فكان هذا مما زاد فى إغراء السلطان حتى قصد بغداد فصار مجداً ولما بلغ الخليفة الخبر أظهر الغضب والنزوح عن بغداد واستعد لذلك إن جاء السلطان فآثر ذلك فى أنفس العامة تأثيراً عظيماً حتى أكثروا البكاء والضجيج ولما أعلم السلطان بذلك أرسل يستعطف الخليفة ويطلب إليه العودة إلى داره فأبى إلا أن يعود السلطان ولا يحضر إلى بغداد فلم يلتفت السلطان إلى قوله واستمر قاصداً بغداد أما الخليفة فاستعد لمقابله بالقوة وكان معه كثير من العامة والجنود يدافعون عنه تديناً وقد حصلت مفاوضات بين الفريقين فى أول (سنة ٥٢١) وكان مع كل جمع عظيم ولما رأى المسترشد بالله ذلك جنح إلى الصلح الذى طلبه السلطان محمود فتم ذلك وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان بإحراق بغداد فلم يفعل وقال لا تساوى الدنيا فعل مثل هذا وأقام ببغداد إلى رابع شهر ربيع الآخر (سنة ٥٢١) ثم فارقتها بعد أن حمل إليه الخليفة الخلع والدواب الكثيرة.

وفى (سنة ٥٢٤) ملك السلطان محمود قلعة الموت من يد صاحبها الحسن بن الصباح.

وفى (سنة ٥٢٥) توفى السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وكان حليماً كريماً عاقلاً يسمع ما يكره ولا يعاقب عليه مع القدرة قليل الطمع فى أموال الرعايا عفيفاً عنها كافاً لأصحابه عن التطرق إلى شئ منها.

لما توفى خطب لولده داود بالسلطنة فى بلاد الجبل وأذربجان إلا أنه قام ضده ابن عمه السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه فكان الظفر لمسعود وخطب له بالسلطنة على منابر بغداد إلا أن هذا لم يرق لعميد البيت ورثيه السلطان سنجر فأقبل من خراسان قاصداً دفع مسعود عن السلطنة وسار إليه مسعود فالتقى ببولان عند الدينور وكانت النتيجة أن انهزم مسعود وفل جيشه وتحكم سنجر فيما بقى ثم أرسل وراء ابن أخيه من يردّه إليه فلما حضر عنده قبله وأكرمه وعاتبه على عصيانه ومخالفته ولم يعده إلى السلطنة بل رده إلى كتجه وأجلس الملك طغرک ابن أخيه محمد مكانه وخطب له فى جميع البلاد ثم عاد إلى نيسابور فلما رأى ذلك مسعود خرج من مكمنه وتوجه إلى بغداد ثانياً بما جمعه من الجيوش فدخلها فقابله الخليفة بالإكرام ووعدّه أن يرسل معه جيشاً لمحاربة طغرک وقد وفى بما وعد فسارت الجنود المسعودية صوب طغرک حتى التقوا به عند همذان فكانت بينهما موقعة انهزم فيها طغرک واستقر الأمر ثانية للسلطان (غياث الدنيا والدين أبى الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه).

كان هذا الخلاف بين البيت السلجوقي مقوياً للمسترشد فصار يعد نفسه صاحب الأمر الذى يجب أن يطاع لا بالقوة المعنوية وحدها بل بقوة السيف أيضاً. فقد صار تحت أمره أجناد ورجال يلبون دعوته وينفذون كلمته وقد حصل بسبب ذلك نفرة بينه وبين السلطان مسعود أدت إلى أن أمر الخليفة بقطع خطبة مسعود من منابر بغداد ولم يقف عند ذلك بل تجهز بجيشه يريد حرب مسعود بدار سلطنته ومعه الجنود الكثيرة إلا أنها لم تكن ذات عصبية تصدق عند اللقاء فإن العصبية الجنسية غلبة مهما كانت الأحوال ولذلك لما التقى الطرفان انحاز كثير من عسكر الخليفة الأتراك إلى السلطان مسعود فانهزم جند الخليفة أما هو فبقى ثابتاً حتى أسر ولما بلغ ذلك الخبر بغداد قامت قيامة أهلها وخرجوا من الأسواق يحشون التراب على رؤوسهم ويكون ويصيحون وخرجت النساء حاسرات فى الأسواق يلطمن.

أما الخليفة فقد جعله السلطان فى خيمة ووكل به من يحفظه وقام بما يجب من خدمته وترددت الرسل بينهما فى تقرير قواعد الصلح على مال يؤديه الخليفة وألا يعود إلى جمع العساكر وألا يخرج من داره فأجيب إلى ذلك ولم يبق إلا أن يعود الخليفة إلى بغداد إلا أنه صادف أن هجم على خيمة الخليفة جماعة من الباطنية فقتلوه ومثلوا به وكان ذلك فى يوم الأحد (١٧) ذى القعدة على باب مدينة مراغة وكان المسترشد شهماً شجاعاً كثير الإقدام بعيد الهمّة وكان فصيحاً بليغاً حسن الخط. قال ابن الأثير: ولقد رأيت خطه فى غاية الجودة ورأيت أجوبته على الرقاع من أحسن ما يكتب وأفصحه: ولقد حاول أن يعيد شيئاً من مجد أهل بيته فحالت الأقدار بينه وبين ما أردا.

الراشد بالله

ببيع بالخلافة بعد المسترشد بالله ابنه أبوجعفر المنصور الراشد بالله وكان ولي العهد فلما مات أبوه جددت له البيعة في (٢٧) من ذى القعدة وكتب السلطان إلى شحنة بغداد بالبيعة له وحضر بيعته (٢١ رجلاً) من أولاد الخلفاء.

ولم يكن السلطان مسعود مع الراشد أسعد حظاً من أبيه معه، بل حاول الراشد أن يثار لأبيه ويخل سلطنة مسعود فاتفق مع داود ابن السلطان محمود أخى مسعود ومع كثير من أمراء الأطراف على مقاومة مسعود وخلعه. ولما سمع بذلك مسعود أقبل مسرعاً صوب بغداد ولما وصلها حصرها لامتناع الخليفة ومن معه بها ولكن سرعان ما اختلفت كلمة الأمراء الذين حالفوا الخليفة وتفرقوا تاركين بغداد حتى أكبرهم شأناً عماد الدين زنكى صاحب الموصل ولما رأى الخليفة ذلك بارح بغداد فى رفقة عماد الدين ولما رأى مسعود ذلك دخل بغداد ظافراً وأمر فجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرضوا عليهم اليمين التى حلف الراشد بالله لمسعود وفيها بخط يده إني متى جندت أوخرجت أولقيت أحداً من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسى من الأمر. فافتوا بخروجه من الخلافة. وكانت خلافته (١١ شهراً و١١ يوماً).

المقتضى لأمر الله

هو أبو عبد الله الحسين المقتضى لأمر الله بن المستظهر، اختاره السلطان مسعود للخلافة بعد أن كتب محضراً بخلع ابن أخيه الراشد من الخلافة وكانت بيعته في ثامن ذي الحجة (سنة ٥٣٠) (٧ سبتمبر سنة ١١٣٦) واستمر في الخلافة إلى أن توفي ثاني ربيع الأول (سنة ٥٥٥) (١٢ مارس سنة ١١٦٠) فكانت خلافته (٢٤ سنة) وثلاثة أشهر و١٦ يوماً وكان عمره إذ توفي (٦٦ سنة).

ولما بايع السلطان المقتضى صاهره فزوجه أخته فاطمة على صداق مائة ألف دينار وبذلك أمن السلطان أن يكون الخليفة ضده. وقد حاول الخليفة المعزول أن يعيد لنفسه الخلافة فاتحد مع الملك داود ابن السلطان محمود ولكنه مع ما بذله من المجهود العظيم لم ينجح فقد اتتمر به جماعة من الباطنية فسقوه الردي بنواحي أصفهان.

استمر السلطان مسعود في سلطانه مع كثرة المخالفين والخارجين عليه من أهل بيته ومن أمرائه إلى أن توفي (سنة ٥٤٧) بهمذان وذلك على رأس مائة سنة من الخطبة ببغداد للسلطان طغرل بك، وماتت مع مسعود سعادة البيت السلجوقي فلم تقم له بعده راية يعتد بها ولا يلتفت إليها. وكان رحمه الله حسن الأخلاق كثير المزاح والتبسط مع الناس وكان كريماً عفيفاً عن أموال الرعية حسن السيرة فيهم. من أصلح السلاطين سيرة وألينهم عريكة سهل الأخلاق وكان مسعود قد عهد بالسلطنة بعده لابن أخيه ملكشاه ابن السلطان محمود.

أما الخليفة فإنه لما بلغه وفاة مسعود طرد شحنة السلجوقية بها وأخذ داره ودور أصحاب السلطان ببغداد وأخذ كل مالهم فيها وكل من عنده وديعة لأحد منهم أحضرها بالديوان وجمع الرجال والعساكر وأكثر التجنيد وتقدم بإراقة الخمر من مساكن أصحاب السلطان وأرسل جنوده فاستولت على سائر البلاد العراقية الحلة وواسط وغيرها وخرج بنفسه ليقوى جنده.

أصبح ذلك الملك العظيم الذى أسسه طغرل بك وإخوته ورفع بنيانه ملكشاه أصبح نهياً تقاسمه دول شتى تعرف بالدولة الأتابكية وها نحن أولاء نقص حديثها.

الأتابكية

من الدولة التركية التى زاحمت دولة السلاجقة وسامتها الدولة الأتابكية وبيوتها شتى لا تنتهى إلى نسب واحد إلا أنها يجمعها الاتصال بالبيت السلجوقى . وأتابك كلمة تركية معناها مربى الملك فكان آل سلجوق إذا امتاز أحد قوادهم بهذا الامتياز أطلقوا عليه هذا اللقب واستحق به أعلى درجات التكريم والاحترام.

وقد وصل بعض هؤلاء الأتابكية إلى درجة الملك فى بعض الأقاليم الإسلامية وأورثوا أبناءهم ملكهم ويطلق على هؤلاء الأسر الأتابكية ومعهم دول يتسبون أيضاً إلى ولاء السلاجقة ولا يلقبون بهذا اللقب بل بلقب شاهات وسنوق أخبارها بالإجمال حسب ترتيب ظهورها.

١- شاهات خوارزم

ينسبون إلى محمد بن أنوشتكين وكان أبوه أنوشتكين مملوكاً لأمر من أمراء السلجوقيين اسمه بلكبك اشتراه من رجل من غرستان فقيل له أنوشتكين غرشمه فكبر وعلا أمره وكان حسن الطريقة كامل الأوصاف وكان مقدماً مرجوعاً إليه وولد له ولد سماه «محمدأ» وهو باني هذا البيت علمه أبوه وخرجه وأحسن تاديبه وتقدم بنفسه بالعناية الإلهية فولاه الأمير حبشى قائد بركياروق خوارزم ولقبه خوارز مشاه فقصر أوقاته على معدلة ينشرها ومكرمة يفعلها وقرب أهل العلم والدين فازداد ذكره حسناً ومحلّه علواً. ولما ملك السلطان سنجر خراسان أقر محمدأ خوارز مشاه على خوارزم وعمالها فظهرت كفايته وشهامته فعظم سنجر محلّه وقدره. ولم يزل على جلالة القدر والكفاية إلى أن توفى (سنة ٥٢١) فولى بعده ابنه أئسر فقربه السلطان سنجر وعظمه واعتضد به واستصحبه معه فى أسفاره وحروبه فظهرت منه الكفاية والشهادة فزاده تقدماً وعلواً ورسخت أقدام هذا البيت فى الملك وقد استمر إلى (سنة ٦٢٨) حيث زال على أيدي التتر الذين هاجموا البلاد الإسلامية بزعامة جنكيز خان كما سيأتى توضيحه؛ وهذا ثبت ملوك الخوارز مشاهية.

- ٣ - أئمز بن محمد - ٥٥١ -
 ٤ - أرسلان بن أئمز - ٥٦٨ -
 ٥ - سلطان شاه محمود بن أرسلان - ٥٦٨ -
 ٦ - تكش بن أرسلان - ٥٩٦ -
 ٧ - علاء الدين محمد بن تكش - ٦١٧ -
 ٨ - جلال الدين منكبرتي بن محمد - ٦٢٨ -

وعلى يد هذه الدولة انقضت دولة السلاجقة بخراسان وما إليها من بلاد الرى والجيل وما وراء النهر.

٢- الدولة الأرتقية

تنسب هذه الدولة إلى أرتق بن أكسب التركمانى وهو مملوك من ممالك السلطان ملكشاه السلجوقى وقائد من قواده .

وأول من أسس هذا البيت معين الدولة سقمان بن أرتق استولى على حصن كيفا (سنة ٤٩٥) من يد الأمير موسى التركمانى فى عهد السلطان بركياروق بن ملكشاه ثم ضم إليها ماردین .

وفى (سنة ٦٠٢) انقسمت هذه المملكة الصغيرة إلى مملكتين إحداهما بالحصن والثانية بماردین فأما مملكة الحصن فاستمرت إلى (سنة ٦٢٠) وانتهت على أيدي الأيوبيين - وأم مملكة ماردین فاستمرت إلى (سنة ٨١١) أى بعد ظهور آل عثمان بمائة وإحدى عشرة سنة وانتهت على يد قرة قيونلى وهذه أسماء ملوك الحصن :

- ١ - معين الدولة سقمان بن أرتق - ٤٩٥ - ٤٩٨
 ٢ - إبراهيم بن سقمان - ٥٠٢ -
 ٣ - ركن الدين داود بن سقمان - ٥٤٣ -
 ٤ - قمر الدين قره أرسلان بن داود - ٥٧٠ -
 ٥ - نور الدين محمد بن أرسلان - ٥٨١ -
 ٦ - قطب الدين سقمان بن محمد - ٥٩٧ -

- ٧ - ناصر الدين محمود بن محمد - ٦١٩ -
٨ - ركن الدين مودود بن محمود - ٦٢٠ -
وهذه أسماء ملوك ماردین:
١ - نجم الدين غازى بن أرتق - ٥٠٢ - ٥١٦
٢ - حسام الدين تيمور تاش بن غازى - ٥٤٧ -
٣ - نجم الدين ألبى بن تيمور تاش - ٥٧٢ -
٤ - قطب الدين غازى بن ألبى - ٥٨٠ -
٥ - حسام الدين يولق بن أرسلان بن غازى - ٥٩٧ -
٦ - ناصر الدين أرتق أرسلان بن غازى - ٦٣٧ -
٧ - نجم الدين غازى بن أرتق أرسلان - ٦٥٨ -
٨ - قره أرسلان بن غازى - ٦٦١ -
٩ - شمس الدين داود بن قره أرسلان - ٦٩٣ -
١٠ - نجم الدين غازى بن قره أرسلان - ٧١٢ -
١١ - شمس الدين صالح بن غازى - ٧٦٥ -
١٢ - المنصور أحمد بن صالح - ٧٦٩ -
١٣ - الصالح محمود بن أحمد - ٧٦٩ -
١٤ - المظفر داود بن صالح - ٧٧٨ -
١٥ - الظاهر مجد الدين عيسى بن داود - ٨٠٩ -
١٦ - صالح بن داود - ٨١١ -
وصالح هذا آخر ملك من موالى السلجوقين.

٣. أتابكية دمشق

ابتدأت هذه الدولة (سنة ٤٩٧) وأول ملوكها سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين وأصله

مملوك للملك تتش بن ألب أرسلان أول سلاجقة سوريا ثم صار من قواده الذين يعتمد عليهم وكان أتابك ولده دقاق. وبعد قتل تتش استمر مع ولده دقاق وكان سنده وظهيره فلما توفي دقاق (سنة ٤٩٨) خطب أتابك لولد له صغير وجعل اسم المملكة فيه سنة واحدة ثم قطع خطبته وخطب لبكتاش بن تتش عم هذا الطفل وله من العمر (١٢ سنة) وأشار عليه أن يقصد الرحبة فقصدها فملكها ولما عاد منها منعه طغتكين من دخوله دمشق وأعاد خطبة الطفل ولد دقاق. وقد حاول بكتاش أن يسترد ملكه واستعان على ذلك بملك الإفرنج في القدس فلم ينجح واستمر ملك دمشق لطغتكين فأحسن إلى الناس وبث فيهم العدل فسروا به سروراً كثيراً وقد استمر الملك في عقبه (٥٢ سنة) وانتهى على يد آل زنكى (سنة ٥٤٩) وهذا ثبت ملوكهم:

- ١ - سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين ٤٩٧ - ٥٢٢
- ٢ - تاج الملوك بوري ٥٢٦ -
- ٣ - شمس الملوك إسماعيل ٥٢٩ -
- ٤ - شهاب الدين محمود ٥٣٣ -
- ٥ - جمال الدين محمود ٥٣٤ -
- ٦ - مجير الدين أبق ٥٤٩ -

٤. أتابكية الموصل

ابتدأت هذه الدولة (سنة ٥٢١) وتنسب إلى عماد الدين زنكى بن أبق سنقر وكان أبق سنقر مملوكاً للسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي وكان معدوداً من كبار القواد جعله ملكشاه من قواد أخيه تتش ولما ملك حلب استنابه فيها ثم التحق بالسلطان بركياروق بعد وفاة ملكشاه وسار في خدمته وكان تتش يمين نفسه بملك العراق فجهز الجيوش ليطرد عليها فأرسل بركياروق إليه الجنود عليهم أبق سنقر فالتقى الفريقان عند نهر سبعين قريباً من تل السلطان بينه وبين حلب ستة فراسخ واقتتلوا فانهزم من مع أبق سنقر وثبت هو فأسر ثم قتل صبراً وكان أحسن الأمراء سياسة وحفظاً لرعيته.

وقد نشأ ابنه أتابك عماد الدين زنكى في كهف الدولة السلجوقية واهتم به ملوكهم لما لأبيه من الأيدى البيضاء في حفظ بيتهم ولأنه قتل في الدفاع عنهم فنشأ نشأة عالية ذا همة مقدماً وكانوا يستعينون به في مهماتهم فيكفيهم إياها وما زال ينه ذكره وتقوى همته حتى

ولاه السلطان محمود مدينة الموصل (سنة ٥٢١) ليقوم بحفظها وإصلاح شأنها وجعله أتابك ولده فروخ شاه المعروف بالخفاجى ليربيه.

أظهر زنكى فى ولايته كفاية وقوة وصلاحاً وكان له فى جهاد الصليبيين همة لا تزال تذكر له وهورأس الأتابكية من بيت زنكى. وقد انقسمت إلى أربعة دول.

الأولى: أتابكية الموصل وهذا ثبت ملوكها.

- ١ - أتابك عماد الدين زنكى ٥٢١ - ٥٤١
- ٢ - سيف الدين غازى بن زنكى ٥٤٤ -
- ٣ - قطب الدين مودود بن زنكى ٥٦٥ -
- ٤ - سيف الدين غازى بن مودود ٥٧٦ -
- ٥ - عز الدين مسعود بن مودود ٥٨٩ -
- ٦ - نور الدين أرسلان شاه بن مسعود ٦٠٧ -
- ٧ - عز الدين مسعود بن أرسلان شاه ٦١٥ -
- ٨ - نور الدين أرسلان شاه بن مسعود ٦١٦ -
- ٩ - نصير الدين محمود بن مسعود ٦٣١ -
- ١٠ - بدر الدين لؤلؤ ٦٥٧ -
- ١١ - إسماعيل بن لؤلؤ ٦٦٠ -

وبدر الدين لؤلؤ (ليس) من هذا البيت بل هو مولا هم استقل بأمر الملك بعد سيده نصير الدين محمود وقد انتهت هذه الدولة على يد المغول.

٥- أتابكية سوريا

ابتدأت هذه الدولة (سنة ٥٤١) وهى السنة التى قتل فيها عماد الدين زنكى فإن مملكته انقسمت بين ولديه سيف الدين غازى الذى ملك الموصل ومحمود نور الدين الذى ملك حلب وانتهت (سنة ٥٧٧) على أيدى الأيوبيين ولم يكن منها إلا ملكان أحدهما محمود نور الدين بن زنكى والثانى الصالح إسماعيل بن محمود. ومحمود نور الدين هذا هو أستاذ صلاح الدين يوسف بن أيوب والرجلان كلاهما له القدم الثابتة فى جهاد الصليبيين.

٦- أتابكية سنجار

ابتدأت هذه الدولة (سنة ٥٦٦) بعد وفاة قطب الدين مودود صاحب الموصل فإن بلاده انقسمت بين ولديه سيف الدين غازي بن مودود الذي كان ولي عهد أبيه وهو أصغر الأخوين وهذا ملك الموصل والثاني عماد الدين زنكي ابن مودود وهذا ملك سنجار وما معها بواسطة عمه نور الدين محمود وانتهت هذه الدولة (سنة ٦١٧) على أيدي الأيوبيين وهذا ثبت ملوكها:

- ١ - عماد الدين زنكي بن مودود ٥٦٦ - ٥٩٤
- ٢ - قطب الدين محمد بن زنكي - ٦١٦
- ٣ - عماد الدين شاهنشاه - ٦١٦
- ٤ - عمر - ٦١٧

٧- أتابكية الجزيرة

ابتدأت هذه الدولة (سنة ٥٧٦) بعد وفاة سيف الدين غازي بن مودود صاحب الموصل فإن بلاده انقسمت بين ولديه عز الدين مسعود وهو الأكبر وهذا ملك الموصل، والثاني سنجر شاه بن مسعود وهذا ملك جزيرة ابن عمر وقد بقيت في يد أولاده إلى (سنة ٦٤٥) حيث أخذها الأيوبيون الذين تولوها هم:

- ١ - معز الدين سنجرشاه ٥٧٦ - ٦٠٥
- ٢ - معز الدين محمود بن سنجرشاه - ٦٤٨
- ٣ - مسعود بن محمود - ٦٤٨

٨- أتابكية إربل

ابتدأت هذه الدولة (سنة ٥٣٩) أسسها زين الدين على كجك بن بكتكين وهو مملوك تركماني لعماد الدين زنكي جعله أتابك ولده قطب الدين مودود وقد فتح بلاداً كثيرة في بدء الدولة الزنكية كان بيده مهنا سنجار وحران وقلعة عقر الحميدية وقلع الهكارية وتكريت وشهر زور وغيرها واستمر كذلك إلى (سنة ٥٦٣) وقبل أن يموت سلم جميع مـ بيده إلى قطب الدين مودود ولم يبق له سوى إربل فسار عن الموصل وأقام بها وفي هذه السنة توفي فولى بدله ابنه زين الدين أبوالمظفر يوسف وهو الصغير تعصب له مجاهد النـ

قايمار وكان أخوه الأكبر مظفر الدين كوكبوري فحاول أن يكون بدل أبيه فلم يحصل على بغيته فسار إلى الموصل وملكها يومئذ سيف الدين غازي بن مودود فأقطعه حران فأقام بها مدة ثم انتقل إلى خدمة صلاح الدين يوسف فحظى عنده وتمكن منه وزاد صلاح الدين في أقطاعه الرها وزوجه أخته وقد حضر معه كثيراً من مشاهده وأظهر نجدة وعزيمة فلما توفي أخوه يوسف (سنة ٦٨٣) رده صلاح الدين إلى ملكه بإربل فاستقر فيه إلى أن مات (سنة ٦٣٠) وأوصى ببلاده قبل موته للخليفة العباسي فبقيت بأيدي العباسيين إلى أن جاء المغول فأخذوها فيما أخذوا.

٩. أتابكية أذربيجان

ابتدأت هذه الدولة (سنة ٥٣٦) ومؤسسها هو الأمير إيلدكز وكان مملوكاً للكمال السميري وزير السلطان محمود السلجوقي فلما قتل الكمال سار إيلدكز إلى السلطان محمود. ولما ولي السلطان مسعود السلطنة ولاه أمانة فمضى إليها ولم يعد يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره. ثم ملك أكثر أذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وغيرها وأصفهان والري وما إليهما من البلاد وخطب بالسلطنة لأرسلانشاه بن طغرك وهو ربيبه وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الأتباع واتسع ملكه من باب تفليس إلى مكران ولم يكن للسلطان أرسلان معه حكم إنما كانت له جراية تصل إليه وكان إيلدكز عاقلاً حسن السيرة يجلس بنفسه للرعية ويسمع شكواهم وينصف بعضهم من بعض وهذا ثبت ملوك هذا البيت:

- ١ - شمس الدين إيلدكز ٥٣١ - ٥٦٨
- ٢ - محمد البهلوان جهان بن إيلدكز ٥٨١ -
- ٣ - قزيل أرسلان عثمان بن إيلدكز ٥٨٧ -
- ٤ - أبوبكر بن محمد ٦٠٧ -
- ٥ - مظفر الدين أزيك بن محمد ٦٢٢ -

وقد انتهت دولتهم على أيدي شاهات خوارزم.

١٠. أتابكية فارس (الدولة السلغرية)

ابتدأت هذه الدولة بفارس (سنة ٥٤٣) وتنسب إلى سلغر أحد قواد التركمان

عهد السلاجقة وكانت نهايتها (سنة ٦٨٦) على أيدي المغول وهذا ثبت وكها.

- ١ - سنقر بن سلغر ٥٤٣ - ٥٥٧
- ٢ - زنكى بن سنقر ٥٨١ -
- ٣ - دكلا بن زنكى ٥٩١ -
- ٤ - سعد بن زنكى ٦٢٣ -
- ٥ - أبوبكر بن سعد ٦٥٨ -
- ٦ - محمد بن سعد ٦٦٠ -
- ٧ - محمد شاه بن محمد ٦٦٠ -
- ٨ - سلجوقشاه بن سلغر بن سعد ٦٦٠ -
- ٩ - أبيش بن سعد بن أبى بكر ٦٨٦ -

١. أتابكية لورستان (الهزارسبية)

ابتدأت هذه الدولة (سنة ٥٤٣) وهى من فروع الدولة السلغرية أتابكية فارس أسسها طاهر أحد قوادهم وهذا ثبت ملوكهم:

- ١ - أبوطاهر بن محمد ٥٤٣ - ٦٠٠
- ٢ - نصره الدين هزارسب بن أبى طاهر ٦٥٠ -
- ٣ - دكلا بن هزارسب ٦٥٧ -
- ٤ - شمس الدين ألب أرغور بن هزارسب ٦٧٣ -
- ٥ - يوسف شاه الأول بن ألب أرغو ٦٨٧ -
- ٦ - أفراسياب الأول بن يوسف ٦٩٦ -
- ٧ - نصره الدين أحمد بن ألب أرغو ٧٣٣ -
- ٨ - ركن الدين يوسف شاه الثانى بن أحمد ٧٤٠ -

- ٩ - مظفر الدين أفراسياب الثانى بن يوسف شاه - ٧٥٦
 - ١٠ - شمس الدين هوشانج بن أفراسياب الثانى - ٧٨٠
 - ١١ - أحمد - ٨١٥
 - ١٢ - أبوسعيد - ٨٢٠
 - ١٣ - حسين - ٨٢٧
 - ١٤ - غياث الدين
- وقد انتهت هذه الدولة على أيدي الدولة التيمورية.

أهات أرمينية

ابتدأت دولتهم (سنة ٥٨٣) ومؤسسها هو الأمير سقمان القطبى بمدينة خلط وكان مملوكاً نطب الدين إسماعيل السلجوقى صاحب مدينة من أذربيجان ومن ثم قيل له القطبى نشأ ههماً كافياً وكانت خلط لبنى مروان وظلموا واشتھر عدل سقمان فاتفق أهل خلط كاتبوه فجاء وفتحوها له وسلموها إليه وهذه أسماء الملوك من هذا البيت .

- ١ - سقمان القطبى - ٤٩٣ - ٥٠٦
 - ٢ - ظهير الدين إبراهيم شاه أومن - ٥٢١
 - ٣ - أحمد - ٥٢٢
 - ٤ - ناصر الدين سقمان - ٥٧٩
 - ٥ - سيف الدين بكتيمور - ٥٧٩ - ٥٨٩
 - كان مملوكاً لهم وهو صاحب ميافارقين
 - ٦ - بدر الدين أقي سنقر - ٥٨٩ - ٥٩٤
 - اسمه هزار دينارى وهو مملوك أقي سنقر وزوج ابنته
 - ٧ - المنصور محمد بن بكتيمور - ٥٩٤ - ٦٠٣
 - ٨ - عز الدين بلبان - ٦٠٤
- وقد انتهت دولتهم على أيدي الأيوبيين

الدولة الغورية

كما يضاف إلى الدول التي حدثت في هذا العهد الدولة الغورية وهي دولة قامت على أطلال الدولة السبكتيكية. تنسب هذه الدولة إلى مكان نشأتها وهو الغور وهو جبال وولاية بين هراة وغزنة وهي بلاد باردة واسعة موحشة وهي مع ذلك لا تنطوي على مدينة وأكبر ما فيها قلعة يقال لها فيروزكوه قام بهذه البلاد آل سام من (سنة ٥٤٣) وملكوا ما كان يملكه آل سبكتكين من بلاد الغور وأفغان والهند ولم يزل ملكهم قائماً إلى (سنة ٦١٢).

وأول من قام من هذا البيت قطب الدين محمد بن الحسين ملك بلاد الغور وصاهر بهرامشاه مسعود بن إبراهيم صاحب غزنة فعظم شأنه بهذه المصاهرة وعلت همته فعاجله بهرامشاه قبل أن يكون منه حدث عظيم فقتله فعظم قتله على الغورية وولوا بعده أخاه سيف الدين سوري بن الحسين فقوى أمره وتمكن في ملكه فجمع عسكراً كثيراً وسار إلى غزنة طالباً بثأر أخيه فلما وصل غزنة ملكها وهرب عنها بهرامشاه إلى الهند فجمع جمعاً كثيراً وعاد إلى غزنة هو وأهلها معه فخرج سوري إلى لقائه فلما تصاف العسكران أسلم سوري جنوده فقهره بهرامشاه وصلبه واستعاد ملك غزنة (سنة ٥٤٤) وكان سوري أحد الأجياد له الكرم الغزير والمروءة العظيمة.

اختار الغورية بعده أخاه علاء الدين حسين بن الحسن ولقبه جهان سوز فأعاد الكرة على غزنة (سنة ٥٥٠) وملكها وأخرج عنها بهرامشاه واستعمل عليها أخاه سيف الدين محمداً وأجلسه على تخت المملكة لنفسه ولأخيه سيف الدين من بعده وتلقب علاء الدين بالسلطان المعظم وحمل الجتر على عادة السلاطين السلجوقية.

ومات علاء الدين (سنة ٥٥٦) فملك بعده غياث الدين محمد بن بهاء الدين سام بن الحسن وكان عضده الأقوى أخوه شهاب الدين وقد حسنت سيرتهما وقويت جموعهما فملكوا بلاد الغور والأفغان والهند وعلى يدهما انقرض ملك آل سبكتكين (سنة ٥٨٢) بعد أن ملكوا (٢١٣ سنة) تقريباً.

ولما عظم ملك الغوريين وكثرت عساكرهم وأموالهم خطب لغياث الدين وتلقب باللقاب السلاطين وكان يدعى له على المنابر غياث الدين والدنيا معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين.

وامتد ملك غياث الدين وأخيه على معظم بلاد خراسان ومعظم بلاد الهند تيسر لهما فتح الكثير منها وتدوين ملوكها وقد بلغا منها ما لم يبلغه أحد قبلهما من ملوك المسلمين وجعل مدينة دهلي كرسى الممالك التي فتحها من بلاد الهند وأقطعها مملوكه قطب الدين

أيك وقطب الدين هذا هو مؤسس بيت سلاطين دهلى الذين استمر ملكهم من (سنة ٦٠٢) وهى السنة التى توفى فيها شهاب الدين الغورى إلى (سنة ٦٨٦) وهذا ثبت ملوك هذا البيت :

- ١ - أيك قطب الدين ٦٠٢ - ٦٠٧
- ٢ - أرم شاه ٦٠٨ -
- ٣ - التمش شمس الدين ٦٣٣ -
- ٤ - فيروز شاه الأول ركن الدين ٦٣٤ -
- ٥ - رضا ٦٣٨ -
- ٦ - بهرام شاه معز الدين ٦٣٩ -
- ٧ - مسعود شاه علاء الدين ٦٤٤ -
- ٨ - محمود شاه الأول نصر الدين ٦٦٤ -
- ٩ - بلبن غياث الدين ٦٨٦ -
- ١٠ - كيقباز معز الدين ٦٨٦ -

وغياث الدين الغورى وأخوه شهاب الدين معدودان من ملوك الهند العظام والدولة الغورية هى ثانى مملكة هندية بعد الدولة السبكتكينية .

وفى عهد المقتضى حصلت الحرب الصليبية الثانية وسببها أن الإفرنج بالشام رأوا من محمود نور الدين ما هالهم فقد استولى على كثير من معاقلهم وحصونهم فقرروا طلب الإعانة والنجدة من البابا أوجانيوس الثالث وأرسلوا لذلك رسلاً أقامت عباراتهم الشديدة البابا وأقعدته وحركت من نفسه الغيرة وخشى أن يكون سلفه أسبق إلى الفوز منه فأرسل دعائه إلى فرنسا وملكها لويز السابع فأجاب الداعية وكان أعظم مؤثر فيهم ما أخبروا به من سقوط مملكة الرها بين يدى المسلمين وأرسلت الدعاة أيضاً إلى ألمانيا وملكها كونراد الثالث فأجاب الداعية أيضاً وكان لهذين الملكين الزعامة على جيوش هذه الحرب الثانية .

وقد وصل إلى القسطنطينية أولاً الملك كونراد الثالث بجيشه وكان ملكها عمانويل اليكسيوس الأول وكان يخاف من الصليبيين على مملكته فكاد لهم المكاييد ثم تلاه لويس السابع بجيوشه .

ذهب الألمان أولاً مجتازين بلاد قرنية بلاد السلاجقة فلقبهم هؤلاء بحروب شديدة كسرت حدتهم وقتلت أكثرهم وجعلت زعيمهم يرتد خائباً كسيراً حتى قابل الجيوش الفرنسية فسار معهم بفلول جيشه حتى وصلوا إلى القدس بعد أن ذاقوا من العذاب ألواناً وذلك (سنة ٥٤٢) وبعد أن زاروا المدينة المقدسة قرروا الذهاب إلى مدينة دمشق والاستيلاء عليها وكان صاحبها إذ ذاك آخر الدولة الأتابكية وهو مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين والأمر في دولته لمولاه معين الدين أنز. سار الملكان بجنودهما ومعهما جنود إفرنج الشام حتى وصلا دمشق (سنة ٥٤٣) وحاصروها فزحف إليهم أهل البلد مجدين في ردهم وأبلوا بلاء حسناً. وكان معين الدين قد أرسل يستنجد بسيف الدين غازي صاحب الموصل فأجاب الداعي وأقبل حتى أتى حلب واستصحب منها أخاه محموداً نور الدين وسارا حتى أتيا حمص ولما علم الصليبيون بذلك خافوا أن يقعوا بين نارين فرحلوا عن دمشق خائبين ورجعوا إلى بلادهم من غير أن يحدثوا أثراً وفي (سنة ٥٤٩) استولى محمود نور الدين على دمشق.

هذه هي الدول التي ورثت ملك السلاجقة العظيم.

نعود الآن إلى بيان الحال بعد وفاة السلطان مسعود قلنا إنه كان عهد إلى ابن أخيه ملكشاه وخطب له فعلاً ولكن أحد قواد أبيه المعروف بخاص بك أرسل إلى الملك محمد بن محمود وهو بخوزستان يستدعيه وكان قصده أن يحضر عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة فسار الملك محمد إليه فلما وصل أجلسه على تخت السلطنة وخطب له بها وخدمه وبالغ في خدمته وحمل له هدايا عظيمة جلية المقدار ثم إنه دخل إلى الملك محمود ثاني يوم وصوله فقتله محمد ولم ينتطح في قتله عزان واستقر محمد في السلطنة وأرسل إلى الخليفة يطلب أن يخطب له ببغداد والعراق فامتنع من إجابته إلى ذلك فسار من همدان في عساكر كثيرة نحو العراق ووصل إليها في ذي الحجة (سنة ٥٥١) وقد اهتم الخليفة ووزيره بأمر الدفاع عن بغداد وفرقا السلاح على الجند والعامّة ونصبت المنجنيقات والعرادات وجرت بين الفريقين عدة حروب واشتد الحصار على أهل بغداد لانقطاع المواد عنهم وكان بعض الذين يساعدون السلطان محمد لا يناصحونه لأجل الخليفة والمسلمين ففتروا وقصروا وبينما هم على تلك الحال ورد خبر إلى السلطان محمد بأن أخاه ملكشاه بن محمود ومعه إيلدكز صاحب بلاد أران والملك أرسلان بن طغرل قد دخلوا همدان واستولوا عليها وأخذوا أهل الأمراء الذين مع محمد أموالهم فلما سمع ذلك محمد جد في القتال لعله يبلغ منه فلم يقدر على شيء ورحل عنها نحو همدان في أواخر ربيع الأول (سنة ٥٥٢) ولما قارب همدان خرج منها خصومه خائبين خائفين.

استقر محمد فى دار ملكه بأصفهان وصار العراق للخليفة لا يشركه فيه أحد وكانت وفاة السلطان محمد والخليفة المقتضى فى زمنين متقاربين فأما محمد فإنه توفى بهمذان (سنة ٥٥٤) وقد اختلف قواده بعد موته اختلافاً كثيراً فطائفة طلبوا أخاه ملكشاه وطائفة طلبوا عمه سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه وهم الأكثر وطائفة طلبوا أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه وأخيراً تم الأمر لأرسلان بن طغرل بواسطة المقدم إيلدكز وكان هذا السلطان ربيبه.

أما الخليفة المقتضى لأمر الله فإنه توفى ثانى ربيع الأول (سنة ٥٥٥) وهو أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم إلى الآن وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم عسكره وأصحابه من حين تحكم الممالك على الخلفاء من عهد المنتصر إلى الآن إلا أن يكون المعتضد وكان شجاعاً مقداماً مباشراً للحروب بنفسه وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار فى البلاد حتى كان لا يفوته منها شئ وكان حليماً كريماً عادلاً حسن السيرة من الرجال ذوى رأى والعقل الكبير.

المستنجد بالله

هو أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتضى لأمر الله وأمه أم ولد اسمها طاوس رومية ولى (سنة ٥٥٥) وبويع بالخلافة عقب وفاة والده واستمر خليفة إلى أن مات فى تاسع ربيع الآخر (سنة ٥٦٦).

فكانت خلافته (١١ سنة) وشهراً وأسيوعاً.

المستنجد معدود من خيرة الخلفاء العباسيين ومن مآثره أنه لما ولى أزال المكوس والمظالم ولم يترك بالعراق منها شيئاً وكان شديداً على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس قبض مرة على خبيث كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال الخليفة أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر إلى إنساناً آخر مثله لأكف شره عن الناس ولم يطلقه ورد كثيراً من الأموال على أصحابها أيضاً.

ومن أعماله أنه حل المقاطعات وأعادها إلى الخراج وهذا عمل حسن إلا أن بعض العلويين بالعراق تضرروا ومن أجل ذلك يعدون هذا العمل من عيوبه وهو صلاح للجمهور.

وكان ملك السلاجقة لعهد أرسلان شاه بن محمد بن ملكشاه ولم يكن له شئ من السلطان فى بلاد العراق نفسها بل استبد الخليفة بأمرها منذ عهد أبيه.

المستضىء بالله

هو أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله وأمه أم ولد أرمنية تدعى غضة. بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه وكان عادلاً حسن السيرة في الرعية كثير البذل للأموال غير مبالغ في أخذ ما جرت العادة بأخذه وكان الناس معه في أمن عام وإحسان شامل وطمأنينة وسكون لم يروا مثله وكان حليماً قليل المعاقبة على الذنوب محباً للعفو والصفح عن المذنبين. فعاش حميداً ومات سعيداً. وكانت وفاته ثاني ذي القعدة (سنة ٥٧٥هـ).

وفي عهده انقرضت الدولة الفاطمية بمصر وظهرت الدولة الأيوبية بهمة مؤسسها المقدم صلاح الدين الأيوبي يوسف بن أيوب الذي ظهر في كنف محمود نور الدين الشهيد وكان ذلك في محرم (سنة ٥٦٧) حيث قطعت خطبة الخليفة العاضد لدين الله واستيفاء ذاك في تاريخ مصر والذي خطب له من العباسيين هو المستضىء بالله.

وفي عهده توفي خوارزمشاه إيل أرسلان بن أتسز وملك بعده ابنه سلطان شاه بتدبير أمه ولما علم بذلك أخوه الأكبر علاء الدين تكش جمع العساكر وقصد خوارزم فاستولى عليها واستقل بالملك.

وفي عهده توفي الرجل العظيم ذو القدم الثابتة في فعال الخير وفي جهاد الإفرنج وهو محمود نور الدين بن زنكي وكان قد اتسع ملكه جداً وخطب له بالحرمين وباليمن ومصر وسوريا وقد طبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله قال ابن الأثير في تاريخه: وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحريماً منه للعدل، وله أخبار حسان ألفت فيها الكتب خاصة.

الناصر لدين الله

هو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بن المستجد وأمه أم ولد تركية اسمها زمرد.

بويج بالخلافة بعد وفاة والده المستضيء في (٢) ذى القعدة (سنة ٥٧٥) (٣٠ أكتوبر ١٢٢٥) فكانت خلافته (٤٦ سنة وعشرة أشهر و٢٨ يوماً) وهو أطول خلفاء بني العباس مدة ولم يزد عليه من خلفاء الفاطميين إلا المستنصر بالله معد. فإنه ولي (٦٠ سنة) ولا من خلفاء بني أمية بالأندلس إلا عبد الرحمن الناصر فإنه ولي (٥٠ سنة).

حال الممالك الإسلامية لعهد:

كان في الأندلس وشمال أفريقيا دولة الموحدين. وفي عهد الناصر ابتدأت الدولة المرينية بمراكش أسسها عبد الحق المريني (سنة ٥١٩) وهو من أعقاب الموحدين.

وكان بمصر واليمن والحرمين وسوريا الدولة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب (سنة ٥٦٤).

وكان بالموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر بقايا دول الأتابكية.

وكان بقونية دول سلاجقة الروم.

وكان ببلاد الجبل والعراق من السلاجقة السلطان طغرل الثاني وهو آخر سلاجقة العراق.

وكان بخوارزم وخراسان وما إليها الدولة الخوارزمشاهية والقائم بالأمر منهم السلطان تكش بن إيل أرسلان إلى (سنة ٥٩٦) ثم علاء الدين محمد إلى (سنة ٦١٧) ثم جلال الدين منكبرتي إلى (سنة ٦٢٨) وهو آخرهم.

وكان بالغور والأفغان والهند الدولة الغورية .

فى عهد الناصر لدين الله انتهى ملك السلجوقيين بالعراق (سنة ٥٩٠) بقتل طغرل بن ألب أرسلان على يد خوارزمشاه علاء الدين تكش الذى اتسع ملكه جداً فصار ملكه ممتداً من أقاصى بلاد ما وراء النهر شرقاً إلى بلاد الرى التى أخذها بعد القضاء على السلاجقة ولكن ملكه لم يكن بالرى ثابتاً فإن الخليفة الناصر قد طمع أن تكون البلاد له بعد رحيل خوارزمشاه عنها فأرسل إليها جنداً مع وزيره فاستردها بعد أن حارب عسكر خورزمشاه لكن ذلك لم يطل فإن خوارزمشاه لما بلغه ذلك رجع فحارب عسكر الخليفة وأخذ البلاد منهم وفى (سنة ٥٩٦) توفي وخلفه ابنه قطب الدين خوارزمشاه وزاد ملكه اتساعاً .

كان هوى خوارزمشاه بعد اتساع ملكه أن يتشرف بذكر اسمه على منابر بغداد فيخطب له بدل السلاجقة فأبى الخليفة ذلك عليه فاشتدت العداوة بينهما حتى قطع خوارزمشاه خطبة الناصر من منابر بلاده فاستحكمت حلقات الفساد وهذا الذى جعل كثيراً من المؤرخين يعتقد أن خروج التتر إنما كان باستدعاء الناصر لدين الله وليس ببعيد كان قصده على ما يظهر أن يشتغل بهم خوارزمشاه فتخف عنه وطأته وقد اعتادوا ذلك من قبل .

الحادث العظيم فى البلاد الإسلامية

إغارة المغول والتتار:

من أكبر الحوادث فى التاريخ الإسلامى خروج طوائف المغول والتتر إلى البلاد الإسلامية واستيلائهم على معظمها فى آسيا وشرق أوروبا وأول فتح هذا الباب كان على يد جنكيز خان المغولى وخوارزم شاه محمد بن تكش الخوارزمى .

التتر: شعب كبير من الأمة التركية ومنه تتفرق معظم بطونها وأفخاذها وهو مرادف للترك عند الإفرنج حتى إنهم يعدون قبائل الأتراك كافة تترًا ومنهم العثمانيون والتركمان وقرمان وغيرهم وكانوا مشهورين عند قدماء اليونان باسم سبتيا أو اسكوتيا ومؤرخو الترك ونسابوهم يقولون ألنجه خان أحد ملوك الترك فى الأزمنة القديمة ولد له ولدان توأمان هما تاتارخان ومغل خان نحو ربيعة ومضر فى الأمة العربية .

وقد استمر أولادهما على صفاء ووداد إلى أن وقع النزاع بين الشعبين فى عهد إيلخان ملك المغول وسونج خان ملك التتر وجرّ هذا النزاع إلى حروب طويلة انتصر فيها التتار وقتل إيلخان ملك المغول وصارت السادة من ذلك الوقت للتتر فاستعمدوا المغول مدة طويلة

إلى أن جمع المغول جموعهم واتحدوا فقاموا بحرب التتر وكسروا شوكتهم واستردوا ما ضاع من حريتهم فعادت السيادة من ذلك الوقت إلى المغول وصار الملك متوارثاً فيهم إلى زمن يسوكى بهادر خان والد جنكيز.

ولد جنكيز خان (سنة ٥٤٩ هـ) وكان اسمه في صغره تموجين. توفي أبوه وسنه (١٣ سنة) ثم مات بعده مدبر دولته سوغه جمش فاستضعفت قبائل المغول تموجين ففرقوا عنه وكان ذلك سبباً لحصول الفتن وتمادى الحروب بينهم.

لما كان لتموجين من الهمة العالية والعزيمة الملوكية التي لا تساويها عزيمة اجتهد في أن يلم شعث قومه فنجح في ذلك نجاحاً عظيماً وعادت قبائل المغول إلى الانضمام إليه وكثرت جموعه وعظم أمره فحارب جميع القبائل التركية وانتصر عليهم جميعاً بعد حروب شديدة ودخل تحت طاعته جميع زعمائهم فصارت له مملكة واسعة مسكونة بتلك الأمم التي لا يعلم عددها إلا الله. وعاصمة ملكه مدينة قراقرم.

ولما لم يبق له معارض فكر في ترقية هذا المجتمع العظيم بوضع قانون يكون لهم ديناً يسيرون على مقتضاه فوضع لهم السياق أو الياسة وهي كتابهم الذي إليه يرجعون في معاملاتهم وأحكامهم وكانت عندهم كالقرآن عند المسلمين لا يستجيزون أن يخلوا بشئ منها.

ومما شرعه فيها أن من زنى يقتل لا فرق بين محصن وغيره ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر قتل. ومن بال في الماء أو على الرماد قتل. ومن أعطى بضاعة فخر فيها فإنه يقتل بعد الثالثة. ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل. ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يرده على من كان في يده قتل. وأن الحيوان تكثف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه. وأن من ذبح حيواناً كذبيحة المسلمين ذبح ومن وقع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه وهو يكر أو يفر في حال القتال وكان وراءه واحد فإنه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه فإن لم ينزل ولم يناوله قتل. وشرط أن لا يكون على أحد من ولد علي بن أبي طالب مؤنة ولا كلفة وأن لا يكون على أحد من الفقراء ولا القرأ ولا الفقهاء ولا الاطباء ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤمنين ومغسلى الأموات كلفة ولا مؤنة وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى وجعل ذلك كله قرينة إلى الله تعالى. وألزم قومه أن لا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولاً ولو أنه أمير ومن يتناوله أسير. وألزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شيء وغيره

يراه بل يشركه معه فى أكله . وألزمهم أن لا يتميز أحد بالشيع على أصحابه ولا يتخطى أحد ناراً ولا مادة ولا الطبق الذى يؤكل عليه . وإن مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير إذنهم وليس لأحد منهم منعه . وألزمهم ألا يدخل أحد منهم يده فى الماء ولكن يتناول الماء بشئ يغترفه به . ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى . ومنع أن يقال لشئ أنه نجس وقال جميع الأشياء طاهرة ولم يفرق بين طاهر ونجس وألزمهم أن لا يتعصبوا لشئ من المذاهب . ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب وإنما يخاطب السلطان ومن دونه ويدعى باسمه فقط . وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أراد الخروج إلى القتال وأنه يعرض كل ما سافر به عسكره وينظر حتى الإبرة والخيط فمن وجده قصر فى شئ مما يحتاج إليه عند عرضه إياه عاقبه وألزم نساء العسكر القيام بما على الرجال من السخر والكلف فى مدة غيبتهم فى القتال وجعل على العساكر إذا قدمت من القتال كلفة يقومون بها للسلطان ويؤدونها إليه . وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض بناتهم الأبنكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده . ورتب لعساكره أمراء وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مئين وأمراء عشرات . وشرع أن أكبر الأمراء إذا أذنب وبعث إليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه فإنه يلقي بنفسه بين يدى الرسول وهو ذليل خاضع حتى يمضى فيه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه وألزمهم أن لا يتردد الأمراء لغير الملك فمن تردد منهم لغير الملك قتل . ومن تغير عن موضعه الذى يرسم له بغير إذن قتل وألزم السلطان بإقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة .

تنبيه - كان من هذه السياسة نسخة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد . روى المقرئى فى خطه عن أحمد بن البرهان أنه رآها ومنه نقلنا ما ذكرناه .

خروج المغول إلى البلاد الإسلامية:

قد أكثر المؤرخون فى ذكر الأسباب التى دعت جنكيز خان وقومه للخروج إلى البلاد الإسلامية فقال بعضهم إن خوارزمشاه لما أظهر الخلاف على الناصر لدين الله وقطع خطبته من بلاده وأراد أن يذهب إلى بغداد للاستيلاء عليها أرسل الناصر لدين الله إلى جنكيز خان يحرضه على الخروج إلى خوارزمشاه والتعرض لمملكته يريد بذلك أن تنكسر شوكة خوارزمشاه ويشغل عنه بنفسه وقد سبق لحلفاء بنى العباس أن فعلوا ذلك مرارا فهم الذين راسلوا بنى بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك البغداديين وتحكمهم فيهم وهم الذين راسلوا طغرل بك شاه السلجوقي ليخلصهم من تحكم البساسيرى حينما أراد تحويل الدعوة إلى المصريين الفاطميين وهم الذين راسلوا خوارزمشاه ليخلصهم من السلاجقة ولكن الفرق

أن هؤلاء كلهم كانوا مسلمين وأما المغول فكانوا كفاراً ولا نبدى هذا الفرق استبعاداً للمكاتبة لأن ذلك الملك لا يبالي بما يفعل لتخليص ملكه ولم يكن الخليفة يبغي إلا أن المغول يشغلون عنه خوارزمشاه فتكون العداوة بين الرجلين ضامنة لاستقلاله كما أنه لم يكن يظن أن يكون من التتر ما كان لأن بينهم وبين العراق أمكنة مترامية الأطراف وبينه وبينهم ذلك الأسد الهصور ولم يكن يظن به من الضعف ما يجعله يجفل أمام جنكيز خان كالحمامة تجفل من صقرها. وهذا السبب وإن كان مطعماً لجنكيز خان في البلاد الإسلامية ولكنه كان يتطلب سبباً آخر يبيح له فتح باب الحرب على خوارزمشاه فيقال إنه فى سنة (٦١٢) أرسل رسلاً إلى خوارزمشاه وكانوا من كبار المسلمين الذين يقيمون ببلاده يطلب منه أن يعاهده لتردد التجارة من كل جانب إلى الآخر وأرسل إليه هدايا عظيمة المقدار فلما وصلت الرسل إلى خوارزمشاه أجاب إلى ذلك فرجعوا إلى جنكيز خان مسرورين من تمام ما أرسلوا له فاستبشر بذلك جنكيز خان ومكث الأمر على سداد مدة والتجار والزوار يترددون آمنين مطمئنين.

وفى (سنة ٦١٥) سافر تجار من بلاد جنكيز خان حتى وصلوا إلى بلدة أترار وهى بلدة بشغر خوارزمشاه بساحل سيحون (سرداريا) وبها وال كان من قبله فلما ورد عليه هؤلاء التجار وكانوا زهاء (٤٠٠ نفس) ومعهم أموال جسيمة طمع ذلك الوالى فى أخذ أموالهم فأرسل قاصداً إلى خوارزمشاه يخبره أن جواسيس جنكيز خان قد قدموا فى زى تجار فأمره بقتلهم واستصفاء أموالهم فسارع ذلك الوالى المشنوم إلى ذلك وأرسل إلى خوارزمشاه ما كان معهم من الأموال فاخذها وفرقها على تجار بخارى وسمرقند وأخذ منهم ثمنها. فلما بلغ علم ذلك جنكيز خان أخذه المقيم المقعد وأرسل إلى خوارزمشاه يخبر بصورة الحال ويطلب منه غاير خان ذلك الوالى ليقترض منه فلم يكن من الأحقق خوارزمشاه إلا أن قتل الرسول فلما بلغ ذلك جنكيز خان استشاط غضباً وصمم على قصده وحربه. وعلم خوارزمشاه أنه قد استهدف بعمله لحرب تلك الأمة العظيمة وزاد الطين بلة بأن جمع عساكره وسار بادئاً بالعدوان حتى وصل تخوم تركستان وهجم على بلاد عدوه فلقى هناك جموعاً قليلة متخلفة فى النساء والصبيان لأن جنكيز خان كان غائباً بجنده فى داخل بلاده فلم يمكن خوارزمشاه أن ينتصر على هذا العدد القليل فعلم أن له يوماً ضرورياً إذا تحرك عليه جنكيز خان وهو لا بد فاعل فأمر خوارزمشاه سكان تلك المدن العظيمة التى على حدود بلاده أن يجلوها عنها خوفاً عليهم من التتر وكانت من جنان الدنيا فأصبحت بذلك بلاقع وسهلاً بهذا العمل السبيل إلى عدوه ثم عاد. وأما جنكيز خان فإنه جمع عساكره الجرارة التى تفوق عد العادين وعبر نهر سيحون وليس أمامه من يناوشه قتالا أو يشغله عن

قصده وسار حتى أتى بخارى وكان بها عشرون ألفاً من الجنود الخورازمية فلم يكن عندهم طاقة بما دهمهم من ذلك البحر الزاخر فتركوا المدينة من غير حام فأرسل أهلها القاضي بدر الدين قاضيخان يطلب الأمان للناس فأمّنهم جنكيز خان ودخل هو وجنده البلد في رابع ذى الحجة (سنة ٦١٦) وأعلن أهله بأن كل ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيرها أخرجوه إلينا ثم طلب رؤساء البلد وقال لهم أريد منكم أمتعة التجار التي باعكم إياها خوارزمشاه فإنها لى ومن أصحابى أخذت وهى عندكم فأحضر كل من كان عنده شئ منها ما عنده ثم أمرهم بالخروج من البلد فخرجوا منها مجردين من أموالهم وأعمل التتر النهب وقتلوا من وجدوا فيه ثم أمر أصحابه أن يقتسموا الناس فاقسموهم وأصبحت بخارى تلك المدينة العظيمة خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس.

ثم رحلوا نحو سمرقند وهى قصبة ما راء النهر والمصر الجامع لعلمائه وأدبائه وثروته واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى فساروا بهم مشاة على أقبح صورة ومن أعيا عن المشى قتل.

ولما وصلوا سمرقند كان بها خمسون ألفاً من جند خوارزمشاه فحاموا عن اللقاء لما دخل قلبهم من الرعب والخور أما أهل البلد فخرج منهم ذوو الجلد والقوة فقاتلهم العساكر الجنكيزية ظاهر البلد واحتالوا عليهم بأن تقهقروا أمامهم وأهل سمرقند يتبعونهم ويطمعون فيهم حتى أبعدها عن معقلهم وكان المغول قد أعدوا لهم كميناً يأتيهم من خلفهم فلما جاوزوا الكمين خرجوا عليهم وحالوا بينهم وبين البلد ورجع عليهم الباقون من الأمام فأخذهم السيف من كل جانب وقتل عظيمهم ولما رأى ذلك الباقون بالبلد من الجند والعامّة ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك فقال الجند نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا لأن الكل أتراك فطلبوا الأمان فأمّنوا وفتحت البلد فخرجوا إلى التتر بأهلهم وأموالهم فطلبوا منهم أن ينزعوا أسلحتهم فزعوها وإذ ذاك وضعوا فيهم السيف وقتلوه عن آخرهم وفى اليوم الرابع نادوا فى البلد أن لا يتأخر بها أحد ومن تأخر قتلوه وهكذا فعل التتر بسمرقند ما فعلوه ببخارى وكان ذلك فى المحرم (سنة ٦١٧).

ولما تم لجنكيز ملك سمرقند سير عشرين ألفاً من أشداء جنوده وقال لهم اطلبوا خوارزمشاه أين كان لو تعلق بالسما حتى تدركوه وتأخذوه فساروا وعبروا جيحون وكان خوارزمشاه مقيماً بغريه يستعد وقد ملئ قلبه رعباً فلما علم بقدوم التتر عليه لم ير إلا أن ينهزم عنهم قبل أن يحصل بينهم وبينه صدام وقتال ورحل لا يلوى على شئ، وقصد مدينة نسا، فلم يكد يستقر بها حتى أدركه جند التتر فطار إلى ما زندان والتت عليه أذه

ولم يعرجوا على نيسابور فكان كلما رحل عن منزلة نزلوها فوصل إلى مرسى من بحر طبرستان ونزل يريد قلعة له فى البحر فلما نزل هو وأصحابه فى السفن وصل التتر فأيسوا من اللحاق به فعادوا عنه وكان ذلك آخر العهد به.

وهذه الفرقة من التتر تسمى التتر المغربة لأنهم ساروا إلى غرب خراسان وتشبه هذه الفرقة فرقة السلاجقة العراقية التى قصدت البلاد الإسلامية بالتخريب والإفساد قبل أن ينساح السلاجقة ويستولوا على البلاد ولما أيس التتر من اللحاق به ساروا إلى مازندان فملكوها فى أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها وامتناع قلاعها. ثم ساروا نحو الرى وقد انضم إليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار من المفسدين من يريد النهب والشر وهم كثيرون فوصلوا إلى الرى على حين غفلة من أهلها فملكوها وفعلوا بها الأفاعيل وكانوا ينهبون فى طريقهم كل قرية مروا عليها. ثم ساروا إلى همذان فطلب صاحبها الأمان فأمناه هو ومن معه ثم وصلوا إلى قزوین فدخلوها عنوة ويقال أن من قتل من أهلها يبلغون أربعين ألفاً. ثم ساروا إلى أذربيجان فوصلوا إلى تبريز وبها صاحب البلاد أوزبك بن البلهوان فلم يخرج إليهم ولا حدثه نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصددة من إدمان الشراب ليلاً ونهاراً لا يفيق وإنما أرسل إليهم وصالحهم فساروا عنه إلى ساحل البحر ليشتقوا فيه فوصلوا إلى موقان وتطرقوا فى طريقهم إلى بلاد الكرك فحاربهم أهلها لكنهم انهزموا فأرسلوا إلى أوزبك خان يطلبون منه أن يتفق معهم فى دفع التتر وكذلك أرسلوا إلى الملك الأشرف بن العادل الأيوبي صاحب خلاط وديار الجزيرة يطلبون منه الانضمام إليهم وظنوا جميعاً أن التتر لا يتحركون حتى ينحسر الشتاء فلم يفعلوا ذلك بل ساروا نحو الكرج وانضاف إليهم مملوك من ممالك أوزبك اسمه أقوش وجميع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والأكراد وغيرهم فاجتمع إليه خلق كثير وأرسل التتر فى الانضمام إليهم فأجابوا إلى ذلك للجنسية فاجتمعوا جميعاً حتى وصلوا تفليس فاجتمعت الكرج وخرجت بحدها وحديدها لكن ذلك لم يفدهم شيئاً فانهزموا أقبح هزيمة وركبهم التتر من كل جانب فقتل منهم ما لا يحصى وكانت الواقعة فى ذى القعدة (سنة ٦١٧).

ولما دخلت (سنة ٦١٨) كروا راجعين إلى مدينة مراغة فملكوها عنوة ووضعوا السيف فى أهلها ونهبوا كل ما صلح لهم وما لا يصلح أحرقوه ثم رحلوا عنها قاصدين إربل لكنهم هابوا الهجوم عليها خوفاً منهم أن تجتمع الجنود عليهم من العراق وغيرها فعادوا إلى همذان وساروا إلى أذربيجان ومنها ساروا إلى دربند شروان فاستولوا على مدينة سماخى عنوة وخرجوا من دربند إلى البلاد الشمالية وهى دشت القفجاق وفيها أمم كثيرة تركية فأمعن التتر فيهم قتلاً وسبياً والذى لقى حد هذه الحروب أمة القفجاق فكثرت فيهم القتل

والأسر فتفرقوا أيدي سباً في جميع الأقطار وكان هذا أول ورود الممالك القفجاقية على البلاد المصرية فاشتري منهم الصالح نجم الدين أيوب مماليكه البحرية ملوك مصر بعد الدولة الأيوبية ومنهم المعز أيك والمظفر قطز والمنصور قلاوون وغيرهم.

ثم قصد التتر بعد ذلك بلاد الروس فاتفق هؤلاء مع فلول القفجاق أن يكونوا يداً واحدة ضد التتر ومع هذا فكان الظفر للتتر وانهزم عنهم الروس والقفجاق أقبح هزيمة ونهب التتر بلادهم ثم عادوا عنهم وقصدوا بلغار أواخر (سنة ٦٢٠) فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم في عدة مواضع واستجروهم إلى أن جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم فقتل منهم كثير.

هذه أخبار طائفة صغيرة من طوائف التتر وما فعلته.

أما جنكيز خان فإنه لما سير تلك الطائفة لطلب خوازمشاه أقام بسمرقند وهناك سير جيشاً عليه أحد أولاده لملك خراسان فعبروا النهر وقصدوا مدينة بلخ فطلب أهلها الأمان فأمنوهم وتسلموا البلد (سنة ٦١٧) ولم يتعرضوا له بنهب ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة ثم صاروا يستولون على تلك البلاد شيئاً بعد شيء دون صعوبة أو مقاومة ولذلك لم يكونوا يتعرضون لأهلها بسوء ولا أذى سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم ولم يمشى إلا القليل حتى دخل معظم البلاد الفارسية تحت حكم التتر.

وأرسل جيشاً آخر وجهته الشمال ليملك دشت القفجاق وكان الأمر قد تهيأ لهم بها لما فعله التتر المغربة من إضعاف القوى التي كانت بهاتيك البلاد على أنها لم تكن قوى مجتمعة يخشى بأسها بل كانوا طوائف شتى لا جامعة لهم فسهل على الجيش الجنكيزي أن يستولى على الدشت كله في أسرع ما يمكن.

فتم بذلك لجنكيز مملكة عظيمة واسعة مترامية الأطراف تبتدئ شرقاً من بلاد الصين وتنتهي غرباً إلى بلاد العراق وبحر الخزر وبلاد الروس وجنوباً ببلاد الهند وشمالاً بالبحر الشمالي كل ذلك تم له في مدة قصيرة.

ولما أحس بقرب منيته قسم الممالك الجنكيزية إلى أربعة أقسام بين أبنائه الأربعة وهم جوجي وجغطاي وتولي وأوكداي:

فجعل دشت قفجاق بأسرها وبلاد الداغستان وخوارزم وبلغار والروس وما يؤمل أخذه إلى منتهى المعمورة وسواحل البحر الغربي لولده الأكبر جوجي.

وجعل بلاد أيفور والتركستان وما وراء النهر بأسره لولده الثاني جغطاي.

وجعل خراسان وما يؤمل أخذه من ديار بكر والعراقيين إلى منتهى حوافر خيولهم لولده الثالث تولى خان.

وجعل بلاده الأصلية والخطا والصين إلى منتهى المعمورة الشرقي لولده الرابع أوكداى وجعله ولي عهده من بعده ويصير قاتناً على الكل أوملك الملوك وهو عندهم بمنزلة الخليفة عند المسلمين وأمر الباقيين بمتابعته وكذا كل من يصير قاتناً من ذريته يجب على الباقيين طاعته ومن اتباعه ومن خالفه يجب على الباقيين حربه حتى يفنى إلى يساق جنكيز خان.

هكذا قدر الرجل لعظم همته أن يملك أولاده الدنيا بأسرها ولا يسقى فيها لغيرهم كلمة ولا سلطان ولولا ما حصل من الخلاف بعده لتم كل ما توقعه.

وفى (سنة ٦٢٤) أدركته منيته وكان الخليفة العباسى حين وفاته المنصور المستنصر بالله بن محمد الظاهر.

وجد من آل جنكيز خان أربعة بيوت ورثت الملك وتمت الفتح حتى تهيأ لها أن تملك معظم بلاد المسلمين وجزءاً من أوروبا.

وبيت تولى هو الذى كان على يده سقوط الخلافة العباسية ببغداد وامتداد سلطان التتر على الجزيرة والشام وبلاد الروم وسنذكر ذلك فى حينه.

حصلت هذه الحوادث الكبرى وخليفة بغداد لاه بما هو فيه من عسف الناس وظلمهم فقد كان قبيح السيرة فى رعيته ظالماً فخرّب فى أيامه العراق وتفرق أهله فى البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان كثيراً ما يفعل الأشياء ثم ينقضها وجعل جل همه فى رمى البندق والطيور المناسب وسراويلات الفتوة فبطلت الفتوة فى البلاد جميعاً إلا من يلبس منه سراويل يدعى إليه ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة وكذلك منع الطيور المناسب لغيره إلا ما يوخذ من طيوره ومنع الرمي بالبندق إلا من ينتمى إليه. هذه كانت مشاغله العجيبة والتر يمعنون فى بلاد المسلمين قتلاً وأسراً وتخريباً ومع ذلك أثنى عليه ابن طباطبأ فى تاريخه الموسوم بالفخرى ثناء جماً ومن ضمن ما وصفه به أنه كان يرى رأى الإمامية والظاهر أن هذا هو الذى حبه إلى المؤرخ المذكور.

بقى الناصر فى أواخر أيامه ثلاث سنين عاطلاً عن الحركة وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصاراً ضعيفاً وفى آخر الأمر أصابته دوزنطاريا عشرين يوماً وكانت بها منيته.

الظاهر بأمر الله

هو أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله بن الناصر بوبع بالخلافة عقب موت أبيه وكان ولى عهده واستمر خليفة إلى (١٤ رجب سنة ٦٢٣) فكانت خلافته تسعة أشهر و(١٤ يوماً).

لما ولى أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العمرين قال ابن الأثير فلو قيل إنه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقاً فإنه أعاد من الأموال المغصوبة فى أيام أبيه وقبله شيئاً كثيراً وأطلق المكوس فى البلاد جميعها وأمر بإعادة الخراج القديم فى جميع العراق وأن يسقط جميع ما جدد أبوه وكان كثيراً لا يحصى. ولما أمر بأخذ الخراج الأول من جميع البلاد حضر كثير من أهل العراق وذكروا أن الأملاك التى كان يؤخذ منها الخراج قديماً قد ييس أكثر أشجارها وخربت ومتى طولبوا بالخراج الأول لا يفى دخل الباقي بالخراج فأمر ألا يؤخذ الخراج إلا من كل شجرة سليمة وأما الذهب فلا يؤخذ منه شئ ومن أعماله أن المخزن كان له صنجة الذهب تزيد على صنجة البلد نصف قيراط يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التى للبلد يتعامل بها الناس فسمع بذلك فخرج خطه إلى الوزير وأوله ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ وَزَنَهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿ قد بلغنا كذا وكذا فتعاد صنجة المخزن إلى الصنجة التى يتعامل بها المسلمون واليهود والنصارى فكتب بعض النواب إليه يقول إن هذا مبلغ كبير وقد حسبناه فوجدناه فى السنة الماضية (٣٥ ألف دينار) فأعاد الجواب ينكر على القائل ويقول لو أنه (٣٥٠ ألف دينار) يطلق وكذلك أيضاً فعل فى إطلاق زيادة الصنجة التى للديوان وهى فى كل دينار حبة - وتقدم إلى القاضى كل من عرض عليه كتاباً صحيحاً بملك يعيده إليه من غير إذن ومنها أن العادة كانت فى بغداد أن الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة فى الخليفة بما تجدد فى دربه من اجتماع الأصدقاء ببعض كل نزهة أو سماع أو غير ذلك ويكتب ما سوى ذلك من كبير وصغير فكان الناس من هذا فى حجر عظيم فلما ولى الظاهر أنه المطالعات على العادة فأمر بقطعها وقال أى غرض

لنا فى معرفة أحوال الناس فى بيوتهم فلا يكتب أحد لنا إلا ما يتعلق بمصالح دولتنا فليل لنا إن العامة تفسد بذلك ويعظم شرها قال إنا ندعوالله أن يصلحهم ومنها أنه لما ولى الخلافة وصل صاحب الديوان من واسط وكان قد سار إليها. أيام الناصر لتحصيل الأموال فأصعد ومعه ما يزيد على مائة ألف دينار وكتب مطالعة تتضمن ذكر ما معه ويستخرج الأمر فى حملة فأعاد الجواب بأن يعاد إلى أربابه فلا حاجة لنا إليه فأعيد عليهم. ومنها أنه أخرج كل من كان فى السجن وأمر بإعادة ما أخذ منهم وأرسل إلى القاضى عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كل من هو محبوس فى حبس الشرع وليس له مال.

ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والإحسان إلى الرعية فجدد من العدل ما كان دارساً وأذكر من الإحسان ما كان منسياً. وقبل وفاته أخرج توقيعاً على الوزير بخطه عن أرباب الدولة وقال الرسول: أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم أونفذ مثال ثم لا يبين له أثر بل أنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال. وقد قرئ التوقيع فإذا فى أوله بعد البسملة (اعلموا أنه ليس إمهالنا إمهالاً ولا إغضاؤنا إغفالاً ولكن لنبلوكم أياكم أحسن عملاً وقد عفونا لكم ما سلف من إخراج البلاد وتشريد الرعايا وتقييح الشريعة وإظهار الباطل الجلى فى صورة الحق الخفى حيلة ومكيدة وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستداراً كالأغراض التى انتهزتم فرصها مختلسة من برائن ليث باسل وأنياب أسد مهيب تنفقون بالفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمانؤه وثقاته فتميلون رأيه إلى هواكم وتمزجون باطلكم بحقه فيعطىكم وأنتم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أماناً وبفقركم غنى وبباطلكم حقاً ورزقكم سلطاناً يقيل العثرة ولا يؤاخذ إلا من أصر ولا ينتقم إلا من استمر يأمركم بالعدل وهو يريد منكم وبينهاكم عن الجور وهويكرهه لكم يخاف الله ويخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم فى طاعته فإن سلكتكم مسالك نواب خلفاء الله فى أرضه وأمانه على خلقه وإلا هلكتم والسلام).

ولم تتمتع الأمة بهذا الخليفة طويلاً فإنه لحق بربه قبل أن تمر سنة على خلافته.

المستنصر بالله

هو أبو جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر.

ببيع بالخلافة يوم وفاة والده (١٤ رجب سنة ٦٢٣) (١١ يولييه سنة ١٢٢٦) واستمر في الخلافة إلى أن توفي لعشرين خلون من جمادى الآخرة (سنة ٦٤٠) (٥ ديسمبر سنة ١٢٤٣) فكانت خلافته (١٧ سنة) إلا شهراً.

كان المستنصر شهماً جواداً يبارى الريح كرمياً وجوداً وله الآثار الجليلة في بغداد منها وهي أعظمها المدرسة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة وبني غيرها من القناطر والخانات والربط ودور الضيافة وكان يقول إنى أخاف ألا يثيبني الله على ما أهبه وأعطيه لأن الله تعالى يقول (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وأنا والله لا فرق عندي بين التراب والذهب.

ولما ولى سلك في الخير والإحسان إلى الناس سيرة أبيه وأمر فنودي ببغداد بإفاضة العدل، وأن من كانت له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته.

وفى عهده توفي ملك المغول الكبير جنكيز خان (سنة ٦٢٤) وحل محله في بلاد خراسان وما وراءها ابنه تولى خان فوسع مملكته إلى الغرب وأرسل فرقة إلى بلاد أذربيجان فملكها وأجلت عنها جلال الدين مكبرتي وخافهم أهل أذربيجان خوفاً شديداً ولم يكن أمامهم من يرد غائلتهم بعد جلال الدين الذي لم يجد له نصيراً لأنه وتر الملوك المجاورين له طراً.

قال ابن الأثير تعليقاً على هذه الحال (فما ترى من ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد ولا نصرة الدين بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندي من العدو) قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وكان مقتل جلال الدين في منتصف شوال (سنة ٦٢٨) قتل شريداً طريداً لم يفده هذا

الملك العظيم الذي ورثه عن أبيه، ويهلاكه تم للمغول ملك جميع البلاد الفارسية إلى حدود العراق ولم يتهياً للملوك أن يتفقوا ضد هذا العدو الشديد المراس بل كانوا فيما بينهم مختلفين يغير بعضهم على بعض عن عدوهم لاهون غافلون. صار العراق ينتظر النكبة منهم من آن لآن وخليفة بغداد مستسلم للحوادث مدل بمركزه الدينى.

المستعصم

هو أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر بن المستضيء بن المستنجد بن المقتضى بن المستظهر بن المقتدى بن محمد الذخيرة بن القائم بن القادر بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد بن طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور ففى آبائه سبعة عشر حليفة.

بويج بالخلافة بعد وفاة أبيه المستنصر بالله فى عاشر جمادى الآخر (سنة ٦٤٠) (٦ ديسمبر سنة ١٢٤٢) ولم يزل خليفة إلى أن قتل بين يدى هولاءكوخان فى (٢٠ محرم سنة ٦٥٦) (٢٧ يناير سنة ١٢٥٨) وبقتله انتهت الخلافة العباسية.

قال ابن طباطبا كان المستعصم رجلاً خيراً متديناً لين الجانب سهل العريكة عفيف اللسان والفرج حمل كتاب الله تعالى وكتب خطأ مليحاً وكان سهل الأخلاق وكان خفيف الوطأة إلا أنه كان مستضعف الرأى ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة مطموعاً فيه غير مهيب فى النفوس ولا مطلع على حقائق الأمور وكان زمانه ينقضى أكثر بسماع الأغانى والتفرج على المساخرة وفى بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة وكان أصحابه مستولين عليه وكلهم جهال من أرذال العوام إلا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمى فإنه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال وكان مكفوف اليد مردود القول يترقب العزل والقبض صباحاً مساءً.

حال التتار

قلنا فيما تقدم إن جنكيز خان لما حانت منيته قسم مملكته إلى أقسام أربعة بين أولاده ومنهم تولى خان الذى جعل له خراسان وما يؤمل أخذه من ديار العراقيين إلى منتهى حوافر خيولهم وقد استمر تولى فى مملكته الجديدة يتوسع فى الفتح ويمد بلاده إلى الغرب ويستنزى ملوك فارس عن تخوتها حتى توفى (سنة ٦٥٤) فى عهد المستعصم بالله وكانت حدود بلاده تنتهى عند بلاد العراق فخلفه فى الملك ابنه هولاءكوخان حفيد جنكيز خان فأهمه التوسع فى الفتح وأخذ بغداد وكان بها من يحب ذلك.

قال المؤرخون إن أهل السنة والشيعه الذين يتألف منهم جمهور البغداديين كانوا فى نزاع مستمر وقد أدى هذا النزاع بينهم إلى حروب وشدائد رائدها الجهل والغفلة عن المصالح وكان وزير المستعصم من رجال الشيعة فكان يسؤوه ما يلقيه أهل مذهبه من اضطهاد أهل السنة الذين هم الجمهور الأكبر يزيد فى مساءته أن أهل البيت العباسى كانوا يساعدون أهل السنة لأنهم عماد بيتهم والشيعة يريدون خروج الأمر منهم وقد حصل فى أواخر عهد المستعصم أن أغار أهل السنة على الكرخ وهو مملوئ بالشيعه فأهانوا أهله وأسرفوا فى قتلهم ونهب دورهم وكان ذلك بأمر أبى بكر أحد أولاد الخليفة المستعصم فيقال إن الوزير كاتب هولاءكو يحرضه على قصد بغداد ويطمعه فيها وجل رغبته أن تسقط الخلافة العباسية ولا يهيمه بعد سقوط عدوه من يولى الملك بعده فكانت تلك المكاتبه مما ساعد هولاءكو على تنفيذ رغبته وأكثر المؤرخين يتهمون ابن العلقمى بهذه التهمة الشنيعة حتى نقل ابن الوردى فى تاريخه ما يؤكد هذه التهمة وهو رسالة أرسلها ابن العلقمى إلى وزير إربل منها أنه قد نهب الكرخ المكرم وقد ديس البساط النبوى المعظم وقد نهب العترة العلوية واستؤسرت العصاة الهاشمية وقد حسن التمثل بقول شخص من غزية .

أمر تضحك السفهاء منها ويكى من عواقبها اللبيب

وقد عزموا على نهب الحلة والنيل بل سولت لهم أنفسهم أمراً فصبر جميل .

أرى تحت الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن لم تطفئها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعرى أيقاظ أمية أم نيام

ومنها

وزير رضى من حكمه وانتقامه بطن رقا حشوها النظم والنثر
كما تسجع الورقاء وهى حمامة وليس لها نهى يطاع ولا أمر
فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منا أذلة وهم صاغرون .

ووديعه من أسر آل محمد أودعتها إن كنت من أمثاتها
فإذا رأيت الكوكبين تقارنا فى الجدى عند صباحها ومسائها
فهنالك يؤخذ نثار آل محمد وطلابها بالترك من أعدائها

وكن لما أقول بالمرصاد وتأول أول النجم واحرص والله أعلم

وابن طباطبا العلوى يبعد هذه التهمة عن ابن العلقمى قال فى تاريخه وقد نسب الناس إلى أنه خامر وليس ذلك بصحيح ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته فى هذه الدولة فإن السلطان هولاءكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد إلى الوزير وأحسن إليه وحكمه فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه اهـ. والله أعلم بمقدار هذا البرهان فى الإنتاج.

سارت جيوش هولاءكو الجراة قاصدة بغداد وفى منتصف محرم (سنة ٦٥٦) نزل نفسه على باب بغداد وأعد عدة الحصار ولم يكن عند الخليفة ما يدفع به ذلك السيل الجارف واكتفى بإقفال الأبواب فجد المغول فى القتال حتى ملكوا الأسوار بعد حصار لم يزد على عشرة أيام وبملك الأسوار تم لهم ملك البلد.

ولما رأى الخليفة ذلك استأذن أن يخرج إلى هولاءكوفأمر هولاءكو أن ينزل باب كلواذى أحد أبواب بغداد وشرعت جنوده فى نهب تلك المدينة التى كانت حاضرة الإسلام كله ثم تقدم بإحضار الخليفة فأحضره ومثل بين يديه وقدم لهولاءكو جواهر نفيسة وآلئى ودرراً معبأة فى أطباق ففرق هولاءكو ذلك على أمرائه.

وفى رابع عشر صفر (سنة ٦٥٦) رحل عن بغداد واستصحب معه الخليفة فى أول مرحلة قتله هو وابنه الأوسط مع ستة نفر من الخصيان وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة من الخواص على باب كلواذى وبهذا القتل كسفت شمس الخلافة العباسية من بغداد بعد أن مكثت مشرقة (٥٢٤ سنة) واشتفت قلوب العلويين من بنى عمهم بما حل بهم من هذا الخراب والدمار.

أما بغداد دار الخلافة وعاصمة الملك فقد جرى عليها ما جرى على سواها من أمهات المدن الإسلامية فقد قتل معظم أهلها وقيل منهم من نجا وقد استبقى المغولى جماعة من الشيعة والنصارى وسكان بغداد بعد أن أفنى أكثر أهلها قوم جاءوا مع هولاءكو من أقطار شتى وصارت حاضرة دولة لا تدين بدين بعد أن كانت عاصمة المسلمين.

حالة الدولة الإسلامية

عند سقوط الدولة العباسية

- ١ - كانت بغرناطة من البلاد الأندلسية دولة بنى نصر والقائم بالأمر منها مؤسسها محمد الغالب بالله بن نصر (٦٢٩-٦٧١).
- ٢ - بشمال إفريقية دولة الموحدين والقائم بالأمر منهم أبو حفص عمر المرتضى بن إسحاق بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٦٤٦-٦٦٥).
- ٣ - وبالجزائر الدولة الزيانية والقائم بالأمر منهم بغمواسن بن زيان مؤسس الدولة (٦٣٣-٦٨١).
- ٤ - وبتونس الدولة الحفصية والقائم بالأمر منهم أبو عبد الله محمد المستنصر بالله أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص (٦٤٧-٦٧٥).
- ٥ - وبمراكش الدولة المرينية البحرية والقائم بالأمر منهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦-٦٧٥).
- ٦ - وبمصر دولة المماليك البحرية والقائم بالأمر منهم المنصور نور الدين على بن المعز عز الدين أيبك (٦٥٥-٦٥٨).
- ٧ - وباليمن الدولة الرسولية والقائم بالأمر منهم المظفر بن يوسف بن المنصور عمر بن على بن رسول (٦٤٧-٦٧٤).
- ٨ - وبصنعاء من أئمة الزيدية المتوكل شمس الدين أحمد (٦٥٦-٦٨٠).
- ٩ - وبالأروم من السلاجقة ركن الدين قليج أرسلان الرابع (٦٥٥-٦٦٦).
- ١٠ - وبمباردين من الدولة الأرتقية نجم الدين غازي السعيد (٦٣٧-٦٥٨).
- ١١ - وبفارس من الأتابكية السلغرية أبوبكر سعد بن زنكى بن مودود (٦٣٣-٦٥٨).
- ١٢ - وببلورستان من الأتابكية الهزراسبية دكلا بن هزارسب (٦٥٠-٦٥٧).
- ١٣ - وبكرمان من دولة قتلغ خان قتلغ خاتون (٦٥٥-٦٨١).

إجمالي القول في الدولة العباسية:

تولى العباسيون الخلافة الإسلامية (سنة ١٣٢) حيث بويح لأولهم أبى العباس عبد الله السفاح بالكوفة واستمرت خلافتهم إلى (سنة ٦٥٦) حيث سقط عبد الله المستعصم قتيلاً بين يدي هولاء كوخان المغولى من أعقاب جنكيز خان موحد التتر الخارج بهم إلى بلاد الإسلام. جاءت الرايات السود من المشرق فأقعدت بنى العباس على عرش بنى أمية وجاءت رايات التتر من المشرق فثلث عرشهم من بغداد زهرة المشرق وجنة الدنيا فمن المشرق أشرق كوكب سعدهم ومن المشرق ظهر نجم نحسهم استمرت خلافتهم (٥٢٤ سنة) استخلف فيها منهم ٣٧ خليفة فمتوسط ملك الخليفة منهم نحو (١٤ سنة) وأكبر مدة قام فيها خليفة عباسي (٤٦ سنة) وأقلها سنة فما دونها.

مكثت الدولة العباسية (١٠٠ سنة) لخلفائها الكلمة العليا والسيادة التامة على جميع العالم الإسلامي (ما عدا بلاد الأندلس) يقولون فيسمع لهم ويأمرون فيأتمر الناس ولا يجسر أحد على مخالفتهم والوقوف في وجه جنودهم إلا منافسيهم في القرب من رسول الله ﷺ وهم بنوعمهم من آل أبى طالب وبعض الخوارج الذين كانت تخبو نارهم حيناً وتلمع ثم تحبى القوة العباسية الهائلة على ذلك بسرعة.

وقام في هذا العصر الباهر من العباسيين ثمانية خلفاء وهم السفاح والمنصور والمهدي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق متوسط خلافة الواحد منهم اثنتا عشرة سنة ونصف وينتهي هذا الدور بوفاة الواثق (سنة ٢٢٢).

ثم جاء بعد ذلك قرن آخر من (٢٢٢ إلى ٣٣٤) أخذت الدولة فيه في النزول شيئاً فشيئاً وضعف تلك المكانة التي كانت لهم في نفس الأمم الإسلامية واجتروا الأمراء بالأطراف على الاستقلال وصار أمر العباسيين يضمحل حتى لم يبق بيدهم إلا العراق وفارس والأهواز وهذه مملوءة بالاضطراب والفتن وآل الأمر إلى أن يتولى بغداد مملوك تركي أوديلمي يطلق عليه أمير الأمراء له النفوذ التام والسلطان المطلق والولاية العامة وليس للخلافة من الأمر شيء.

قام في هذا العصر اثنا عشرة خليفة. وهم المتوكل والمتنصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر والقاهر والمتقى والمستكفي الذي ملك بنوبويه في آخر عهده. ومتوسط خلافة الواحد منهم ثمانى سنوات ونصف ولم يمّ منهم موتاً هادئاً إلا أربعة والباقيون خرجوا من الخلافة بين قتل ومخلوع. وكان استيلاء بنى بويه على بغداد (سنة ٣٣٤).

جاء بعد ذلك دور ثالث من (٣٣٤ إلى ٤٤٧) ليس للخليفة فيه إلا اسم الخلافة والسلطان الفعلي لأمة فارسية هي الأمة الديلمية التي يمثلها السلطان من نسي بويه يقيم ببغداد فصار الخليفة كأنه موظف لهم يتناول منهم ما يقوم بأوده وليس له تصرف ولا نفوذ يؤمر فيأتمر ويفعل ما يراد منه لا ما يريد وليس له على أنفس المالكين شيء من السلطان الديني لمبايئتهم له في العقيدة فقد كانوا شيعة غلاة يدينون بفضل عليّ وآل بيته على من عداهم وإنما رضوا ببقاء الخليفة العباسي ليكون أمره عليهم هيناً يسقونه متى رأوا في بقاءه خيراً لهم ويعزلونه أو يقتلونه متى رأوا في ذلك مصلحتهم.

وقد قام في هذا الدور المستكفي، والطيع والطائع والقادر والقائم ومتوسط مدة الخليفة منهم (٢٢ سنة ونصف) والقائم هو حلقة الاتصال بين هذا الدور والذي يليه والثلاثة الأولون من خلفاء هذا الدور خلعتهم بنوييه.

جاء بعد ذلك دور آخر من (سنة ٤٤٧) إلى (سنة ٥٩٠) انتقل السلطان الفعلي فيه إلى أمة تركية يمثلها سلطان من آل سلجوق يقيم ببلاد الجبل لا في بغداد وكان بنو العباس مع هذه الدولة أحسن حالاً منهم مع بني بويه فإن هؤلاء كانوا يحترموا الخلفاء تديناً وكانوا يبدون لهم من مظاهر التعظيم والإجلال ما يقضى به منصبهم الديني.

وقد ولى في هذا الدور المقتدى والمستظهر والمسترشد والراشد والمقتضى والمستنجد والمستضي ومتوسط خلافة الواحد منهم نحو عشرين سنة ونصف ولم يكن الخلفاء في هذه المدة على حال واحد فإنهم من عهد المسترشد شرعوا يستردون شيئاً من نفوذهم الفعلي في بغداد والعراق والذي ساعدهم على ذلك بعد آل سلجوق عنهم وتفرقهم ووقوع الحرب بينهم وقد تم استبدادهم بأمر العراق في عهد المقتضى وانقضت دولة السلاجقة (سنة ٤٩٠) على يد خوارزمشاه ونفوذهم في العراق قد اضمحل تماماً.

مكث العباسيون بعد سقوط الدولة السلجوقية (٦٦ سنة) لم يكونوا فيها تحت سلطان أحد بل كانوا مستقلين بملك العراق إلى أن قام المغول والتتر بحركتهم التي ابتدأت بأقصى تركستان وعصفت ريحهم على البلاد الإسلامية فأخذت أنفاس الدولة العباسية وأزالها من بغداد على يد هولاكو حفيد جنكيز خان (سنة ٦٥٦).

فللدولة العباسية أدوار:

١٣٢ - ٢٣٢

(١٠٠ سنة) عصر القوة والعمل من

٢٣٢ - ٣٣٤

(١٠٢ سنة) عصر استبداد المماليك الأتراك من

٤٤٧ - ٣٣٤	(١١٣ سنة) عصر استبداد الملوك من آل بويه من
٥٣٠ - ٤٤٧	(٨٣ سنة) عصر استبداد الملوك من آل سلجوق من
١٢٦ سنة	عصر استعادة العباسيين شيئاً من نفوذهم
٦٥٦ - ٥٣٠	السياسى مع تغلب القواد من
ونريد أن نوضح هنا الأسباب الرئيسية التى أدت بهذه القوة الهائلة إلى الضعف ثم التلاشى .	

١- ضعف عصبية الدولة

اعتمدت الدعوة الإسلامية من أول نشأتها على العصبية فهى التى كانت عماداً لتلك الدعوة وقد كان مما اهتم به صاحب الدعوة ﷺ القضاء على العصبيات الجزئية العربية وإحياء العصبية الكلية فقد ورد عنه كثير من الأحاديث التى تنهى عن دعوة الجاهلية وهى قولهم بالفلان وبعض هذه الأحاديث يخرج الداعى بدعوة الجاهلية عن الإسلام كقوله عليه السلام «ليس منا من دعا بدعوة الجاهلية» وسبب ذلك أن هذه العصبيات الجزئية تضعف من قوة المجموع الذى هو ناصر للدعوة ومؤيد لها وقاهر لمن وقف فى سبيلها وكانت نتيجة ذلك أن تأخى العدناني والقحطاني والمضرى والربيعى والقيسى والكناني - بعد أن كانوا أوزاعاً يكيد بعضهم لبعض وتتفانى قوتهم جميعاً أمام الأمم التى تحيط بهم وبذلك تكونت الأمة العربية . . . الدين كونها وهى نصرته حتى صار أحدهما مرادفاً للآخر فى نظر الأمم التى غالبها العرب على أمرها .

صارت الأمة العربية على ذلك فى صدر دولة الخلفاء الراشدين فصارعوا الفرس والروم وأجلوهم عن أعز أملاكهم واستولوا عليها تؤيدهم تلك الوحدة التى أنالها الدين قوة لا تقهر .

وكانوا مع هذه العصبية يرون لمن دخل فى دينهم من الأمم الأخرى ما لهم من الحقوق وعليهم ما على العرب من الواجبات إلا أنهم لا يدلون إليهم بالمناصب الرئيسية كولاية الولايات وقيادة الجنود وهذا أمر طبيعى لا يمكن مقاومته .

ولما حصلت الفرقة بين على ومعاوية لم تكن فرقة عناصر فقد كان مع كل من الرجلين رؤساء وأجناد . من جميع القبائل العربية اليمانيون هنا وهناك والتزاريون هنا وهناك وإنما كانت فرقة أثارها الدين . فى صدور قوم والتنافس فى الدنيا فى صدور آخرين وقد أدى

اختصاص كل من الخصمين العظمين بمكان أن انجلت الحرب على خلاف وتباغض مركزين الأمة العربية فإن عرب الشام أبغضت عرب العراق وعرب العراق أبغضت أهل الشام ونطق بذلك بعض شعرائهم وذلك ناتج من كراهة أهل العراق لمهاوية وكراهة أهل الشام لهلى وقد اضعف ذلك كثيراً من قوة العصبية العربية.

انتقل الأمر إلى بنى أمية وتولاه منهم معلوية بن أبى سفيان شيخ بنى عبد مناف فدانت له الأمة وألقت بأيديها إلا أن عرق العصبية الجزئية قد شرع ينبض بعد أن كاد الإسلام يقضى عليه وظهر على ألسنة الشعراء كلمات الفخر بما لقبائلهم من السابقة وحسن الأثر وقد اتضح ذلك وضوحاً جلياً بعد انتهاء البيت السفينى وعودة الانتقام أيام قام مروان بن الحكم منازعاً قرنه العائذ بالبيت وهو عبد الله بن الزبير فقد قام بمساعدة مروان عرب اليمن من كلب وغسان والسكاسك وناوآته قيس من عدنان فكان النصر لمروان واليمانية وأسرفوا قى قتل قيس فتأثرت بذلك أنفسها تأثراً تمكن منها حتى قال فى ذلك شيخ قيس وزعيمها زفر بن الحارث الكلابى كلمته التى أولها:

أرى الحـرب لا تزداد إلا تماديا

وفيهـا:

فلا تحسبونى إن تغيبت غافلاً ولا تفرحوا إن جثتكم بلقائيا

فقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

وفيهـا:

فلا صلح حتى تشحط الخيل بالقنا وتثأر من نسوان كلب نسائيا

اجتمع شيخان من شيوخ قيس وهما زفر بن الحارث وعمير بن الحباب السلمى بقرقيا وصار يطلبان كلباً واليمانية بمن قتلوا من قيس ثم نزل عمير بنواحي الجزيرة مجاوراً لتغلب ومعه عدد عظيم من قيس فأدى هذا الجوار إلى نزاع بين قيس وتغلب تبعته حروب حتى كتب زفر إلى عمير يقول له:

ألا من مبلغ عنى عميراً رسالة ناصح وعليه زارى

أتترك حى ذى يمن وكلباً وتجعل حد نايك فى نزار

كمعتمد على إحدى يديه فخائته بوهن وانكسار

وقتل فى بعض الأيام عمير بن الحباب .

وقد نطق شيطان التفريق على ألسنة الشعراء المتباينين فى الأنساب والمتقارنين بما يهيج الحزازات الكامنة لا يبالون ما يخرج من أفواههم ولا يدرون قيمة ما تؤثر به كلماتهم فكل ما أصلحه العقلاء أفسده هؤلاء وقد كان الأخطل التغلبى من شعراء تغلب ذوى الصوت المسموع فلما صالح زفر بن الحارث عبد الملك بن مروان وجاء بقومه فبايعوا قال الأخطل من كلمة لهم :

بنى أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هم آووا وهم نصروا
وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصاً فبايعوا لك قسراً بعد ما قهروا
ضجوا من الحرب إذ عضت غواربهم وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

وقال مرة بمحضر عبد الملك وعنده الجحاف بن حكيم السلمى القيسى :

ألا سائل الجحاف هل هوثائر بقتلى أصيبت من سليم وعامر
أجحاف إن تصطك يوماً فتصطدم عليك أواذى البحور الزواجر
تكن مثل أقذاء الحباب الذى جرى به الماء أوجارى الرياح الصراصر
لقد حان كل الحين من رام شاعراً لدى السورة العليا عل كل شاعر
يصول بمجر ليس يحصى عديده ويسدر منه ساجباً كل ناظر

فأجابه الجحاف على البديهة :

بل سوف نبكيهم لكل مهند وننعى عميراً بالرماح الشواجر

وسار الجحاف بعقب هذه الكلمة إلى تغلب فأوقع بها وقعة شديدة .

وقد قال هذا الشيطان الخبيث فى تلك الموقعة بعد أن أثار غبارها :

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة إلى الله منها المشتكى والمعمول
فسائل بنى مروان ما بال ذمة وحبل ضعيف لا يزال يوصل

وقال الجحاف :

أيا مالك هل لمتنى أوحضضتنى على القتل أم هل لامنى كل لائم
أمل أنكم قتلاً وأجدع أنوفكم بفتيان قيس والسيوف الصوامر

بكل فتى ينعى عميراً بسيفه إذا اعتصمت أيمانهم بالقوائم

حيث هذه العصبية الجزئية ولم تجد من الخلفاء من يقطع طريق غوها وكان الولاة بالأمصار قد مسهم طائف من شيطان هذه الجاهلية فكان الوالى اليمانى يحذب على قومه ويعطف عليهم وينصرهم ويوليهم النواحي وكذلك كان الربيعى والقيسى والتميمى وكان يظهر ذلك واضحاً فى الولايات البعيدة عن مركز الخلافة كخراسان ولا يخفى أن الدولة الأموية كانت تركز على العصبية العربية لأنها دولة عربية محضة فحياة ذلك النوع من العصبية مضعف للأمة وللدولة التى تركز عليها. وكان من الأمم التى ملكها العرب وذلت لهم الأمة الفارسية وهى أمة ذات تاريخ قديم يهمها أن تحى ما اندرس من تاريخها. رأت نفسها مستضعفة عن مناواة العرب والخروج من نير حكمها بوحدة عنصرية لأن كثيراً من الفرس كانوا قد دانوا للإسلام فمن الصعب تكوين قوة منهم تضاد العرب أو الإسلام فاتجه فكر قادة الأمة إلى صدمة العرب باسم الإسلام وكان بنو العباس إذ ذاك قد وجدت عندهم فكرة السعى لاسترداد حقهم من بنى أمية فرأوا من مصلحتهم الاعتماد على الفرس فى مساجلة بنى عمهم من بنى أمية وإنما لم يجعلوا عمدتهم على العرب لأميرين الأول أنه يصعب أن تروج بين جمهور العرب فكرة الخلاص من حكم بنى أمية لأن العرب لم يسوا بأذى من جانب تلك الدولة بل كانت فى الحقيقة دولتهم وبها عزهم والثانى أن شعب العرب قد انصدع باستعمار نار العصبية الجزئية بين قبائلهم فكان اليمانيون فى جانب والربيعون فى جانب والمضربون فى جانب. وأما الفرس فمن السهل إثارة عواطفهم إما بحكم العصبية العنصرية وإما بحكم الإسلام ورد الخلافة إلى نصابها من آل بيت محمد ﷺ وتأثير الأول فى الخاصة من أبناء الأمة الفارسية وتأثير الثانى فى العامة.

قامت الدولة العباسية وليس لها عنصرية تشد أزرها وتحمى بيضتها وإنما عصبيتها هؤلاء الموالى المصطنعون وعصبية الولاء أو الحلف قد تقوم مقام عصبية القرابة لولا ما يكدرها من ميل هؤلاء الموالى إلى استرجاع ما كان لأبائهم من المجد الذى يتوارثون ذكره. وقد وجد من هؤلاء الموالى فى بدء الدولة جماعة لهم قدم ثابتة فى الفارسية وفى الإسلام جعلهم العباسيون فى مقدمة من يعتمدون عليه.

لم يترك العباسيون فى مبدأ أمرهم عصبية العرب ولم يهملوا شأنها بل استعانوا بها لتكون لهم ملجأ إذ رأوا من الموالى نكوباً عن جادة نصرتهم وميلاً إلى الاستئثار بالسلطان دونهم فاصطنعوا كثيراً من رجال العرب وحماتهم من ربيعة واليمن ومضر إلى أنهم لم يلتفتوا إلى إزالة ما بين هذه القبائل من أسباب العداء والفرة بل بالعكس وجد منهم ما يدل على الميل على إثناء هذه الحمية ليستعينوا بفريق على الآخر.

لذلك كله يمكن أن نقول إنه لم يكن للدولة العباسية فى بدء حياتها عصبية قومية متحدة الاوصال وثيقة العرى وإنما كان الإسلام هو الذى يجمع بين تلك القوى والدين وإن كان جامعاً قوياً لكنه إن لم يكن مدعماً بعصبية قومية متحدة يضعف عمله واعتبر هذا بما قدمناه لك عن رسول الله ﷺ فقد كان مما اعتبره أساساً لقوته ومنبعاً لحياته إماتة العصبية الجزئية وسد الباب دون ذكرها والتلفظ بها.

كان بنو العباس يسندون أمر وزارتهم إلى رجل يختارونه من الموالى ويجعلون قيادة جنودهم إلى موالى وإلى عرب ولكنهم كانوا دائماً تحت تأثير الظنون والريب التى تحوم حول عقولهم من استبداد الموالى بالسلطان فمتى شمو من وزير أوقائد من الموالى الخراسانيين رائحة من ذلك عاجلوه وانظر ما فعله المنصور بقائد الدولة العباسية الأكبر أبى مسلم الخراسانى وزيره الأول ولأبى مسلم ماله من السابقة وحسن الأثر فى إحياء الدولة ولكن ذلك لم ينفعه أمام ريب أبى جعفر وغيرته على ملكه أن يشاركه فيه أحد ولا يمكن أن نبرئ أبى مسلم من قصد تحويل السلطان إلى قومه وليس بنو العباس فى نظره إلا واسطة لذلك فهو إذا عز مراده معهم يتحول بدون إبطاء إلى بنى عمهم من آل على. ولما قتل أبومسلم قام بالثار له قائد فارسى على دين قومه من الوثنية سنباد وجمع لذلك جموعاً عظيمة وكاد يزلزل بلاد خراسان لولا أن غولب بالعصبية العربية فإن أبى جعفر أعد له جمهور بن مرار العجلى وهو من رجال ربيعه فكسر قوته ويقال إنه قتل من قومه فى الموقعة نحواً من ستين ألفاً. وقام يطلب بثاره أيضاً الراوندية فى الهاشمية نفسها فوجلوا والذى كان الفارس المعلم فى يومهم قائد عظيم أيضاً من قواد ربيعة وهو معن بن زائدة الشيبانى.

والخلاصة أن الدولة العباسية ابتدأت على عصبية يتحد دينها وتختلف عناصرها ولبعض هذه العناصر أغراض لا تتفق مع سيادة الدولة وعظم شأنها ونفوذ خلفائها وهذه العناصر هى العنصر العربى وهو منشق قد كان ينسى العصبية القومية الكلية وصرع بتأثير العصبية الجزئية والثانى عنصر الموالى وأهمها أهل خراسان ولم يكن بين الفريقين التئام حقيقى لاختلاف الغرض الذى يرمى إليه كل منهما.

واقتصار العباسيين على وزراء من العنصر الآخر وهو الموالى كان متتجاً بطبيعته غلبة العنصر الذى هم منه ونيلهم حظاً فى الدولة لم يتمتع به مناظروهم من العرب فقد أشتهر من الموالى عدد عظيم فى الصدر الأول تمتعوا بالنفوذ والسلطان ونالوا من الألقاب أعلاها سوى لقب الخلافة وانظر إلى بيت خالد البرمكى وما وصل إليه يحيى بن خالد وأولاده فقد توسع الناس حتى أطلقوا عليهم ألقاف الملوك فى مخاطباتهم وفى القصائد التى مدحهم

بها ووردت إليهم خزائن الأرض وجبايات الأموال وتزلف إليهم الناس من كل صنف بغية القريب عندهم وأثر عنهم لدى الرشيد ميلهم وخاصة جعفرأ منهم كلمات تدل على أنهم يريدون التحول إلى بلاد خراسان ونزع الخلافة من آل عباس وتحويلها إلى آل على كما اتهم بذلك قبله أول وزير من الموالي وهو خالد بن سلمة الخلال ومع هذه التهمة السياسية كانت تتردد كلمات تدل على الغمز عليهم في دينهم نسبة الزندقة إليهم إلى غير ذلك مما يثير الظنون التي لا بد منها في دولة لا تعتمد على عصبية قومية .

ولا مراء في أنه كان لبعض هذه الأسرة غرض من حمل الرشيد على البيعة لولده المأمون بولاية العهد بعد البيعة لأخيه الأمين وكان الداعي إليها هوجعفر بن يحيى بن خالد البرمكى وكان الذى ظنه الرشيد هجس في نفسه أن البرامكة سوف يحرشون بين الأخوين ليفرقوا بينهما حتى يحارب أحدهما الآخر وينتفعون هم بنتيجة ذلك وهذا سبب من الأسباب الكثيرة التي منشؤها تمكن الريية من مواليهم وحذرهم منهم ولذلك لم نر وزيراً عباسياً تمكن من حياة هادئة ذات ختام هادئ بل كانوا كلهم عرضة لهذه النكبات من ضياع الأموال واغتصاب النفوس ولا يمكن أن يكون سبب ذلك المال وحده بل إن المنازع السياسية وميل الموالي إلى استرداد عز الآباء كان له دخل كبير .

انتهت حياة الرشيد والمغالبة شديدة بين العنصرين الكبيرين اللذين هما دعامة الدولة يلجأ الخلفاء إلى أحدهما كلما رابهم من الآخر شئ إلا أنه قلما نسب إلى المصطفين من العرب فكرة خيانة الدولة وإرادة تحويلها عن آل العباس أو استهانة بوعدهم أو غدر بمن ائتمنهم وإنما كانت العيوب التي تسند إلى بعضهم وتدفع الخلفاء إلى عقوبتهم هي التقصير في أعماله وعدم أخذ الحيلة لها .

جاءت الوقائع بين الأمين والمأمون فكان من نتيجتها ازدياد قوة العنصر الخراساني لأن قوة المأمون ارتكزت عليه وظهر البيت الطاهري وهو أول بيت من الموالي منح خراسان على طريقة الاستقلال . والذى كان يزيد في قوة هذه العناصر أن المأمون وأخاه المعتصم كانا يميلان إلى الاستكثار من شبان الأتراك الذين كانوا يفدون على بغداد بكثرة يقدمهم ملوك ما وراء النهر وآل طاهر ومن هؤلاء الشبان من كان يشتري بالمال ومنهم من كان ذا بيت عريق في قومه فقدم بغداد ليستزيد عزاً بحلف هذه الدولة الكبيرة وولائها ولم تزل هذه الوفود تتوارد توارداً مطرداً حتى كان زمن المعتصم وقد تألفت منهم جيوش ظن الخليفة أنه يعتمد عليها في إقامة دولته ويستغنى عن العرب وعصبية العرب وعن أبناء خراسان أيضاً أما العرب فلأمر ما كان هو وأخوه قليل الاعتماد عليهم ويظهر أن ذلك كان للاختلاف الشديد

بين قبائلهم وأما الأبناء أو الموالى الخراسانيون فقد كثرت منهم الدالة على الخلفاء وخرج كثير منهم عن طاعتهم لذلك خلقت فكرة اصطناع هؤلاء الموالى الأتراك ظناً من الخلفاء أنهم ليس لهم آمال يريدون تحقيقها وأن الخلفاء متى اصطفوه أمكنهم الاعتماد عليهم والاستغناء عن عداهم لشجاعتهم وقوة أجسامهم وهذا خطأ غريب ربما كانت الدولة العباسية أول من وقع فيه وهو أن تعتمد دولة من عنصر على عنصر آخر في تأييد قوتها مع أن هذا العنصر يباينها في الأخلاق وفي العادات ويذكر وطنه الذى يتنمى إليه ولا ينسأه إن هؤلاء الأتراك الذين اصطنعوا لم ينسوا لغتهم ولا بلادهم فمن البديهي أن يكون صفوهم إليها وميلهم لها وقد كان فيهم من هو ذو بيت عريق في قومه يميل إلى أن يكون كما كانوا من العز والاستثمار بالنفوذ كما كان الأفشين حيدر بن كاوس فقد كان أبوه ملكاً لأشروسنة وكان هو معظماً في قومه حتى كانوا فيما يخاطبونه يدعونه بإله الآلهة.

زرع المعتصم وأخوه هذه العنصر الجديد في الدولة وما دريا أنهما بعملهما هذا قد سلما عز الخلافة إلى غلمان الأتراك يتصرفون فيها إشارة رؤسائهم الذين منحهم المعتصم حق قيادة الدولة ولو كان هؤلاء الرؤساء متحدى الأغراض يسعون لغاية واحدة لكانت المصيبة أعظم ولكن كانوا على غير ذلك حتى إن الأفشين لما علم عنه أنه يعد العدة للرحيل إلى المشرق حتى يستولى على خراسان وما وراءها من بلاد ما وراء النهر ويؤسس هنالك مملكة تركية عظيمة كان الذين وشوا به من الأتراك الذين لا يرون لهم أن يستأثر الأفشين بهذا الملك العظيم.

كان في حياة هذا العنصر الجديد ضعف العنصر العربى ضعفاً عظيماً فتفرق قبائل وعصائب وعاد الكثير منها إلى موطنها في القفر والصحراء والذين بالمدن لم تبق لهم عصبيات يستندون في حياتهم إليها وكذلك ضعف الموالى الخراسانيون لضعف ثقة الخلفاء فاختلف التوازن بين عناصر الدولة ووجد غلمان الأتراك أنفسهم منفردين بالملك مستأثرين به. وليس أمام الخلفاء إلا هم فاستحكم نفوذهم وصاروا هم الأمرين حتى امتدت أيديهم إلى حياة الخلفاء وإلى أموالهم وإلى كل شئ عندهم وخضع الخلفاء لهذه القوة التى لم يجدوا أمامهم ما يردها من العرب ولا من الأبناء العنصر الذى كان أول الخلافة شراً وأما هذا فهو نهاية الشرور.

كان تغلب هذا العنصر ولعبه برقاب الخلفاء من بنى العباس ذا نتائج سيئة فإنه أضعف صولة الخلفاء وقلل من قيمة أقوالهم وأوامرهم وأما فى الأطراف فقد رأى الولاة أن قد آن لهم أن يستقلوا بما تحت أيديهم لأنهم ليسوا أقل من أتراك بغداد الذين استأثروا بالنفوذ فى

عاصمة الخلافة نفسها ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى صارت الدولة العباسية (فى منتصف القرن الثالث) محاطة بدول مستقلة فى الإدارة عن سلطان الخلفاء وتدفع عنها شر اعتراض الجمهور وغضب الخلفاء بإعلان الدعوة لهم على المنابر وكتابة أسمائهم (أحياناً) على السكة وإرسال شئ من المال والهدايا إلى بغداد قد حصل ذلك فى المغرب والمشرق والجنوب والشمال فى آن واحد ولا قبل للدولة بإرسال الجنود لإعادة الحكم العباسى الفعلى إلى تلك الولايات لأن غلمان الأتراك قلما يهتمهم ذلك ما داموا آخذين بحلاقيم الخلفاء فى حاضرة الدولة فاضطر بنو العباس إلى الرضا بما بذل لهم.

صار المتغلبون يقتلون وينزع بعضهم الولاية من بعض ولا عمل للخلفاء إلا أن يصدرُوا منشور الولاية للغالب الظافر وقد حاول بعض هؤلاء المتغلبين وهو يعقوب بن الليث الصفار أن يستولى على قلب الخلافة ويزيل عنه المتغلبين عليها من الأتراك لولا ما ظهر من تشدد أبى طلحة الموفق الذى كان ولى العهد وصاحب السلطان فى عهد المعتمد على الله والذى أحيا فيه تلك القوة أن العنصر المستولى على الدولة هو عنصر الأتراك نفس بعضه على بعض ما أتيح له من الغلب والسلطان والمال فضعف أمرهم وطلب كثير منهم أن يتولى قيادة الجيش أحد أفراد البيت المالك وكان الموفق أقرب إليهم فانتخب لقيادة الجيش فنجح فى إحياء شئ من قوة الخلافة إلا أن الداء عضال لا يمكن حسمه وذلك الداء هوفقد الدولة للعصبية القومية التى يمكن الاعتماد عليها فكانت هذه القوة كالبرق الخلب لا يلبث أن يزول ويضمحل أمره. فإن الضعف عاد بعد الموفق وابنه المعتضد إلى أشد بما كان كنكسة المريض عسير برؤها شديد أثرها واستمرت الخلافة الإسمية لبنى العباس والسلطان الحقيقى لما بقى بأيديهم من البلاد للأتراك إلى أن تحرك عنصر جديد من بلاد الديلم يقوده ثلاثة إخوة من بيت عريق فى الشرف القومى وهم أولاد بويه فانتزعوا السلطان من الأتراك ببغداد وجعلوا ملك العراق لواحد منهم يتصرف فيه والخليفة يأتمر بأمره لم يكن هؤلاء القوم يدينون بإمامة بنى العباس ومع ذلك فقد أبقوا عليهم لأمرين: الأول: مرضاة الجمهور البغدادى فقد كان معظمه يدين بإمامتهم ويفضلهم على آل على. والثانى: أن الخليفة العباسى يسهل خلعه متى أحسوا به يحاول خلع النير عن عنقه لأنه لا مانع دينياً بمنعهم من ذلك. أما الخليفة العلوى فإنه يصعب عليهم أن ينالوا منه شيئاً وربما نال منهم بقوته الدينية هكذا لعبت السياسة بالعقيدة فأضاعت أثرها ومع ما ناله الديلم من هذا السلطان فإنهم لم يهملوا العنصر التركى الذى كان كثيراً بحاضرة الخلافة بل اعتمدوا عليه حتى كان بعض الملوك من آل بويه يفضل الأتراك على الديلم.

وفى أوائل المائة الخامسة ظهر بالمشرق عنصر جديد دخل فى الإسلام حديثاً وفارق وطنه

متجهاً إلى بلاد المغرب وهو عنصر الغز من أتراك ما وراء سيحون على رأسه بيت عظيم الفخار ممتاز عندهم بالشرف والمجد وهو البيت السلجوقي قاد هذا البيت جماعة الغز إلى بلاد خراسان ولم تقدر الدولة التي كانت بأطراف المملكة الإسلامية على صده فلم يزل حتى امتلك بغداد وأزال عنها ملوك آل بويه وكان هذا العمل على رغبة الخلفاء من بني العباس لأنهم كانوا ميالين إلى إزالة الدولة الديلمية التي كانت غالية في تشيعها والإدلاء بالأموال إلى دولة أخرى تدين بإمامتهم واحترامهم وقد استمر العراق تحت سلطان آل سلجوق حتى دب إليهم ما دب من قبلهم من داء الخلف والانقسام فكان ذلك مشجعاً لبني العباس إلى اليقظة من هذا السبات الطويل وامتلاك أعنة الخيل والتصرف بما تحت يدهم من البلاد العراقية ولم يكن لهم ما يعتمدون عليه من العصية إلا بقايا مواليهم من المماليك فأعادوا في العصر المتأخر ما كان عليه سلفهم في منتصف القرن الثالث.

وقد استمر الحال على ذلك حتى خرج سيل المغول الجارف وأزال الدولة العباسية من المشرق كله.

من ذلك يفهم أن أساس الاضطراب كان سائراً مع هذه الدولة من بدء نشأتها وهو فقد العصية القومية التي يعتمد عليها إلا أن توازن القوى في الأول حفظ للخلفاء نفوذهم فلما اختل هذا التوازن اختل معه هذا النفوذ. والمقام الديني هو الذي ظل حافظاً لهذه الدولة من الفناء مع هذا الضعف المتوالى.

٢- مناهضة العلويين

لا مرأى في أن كون الخليفة من آل بيت النبوة أحب إلى قلوب الجمهور من الأئم الإسلامية وهم لهم أطوع، لأن المؤثر الديني يكون مستحكماً ولذلك صادفت الدعوة إلى أهل البيت نجاحاً عظيماً في صدر المائة الثانية من الهجرة.

وكان أهل البيت الذين لا يعدوهم هذا الأمر من يبتين اثنين كل منهما يسابق الآخر في القرب من رسول الله ﷺ فأما أحدهما فهو البيت العباسي الذي ينتمي إلى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وعاصبه الوحيد عند وفاته وأما الثاني فهو البيت العلوي الذي ينتمي إلى علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته فاطمة.

وقد حاول البيت الثاني أن ينال الخلافة قبل العباسيين في عهد بني أمية ففشل قام الحسين بن علي مطالباً بها فقتل دونها وقام حفيده زيد بن علي بن الحسين فقتل دونها بالكوفة وقام علي أثره ابنه يحيى بن زيد فكانت نتيجة كآيبه، ذلك مع ميل الجمهور العراقي لهم وعطفه عليهم.

أما العباسيون فقد أحكموا أمرهم واستعانوا بأهل خراسان في إحياء بيتهم وكانت الدعوة إليهم مبهمة في أول الأمر لا يزيد الداعي في دعوته على أنه يدعو للرضا من آل محمد ﷺ إلا أن الدعاة والنقباء يعرفون صاحب الدعوة باسمه وشخصه وكانت النتيجة تمام النجاح وساعدهم ضعف عصية خصومهم فرقوا عرش الخلافة وقضوا على بنى أمية.

حرك ذلك من غير بنى عمهم منهم وحسدهم لهم ومن المعلوم أن جمهوراً كبيراً كان يؤثر العلويين ويتولاهم دون العباسيين وكان بنو العباس على علم من ذلك يرون أن كل فتق جاءهم من غير ناحية العلويين فهو سهل الرتق والتلافي أما هؤلاء فهم الخصم الذي يخاف جانبه لأنهم يشاركونهم في السبب الذي قامت عليه خلافتهم وهو القرب من رسول الله ﷺ ، وربما كان لهم في نظر الجمهور الشيعة ما يفضلهم على العباسيين وهو ولادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإذا دعوا إلى أنفسهم أحدثوا في العصية التي قامت عليها الدولة انقساماً ولا يدري حينئذ لمن تكون الغلبة.

لما كانت المدينة النبوية هي مقام أبناء على من بنى حسن وحسين راقبهم العباسيون سراً وإذا كان موسم الحج جمعهم الخليفة وهو أبو العباس السفاح فأغدق عليهم العطايا ومنحهم الهبات يريد بذلك لفت أنظارهم عن الدرجة العليا وهي درجة الخلافة ويربهم أن خلافة بنى عمهم تحذب عليهم وتنسيهم أيام الشدائد التي مرت عليهم في عهد أسلافهم من بنى أمية، إلا أن ذلك المعروف الجميل لم يكن إلا معزراً لدواعي الغيرة والحسد وازدياد الشعور بضياح ذلك الحق الذي هم أولى به وإذا كان غصب الأجنبي الحق مؤلماً للنفس فرويته عند القريب أشد إيلاًماً ولا سيما إذا ظن من ضاع حقه أنه يجد من يساعدونه على نيله.

كان أول صدع صدعت به الدولة العباسية خروج محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية بالمدينة وكان كثير من أهل خراسان ينتظر قيامه ولولا ما ظهر من شجاعة أبي جعفر المنصور ومضاء عزيمته وأخذ بالاحتياط في مصادرة موارده لزلزلت جوانب الخلافة العباسية ولكن تلك الصفات من المنصور قضت على محمد بن عبد الله وعلى أخيه إبراهيم الذي ثار بالبصرة.

وكانت نتيجة ذلك أن اشتدت ريبة العباسيين من بنى عمهم فضيقوا عليهم وشددوا المراقبة على المعروفين منهم وأرهقوا الجند في استطلاع أخبارهم فتباعد الأمر واشتدت الجفوة ورأى بنو العباس أنفسهم مجبورين على نبذ فكرة التشيع التي أسسوا عليها دولتهم وصاروا يجنحون إلى تقديم الشيخين أبي بكر وعمر على بنى علي بن أبي طالب بعد أن كان دعائهم يقدمونه عليهما وأشدت تطلع العلويين إلى قلب الدولة العباسية ليخرجوا من حرج

الضيق الذى نالهم وساروا كالطائر المحبوس فى قفسه يحاول التخلص منه على غير هدى كما فعل الحسين بن علىّ الذى ثار بمكة فى مدة الهادى (سنة ١٦٩) فحيل بينه وبين مراده وقتل بفخ بالقرب من مكة.

أفلت من تلك الموقعة إدريس بن عبد الله وأخوه يحيى فاتحه الأول غرباً ماراً بمصر ومخترقاً شمال أفريقيا حتى أتى المغرب الأقصى فحذب عليه من به من البرابرة وبايعوه بالخلافة وأسس هناك دولة الأدراسة فى طرف الدولة من الغرب واتجه الثانى نحو المشرق وذهب إلى نواحي الديلم إلا أن قربه من مركز الخلافة حتم عليه الفشل. وقد أظهرت حوادث هذين الأخوين أن من موالى العباسيين وصنائعهم من هواه مع العلويين كواضح مولى بنى العباس الذى كان على بريد مصر فإنه هو الذى سهل لإدريس المرور من أرض مصر مع معرفته به وجعفر بن يحيى البرمكى الذى سهل ليحيى بن عبد الله طريق الإفلات من يد الرشيد فكان ذلك مما دعا الرشيد إلى أن يربى على من كان قبله فى النفور من العلويين وكراحتهم والتشديد فى عقوبة من يتهم بالميل إليهم وشدة التضييق على من بقى بالمدينة منهم وجاء بموسى الكاظم بن جعفر الصادق إلى بغداد ليقم تحت نظره.

ظهر الجرح بجنب الدولة العباسية واجترأت أمة من الأمم الإسلامية وهى أمة البربر بالمغرب الأقصى أن تخرج عن طاعتهم معتقدة أنها نالت خطأ أعلى من حظ سائر الأمم لأنها ظفرت برجل من آل البيت النبوى ومن أبناء ابنته واضطر الرشيد أن يزرع بأفريقيا دولة الأغالبة ومقرها القيروان كما يفعل من رأى حريقاً بجزء من جداره يجتهد أن يفصل بين ما تناولته النار وبين سائر البيت وهذا ما فعله الرشيد.

جاء المأمون فرأى خطر العلويين محدقاً بالدولة ماذا رأى: رأى كثيراً من أبناء الدعوة ورجال الدين يميلون إلى العلويين ويكرهون ما ينالهم من الشرف فأراد أن يتقرب إليهم ببعض ما يرغبون فيكسر من حدتهم ويضعف من قوتهم فاختر منهم علىّ الرضا الذى يتولاه أكثر شيعة آل علىّ وولاه عهده ويظن أنه فعل ذلك إرضاء للحسن بن سهل وزيره الأكبر ومدبر أمره وصاحب الفضل الأعظم فى سوق الخلافة إليه وإخراجها عن أخيه الأمين وكان الحسن يتشيع وينسب إلى الزندقة أيضاً ولكنه رأى أن النتيجة لم تكن على ما يرغب فإنه وإن أرضى العلويين بهذا العهد قد أغضب العباسيين أصحاب الدعوة فثاروا ضده ببغداد وخلعوه واختاروا من بينهم عمه إبراهيم بن المهدي فلم يكن أمامه ما يربأ به هذا الصدع إلا أن احتال فى التخلص من الحسن بن سهل بأن وضع له قوماً تناولوه بأسيا فهم ثم مات بعقب ذلك على الرضا فنسب قوم ذلك إلى المأمون أيضاً والقرائن تساعدهم ولكن ليس عندنا من الأدلة ما يقوى هذه التهمة.

عادت الأمور بعد موت هذين إلى مجراها ورجع أهل بغداد إلى المأمون وانحرفوا عن عمه. ظل المأمون بعد ذلك على ولاء العلويين والتشيع لعلّ بن أبي طالب وأعلن ذلك في كلامه وفي كتبه حتى إذا رأى منهم الميل إلى الخروج والثورة شرع يعاملهم بمثل ما كان يعاملهم به أبوه بعد ثورة اليمن فأمر ألا يدخلوا عليه واضطر لأن يجارى أبه في الاحتياط فأسس دولة باليمن تشبه دولة الأغالبة بإفريقية وهي الدولة الزيدية والغرض من الدولتين واحد.

واتبعوا طريقة الحجر على أئمة الشيعة وأمرهم إياهم بالإقامة بمرأى منهم في بغداد أوفى سامرا بعد اختطاطها.

ولم يكن الخلفاء معهم على سيرة واحدة فقد كان المتوكل على الله بن المعتصم على غير ما كان عليه أبوه وعمه من الإحسان إلى العلويين والتصريح بتفضيل علىّ على غيره من شيوخ الصحابة وكان في ذلك على سيرة جده الرشيد إلا أنه زاد عليه فقد كان يصرح في مجالسه بانتقاص علىّ بن أبي طالب وبيح للمجان من جلسائه الهزء والسخرية به ويكره كل من عرف بالتشيع إلى العلويين ويؤذيهم في أنفسهم وأموالهم ويقدم الشعراء الذين يتطرفون في قصائدهم فينتقصون آل علىّ ويفيض عليهم بالهبات الوافرة. وهدم قبر الحسين بن علىّ ونهى الناس عن زيارته وشد في ذلك تشديداً عظيماً فكان الناس من ذلك في همّ وحزن حتى إن شاعره الكبير أبا عبادة البحتري لما مات وولى المنتصر وكان على غير طريقة أبيه مع العلويين مدحه بذلك فقال:

رددت المظالم واسترجعت	يداك الحقوق لمن قد قهر
وآل أبي طالب بعد ما	أذيع بسرهم فاندعر
ونالت أدانيهم جفوة	تكاد السماء لها تنفطر
وصلت وشوابك أرحامهم	وقد أوشك الحبل أن ينبتر
فقربت من حفظهم ما نأى	وصفيت من شربهم ما كدر
وأين بكم عنهم واللقا	ء لا عن تباه ولا عن عفر
قرابتكم بل أشقاكم	وإخوانكم دون هذا البشر
ومن هم وأنتم يدا نصرة	وحدا حسام قديم أثر
يشاد بتقديمكم في الكتاب	وتلى فضائلكم في السور

وإن علياً لأولى بكم وأزكى يداً عندكم من عمر
وكان له فضله والحجو ل يوم التفاضل دون الفرر
بقيت إمام الهدى للهدى تجدد من نهجه ما دثر
مع أن البحترى له فى المتوكل المدح الجليلة والمراثى المؤثرة.

ثم أكل على ثلثة أخرى فى سياج الدولة من الجهة الشمالية الشرقية بتأسيس الحسن بن زيد دولته فى الديلم ولم يفلح بنو العباس فى القضاء عليه فاشتد الحرق عليهم من الشرق والغرب وفتحت العيون التى كانت تغضى حياء وتخاف تدنياً.

رأى العلويون فى النصف الثانى من القرن الثالث أن ينظموا صفوفهم ويمهدوا لقلب الدولة العباسية بالدعوة لها فسنوا لذلك نظاماً خاصاً عرف بنظام الدعوة ساروا فى ذلك على أثر الدعوة العباسية إلا أنهم حلوها بشيء من المقدمات وبعثوا دعائهم إلى جميع الأقاليم الإسلامية غرباً وشرقاً ولما تهيأ لهم الأمر أهبوا نار الثورة والاضطراب بشكل مريع على يد القرامطة فزلزلوا جوانب الدولة وحالوا بينها وبين عمل أى شيء يمكنها من القضاء عليهم وفعلوا فى الإسلام ما لم يخطر ببال مسلم أن يقوم به مما قدمنا ذكره. ثم قام على أثرهم الفاطميون بأفريقية فاستولوا عليها وعلى الجزائر والمغرب الأقصى ثم مدوا سلطانهم على مصر وسوريا والحجاز واليمن وشواطئ الفرات وكادت نارهم تطفح وجه الدولة العباسية وقد حصل أن اتخذ أحد الثوار العراقيين هذه الدعوة ذريعة إلى التمكن من الأمر وخطب فعلاً للعلويين على منابر بغداد نحو سنة.

وكان العباسيون لما رأوا أنفسهم عاجزين عن دفع هذا العدو للدود عنهم اشتغلوا بما لا يفيد من الطعن فى نسب العلويين المصيرين وكتبوا فى بغداد محضراً وقع به العلماء والفقهاء وكبار بنى هاشم وقالوا فيه إن نسب العبيدين بمصر غير صحيح وأنهم أدياء ملعونون مع أنه نسب للشريف الرضى نقيب الطالبين ببغداد قوله:

ما مقامى على الهوان وعندى مقول صارم وأنف حى
وإياء محلق بى عن الضميم كما راغ طائر وحشى
أى عذر له إلى المجد إن ذ ل غلام هم عمده المشرفى
ألبس الذل فى ديار الأعادى وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه ومولاه ومولا ي إذ ضامننى البعيد القصى
لف عرقى بعرقه سيد النا من جميعاً محمد وعلى

إن ذلى بذلك الجوعـز وأومى بذلك النفع رى
 قد بذل العزيز ما لم يشمر لانطلاق وقد يضام الأبى
 إن شراً على إسراع عزمى فى طلاب الملا وحظى بطى
 ارتضى بالأذى ولم يقف العزم م قصوراً ولم تعمز المطى
 كالذى يخطب الظلام وقد أقمر من خلفه النهار المضى

ولما اشتهر عنه عتب الخليفة القادر بالله على والده فانكرها ولم يشبتها فى ديوانه وهى مشهورة عنه ومن طراز شعره وعلى الجملة فإن مثل هذه الأشياء لم تقدم فائدة ما .

ومما زاد الأمر بلية أن بنى بويه الذين استولوا على بغداد فى منتصف القرن الرابع كانوا شيعة فأباحوا للشيعة الظهور فى بغداد بما يشتهون من العادات التى كانوا يفعلونها يوم عاشوراء فقد كانوا يجعلونه يوم حزن يخرج النساء فيه حاسرات نادبات لاطمات ينعين الحسين بن على رضى الله عنه وغير ذلك من العادات وصار الناس يتقربون إلى السلطان بالشيعة .

وفى أوائل القرن السادس ظهرت فئة الباطنية بفارس وبالشام فأرهبوا الناس وأفسدوا الدول وتمكنوا من اغتيال بعض خلفاء بنى العباس .

واستمر هذا النزاع السياسى بمصر حتى سقطت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب واستمر مع الباطنية بفارس والشام . واستمر مع أهل بغداد حتى ليقال إن السبب فى هيج التتار وإغرائهم على أخذ بغداد هو حادثة اعتداء وقعت من أهل السنة على محلة الشيعة وهى الكرخ .

من ذلك ترى أن النزاع بين العباسيين وآل على استمر من أول خليفة إلى آخر خليفة وكان ذلك سبباً من أسباب ضعف الدولة بعد ما تقدم ذكره من خلل العصية التى كانت عمدة العباسيين .

ويمكن أن يعد هذا السبب من متممات السبب الأول

٢. ضعف قيمة العهد

الوفاء بالعهد خلق عربى حافظ عليه العرب فى جاهليتهم وبذلوا دونه أموالهم وأنفسهم وأبناءهم عرف لهم ذلك من جاورهم من الأمم كالفرس والروم وحوادثهم فى ذلك مأثورة

قد حفظتها بطون الصحف ولستأ بصدد أن نقتصمها. لما جاء الإسلام أيد هذا الخلق وأمر به أمراً حتماً لا هوادة فيه. قال تعالى في سورة الإسراء ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ (الإسراء: ٣٤) وقال ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (النحل: ٩١) إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي شددت في وجوب الوفاء بالعهد واعتباره أساساً يقوم عليه الأمة الإسلامية وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدون كما يعلم من استقراء تواريخهم وكذلك نحا بنو أمية هذا المنحى لأن العنصر العربي كانت له المكانة فيها بل يصح أن يقال أنه كانت دولة عربية محضة وقد اعتد الناس على عبد الملك بن مروان فعلته التي فعلها مع سعيد بن العاص حيث قتله بعد أن عاهده على تأمين حياته وقالوا إنها أول غدر في الإسلام وسأل عبد الملك أحد كبار رعيته من شيوخ العرب عن رأيه فيما فعل مع سعيد فقال حسن لو قتله وحيت فقال عبد الملك أولست بحى فقال الشيخ العربي حياة من لا يوثق له بعهد ولا عقد، فانظر كيف عد العربي هذه الحياة كلا حياة ولم يصل إلى علمنا في هذه الدولة حوادث أخرى من هذا القبيل لأن الأمة كانت لها رقابة شديدة على خلفائها.

لما جاءت الدولة العباسية وقد ظهرت على أيدي عنصر غير عربي ظهر منها لأول نشأتها حوادث متكررة تدل على أنه ليس للعهود في نظر خلفائها قيمة فقد قتل المنصور في حياة السفاح ابن هبيرة بعد أن أمن أماناً لا شك ولا حيلة فيه وكان الذي أشار بقتله أبو مسلم الخراساني مشيد الدعوة العباسية وكانوا لا يحبون أن ينفذوا أمراً دون مشورته، ثم أعاد المنصور هذه الرواية نفسها مع أبي مسلم بعد أن أمنه ثم فعل مثل ذلك مع عمه عبد الله بن عليّ بعد أن أمنه وأعلن رضاه عنه ولذلك لما كاتب المنصور محمد بن عبد الله بن الحسن وقال إنه يعطيه الأمان أجابه محمد بقوله وأما أمانك الذي عرضت فأى الأمانات هو أمان ابن هبيرة أم أمان أبي مسلم أم أمان عمك عبد الله ابن عليّ والسلام وهذه كلمة شديدة الوقع سيئة التأثير لأنها وصمة عار كبيرة لمن هو قائم مقام رسول الله ﷺ في حراسة دينه وسياسة الأمة.

وهذا الذى حصل فى صدر الدولة كان مجزئاً لمن أتى بعد ذلك أن يحاولوا التخلص مما تقضى به العهود إذا رأوها مخالفة لمصالحهم ولا سيما العهود التى تعقد لتولى الخلافة فإنهم جعلوها من الأشياء التى يسهل حلها إن كان بعضهم يحاول أن يلبس باطله ثوب الحق. فعل ذلك المنصور مع عيسى بن موسى الذى عقد له السفاح الخلافة بعد المنصور فقدم عليه ابنه محمداً المهدي وهذا التقديم وإن كان قد تم بطلب عيسى ورضاه إلا أننا نعرف كيف توصل المنصور إلى الحصول على هذا الرضا من الإساءات المتكررة لعيسى والتهديد

المتواصل حتى همَّ الرجل أن يخلع طاعة المنصور ويفتن الأمة وفي رأى أنه لو وجد نصراء لفعل وإن كان قد أثر عنه شعر يفيد أنه آثر مصلحة الأمة على مصلحة نفسه وهو قوله:

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما إما صغار وإما فتنة عجم
وقد هممت مراراً أن أساجلهم كأس المنية لولا الله والرحم

وفعل المهدى مثل ذلك معه فعزل عن العهد بالمرة وقد ارتكب من الوسائل ما ارتكبه.

وفعل الأمين ذلك مع أخيه المأمون فأدى ذلك إلى الفتنة الشعواء التي كانت بين (سنة ١٩٤) إلى (سنة ١٩٨) قاست الأمة في أثنائها مصاعب هائلة ولم يوجد منهم من هاب ذلك الفعل محافظة على العهود والمواثيق ومن البديهي أن أمثال هذه العهود ليست قاصرة على المتنازعين بل تتعداهم إلى القواد والأمراء فهؤلاء ينشقون أيضاً ويستسهلون الإقدام على فك تلك القيود التي حلفوا الأيمان الوثيقة على الوفاء بها.

كتب الرشيد أماناً ليحيى بن عبد الله وأكد فيه غاية التأكيد ولما ارتاب منه صار يبحث في الوجوه التي يبطل بها الأمان وجعل فقهاء وقته الوسطة في ذلك فمَنعهم من أبت عليه شيمته ودينه أن يسترسل في الدين مع الأهواء ومنهم من سارع إلى هوى الخليفة وصار يبدى الأوجه التي ينتقض بها الأمان.

كل هذا من العيوب التي شقت عصا البيت وتعدت إلى فرقة الأمة فأضعفت عصبية الدولة وآل الأمر بخلفائها إلى أن تكون قوتهم مستمدة من المتغلبين عليهم.

وقد بقيت أسباب أخرى ثانوية يمكن استنتاجها مما تقدم في التاريخ التفصيلي والله تعالى أعلم.

(تم بعون الله تعالى)

فهرس المحتويات

٧	الدولة العباسية
٧	البيت العباسى
٧	العباس بن عبدالمطلب
٩	عبدالله بن العباس
٩	على بن عبدالله بن العباس
١٠	محمد بن على
١١	كيف نشأت فكرة الخلافة فى بنى العباس
١٧	تأليف الجمعية السرية للدعوة
١٩	العصر الأول (من سنة ١٠٠ إلى سنة ١٢٧)
٢٤	دور العمل
٢٧	افتضاح الأمر
٣٣	وصف المملكة الإسلامية حين اتسلاء بنى العباس
٣٣	١ - جزيرة العرب وتشتمل على أربع كور جليلة
٣٥	٢ - إقليم العراق وبه ست كور
٣٦	٣ - إقليم الجزيرة
٣٦	٤ - إقليم الشام وبه ست كور
٣٧	٥ - إقليم مصر وبه سبع كور على حسب التقويم القديم
٣٧	٦ - إقليم المغرب وهو ثمانى كور
٣٧	٧ - إقليم المشرق
٣٧	(أ) وبهذا القسم ست كور
٣٩	(ب) خراسان وبها تسم كور

- ٨ - إقليم الديلم به خمس كور ٤٠
- ٩ - إقليم الرحاب وهو ثلاث كور ٤٠
- ١٠ - إقليم الجبال وبه ثلاث كور ٤٠
- ١١ - إقليم خوزستان ويعرف بالأهواز وبه سبع كور وهى ٤١
- ١٢ - إقليم فارس وبه ست كور ٤١
- ١٣ - إقليم كرمان وبه خمس كور ٤١
- ١٤ - إقليم السند وبه خمس كور ٤٢
- فصل فى ولاية العهد والبيعة ٤٣
- ١ - السفاح ٤٨
- الأحوال الداخلية ٤٨
- ولاية العهد ٥٤
- وفاة السفاح ٥٥
- ٢ - المنصور ٥٦
- الأحوال عهد المنصور ٥٦
- عبدالله بن على ٥٧
- أبو مسلم ٥٩
- محمد بن عبدالله وبنو الحسن بن على ٦٢
- إبراهيم بن عبدالله ٦٩
- أبو أيوب سليمان بن أبى سليمان مخلص المورى ٧٢
- الربيع بن يونس ٧٣
- الجيش ٧٤
- حاضرة الخلافة ٧٧
- الأحوال الخارجية ٧٩
- صفات المنصور وأخلاقه ٨٠
- كيف كان يقضى وقته ٨٠
- كيف كان خلقه فى بيته وخارجه ٨٠

٨١	الجد فى بلاطه
٨١	كيف كان يهتم بعماله
٨٢	ثباته عند الشدائد
٨٤	اقتصاده
٨٤	وفاة المنصور
٨٦	٣ - المهدي
٨٦	بيعة المهدي
٨٧	الحال فى عهد المهدي
٨٨	الوزارة
٩١	الأحوال الخارجية
٩٢	غزو الهند
٩٣	صفات المهدي
٩٤	ولاية العهد
٩٤	وفاة المهدي
٩٥	٤ - الهادي
٩٥	الحال فى عهده
٩٦	ثورة الحسين بن على
٩٨	صفات الهادي
٩٩	ولاية العهد
١٠١	٥ - الرشيد
١٠١	الحال فى عهده
١٠٢	الطالبين
١٠٣	إدريس بن عبدالله
١٠٣	الخارجون عليه من غير العلوين
١٠٥	خطر المشرق
١٠٩	وزراء الرشيد

١٠٩	أسرة البرامكة
١١٦	نكبة البرامكة
١٢٢	حادثة عبد الملك بن صالح
١٢٥	العلاقات الخارجية
١٢٥	مع الروم
١٢٩	العلاقة مع أوروبا
١٢٩	حضارة بغداد في عهد الرشيد
١٣٣	الخراج
١٣٥	موارد بيت المال
١٣٥	الغنائم
١٣٦	مصرف الخمس
١٣٦	الخراج
١٣٧	وظيفة الأرض الخراجية
١٣٨	ما فعله عمر في أرض الخراج
١٤١	تقبل الأرض
١٤٢	القطائع
١٤٣	موات الأرض
١٤٤	المورد الثاني من موارد الخراج جزية أهل الذمة
١٤٥	المورد الثالث من موارد الخراج العشور
١٤٦	مصاريف بيت مال الخراج
١٥٠	مصارف الزكاة
١٥١	٦ - الأمين
١٥١	الحال الداخلية لذلك العهد
١٦٣	صفات الأمين
١٦٦	٧ - المأمون
١٦٧	الأحوال في المدة الأولى

المأمون ببغداد	١٧٤
الوزارة فى عهد المأمون	١٧٤
الأحوال الداخلية	١٧٩
إبراهيم بن المهدي	١٨٠
نصر بن شيث	١٨٢
الزط	١٨٣
بابك الخرمى	١٨٤
الخراج فى عهد المأمون	١٨٧
الأقاليم والجباية من الدراهم والدنانير	١٨٨
الجيش	١٩٠
القواد العظام فى عهد المأمون	١٩١
العلم فى عهد المأمون	١٩٣
وفاة المأمون	٢١٣
ولاية العهد	٢١٣
٨ - المعتصم	٢١٤
الأحوال فى عهد المعتصم	٢١٤
وزراء المعتصم	٢١٥
العلويون فى عهد المعتصم	٢٢٠
الجيش	٢٢٠
الخراج	٢٢٥
العلاقات الخارجية	٢٢٧
صفات المعتصم	٢٣٠
وفاة المعتصم	٢٣١
ولاية العهد	٢٣١
٩ - الواثق	٢٣٢
وزراء الواثق	٢٣٢

٢٣٢	الجيش
٢٣٤	نكبة الكتاب فى عهد الوراق
٢٣٦	العلاقات الخارجية - الفداء بين المسلمين والروم
٢٣٦	صفات الوراق
٢٣٦	وفاة الوراق
٢٣٨	١٠ - المتوكل
٢٣٩	وزراء الدولة
٢٤٢	العلويون
٢٤٣	الجيش
٢٤٦	الدولة اليعفرية
٢٤٧	العلاقات الخارجية
٢٤٨	صفات المتوكل وأخلاقه
٢٥٠	ولاية العهد
٢٥١	مقتل المتوكل
٢٥٣	١١ - المنتصر
٢٥٣	الجيش
٢٥٤	صفات المنتصر
٢٥٥	وفاة المنتصر
٢٥٦	١٢ - المستعين
٢٥٦	كيف انتخب
٢٥٧	الوزارة فى عهد المستعين
٢٥٨	العلويون فى عهد المستعين
٢٦٠	الجيش
٢٦٣	الأحوال الخارجية
٢٦٥	١٣ - المعتز
٢٦٥	وزراء المعتز

٢٦٦	العلويون فى عهد المعتز
٢٦٦	حال الجيش والأترك
٢٦٩	خاتمة المستعين سلف المعتز
٢٧٠	خلع المعتز
٢٧٢	١٤ - المهتدى
٢٧٢	كيف انتخب
٢٧٢	وزراء المهتدى
٢٧٤	صفات المهتدى
٢٧٧	١٥ - المعتمد
٢٧٨	الأحوال الداخلية
٢٨٠	العلويون
٢٨٤	دعى آل على
٢٨٧	الاضطراب فى الشرق
٢٩٠	السامانيون
٢٩٢	أحمد بن طولون
٢٩٣	الحوادث الخارجية
٢٩٤	ولاية العهد
٢٩٤	صفات المعتمد
٢٩٥	١٦ - المعتضد
٢٩٦	وزراء الدولة
٢٩٨	اضطرابات الجزيرة
٢٩٩	القرامطة
٣٠١	أمر الشرق
٣٠٢	أمر المغرب
٣٠٣	صفات المعتضد
٣٠٦	وفاة المعتضد

- ١٧ - المكتفى ٣٠٧
- وزراء المكتفى ٣٠٧
- الأحوال فى عهده ٣٠٨
- خبر المشرق ٣١٣
- خبر المغرب ٣١٣
- العلاقات مع الروم ٣١٣
- وفاة المكتفى ٣١٤
- ١٨ - المقتدر ٣١٥
- كيف انتخب ٣١٦
- محمد بن عبيدالله بن خاقان ٣١٨
- على بن عيسى ٣١٩
- حامد بن العباس ٣٢٣
- عبدالله بن محمد بن عبيدالله بن يحيى بن خاقان ٣٢٥
- أبو العباس الخصى ٣٢٥
- أبو على بن مقله ٣٢٦
- سليمان بن الحسن ٣٢٦
- أبو القاسم الكلوزانى ٣٢٧
- الحسين بن القاسم ٣٢٧
- أبو الفتح الفضل بن حجر هو آخر وزرائه ٣٢٨
- أمر القرامطة ٣٢٨
- المتغلبون وما كان منهم ٣٣١
- قتل المقتدر ٣٣٣
- ١٩ - القاهر ٣٣٥
- كيف انتخب ٣٣٥
- الحال فى عهد القاهر ٣٣٥
- ٢٠ - الراضى ٣٣٨
- الحال فى عهده ٣٣٨

٣٤٢	أمر القرامطة
٣٤٤	٢١ - المتقى
٣٤٤	كيف انتخب
٣٤٤	الحال فى عهده
٣٤٧	٢٢ - المستفى
٣٤٧	الخلافة العباسية تحت سلطان آل بويه
٣٥٦	٢٣ - المطيع
٣٦٢	حال الثغور الإسلامية فى عهد المطيع
٣٦٦	موت المطيع
٣٦٧	٢٤ - الطائع
٣٧٣	٢٥ - القادر
٣٧٣	معاصرو القادر من الملوك
٣٧٨	فى المشرق
٣٧٩	الدولة السبكتينية
٣٨٤	٢٦ - القائم
٣٨٦	آل سلجوق
٣٩٥	الحادث العظيم ببغداد
٣٩٩	٢٧ - المقتدى بأمر الله
٤٠١	وفاة المقتدى
٤٠٢	٢٨ - المستظهر بالله
٤٠٢	حال الممالك الإسلامية فى عهده
٤٠٦	الباطنية
٤١١	خطر المغرب
٤١٥	٢٩ - المسترشد بالله
٤١٩	٣٠ - الراشد بالله
٤٢٠	٣١ - المقتفى لأمر الله
٤٢١	الأتابكية
٤٢١	١ - شاهات خوارزم
٤٢٢	٢ - الدولة الأرتقية
٤٢٣	٣ - أتابكية دمشق

- ٤ - أتابكية الموصل ٤٢٤
- ٥ - أتابكية سوريا ٤٢٥
- ٦ - أتابكية سنجار ٤٢٦
- ٧ - أتابكية الجزيرة ٤٢٦
- ٨ - أتابكية إربل ٤٢٦
- ٩ - أتابكية أفريجان ٤٢٧
- ١٠ - أتابكية فارس (الدولة السلفرية) ٤٢٧
- ١١ - أتابكية لورستان (الهزارسية) ٤٢٨
- شاهات أرمينية ٤٢٩
- الدولة الغورية ٤٣٠
- ٣٢ - المستنجد بالله ٤٣٤
- ٣٣ - المستضىء بالله ٤٣٥
- ٣٤ - الناصر لدين الله ٤٣٦
- حال الممالك الإسلامية لعهد ٤٣٦
- الحادث العظيم في البلاد الإسلامية ٤٣٧
- خروج المغول إلى البلاد الإسلامية ٤٣٩
- ٣٥ - الظاهر بأمر الله ٤٤٥
- ٣٦ - المستنصر بالله ٤٤٧
- ٣٧ - المستعصم ٤٤٩
- حال التتر ٤٤٩
- حال الدولة الإسلامية ٤٥٢
- عند سقوط الدولة العباسية ٤٥٢
- إجمال القول في الدولة العباسية ٤٥٣
- ١ - ضعف عصبية الدولة ٤٥٥
- ٢ - منافسة العلويين ٤٦٣
- ٣ - ضعف قيمة العهود ٤٦٨

أبو علي الكردي
منتدى سور الأزيكية

وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُمْ لَمَّا نَادَوْا أَنِ اسْعَوْا لِرَبِّكُمْ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
فَخَرَجَ مِنْهُمْ خُمُودٌ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا نَارُ اللَّهِ الَّتِي وَدَّ اللَّهُ أَن يُضِلَّ بِهِ الْبَاطِلَ
وَيُضِلَّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَلَا تَعْزِمُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا هُتَاتٍ

